


جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة إحياء التراث الإسلامي

المُقْتَبَس

مِنْ أَنْبَاءِ أَهْلِ الأَنْدَلُس

لابن حيّان القرطبي

حققه وقدم له وعلق عليه
الدكتور محمود علي مكي

القاهرة
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم الأستاذ : محمد أبو الفضل إبراهيم

رئيس لجنة احياء التراث الاسلامى

تعدّ تلك الحقبة التى عاشها العرب فى الأندلس ، وأظل الإسلام ربوع هذه البلاد ، ونشر فيها أعلامه وبسط سلطانه ، من أعظم الحقب فى تاريخ الإسلام وأكملها حضارة ، وأحفلها بصنوف العلوم والفنون والآداب ؛ ازدهر فيها الشعر والنثر ، وتألّق الفن ، وغصّت قرطبة وطليطلة وإشبيلية بالمدارس والمعاهد وخزائن الكتب ، وزخرت هذه البلاد برجالات العلم والفلسفة والغناء ؛ وهرع إليها العلماء من كل حدب وصوب ، يحملون كتبهم وأسفارهم ويحاضرون بمعارفهم وآدابهم ، وألّفت الكتب فى التفسير والحديث والتصوف والفلسفة والطب والفلك والرياضة والنبات ، بما أثرت به المكتبة العربية ثراء لايدانيه ثراء .

إلا أنه بجانب ذلك ــ وعلى مضىّ الزمن ــ تعاور على هذه البلاد كثير من الفتن والأحداث والخطوب ؛ ومازال يستفحل أمرها ، ويعظم شرّها وشررها ؛ ويفت فى عضدها ؛ حتى انتهى الأمر بانحسار الإسلام عن هذه البلاد وخرست الألسن العربية فيها ؛ وانطفأت مشاعل حضارة دامت عدة قرون ، فى مأساة حزينة مؤلمة . وتبع هذه المحنة ضياع كثير من الكتب والأسفار والدواوين ، وفيها أكرم ما نضحت به القرائح ، وأسمى ما أثمرته العقول .

وفى عصرنا الحديث أخذ العرب يتلفتون نحو تراثهم فى هذه البلاد ،ويبحثون عما بقىَ من الكتب فى أمكنة وجودها شرقا وغربا ، وكلما عثروا على كتاب أقبلوا على دراسته ، أو تنافسوا فى نشره وتحقيقه ؛ اعتزازا بذلك التراث المجيد ، وإحياء لذكرى هذا الفردوس الإسلامى المفقود ، كما كان يسميه بعض الباحثين .

ومن الكتب الأندلسية العتيدة التى امتدت إليها يد الحدثان ؛ كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس لشيخ مؤرخى الأندلس أبى مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان ، المعروف بابن حيان القرطبى ؛ إلا أن الأقدار شاءت أن تفلت أجزاء منه من الضياع ؛ قطعة منه عثر عليها المستشرق الفرنسى بروفنسال وقام بنشرها ، وأخرى عثر عليها الراهب الأسبانى الأب ملنشور أنطونيا ونشرها فى باريس ، وقطعة ثالثة قام بنشرها الأستاذ عبد الرحمن حجى فى بيروت .

وقرأ كثير من العلماء والباحثين هذه الأجزاء المتفرقة ، فوجدوا فيها من صدق الحسّ وحسن التعبير وسموّ الأسلوب وأمانة المؤرخ ، ماتمنوا معه المزيد من الكشف عن هذا الكنز الثمين .

وكان من نصيب العالم الفاضل الدكتور محمود على مكى الحصول على قطعة مخطوطة أخرى مما لم ينشر من قبل ، تنتظم أحداث السنوات الأخيرة من إمارة عبد الرحمن الأوسط ابن الحكم ومعظم إمارة محمد بن عبد الرحمن ؛ فقام بتصويرها ثم تحقيقها وتقويم نصوصها ؛ حتى أمكن أن تبدوَ فى هذه الصورة المشرقة الجميلة ؛ وقدم لها مقدمة مسهبة ، فى التعريف بابن حيان وأسرته وثقافته وآثاره ، ومنزلته بين مؤرخى الإسلام عامة ومؤرخى الأندلس خاصة ؛ ووشّاها بالمعارف الأندلسية النادرة ذات الطابع العلمى الأصيل ؛ ثم قام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بنشر هذا المخطوط ، مشاركة منه فى إحياء تراث الأندلس الخالد .

والدكتور محمود على مكى من أفاضل العلماء الذين عنوا بتاريخ الأندلس وآدابه فى العصر الحديث . وقد تهيأ له بفضل تلك المدة الطويلة التى قضاها فى هذه البلاد ، باحثا ودارسا ، وواقفا على آثارها ، متجوّلا فى شتى جهاتها ، مطلعا على مكتباتها – ما لم يتهيأ لغيره من العلماء والباحثين . ثم ألف ودرّس وحاضر ؛ وكتب البحوث الجليلة ، ونشر النصوص النادرة حتى إنه ليعدّ الآن مرجعا فى كل ما يتعلق بالأندلس وتاريخها وآدابها ورجالها .

وهذا القدر الذى بنى عليه التحقيق يقع فى ثلاثة أجزاء ؛ نسأل الله أن يوفق لإتمامه ويعين .

ابن حيّان القرطبي

٣٧٧-٤٦٩ هـ : ٩٩٧-١٠٧٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يتفق الكثيرون من الباحثين على أن أبا مروان حيان بن خلف بن حيان يعد من أعظم مؤرخي الإسلام ، وهو بغير شك أعظم مؤرخ أنجبته الأندلس ، بل والغرب كله — الإسلامي والمسيحي منه على السواء — طوال العصور الوسطى ، ولانستثني من هذا الحكم إلا فيلسوف التاريخ أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون الذي يعتبر في تاريخ الفكر الإنساني كله ظاهرة فذة غريبة .

ومع ذلك فإن الذي يتأمل ماوصل إلينا من أخباره يجده قليلا لايتناسب مع هذه المكانة العالية التي اعترف بها لابن حيان أهل عصره ومطالعو كتبه من القدماء والمحدثين . فأصحاب معاجم التراجم من أمثال ابن بشكوال ومن نقل عنه ، كالعهد بهم لايكادون يفردون لمن يترجمون له إلا سطوراً تنص على سنة مولده وسنة وفاته وعلى من قرأ عليه من الشيوخ ، ثم من تلمذ عليه وعناوين بعض كتبه ، ولا أكثر من ذلك . صحيح أن هذه الكتب قد حفظت لنا خلال تلك المادة الجامدة الصماء بعض ماهو مفيد ، ولكنها لاتكاد تضيف شيئاً نعرف به المترجم له بوصفه إنسانا اضطرب في الحياة ، وعرك تصاريفها ، وذاق حلوها ومرها ، وشارك في نوع من النشاط الفكري أهلته له شخصيته وطبيعته وتكوينه . ومن أسف أن ابن حيان بمفهومه العميق النابض بالإحساس لما تعنيه كتابة التاريخ ، لم يترجم لنفسه كما فعل بعض المؤرخين قبله وبعده ، ولو أنه فعل لقدم لنا صورة حية صادقة لنفسه كما قدمها لمن عرفه واتصل به من شخصيات عصره ، ولكانت تلك وثيقة بالغة القيمة . ومن يدري ؟ فلعله كتب عن نفسه بمثل التفصيل الذي كتب به عن أهل عصره ، ولكن تلك الصفحات ضاعت كما ضاع معظم ماكتبه هذا المؤرخ الفذ .

ولايبقى علينا بعد ذلك إلا أن نجمع من تلك السطور المتناثرة هنا وهناك في كتب مؤلفين لم يفهموا معنى الكتابة التاريخية كما فهمها ابن حيان لكي نقيم منها بناء ترجمة تقريبية لحياته الخصبة الطويلة التي كادت تقارب قرنا من الزمان :

١ ـ خلف بن حسين كاتب المنصور
والد بن حيـــان :

من حسن الحظ أن ابن بشكوال أقدم مترجم لابن حيان قد احتفظ لنا بنسبه كاملا ، فقال إنه: « أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان بن وهب بن حيان مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ؛ من أهل قرطبة ، وأضاف ابن بشكوال إلى ذلك : «كذا قرأت نسبه وولاءه بخطه »(١) .

وكثيراً ماتفيدنا هذه الأنساب الكاملة بشيء ، إذا تتبعنا ما يرد هنا وهناك فى كتب التراجم من سطر أو سطرين عن أحد أجداد المترجم له ، مما قد يلقى ضوءاً على حياته أو مايحتمل أن يكون قد ورثه عن بعض أجداده من صفات . ولكن المؤسف هنا هو أننا لم نجد شيئاً على الإطلاق عن أحد من جدود ابن حيان المتقدمين . وكل مايفيدنا به هذا النسب الذى قرأه ابن بشكوال مكتوبا بخط ابن حيان نفسه هو أن جده الأعلى وهب بن حيان أو حيانا أباه كان مولى للأمير عبد الرحمن بن معاوية مجدد الدولة المروانية فى الأندلس ومؤسس ذلك الملك العتيد الذى أدرك مؤرخنا أوج عظمته السياسية والعسكرية على عهد العامريين ، ثم رآه وهو يتمزق فى أعقاب الفتنة البربرية ويموت موتا بطيئا تحت وطأة الحرب الأهلية العاتية .

ولايخلو هذا النسب من بعض فائدة ، فنحن نعرف منه أن أسرة ابن حيان قد ارتبطت منذ قديم بالأسرة المـالكة المروانية عن طريق هذا الولاء الذى كان يجمع بين وهب بن حيان والأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل .

على أن الأندلس عرفت أنواعا كثيرة مختلفة من الولاء ، ولانعرف إلى أيها تنتمى هذه العلاقة بين أجداد ابن حيان والبيت الأموى المـالك ، وأغلب الظن أنه كان ولاء اصطناع ، وأن ابن حيان كان من أسرة إسبانية قديمة من تلك الأسر التى قامت بتأييد الأمير الأموى « صقر قريش » فاصطنعها هو وأبناؤه من بعد . فابن حيان إذ يؤكد هذا الولاء إنما يفخر به ويعتبره من دلائل الشرف وكرم الأبوة ، لا كما يمكن أن يسبق إلى الوهم لأول وهلة من مظنة الغضاضة .

---

(١) ابن بشكوال : كتاب الصلة ، ط . القاهرة سنة ١٩٥٥ ، ترجمة رقم ٣٤٥ .

غير أن أسرة ابن حيان لم تكن مع ذلك من نوع تلك البيوتات الكبيرة من بيوت الموالى التى ترددت فيها الخطط والمناصب ، فنحن لانعرف أن أحداً من أجداده قد ولى منصباً كبيراً فى الدولة ، ولهذا فيغلب على ظننا أنهم — على الرغم من ولائهم الأموى — كانوا من طبقة صغار الموظفين ، لاهم إلى غنى ولا هم إلى فقر ، وإنما كانوا أقرب إلى أن يعيشوا ميسورى الحال فى نطاق الطبقة الوسطى من طبقات الشعب الأندلسى .

وأول من نعرف أنه ولى منصبا ذا شأن فى أسرة ابن حيان هو والده أبو القاسم خلف بن حسين بن حيان القرطبى ، فهو أول من نجد له ترجمة خاصة فى بعض كتب الطبقات(١) .

ونعرف مما ذكره ابن الأبار فى المادتين اللتين اختص بهما خلف بن حسين أنه ولد سنة ٣٤٠هـ (٩٥١ — ٩٥٢م) فى قرطبة ودرس بها ، على أن الشيخ الوحيد الذى ينص ابن الأبار على أنه قرأ عليه هو عالم القراءات المشهور أبو الحسن الأنطاكىّ .

ويستحق هذا العالم منا وقفة متريثة ، إذ تبين لنا أنه قد ترك فى نفس تلميذه والد ابن حيان أثراً عميقاً ، وباشر نفوذاً كبيراً فى تشكيل شخصيته وصقلها حتى أبلغه مرتبة من أعلى مراتب الدولة كما سنرى .

كان أبو الحسن على بن محمد الأنطاكىّ — كما يقول عنه مترجمه وتلميذه ابن الفرضى (٢) — عالما بالقراءات القرآنية رأسا فيها وفى علم الحديث ، فضلا عن بصره بالعربية والحساب والفقه على مذهب الشافعى ، وكان مولده فى سنة ٢٩٩هـ (٩١١ — ٩١٢م) بأنطاكية ، ودخل الأندلس فى سنة ٣٥٢هـ (٩٦٢م) فنزل من الحكم المستنصر بالله ومن الناس منزلة رفيعة ، وكانت وفاته فى سنة ٣٧٧هـ (٩٨٧م) .

وقد اتجه خلف بن حسين منذ شبابه إلى هذه العلوم القرآنية ، فدرسها على الشيخ أبى الحسن

---

(١) ابن الأبار : كتاب التكملة لكتاب الصلة ، نشر فرانسسكو كوديرا ، مدريد سنة ١٨٨٩ ، ترجمة رقم ١٤٩ ؛ وإعتاب الكتاب ، بتحقيق الدكتور صالح الأشتر ، دمشق سنة ١٩٦١ ، ص ١٩٨ .

(٢) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، نشر فرانسسكو كوديرا ، مدريد سنة ١٨٩٠ ، ترجمة رقم ٩٣٢ ؛ وانظر كذلك المقرى : نفح الطيب ، بتحقيق الشيخ محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة سنة ١٩٤٩ ، ٤ — ١٤٠ .

الأنطاكيّ ، ويذكر ابن الأبار أنه كان حسن الصوت إلى حد أنه كان من بين من عينهم الشيخ للقراءة يوم زاره الخليفة نفسه الحكم المستنصر بالله . وهذه الإشارة مقتضبة إلى حد يجعلها غامضة بعض الشيء ، فلسنا نعرف ظروف تلك الزيارة التى قام بها الخليفة نفسه لهذا الشيخ ، غير أنه يبدو لنا أن أبا الحسن الأنطاكى كان يقوم بتدريس العلوم القرآنية فى مدرسة خاصة ، وأنه كان قد انتخب عدداً من شباب الطلبة ممن امتازوا بجمال الصوت وحسن الأداء أعدهم نماذج لإتقان القراءة . ولابد أن هذه الزيارة المنوه بها تمت بين سنتى ٣٥٢هـ (٩٦٣م) وهى سنة قدوم الشيخ أبى الحسن إلى الأندلس و ٣٦٦هـ (٩٧٦م) سنة وفاة الحكم المستنصر ، أى وهو فى سن تتراوح بين اثنى عشر عاما وستة وعشرين .

كذلك يستوقف نظرنا ماجاء فى ترجمة الأنطاكى من أنه كان بصيراً بالعربية والحساب والفقه على مذهب الشافعى ، فهو يدل على أن هذا العالم المجوّد لم تقتصر ثقافته على العلوم القرآنية بل كان متعدد جوانب المعرفة ، وكان لذلك أطيب الأثر فى تكوين شخصية تلميذه خلف ابن حسين وتفتيق روحه وحثه على أن تكون له ثقافة إنسانية عامة ، وسنرى كيف يرث مؤرخنا حيان عن أبيه ذلك التفتح والطموح إلى الأخذ من كل مورد من موارد الثقافة .

وللاشارة إلى بصر الأنطاكى بالحساب قيمة خاصة ، إذ يبدو لنا أنه أورث تلميذه هذا الاهتمام بالعلوم الرياضية ، فابن الأبار فى ترجمته لخلف بن حسين ينص على أنه كان « ماهراً فى الحساب بصيراً بالمساحة »(١) ، وقد كان هذا بالذات هو الذى أزلفه إلى المنصور بن أبى عامر حتى جعله من كتابه المقربين .

ولابد أن أسرة خلف بن حسين كانت على قدر من الثروة حين عهدت بتأديبه إلى الشيخ أبى الحسن الأنطاكى القادم من المشرق والذى كان ذا حظوة من الخليفة نفسه ، ويؤكد لنا ذلك مانعرفه عن زميل من زملاء الدراسة لخلف بن حسين ، هو أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيرى الذى كان من أحد بيوت الشرف فى الأندلس ، والذى قدر له أن يصبح رفيقا لخلف بن حسين فى الكتابة للمنصور بن أبى عامر وإن كان قد اتجه إلى كتابة الترسيل والأدب ، بينما اختص خلف بكتابة « الحسبانات » أى أعمال الإدارة والمال .

---

(١) التكملة ، ترجمة رقم ١٤٩ .

ولسنا نستبعد أن يكون الحكم المستنصر فى زيارته تلك للشيخ أبى الحسن قد توسم فى خلف بن حسين من المواهب ومخايل الذكاء ماحمله بعد على تقريبه ، ولعله عهد إليه بمنصب يتلاءم مع فتائه وصغر سنه . وليست لدينا أخبار مؤكدة عن حياة والد ابن حيان خلال هذه السنوات ، ولكن مانعرفه من حظوته لدى المنصور يحملنا على أن نعتقد أن يكون قد سبق ذلك تدرج منه فى بعض وظائف الدولة على أيام الحكم المستنصر :

وقد مر المنصور بن أبى عامر نفسه بهذا الدور ، إذ أنه صعد السلم من أوله حتى أصبح بعد ذلك هو الحاكم بأمره فى الأندلس كلها باسم الخليفة الطفل هشام المؤيد بن الحكم ، ولعل المنصور قد عرف خلف بن حسين أثناء عملهما فى بعض مناصب الدولة خلال أيام الحكم ، وتوثقت صلة الرجلين ، فلما وصل المنصور إلى الحكم عمد إلى تقريبه وإحظائه .

ولم يكن محمد بن أبى عامر من بيت الملك ، وإنما كان رجلا عصاميا تدرج فى الوظائف بفضل ذكائه ومواهبه حتى استبد بكل شىء فى الدولة ، ودعاه ذلك إلى أن يستميل إلى حزبه من استطاع من رجال بيوتات الموالى صنائع بنى مروان القدامى من أمثال : بنى حزم ، وبنى حدير ، وبنى شهيد ، وكان شأن خلف بن حسين كشأن هؤلاء ، فإنه على الرغم من ولائه القديم لبنى أمية لم يجد بأسا فى الانتظام فى خدمة المنصور العامرى الذى لم يلبث أن استبد بالأمر وجمع فى يده كل مقاليد الحكم .

وتوثقت علاقة خلف بن حسين بالمنصور بن أبى عامر توثقا تشهد به الحكايات الكثيرة التى رواها ابنه أبو مروان وضمنها تأريخه للدولة العامرية ، ويبدو أن اختصاصه بالمنصور قد زاد فى أواخر أيام الحاجب العامرى ، فقد كان يلازمه فى روحاته وغدواته ولايتخلف عن حملاته العسكرية الكثيرة التى وجهها إلى الممالك النصرانية فى الشمال . وقد نقل لنا ابن الخطيب فى كتابه « أعمال الأعلام »(١) وصفا رائعا لموقعة جربيرة (Cervera) كان مما رواه ابن حيان على لسان أبيه . وكانت هذه المعركة التى دارت فى ٢٥ شعبان سنة ٣٩٠هـ (٣٠ يولية سنة ١٠٠٠م) من أقسى ماخاضه المنصور من معارك ، فقد واجه فيها ائتلافا نصرانيا كبيراً جمع بين كل ممالك الشمال المسيحى وإماراته ، وكادت الدائرة فيها تدور على المسلمين لولا خطة عسكرية اهتدى إليها المنصور فى آخر الأمر فكان فيها الفتح والظفر :

---

(١) بتحقيق ليفى بروفنسال ، الطبعة الثانية ، بيروت سنة ١٩٥٦ ، ص ٧٠ — ٧٣ .

وتدلنا هذه الرواية المفصلة التى ينقلها ابن حيان عن أبيه على الكثير ، فنحن نستشف منها أن خلف بن حسين كان كاتم سر المنصور الأول الذى يوصيه بما يعرض له من مهام فى مثل هذا الموقف الضنك الذى تعرض فيه مجد المنصور بل وحياته لأعظم الأخطار . كذلك نرى منه كيف كانت دقة ملاحظة خلف بن حسين وتسجيله لكل كبيرة وصغيرة من تفاصيل المعركة فى موقف تزيغ فيه الأبصار ، وتذهل الحلوم ، وشىء آخر هو أنه مع مانراه فى رواية خلف من إعجاب بمخدومه المنصور وصفاته النادرة فإن ذلك لم يمنعه من أن يسجل عليه جزعه واضطرابه بعد اشتداد الأمر عليه فى ذلك المعترك الصعب ، وهذه نزاهة تقدر له ، ولو أن كثيرين غيره فى مثل هذا المقام تعرضوا لوصفه لأقبلوا يكيلون المديح لمولاهم المنصور ويتحدثون عن بطولته وعبقريته المعجزة . فنحن نرى ابن أبى عامر هنا إنسانا قبل كل شىء يدب فى نفسه الخوف والجزع كما يمكن أن يدب فى نفس أى بشر .

وهاتان الصفتان اللتان تميزان خلف بن حسين هما أهم الصفات التى أورثها ابنه أبا مروان ، وهما مما سيرفع إنتاجه التاريخى كله إلى مقام لم يرق إليه أى كتاب من كتب التاريخ لمؤلف قبله .

وقد حفظ لنا ابن حيان فى مواضع عن هذا الكتاب وغيره حكايات أخرى نقلها عن أبيه ، منها وصفه للمنصور وهو على فراش الموت ووصيته لابنه عبد الملك ، وهذه الوصية وثيقة تاريخية سياسية من الطراز الأول ، إذ نجد فيها تسجيلا لسياسة المنصور وخلاصة لأعماله ، وهى تكاد أن تكون حسابا ختاميا يقدمه الرجل للتاريخ ونصيحة لابنه ورسم للسياسة التى ينبغى أن يتبعها فى الداخل والخارج (١) .

وكل هذا يدلنا على مدى الصلة الوثيقة التى جمعت بين خلف بن حسين والمنصور ، وهى التى مكنت والد أبى مروان من الاطلاع على دقائق أسرار الدولة حتى إنه لم تكن تغيب عنه كبيرة ولا صغيرة .

وكان خلف بن حسين رجلا حصينا كتوما جديراً بأن يحمل أمانة السر ، ويبدو لنا فى تعامله مع سيده حريصا على مرضاته دون إسراف فى الملق ، متواضعا لايتيه بنفسه ولا يزهو بمنزلته .

(١) احتفظ لنا بهذه الوثيقة المهمة ابن بسام فى الذخيرة ، ط . القاهرة سنة ١٩٤٥ ، القسم الرابع ١ / ٥٦ — ٥٨ : فيما ينقله عن ابن حيان عن أبيه .

ولهذا فنحن لانسمع بأنه أقصى عن المنصور أو تعرض لنكبة من نكباته كما تعرض غيره من رجال الخدمة مثل أحمد بن سعيد بن حزم والد المفكر الكبير وصديق ابن حيان : أبي محمد ابن حزم(١) ، أو عبد الملك بن إدريس الجزيرى صاحب خلف بن حسين وزميله فى الدراسة(٢)

على أن خلف بن حسين نفسه يروى فيما نقله عنه ابنه أبو مروان فى كتابه عن الدولة العامرية ، أن المنصور غضب عليه مرة ، ولكنه كان رفيقا به موادًّا له . ولنر كيف يقص هو نفسه هذا الخبر :

« بكتنى المنصور يوما على بعض ماأنكره منى تبكيتا بعث من فزعى مااضطربت منه ، فأشفق علىّ ، وخفف عنى ، وأنفذنى للوجه الذىاستنكر فيه بطئى ، فعدت بتمامه بعد أيام . فاستوقفنى وأخلى مجلسه ، ثم أدنانى فقال : رأيت من ذعرك مااستنكرت ، ومن وثق بالله برئ من الحول والقوة لله ، وإنما أنا آلة من آلاته : أسطو بقدرته ، وأعفو عن إذنه ، ولاأملك لنفسى إلا ماأملك من نفسى لسواى ، فطامن جأشك ، فإنما أنا ابن امرأة من تميم طالما تقوتت من غزلها ، أغدو به إلى السوق ، وأنا أفرح الناس بمكانه ، ثم جاء من أمر الله ماتراه . ومن أنا عند الله لولا عطفى على المستضعف المظلوم ، وقهرى للجبار الطاغى ؟ »(٣) .

وهى حكاية غريبة تصوّر جانبا آخر إنسانيا من شخصية المنصور بن أبى عامر وتدل فى الوقت نفسه على مدى المكانة التى بلغها منه كاتبه خلف بن حسين حتى أصبح المنصور يفضى إليه بمثل هذه « الاعترافات » ! .

وقد ظل خلف بن حسين على مكانته وخطوته فى ظل حجابة عبد الملك المظفر الذى خلف أباه المنصور بعد وفاته فى سنة ٣٩٢هـ (١٠٠٢م) . ولابد أن عبد الملك حفظ له ماته بأبيه ، فنحن

---

(١) ابن الأبار : إعتاب الكتاب ص ١٩١ .

(٢) نفس المرجع ص ١٩٣ — ١٩٦ . ويستوقف نظرنا فى ذكر أبى مروان الجزيرى ما ذكره ابن الأبار نقلا عن ابن حيان من أن غضب المنصور عليه كان بسبب إدلاله عليه «وكان أكثر من يشركه أعطالا من الآداب العربية لتوفرهم على علم العدد وانهماكهم فى التعاليم الديوانية التى استدروا بها الجباية وحصلوا بها المراتب العالية ، فكان الجزيرى يزرى بهم ويسحب الاشتمال على ابن أبى عامر ويتصور فرط حاجته إليه فى الإنشاء » . ونحن نعتقد أن ابن حيان إنما أشار — واعيا أو بغير وعى — إلى أبيه وأمثاله بحديثه عن كتاب المنصور « المتوفرين على علم العدد المنهمكين فى التعاليم الديوانية المدرة للجباية » .

(٣) ابن الأبار : إعتاب الكتاب ص ١٩٨ .

نرى خلفا لايزال وثيق الصلة برجال الحكم مطلعا على أسرار الدولة . ونقل ابنه المؤرخ أبو مروان عنه بعض أخبار الأحداث الواقعة فى هذه الفترة ، نشير من بينها بالذات إلى مصرع عبد الملك بن إدريس الجزيرى زميل دراسته القديم لدى الشيخ الأنطاكى ، وكان قصر نظر ابن الجزيرى وطيشه وتورطه فى الدسائس والمؤامرات السياسية قد أدى به إلى الوقوع فى نكبة عبد الملك المظفر ، وكان أشد الناس فى التحريض عليه وزير المظفر : عيسى بن سعيد القطاع ، .فأودع سجن المطبق بالزاهرة فى خبر طويل ، ثم أدخل عليه عيسى فى مطبقه قوما من السودان فخنقوه وأشيع موته ، وأخرج جسده بعد أيام ، فأسلم إلى أهله ، وكان ذلك فى شوال سنة ٣٩٤هـ (أغسطس سنة ١٠٠٤م) :

ويقص علينا ابن حيان بكل تفصيل خبر المؤامرة التى انتهت بمصرع ابن الجزيرى الفاجع نقلا عن أبيه خلف بن حسين ، ويختم الخبر بقوله :

« أخبرنى أبى خلف بن حسين قال : سألت الذى تولى قتل ابن الجزيرى فى محبسه ، فجعل يصف لى سهولة ماعاناه منه لقضافته وضعف أسره ويقول : ماكان الشقى إلا كالفروج فى يدى ، دققت رقبته بركبتى ، فما زاد أن نفخ فى وجهى . فعجبت من جهل هذا الأسود »(١) .

واطلاع خلف بن حسين على حقيقة مصرع ابن الجزيرى ووصفه على هذا النحو الدقيق الحافل بالتفاصيل يدل على أنه كان لايزال قريبا من مراكز القوة والنفوذ فى الدولة العامرية .

ولابد أن نهاية ابن الجزيرى ــ رفيق صبا خلف بن حسين وزميله فى الدراسة ثم فى التدرج فى مناصب الدولة حتى أصبح كلاهما من كتاب المنصور العامرى ووزرائه ــ قد أثارت فى نفس خلف كثيراً من الأسى ، نرى ذلك فى رنة الحزن التى تغلب على روايته لتلك الواقعة ، وإن كان وفاؤه لذكرى صديقه ابن الجزيرى لم يمنعه من الحكم عليه بما يستحقه ، فقد كان من « عقربية الطبع » والتهور بحيث تسرع فى الانتشاب فى تلك الدسائس البلاطية التى جرّت عليه أخيراً نهايته الفاجعة . ونرى هنا شاهداً آخر على نزاهة خلف بن حسين فى الحكم وتجرده من الهوى .

ولعل مصرع أبى مروان بن الجزيرى كان درساً جديداً استفاد منه خلف بن حسين ، فعلمه أن يلتزم جانب الحذر فى هذا الجو السياسى الموبوء الذى كانت أدنى هفوة فيه من قبل أى وزير

(١) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الرابع ١ / ٣٦ .

أو كاتب أو متلبس بخدمة السلطان كفيلة بأن تهوى به من حالق ، وقد سبقت له فى أيام المنصور بن أبى عامر تجربة كاد يفقد فيها حظوة مولاه ، ولكنها أتت سليمة العاقبة ، وهاهو ذا يرى كيف كان التورط فى المنازعات والمنافسات السياسية التى كانت على أشدها فى أواخر أيام العامريين أمراً قد يؤدى إلى التهلكة . وإذا كان خلف بن حسين قد سلم من مغبة هذا الجو المشحون فلا شك فى أن ذلك يرجع إلى حصافته وحنكته وحذره . لقد كان خلف من رجال هذه الدولة العامرية ، ولكنه كان فيما يبدو لنا يحاول البعد عن كتلها وأحزابها بقدر ما استطاع ، وكان موقفه منها أشبه بموقف المراقب عن كثب منه بموقف المتدخل فى معمعاتها ، فلسنا نعرف أن شراً ما أصابه خلال هذه السنوات التى كانت الأندلس تقترب فيها بسرعة من الفتنة الكبرى المبيرة التى لم تلبث أن انفجرت فى سنة ٣٩٩هـ (١٠٠٩م) وسنرى كيف أورث خلف ابنه أبامروان هذا الحذر والتحرز من خوض عالم السياسة القلب ، فسلم من حبائله وأشراكه كما سلم أبوه .

كان خلف بن حسين قد أشرف على الستين من عمره حينما اندلعت نيران الفتنة البربرية ، ولكنه لم يغادر قرطبة كما غادرها الكثيرون من رجالات الدولة العامرية والمروانية هربا من الحروب الأهلية ولسنا نعرف كيف كان خلف بن حسين وابنه أبو مروان يعيشان خلال هذه السنوات الثلاثين التى كتب عليهما خلالها أن يتجرعا غصصها فى قرطبة بعد بدء الفتنة . على أنه على الرغم من المذابح التى خضبت أرض المدينة المنكوبة — عروس الغرب الإسلامى كله قبل ذلك بسنوات — ومن كل ماوقع فيها من أهوال وخراب وسفك دماء وانتهاك للحرم والأموال ، فليس هناك مايدل على أنه قد أصاب خلف بن حسين هو ولا أسرته من كل ذلك شئ . ولعل خلفا كان خلال عمله كاتبا ووزيراً قد ادخر مايستعين به على هذه السنوات ، أو اكتسب من العقار أو المال ما يقيم أوده ، فلم يشعر هو ولا ابنه من بعد بالحاجة إلى هجر بلده ، فبقيا فى قرطبة طوال تلك السنوات .

ولا نعلم من أخبار خلف بن حسين بعد ذلك إلا أنه كف بصره فى سنة ٤١١هـ (١٠٢١م) ، فلزم بيته ولم يغادره إلى أن توفى سنة ٤٢٧هـ (١٠٣٦م) ، وكانت الخلافة المروانية قد أعلن إلغاؤها بصفة رسمية منذ خمس سنوات ، وقام بأمر قرطبة الوزير أبوالحزم جهور بن محمد بن جهور فأعاد إليها بعض الصلاح والأمن . ونحن نأنس من ذلك أن خلف بن حسين قضى هذه السنوات الخمس الأخيرة من عمره فى سلام وهدوء ، معتكفا فى داره بعد أن حكم عليه عماه وشيخوخته بالإخلاد إلى السكينة ، وأغلب الظن أنه قضى تلك الفترة الوادعة يملى على ابنه أبى مروان مايشبه أن يكون

« مذكراته » عن حياته الماضية الغنية بالتجارب ، وعما مر به خلال عمره الطويل (نحو خمس وثمانين سنة) شهد فيها من تقلب الدول وتصاريف الأحوال مايعتبر ذخراً ثمينا لمؤرخ عميق الإحساس بتبعة الكتابة التاريخية مثل ولده أبى مروان . وقد أودع ابن حيان فى كتبه كل هذه المادة الدسمة الخصبة التى أثرى بها محصوله من الأخبار سواء أشار إلى أبيه أم لم يشر .

ويظهر أن خلف بن حسين كان لايزال يتمتع باحترام الناس وتبجيلهم له ، وأنه كان على الرغم من التزامه داره وانطوائه عن ضجيج الحياة قد خلف فى عالم قرطبة ذكريات طيبة منذ كان كاتبا ووزيراً للعامريين ، فنحن نعرف مما أورده ابن الأبار فى ترجمته أن الذى قام بالصلاة عليه هو قاضى الجماعة يونس بن عبد الله بن مغيث المعروف بابن الصفار ، وشهد الجنازة جمع عظيم من أهل قرطبة ، وإن لم يخل الأمر من أن يكون فيه بعض المجاملة لولده أبى مروان .

٢ — ابو مروان ابن حيان :

حياته (٣٧٧ — ٤٢٢ هـ / ٩٨٧ — ١٠٣١ م)

وإنما أطلنا فى الحديث عن خلف بن حسين والد ابن حيان لأنه قد تبين لنا من استقراء أخباره أنه كان أستاذاً حقيقياً لمؤرخنا العظيم ، بل لعله أعمق أساتذته أثراً فيه ، هذا فضلا عن كونه مصدراً من أهم مصادر تاريخه .

لقد رزق خلف بابنه حيان وسنه فى نحو السادسة والثلاثين ، وكان قد بدأ يتدرج فى مناصب الحكم ، وكان له نصيب من ثروة قد تكون موروثة وقد يكون اكتسبها بفضل تبوئه بعض المناصب منذ شبابه المبكر ، وكان حيان على مايبدو هو ولده الوحيد ، فنحن لانسمع فيما كتبه بأى إشارة إلى إخوة له ، فأفرغ فيه كل اهتمامه ، ووفر له منذ صباه أحسن المؤدبين ، وكان حيان بطبيعته غلاما لماحا متوقد الذكاء : تربة صالحة يثمر فيها التعليم الجيد والتعهد المستنير .

ولسنا نعرف من أساتذة ابن حيان ممن نص عليهم ابن بشكوال أقدم مترجميه إلا ثلاثة سنعرض لهم بالتفصيل بعد ، والحقيقة هى أن هذا العدد من الشيوخ قليل بالنسبة إلى فتى مثل ابن حيان كان فى وسعه أن يتردد على مجالس كثير من العلماء الذين كانت تعج بهم قرطبة فى أواخر القرن الرابع الهجرى . على أن اقتصار ابن بشكوال على ذكر أولئك الشيوخ الثلاثة لاينفى بطبيعة الحال أن يكون ابن حيان قد أخذ عن غيرهم ، ولكن ربما كان لذلك دلالته : وهى أن الاستكثار من

الشيوخ — وهو ماكان يحتفل له معاصروه من الفقهاء والمحدثين والأدباء — لم يكن ليعنى ابن حيان كثيراً ، وإنما كان أكثر اعتماده على نفسه وعلى الكتب ، ولابد أن أباه الكاتب خلفا كان قد جمع مكتبة متنوعة غنية تتفق وما أشرنا إليه من سعة اطلاعه وأخذه من مختلف ألوان العلوم بطرف . أما الشيوخ فإنه اجتزأ منهم بعدد قليل توثقت صلته بهم فتركوا فى نفسه أثراً لم يمح طيلة حياته .

فقد كان خلف بن حسين من الجاه والثروة بحيث عرف كيف يختار لابنه حيان عدداً من الأساتذة يتلقى عنهم العلم لاكما يتلقاه غيره ، فيحضر حلقاتهم ومجالسهم العامة ، وإنما كان ينفرد بالشيخ منهم لكى يختصه بدروسه إما فى داره أو دار الشيخ ، كما نرى فى هذا النص الذى يتحدث فيه ابن حيان عن قراءته لكتاب « الفصوص » لصاعد البغدادى :

« وجمع أبو العلاء للمنصور محمد بن أبى عامر كتابا سماه الفصوص فى الآداب والأشعار والأخبار . . وأمره [أى المنصور] بأن يسمعه الناس بالمسجد الجامع بالزاهرة فى عقب سنة ٣٨٥هـ (أوائل ٩٩٦م) ، واحتشد له من جماعة أهل الأدب ووجوه الناس أمة . قال ابن حيان : وقرأته عليه منفرداً فى داره سنة ٣٩٩هـ (١٠٠٨ — ١٠٠٩م) »(١) .

وفى اعتقادنا أن صاعداً وهو ما هو من علو المكانة والحظوة من المنصور بن أبى عامر ماكان ليستقبل فى داره تلميذاً من تلاميذه لكى يقرأ عليه كتابا سبق أن أسمعه عامة الناس فى المسجد الجامع إلا إذا كان ذلك لقاء مال كثير لايتوسع فى إنفاقه إلا المقتدرون الوجهاء .

وشاهد ثان يتعلق بشيخ آخر من شيوخ ابن حيان هو ابن أبى الحباب ، الذى كان مؤدب عبدالملك (المظفر) بن المنصور بن أبى عامر(٢) . فاذا كان خلف بن حسين قد اختار لتأديب ابنه مثل هذا الشيخ الجليل الذى اختاره المنصور لإقراء ابنه ووارث دولته فهذا دليل كاف على مدى اقتدار والد ابن حيان واحتفاله بأن يوفر لابنه أرقى مستوى من التعلم .

أساتذة ابن حيـــان :

ولنر بعد ذلك هؤلاء الشيوخ الثلاثة الذين نص ابن بشكوال على قراءة ابن حيان عليهم .

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ترجمة صاعد البغدادى ، رقم ٥٤٠ ، ١ / ٢٣٣ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ١ / ٢٥ .

أما الأول فهو الفقيه المحدث عمر بن حسين بن محمد بن نابل الأموى القرطبي(١) ، وكان من بيت علم وفضل ، فقد كان أبوه من جلة الفقهاء والمحدثين فى عصره ، أما عمرُ شيخ ابن حيان فقد تفقه على أبيه وأخذ عنه كل رواياته ، وكان قد صحبه فى رحلته إلى المشرق واشترك معه فى أساتذته المشارقة فضلا عن الأندلسيين ، وكان فيما يذكر القاضى عياض « مسندا صدوقا ثقة عفيفا » ، وشهر بالحفظ الجيد ، وكان من الفقهاء المشاورين ، وكف بصره فى آخر عمره ، ولكنه ظل يسمع الناس حتى وفاته فى سنة ٤٠١هـ (١٠١١م) ، وكان له ابن عالم كذلك روى عنه الناس ، ولحقته محنة الفتنة البربرية لصداقة كانت بينه وبين بنى ذكوان ، فلما وقع الاضطهاد على الذكاونة بسبب اتهامهم بملابسة البربر اشتد تأثره بذلك فاختلط عقله ، ومات قبل وفاة أبيه بشهور فى نفس السنة .

وثانى شيوخ ابن حيان هو : اللغوى النحوى أبو عمر أحمد بن عبدالعزيز بن فرج المعروف بابن أبى الحباب القرطبي(٢) ، وأصله من البربر من مصمودة ، ولكنه كان ممن استقروا فى الأندلس منذ زمن فأصبح فى عداد الأندلسيين ، وولد سنة ٣١٠هـ (٩٢٢ — ٩٢٣م) وتلمذ على شيخ محدثى الثغر ابن القاسم الثغرى قاضى قلعة أيوب ، وعلى العالم الأشهر أبى على القالى نزيل قرطبة ، وكان ابن أبى الحباب أخص أصحاب القالى به وأكثرهم أخذاً عنه ، وكان من جلة شيوخ الأدب ، عالما باللغة والأخبار ، حافظا صحيح الرواية جيد الضبط لكتبه . وعهد إليه المنصور ابن أبى عامر بتأديب ابنه عبد الملك المظفر . وكانت وفاته فى أول سنة ٤٠٠هـ (أواخر ١٠٠٩م) . ويعتبر ابن أبى الحباب حامل علم أبى على القالى وأكثر تلاميذه نشاطا فى نشر مادة الثقافة المشرقية الهائلة التى قدم بها العالم البغدادى العظيم . ويكفى أن نلقى نظرة على الفصل الطويل الذى أفرده ابن خير فى « فهرسته » لرواياته لكتب النحو واللغة والشروحات وأشعار العرب القدماء والمحدثين ، فسنرى أن كثيراً من هذه المادة كانت مما نقله القالى إلى الأندلس ، وأن ابن

---

(١) انظر فى ترجمته ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٨٤٩ ؛ الحميدى : جذوة المقتبس ، بتحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة سنة ١٩٥٢ ، رقم ٦٨٥ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، بتحقيق الدكتور أحمد بكير محمود ، ط . بيروت سنة ١٩٦٧ ، المجلد الثانى ص ٧٣١ / ٧٣٢ .

(٢) انظر فى ترجمته ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٣٥ ؛ مفاخر البربر ، بتحقيق ليفى بروفنسال ، ط . الرباط سنة ١٩٣٤ ص ٦٣ .

أبي الحباب يكاد يذكر فى كل هذه المواضع بصفته صاحب الفضل الأكبر فى إقراء تلك الكتب وإذاعتها فى الأندلس(١) .

أما ثالث هؤلاء الشيوخ ؛ فهو العالم اللغوى الشاعر المشهور صاعد بن الحسن بن عيسى الربعى البغدادى(٢) . وكان صاعد قد وفد على المنصور بن أبى عامر فى سنة ٣٨٠هـ (٩٩٠م) وانتظم فى خدمته وأصبح من ندمائه ومدّاحه ، ثم بقى فى خدمة ابنه عبد الملك المظفر حتى وقعت الفتنة فى سنة ٣٩٩هـ (١٠٠٩م) فخرج مستخفيا من قرطبة بعد أن التوى عليه رجال هشام المؤيد فى الإذن بتسريحه خوفا من خبث لسانه ، فتوجه إلى جزيرة شلطيش فى سنة ٤٠٣هـ (١٠١٢ — ١٠١٣م) واتصل من هناك بصاحب جزيرة صقلية وفاوضه فى الوفود إليه ، فرحب به ، وعزم صاعد على الرحلة إليه ولكنه عاد إلى قرطبة ليستخرج أهله وولده ، ومن هناك خرج إلى سرقسطة فعاش فى كنف أميرها منذر بن يحيي التجيبى فترة ما ، ومنها اتجه إلى دانية ، فقضى وقتا آخر فى كنف مجاهد العامرى ، ثم خرج إلى صقلية حيث قضى السنوات الأخيرة من حياته حتى وفاته سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٦م) .

هؤلاء هم الشيوخ الثلاثة الذين نص ابن بشكوال على أخذ ابن حيان عنهم . ويمكن أن نضيف إليهم أسماء أخرى قليلة مثل المؤرخ المحدث المشهور القاضى أبى الوليد عبد الله بن يوسف المعروف بابن الفرضى صاحب «تاريخ علماء الأندلس» ، وكان ممن استشهدوا فى الفتنة البربرية سنة ٤٠٣ هـ

---

(١) أبو بكر ابن خير الإشبيلى : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، بتحقيق فرانسسكو كوديرا وخوليان ريبيرا ، ط . سرقسطة ١٧٩٤ ، ص ٣٠٥ — ٤٢٥ .

(٢) فى ترجمة صاعد البغدادى انظر ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٥٤٠ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٥٠٩ ؛ الضبى : بغية الملتمس ، بتحقيق كوديرا ، مدريد سنة ١٨٩٥ ، رقم ٨٥٢ : ابن عذارى : البيان المغرب ، ط . بيروت سنة ١٩٥٠ ٢ / ٤١٣ ، ٣ / ١٨ — ٢٠ ، ٣٥ (بتحقيق ليفى بروفنسال ، ط . باريس سنة ١٩٣٠) ؛ ابن بسام : الذخيرة ، القسم الرابع ، ١ / ٦ — ١٣ ، ٣٧ — ٣٩ ؛ ابن الأبار : الحلة السيراء ، بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ١ / ٢٨٢ — ٢٨٣ ؛ المقرى : نفح الطيب ٤ / ٧٦ — ٨٤ ؛ ومن الدراسات الحديثة : بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ، ط . مدريد ١٨٩٨ ص ١١١ — ١١٣ ؛ جونثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٦٦—٦٨ ؛ بلاشير : الشاعر الكاتب الصاعد البغدادى مجلة اسبيريس الرباط ، المجلد العاشر سنة ١٩٣٠ :

R. Blachére : Un pionnier de la culture arabe orientale en Espagne au Xe siécle : .Sàid de Bagdad, Hespèris, vol. X, 1930, pp. 15-36.

(١٠١٣م) ، وإنما أضفنا اسما بعد أن رأينا أبا على الغسانى تلميذ ابن حيان ينقل عن شيخه نصا يؤكد روايته عنه(١) .

كذلك نعرف أن ابن‌حيان قرأ على المحدث النسابة أبى القاسم عبدالرحمن بن محمد بن أبى‌يزيد المصرى(٢) ، وكان قد قدم إلى الأندلس من مصر فى سنة ٣٩٤ﻫ (١٠٠٤م) بعد أن أخذ عن جلة محدثيها وعلمائها ، وكان أديبا حافظا للحديث وللأسماء والأنساب والأشعار ، وسكن قرطبة حتى وقعت‌الفتنة ، فخرج إلى إفريقية ثم إلى مصر ، فتوفى بها سنة ٤١٠ﻫ (١٠١٩ — ١٠٢٠م) .

ونلاحظ أن أخذ ابن حيان عن جميع هؤلاء الشيوخ ينبغى أن يكون قد تم فى فترة مبكرة من حياته وهو فى نحوالعشرين من‌عمره أو دون ذلك ، فجميعهم ممن توفوا مابين سنتى ٤٠٠ و٤٠٣ ﻫ ، أو أخرجوا من قرطبة ولم يعودوا إليها عودة استقرار .

وتأمل معارف هؤلاء الشيوخ يعطينا فكرة عن ثقافة ابن حيان فى دور التكوين المبكر ، ويلقى ضوءاً على منهجه فى كتابة التاريخ حينما نضجت شخصيته وتحددت معالمها ، فجميعهم كانوا من أصحاب الثقافة الإنسانية العامة كما كانت مفهومة فى تلك العصور ، وإن كنا نلمس فيهم اتجاها واضحا إلى علوم اللغة والأدب والأخبار ، ثم إلى علوم الحديث . وقد استفاد ابن حيان من ذلك فوائد جمة ، فأخذه منذ صباه عن أساتذة من طبقة ابن أبى الحباب صاحب أبى على القالى وصاعد البغدادى هو الذى أعانه — فضلا عن الملكة الطبيعية — على امتلاك زمام اللغة على نحو لانعرفه أتيح لمؤرخ عربى قبله ، وسنرى كيف كانت كتابة ابن حيان — إلى جانب قيمتها التاريخية — من أرقى نماذج النثر الفنى ، ولا بد أن جانبا كبيراً من الفضل فى ذلك يرجع إلى هذه المرحلة التى درس فيها على شيوخ الأدب واللغة من أمثال هذين الأستاذين الجليلين : ابن أبى الحباب وصاعد . ومتأمل صفحات تاريخ ابن حيان يمكنه أن يفطن لأول وهلة أنه تمثل الأدب العربى قديمه وحديثه ، شعره ونثره ، تمثلا لايتهيأ إلا لمن اقتصر عليه واتخذه حرفته وبضاعته .

أما الحديث وما يتصل به من علم الجرح والتعديل ومعرفة طبقات الرجال ونقد الأسانيد وغير

---

(١) ابن خير : فهرسة ص ١٢٥ .

(٢) نفس الموضع السابق ، وقد جاءت نسبته فى هذا الكتاب « القصرى » بدلا من « المصرى » ، وهو تحريف . وانظر فى ترجمته ابن بشكوال : الصله ، رقم ٧٥٦ ؛ والقاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ٦١٥ — ٦١٦ .

ذلك من أدوات هذا العلم فإنه أفاد ابن حيان فى منهجه النقدى للتاريخ ، وإن لم يكن علم الحديث بالذات من بضاعة أبى مروان ولا مما شارك فيه مشاركة مباشرة .

وعلى كل حال فانه يبدو لنا من تأمل مابقى من مؤلفات ابن حيان أنه كان رجلا واسع الإطلاع جماعا للكتب ، وهذا فى نظرنا هو الذى صرف أبا مروان عن الاستكثار من الراوية عن الشيوخ فقد أغنته الكتب عن التردد على مجالس العلماء ، وهذا هو مايفسر لنا أن كتبه التى تعرض فيها لتاريخ الأندلس السابق على عصره تكاد تخلو من الأسانيد والروايات ، فهو لاينقل إلا عن أصول مكتوبة ، فلسنا نجد فيها لفظ « سمعت » أو « رويت » بقدر مانجد « قرأت فى كتاب فلان » . ولو جاز لنا أن نستعير أحد مصطلحات الحديث لقلنا إن ابن حيان كان « صحفيا » أى ممن ينقلون عن الصحف . حتى ابن الفرضى الذى نعلم علم اليقين أن ابن حيان سمع منه لايكاد مؤرخنا يذكره إلا بقوله : « وقرأت فى كتاب أبى الوليد ابن الفرضى . . . » . أما فى كتابته عن تاريخ الفترة المعاصر له فقد كان يعتمد على مشاهداته أو مايكتب به إليه بعض أصحابه حول أحداث المناطق التى يعيشون فيها .

والغريب عند تأمل هذا العدد القليل من شيوخ ابن حيان هو أننا لانعرف منهم أحداً يحتمل أنه وجهه إلى دراسة التاريخ بوجه خاص ، فليس منهم أحد قد تميز بشيء فى هذا الميدان ، فيما عدا ابن الفرضى — وكان مفهومه للتاريخ على كل حال بعيداً عن مفهوم ابن حيان ، وإن كنا لاننكر فضلهم على أبى مروان فى تكوينه الثقافى العام . فقد كان من الممكن أن يقرأ ابن حيان عليهم وعلى غيرهم دون أن يزيد بعد ذلك على كونه أحد علماء الأندلس المتوسطين الذين تحفل بهم معاجم التراجم والطبقات .

ولهذا فنحن نعتقد أن اتجاه ابن حيان إلى كتابة التاريخ إنما تولد من شخصيته هو : من دقة إحساسه ونفاذ نظرته ، وقدرته الطبيعية على الاستيعاب ، وملكته النقدية المتأملة . وقد يكون فى هذا الاتجاه عرق من الوراثة يصل بين أبى مروان ووالده خلف بن حسين الذى يبدو لنا هو موجهه الأول إلى علم التاريخ ، فإن تتبع الأخبار التى نقلها ابن حيان عن أبيه والتى أسلفنا الإشارة إليها يسمح لنا بأن نتوسم فى خلف بن حيان من وراء كاتب الديوان وكاتم أسرار المنصور العامرى معدن مؤرخ حقيقى نافذ النظرة على الأمور ، منقر عن الأخبار تنقير من يشتغل بها حق الاشتغال . إن هذه الموهبة التاريخية التى تجلت بعد ذلك فى أوضح صورها ومعالمها فى أبى مروان ابن حيان إنما تعود فى المقام

الأول — فى نظرنا — إلى ماورثه مؤرخنا العظيم عن أبيه وإلى ماغرسه هذا فى نفسه من اهتمام بتقصىّ الحقيقة والبحث عنها فى تجرد ونزاهة أينما كانت ، ومهما أرضت أو أسخطت .

وقد زاد من إرهاف روح ابن حيان العصر الذى عاشه والأحداث الهائلة التى رواها واكتوى بها ، فقد انتقلت الأندلس تحت بصره نقلة مفاجئة من تلك العظمة التى وافقت أواخر أيام الدولة العامرية إلى هذه الفتنة الجائحة المدمرة التى انفجرت فى سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨م) على يد عبد الرحمن « شنجول » بن المنصور العامرى ، ذلك الشاب الأحمق المشئوم الذى فتح على الأندلس بابا لم ينسد إلا بانهيار بنيان الدولة كلها وتمزقها ، وكان هذا الفتق الهائل هو المؤذن ببداية نهاية الإسلام فى الأندلس .

كانت أزمة الأندلس جديرة بأن تشحذ الأرواح المتفتحة الذكية ، وتنتج مفكرين مخلصين يصطبغ تفكيرهم بالمرارة ، ويحاولون البحث عن علة ذلك الداء الذى أوتى منه بلدهم بعد أن كان بالأمس القريب نموذجا فذا فى النظام والقوة والاستقرار . ومن هنا ظهر هذا الجيل من أبناء قرطبة من أمثال ابن حيان وابن حزم وابن شهيد وابن عبد البر ممن حاول كل منهم فى ميدان علمه تقصى الحقيقة والبحث عن علاج لمحنة بلدهم . وكان جميعهم ممن شهدوا فى مقتبل شبابهم عظمة الدولة ، ثم رأوا انتكاستها المفاجئة المذهلة .

وما أكثر ما ترهف أمثال هذه الأزمات من عبقريات المفكرين ، ويكفى أن نشير هنا إلى محنة كبرى وقعت فى تاريخ أسبانيا نفسها بعد الفتنة البربرية بتسعة قرون ، ونعنى بها كارثة سنة ١٨٩٨ التى أعقبت حرب أسبانيا مع الولايات المتحدة الأمريكية ، وانتهت بالكشف عن الإفلاس الكامل للسياسة الإسبانية ولقادة البلاد حينئذ . فقد تولد عن تلك المحنة طائفة من المفكرين عرفوا فى تاريخ الأدب الإسبانى باسم جيل ٩٨ ، وإليهم يرجع الفضل فى وضع أسس النهضة الفكرية المعاصرة فى أسبانيا .

على أنه ينبغى أن نكون على حذر فى نظرتنا إلى جيل ابن حيان ورفاقه ، فهم — وإن كانوا قد نبغوا فى ظل مايعرف باسم « عصر ملوك الطوائف » — ليسوا فى الحقيقة من رجال هذا العصر ، بل هم من نتاج تلك النهضة الفكرية الرائعة التى نضجت واكتملت فى ظل خلافة بنى مروان وإن لم تؤت أكلها وثمراتها إلا بعد أن تصدعت هذه الخلافة وعصفت بها الفتنة البربرية الشنعاء .

ابن حيــان والفتنة :

أبو مروان ابن حيان رجل اهتدى منذ شبابه المبكر إلى موهبته واتجاهه الحقيقى الذى رسم له دوره فى الحياة ، وهو التوفر على كتابة التاريخ عملا فرغ له ، وكرس عمره من أجله ، ولم ير عنه معدلا ، ولاصرفه عنه غير ذلك من الشواغل .

يبدو لنا ذلك فيما سجله هو عن نفسه ، ننقله بلفظه من مقدمة « تاريخه الكبير » :

« وبعد ، فانى امرؤ يسرت لطلب هذا الخبر ، واقتفاء هذا الأثر أحرس شارده ، وأقيد نافره ، وأبيت بأبوابه ، وأنصب لطلابه ، فشغلت به دهراً ، وفجرت منه نهراً ، صيرنى تربا لعدنان ، وزماما على الحدثان ، أقص أنباءه ، وأضرب أمثاله ، وأحصى وقائعه ، وأحترز مواعظه ، وأنسأتنى المدة إلى أن لحقت بيدى منبعث هذه الفتنة البربرية الشنعاء المدلهمة ، المفرقة للجماعة ، الهــادمة للمملكة المؤثلة ، المغربة الشأو على جميع مامضى من الفتن الإسلامية ، ففاضت أهوالها تعاظما أدهلنى عن تقييدها ، ووهمنى ألا مخلص منها ، فعطلت التاريخ إلى أن خلا صدر منها نفس الخناق ، وبلل الرماق ، فاستأنفت من يومئذ تقييد ما استقبلته من أحداثها ، وأنعمت البحث عن ذلك عند من بقى يومئذ من أهل العلم والأدب لدينا ، فلم أظفر منه إلا بما لاقدر له ، لزهد من قبلنا قديما وحديثا فى هذا الفن ، ونفيهم له عن أنواع العلم . وانثنيت خائبا خجلا ألوم نفسى على التقصير ، وأحدوها بالأمل ، وأعذر من قال « هممت ولم أفعل » ، وشرعت فى التقييد(١) غب ذلك التفنيد ، غير مخل به ، ووصلت القول فيما فاتنى من قبل من ذكر انبعاث تلك الفتنة وأخبار ملوكها ومشهور حروبها مما أصبت به عندى تذكرة ، أو أخذته عن ثقة ، أو وصلتنى به مشاهدة ، أو حاشته إلى مذاكرة ، حتى نظمت أخبارها إلى وقتى مكملة(٢) » .

فنحن نفهم من هذا النص أن ابن حيان قد بدأ فى كتابة تاريخه قبل وقوع الفتنة ، أى وسنه فى نحو العشرين أو دونها ، فهو يسجل أسفه على أن أحداث قرطبة الهــائلة قطعته عن مواصلة عمله فى تقييد أخبارها حتى عاد بعد أن نفس خناقه ، فاستكمل عمله واستدرك مافاته ، ونشير بصفة

---

(١) فى الأصل التفنيد وهو تحريف

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ٢ / ٨٦ — ٨٧ .

خاصة إلى قوله « مما أصبت به عندى تذكرة » فهذه العبارة تدل على أنه وإن كان قد « عطل التاريخ » أى انقطع عن الكتابة المنظمة فانه لم يدع أبداً ــ حتى خلال تلك الأحداث ــ تسجيل ملاحظات أو « مذكرات » أعانته بعد ذلك على استدراك مافاته .

ونحن نرى فى لوم ابن حيان نفسه على مافرط فيه من تسجيل وقائع الفتنة تواضعاً كبيراً واشتطاطاً على نفسه ، فالحق أن الصفحات التى تركها لنا ــ أو التى بقيت من تاريخه حولهــا ــ من الدقة والتفصيل بحيث لامزيد ، وليت شعرى أى استقصاء كان ابن حيان يريد أن يكتب به عن تلك الأحداث أكثر مما فعل ، وهو الذى لم يدع كبيرة ولاصغيرة إلا أحصاها ؟

ولعل أول ماسجله لنا ابن حيان من مشاهداته لأحداث قرطبة وهو بعد فى غضاضة الشباب ذلك النص الذى عقب به على مصرع الوزير عيسى بن سعيد اليحصبى القطاع على يد الحاجب عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبى عامر فى العاشر من ربيع الأول سنة ٣٩٧هـ (٤ ديسمبر سنة ١٠٠٦م) ، وما أعقب ذلك من رفع رأسه على باب الزاهرة :

« وأعظم الناس قتل عيسى لجلالة قدره ، وسار منهم إلى الزاهرة خلق عظيم ينظرون إلى رأسه قال ابن حيان : وكنت فى جملة من نظر إليه ، واستبنت الضربة بخده الأيمن »(١) .

فى هذه الإشارة مايصور لنا ملكة ابن حيان الاخبارية منذ هذه الفترة من حياته ، وكان فى العشرين من عمره ، إذ هو يبدو لنا كما لو كان من رجال الصحافة فى عصرنا الحاضر ، ممن يشعرون بأن واجبهم إذا وقع حدث أن يهرعوا إلى مكانه ويسجلوا ملاحظاتهم و« تحقيقاتهم » عنه فى مكان وقوعه .

وموقف آخر يسجله لنا هذا النص الفريد الذى احتفظ لنا به ابن بسام أيضا فى معرض الكلام عن موكب الحاجب عبد الملك المظفر وهو خارج إلى آخر غزواته إلى قشتالة مابين صفر وربيع سنة ٣٩٨ هـ (خريف سنة ١٠٠٧م) .

« عهدى به يوم فصوله لغزوته سنة ثمان وتسعين التى احتفل فيها لشانجه بن غرسية قومس قشتالة (Sancho Garcia) واستكثر فيها من العدة والعدد ، فبرز على جواد من مقرباته المنسوبة ،

(١) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ١ / ١٠٧ .

بأفخم تلك المراكب المسلسلة ، ولبوس درع فضية مطرزة بالذهب ، وعلى رأسه خوذة مثمنة الشكل ، محددة الرأس ، مرصعة الطرق بدر فاخر ، واسطته حجر ياقوت أحمر مرتفع القيمة ، قد لزم وسط الجيش ، وطرح الشعاع على سنة وجهه ، فما رأى الناس بعده ملكا بعدله فى البهاء والبهجة »(١) .

فهذا الوصف — بما نرى فيه من دقة بالغة وحيوية نابضة حتى كأننا نرى المشهد بأعيننا — لايصدر على هذا النحو من التفصيل الذى يكاد يكون تسجيلا « فوتوغرافيا » إلا ممن كان يقيد مذكرات يومية بما يشاهده ويجرى بين يديه ، أو بفضل ذاكرة قوية تخترق المشاهد والأحداث بحيث لايند عنها شيء . وإذا كنا نعتقد فعلا أن ابن حيان كان يتمتع بهذه الذاكرة فإننا مع ذلك نكاد نقطع بأنه كان يسجل مذكرات يومية بما يقع فى بلده منذ هذا التاريخ المبكر ، وهو فى الواحدة والعشرين من عمره ، ولسنا فى حاجة إلى الكثير من الأدلة على ذلك ، فقد سبق أن أشرنا إلى مانص عليه ابن حيان نفسه فى مقدمة تاريخه إلى كتابته لمثل هذه « اليوميات » .

وقد كانت هذه المشاهدات هى آخر مارآه ابن حيان وسجله من أحداث الدولة العامرية التى لم يكن أحد يقدر حينئذ أن نهايتها موشكة على الحلول فى أقرب وقت ، وأن العاصفة الهائلة التى كانت تتجمع فى الأفق حينئذ سوف تقتلع الخلافة المروانية من جذورها وتحطم وحدة الأندلس إلى الأبد ، وستخط أول فصل فى كتاب نهاية الإسلام وانقراضه من أرض تلك البلاد .

وتتعاقب أحداث الفتنة البربرية فى سرعة مذهلة منذ ثورة محمد بن هشام المهدى على عبدالرحمن شنجول فى ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ (نوفمبر ١٠٠٨ م) ، ولا تلبث الحروب الأهلية أن تأتى فى غضون سنوات قليلة على عمران قرطبة ، ويكفينا فى تصوير اضطراب الأمور فى عاصمة الخلافة القديمة أن نذكر أن السنوات الثلاثة والعشرين التى انقضت بين ثورة محمد المهدى وإلغاء الخلافة المروانية بصفة نهائية فى سنة٤٢٢هـ (١٠٣١م) قد شهدت ولاية تسعة من الخلفاء : ستة منهم من البيت المروانى ، وثلاثة من البيت العلوى من بنى حمود ، وأن أكثر هؤلاء تنصبوا على عرش الخلافة مرتين ، وانتهوا كلهم إلى ميتة فاجعة مقتولين على أبشع صورة .

ولسنا نرى ضرورة للكلام عن هذه الأحداث ، إذ تكفينا فى تتبعها تلك الصفحات المريرة

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الرابع ١/٦٠-٦١ .

الحزينة التى ساق فيها ابن حيان نفسه أخبارها فى تفصيل لايكاد يعزب معه شىء منها . ولكن ماهمنا هو أن نعرف كيف مضت حياة مؤرخنا خلال هذه الفترة .

ومن أسف أن ابن حيان وهو الذى كتب بهذا التفصيل عن أحداث قرطبة لم يترك لنا شيئا عن حياته فى هذه السنوات العصيبة السوداء ، ولكن الذى نعرفه على وجه اليقين هو أنه لم يغادر قرطبة أبداً حتى وفاته ، فلسنا نعلم له رحلة عن بلده ولامقاما فى أى مدينة أخرى من قواعد ملوك الطوائف . وهذا شىء غريب حقا ، إذ أن المقام فى قرطبة ولاسيما فى أولى سنوات الفتنة كان مغامرة لاتؤمن عواقبها ، وما أكثر مانقرأ فى كتب التراجم مما سجله قلم ابن حيان نفسه من أخبار علماء ما أنجبوا ولا أوضعوا فى هذه الفتنة ولكنهم لقوا مصرعهم فيها ، ونذكر من بينهم أحد شيوخ ابن حيان ، وهو القاضى أبو الوليد بن الفرضى . وأما أكثر العلماء والأدباء من طبقة شيوخ ابن حيان أو أقرانه فقد نجوا بأنفسهم خارجين من قرطبة إلى غيرها من مدن الأطراف والثغور حيث كانت الحياة أكثر أمنا وأقل مغبة .

ومع ذلك فلا نسمع أن ابن حيان ولا أباه كاتب المنصور السابق تعرضا لسوء ، ولا أنهما رزئا فى مال أو حرمة(١) . ولاشك فى أن ابن حيان كان أسعد حظا فى ذلك من الكثيرين من أمثاله .

وقد سبق أن رجحنا أنه لابد أن يكون ابن حيان وأبوه قد ركنا خلال هذه السنوات العجاف إلى مال مدخر استعانا به على معيشتهما ، لاسيما وأننا لانعلم أن أحداً منهما تولى أى منصب من مناصب الدولة على عهد سنوات الفتنة كما فعل بعض أصحاب أبى مروان مثل صاحبه أبى محمد ابن حزم وأبيه الوزير أحمد بن سعيد بن حزم . وكان ابن حيان بغير شك أبعد نظراً وأسد رأيا حين لم يتلبس طوال هذه الفترة بأى علاقة تربطه بأمراء الفتنة وحكوماتها ، ولكن ينبغى أن يكون لدى مؤرخنا من أسباب الحياة ماكان يغنيه عن التطلع إلى مثل تلك العلاقة أو الطمع فى منصب من مناصب

---

(١) كانت السلامة من الفتنة البربرية أمراً من الندرة والغرابة بحيث يستحق التسجيل ، فالفقيه أبو محمد ابن حزم صديق ابن حيان والذى عانى من هذه الفتنة الكثير على ما نرى من صفحات كثيرة فى كتابه « طوق الحمامة » – يذكر فيما نقله عنه ابن بشكوال فى ترجمة أستاذه حمام بن أحمد القرطبى أنه « كان شديد الانقباض ، لا أدرى أحداً سلم من الفتنة سلامته مع طول مدته فيها ، فما شارك قط فيها بمحضر ولا بيد ولا بلسان ، مع ذكائه وحزمه وقيامه بكل ما يتولى » (الصلة ، رقم ٣٥٠ ص ١٥٣) .

الحكومة ، لاسيا بعد أن هانت تلك المناصب بانحطاط الدولة وأمرائها ، حتى لم يعد فيها مايغرى عاقلا بالسعى إليها أو الانتشاب فيها .

ويصور لنا هذه الحقيقة ابن حيان نفسه إذ يقول فى عقب الكلام عن دولة عبد الرحمن المستظهر الذى ولى الخلافة نحواً من شهر ونصف فى سنة ٤١٤هـ (١٠٢٣م) .

« وكان قدم على جميع أشغاله وأعماله جماعة من بقايا بنى مروان وجماعة من الأغمار كانوا يذهب بهم العجب ، قدمهم على سائر رجاله ، فأحقد بهم أهل السياسة ، فانتقضت دولته سريعاً » .

ويسوق ابن حيان بعد ذلك هذه الخطط والوظائف التى قدم إليها خاصته هؤلاء — وكان من بينهم بعض أصدقاء المؤرخ نفسه مثل أبى عامر بن شهيد ، وأبى محمد ابن حزم وابن عمه أبى المغيرة ابن حزم ، وأبى حفص ابن برد — ، ثم يعلق على ذلك فيقول :

« وهذا زخرف من التسطير وضع على غير حاصل ، ومراتب نصبت لغير طائل ، تنافسها طالبوها يومئذ بالأمل ، فلم يحلوا منها بنائل ، ولا قبضوا منها مرتزقا ، ولانالوا مرتفقا . وغرهم بارق الطمع وسط بلد محصور ، وعمل مغصوب ، وخراب مستولٍ ، ومع سلطان فقير ، لايقع بيده درهم إلا من صبابة مستغل جوف المدينة ، أو نهب مغلول ممن تقلقل عنها ، يقيم منها رمقة ، ويفرق جملته على من تكنفه من جنده ودائرته ، ويتطرق إلى مايقبح من ظلم رعيته ، فلم يلبث الأمر أن تفرى به ، فسفك دمه ، وانحسم الأمل من دولته » .

ولعل خير مايمثل لنا هوان المناصب فى ظل هذه الفتنة بيتان رواهما ابن حيان لأحد أدباء قرطبة يقولهما فى حكم بن سعيد القزاز الذى ولى الوزارة لهشام المعتد آخر خلفاء الفتنة (ولى بين سنتى ٤٢٠ و٤٢٢هـ = ١٠٣٠ — ١٠٣١م)(١) .

هبك كما تــدعى وزيراً ... وزير من أنت ياوزير ؟
والله ما للأمــير معــنى ... فكيف من وزّر الأمــير ؟(٢)

---

(١) انظر النص فى ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ١/٣٦ — ٣٧ ؛ وابن عذارى : البيان المغرب ٣ / ١٣٧ — ١٣٨ مع بعض فروق فى الرواية .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ٣ / ١٤٧ .

ولسنا نشك فى أن ابن حيان لو كان خلال هذه السنوات يطمع فى أحد مناصب الدولة الكبرى لوصل إليه ، ولكنه كان أحصف من ذلك وأبعد نظراً ، وكان له أسوة بوالده الذى اعتزل السياسة منذ انهيار الدولة العامرية فلم يتورط فى أشراكها من بعد قط .

وقد يكون فى إصرار أبى مروان على ملازمة قرطبة مع كل ماكان يزهد فى المقام بها وماكان يكتنف هذا المقام من مخاطر سبب آخر عاطفى ، فان الذين عرفوا هذه المدينة أيام عزها الذى بلغت أوجه فى أواخر أيام العامريين وقضوا زهرة شبابهم فى ربوعها — كان يعسر عليهم أن يفارقوها مهما حدث . . كان سحر قرطبة طاغيا على من نعموا بالعيش فيها أيام كانت عروس مدن الغرب ومهد العمران وكرسى الجماعة . . هو هذا السحر الذى عرف الشاعر الفذ أبو عامر بن شهيد كيف يصوره فى قوله :

« . . . هو العشق : باطل يلعب بالحق ، ليبين ضعف البشر ، وتلوح قدرة مصرِّف القدر . والذى أشكو منه أغرب الغرائب ، وأعجب العجائب : بثٌّ شاغل ، وبرح قاتل ، وصبر بغيض ، ودمع يفيض ، لعجوز بخراء سهكة درداء ، تدعى قرطبة :

عجـــوز لعمر الصبا فانيــــة لهـــا فى الحشا صورة الغانيـــه
فقـــد عنيت بهواها الحلـــو م فهى براحتها عانيـــــه
ترديت من حـــزن عيشى بها غراماً ، فيا طول أحزانيـــه(1)

وهكذا شأن ابن حيان : ضرب من العشق والغرام ببلده ، فقد ظلت قرطبة وطنه الذى لم يكف أبداً عن الاعتزاز به حتى النهاية ، وإذا كان صاحباه ابن شهيد وابن حزم قد ألجأتهما الفتنة أخيراً إلى الاضطراب فى أنحاء الأندلس ، فان ابن حيان ظل وفيا لقرطبته لم يبغ بها بديلا حتى وفاته .

* * *

ولكن ابن حيان لم يلزم كسر بيته ، وماكان له أن يفعل وهو المؤرخ الطلعة الباحث عن الحقيقة أينما وجدت ، ومهما حف الوصول إليها من المخاطر . وهو يسجل لنا خلال هذه الفتنة

(1) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول 1 / 175 .

مشاهداته بما هو معهود فيه من دقة ملاحظة وتوسع فى التفاصيل وحيوية دافقة تجعلنا نشاطره حياته فى خضم هذه الحياة المضطربة النكداء .

فقد كانت تربط ابن حيان صلة الصداقة ببعض من خاضوا فى الفتنة واشتركوا فى أحداثها ، ونعرف من هؤلاء أبا حفص ابن برد كاتب عبد الملك المظفر بن المنصور العامرى ووزير سليمان بن الحكم المستعين وغيره من خلفاء الفتنة ، وكانت وفاته سنة ٤١٨ﻫ (١٠٢٧م) ، وقد نقل عنه ابن حيان كثيراً من الأخبار المتعلقة بأواخر أيام العامريين وبالفتنة ، نذكر منها خبر مقتل عيسى بن سعيد القطاع ، وفى رواية ابن حيان له من التفصيل والإيعاب مالا يتوفر إلا لشاهد عيان(١) .

وقد أشرنا من قبل إلى الصداقة التى جمعت بين ابن حيان وبين أبى محمد ابن حزم وأبى عامر ابن شهيد ، وكان كلاهما ممن استوزرهم عبد الرحمن المستظهر فى خلافته القصيرة التى لم تتجاوز شهراً ونصف شهر ، ويبدو أن مؤرخنا كان يعرف المستظهر معرفة شخصية ، وأنه كان يقدره ويعجب به ويتمنى عودة الخلافة المروانية على يديه ، وإن كان شاهد أحواله يدل على أن ذلك كان ضربا من المحال ، ففى كلام ابن حيان عنه كثير مما يوحى بالميل إليه والأسف على فقده حينما انتقض أمره .

ويسجل ابن حيان أنه كان ممن حضروا المقصورة فى وجوه الناس يوم بويع لعبد الرحمن المستظهر ، وقد وصف لنا هذه البيعة بما عهدناه فيه من الدقة والإحاطة بكل التفاصيل(٢) .

أما ابن شهيد فقد كان أوثق صلة بمؤرخنا ، وقد روى لنا ابن حيان خبر أحد المجالس التى كانت تضمهما مع صديق ثالث من أمراء البيت العامرى ، هو أبو عامر محمد بن الحاجب عبد الملك المظفر بن المنصور ، وكان ممن يأنس بالأدب ، وقد اقترح أبو عامر بن المظفر على ابن شهيد أن يرتجل شعرا فى وصف ذلك المجلس ، فأسعده ابن شهيد بذلك وقال أبياتا سجلها ابن حيان بخطه(٣) .

---

(١) نفس المرجع ١ / ١٠٢ – ١٠٧ .

(٢) نفس المرجع ١ / ٣٥ .

(٣) انظر الخبر فى ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ١ / ٢٥٩ – ٢٦٠ . وقد كان أبو عامر ابن المظفر بدوره صديقا حميما لأبى محمد ابن حزم ، تحولا إلى هذه الصداقة بعد كراهية وعداوة شديدة قص ابن حزم خبرها فى كتاب طوق الحمامة ، ص ٢١ – ٢٢ .

ونمضى مع قلم ابن حيان وهو يسجل لنا أحداث تلك السنوات التى شهدت احتضار الخلافة المروانية ، فنراه مرة أخرى ينقل لنا طرفا مما شهده بعينيه ، من ذلك قوله عن محمد بن عبد الرحمن المستكفى الذى خلف المستظهر فى سياق الكلام عن ضعته وفسولته وهوان شأنه قبل أن يلى الخلافة :

« عضته الفتنة فأملق حتى استجاز طلب الصدقة . رأيته أيام الخسف بأهل بيته فى الدولة الحمودية — ولم يكن ممن لحقه الاعتقال لتحقير أمره — يقصد أهل الفلاحة أوان ضمهم لغلاتهم يسألهم من زكاتها تكليا ومخاطبة »(١) . ولابد أن ابن حيان رأى المستكفى على هذه الصورة المزرية قبل ولايته الخلافة فى غضون السنوات السبع المنقضية بين ٤٠٧ و ٤١٤ ، وهى التى كان خلفاء بنى حمود يتداولون فيها الملك بقرطبة .

ثم يدلى لنا ابن حيان من بين مشاهداته بوصف ذلك الموكب الرث المتواضع الذى دخل به هشام المعتد آخر خلفاء بنى أمية قرطبة فى ذى الحجة سنة ٤٢٠هـ (يناير سنة ١٠٣٠م) :

« وركب جيش قرطبة لاستقباله ، فدخل فى زى تقتحمه العين وهنا وقلة ، وعدم رواء وبهجة وعدد وعدة ، فوق فرس دون مراكب الملوك بحلية مختصرة ، سادلا سمل غفارة إلى ماتحتها من كسوة رثة ، قدامه سبع جنائب من خيل الموالى العامريين صيروها معه للزينة ، دون علم ولامطرد ، يسير هونا والناس يهنئونه ويصيحون بالدعاء فى وجهه »(٢) .

ولنا أن نتصور المرارة الحزينة التى كان ابن حيان يتأمل بها هذا « الموكب » ، ومازالت فى ذاكرته العجيبة التى كانت تخترق المشاهد وتستعيدها فى اقتدار مذهل صور ذلك الموكب الآخر الذى رآه وسجله من قبل منذ اثنتين وعشرين سنة ، ونعنى به موكب عبد الملك المظفر بن المنصور فى سنة ٣٩٨هـ (١٠٠٧م) ، وهومتوجه إلى غزوته الأخيرة ، بما اشتمل عليه من فخامة وهيبة وجيوش كثيفة محكمة النظام ، وسلاح وعدد وعدة وبنود وأعلام وطبول ، وغير ذلك من مظاهر عزة الإسلام الأندلسى ، تلك العزة التى بدد تراثها أمراء الفتنة التعسون ومزقوا شمل البلاد ، وانحدروا بها إلى درك من الخزى والخذلان لم تعرفه الأندلس من قبل قط . .

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ١ / ٣٠٨ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ٣ / ١٤٧ .

ويختم ابن حيان هذه المشاهدات بوصف يكاد يكون المشهد الأخير في مسرحية فاجعة : هشام المعتد نفسه بعد أقل من سنتين من ولايته ، وهو نازل إلى ساباط الجامع المفضى إلى المقصورة طارحا نفسه على جماعة الوزراء وبقية رجال الدولة ينشدهم الله في مهجته .

وينقل ابن حيان عن بعض سدنة الجامع أن « أول ما سأل الشيوخ الداخلين عليه إحضار كسيرة من خبز يسد بها جوع طفيلة له كان قد احتضنها ساتراً لها بكمه من قرّ ليلته تلك، كانت تشكو الجوع ذاهلة عما أحاط بها ، فتزيد في همه ، وسأل سراجا يأنس بضوئه مع نسائه ، فأبكى من كلمه اعتباراً بعادية الدهر »(١) .

وتنقضى دولة بنى مروان من الأندلس إلى الأبد ، وينادى في الأسواق والأرباض بألا يبقى أحد من بنى أمية ولايكنفهم أحد ، ويصدر قرار شيوخ قرطبة وعلى رأسهم أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بإخراج هشام المعتد، ونفيه من قرطبة، وإعلان نهاية ذلك الملك الذى تداوله على طول ثلاثة قرون نفر من أعظم من رأى العالم الإسلامى من الحكام جلالة ومقدرة ، حتى أصبحت أسماؤهم مرتبطة بعزة الإسلام في تلك البلاد .

ويكتب على مؤرخنا أن يعيش في بلده قرطبة هذه السنوات البائسة التى يختم آخر فصولها في الثانى عشر من ذى الحجة سنة ٤٢٢هـ (٣٠ نوفمبر ١٠٣١م) . . وإذا كان ابن حيان قد سلم خلال هذه الفترة العصيبة في نفسه وماله ، فان الفاجعة التى رأى بعينيه أحداثها الدامية ، والتى كان وطنه معها يحتضر احتضارا بطيئا استمر قرابة ربع قرن كان لابد أن تخلف في نفسه قرحا لايندمل أبدا، لا سيما أنه هو الذى رأت عيناه النور ودرجت سنو صباه في ظل تلك السنوات المشرقة التى وافقت آخر أيام المنصور بن أبى عامر وأيام ابنه المظفر .

ما أشد محنة ذوى الضمائر الحية المرهفة — وليس هناك شك في أن ابن حيان كان من هؤلاء — وهم يشهدون كيف ينحدر وطنهم إلى هذه الهوة الرهيبة ، دون أن يستطيعوا القيام بأى شيء لتجنب وقوع الكارثة ! . . .

ولم يكن لدى أبى مروان — وهو الذى ناط به القدر أن يكون مؤرخ الأندلس — إلا أن ينتضى قلمه ليسجل لنا هذه الأحداث على قسوتها وضراوتها وإيلامها للنفس ، عسى أن يكون

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ٣ / ١٥١ .

فى تسجيلها عبرة لو نفعت العبر . ولو أنه كان يعرف أن دروس هذه المحنة ستنسى كما نسى غيرها من قبل :

« لا الآخر بما انتهى إليه من الأول معتبر ، ولا الغابر بما مر على المـــاضى مزدجر ، حكمة بالغة فما تغنى النذر ، إذ كل مقدر كائن ، وكل مربوب مسخر »(١) ! . . .

ابن حيان فى ظل بنى جهور :

(٤٢٢ — ٤٦٢ هـ / ١٠٣١ — ١٠٧٠ م)

حينما أعلنت نهاية خلافة بنى مروان فى سنة ٤٢٢هـ (١٠٣١) على أثر يأس القرطبيين من إعادة الروح إلى رفات الدولة النخرة كان ابن حيان ينتقل من الشباب إلى الكهولة ، فقد كانت سنه خمسا وأربعين سنة . ولسنا بحاجة إلى أن نكرر ماذكرنا من قلة جدوى البحث فى مظان ترجمته عما يمكن أن يلقى ضوءاً على حياته خلال هذا النصف الثانى من عمره الطويل الذى زاد على تسعين سنة ، ويكون علينا من جديد أن نستقرئ كتابات ابن حيان لنتصيد إشارة هنا وإشارة هناك فى ثنايا هذه الكتابات مما يمكن أن يكشف لنا شيئاً عن نفسه وعن حياته .

وكان أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بعد إلغاء الخلافة الأموية قد ابتكر لأهل قرطبة نظاما جديداً للحكم أشبه مايكون بالنظم الجمهورية ، فانه لم يستبد بالسلطة استبداد غيره من ملوك الطوائف ، وإنما كون مجلسا للحكم من شيوخ أهل قرطبة وانتخب أمينا لهذا المجلس ، وكان لايصرف أمرا إلا بعد الرجوع إلى جماعة الشيوخ هؤلاء . وسرعان ما عاد هذا النظام « الديمقراطى » المبتكر بخير النتائج على قرطبة المنكوبة ، فعاد إليها بعض الصلاح ، واستتب بها الأمن ، ورخت الأسعار.. « فعجب ذوو التحصيل للذى أراه الله فى صلاح الناس من القوة ، ولمـــا تعتدل حال ، أو يهلك عدو ، أو تقو جباية ، وأمر الله تعالى بين الكاف والنون »(٢) .

واستمر هذا الحكم المستنير طوال أيام أبى الحزم جهور حتى وفاته سنة ٤٣٥هـ (١٠٤٣م) ، فلما مات خلفه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور ، فاقتفى خطى أبيه فى السياسة من درء الحدود

---

(١) من مقدمة ابن حيان لتاريخه الكبير — ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ٢ / ٨٦ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ٢ / ١١٧ .

والرفق بالرعية وبسط الأمن ، وحاول أبو الوليد بذل مساعيه للاصلاح بين ملوك الطوائف الذين كانوا قد أحالوا أرض الأندلس إلى مسرح للتناحر العقيم الذى لم يكن وراءه إلا سفك دماء الرعية وانتهاك الحرم والأموال . وحسن استقباله للملوك المخلوعين عن عروشهم ، حتى أصبحت قرطبة ملاذا لكل من أخرج من بلده .

وظلت قرطبة على هذا النحو من الاستقامة والصلاح حتى بلغ الكبر مبلغه من أبى الوليد ابن جهور ، واشتد التنافس بين ولديه عبد الرحمن وعبد الملك ، فعمد فى أواخر أيامه إلى توزيع السلطة بينهما . ومن هنا بدأ الفساد يدب إلى الدولة الجهورية من داخل ، بينما كانت مطامع جيرانها من ملوك الطوائف تهدد سلامها من خارج ، فقد كان المعتضد بن عباد ملك إشبيلية من ناحية والمأمون بن ذى النون ملك طليطلة من ناحية أخرى يشحذان أسلحتهما ويوجهان الحملة بعد الحملة للتغلب على عاصمة الخلافة القديمة ، وألح المأمون على قرطبة حتى ضرب عليها حصاراً شديداً فى سنة ٤٦٢هـ (١٠٧٠م) ، فاضطر عبد الملك بن محمد بن جهور — وكان قد أصبح الحاكم الفعلى للمدينة وأبوه أبو الوليد حى بعد — إلى الاستنجاد بغريم الملك الطليطلى العتيد : المعتمد بن عباد ، وكان هذا قد خلف أباه المعتضد الذى توفى فى السنة السابقة ، واغتنمها المعتمد فرصة سانحة، فوجه إلى قرطبة جيشا نجح فى إرغام المأمون بن ذى النون على فك الحصار عن قرطبة والانسحاب إلى بلده ، ولكن المعتمد بن عباد لم يلبث أن غدر ببنى جهور المستصرخين به — وما أكثر قصص الغدر فى العلاقات بين ملوك الطوائف — فاذا به يحتل قرطبة ويقبض قائد جيشه على بنى جهور ويزيل رسم دولتهم ، ويأمر المعتمد بن عباد بنفى آل جهور جميعا بما فيهم الشيخ أبو الوليد إلى جزيرة شلطيش حيث يقضون آخر أيامهم ، وبهذا تؤول قرطبة إلى ملك المعتمد صاحب إشبيلية بعد أن استعصى أمرها على أبيه المعتضد طيلة حياته .

وبقيت قرطبة منذ هذا التاريخ حتى سنة ٤٨٤هـ (١٠٩١م) حينما فتحها المرابطون تحت حكم المعتمد بن عباد ، ولم تخرج من ملكه إلا عدة أشهر من سنة ٤٦٧هـ (١٠٧٥م) آلت خلالها إلى حوزة المأمون بن ذى النون .

فى السطور السابقة حاولنا أن نرسم صورة تقريبية للأوضاع السياسية التى عاشتها قرطبة خلال هذه الحقبة الطويلة الممتدة على طول نحو نصف قرن مابين سنتى ٤٢٢هـ (١٠٣١م) و٤٦٩هـ (١٠٧٧م) وهى التى تضم مابقى من حياة مؤرخنا ابن حيان .

فى هذا العصر كتب على أبى مروان أن يعيش مجترا آلامه وأحزانه وهو يرى بناء أمته الأندلسية ينتقض ركنا ركنا . وفى ظل هؤلاء الأمراء « الهمل » — على حد تعبيره — كان عليه أن يسجل تاريخ بلده الذى كان يحبه ويعتز به ، وإن كان يشهده وهو ينزلق قليلا إلى مصير كان ابن حيان يحسه المرهف وضميره الواعى مدى نهايته ومنتهى مآله .

وقد اختار ابن حيان المقام فى قرطبة فى ظل الجهاورة ، ولعل هؤلاء كانوا أقل أمراء الطوائف سوءاً ، فقد نالت عاصمة الخلافة القديمة على أيديهم من الاستقرار والأمن وصلاح الأحوال مالم تنله أى إمارة أخرى من إمارات الطوائف . ولهذا فلعلها كانت خير بيئة يستطيع فيها أن يسجل أحداث عصره . ثم إن قرطبة كانت فى مركز متوسط من الأندلس يسمح بأن يتابع منها أخبار جميع أطراف شبه الجزيرة ، فضلا عن أنها كانت لم تفقد بعد مكانتها الروحية القديمة بين مدن الأندلس ، فظلت هى العاصمة العلمية والثقافية نحو خمسين سنة قضاها ابن حيان فى بلده ومسقط رأسه ، وهى فى النهاية جماع هذا العصر المشئوم المعروف باسم عصر الطوائف ، وإذا كنا قد عرفنا الآن طرفا من حياة قرطبة خلال هذه السنوات فلنر ما الذى حفظته لنا صحائف التاريخ من حياة ابن حيان نفسه ، ومدى صلاته بالبيئة الصغيرة التى عاش منذ سنة ٤٢٢هـ (١٠٣١م) وهو فى سن الكهولة حتى أتاه أجله وقد جاوز التسعين سنة .

الذى نستنتجه من الأخبار النزرة التى جاءتنا عن ابن حيان هو أنه واصل سلوكه الذى تحدثنا عنه فيما سبق فى تجنبه الانتشاب فى الحياة السياسية فى بلده ، وأن الله وقاه ذل الحاجة فلم يترام على أعتاب ملوك الطوائف ، كما فعل معظم كتاب عصره وشعرائه ممن لم يجدوا مفرا — فى سبيل لقمة العيش — من التشبث بخدمة السلطان . ومع ذلك فقد بلغ أبو مروان مكانة كبيرة بين هؤلاء الملوك ، وبث الله هيبته فى نفوسهم ، ولكن ذلك أتيح له بالصفة الوحيدة التى لم يشأ أبدا أن يتلبس بغيرها ، وهى كونه مؤرخا .

يقول ابن بسام : « ولما تحدث بتاريخه فى ملوك الطوائف بأفقنا استشرفت طائفة منهم إلى مطالعة غرره ، وعدوها من فرص العمر وغرره ، واهتزوا لقطف زهره ، واستهدوه إياه ، وأجزلوا على ذلك قراه »(١) .

---

(١) الذخيرة ، القسم الأول ٢ / ٨٤ .

والحقيقة هي أن هذا الذي يذكره ابن بسام في معرض الثناء على ابن حيان والإشادة بذكره كان من الممكن أن يجر مؤرخنا إلى خيانة ضميره ، والجناية على ما ألزم به نفسه في الكتابة من الحياد والنزاهة ، فان ملوك الطوائف ما كانوا ليجزلوا القرى لكاتب لا يعرف المجاملة ولا الملق مثل ابن حيان ، ومع ذلك فقد سلم أبو مروان من معرتهم : سلم من بيع قلمه لهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى — وهذا أغرب واعجب — سلم من غضباتهم على ماسطر في تاريخه من هجوم عنيف عليهم كلهم بلا استثناء . « فرب شامخ بأنفه ، ثان من عطفه ، قد مر في كتابه بفصل جرده لوضع حسبه ، وخلده أحدوثة باقية في عقبه ، فيرده ورد الظمآن الرنق ، ويلبسه لبس العريان الخلق »(١).

ويذكر ابن بسام أنه لم يسلم من لسان ابن حيان إلا أمير بلده أبو الحزم ابن جهور وابنه أبو الوليد ، فلم يعرض لذكرهما إلا بخير(٢) . وهذا صحيح إلى حد ما ، فقد أحسن الثناء عليهما وإن لم يبعد عن الصدق فيما قال ، والمقارنة بين ابني جهور وغيرهما من ملوك الطوائف تدل على أنهما جديران فعلا بتلك العبارات التي أضفاها عليهما المؤرخ ، ولكن ابن حيان كان كالعهد به مقتصداً في ثنائه ، بل إنه لم يخل أميري بني جهور من بعض نقده في عدة مواضع من تاريخه(٣) .

ابن حيان ووظائف الدولة :

جاء في إشارتين عارضتين لأبي بكر ابن خير الإشبيلي وللمقري وصف لابن حيان بأنه « صاحب الشرطة »(٤) ، وهو شيء لم نجد عليه أي دليل فيما كتبه من ترجم لابن حيان من المؤرخين المتقدمين الجديرين بقدر أكبر من الثقة مما يستحق ابن خير والمقري . ثم إن هذه الخطة بطبيعتها بعيدة كل البعد عن مجال عمل ابن حيان ونشاطه الفكري . ولو صحت نسبتها إليه — وهو ما نستبعده —

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ٢ / ٨٥ .

(٢) نفس المرجع ، ٢ / ١١٤ .

(٣) نجد أمثلة على هذا النقد في الذخيرة لابن بسام : القسم الأول ٢ / ١١٦ ؛ والحلة السيراء لابن الأبار ٣١/٢ والبيان المغرب لابن عذارى ٣ / ١٩٨ — ١٩٩ ؛ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(٤) ابن خير فهرسة : ص ٣٢٦ ؛ المقري : نفح ١٠٢/٢ . وانظر مناقشة الراهب ملتشور أنطونيا ك والاستاذ غرسيه غومس لهذه المسألة في بحث هذا الأخير : « حول ابن حيان » ، مجلة الأندلس ، المجلد الحادي عشر ، سنة ١٩٤٦ ؛ E. Garcia Gomez : A proposite de Ibn Hayyan, Al-Andalus, vol. XI, 1946, pp. 401-402 (= 7-8)

وقد أحسن كلا الباحثين صنعا حينا شكا في صحة هذا الخبر .

فاننا لا نجد لها إلا تفسيرا واحدا ، وهو أن يكون قد أضفى عليه هذا اللقب على نحو تشريفى أو « فخرى » كما نقول الآن ، لا على أنه خطة بمعنى الكلمة . وكان منح هذه الألقاب النظرية قد أصبح تقليداً جاريا منذ أيام الحكم المستنصر ، واستمر طوال الدولة العامرية ، ولا نستبعد أن يكون قد بقى فى ظل حكومة الجهاورة . وقد كان من بين من حملوا لقب « صاحب الشرطة » على سبيل المثال دون تمرس بالخطة نفسها وتحمل أعبائها عالم لغوى كبير هو أحمد بن أبان بن سيد صاحب أبى على القالى والمتوفى أيام العامرين سنة ٣٨٢هـ (٩٩٢م)(١) .

على أننا نعرف من تلك الصفحات القيمة التى أمدنا بها ابن بسام أن ابن حيان لم يبق بمعزل تماما عن وظائف الدولة فى ظل بنى جهور ، فهو يقول نقلا عن أبى مروان نفسه فى معرض الحديث عن أبى الوليد محمد بن جهور :

« وكنت ممن جادته سماء هذا الرئيس أبى الوليد الثرة ، وكرم فى فعله ابتداء من غير مسألة ، فأقحمنى فى زمرة العصابة المبرزة الحصل ، مع كلال الحد ، وضعف الآلة ، واهتدى لمكان خلتى ، وقد أرتشف الدهر بلالتى ، بأن قلدنى إملاء الذكر فى ديوان السلطان ، المطابق لصناعتى ، اللائق بتحرفى ، براتب واسع »(٢) .

ولعل هذا هو العمل الوحيد الذى أسند إلى ابن حيان فى سنة لا نستطيع تحديدها ، ولكنها واقعة على كل حال خلال حكم أبى الوليد ابن جهور (٤٣٥ — ٤٦٢) وإن كنا نرجح أن ذلك كان فى أوائل عهد أبى الوليد . أما « إملاء الذكر فى ديوان السلطان » وهو العمل الذى يصرح ابن حيان بأنه المطابق لصناعته اللائق بتحرفه فلا يمكن أن يكون إلا إملاء التاريخ . ويبدو أن هذه الخطة الجديدة الغريبة إنما اخترعت اختراعا لكى يتولاها ابن حيان ، فهذه هى أول مرة نسمع فيها عن مؤرخ يملى ما يكتبه فى ديوان السلطان وبراتب واسع توظفه له الدولة ، وهذا شئ أشبه بما نراه فى إسبانيا حتى اليوم فى مختلف مدنها من وظيفة من يعرف باسم « المؤرخ الرسمى للمدينة » (Cronista Oficial)

ولسنا نعرف إلى متى ظل أبو مروان فى هذا العمل بذلك « الراتب الواسع » ، فهو لا يعود للحديث عنه بعد ذلك ، ولا يشير أحد ممن ترجم له إليه .

---

(١) انظر ترجمته فى ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٦ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ١٩٦ .
(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ — ١١٨/٢ .

على أنه لا هذه الوظيفة ولا « الراتب الواسع » منعا ابن حيان من أن يمضى فى كتابة تاريخه بما كان يمليه عليه ضميره ونزاهته ، فابن حيان لم يتحول أبداً إلى مؤرخ « بلاطى » من طراز من سبقوه مثل ابن القوطية أو عيسى بن أحمد الرازى ، ولا من تلوه مثل ابن الصيرفى بالنسبة للمرابطين أو ابن صاحب الصلاة وابن القطان بالنسبة للموحدين .

محنة ابن حيـــان :

والدليل على ما نقول هو أن حياة أبى مروان فى ظل الجهاورة لم تمض وادعة مطمئنة كما كانت توحى بذلك علاقته الطيبة بهم ، وأغلب الظن أن صراحته واحترامه لقلمه وكبريائه على ذوى السلطان — كل ذلك أدى إلى تكدير صفو العلاقات بينه وبين بنى جهور ، بل إن أبا مروان تعرض من جراء ذلك لمحنة كادت تؤدى به إلى التهلكة . ولسنا نعرف الكثير من تفاصيل هذه المحنة ، فالنص الوحيد الذى يقص علينا خبرها — وهو بقلم ابن سعيد — مبتور الأول لسوء الحظ . ونورد فيما يلى ما بقى منه :

« . . . أبا الحزم ، فقال : والله لقد صدق ، وإنى والله ما أصلح لهذا الأمر ، ولكن مكرها لزمته . وحلف عبد الملك بن جهور أن يسفك دمه ، فأحضره أبو الوليد وقال : والله لئن طرأ على ابن حيان أمر لا آخذن فيه سواك ! أتريد أن يضرب بنا المثل فى سائر البلدان بأننا قتلنا شيخ الأدب والمؤرخين ببلدنا تحت كنفنا ، مع أن ملوك البلاد القاصية تداريه وتهاديه ؟! »(١) »

ويدل هذا النص على أن ابن حيان تعرض لأبى الوليد ابن جهور بنقد لاذع شديد ذكر فيه أنه ما كان يصلح لولاية الأمر فى قرطبة ، وأن الحمية ثارت بابنه عبد الملك ، وكان على ما نعرفه من صفة المؤرخين ولاسيما ابن حيان لشخصيته شديد العجب بنفسه متهورا سريعا إلى الشر — ولنذكر مثلا على جسراته المنكرة سطوه بوزير أبيه ابن السقاء وإقدامه على قتله دون أن يعبأ بتحذير والده وإنذاره — . وأقسم عبد الملك على الفتك بابن حيان . غير أن أبا الوليد — وهو السياسى الحصيف المحنك — بادر بحماية ابن حيان والوقوف دونه . وإن كنا نحس فى العبارات التى وصفه بها أن شعوره نحو مؤرخنا كان أقرب إلى الاحترام المشوب بالخوف منه إلى الحب أو المودة .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ١ / ١١٧ .

والحديث عن مداراة ملوك الطوائف لابن حيان ومهاداتهم إياه يدل على أن هذا الشعور كان لديهم أعمق وأوضح ، فالحق أن ابن حيان لم يكن يتردد كثيراً فى صك مسامعهم بما يكرهون وبما يعرب عن إحتقاره إياهم واشمئزازه منهم، ومع ذلك فلم نسمع عن أحد منهم أنه تعرض بسوء لأبى مروان ، مع كون القسوة المفرطة والفظاظة العمياء هى الصفة الغالبة على كثرتهم . ولا يفسر هذا إلا أن ابن حيان إنما كان لسانا ينطق بما كان يجيش فى نفوس رعاياهم : يعلن إذ يسرون ، ويصرح إذ ينافقون . وهكذا لانظننا بعيدين عن الصواب إذا قلنا إن ابن حيان الذى دمغ سياسة ملوك الطوائف جميعا بأحكامه الصريحة الخشنة قد تحول فى نظر الأمة الأندلسية إلى « بطل » شعبى تحف به هالة من الإجلال والإكبار ، فلم يقدم أحد من أمراء الفتنة — فيما عدا هذا الخبر المنسوب إلى عبد الملك بن جهور — على التعرض له بسوء ، ووقاه الله غائلتهم لحسن حظه وحظ التاريخ الأندلسى ، ولو أننا لا نشك فى أنهم كانوا يضيقون به ، ويستثقلون طلعته ، ويودون لو نجوا من عارضة قلمه .

عثرات فى سلوك ابن حيــان :

لعل خير ما يصور محنة رجال القلم فى عصر ملوك الطوائف بيتان رواهما أحد أدباء قرطبة :

الحَمْـــدُ لِلّهِ عـلى أننى   كَضِفْدَعٍ فى لُجَّـــةِ اليَمّ
إنْ هِــيَ قَالَتْ مَـلأَتْ حَلْقَها   أو سكَتَتْ مَاتَتْ مِنَ الغَمّ(١)

ولم يكن ابن حيان ممن يخلدون إلى السكوت ، بل قال وأكثر ، ووصف ملوك عصره بما هم أهل له ، وخاض لجة هذا اليم راكبا مخاطره ، فوقاه الله مغبة هذه الصراحة التى لم تكن دائما مأمونة العواقب .

ولكن لكل قاعدة استثناء . وإذا كان ابن حيان قد حاول السلامة من كل صلة تربطه بملوك الطوائف ، فاننا نقدر ظروف هذا العصر الذى كان يجعل من المستحيل على مفكر أو كاتب أو شاعر أن ينجو من ذلك . حتى أجلة الفقهاء والمحدثين لم يستطيعوا تنكب الأمراء أو تجنب الانتشاب فى خدمتهم . ويكفى أن نشير فى هذا المقام إلى اثنين من أئمة الفقه والحديث من جيل ابن حيان

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ص ٥٩٣ .

ومعاصريه : هما أبو عمر بن عبد البر النمرى (ت ٤٦٣-١٠٧١) الذى طرحت به الفتنة ، فضى يجوب الأندلس من شرقها إلى غربها متصلا بسلاطينها متوليا القضاء على كورهم ، مداريا لهم على جلالته وفضله ؛ وأبو الوليد الباجى (ت ٤٧٤-١٠٨٢) الذى « كثرت القالة فيه لمداخلته الرؤساء ، وولى قضاء أماكن تصغر عن قدره » ، وعوتب على صحبة السلطان فقال : « لولا السلطان لنقلتنى الذر من الظل إلى الشمس(١) » .

وقد اجتهد ابن حيان فى التمسك بمبدئه فى تجنب السلاطين وتحرير قلمه من كل ربقة ، ولكنه اضطر راغما فيما يبدو لنا إلى الإغضاء عن هذا المبدأ فى مناسبات قليلة على كل حال . فنحن نرى فيما حفظه لنا ابن بسام من أخباره مظاهر لهذا التناقض فى سلوك ابن حيان .

وأول هذه المظاهر اهداؤه تاريخه الكبير إلى المأمون بن ذى النون ملك طليطلة ، وهو يصور فى مفتتح هذا التاريخ ما يشبه أن يكون شعوراً بالإثم والمهانة من أجل ذلك ، فيقول :

« وكنت اعتقدت الاستئثار به لنفسى ، وخبأه لولدى ، والضن بفوائده الجمة على من تنكب إحمادى به إلى ذمى ومنقصتى ، طويت على ذلك كشحا وأمضيته عزما ، إلى أن رأيت زفافه إلى ذى خطبة سنية أتتنى على بعد الدار : أكرم خاطب ، وأسنى ذى همة ، الأمير المؤثل الإمارة المأمون ذى المجدين ، الكريم الطرفين ، يحيى بن ذى النون »(٢) .

والحق أننا لا نعرف كيف فعل ابن حيان لكى يقدم إلى المأمون هذه « الهدية » من تاريخه ، وهو الذى وصف من مساوئ أسلاف ابن ذى النون ومفاسد حكمهم مالا نعتقد أنه يعجب هذا الأمير أو ينال منه أدنى قبول .

والأعجب من ذلك فى هذا التناقض هو ما نراه فى فقرات أخرى ينقلها ابن بسام من رقعة كتبها أبو مروان إلى المعتمد بن عباد يهنئه بفتح قرطبة وظهوره على المأمون بن ذى النون الذى كان قد بعث بجنوده لحصار قرطبة فى الأحداث التى سبق لنا أن أشرنا إليها فى سنة ٤٦٢ (١٠٧٠) والغريب هنا هو أن ابن حيان يرمى المأمون بن ذى النون بأسوأ التهم ، مع أنه هو الذى أهدى إليه من قبل تاريخه وطرزه باسمه .

---

(١) المقرى : نفح الطيب ٢ / ٢٧٣ ، ٢٧٨

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ٢ / ٨٨

والحق أن هذه سقطة من ابن حيان لا يتأتى له فيها عذر ، ولا تتوجه حجة . وقد كنا نتمنى أن يسمو ابن حيان بقلمه عن التنزل إليها . ولكن ألم يكن فى ذلك تكليف له ولأمثاله بما لا يطيقون ؟ وهل كان فى وسع مؤرخنا أن يتجرد تجرداً خالصا من كل ما يربطه بملوك هذا العصر الذين هانت عليهم دماء الناس وحرماتهم إلى أبعد حد يمكن تصوره ؟

وقد وقع أبو مروان أيضا فى مثل ذلك التناقض فى حديثه عن أبى الحسن إبراهيم بن محمد بن يحيي المعروف بابن السقاء وزير أبى الوليد محمد بن جهور ، وتصيد ابن بسام هذه العثرة من مؤرخنا الكبير ، فعقب على فصل له فى ذم ابن السقاء بقوله :

« وقد رأيت ابن حيان مدح ابن السقاء فى غير ما موضع من كتابه »(١) ، ثم أورد نصوص هذا المدح وقارن بينها وبين ما كتبه ابن حيان بعد مقتله على يد عبد الملك بن جهور(٢) .

وفطن ابن حيان إلى ما قد يلاحظه القارئ من تناقض ، فأقبل يعتذر عن ذلك بقوله :

« وقد كنت كتبت من وصف ظاهر محاسنه أوان اعتلاقه بقهرمة أميرنا محمد بن جهور ، وعددت من محاسن خصاله مالم يبعد عن الصدق عنه ، لأخذنا بظاهر ما تموه فى العيون وقت بنائه لنفسه ، وتنفيقه لكساده ، من طأة الخلق ، وحسن الاحتمال ، ولين الجانب ، وخفة المواطأة ، وجودة الوساطة ، معرضين فيه عن ذكر ما لم يكن لنا التفات (فى الأصل : النفت ؟!) عنه مما فى باطنه من نذالة الخيم ، ونطف الصحبة ، وتهمة الخلوة . . . وأغرى بذوى الهيئات ، وحملة المروات ، فأزال صوتهم . . . وحط أقدارهم . . . فارتفع الأمر بالمعروف جملة ، ووسع أهل السلامة الدخول تحت التقية ، فصرنا ممن أخذ بذلك فى ذكره فيما كتبناه من ظاهر أخباره مدة ستر الله عليه ، إلى أن ارتفعت بزوال سلطانه ، وأمان عدوانه ، ففارقنا الحزم فى ذكره ، ولزمنا العذر عنه بالنقض لما أسلفناه من تقريظه »(٣) .

---

(١) نفس المرجع ، القسم الرابع ١ / ١٨٦ .

(٢) فصل ابن حيان واقعة مقتل ابن السقاء القرطبي فيما ينقله عنه ابن بسام : الذخيرة ق ٤ – ١٨٦/١ – ١٩١ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ٣ / ٢٥٥ – ٢٥٧ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام.ص ١٤٩ ؛ وانظر كذلك ابن الأبار : الحلة السيراء ٢ / ١٨٦ حيث ينقل عن ابن حيان أبياتا قالها أبو عبيد البكرى فى مدح ابن السقاء .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ق ٤ – ١ / ١٨٧ – ١٨٨ .

ولا يسعنا نحن أن نلتمس هذا العذر لابن حيان ، ولكننا نجد فى عصره وسلوك رجاله على عهد ملوك الطوائف ما يفسر مسلكه هذا إن لم يبرره أو يقم بعذره . . .

ورحم الله أبا مروان ، فقد كان قائل الحق فى أيامه كالسائر على جمر الغضى ! . . .

أخبار عن صداقات ابن حيان وحياته الخاصة :

وإذا كان ما نعرفه عن حياة ابن حيان العامة قليلا فإن ما نعرفه عن دائرة صداقاته وحياته الخاصة أقل .

أما أصدقاؤه فقد أشرنا من قبل إلى نفر من أهل الفكر عرفهم واتصل بهم فى عالم الفتنة البربرية المضطرب ، أو ممن كانت صلته بهم ترجع إلى شبابه المبكر حينما كان أبوه واحداً من رجالات الدولة العامرية . وذكرنا من هؤلاء أبا محمد بن حزم ، وأبا عامر بن شهيد الذى كان مؤرخنا أوثق صلة به وإخلاصا لمودته .

ولسنا نعرف من صداقات ابن حيان على عهد دولة بنى جهور التى استغرقت الشطر الأعظم من عمره إلا عدداً آخر بالغ القلة . ويبدو لنا أن ابن حيان كان بطبيعته رجلا كثر المعجبون به ولكن قل أصدقاؤه . ومن هؤلاء القلة الشاعر الكبير أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون (٣٩٤ — ١٠٠٣/٤٦٣ — ١٠٧١) ، وكان ابن زيدون يقيم فى كنف بنى جهور حتى سنة ٤٤١ (١٠٤٩ — ١٠٥٠) حينما اجتذبه بلاط المعتضد ابن عباد فى إشبيلية « فخلا بالحضرة مكانه وكثر الأسف عليه »(١) . والفقرات التى أفردها ابن حيان للحديث عن أبى الوليد بن زيدون تدل على إعجاب متبادل بين الرجلين ، وعلى تقدير كبير من ابن حيان لبلديه الذى لم يلبث أن أصبح وزير إشبيلية المشار إليه بالبنان المقرب إلى ملكها المعتضد ثم إلى ابنه المعتمد من بعده . وقد أمد أبو الوليد مؤرخنا ببعض الأخبار التى تضمنها كتابه كما سنرى عند الحديث عن مصادره(٢) .

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١ / ٢٩١ .

(٢) نذكر بهذه المناسبة أن أبا الوليد بن زيدون كان إلى جانب شهرته فى ميدان الشعر ذا مساهمة فى علم التاريخ ، فقد ألف كتاب « التبيين فى خلفاء بنى أمية بالأندلس » على غرار كتاب « التعيين » فى خلفاء المشرق للمسعودى « انظر رسالة ابن سعيد فى التذييل على رسالة ابن حزم فى فضل الأندلس ، فى المقرى : نفح الطيب ٤ / ١٧٣ ؛ وكتاب بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ، ص ١٤٧) .

وقد استمرت هذه الصلة بعد ذلك بين ابن حيان وابن صديقه أبى بكر محمد بن أبى الوليد ابن زيدون على الرغم من فارق السن بين الرجلين ، وكان أبو بكر قد خلف أباه على وزارة المعتمد ابن عباد ، ثم رافق أميره العبادى إلى قرطبة حينما فتحها فى سنة ٤٦٢ (١٠٧٠) ، واستقر فى موطن أبيه وزيراً للفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون(١) . وكان أبو بكر وفيا لصديق أبيه مواصلا له ، وينص ابن حيان على ذلك إذ ينص فى الحديث عنه أنه كان على « . . . اشتداد فى رعاية متقادم الذمة ، لم يفقد إخوان أبيه معها إلا عينه »(٢) .

وتشهد بذلك رسالة من أبى بكر بن زيدون إلى أبى مروان مع هدية وجه بها إليه ، مع اعتذار عن نزارة الهدية وضآلتها ، ومراجعة ابن حيان له عن رسالته . ومنها نعرف أن الهدية كانت تشتمل على أحمال من القمح والزيت والدهن . ويبدى ابن حيان فرحه بهذه الصلة التى أتته فى وقت وافق عدما من القوت والزاد . ويستخلص غرسية غومس من هذه الرسالة أن ابن حيان كان فقيرا(٣) ، ولسنا نزعم أنه كان ذا مال وثروة ، فالذين من طراز ابن حيان لم يكن من الممكن أن يتمولوا ويغتنوا ، ولكن التعبير عن الشكر على الهدية والفرح بوصولها لا يقتضى بالضرورة أن يكون الفقر هو مملى تلك العبارات .

---

(١) عهد إليه المعتمد بن عباد بعد ذلك بمهمة سياسية بالغة الخطر ، هى السفارة التى وجهها إلى يوسف بن تاشفين لاستصراخه ودعوته إلى نجدة ملوك الطوائف الذين كان الأذفوش (ألفونسو السادس) قد ألح عليهم بالغزوات والمغارم منذ أن استولى على طليطلة سنة ٤٧٨ (١٠٨٥) . ولكن أبا بكر بن زيدون كان من رجال المعتمد أولا وأخيراً ، فلما قرر يوسف ابن تاشفين خلع ملوك الطوائف جميعا كان أبو بكر ممن حرضوا المعتمد على المقاومة ، وأرسل ابن تاشفين جيشا إلى قرطبة بقيادة جرور الحشمى فحاربه على أبوابها الفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون وكان يقوم بأمره الوزير أبو بكر ، فلما اقتحم المرابطون قرطبة قتل الفتح ووزيره ابن زيدون هذا فى سنة ٤٨٤ (١٠٩١) . انظر فى ترجمته ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ – ١ / ٣٥٦ – ٣٥٧ ؛ ابن الأبار : الحلة ٢ / ٥٣ ، ٩٩ ؛ ابن سعيد : المغرب ١ / ٦٩ ؛ عبد الله بن بلقين الزيرى : التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى ، بتحقيق الأستاذ ليفى بروفنسال ، القاهرة سنة ١٩٥٥ ، ص ١٧٠ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ٧٢٣ – ٧٢٤ ؛ ابن عبد المنعم الحميرى الروض المعطار فى خبر الأقطار ، ط . القاهرة سنة ١٩٣٧ ، بتحقيق ليفى بروفنسال ص ٨٦ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١ / ٣٥٦ .

(٣) غرسية غومس : حول ابن حيان ، ص ٤٠٣ (٩ من الفصلة) . ونلاحظ بهذه المناسبة أن صاحب المقال ظن أن موجه الهدية هو الشاعر أبو الوليد بينما هو فى الحقيقة ابنه أبو بكر .

ويعرف من إحدى هذه القطع من رسائل ابن حيان التي احتفظ بها ابن بسام صداقته لذى الوزارتين أبي القاسم بن عبد الغفور(١) ، وقد نقل صاحب « الذخيرة » فقرات من رسالتين إليه يذكره في إحداهما بحاجة لدى سلطانه — ولابد أنه يعني المعتمد بن عباد —(٢) ، ويرجوه في الأخرى أن يرد له سفراً من تاريخه كان قد أعاره إياه(٣) ، ونرى ابن حيان ينص في هذه الرسالة الأخيرة على أن هذا السفر هو ختام « تاريخه » ، ونعتقد أن تاريخ هذه الرسالة — مثل سابقتها — ينبغي أن يكون بعد سنة ٤٦٢ (١٠٧٠) وهي التي استولى فيها المعتمد على قرطبة ، وأبو مروان قد بلغ نحو خمس وثمانين سنة . وكان في هذا الوقت يشعر بأنه أدى رسالته وختم حياته العلمية بعد أن فرغ من كتابة تاريخه حتى وقته . ففي ذلك تفسير لهذا « السفر الأخير » الذى أنهى به مؤرخنا مدونته الكبرى ، وأعاره إلى أحد أصدقائه لكي يؤنسه برأيه فيه .

كذلك نعرف من أصدقاء ابن حيان فقيها نبيها مؤرخا أورد ابن بسام فصلا لأبي مروان في نعيه وتأبينه(٤) ، وهو أبو القاسم سوار بن أحمد بن سوار القرطبي . ونعرف مما احتفظ لنا ابن بشكوال والقاضي عياض — وكلاهما يعتمد على ابن حيان — أنه كان فقيها حافظا للمسائل فصيح اللسان محببا إلى الناس معظما لديهم ، وأنه كان « حافظا لأخبار قرطبة وسير ملوكها المروانيين » ، ويذكر عنه أن كان « لا يلقى السلطان ولا يتصرف له ولا يأتي الحكم ولا يشهد عندهم لعلة أوجبت ذلك » . وكان مولده سنة ٣٦٩ (٩٧٩ — ٩٨٠) وتوفى سنة ٤٤٤ (١٠٥٢ — ١٠٥٣)(٥) . ونرى من

---

(١) أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي ، كان صاحباً للمعتمد بن عباد قبل أن يخلف أباه على ملك إشبيليه ، ثم تولى له الوزارة بعد ملكه . وتوفى في أيامه . وهو في عنفوان شبابه في سنة لم يحددها من ترجموا له . وكان من أسرة توارثت الوزارة والكتابة في إشبيلية ، فقد ولى الكتابة كذلك ابنه أبو محمد وحفيده أبو القاسم . وهذا الأخير هو صاحب كتاب « أحكام صناعة الكلام » الذى وقف على تحقيقه ونشره الأستاذ محمد رضوان الداية ، بيروت سنة ١٩٦٦ . وانظر حول أبي القاسم بن عبد الغفور المذكور هنا ابن سعيد : المغرب ١ / ٢٤١ ؛ ومقدمة كتاب « الأحكام» المشار إليه ص ٧ والمصادر المثبتة في هذين الموضعين .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ — ٩٣/٢ .

(٣) نفس المرجع ٩٧/٢ .

(٤) الذخيرة ق ١ — ٢ / ١٠٩ .

(٥) انظر ترجمة سوار بن أحمد في الصلة لابن بشكوال ، رقم ٥٢٣ ؛ وترتيب المدارك للقاضي عياض ، المجلد الثاني ص ٧٨٦ .

هذه الأخبار أن هذا التعفف عن ملابسة السلطان فضلا عن الإشتراك فى الإهتمام بالأخبار التاريخية كان مما وثق أواصر الصداقة بين الرجلين .

إلى ابن بسام يرجع الفضل فى الاحتفاظ بهذه القطع القليلة من مكاتبات ابن حيان أوردها المؤلف نماذج لنثره ورسائله ، ولكنها لا تهمنا من هذه الناحية ، فان أروع نماذج نثر ابن حيان إنما هى صفحات تاريخه كله ، أما هذه الرسائل التى وجهها إلى هذا أو ذاك من السلاطين أو الوزراء والكتاب حتى إلى أصدقائه الأثيرين لديه فانها نازلة عن طبقة نثره الجزل القوى الرائع الذى أودعه كل مادته التاريخية ، وإنما قيمتها فى أنها تتضمن أخباراً تلقى أضواء على حياة مؤرخنا وصلاته بأهل عصره .

ونلحق فى النهاية بهذه الطائفة من الأخبار رسالة نقلها صاحب « الذخيرة » أيضا كان مؤرخنا قد بعث بها إلى صاحب الصلاة ابن زياد(1) . والرسالة طريفة حقا ، فنحن نعرف منها أن ابن حيان كان قد ضاق أشد الضيق بجارية له « فلت غربه ، وفرت كبده ، ونظمت أشتات المصائب فى سلكه » ، فقد دأبت على سرقة ما اشتملت عليه دار أبى مروان متواطئة مع جارتين لها خبيثتين هما ابنتا قباط الحناط ، وكانتا تسكنان فى الدار الواقعة فى ظهر دار ابن حيان ، فمازالت خادم مؤرخنا « تناولها ما تسلله فى الفلتات والخرجات حتى استأصلت متاع البيت » .

وكان أبو مروان قد شكا جاريته إلى صاحب المدينة ، فعزم هذا على اعتقال هاتين الجارتين وثقافهما ، لولا أن ابن زياد — ربما لفضل طيبته فيه وسلامة نية — بادر فتشفع فيهما واستنقذهما ، ويبدو أنه كان يحسب السلطان (ولابد أن المقصود هنا أبو الوليد ابن جهور أو ابنه عبد الملك) منحرفا عن ابن حيان ، فتدخل فى الأمر على هذا النحو ، على أن أبا مروان ينفى عن خاطر ابن زياد هذا الوهم ، ويعاتبه أشد العتاب على ما كايده به فى شأن الجارتين الخبيثتين ، ثم يدعوه إلى أن يترك لصاحب المدينة تنفيذ ما تقضى به العدالة .

---

(1) ابن بسام : الذخيرة ق 1 - 2/91 – 93 . ولابد أن ابن زياد المقصود هنا هو الفقيه أبو عبد الله زياد بن عبد الله بن محمد بن زياد الأنصارى الذى ترجم له ابن بشكوال فى الصلة ، فقال إنه كان الخطيب بالمسجد الجامع بقرطبة وصاحب صلاة الفريضة به ، ولد سنة 392 (1002) وروى فى الأندلس عن القاضى يونس بن عبد الله بن مغيث ، وكانت له رحلة إلى المشرق . وكان فاضلا ناسكا محببا إلى الناس رفيع المنزلة عندهم معظما لدى السلطان وتوفى سنة 478 (1085) . انظر الصلة 431 .

ولسنا نعرف إلام انتهت هذه القضية ، ولكن ما نقله ابن بسام من رسالة أبي مروان يسمح لنا على الأقل بأن نطلع من هذه الكوة الصغيرة على دار ابن حيان ، ونتعرف على بعض أسرار بيته وحياته اليومية .

السنوات الاخيرة :

(٤٦٢ — ٤٦٩ / ١٠٧٠ — ١٠٧٦)

إلى هنا ينتهى ما جمعناه من أخبار ابن حيان ، ويبدو لنا أن هذه الأخبار تنقطع — كما ينقطع عنا تاريخه — فى نحو سنة ٤٦٣ (١٠٧١) ، وهو قد شارف الخامسة والثمانين . على أن الذى نعرفه هو أن أبا مروان ظل قويا ممتعا بحواسه كلها حتى هذه السن . أما السنوات الست أو السبع الباقية من عمره فيلوح لنا أنه قضاها آمن السرب فى كسر داره القرطبية راضيا عن العمل الكبير الهائل الذى حققه على طول السنوات الماضية فى نشاط وحيوية لم يعرفا النصب أبداً .

لقد أدى أبو مروان الرسالة كخير ما يكون الأداء ، وحقق الغاية من حياة أملت عليه منذ البداية أن يصبح « حامل لواء التاريخ فى الأندلس » كما قال عنه أحد تلاميذه . ولم يبق عليه بعد هذه الحياة الخصبة الطويلة إلا أن ينتظر النهاية فى سكينة وطمأنينة ، شأن كل من أدى الواجب وبلغ الأمانة .

وأخيراً تأتى هذه النهاية يوم الأحد لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ٤٦٩ (٣٠ أكتوبر ١٠٧٦) . . . فى يوم من أيام الخريف القرطبى الدافئ . وتنطفئ شعلة هذا القلم الفذ الذى حمله أعظم مؤرخ عرفته أرض الأندلس . . .

ثقافة ابن حيـــان العامة :

أبو مروان بن حيان من النماذج الفذة على سعة الثقافة وحسن الإدراك ، والاستفادة الحقة من محصوله فن القراءات . والذى يتأمل ما بقى لنا من إنتاجه الهائل يزداد اقتناعا بأنه كان من أجمع علماء العصور الوسطى لعلوم الإسلام ، ولكن الذى يلاحظ لأول وهلة هو أنه كان عميق الإدراك لرسالة حياته الحقيقية ، وهى كتابة التاريخ ، فهو لم يفتح على نفسه باب التنويع والتفريع ، أو

الإستطالة بسعة العلم ليكتب « فى غير ما فن » كما نسمع عن كثير من علماء عصره، جانين بذلك على النوع الذى كان يمكن أن يجيدوه من التأليف لو فرغوا له وانقطعوا إليه . لا . . . كان ابن حيان ممن فطنوا إلى قيمة « التخصص » الدقيق بالمفهوم الحديث لهذا اللفظ . فقد كان بحسبه أن يفرغ لكتابة التاريخ ، وحتى فى هذا الفن لم يوسع على نفسه الخرق ، فلم يخطر بباله أن يكتب تاريخ الشرق والغرب أو الأمم القديمة والمحدثة ، وإنما اقتصر على تاريخ بلده منذ الفتح الإسلامى حتى عصره ، دون أن يتجاوز ذلك إلى غيره .

ومن هنا نرى أن مشاركة ابن حيان فى غير التاريخ من العلوم كانت جانبية ثانوية ، وحتى فروع الثقافة الأخرى لم تكن إلا جداول أو روافد تمد تيار علمه الحقيقى الذى كرس له حياته ، وهو علم التاريخ . وهكذا نرى أن مفهوم ابن حيان لمادة كتابته كان أشبه ما يكون بمفهومنا الحديث للتخصص العلمى الحق .

ومع ذلك فإن معاصرى ابن حيان ومن أتى بعده حتى من تلاميذه والمعجبين به لم يدركوا هذه الحقيقة ، ويبدو لنا ذلك مثلا فى فهرسة أبى بكر بن خير الإشبيلى التى يخرج قارئ الفقرات الخاصة بابن حيان فيها بنتيجة غريبة : وهى أن أبا مروان كان مجرد راوية لبعض كتب اللغة أو لبعض مسانيد الحديث ، أما ابن حيان المؤرخ فلا نرى له وجوداً هناك .

وقد شارك ابن حيان حقا فى هذين الميدانين ، فروى بعض الكتب فى اللغة والأدب والحديث ، وأدلى بآراء قيمة فى تلك الميادين وفى النقد الأدبى وفى المسائل الفقهية ، نراها مبثوثة فى ثنايا ما كتب ولكنا نحسب ابن حيان نفسه لم يعر كل ذلك إلا قيمة ضئيلة ، ولعله فعل لمجرد « الإحماض » أو ترويح النفس من عناء عمله المتواصل الدؤوب فى الميدان الذى لم يكد يخرج عنه إلى غيره ، وهو ميدان التاريخ .

ولنر الآن هذه المشاركة الضئيلة المتواضعة لابن حيان فى غير مجال الكتابة التاريخية :

نجد أولا من مظاهر اهتمامه بالأدب روايته لكتاب « الفصوص » لصاعد البغدادى . وقد سبق أن أشرنا الى أن ابن حيان نص على قراءتة هذا الكتاب على مؤلفه صاعد منفرداً فى داره سنة ٣٩٩ (١٠٠٨) ، (١) ، وكان ابن حيان آنذاك يناهز العشرين ، ومع ذاك فإن هذه الرواية

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ترجمة صاعد البغدادى ، رقم ٥٤٠ ، ص ٢٣٣ .

كفلت لابن حيان مكانا بارزاً بين رواة اللغة والأخبار . ولعل ذلك يرجع إلى ندرة كتاب الفصوص بعد أن ألح فى نقده والهجوم عليه كثير من أدباء قرطبة ، وأمر المنصور بن أبى عامر بتغريقه فى النهر حينما أخذ الناس يتندرون بأكاذيب صاعد ومخرقاته .

وقد روى ابن خير هذا الكتاب عن أبى محمد بن عتاب عن ابن حيان عن صاعد ، وهى الرواية الوحيدة التى يسجلها المؤلف للكتاب(١) ، مما يدل على أن ابن حيان قد أصبح المستودع الوحيد له فى عصره . وقد استفاد أبو مروان من « الفصوص » فى تاريخه « المقتبس » ، إذ اقتطف منه بعض الحكايات يذكرها استطرادا فى التعليق على نادرة وقعت فى الأندلس(٢) . وقد كان من المعتقد أن هذا الكتاب ضاع واندثر إلى الأبد ، ولكن البحث قد أثبت أن هناك الآن منه نسختين مخطوطتين فى المغرب الأقصى ، وأغلب الظن أن كلتيهما من رواية ابن حيان الذى لم يعد فى الأندلس من يقرئ هذا الكتاب سواه(١) .

ولم تكن هذه هى مشاركة ابن حيان الوحيدة فى رواية كتب اللغة ، فنحن نجد فى فهرسة ابن خير أيضا أن روايته لكتابين من كتب يعقوب بن السكيت(٢) كانت عن طريق ابن حيان :

---

(١) فهرسة ابن خير ص ٣٢٦ .

(٢) القسم الثالث من المقتبس ، بتحقيق الراهب ملتشور أنطونيا ، ط . باريس سنة ١٩٣٧ ص ١٤ .

(٣) إحدى هاتين النسختين محفوظة فى مجموعة من الكتب النادرة كانت ملكا للعالم المحدث المغربى الشيخ عبد الحى الكتانى – غفر الله له – وقد ضمت هذه المجموعة إلى الخزانة العامة فى الرباط . وقد كان من حظى أن اطلعت على هذه المخطوطة فى رحلة لى إلى المغرب ما بين ١٤ و ٣٠ يولية سنة ١٩٦١ من أجل البحث عن بعض المخطوطات الأندلسية الجديدة ، وكانت تلك النسخة تحمل رقا مؤقتا هو ١٦٦٨ ك . أما الأخرى فهى محفوظة فى مكتبة جامع القرويين بمدينة فاس تحت رقم ٥٨٧/٤٠ . والحقيقة أن الكتاب على الرغم من كل ما اتهم به صاعد ذخيرة بالغة القيمة ، ويستحق أن تتضافر الجهود على نشره . (انظر حول هذا الكتاب تقريراً كتبته عن الرحلة المذكورة ونشر فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلدين التاسع والعاشر ، ١٩٦١ – ١٩٦٢ ص ٤٥٠ ، ٤٥٨ من القسم العربى) .

(٤) أبو إسحاق يعقوب بن إسحاق بن السكيت من كبار علماء اللغة ، أخذ عن الأصمعى وأبى عبيدة من البصريين وعن الكسائى والفراء من الكوفيين ، ونادم الخليفة العباسى المتوكل غير أن هذا الخليفة أمر بقتله لتشيع كان يظهره فى سنة ٢٤٤ (٨٥٨) . انظر فى ترجمته بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، ط . دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٦١ ، ٢/٢٠٥ – ٢٠٩ ؛ والزبيدى طبقات اللغويين والنحويين ، بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبرهيم ، القاهرة سنة ١٩٥٤ ، ص ٢٢١ – ٢٢٣ .

ـ أولها كتاب « الألفاظ » الذى رواه أبو مروان بن حيان عن أبى عمر أحمد بن عبد العزيز ابن أبى الحباب عن أبى على القالى(١) ؛

ـ والثانى كتاب « إصلاح المنطق » ، وقد رواه أيضا بنفس السند(٢) .

كذلك نقل ابن خير تعليقا لابن حيان على أحد كتب العالم اللغوى الأندلسى الكبير أبى غالب تمام بن غالب المعروف بابن التيانى (المتوفى سنة ٤٣٦-١٠٤٤)(٣) يدل على تضلع ابن حيان فى علوم اللغة وممارسته لها . ونجد مثل هذه التعليقات فى مواضع مختلفة من « المقتبس » .

أما علم الحديث فلم يؤثر عن ابن حيان فيه إلا تعليق ينقله تلميذه أبو على الغسانى شيخ محدثى الأندلس عنه عن أبى الوليد بن الفرضى حول مصنف أبى على بن السكن ، ثم خبراً عن ابن السكن يرويه ابن حيان عن شيخه المحدث النسابة أبى القاسم بن أبى يزيد المصرى(٤) . وربما دلنا اهتمام ابن حيان بإيراد ثناء شيخه ابن الفرضى على مصنف ابن السكن ونقله بعض أخباره على أن هذا الكتاب كان من بين مرويات مؤرخنا وإن لم نجد نصا صريحا على ذلك .

وناحية أخرى من ثقافة ابن حيان تستحق منا الإشارة هى كتاباته فى ميدان الجغرافية الأندلسية ، وقد أفرد الدكتور حسين مؤنس هذا الجانب بالدراسة فى بحثه القيم عن « تاريخ الجغرافية

---

(١) تمام السند : أبو بكر بن خير ← عبد الرحمن بن أحمد بن رضا المقرئ ← أبو الوليد مالك بن عبد الله العتبى ← ابن حيان ← ابن أبى الحباب ← أبو على القالى ← محمد بن القاسم بن بشار الأنبارى ← أبوه القاسم بن بشار ← عبد الله بن محمد بن رستم مستملى يعقوب بن السكيت ← ابن السكيت . انظر الفهرسة ص ٣٢٩ .

(٢) تمام السند : ابن خير ← الشريف بن الأحمر القرشى ← أبو عبيد البكرى ← ابن حيان ← ابن أبى الحباب ← أبو على القالى ، ثم بقية السند كما هو فى الحاشية السابقة حتى ينتهى إلى ابن السكيت . انظر الفهرسة ص ٣٣٢ . هذا وقد نشرت دار المعارف كتاب « إصلاح المنطق » فى سنة ١٩٤٩ بتحقيق الأستاذين عبد السلام هارون والشيخ أحمد شاكر .

(٣) ابن خير : فهرسة ص ٣٦٠ — ٣٦١ .

(٤) ابن خير : فهرسة ص ١٢٥ . وقد وردت نسبة ابن أبى يزيد فى هذا النص « القصرى » بدلا من « المصرى » ، وهى تحريف . وقد اعتمدنا على هذا النص فى إثبات تلمذة ابن حيان على هذا المحدث الذى كان قد قدم من مصر إلى الأندلس فى سنة ٣٩٤ (١٠٠٤) وبقى فى قرطبة حتى الفتنة القرطبية ثم عاد إلى مصر فتوفى بها . أنظر ما سبق أن كتبناه فى الحديث عن شيوخ ابن حيان .

والجغرافيين فى الأندلس »(١) ، وقد كان التاريخ بطبيعته متصلا بالجغرافية ، وكان التقليد الجارى بين مؤرخى الإسلام فى العصور الوسطى أن يبدأوا مؤلفاتهم التاريخية بمقدمات جغرافية طويلة .
ويظن الدكتور مؤنس أن ابن حيان نقل بالفعل فى مقدمة كتاب « المقتبس » الجزء الجغرافى الذى صدر به أحمد بن موسى الرازى تاريخه ، بدليل أن هناك قطعا كثيرة من هذا القسم قد وصلت إلينا منسوبة إلى ابن حيان ، أو مما نص ابن حيان على نقلها عن الرازى . هذا فضلا عن الفوائد الجغرافية الكثيرة التى يضيفها ابن حيان فى ثنايا تاريخه شرحا أو تعليقا أو تحديداً للمواضع وخطط المدن والحصون والقرى والكور ، حتى إن هذه الفوائد الجغرافية التى يمكن استخراجها من تاريخ ابن حيان تكاد تؤلف كتابا صغيراً . وهذا صحيح ، على أنه لا يكفى لعد ابن حيان من المشتغلين بالجغرافية ، وإن كان يكفيه فضلا أنه قد تخرج على يده واحد من أعظم الجغرافيين المسلمين فى العصور الوسطى ، وهو أبو عبيد البكرى .

ولا يبقى علينا بعد ذلك فى معالجة إسهام ابن حيان فى غير ميدان الكتابة التاريخية إلا ما نسب إليه من الضرب بسهم فى قول الشعر ، والإشارة الوحيدة إلى ذلك هى التى وجدناها فى كتاب « المغرب » لابن سعيد(٢) حيث يقول فى ترجمته المبتورة الأول ؛

« وأنشد له نظما وقال : سبحان من جعله إذا نثر فى السماء ، وإذا نظم تحت تخوم الماء » .

ولم تحدثنا الترجمة عن صاحب هذا الحكم النقدى الذى يعنى أن شعر ابن حيان كان نازلا كثيراً عن طبقة نثره ، ولا يسهل علينا التحقق من صحة هذا النقد إذ لم يبق لنا من نظم ابن حيان بيت واحد ، ولو أننا نرجح صواب الحكم . وعلى كل حال فإن ابن حيان لم يفقد شيئا بفقد ما قد يكون نظمه من شعر ، فإن ذلك لم يكن من أدواته ، وما كان ليضيف إلى فضله قليلا ولا كثيرا .

* * *

على كل حال كانت هذه هى « الحملات » الوحيدة لأبى مروان بن حيان خارج ميدان تخصصه الحقيقى ، وهو كتابة التاريخ . ولكنها على تواضعها وقلتها نالت من اهتمام كتاب التراجم والطبقات والبرامج أكثر مما استحقه جهده التاريخى الهائل ، فقد كان هؤلاء بطبيعة عملهم وتكوينهم الثقافى أكثر تهمما برواية الحديث منهم بتتبع كتب التاريخ .

---

(١) نشر معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٦٧ ، ص ١٠١ – ١٠٢ .
(٢) ١١٧/١ .

تلاميذ ابن حيـــان :

أما تلاميذ ابن حيان فإننا نعرف منهم عددا غير قليل ، ولـكنه لا يقارن بعدد من كان يتردد على مجالس شيوخ الفقه والحديث ، ويظهر لنا أن هذا العدد من خاصة تلاميذه كان يتردد عليه فى داره ، إذ لا نعلم أن أبا مروان تحلق فى أحد المساجد حيث تكتظ المجالس بطلبة العلم .

وأهم ثبت بأسماء تلاميذ ابن حيان وتراجمهم هو الذى استطعنا استخراجه من « صلة » ابن بشكوال . ونورد فيما يلى أسماء هؤلاء التلاميذ :

١ ــ طاهر بن مفوز المعافرى الشاطبى (٤٢٧ ــ ١٠٣٦/٤٨٤ ــ ١٠٩١) وكان تلميذاً لأبى عمر بن عبد البر النمرى مختصا به ، كما روى كذلك عن العذرى وأبى الوليد الباجى فضلا عن أخذه عن ابن حيان(١) .

٢ ــ أحمد بن سليمان بن خلف الباجى (ت ١١٠٠/٤٩٣) ، وهو ابن الفقيه المالكى المشهور أبى الوليد الباجى وخليفته فى حلقته بعد وفاته(٢) .

٣ ــ مالك بن عبدالله العتبى السهلى (نسبة إلى سهلة المدور) ٤٣٧ ــ ١٠٤٥/٥٠٧ ــ ١١١٣)(٣) ، وقد أشرنا إليه من قبل بصفته من رواة كتاب « الألفاظ » لابن السكيت عن ابن حيان .

٤ ــ عبدالله بن محمد بن درى التجيبى الركلى (ت ١١١٩/٥١٣ ــ ١١٢٠) . وكان من أصحاب الفقيه أبى الوليد الباجى وابن حيان(٤) .

٥ ــ عبد الرحمن بن محمد بن عتاب (٤٣٣ ــ ١٠٤١/٥٣١ ــ ١١٣٧) ، وهو من أجل الشيوخ المحدثين . وكان ممن أجاز لهم ابن حيان رواية « الفصوص » لصاعد البغدادى(٥) .

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٥٤٥ .
(٢) صلة ، رقم ١٥٣ .
(٣) صلة ، رقم ١٣٩٤ .
(٤) صلة ، رقم ٦٤٠ .
(٥) صلة ، رقم ٧٤٧ .

٦ — أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن طريف بن سعد (ت ١١٢٦/٥٢٠) ، ولعله من أهم هؤلاء التلاميذ ، إذ ينص ابن بشكوال على أنه من رواة تاريخ ابن حيان الكبير ، كتبه بخطه . وعن هذه النسخة أثبت ابن بشكوال معظم نقوله عن ابن حيان . وهى بحكم طبيعة اهتمام مؤلف الصلة لاتكاد تتجاوز تلك الأخبار الموجزة العارية ، إذ هى متصلة بأسماء الرجال ومواليدهم ووفياتهم وشيوخهم وتلاميذهم . ومن أسف أن ابن بشكوال لم يستخرج لنا من تاريخ ابن حيان — وكان بين يديه — مادة أوفر كان من شأنها أن تثرى كتابه وتضفى عليه قيمة كبيرة — كما أضفت النقول عن ابن حيان على الذخيرة ، بل إنه فى تدينه البسيط رأى لزاما على نفسه أن يحذف كل ما من شأنه أن يتعرض فيه ابن حيان بالنقد لسلوك المترجم له .

ونختم هذا الثبت بثلاثة نعتبرهم أهم تلاميذ ابن حيان(١) :

٧ — أما الأول فهو ابنه عمر بن حيان بن خلف ، وقد قدمنا ذكره لا لتميز خاص فى هذا الباب من الناحية العلمية ، وإنما لكونه ابن مؤرخنا العظيم من ناحية ، ثم بسبب الظروف الفاجعة التى وقع فيها مصرعه . ولسنا نعرف الكثير عن عمر هذا ، إذ تقتصر السطور القليلة التى كتبها عنه ابن بشكوال والضبى(٢) أنه تلمذ على أبيه وعلى الفقيه أبى محمد بن حزم والمحدثين ابن عتاب وحاتم ابن محمد المعروف بابن الطرابلسى . ويذكر الضبى أنه رأى بخط يد هذا الشيخ الأخير إجازة له مؤرخة فى سنة ٤٤٨ (١٠٥٦) ، ووصفه أبو الحسن بن مغيث شيخ ابن بشكوال بأنه كان من أهل النبل والذكاء والفصاحة الكاملة ، ثم يضيف إلى ذلك قوله : « وقتله المأمون الفتح بن محمد بن عباد بالمدور سنة ٤٧٤ (١٠٨١) ومثل به » . وكان الفتح بن محمد (المعتمد) بن عباد عاملا لأبيه على قرطبة ، ولسنا نعرف الأسباب التى حملته على الفتك بعمر بن حيان ، فابن بشكوال لا يضيف شيئا إلى ماذكره فى ذلك النص المقتضب ، ولكنها على كل حال جريمة أخرى شنعاء توضع فى حساب هؤلاء الأمراء الجائرين المرخصين لدماء الناس وحرماتهم من أمراء الطوائف . وقد كان تاريخ بنى عباد فى ذلك أحفل تواريخهم بالجرائم السود : شرعها المعتضد بن عباد وواصلها ابنه المعتمد — الذى نال من عطف الناس والمؤرخين ومن رثائهم بعد ذلك ما لا يستحق — ، ثم

---

(١) انظر مقدمة الصلة ، ص ٨ ، وترجمة ابن طريف رقم ١٧٠

(٢) الصلة ، رقم ٨٦٦ ؛ البغية ، رقم ١١٦٣ .

أبناؤه من بعده »، على أن الفتح « المأمون » هذا دفع ثمن جريمته وغيرها مما أرتكبه بعد ذلك بعشر سنوات ، إذ قتله المرابطون عند محاصرتهم وفتحهم قرطبة سنة ٤٨٤ (١٠٩١) بعد أن خان هو وأبوه قضية الإسلام فى الأندلس . ورحم الله عمر بن حيان ، فلعله دفع بدمه ثمن تلك العبارات القاسية — مع أنها لم تخرج قط عن الصدق والعدل — التى دفع بها أبوه حكم أولئك الأمراء الجبناء ممن خضعوا وذلوا أمام أعداء دينهم وأمتهم ، وصبوا بأسهم كله على رعاياهم ، حتى أدال الله دولهم ، وطهر المرابطون من رجسهم أرض الأندلس .

٨ — والثانى هو المحدث الكبير أبو على الغسانى حسين بن محمد المعروف بالجيانى (٤٢٧ — ١٠٣٦/٤٩٨ — ١١٠٥) ، وكان رأس المحدثين بقرطبة ، فضلا عن علمه الواسع بكتب اللغة ورواية الأشعار وكتب التواريخ . وإلى أبى على الغسانى المذكور ترجع الأخبار القليلة التى أوردها ابن بشكوال حول ابن حيان ، وبعض عبارات الثناء التى تدل على وفائه لذكرى أستاذه وتقديره العميق له(١) .

٩ — وآخر من نذكره من هؤلاء هو الجغرافى اللغوى العظيم أبو عبيد البكرى (ت ٤٨٧/ ١٠٩٤)(٢) . وقد كان لعبد الله بن عبد العزيز البكرى — وهذا هو اسمه — مكانة خاصة فى نفس ابن حيان . يوسم فيه الذكاء والنجابة منذ شبابه الغض حينما قدم إلى قرطبة مع أبيه الذى كان المعتضد بن عباد قد خلعه عن إماراته فى ولبة وشلطيش سنة ٤٤٣ (١٠٥١ — ١٠٥٢) ، فقد أثنى عليه ابن حيان حينئذ قائلا إنه « بذّ الأقران جمالا وبهاء وسروا وأدبا ومعرفة »(٣) . ويبدو أن أبا عبيد البكرى لازم ابن حيان خلال إقامته فى قرطبة ، بل لعل شيخه أبا مروان هو الذى وجهه إلى الاشتغال بعلم الجغرافية الذى كان وثيق الارتباط بكتابة التاريخ(٤) . ونحن نعرف أن لأبى عبيد

---

(١) الصلة ، رقم ٣٢٩ .

(٢) الصلة ، رقم ٦٣٢ .

(٣) ابن الأبار : الحلة السيراء ١٨٢/٢ ، ابن عذارى : البيان المغرب ٢٤٢/٣ . وقد قدر الدكتور حسين مؤنس سن أبى عبيد فى ذلك الوقت بما يتراوح بين عشرين وخمس وعشرين سنة . انظر تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، ص ١١٥ .

(٤) أشار الدكتور حسين مؤنس فى بحثه الذى أشرنا إليه (ص ١١٦) إلى ما ذكره ابن بشكوال من تلمذة البكرى على ابن حيان ، ولكنه شك فى صحة هذا الخبر محتجا بأن ابن حيان لم يختصه إلا بمادة قليلة لا تغنى كثيراً فى التعريف به . ولسنا نجد فى ذلك أى غرابة ، فقد كان أبو عبيد آنذاك شابا فى سن الطلب ، ولم يكن قد بلغ من السن ولا العلم ولا المكانة =

كتابين فى الجغرافية أحدهما « معجم ما استعجم » ، والآخر هو « المسالك والممالك » الذى يعتبر — على حد تعبير الدكتور مؤنس صاحب خير دراسة صدرت عن الجغرافيين الأندلسيين حتى اليوم — « قمة من قمم التأليف الجغرافى فى هذا النوع عند المسلمين »(١) . ولا شك عندنا فى أن إحاطة البكرى الواسعة باللغة والأدب ، واهتمامه فى سياق جغرافيته بالأخبار التاريخية ، وما اتسم به من شمول النظرة ودقة التحقيق — كل ذلك مما نرى فيه أثر ابن حيان العميق فى تلميذه ماثلا لاخفاء به(٢)

كتب ابن حيـــان :

كان المستشرق الإسبانى الأستاذ غرسية غومس على حق حينما نبه فى سنة ١٩٤٦ إلى خطر الاهتمام المبالغ فيه من جانب الباحثين المحدثين بالكتب الضائعة أو المفقودة للمؤلفين القدامى على حساب كتبهم التى سلمت لنا من غائلة الزمان(٣) . وليس هناك شك فى قيمة البحث حول ما ضاع أو اندثر من كتب ، فهو لازم لبحث شخصية المؤلف فى مجموعها ، وهو ألزم لتتبع ما يمكن أن يكشف عنه أو يعثر عليه من هذه الكتب كلها أو أجزاء منها ، ولكن الخوف هو من أن يجور مثل هذا البحث على دراسة ما هو موجود فعلا وميسر بين الأيدى من الكتب ، ثم إن من الأجدى على البحث العلمى بغير شك توجيه العناية إلى هذه الطائفة الأخيرة من الكتب ، وتعمق تحليلها واستصفاء فوائدها .

وقد عنى كثير من الباحثين السابقين بتعداد مؤلفات ابن حيان ، وحملتهم رغبة ساذجة فى إعلاء شأن مؤرخنا وتضخيم شخصيته على أن ينسبوا إليه عددا هائلا من الكتب دون تحقيق ولا تمحيص ،

= ما يستحق معه أن يفرد له ابن حيان أكثر مما أفرد ، بل إن ثناء أبى مروان عليه فى العبارة التى ذكرناها ، وهو بعد فتى صغير ا إنما يدل على نفوذ نظر ابن حيان وصواب حكمه على تلاميذه وتمييزه للنابهين منهم . وعلى كل حال فإن تلمذة أبى عبيد على شيخ مؤرخى الأندلس ثابتة تؤكدها — فضلا عن نص ابن بشكوال فى ترجمته — تلك الإشارة الواردة فى فهرسة ابن خير الإشبيلى عن سندروايته لكتاب « إصلاح المنطق » ليعقوب بن السكيت (ص ٣٣٢) ، إذ جاء فيها : « . . . وقرأته أيضا على الشيخ الوزير أبى عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى ، قال : حدثنى به الشيخ أبو مروان حيان بن خلف بن حيان . . . » (ويبدو أن الدكتور حسين مؤنس لم يطلع على هذا النص) .

(١) ص ١٤٨ .

(٢) عن البكرى ومراجع ترجمته وقيمة مؤلفاته الجغرافية أنظر هذا البحث القيم الذى أشرنا إليه للدكتور مؤنس ص ١٠٨ — ١٤٨ .

(٣) انظر مقاله « حول ابن حيان » ص ٤٠٦ (= ص ١٢ من الفصلة) .

فنحن نرى بونس بويجس مثلا يقول إنه « نظم شعراً كثيراً (؟!) وألف كتبا كثيرة فى علوم الدين ومباحث الكلام (علم اللاهوت) وفى غير ذلك من المعارف ، حتى إن ما ينسب إليه من كتب لا يقل عن خمسين »(١) . فهذا حكم خاطئ من أوله إلى آخره . إذ لم يعرف لابن حيان شعر كثير ولا قليل ، ولا حفظ عنه أنه كتب فى أى مبحث دينى أو كلامى . وأما عدد كتبه فإنه لا يكاد يجاوز أصابع اليد الواحدة كما سنرى .

ولنر الآن كتب ابن حيان كما وصلت إلينا أخبارها فى المراجع المتأخرة :

١ — المقتبس :

وهو الكتاب الذى نقدم بهذه الصفحات لإحدى القطع التى وصلت إلينا من أصله المخطوط .

وليس هناك إجماع على صورة لعنوان هذا الكتاب ، فعنوان القطعة المخطوطة التى نشرها الراهب الإسبانى ملتشور أنطونيا فى باريس سنة ١٩٣٧ عن أصل محفوظ فى المكتبة البودلية بأوكسفورد هو « المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس » ، بينما عنوان القطعة التى كانت محفوظة فى مكتبة ورثة سيدى حمودة بقسطنينة (الجزائر) والتى استنسخ منها المستشرق الإسبانى فرانسيسكو كوديرا المخطوطة المحفوظة فى مكتبة المجمع التاريخى الملكى بمدريد هو « المقتبس فى أخبار بلد الأندلس » . أما ابن الأبار فإنه يذكر الاسم فى هذه الصورة : « المقتبس من أنباء أهل الأندلس » ، وهكذا جاء فى موضعين من كتابين له(٢) . أما القطعة التى نقدم لها بهذه الصفحات فلا تحمل عنوانا ، إذ هى مبتورة الأول .

والحقيقة أن المئونة هينة فى هذا الخلاف ، فالكتاب قد اشتهر باسم « المقتبس » فحسب ، بل إن الشائع فى كتابات المؤرخين عنه هو الحديث عنه باعتباره قسما من « التاريخ الكبير » لابن حيان ، وأما الصيغ المختلفة لعنوان الكتاب فهى لا تغير من جوهر الأمر شيئا .

وأما لفظ « المقتبس » فقد أطبق المستشرقون الذين سبقوا إلى الاهتمام بالكتاب مثل دوزى وبونس بويجس وملتشور أنطونيا وليفى بروفنسال وغرسية غومس على نطقه بكسر الباء ، أى بصيغة اسم الفاعل ، وليس لنا اعتراض على تسمية الكتاب بهذه الصورة ، فهى تحتمل وجها من

---

(١) المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ، ص ١٥٢ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ١/٢٩٠ ؛ إعتاب الكتاب ص ١٧٢ .

التأويل لا يبعد عن الصواب ، ولكنا نؤثر أن ندعوه « المقتبَس » بفتح الباء بصيغة اسم المفعول ، فهذا هو الأشيع فى عناوين الكتب(١) . والخطب هين على كل حال .

وموضوع « المقتبس » هو تاريخ الأندلس منذ الفتح العربى فى سنة ٩١ (٧١١) حتى قريب من عصر المؤلف ، وقد انتهينا من بحث هذه المسألة — كما سنرى — إلى أنه فى الواقع ينتهى بنهاية خلافة الحكم المستنصر على وجه التقريب . وقد كان كتاب المقتبس من بين الكتب التى افتخر بها الفقيه أبو محمد بن حزم فى رسالته فى فضل الأندلس ، إذ يقول :

« ومنها كتاب التاريخ الكبير فى أخبار أهل الأندلس تأليف أبى مروان بن حيان ، نحو عشرة أسفار ، من أجل كتاب ألف فى هذا المعنى ، وهو فى الحياة بعد ، لم يتجاوز الاكتهال »(٢) .

ويعلق ابن سعيد على هذا النص فيقول :

« وأما التواريخ فكتاب ابن حيان الكبير المعروف بالمتين فى نحو ستين مجلدة . وإنما ذكر ابن حزم كتاب « المقتبس » وهو فى عشر مجلدات ، والمتين يذكر فيه أخبار عصره ، ويمعن فيها مما شاهده ، ومنه ينقل صاحب الذخيرة »(٣) .

هذا وسوف نتحدث بمزيد من التفصيل عن كتاب « المقتبس » ، وعن المشكلات التى يثيرها النصان السابقان حول تحديد موضوعات كل من كتابى ابن حيان الرئيسين فى موضع ملائم من هذا التقديم .

---

(١) يذكرنا هذا بالخلاف حول نطق عنوان كتاب آخــر فى تاريخ الأندلس ، هو « المسهب فى أخبار المغرب » للحجارى ، فقد أشكل المقطع الأول من الاسم على القراء إلى حد جعل المعتمد بن عباد ملك إشبيلية يرسل إلى اللغوى الكبير أبى الحجاج الأعلم الشنتمرى يستفسره عن صحة قراءة الاسم ، وهل هو بفتح الهاء أم بكسرها . وأجاب الأعلم برد طويل يحتج لقراءته بالكسر (انظر المقرى : نفح الطيب ٥/٢١٦ — ٢١٩) ، ولو أن الكثيرين قبلوا فى الاسم القراءتين معا واعتبروهما صوابا . ورجح المقرى أن يكون بكسر الهاء لمــا يقتضيه المقطع الثانى من السجعة ، إذ ينتهى بلفظ « المغرب » بكسر الراء . على أن هذا لا ينطبق على عنوان « المقتبس » ، فآخر المقطع الثانى ، وهو الأندلس ينطق بضم اللام ، وهكذا لا يوائم اللفظة الأولى سواء أكانت بفتح الباء أم بكسرها .

(٢) المقرى : نفح الطيب ٤/١٦٧ .

(٣) نفس المرجع ٤/١٧٢ .

٢ ــ المتين :

وهو الذى وصفه ابن سعيد فى النص الذى أوردناه بأنه الكتاب الذى يذكر ابن حيان فيه أخبار عصره ويمعن فيه مما شاهده ، وأنه كان يتألف من ستين مجلدة . وقد ضاع هذا الكتاب ، ولكن فى كتب المؤلفين التالين لعصر ابن حيان نقولا كثيرة منه أهمها وأوفرها ما نجده فى كتاب « الذخيرة » لابن بسام الشنتريني ، حتى إنه لو استخرجت تلك النقول من مختلف أقسام الذخيرة المطبوعة والمخطوطة ومن بعض المراجع الأخرى مثل الجزء الثالث من البيان المغرب لابن عذارى وكتب ابن الأبار ومغرب بن سعيد وصلة بن بشكوال وترتيب المدارك للقاضى عياض ــ لأمكن « إعادة بناء » جزء كبير من « المتين » .

ويبدأ التأريخ فى « المتين » على ما نرجح بأحداث الفتنة البربرية التى انفجرت فى الأندلس ــ على بصر ابن حيان وبين يديه ــ فى سنة ٣٩٩ (١٠٠٨) ، وينتهى قبل موت مؤرخنا بسنوات قليلة ــ فى نحو سنة ٤٦٣ (١٠٧١) ، فهذا على الأقل هو التاريخ الذى تنقطع فيه نقول ابن بسام من كتاب « المتين » ، أى أنه يتناول تأريخ نحو أربع وستين سنة من حياة الأندلس المعاصرة لابن حيان ، وهى معظم هذا العصر الذى يعرف باسم « عصر ملوك الطوائف » .

وهناك مسألتان تعرض لهما الباحثون قبلنا عند الحديث عن التمييز بين كتابى المقتبس والمتين ــ ولنصرف النظر الآن عن كتاب « أخبار الدولة العامرية » الذى سنفرده بالبحث بعد ذلك ــ :

أما الأولى فقد كان المستشرق الهولندى العظيم راينهارت دوزى هو أول من تعرض لها ، فقطع فيها برأى تلقفه جميع الباحثين من بعده وتبعوه عليه ، وهو أن « المقتبس » كان أول كتب ابن حيان فى الظهور ، وهو شئ يبدو منطقيا بعد أن رأينا نص ابن حزم السابق حول « تاريخ » ابن حيان ، وتفسير ابن سعيد لهذا النص بأنه لا يقصد إلا « المقتبس » دون غيره ، لاسيما وأن ابن حزم يصف فيه ابن حيان بأنه لم يجاوز الاكتهال . واستنتج دوزى من ذلك أن « المقتبس » هو كتاب ابن حيان وهو فى طور الشباب ، بينما كان « المتين » هو ثمرة إنتاجه إبان شيخوخته ونضجه(١)

---

(١) انظر مقدمة دوزى لنشرته لكتاب البيان المغرب .

Reinhardt Dozy : Histoire de l'Afrique et de l'Espagne entitulée Albayano l-mogrib, ed. Leyde, 1848, intrd., p. 73.

وردد هذا الحكم كل من مورينو نييتو Moreno Nieto فى بحثه : « دراسة نقدية للمؤرخين الأندلسيين » ، (وهو الخطاب الذى ألقاه عند استقباله عضوا فى المجمع الملكى التاريخى الإسبانى فى ٢٩ مايو ١٨٦٤)(١) ، ثم بونس بويجس(٢) ، وملتشور أنطونيا(٣) .

وقد يكون صحيحا إلى حد ما أن ابن حيان أخرج « المقتبس » إلى الناس قبل أن يخرج المتين ، فالكتاب الأول بحكم موضوعه الذى يتناول تاريخ الأندلس حتى آخر خلافة الحكم المستنصر كان من الممكن استيفاؤه واستكماله دون أن تكون هناك مئونة على المؤلف فى إخراجه ، ولا ضرورة لإعادة النظر وتكراره فيه ، بينما كان « المتين » بحكم معالجته للتاريخ المعاصر محتاجا إلى تنقيح مستمر وإضافات يقتضيها تتابع الأحداث الواقعة تحت بصر ابن حيان وبين يديه .

ولكن الذى لا نراه مقبولا هو أن يفرق بين الكتابين على أساس أن « المقتبس » نتاج شباب و « المتين » نتاج شيخوخة . فالذى نتصوره هو أن ابن حيان لم يسر حسب خطة موضوعة تقضى بتأليف « المقتبس » أولا ، حتى إذا فرغ منه بدأ بكتابة المتين ، بل كان شروعه فى العملين فى وقت واحد . أما المقتبس فهو فى جملته يعتمد على المدونات التاريخية السابقة ، أى أنه كان يتطلب جهداً من البحث فى مختلف المراجع والمقارنة بين رواياتها وتسجيل نتائج هذه الأبحاث ، فهو جهد أشبه بما يبذله الباحث منا اليوم حينما يجمع مادة موضوعه من مختلف المراجع القديمة ، واضعاً إياها أمامه ، ومرتباً مادتها ، وراجعا إلى هذا الكتاب مرة ، وإلى ذاك مرة أخرى . وهو عمل لا يكاد يعوز ابن حيان فيه إلا مكتبة غنية بالمصادر ، ولحظات هدوء ، وعكوف على القراءة والتقييد . وأما « المتين » فهو كتاب يختلف منهج كتابته عن ذلك كل الاختلاف ، فهو تسجيل للتاريخ المعاصر الذى يعيشه المؤلف وتتلاحق أحداثه بين يديه ، وكان لذلك لا يقتضى من أبى مروان

---

(١) Moreno Nieto : Estudio critico sobre los distoriadores aràbigo-españoles, ed. Madrid, 1882.

(٢) الجغرافيون والمؤرخون الأندلسيون ص ١٠٤ .

(٣) فى الرسالة التى تقدم بها لنيل الدكتوراه من جامعة مدريد فى سنة ١٩٢٣ بعنوان « ابن حيان القرطبى وتاريخه للأندلس » ص ٣٣ . وقد نشرت هذه الرسالة بعد مقتل مؤلفها الراهب الإسبانى فى سنة ١٩٣٧ (فى الحرب الأهلية الإسبانية) وذلك فى مجلة « دفاتر تاريخ اسبانيا » التى يصدرها « معهد تاريخ الثقافة الإسبانية فى العصور الوسطى والحديثة » التابع لكلية الفلسفة والآداب بجامعة بوينوس أيرس (الأرجنتين) ، المجلد الرابع ، سنة ١٩٤٦ ، ص ٥ — ٧٢ .

Melchor Antuña : Ibn Hayyan de Cordoba y su Historia de la España musulmana, en Cusdernos de Historia de España, vol. IV, 1946, Buenos Aires, pp. 5-72.

الرجوع إلى كتاب ، وإنما يحتاج إلى استقاءبا الأخر من مصادر أخرى : منها النزول إلى الشوارع والأسواق ، والتجول فى أنحاء المدينة لكى يرى ويشاهد ما يقع ، ثم يسجل ما رآه ، ويجتمع بالناس فى المجالس العامة والخاصة ، فيسمع منهم ما يروى من أخبار ، وما يتناقل من إشاعات ، وما يأتى به القادمون من هذه المدينة أو تلك إلى قرطبة – فهو لم يغادر بلده أبداً طيلة حياته – ، ثم يعود المؤرخ إلى داره ، فيقيد كل ما شهده وما سمعه ، فاذا أعوزه خبر من مكان بعيد من بلاد الأندلس كتب إلى نفر من أصدقائه أو « مكاتبيه » كما يسميهم – ضرب من « المراسلين الخاصين » كما يقال اليوم بلغة الصحافة – ، لكى ينبئوه بما جد لديهم من أخبار ، ويتلقى رسائلهم فينعم النظر فيها ، وينتقى منها فى كتابه ما يراه متفقا مع منهجه فى الكتابة بعد أن يصوغها بأسلوبه ويسمها بميسمه الخاص الذى لا يجارى .

« المقتبس » إذن جهد باحث مخلد إلى العمل فى هدوء مكتبته بعيداً عن صخب المدينة وضجيجها ، وأما « المتين » فهو ثمرة تسجيل هذا الصخب والضجيج نفسه لا فى قرطبة فحسب بل وفى كل أنحاء الأندلس . . . هو أشبه بجهد رجل من رجال صحافة اليوم يتشمم الأخبار و « يبحث عن المتاعب » جريا وراء الحقيقة أينما كانت ! . . .

والذى نكاد نقطع به – وهو الذى يقتضيه منطق الأمور – هو أن ابن حيان – فى جهده « لتغطية » تاريخ الأندلس كله حتى وقته – إنما كان يقوم بالعملين معا وفى وقت واحد ، بل إننا نعرف مما سبق أن ذكرناه أنه كان يسجل مشاهداته وذكريات أبيه خلف كاتب المنصور منذ أواخر أيام الدولة العامرية وهو دون العشرين ، ونرجح أنه كان يكتب « يوميّات » يقيد فيها كل ما يرى ويسمع أو يبلغه عن ثقة . وظل على ذلك طوال سنوات الفتنة وما بعدها . ولابد أنه كان كلما تجمعت له مادة عن تاريخ الأندلس الذى كان يعيشه يوما بيوم رتبها وهذبها وأعدها لتتألف منها بعد فصول « المتين » ، فاذا أتيح له وقت فراغ عاد إلى كتاب « المقتبس » الذى كان أخف مئونة عليه ، إذ هو التاريخ الذى لا خشية من ضياعه ولا نسيانه ، بحكم أن مراجعه من الكتب السابقة متوفرة بين يديه . وهكذا مضى أبو مروان فى كتابيه معا ، ولعله يكون قد فرغ من « المقتبس » قبل أن تكتمل له من « المتين » مادة يرتضيها لإخراج أول « طبعة » منه إلى الجمهور ، وإن كنا نعتقد أن الفارق الزمنى بين الكتابين ليس طويلا على كل حال .

ونقول أول « طبعة » كما نقول اليوم لأن « المتين » باعتباره التاريخ الحى المتحرك كان فى حاجة دائما إلى تكرار النظر والإضافة أو الحذف والاستدراك . وقد تبينا من الأخبار التى جمعناها عن هذا الكتاب أن ابن حيان أخرج نسخا منه مختلفة بمضى الزمن .

ويبدو أن إحدى هذه « الطبعات » — وليست أولها بغير شك — كانت متداولة فى الأندلس قبل سنة ٤٥٥ (١٠٦٣) ، وذلك لأننا نرى ابن بسام — فيما ينقل عنه ابن عذارى(١) — يقول عن واقعة بطرنة (Paterna) التى هزم المسلمون فيها فى تلك السنة :

« لم يقع إلى خبر وقعة بطرنة فى كتاب ابن حيان ، فكنت أوليه حكمه ، وأعتمد فيه وصفه الرائق ونظمه » .

وما كانت هذه الواقعة الشنيعة لتفوت قلم ابن حيان ، ولهذا فإن التفسير الوحيد الممكن لذلك هو أن ابن بسام إنما رجع إلى إحدى نسخ المتين التى كتبت قبل سنة ٤٥٥ .

وفى « المغرب » لابن سعيد(٢) نص آخر له دلالته . فى ترجمة أبى القاسم سراج بن عبدالله ابن سراج قاضى الجماعة بقرطبة بعد أبى بكر يحيى بن محمد بن يبقى بن زرب ينقل ابن سعيد عن ابن حيان قوله بعد ذكر ولايته القضاء سنة ٤٤٨ (١٠٥٦) ؛ « وهو مقيم على حاله إلى وقت إملاء هذا الكتاب وقد نيف على الثمانين » . فإذا عرفنا أن سراج بن عبد الله المذكور توفى سنة ٤٥٦ (١٠٦٤) عن ٨٦ سنة(٣) كان معنى ذلك أن ابن حيان قد أخرج هذه النسخة التى اطلع عليها ابن سعيد من « المتين » بعد سنة ٤٥٠ وقبل ٤٥٦ .

ويبدو أن ابن بسام بعد ما كتب ماذكرناه وقعت له نسخة أخرى من « المتين » تناول فيها أخبار سنة ٤٥٦ ، ومنها نقل خبر خوض أهل قرطبة فى الذى رأوه من تنافس ولدى أبى الوليد محمد بن جهور : عبد الرحمن وعبد الملك إلى آخر الخبر(٤) . ويعقب ابن بسام على ذلك بقوله :

« إلى هذا الموضع انتهى ما وجدته من أخبار الدولة الجهورية من كتاب ابن حيان وقت

---

(١) البيان المغرب ٣/٢٥٣ .

(٢) المغرب ١/١٦٢ .

(٣) انظر ترجمته فى ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٥١٧ ؛ والضبى : البغية ، رقم ٧٨٠ .

(٤) الذخيرة ق ١ — ٢/١٢٠ — ١٢١ .

تجردي للفراغ من تتميم هذا الديوان ، واستعجلت لإخراج هذه النسخة المقررة منه ، وأعياني تتبعه لآثارهم ، وشرد على وجود لفظه ونظمه لبقية أخبارهم ، ولم أجد بدا من نظامها ، لتجئ أخبارهم بتمامها ، فرقعت الضحى بالغلس ، وجمعت بين حافر العير وجبهة الفرس »(١) .

ومع ذلك فنحن نرى فى الذخيرة أخباراً تلى ما يذكره هنا ، منها كائنة بربشتر التى استولى عليها المجوس (النورمانديون) فى سنة ٤٥٦ (١٠٦٤)(٢) ، وقضية اغتيال الأديب أبى مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبنى سنة ٤٥٧ (١٠٦٥)(٣) ، ويظهر أنها مستمدة من نسخة أخرى تلى التى تقدمتها .

ثم وقعت لابن بسام مخطوطة تبدو هى الأخيرة ، إذ نجد فيها تسجيل أحداث سنتى ٤٦٢ و٤٦٣ (١٠٧٠ — ١٠٧١) نذكر منها حدثا وقع فى سوق إشبيلية بسبب نزاع بين يهودى ومسلم فى ١٣ من ذى الحجة سنة ٤٦٢ (٥ نوفمبر ١٠٧٠) ، وتنتهى هذه الأخبار بذكر وفاة الشاعر أبى الوليد ابن زيدون فى رجب سنة ٤٦٣ (أبريل ١٠٧١)(٤) . وهذا هو آخر ما نعلم أن ابن حيان قد سجله فى تاريخه ، إذ أن وفاته لم تتأخر بعد ذلك إلا ست سنوات . ولعل ابن حيان كان آنذاك يضع اللمسات الأخيرة لآخر « طبعات » المتين ، وإلى هذا التاريخ ترجع إعارته « السفر الأخير » من الكتاب لصديقه الأديب أبى القاسم بن عبد الغفور كما سبق أن أشرنا إلى ذلك(٥) . وكان ابن حيان آنذاك فى نحو الخامسة والثمانين . وإنما نرجح ذلك لاننا لم نر فى الذخيرة ولا غيرها من الكتب نقولا حول أحداث تلى تاريخ سنة ٤٦٣ (١٠٧١) .

أما المسألة الثانية المتعلقة بالتمييز بين كتابى « المقتبس » و « المتين » فإننا نقصد بها ما افترضه دوزى ومن تابعه على رأيه من الباحثين من وجود « فروق جوهرية » بين أسلوب ابن حيان فى هذا الكتاب وفى ذاك ، وقد أرجع دوزى هذه الفروق إلى ما سبق أن ذكره من أن « المقتبس » هو

---

(١) الذخيرة ق ١ — ١٢٢/٢ — ١٢٣ .

(٢) الذخيرة ، القسم الثالث ، مخطوطة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، ورقة ٢٢ب — ٢٤ ا ؛ والبيان المغرب ٢٥٤/٣ — ٢٥٥ ؛ والمقرى : نفح الطيب ١٩١/٦ — ١٩٨ (وكلاهما ينقل عن ابن بسام) .

(٣) الذخيرة ، ق ١ — ٥٢/٢ — ٥٧ .

(٤) الذخيرة ق ١ — ٣٥٤/١ — ٣٥٦ .

(٥) الذخيرة ق ١ — ٩٧/٢ ؛ وانظر ما سبق أن كتبناه عن ذلك فى ص ٣٦ .

كتاب ابن حيان الناشئ الحديث العهد بالكتابة التاريخية ، بينما المتين هو كتاب مؤرخنا حينما تقدمت به السن وحككته التجارب فبلغ مرحلة النضوج . فهذه المسألة إذن كما نرى مترتبة على الأولى متفرعة عنها .

وإذا كنا قد أثبتنا أنه لا أساس لذلك التفريق الزمني بين الكتابين فإننا نرى أن هذه « الفروق » لا وجود لها فى الحقيقة ، وإنما هناك طريقتان استخدمها ابن حيان فى كتابة شطرى تاريخه نتيجة لاختلاف طبيعة الموضوع هنا عنه هناك واختلاف المصادر التى اعتمد عليها المؤرخ فى كتابة كل منهما تبعا لذلك .

ويصل دوزى فى توهم تلك « الفروق » إلى حد القول بأنه « مهما كانت مميزات « المقتبس » فإن هذا الكتاب لا يزيد على كونه واحداً من « التقاييد التاريخية » (chronique) ، صحيح أنه خير من كل ما ألفه المؤرخون السابقون عليه ، ولكنه ينتمى إلى هذه الطائفة من الكتابات ، أما « المتين » الذى سجل ابن حيان فيه تاريخ بلده المعاصر فهو الذى يعتبر « تاريخا » (histoire) حقيقيا بمعنى الكلمة »(١) .

وكرر من أتى بعد دوزى من المستشرقين هذا الرأى بغير مناقشة فيما عدا الأستاذ غرسية غومس الذى تنبه بحسه المرهف وذوقه الأدبى خطأ ذلك الحكم المتواتر ، ففطن إلى أنه ليست هناك فروق أسلوبية بين « المقتبس » و « المتين » ، وإنما نجمت هذه الفروق المزعومة من « أن ابن حيان كان يعتمد فى « المقتبس » على مؤرخين سابقين له فيأتى فى معظم صفحاته بنصوصهم وكلامهم ، بينما المتين كله من إنشائه هو . أما المواضع التى ينص فيها ابن حيان على كلامه — وهى فى الغالب تعليقات أو تلخيص للآراء السابقة وإعطاء خلاصة لها مع الإدلاء برأيه — فأسلوب ابن حيان فيها هو نفس أسلوبه فى المتين دون أدنى فارق »(٢) .

---

(١) دوزى : مقدمة البيان المغرب ص ٧٣ . والباحث يفرق بين « التقييد التاريخى » أى الكتاب الذى يكتفى بمجرد التسجيل البارد للأحداث وبين « التاريخ » الذى تبرز فيه شخصية الكاتب وآراؤه وفلسفته .

(٢) انظر مناقشة غرسية لآراء أولئك الباحثين السابقين ورأيه الذى أوردنا هنا خلاصة فى مقاله « حول ابن حيان » ص ٤١٢ — ٤١٨ (= ١٨ — ٢٤ من الفصلة) .

ونحن نوافق غرسية غومس على هذا الرأى فى خطوطه العامة ، ولكنا لا نسلم له بأن « المقتبس » ليس إلا نسيجا من الكتب التاريخية السابقة وأن ابن حيان اقتصر فيه على مجرد النقل عمن سبقه من المؤرخين . على أننا سنعود إلى بحث هذه النقطة فيما بعد .

٣ ـ أخبار الدولة العامرية :

يشهد بوجود هذا الكتاب بين مؤلفات ابن حيان معظم من كتب عنه كابن الأبار(١) وعبد الواحد المراكشى(٢) وابن سعيد(٣) وابن الخطيب(٤) والمقرى(٥) . ويزيدنا ابن الخطيب بيانا بهذا الكتاب فى موضع آخر ، فيقدم لنا فائدة طيبة عن حجم الكتاب وأجزائه ، إذ يقول : « ذكر أبو مروان حيان بن خلف فى كتابه الذى أنافت على المائة أسفاره المسمى بأخبار الدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية ، وما جرى فيها من الأحداث الشنيعة »(٦) . أما هذه الأسفار المائة فهو شئ يتوقف على ما يفهمه ابن الخطيب من لفظ سفر ، فهو شئ نسبى يرجع إلى التقدير ، وقد يكون السفر كراسة أو ملزمة(٧) ، هذا مع التسليم بأن الكتاب لابد أن يكون بالفعل بالغ الضخامة .

أما عنوان الكتاب فلم يحدده بدقة إلا ابن الخطيب فى نفس النص السالف ، ونظن فعلا أن العنوان الطويل الذى ساقه هو عنوان الكتاب كما وضعه ابن حيان ، فقد كان مؤرخنا يميل إلى هذه العناوين الطويلة المفصلة ، أما العنوان الذى يفيدنا به عبد الواحد المراكشى وهو « المآثر العامرية » فيبدو أن عبد الواحد إنما خلط فيه بين هذا الكتاب وكتاب آخر بهذا العنوان لحسين

---

(١) الحلة السيراء ٢٢٧/١ ، ٢٦٩ .

(٢) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، بتحقيق الأستاذين محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى ، القاهرة ١٩٤٩ ص ٣٨ .

(٣) المغرب ١٩٩/١ حيث يقول فى ترجمة المنصور بن أبى عامر إن لابن حيان فيه « كتابا مفردا » .

(٤) أعمال الأعلام ص ٤٨ .

(٥) نفح الطيب ٣٧٦/١ حيث يذكر لابن حيان « كتابا مخصوصا بالدولة العامرية » .

(٦) أعمال الأعلام ص ٩٨ .

(٧) كتاب « جذوة المقتبس » للحميدى ، الذى نشر فى مجلد واحد فى ٣٩٠ صفحة مقسم فى الأصل إلى عشرة أجزاء . وهذا مثل واحد يمكن أن نضيف إليه الكثير ، وهو يحملنا على أن نلزم جانب الحذر فى تقدير ما يذكره المؤلفون القدامى حول أجزاء الكتب التى يشيرون إليها وأسفارها .

ابن عاصم(١) ، ومثل هذه الأخطاء كثيرة فى كتاب « المعجب » الذى وضعه مؤلفه وهو فى المشرق معتمداً فيه على ذاكرته بعيداً عن كتبه وأدوات عمله .

وتواجهنا مشكلة بشأن هذا الكتاب : لقد اصطلح من كتبوا عن ابن حيان على أن تاريخه الكبير يتألف من « المقتبس » و « المتين » ، فا مكان هذا الكتاب بينهما ؟ وهل يعتبر عصر الدولة العامرية من الفترة السابقة على ابن حيان فيكون أقرب إلى اللحاق بالمقتبس ؟ أو من الفترة التى عاشها المؤلف وعاصرها فيكون أشبه بأن يدرج فى المتين ؟ فابن حيان قد ولد فى ظل الدولة العامرية وقضى صباه وأولى سنى شبابه فى ظلها (بين ٣٧٧ و ٣٩٩) .

ولهذا فقد تتبعنا النقول المحتملة عن هذا الكتاب فى المصادر المتأخرة ، فوجدنا ابن الخطيب مثلا — وهو الذى نقل عنوان الكتاب كاملا وقدم لنا وصفا له — ينقل عنه كما يغلب على ظننا فى موضعين : أحدهما قطعة كبيرة حول أيام عبد الملك المظفر بن المنصور العامرى(٢) ، والآخر هو الذى يعلق فيه ابن حيان على القران الفلكى الواقع فى سنة ٣٩٧ (١٠٠٦ — ١٠٠٧) وإرجاف الناس به وتطيرهم منه وتأويلاتهم له بقرب وقوع فتنة مدمرة(٣) . غير أن الغريب فى الأمر هو أن ابن الخطيب فى كلا الموضعين ينص على أنه ينقل عن « المتين » بينما الأولى أن تكون هذه النصوص مستخرجة من كتاب « أخبار الدولة العامرية » . كذلك نلاحظ أن ابن بسام أورد كثيراً من الأخبار الخاصة بالعامريين دون أن يشير إلى عنوان كتاب ابن حيان الذى ينقل منه ، ولكن لابن سعيد نصا صريحا فى أن كل ما أورده ابن بسام فى كتابه من تاريخ ابن حيان فإنه من كتاب « المتين » . وابن سعيد نفسه يورد ترجمة لابن دراج القسطلى (ت ٤٢١-١٠٣٠) ناصا على أنه ينقلها عن « المتين »(٤) مع أن المفروض هو أن تكون هذه الترجمة مأخوذة من « أخبار الدولة العامرية » إذ أن ابن دراج وإن كان قد لحق الفتنة وعاش بعدها نحواً من عشرين سنة فهو شاعر العامريين الأكبر وربيب دولتهم ومكانه أقرب إلى أن يوضع فى الكتاب الخاص

---

(١) عن كتاب المـآثر العامرية لحسين بن عاصم انظر رسالة ابن حزم فى فضل أهل الأندلس ، فى نفح الطيب للمقرى ١٦٧/٤ ؛ ابن بشكوال : صلة ، رقم ٣٢٤ ؛ الحميدى جذوة ، رقم ٣٧٥ ؛ الضبى : بغية ، رقم ٦٥٠ ؛ ابن الأبار : تكلة ، رقم ٧٣ ؛ وانظر كذلك كتاب بونس بويجس عن المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين ص ١٢٢ .

(٢) أعمال الأعلام ص ٨٤ — ٨٩ .

(٣) نفس المرجع ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(٤) المغرب ٦٠/٢ .

بهذه الدولة من أن يجعل فى كتاب « المتين » . وكل هذا يوحى بأن « أخبار الدولة العامرية » كان أقرب صلة إلى « المتين » وأشبه بأن يكون قسما منه . ولكنا مع ذلك نجد المقرى ينقل عن ابن حيان ترجمة للشيخ أبي الوليد الفرضى وفيها قصة استشهاده على أيدى البربر سنة ٤٠٣ (١٠١٣)(١) والغريب فى الأمر هو نص المقرى على أنه ينقل هذا الخبر عن « المقتبس » ، مع أن ابن الفرضى قضى الشطر الأعظم من حياته فى ظل الدولة العامرية وكان مصرعه فى الفتنة التى أعقبت سقوط دولتهم .

على أن ابن الأبار يوفر علينا مئونة البحث والتخمين ، فهو يدلى لنا بإيضاح عظيم القيمة فيه تفسير لهذا الإضطراب الواقع بين المؤرخين ، وذلك إذ يقول فى معرض الكلام عن غزوات المنصور بن أبى عامر :

« وغزواته فى كل صائفة متصلة أزيد من خمسين ، عدها ابن حيان فى كتابه الموضوع فى أخبار الدولة العامرية ، وجعله لمن شاء خزله عن تاريخه الكبير أوضمه إليه »(٢) .

وقد يكون ابن حيان نفسه اضطرب فى تحديد مكان تاريخه للدولة العامرية ، وذلك بحكم كون هذا التاريخ فى مركز وسط بين تاريخ دولة بنى أمية والفتنة التى أسفرت عن قيام ملوك الطوائف ، وباعتباره يعالج فترة تاريخية مستقلة قائمة بذاتها ، فاعتبره مرة نهاية للمقتبس ، ومرة أخرى بداية أو مقدمة للمتين ، ثم أفرده بذاته وجعل لقارئه الخيار فى أن يضمه إلى حيث شاء من « تاريخه الكبير » .

أما الفترة التى يعالجها كتاب « أخبار الدولة العامرية » فمن رأينا أنها تنحصر بين ولاية هشام المؤيد الخلافة سنة ٣٦٦ (٩٧٦) ثورة محمد بن هشام المهدى على العامريين فى سنة ٣٩٩ (١٠٠٨) وإطاحته بهذه الأسرة التى ظلت خلال ثلث القرن الماضى مستبدة بالسلطة حاجبة عنها الخليفة الشرعى . وربما دل على صواب هذا التحديد أن ابن الخطيب يدرج فيما نقله عن كتاب « الدولة العامرية » ذكر بيعة هشام المؤيد وجلوسه على عرش الخلافة بعد وفاة أبيه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦(٣) .

---

(١) نفح الطيب ٣٣١/٢ .

(٢) الحلة السيراء ٢٦٩/١ .

(٣) أعمال الأعلام ص ٤٨ .

فإذا صح استنتاجنا هذا فإنه يكشف لنا بالضبط عن مادة الكتب الثلاثة التى تحدثنا عنها حتى الآن :

١ — « المقتبس » : ويتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح العربى حتى آخر خلافه الحكم المستنصر (٩١ — ٣٦٦-٧١١ — ٩٧٦) .

٢ — « أخبار الدولة العامرية » : منذ تولى هشام المؤيد الخلافة حتى ثورة المهدى ومصرع عبد الرحمن شنجول بن المنصور (٣٦٦ — ٣٩٩-٩٧٦ — ١٠٠٨) .

٣ — « المتين » : منذ الفتنة حتى قرب وفاة ابن حيان (٣٩٩ — ٤٦٣-١٠٠٨ — ١٠٧١) .

٤ — البطشة الكبرى :

فى يوم الأحد لتسع بقين من شعبان سنة ٤٦٢ (أول يونية ١٠٧٠) وقع فى قرطبة حدث ارتجت له الأندلس كلها . فإن المعتمد بن عباد — ولم يمض على تولية ملك إشبيلية إلا عدة شهور بعد وفاة أبيه المعتضد — استطاع أخيراً أن يستولى على قرطبة ، وأن تخطب منابرها باسمه ، بعد أن استعصت على أبيه مع ضراوته وصرامته وتكرر محاولاته لافتتاحها . وكان ذلك بعد خدعة غادرة اعتدناها من أولئك الأمراء الصغار الذين لم يكن لهم هم فى ضآلة مطامحهم وضعة نفوسهم إلا أن يثب كل منهم بجيرانه محاولا أن يقتطع من مملكته ما يستطيع ، مع أن خطر الممالك المسيحية فى الشمال كان يزداد ويستفحل مهددا جميعهم بمحو سلطانهم وبحسر ظل الإسلام عن الأندلس كلها ، وهم فى معاركهم الصغيرة سادرون ، يظن كل منهم إذا انتزع من أحد جيرانه قرية أو حصنا أنه البطل المغوار الذى لا كفاء له . وكان هذا أمر قرطبة ، فقد كانت تعرضت لغزو المأمون ابن ذى النون الذى ضرب عليها حصاراً كثيفا ، فبادر عبد الملك بن جهور إلى الاستنجاد بالمعتمد ابن عباد ، كما سبق أن ذكرنا عند الكلام عن أخبار الدولة الجهورية ، ولكن جيش المعتمد لم يلبث أن غدر بابن جهور وخلعه عن رياسة قرطبة ، وأعلنت فى المدينة الدعوة للمعتمد ، وتقرر نفى من بقى من بنى جهور إلى شلطيش حيث مات عميدهم أبو الوليد بعد نكبتهم بأربعين يوما .

وما كان هذا الحادث الجلل الواقع فى قرطبة ليفوت قلم ابن حيان الذى سجل حتى الآن فى كتاب « المتين » كل أحداث ملوك الطوائف . وهكذا قرر أن يختصه بكتاب مفرد اتخذ له هذا العنوان الروائى المعبر : « البطشة الكبرى » . ولابد أن هذا الكتاب الذى ألفه ابن حيان وسنه تناهز الخامسة والثمانين هو آخر ما خطه قلم مؤرخنا الدؤوب الذى لم يعرف الراحة ولا الكلال .

ويقول ابن الخطيب فى وصف هذا الكتاب : « وقد أفرد أبو مروان ابن حيان لهذه النكبة الجهورية كتابا سماه « البطشة الكبرى » ، وكلامه فيه من لباب بلاغته »(١) ؛ أما ابن بسام فإنه يقول : « فصح عندى أنه وصف كيفية خلعهم وإخراجهم من قرطبة فى جزء كبير سماه « البطشة الكبرى » فى مجلد كبير لم يقع إلى وقت هذا التحرير »(٢) .

* * *

من هذه الكتب الأربعة التى تحدثنا عنها يتألف ما يعرف باسم « التاريخ الكبير » لابن حيان ، وهذا هو ما فهمه ابن حيان وفهمه معاصروه حين وضع هذه المجموعة من الكتب التى تضم بين أربعتها تاريخ الأندلس كله منذ الفتح العربى حتى قرب وفاة ابن حيان ، أى على طول أكثر من ثلاثة قرون ونصف قرن . وهذا هو الذى يفسر لنا أن معظم المؤرخين حينما ينقلون عن ابن حيان لا يهتمون كثيراً بأن يثبتوا أن النص المنقول ينتمى إلى هذا الكتاب أو ذاك ، وإنما حسبهم أن يقولوا إنه من « تاريخ » ابن حيان أو « تاريخه الكبير » .

ونحن نعتقد أن إنتاج ابن حيان يقف عند حد هذه الكتب التى يمكن أن يجمعها مؤلف واحد حافل كبير . ولا يضير ابن حيان فى شئ ألا يكون قد كتب غيره .

أما الكتب الأخرى التى مازال كثير من الباحثين يصرون على نسبتها إلى ابن حيان فهى لا تخرج عن كونها أجزاء أو مقتطفات من « تاريخه الكبير » ، سواء أكانت من هذا أم من ذاك من الكتب الأربعة التى يتألف منها هذا التاريخ :

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٥١ ،

(٢) الذخيرة ق ١ - ١٢٩/٢ . وقد أضاف بروكلمان هذا الكتاب إلى ذيل تاريخه للأدب العربى فى الحديث عن ابن حيان . انظر الجزء الأول ص ٥٧٨ ؛ وبهذه المناسبة نذكر أن الدكتور حسين مؤنس - فى حاشية له تعليقا على النص الوارد فى الحلة السيراء (٢٦٩/١) عن كتاب الدولة العامرية لابن حيان - قال إن هذا الكتاب هو الذى يحمل عنوان « البطشة الكبرى » وإنه هو الكتاب الذى ينقل عنه ابن بسام فى الذخيرة . وهذا غير صحيح من وجهين : أن كتاب « البطشة الكبرى » لا يمت بصلة إلى الدولة العامرية ، إذ موضوعه هو نكبة بنى جهور كما رأينا ، ثم إن ابن بسام يعترف صراحة بأنه لم يطلع على هذا الكتاب ، وقد كرر الأستاذ عبد الرحمن الحجى فى تقديمه للقطعة التى نشرها من المقتبس هذا الخطأ (ص ١٤) ثم نسبه إلى مغرب ابن سعيد وإلى كتاب تاريخ الفكر الأندلسى لجونثالث بالنثيا - ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، ولم يرد فى هذين المرجعين أى شئ عن كتاب « البطشة الكبرى » ، ويقول الأستاذ الحجى فى موضع آخر (ص ٥٩ حاشية ٢) إن « البطشة الكبرى » يمكن أن يكون أحد أجزاء المقتبس أو ملخصا له (كذا ! !) .

(ا) فدوزى مثلا ينسب إلى ابن حيان كتابا بعنوان « تاريخ فقهاء قرطبة »(١) ، ونحن نجد فعلا لدى المؤرخين التالين لابن حيان ذكراً لهذا العنوان منسوبا إلى ابن حيان(٢) . وقد سلم لدوزى بهذا الرأى كل من جونثالث بالنثيا(٣) . وغرسية غومس(٤) .

(ب) وينسب بونس بويجس(٥) إليه كتاب « أنتخاب من أخبار القضاة » مستنداً إلى إشارات لابن الأبار فى التكملة(٦) .

(ج) وينسب بونس إليه أيضا كتاب « الجمع بين كتابى القبشى وابن عفيف » معتمدا على إشارة لابن الأبار(٧) . وقد وافق غرسية غومس على إدراج هذين الكتابين الأخيرين فى قائمة مؤلفات ابن حيان .

(د) وينسب إليه بونس تهذيبا لتاريخ أبى عمر بن عفيف من الواضح أنه هو نفسه الذى يدعى عند ابن الأبار(٨) « الجمع بين كتابى القبشى وابن عفيف » .

(هـ) وسنضرب صفحا عن كتب أخرى ثبت بطلان نسبتها إلى ابن حيان مثل كتاب « معرفة التابعين » الذى وضعه بونس بين مؤلفاته ونبه ملتشور أنطونيا من قبل إلى أن هذا خطأ مصدره ميخائيل الغزيرى مفهرس مخطوطات الإسكوريال العربية ، إذ اختلط عليه اسم المؤلف الحقيقى وهو ابن حبان البستى ، فصحف الاسم إلى ابن حيان(٩)

---

(١) انظر كتابه الجامع « الجامع لأخبار بنى عباد » :

R. Dozy : Scriptorum Arabum Loci di Abbadidis, Leyden, 1846, I, p. 218.

(٢) انظر ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ، ط . القاهرة سنة ١٣١٩ هـ . ، ١-٧ ؛ والطبعة المحققة بعناية الأستاذ محمد عبد الله عنان ٩١/١ ؛ السخاوى : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ، ضمن مجموعة الدراسات التى قام بها فرانز روزنتال Franz Rosenthal حول « علم التاريخ عند المسلمين » ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلى ، ط . بغداد سنة ١٩٦٣ ، ص ٦٣٧ من نص « الإعلان » الملحق بالدراسة .

(٣) تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢٠٨ .

(٤) فى مقاله « حول ابن حيان » ص ٤٠٧ (= ١٣ من الفصلة) .

(٥) فى كتابه عن المؤرخين والجغرافيين ص ١٥٣ .

(٦) التكملة ، ط . كوديرا ، ص ٩١ ، و ط . ألاركون وبالنثيا ، مدريد ١٩١٥ ، ص ١٦٨ و ١٩١ .

(٧) التكملة ؛ ط . كوديرا ، ص ٥٤٦ .

(٨) الحلة السيراء ٢٠٦/١ .

(٩) غرسية غومس : حول ابن حيان ص ٤٠٨ (= ١٤ من الفصلة) .

ومن الواضح أن جميع الكتب السابقة التى تبدو حقا لابن حيان مثل « تاريخ فقهاء قرطبة » أو « أخبار القضاة » أو « تهذيب تاريخ ابن عفيف » أو « الجمع بين كتابى القبشى وابن عفيف » كتب يمكن أن تكون شيئا واحداً ، ونحن نقطع بأنها ليست كتبا مستقلة ، وإنما هى ما كان المؤلفون المتأخرون يستخرجونه من « تاريخ ابن حيان الكبير » الذى يتألف من الكتب الأربعة الرئيسية التى أشرنا إليها . وفات كثيراً من الباحثين أنه حينما يورد مؤلف مثل ابن الأبار عبارة مثل هذه فى سياق الترجمة لأحد الفقهاء أو القضاة : « . . . ذكره ابن حيان فى أخبار القضاة » أو « . . . فى تاريخ فقهاء قرطبة » فإنه لا يعنى كتابا مفرداً لابن حيان يحمل هذا الاسم أو ذاك ، وإنما يقصد أنه تحدث عنه فى الفصول الخاصة بالقضاة أو الفقهاء فى ثنايا كتابه . كذلك الحديث عن تهذيب ابن حيان لكتاب ابن عفيف أو جمعه بين كتابى القبشى وابن عفيف ، فهذان ليسا كتابين مستقلين بذاتهما ، وإنما المقصود هو استصفاة ابن حيان فى تاريخه الكبير لمادتهما وتهذيبه أو تنقيحه لها فى الفصول التى أفردها مؤرخنا للفقهاء والقضاة من كتاب التاريخ سواء كان ذلك فى المقتبس أو المتين أو غيره .

ويكفينا أن نضرب على ذلك مثلا واحداً : يورد ابن الأبار ترجمة لأحد قضاة الجماعة بقرطبة هو على بن أبى بكر الكلابى المعروف بيوانش والمتوفى سنة ٢٣١ هـ ، ويختم هذه الترجمة بقوله « من كتاب ابن حيان فى أخبار القضاة »(١) ، وقد فهم بعض الباحثين من ظاهر النص — ولعل لهم عذراً فى ذلك — أن هذا عنوان كتاب ابن حيان ، غير أنه فى الحقيقة لا يعنى به إلاما كتبه أبو مروان فى سياقه لأخبار القضاة من تاريخه . وكلام ابن الأبار هنا منقول برمته من الفصل الخاص بقضاة قرطبة أيام عبد الرحمن الأوسط بن الحكم من القطعة التى نقدم لها بهذه الصفحات من كتاب « المقتبس » . ومثل ذلك يمكن أن يقال عن بقية المواضع التى جاء فيها ذكر لما يوحى لأول وهلة بأنه « كتب » مستقلة لابن حيان .

والكتاب الوحيد الذى يمكن أن نقبل نسبته — مع بعض التحفظ — إلى ابن حيان فضلا عن

---

(١) التكملة ، ط . ألاركون وبالنثيا ، رقم ٢٢٦٤ ص ١٩١ . وجدير بالذكر أن هذا النص بالذات كان من بين النصوص التى اعتمد عليها بونس بويجس وغرسية غومس فى الظن بأن لابن حيان كتابا بعنوان « أخبار القضاة » أو «انتخاب من أخبار القضاة » .

« تاريخه الكبير » هو « الانتخاب الجامع لمآثر بنى خطاب »(١) . وحتى هذا لا نقطع به ، إذ أن تعبير « الانتخاب الجامع » الوارد فى العنوان يلقى ظلالا من الشك على كونه كتابا مستقلا منفرداً بذاته ، وهو يوحى بأن الأمر لا يخرج عن كونه مستخرجا من تاريخ ابن حيان الكبير قد يكون نفس المؤلف قام به ليهديه إلى أحد أعلام هذه الأسرة الشريفة التى توارثت الرياسة فى مرسية . وقد يكون مؤلف آخر استصفى من تاريخ ابن حيان المواضع الخاصة بأسرة بنى خطاب ، فجمع بعضها إلى بعض ولفق منها كتابا صغيراً فى مآثرهم وقدمه إلى بعضهم تقربا وزلفى .

منهج ابن حيان فى كتابة التاريخ :

حينما شرع ابن حيان فى كتابة « تاريخه الكبير » بشطريه القديم والمعاصر تأمل مناهج الكتابة التاريخية التى اتبعها المؤلفون من قبله فى المشرق والأندلس . فرأى بينها خلافا أدى إليه إختلافهم فى الثقافات أو ضروب الاهتمام : كان من بينهم من اتبعوا طريقة الحوليات أى الكتابة على ترتيب السنين ، وهو المنهج الذى سار عليه محمد بن جرير الطبرى فى المشرق ، وفى الأندلس عريب ابن سعد والرازيان أحمد بن محمد بن موسى وابنه عيسى وغيرهم ، وهى طريقة لها مزاياها بغير شك ، إذ هى تضمن تسلسل الترتيب الزمنى ، ولكنها كثيراً ما تقطع وحدة الأخبار والأحداث ؛ وكان هناك من عالجوا تاريخ الملوك والخلفاء على أساس أن يكتب عن دولة كل منهم على حدة ، وهو ما نلاحظه فى تاريخ ابن القوطية ، وإلى حد ما فى كتاب « أخبار مجموعة » ؛ وكان من بينهم من اهتموا بالتاريخ الثقافى مكتفين بمقدمات موجزة عن التاريخ السياسى ، وإلى هذا النوع تنتمى كتب الطبقات والتراجم مثل كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ومن وصله أو ذيل عليه ، أو الذين قصروا اهتمامهم على الفقهاء أو القضاة ، مثل الحسن بن مفرج القبشى وابن عفيف وابن عبد البر والخشنى ، أو على الشعراء والكتاب مثل عبادة الشاعر ابن ماء السماء أو سكن بن إبراهيم الكاتب .

وأتى ابن حيان فكرر نظره فى كل هذه المناهج المختلفة ، فرأى أن بعضها يكمل بعضا ، وهكذا قرر — فى طموحه النبيل إلى أن يكون أعظم مؤرخى الأندلس وأجمعهم — أن يستفيد من كل هذه المناهج ، حتى يصبح « تاريخه الكبير » أوعب ما كتب عن بلده حتى عصره .

---

(١) نص على هذا الكتاب ابن الأبار فى التكملة ، ط . كوديرا ص ٢٨٠ ، وأشار إليه مرة أخرى إشارة عابرة فى الحلة السيراء ٢ / ١١٨ .

ونظرة فاحصة إلى القطعة التى بين أيدينا اليوم تؤكد ما نقول ، وهى تتضمن آخر سنوات حكم الأمير عبد الرحمن الأوسط والجزء الأكبر من إمارة ابنه محمد ، وسنورد فيما يلى على ضوء استعراض هذه القطعة الخطوط العامة لمنهج ابن حيان فى الكتابة :

يبدأ بعرض للأحداث المحيطة بتولى الأمير الحكم عرضا مفصلا ، ثم يعقبه بأحكام عامة على شخصيته وسيرته وأخلاقه وقيمة عمله ، مع ملاحظات دقيقة ثاقبة تكشف عن قدرة عجيبة على التحليل النفسى العميق وعلى النظرة الشاملة . وبعد ذلك تأتى فصول طويلة يترجم فيها لرجال الدولة فى عصر هذا الأمير من حجاب ووزراء ، ويورد فى سياق ذلك حكايات وأخباراً طريفة تلطف من جفاف السرد التاريخى ، فضلا عما تتضمنه من أخبار بالغة القيمة حول الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية للبلاد . ثم يتكلم عن أفراد أسرة الأمير وعلاقاتهم به ويترجم لأعلامهم تراجم مفصلة يورد فى أثنائها طائفة كبيرة من الرسائل والأشعار . وتلى ذلك أخبار عن العمران فى عصر هذا الأمير وأهم منشآته المدنية والعسكرية ، وفى غضون ذلك ترد أخبار كثيرة تلقى أضواء كاشفة على الطرز المعمارية والحياة الفنية . ثم يفرد فصولا لأخبار العلم والعلماء فى عصر الأمير المذكور موضحا فى لمسات قوية عامة حياة البلاد الثقافية خلال ذلك العصر ، ويترجم لأهم العلماء فى مختلف ألوان الفكر ، ويختم هذه المقدمات بقصص ونوادر مختلفة حول الأحداث الكبرى فى عصر الأمير أو الدقائق الصغرى من حياة الناس اليومية .

وبعد هذه المقدمات التى كثيراً ما تحتل جزءاً كبيراً من الكتاب — وهى فى القطعة التى بين أيدينا تصل إلى نصف الكتاب كله — يفصل الكلام عن الأحداث على نسق السنين ، فيسوقها حسب منهج الحوليات المعروف سنة بعد سنة ، فإذا رأى أن هذا التقسيم سوف يقطع وحدة الأحداث فلا بأس فى أن يعدل عنه ، ويستطرد حتى يستكمل الموضوع الذى شرع فى معالجته بصرف النظر عن التقسيم الزمنى .

فإذا فرغ من ذلك أتى بنبذ عامة يترجم فيها لأعيان أهل الدولة من حجاب ووزراء وكتاب وقواد وقضاة ، وهو يفصل هذه التراجم إلى حد يمكن معه أن يستخرج من كتابه التاريخى الكبير أجزاء كاملة خاصة بهذه الموضوعات الفرعية التى تدخل فى باب تاريخ الطبقات .

وينهى ابن حيان عمله بذكر الوفيات على ترتيب السنين سنة فسنة ، والتراجم هنا تتفاوت

طولا وقصرا ، فإذا عرض لشخصية سبق أن تحدث عنها بالتفصيل فإنه يكتفى فيها باشارة عابرة مقتضبة اعتماداً على ما سبق أن ذكره فى الفصول السابقة ، وإذا لم يكن قد فعل فإن التراجم تكون فى نهاية من الإسهاب والاستقصاء .

وهكذا نرى ابن حيان يستعين فى تاريخه بكل المناهج التى استخدمها المؤرخون من قبله : ففيه النظرة الشاملة إلى كل أمير ، وفيه التاريخ « الداخلى » الذى لا يقتصر على كبريات الأحداث السياسية والعسكرية المرتبطة بالحاكم ، وإنما يلقى ضوءاً على حياة الشعب العامة والخاصة وعلى أحواله الاجتماعية والاقتصادية ، وفيه التأريخ الثقافى والفكرى ، وفيه سرد الأحداث بترتيب السنين ، وفيه التراجم المفصلة لرجالات الدولة وطبقاتهم من حجاب ووزراء وكتاب وقضاة ، فضلا عن أن فيه فصولا تعتبر معاجم لتراجم العلماء من كل صنف .

على أن ابن حيان لم يخضع كتابته التاريخية لمنهج واحد يطبقه على كل ما يكتب ، بل كان من المرونة وسعة الأفق بحيث يستخدم لكل حقبة ما يلائمها . فنحن نجد مثلا أنه فى الجزء الذى أفرده للأمير عبدالله بن محمد يختص الثوار والمتنزين فى النواحى والأطراف بأخبار مفصلة عن أولياتهم وسير حياتهم وأحداث ثوراتهم . وقد اقتضت ذلك طبيعة الموضوع نفسه ، ونجده فى الجزء الخاص ببعض سنوات خلافة الحكم المستنصر يفيض إفاضة واسعة فى أخبار السفارات القادمة إلى سدة هذا الخليفة والحفلات والعروض المقامة لاستقبال أولئك على نحو أولاه عناية عظيمة ، وهذا يرجع إلى الاهتمام الخاص الذى كانت الخلافة الأموية فى هذا العصر تنظر به إلى هذه السفارات ، ثم إلى المادة الوافرة الخصبة التى تهيأت لابن حيان حول هذا الموضوع وحول تلك السنوات بصفة خاصة ، حتى إن التأريخ هنا يصبح مرتبا لا على السنين ، وإنما على الشهور ، بل كثيراً ما نراه يتابع السرد للأحداث يوما بيوم .

وهذا الكلام الذى تحدثنا به عن منهج ابن حيان فى الكتابة ينسحب أكثر ما ينسحب على كتابى المقتبس وتاريخ الدولة العامرية ، حينما كانت هناك سلطة مركزية واحدة تخضع لها البلاد ، ويمكن أن تتخذ محوراً ثابتا يجرى الحديث حوله ، حتى مع وجود بعض الثورات ومظاهر التمرد الداخلية . أما فى تأريخ ابن حيان لعصر ملوك الطوائف حينما زالت تلك السلطة المركزية وخلفتها حكومات دويلات صغيرة متناثرة هنا وهناك فقد رأى ابن حيان نفسه مضطراً إلى استخدام

منهج مغاير . ولسنا نعرف هذا المنهج على وجه التحديد ، إذ لا تسمح بذلك القطع التى وصلتنا من هذا الكتاب بفضل المؤرخين المتأخرين ، ولا سيما ابن بسام فى « الذخيرة » . ولكن الخطوط العامة توحى بأن ابن حيان قد جرى فيه على أن يطبق على الأندلس تقسيما إقليميا سياسيا ، فيفرد لكل دولة من دول الطوائف فصلا يتتبع فيه تاريخ الدولة منذ نشأتها حتى عصره مرتبا الأحداث ترتيبا زمنيا ، مع الاهتمام — كشأنه فى سائر كتابته التاريخية — ببيان الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والعلاقات المتشابكة بين تلك الدويلات بعضها ببعض ، والترجمة لرجالات كل دولة وطبقات علمائها وفقهائها وقضاتها وكتابها وشعرائها .

مصادر ابن حيــان :

كان ابن حيان عميق الشعور برسالته ، مدركا لقيمة عمله تمام الإدراك ، واعيا للمنهج السليم الذى ينبغى لمؤرخ من مستواه أن يتبعه . ولهذا فقد اجتهد فى أن يجمع أكبر عدد من المصادر ، تنوعت بتنوع الموضوعات التى عالجها فى تاريخه منذ الفتح الإسلامى للأندلس حتى عصره .

(أ) مصادر « المقتبس » :

ونلاحظ بوجه عام أن مصادر ابن حيان خلال العصور التى لم يدركها أى منذ الفتح العربى للأندلس حتى الدولة العامرية — وهى موضوع كتاب « المقتبس » — كانت تقوم قبل كل شئ على كتب من سبقه من المؤرخين .

ولن نعنى أنفسنا هنا باستعراض الكتب التى رجع إليها ابن حيان فى « المقتبس » ، فقد سبق لغيرنا من الباحثين أن اجتهدوا فى دراسة مصادر القطعتين اللتين كانتا معروفتين من هذا الكتاب قبل أن نوفق إلى العثور على القطعة الثالثة التى نقدمها بهذه الصفحات . ونعنى بهما مخطوطة أوكسفورد الخاصة بعصر الأمير عبدالله بن محمد ، ومخطوطة المجمع التاريخى الملكى بمدريد التى تتناول بضعة سنوات من خلافة الحكم المستنصر . فقد عنى الراهب الإسبانى ملتشور أنطونيا فى رسالته التى أسلفنا الإشارة إليها بتقديم عرض مفصل لمصادر ابن حيان فى القطعتين المذكورتين(١) صحيح أن هذا البحث قد قدم به العهد ، ثم إن الدراسات الأندلسية أحرزت تقدما كبيراً منذ أن

---

(١) ابن حيان القرطبى وتاريخه ص ٣٤ — ٦٣ ، وقد أورد أنطونيا موجزاً للفصل الخاص بمصادره وضمنه المقدمة الفرنسية التى صدر بها طبعته لمخطوطة أوكسفورد المتعلقة بالأمير عبد الله ، باريس سنة ١٩٣٧ ، ص ١٤ — ١٨ .

أعد أنطونيا رسالته فى سنة ١٩٣٣ وإن كان نشرها قد تأخر حتى سنة ١٩٤٦ ، فأصبحنا نعرف عن أولئك المؤلفين أضعاف ما كان يعرف الراهب الإسبانى ، مما يجعل بحثه كله مستحقا لإعادة النظر(١) . غير أننا نرى قلة الجدوى من مثل هذا البحث ، فهو لن يزيدنا شيئا على النتيجة التى نجمل خلاصتها هنا ، وهى أن ابن حيان بحسه التاريخى الدقيق قد عرف كيف يستفيد من جميع الكتب السابقة مستصفيا أقيم ما فيها من مادة تاريخية .

ويكفى هنا أن نعرض — مجرد عرض — أسماء المؤلفين أو الرواة الذين رجع إليهم ابن حيان فى القطع الثلاث التى نشرت حتى الآن من المقتبس — بما فيها قطعتنا — :

من الأندلسيين : محمد بن وضاح ، فرج بن سلام البزاز ، ابن الأشعث القرشى الإشبيلى ، يحيى بن إسحاق الطبيب ، ابن عبد ربه ، إسحاق بن سلمة القينى ، ابن النظام ، سكن بن إبراهيم الكاتب ، محمد بن موسى الأقشتين الكاتب ، ابن عبد البر ، منذر بن سعيد البلوطى ، معاوية ابن هشام الشبينسى ، عريب بن سعد ، أحمد بن موسى الرازى وابنه عيسى ، الحكم المستنصر ، ابن القوطية ، الزبيدى ، محمد بن حارث الخشنى ، ابن الفرضى ، صاعد البغدادى ، عبادة بن ماء السماء الشاعر ، الحسن بن محمد بن مفرج القبشى ، الفقيه أبو محمد ابن حزم .

ومن الغرباء : محمد بن يوسف الوراق القيروانى (وإن كان ابن حزم يعده أندلسيا لمولده بالأندلس ووفاته بها) ، وأبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الجزار القيروانى .

ومعظم كتب هؤلاء الذين ذكرنا فى عداد المفقودة اليوم ، فلابن حيان إذن فضل الاحتفاظ لنا بكثير من مادتها التاريخية المندثرة .

على أن ابن حيان فى استقصائه لكل المصادر الممكنة كان يجتهد فى الإطلاع على بعض وثائق الدولة . نرى ذلك مثلا فى تسجيله للبيان الذى أصدره الحكم بن هشام بعد ثورة الربض المشهورة

---

(١) هذا فيما يتعلق بمصادر القطعتين المذكورتين ، أما مصادر ابن حيان فى القطعة التى نقدمها هنا فقد استوفينا فى تعليقاتنا الملحقة بالنص دراسة مفصلة للمؤلفين الذين رجع إليهم صاحب « المقتبس » ولكتبهم ومظان تراجمهم بما يغنى من تكراره هنا .

سنة ٢٠٢ (٨١٨)(١) ، ولتفاصيل الهدية التى رفعها ابن شهيد للخليفة عبد الرحمن الناصر(٢) ، والهدية التى أهديت للحكم المستنصر يوم ولايته(٣) ، والمعلومات الإحصائية الدقيقة التى أوردها عن بناء الناصر لمدينة الزهراء سنة ٣٢٥ (٩٣٧)(٤) . غير أنه من المحتمل جدا أن يكون ابن حيان قد نقل هذه الوثائق عن كتب المؤرخين الذين سبقوه ، وإن كان من الجائز أيضا أن يكون أبوه خلف بن حسين كاتب المنصور قد احتفظ لنفسه بنسخ من بعض الوثائق القديمة من سجلات الدولة تهيأت له بصورة أو بأخرى أثناء عمله فى ديوان السلطان(٥) . ففى الكلام عن بناء مدينة الزهراء نجد ابن حيان — فيما ينقله عنه المقرى — يقول : « ألفيت بخط ابن دحون الفقيه : قال مسلمة ابن عبد الله العريف المهندس : بدأ عبد الرحمن الناصر بعمارة الزهراء سنة ٣٢٥ . . . » ، ثم يمضى فى ذكر معلومات إحصائية دقيقة عما كان ينفق فى هذه العمارة من مواد البناء ، وما كان يستخدم من الدواب ، وغير ذلك . فنحن لا نعلم إن كانت هذه الوثيقة التى نقلها ابن دحون عن أحد مهندسى الزهراء مما ضمن فى بعض الكتب التى رجع إليها ابن حيان أو كانت مفردة قائمة بذاتها ثم اطلع عليها ابن حيان بشكل أو بآخر .

(ب) مصادر « أخبار الدولة العامرية » و « المتين » :

أما فى هذين الكتابين — ويمكن أن نلحق بهما كتاب « البطشة الكبرى » الذى فقد ولم يبق له أثر — فإن مصادر ابن حيان قد اختلفت تماما عن مصادره فى « المقتبس » ، فنحن هنا لا نكاد

---

(١) أشار ليفى بروفنسال فى تاريخه للأندلس (١٦٥/١ — ١٦٦ ، والحاشية رقم ١ (إلى هذا البيان قائلا إنه ورد فى القطعة التى كانت لديه من « المقتبس » والتى لا تعرف لها اليوم مستقرا .

E. Lèvi-Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane, ed. Paris-Leiden, 1950, I, pp. 165-166.

(٢) المقرى : نفح الطيب ٣٣٣/١ وما بعدها .

(٣) نفس المرجع ٢٥٨/١ — ٣٥٩ .

(٤) نفس المرجع ٦٧/٢ — ٦٨ .

(٥) نظن أن هذا هو السبيل الممكن لكى يطلع ابن حيان على بعض وثائق الدولة ، لا كما ذكر ملتشور أنطونيا فى دراسته عن ابن حيان (ص ٢٧) من أنه كان « يعكف على وثائق دار المحفوظات فى القصر الملكى لخلفاء بنى أمية » . وقد سبق لغرسية غومس أن أنكر هذا الرأى (حول ابن حيان ص ٤١٤ = ٢٠ من الفصلة) . والحق أن رأى أنطونيا يبدو لنا ضربا من الإغراق فى الخيال ، وإلا فيعلم الله أين ذهبت « دار المحفوظات » هذه وما فيها من وثائق أثناء موجات التدمير العارمة التى عصفت بقرطبة وقصورها الملكية منذ سنة ٣٩٩ (١٠٠٨) وسن ابن حيان حينئذ فوق العشرين بقليل .

نجده يرجع إلى كتاب . وما كان فى حاجة إلى ذلك ، فذكريات الدولة العامرية كانت لا تزال طرية فى الأذهان ، بل إنه هو نفسه قد أدرك طرفا من الدولة التى كان أبوه أحد رجالاتها ، ولهذا فلعل أهم مراجع ابن حيان فى تسجيل أخبار العامريين إنما كان أبوه خلف بن حسين كاتب المنصور المقرب إليه الحظى لديه . وقد أمده أبوه فعلا – كما سبق أن رأينا عند الحديث عنه فى أول هذا التقديم – بطائفة كبيرة من الذكريات التى كان يمليها عليه . ولكن ابن حيان لم يكتف بما نقله عن أبيه ، بل استعان أيضا بغيره من كتاب المنصور . فنحن نجد فيما ينقله ابن الخطيب فى « أعمال الأعلام » مجموعة من أقيم الوثائق كتب بها إليه بعض زملاء أبيه فى العمل . فنحن نقرأ فى بعض هذه المواضع : « كتب إلىّ أبو القاسم محمد بن مرشد أحد بقايا وجوه الكتاب المستأخرين المتمتعين بالنظر والمعرفة على كبر السن معرفا بأشياء سألته عنها من هذا الباب سنة ٤٣٦ أثبتها نقلا من كتابه ، وهى : . . . الخ(١) » ، ثم يثبت معلومات دقيقة عن مبلغ الجباية فى أيام المنصور ابن أبى عامر ووجوه النفقات . وينقل ابن حيان وثائق أخرى مما كتب به إليه أبو محمد عبدالله ابن مروان « آخر حذاق كتاب المحاسبة اليوم وممن لحق طرفا من تلك الدولة(٢) » حول حاصل الأطعمة فى الأهراء عند شروع المنصور فى غزوة برشلونة سنة ٣٧٤ (٩٨٤ – ٩٨٥) ؛ وكذلك أبو عبد الله بن سعيد التجانى(٣) حول عدد صنوف الجنود العامريين من مختلف طبقاتهم وأنواع عددهم وأسلحتهم . . . الخ ؛ والميزانى الكاتب(٤) حول أحمال الحطب التى كانت تدخل قرطبة وقيمة ما كان يباع بها من السمك المملوح المسمى بالسردين خاصة . . . الخ .

وأما كتاب المتين فقد تعددت فيه مصادر ابن حيان وتنوعت تنوعا كبيرا ، فكان من أولها مشاهداته هو التى سبق أن عرضنا لها فى الكلام عن سيرة حياته ، فإذا غاب عليه شئ عمد إلى استكماله ممن رأوا الأحداث وشهدوها ، بل واشتركوا فيها فى كثير من الأحيان . وقد تبين لنا أن من أهم من أمدوا ابن حيان بكثير من أخبار الفتنة البربرية ورأوها رأى العين الفقيه أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عون الله بن حدير القرطبى الذى تكرر نقل ابن حيان عنه على طول سرده الغنى بالتفاصيل خلال السنوات القليلة الحافلة بالأحداث والمنحصرة بين سنة ٣٩٤ (١٠٠٤)

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٩٨ .

(٢) نفس المرجع ص ٩٩ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٩٩ – ١٠٤ .

(٤) نفس المرجع ص ١٠٤ .

و٣٩٩ (١٠٠٩) ، وهى التى انتهت بمصرع عبد الرحمن (شنجول) بن المنصور العامرى(١) . وقد كان هذا الفقيه على ما نرى مسجلا دقيقا للأخبار قوى الملاحظة ، وكان قد لحق هذه الفتنة وسلم منها وطال عمره بعدها(٢) . كذلك نقل ابن حيان كثيراً من أخبار الفتنة عن صديقه وصديق أبيه الكاتب أحمد بن برد الذى عمل لكثير من خلفاء الفتنة المتعاقبين(٣) ، وعن صديقه الشاعر الوزير أبى الوليد بن زيدون الذى أمده بخبر قصة وقعت بين حبوس بن ماكسن الصنهاجى ملك غرناطة ومحمد بن عبد الله البرزالى(٤) ، وبخبر آخر يرويه ابن زيدون عن ابن الباجى كاتب الرسائل فى تصوير شخصية أبى جعفر أحمد بن عباس وزير زهير الصقلبى صاحب المرية(٥) .

وكانت لابن حيان صداقات متينة تربطه ببعض العلماء والوجهاء الذين كانوا يعيشون فى مختلف مدن الأندلس، ويبدو أنه كان يكلفهم بتتبع الأخبار الواقعة فى بلدانهم، فإذا قدموا إلى قرطبة لبعض شئونهم اجتمع بهم وأخذ من أحاديثهم ما يستكمل به تاريخه حول أمصار الأندلس وأخبارها . وقد احتفظ لنا ابن حيان بأسماء الكثيرين من هؤلاء ، نذكر منهم أبا بكر الرشتشانى الفقيه الذى عنه أخباراً مهمة حول باديس بن حبوس الصنهاجى ملك غرناطة (المتوفى سنة ١٠٧٣/٤٦٥)(٦)، وذلك بمناسبة فتك المعتضد بن عباد بأبى نصر بن أبى نور القرّىّ أمير رندة ، واهتياج عصبية

---

(١) انظر ابن عذارى : البيان المغرب ٣/١٠ ، ١٤ ، ١٥ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ . وقد ورد الاسم فى بعض المواضع محمد بن عون الله ، ويبدو أنه خطأ من ابن عذارى .

(٢) أنظر ترجمة ابن عون الله فى ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٧٠٧ (وهو يعتمد فيها على ابن حيان) ، وقد جاء فيها أنه ولد سنة ٣٥٧ ورحل إلى المشرق فى سنة ٣٧٨ ، فلقى عدداً كبيراً من الشيوخ فى القيروان ومصر ومكة ، ثم عاد إلى قرطبة فأصبح أحد العدول المشاورين . وكان فاضلا ناسكا ، وولى إمامة الصلاة فى مسجد عبد الله البلنسى ، وتوفى سنة ٤٤١ عن أربعة وثمانين عاما .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ق ١ — ١/١٠٥ .

(٤) نفس المرجع ق ١ — ١/٤٠٤ — ٤٠٥ .

(٥) نفس المرجع ق ١ — ٢/١٧٦ — ١٧٧ .

(٦) ابن الخطيب : الإحاطة بتحقيق الأستاذ عنان ، ص ٤٤٥ وما بعدها . أما أبو بكر الرشتشانى — وقد ورد فى نص الإحاطة المذكور « الوسنشانى » وهو تحريف — فقد ترجم له ابن بشكوال فى الصلة (رقم ١٤٧٧) فقال إنه يحيى ابن عبد الله بن أحمد الغافقى القرطبى ، رحل إلى المشرق ، وأخذ عن شيوخ مصر ، ثم عاد فكتب لبعض قضاة قرطبة ، وتوفى سنة ٤٧٤ (١٠٩١) .

باديس لعشيرته من البربر وعزمه على الإيقاع برعيته من أهل الأندلس . وينقل الرشتشانى هذا الخبر عن « ثقة له من أصادقة التجار » كان حضر مدينة غرناطة عند وقوع تلك الحادثة .

ومن هؤلاء الذين اعتمد عليهم ابن حيان شخصيات لم نتمكن من التعرف عليها . ولكنهم كانوا على كل حال فى غاية من دقة التصوير لما يشاهدونه . نذكر منهم القرشى المعروف بالقط (ويبدو أنه كان من سلالة الأسرة المروانية التى انقرض ملكها(١)) ، وينقل عنه ابن حيان خبراً يرويه بدوره عن بلقين بن حبوس الصنهاجى أخى باديس ملك غرناطة حول مصرع الوزير أبى جعفر أحمد بن عباس ومخدومه زهير الفتى صاحب المرية على يد باديس وبرابرته الصنهاجيين سنة ٤٢٧ (١٠٣٦)(٢) . ومنهم أبو الفتح البرزالى الذى يروى عنه ابن حيان خبر مقتل يحيى المعتلى بن على بن حمود . وجدير بالذكر أن أبا الفتح هذا هو ابن عم محمد بن عبدالله البرزالى صاحب قرمونة وحليف إسماعيل بن عباد ، وكان كلاهما قد اشترك فى إلحاق الهزيمة بيحيى المعتلى على باب قرمونة سنة ٤٢٧ (١٠٣٦) . ولنا أن نتصور مدى دقة هذه الرواية التى يثبتها ابن حيان إذا ذكرنا أن أبا الفتح البرزالى صاحبها كان شاهد عيان لكل ما وقع ، بل إنه اشترك بنفسه فى أحداث المعركة التى انتهت بمقتل يحيى الحمودى(٣) . ومنهم أبو أمية بن هاشم القرطبى الذى يصفه ابن حيان بأنه « كان من وجوه من خرج عنا أيام الفتنة واستوطن ثغر تطيلة ، وما رأيت مثله فى أولى البيوتات فضلا » . وقد أمد أبو أمية هذا مؤرخنا بخبر بالغ القيمة حول اجتياز شانجه ابن غرسيـــة قومس قشتالة (Sancho García, Conde de Castilla) بباب تطيلة فى أول أيام منـــذر بن يحيى التجيبى صاحب سرقسطة للاجتماع بالقومس ريمند صاحب برشلونة (Ramón Berenguer, Conde de Barcelona) لعقد المصاهرة بينهما(٤) . وكان شانجه

---

(١) إنما نقول ذلك لأن لقب « القط » كان شائعا على بعض المروانيين لقب به أكثر من واحد (انظر ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ص ٩٧ ، ٩٩) . أما نسبته « القرشى » فإننا نلاحظ أن المروانيين بعد انهيار خلافتهم وإعلان الناس بالكراهية لهم قد عملوا على تعمية نسبهم المروانى أو الأموى ، وأصبحوا لذلك يدعون أنفسهم بالقرشيين .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ — ١٧١/٢ وما بعدها .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ق ١ — ٢٧١/١ وما بعدها ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ١٨٨/٣ .

(٤) ابن بسام : الذخيرة ق ١ — ١٥٤/١ — ١٥٦ .

عند اجتيازه بتطيلة قد أرسل يستدعى قوما من أعيانها لكى يشرح لهم سبب مروره ويسألهم تأمين مسيرته عبر بلاد المسلمين ، فكان أبو أمية نفسه من بين أعضاء الوفد الذى توجه للاجتماع به ومخاطبته . وفى الخبر تصوير شاهد عيان حريص على تسجيل كل شئ ، فهو يصف مضرب شانجه وعدة عساكره ومجلسه « وهو جالس على مرتبته عليه ثياب من ثياب المسلمين ورأسه مكشوف أصلع كهل لم يغلب عليه الشعب . . . الخ » ، بل إن فيه معلومات فى نهاية الدقة عن صفات القومس المسيحى وخلاله بحيث تعين على رسم جوانب شخصيته بما يتفق مع ما انتهت إليه الأبحاث الطويلة التى قام بها المؤرخون الإسبان المدققون لهذا الأمير وعصره .

وفى بعض الأحيان لا يذكر ابن حيان اسم راوى الخبر ، غير أن لنا أن نثق فى صدقه وتحريه الحقيقة . فمن ذلك قوله فى الكلام عن موكب مبارك ومظفر الصقلبيين المتزيين على بلنسية بعد الفتنة : « حدث من رأى مركب هذين العبدين الزلمتين فى بعض أيام الجمع للمسجد الجامع ببلنسية بما أنسى مركب المظفر عبد الملك بن أبى عامر مولاهما » ، ثم يفصل وصف هذا الموكب ، ويختم الخبر بقوله : « قال لى المحدث : وكنت أعرفهما عبدى مهنة لمولاهما مفرج العامرى . . . » إلى آخر الخبر(١) .

ويأتى بعد ذلك نوع آخر من مصادر ابن حيان ، وهو المكاتبات التى كانت ترد إليه من أصدقائه و « مكاتبيه » فى هذه المدينة أو تلك من مدن الأندلس . ومن أمثلة هذه المكاتبات ذلك الخطاب الطويل الذى وجه به إلى ابن حيان صديقه ابن جابر الأديب فى وصف الإعذار الذنونى المشهور فى طليطلة سنة ٤٥٥ (١٠٦٣) . ويبدو أن ابن حيان كان يطلب إلى من يكاتبه أن يستبلغ فى الوصف ويورد كل التفاصيل الممكنة ، وذلك حتى يتفق ما يورده من مخاطباتهم مع منهجه فى الاستقصاء إلى أبعد درجة . وفى خطاب الأديب ابن جابر الذى اعتمد عليه أبو مروان مثل طيب على ذلك ، إذ فيه وصف للحفل من التفصيل بحيث نكاد نراه(٢) .

على أننا نلاحظ أن ابن حيان فى كل ما ينقله إما شفاها أو كتابة من أصدقائه ومكاتبيه

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ٣ (مخطوطة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد) ورقة ١ ا ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ٣/١٦١ — ١٦٢

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ٤ — ١ /٩٩ — ١٠٦ .

حول هذه الأخبار لم يكن يثبت ما يقولون بحرفه ــ كما لم يثبت نصوص من سبقه من المؤرخين بلفظها فى « المقتبس » ــ ، بل كان يعيد كتابته بأسلوبه ، ولهذا فإننا نجد الأسلوب على طول تلك الروايات وتعدد مصادرها مستويا متسقا يتفق مع خصائص كتابة ابن حيان ونثره الذى لم يقلد فيه أحداً ولا استطاع أحد أن يقلده . وكان أبو مروان لا يشترط على محدثيه أو مكاتبيه إلا صدق الرواية وتحرى الحقيقة ، أما الباقى فمن شأنه هو . ولا يمكن أن نتصور أن النصوص المنسوبة إلى أولئك الرواة ــ وكان بينهم فقهاء متوسطو العلم وتجار وقواد من البرابرة وأصحاب شرطة وغيرهم ممن لا يفترض فيهم سمو ثقافة ولا جودة أسلوب ــ نقول إن هذه النصوص لا يمكن أن تكون من صنع أولئك الرواة ، وإنما أخذ ابن حيان رواياتهم فأعاد صياغتها وفقاً لأسلوبه هو ومنهجه ، تماما كما تفعل اليوم دور الصحف الكبرى حينما يقوم فيها كتاب مجيدون بإعادة تحرير ما يكلف باعداده المحققون الصحفيون والمراسلون ممن لا يشترط فى عملهم إلا تحرى الحقيقة والتدقيق فى التفاصيل . ولدينا على ما نقول عن ابن حيان نص صريح يعلق به هو نفسه على خطاب الأديب ابن جابر المذكور ، فيقول :

« هذا آخر خطاب ابن جابر إلىّ بوصف ذلك الإعذار ، وجمله التى بسطتها من إدماجه وسبكتها من نقده »(١) .

فهو إذن لا ينقل رسائل مكاتبيه كما ترد إليه ، بل يتخير منها و « يبسط من مدمجها ويسبك من نقدها » أى أنه يجرى قلمه فيها بتصرف كثير ، فيحتفظ منها بكل ما هو مفيد من التفاصيل التى يعرف بحسه التاريخى المرهف أنها مفيدة ويحذف منها ما يراه ، كما سينص بعد ذكر رسالة ابن جابر على أنه حذف مما اشتملت عليه من الأشعار ما رأى ألا قيمة له . وهكذا يقدم ابن حيان لنا بعد ذلك من كل هذه الروايات . . . نصوصا « حيانية » خالصة .

* * *

ونأتى أخيراً إلى مناقشة مسألة كان المستشرق الكبير راينهارت دوزى أيضا أول من أثارها . ومجملها أن متأمل الأخبار التى يوردها ابن حيان سواء فى « المقتبس » أو فى « المتين » يهوله ما يرى فيها من معرفة مؤرخنا الدقيقة بكل ما يتعلق بإسبانيا المسيحية وممالكها وأمرائها وأنسابهم وسنوات

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٠٦ .

حكمهم ووفياتهم وأحوال بلادهم الداخلية . بل هو يقدم لنا أحيانا بعض الأخبار عن تاريخ إسبانيا على عهد الرومان ، مثل كلامه عن أكتبيان Octavianus ثانى قياصرة الروم ومبانيه فى الأندلس(١) ؛ وتاريخ قنطرة قرطبة التى بنيت قبل الفتح العربى بنحو مائتى سنة(٢) ؛ وعن المائدة المنسوبة إلى سليمان النبى بن داود ، ونذكر بهذه المناسبة أنه يبدد هذه الخرافة الشائعة ويورد التفسير المنطقى التاريخى الوحيد الذى يمكن قبوله حول هذه المائدة ؛ وعن لذريق آخر ملوك القوط ونسبه ، وأنه لم يكن من أبناء الملوك ولا صحيح النسب فى القوط(٣) ، وعن قصة بنت يليان ، وغدر أصحاب لذريق به فى موقعة وادى بكة التى هزم فيها أمام المسلمين(٤) ، وعن فتوح المسلمين فى شمال الأندلس وامتدادهم إلى الأرض الكبيرة (فرنسا) ، كل ذلك مسجلا فى دقة بالغة(٥) ؛ وفى ذكر ما استرده الملك النصرانى فرويله (Fruela) من المسلمين فى الفتنة التى سبقت ووافقت مقدم عبد الرحمن بن معاوية الداخل وحروبه مع يوسف بن عبد الرحمن الفهرى(٦) .

وفى القطعتين المنشورتين من كتاب « المقتبس » من التفاصيل الدقيقة حول أخبار إسبانيا المسيحية ما جعل مؤرخى إسبانيا فى العصور الوسطى يعكفون عليهما عكوف من عثر على كنز ثمين ، فيستخرجون منهما ما صحح كثيراً من الأخطاء الشائعة المتناقلة فى التواريخ القديمة ويزيد صورة التاريخ الإسبانى بشطريه الإسلامى والمسيحى جلاء وبيانا .

أما القطعة التى نقدمها الآن من المقتبس فسيرى القارئ فيها من التأريخ الدقيق لإسبانيا المسيحية بمختلف ممالكها ، بل وكذلك لجوانب من التاريخ الفرنسى القديم ، ما يعتبر كشفا جديداً لاكفاء لقيمته . بل إننا نقدم من الآن حكما علينا تبعته ولا نظننا نبعد فيه عن الصواب ، وهو أن ابن حيان ينبغى أن يجعل فى طليعة من يرجع إليهم عند الحديث عن تاريخ إسبانيا المسيحية حتى أواخر القرن العاشر الميلادى ، ولا مناص أبداً من جمع أخباره وتقصيها ودراستها قبل إصدار أحكام قاطعة حول ذلك التاريخ . وأذكر بهذه المناسبة أن صديقى العالم الإسبانى الكبير الأستاذ كلاوديو سانتشث ألبورنوث (Claudio Sánchez Albornoz) عميد الاستشراق فى الأرجنتين ومدير « معهد تاريخ الثقافة الإسبانية فى العصور الوسطى » كان قد علم بأننى أزمع نشر هذه القطعة

---

(١) المقتبس كما ينقل عنه المقرى فى النفح ٢٦/٢ ؛ (٢) نفس المرجع والصفحة .
(٣) نفح الطيب ٢٣٢/١ – ٢٣٣ . (٤) نفس المرجع ٢١٦/١ – ٢١٧ .
(٥) نفس المرجع ٢٥٥/١ – ٢٥٦ . (٦) نفس المرجع ٣٠٩/١ :

من المقتبس وطلب إلى أن أبعث إليه ببعض ما تضمنته من أخبار حول إسبانيا المسيحية ، فبعث إليه ما طلب ، وكان يقوم بإعداد دراسة جديدة شاملة حول إسبانيا فى القرن التاسع الميلادى ، فلما تلقى ما بعثت به إليه من مادة كتب إلى يقول : إنه رأى من التسرع أن يصدر دراسته الموعودة قبل أن تصدر هذه القطعة من المقتبس ، وهكذا قرر أن يؤجلها حتى تتاح له الفرصة لقراءتها والاستبلاغ فى تقصى فوائدها واعتصار مادتها .

أما المتين فان القطع التى عرفت منه عن طريق « الذخيرة » لابن بسام قد أعانت كذلك على تصحيح كثير من أخطاء كتاب المدونات المسيحية واستنتاجات الباحثين المحدثين حول بعض الأحداث الواقعة خلال القرن الحادى عشر الميلادى . ويكفينا أن نشير إلى مثلين نجتزئ بهما للدلالة على ما نقول : الأول هو خبر المصاهرة التى تمت بين ابن ريمند قومس برشلونة (Ramón Borrell III) وابن شانجه قومس قشتالة (Sancho García I) ، وذلك بزواج ابن الأول وولى عهده برنجار بن ريمند (Berenguer Ramón) من شانجه Sancha ابنة الثانى . وقد أعدت هذه المصاهرة — كما تبين من نص ابن حيان المنقول فى « الذخيرة »(١) — فى سرقسطة وبتدبير من منذر بن يحيى التجيبى ملك الثغر الأعلى . وكان الذى استقر فى أذهان الباحثين منذ قديم أن هذا الزواج تم بين ابن قومس برشلونة وابنة قومس غشقونية Gascogne (فى جنوب غربى فرنسا) ، حتى اكتشف دوزى نص ابن بسام فى مخطوطة الذخيرة (ولم تكن قد نشرت بعد) ، فصحح ذلك الخطأ الشائع(٢) ، وأتت بعد ذلك شواهد جديدة تؤكد رأى دوزى بعد اكتشاف مزيد من النصوص الأندلسية(٣) .

---

(١) الذخيرة ق ١ — ١٥٤/١ — ١٥٥ .

(٢) دوزى : أبحاث حول تاريخ إسبانيا وأدبها فى العصور الوسطى :

R. Dozy : Recherches sur l'histoire et la litteraturede l'Espagne pendant le Moyen Age, ed. Leiden, 3ᵉ ed., 1889, I, pp. 203-210.

(٣) من الطريف أن هذا الشاهد أتى فى ديوان شعر ، ونعنى به ديوان ابن دراج القسطلى الذى قمت بتحقيقه ونشره فى دمشق سنة ١٩٦١ (انظر القصيدتين رقمى ٤٣ و ٤٤ ص ١٥١ — ١٦٦ فى مدح منذر بن يحيى التجيبى وتهنئته ، وتعليقنا على أبيات القصيدة الأولى فى ص ١٥١ — ١٥٢ من الديوان وكذلك فى مقالنا عن « إسبانيا المسيحية فى ديوان ابن دراج القسطلى » :

Mahmud A. Makki : La Espana cristiana en el diwan de Ibn Darray, Boletin de la Real Academia de Buenas Letras de Barcelona, nº. XXX, 1963-1964, pp. 88-93 = (20-31).

والمثل الثانى هو تفصيل ابن حيان لكائنة بربشتر التى احتل فيها المجوس (النورمند) هذه المدينة الأندلسية الواقعة فى أقصى الشمال على سفوح جبال البرتات (البرينية) فى سنة ٤٥٦ (١٠٦٤) ، ثم استردها المسلمون فى السنة التالية(١) . فأخبار هذه الواقعة مفصلة لدى ابن حيان على نحو يدل على معرفة دقيقة بأوضاع الممالك المسيحية لا فى شبه الجزيرة فحسب ، بل كذلك فيما وراء جبال البرتات إلى الشمال .

هذا الإطلاع الواسع من ابن حيان على كل ما يتصل بالممالك المسيحية فى أوروبا كان مثار دهشة الباحثين الأوربيين المحدثين ، وعلى رأسهم دوزى أول من أكتشف تلك النصوص ونبه إلى قيمتها . وهكذا مضوا يبحثون عن تفسير لهذه الظاهرة الغريبة التى يتضح منها أن ابن حيان كان أكثر معرفة بأحوال إسبانيا وأوربا المسيحية من كثير من المؤرخين المسيحيين المعاصرين له ، بل وحتى التالين لعصره . وكان مما قاله دوزى فى تفسير ذلك أنه لابد أن ابن حيان كان يعرف « عجمية الأندلس » (أى اللغة اللاتينية الدارجة التى تولدت عنها اللغة الإسبانية الحديثة) وأن ذلك مكنه من الاطلاع على أحوال إسبانيا المسيحية عن طريق الاتصال ببعض المستعربين (المسيحيين الذين كانوا يعيشون فى ظل الحكومة الإسلامية) ، ورأى دوزى أن هذا نفسه لا يكفى لإمداد ابن حيان بمعلومات على تلك الدرجةمن الدقة والتفصيل ، فقال : إن مؤرخنا لم يكتف بذلك بل إنه اطلع على مدونات مسيحية قديمة فقدت اليوم ولم يبق لها أثر .(٢) وأخذ ملتشور أنطونيا بهذا الرأى فى رسالته عن ابن حيان(٣) .

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثالث ، مخطوطة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، ورقة ٢٢ب — ٢٤ أ ، وقد نقل مقتطفات من هذا النص ابن عذارى : البيان المغرب ٢٢٥ — ٢٢٨ ، ٢٥٤ — ٢٥٥ ؛ المقرى : نفح٦/١٩١-١٩٨ وانظر كذلك ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار ، بتحقيق ليفى بروفنسال ، ط . القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٤٠ — ٤١ أبو عبيد البكرى : المسالك والممالك ، قطعة خاصة بجغرافية الأندلس وأوربا ؛ بتحقيق الأستاذ عبد الرحمن على الحجى ، ط . بيروت سنة ١٩٦٨ ، ص ٩٢ — ٩٥ ؛ وانظر دراسة دوزى لهذه الواقعة فى الجزء الثانى من « أبحاثه » ص ٣٣٢ وما بعدهـــا .

(٢) دوزى : أبحاث ، الطبعة الثالثة ، ٨٧/١ .

(٣) ملتشور أنطونيا : ابن حيان القرطبى ص ٣٥ — ٣٧ ، وقد قرر أنطونيا هذا الرأى فى مقدمة نشرته لمخطوطة أوكسفورد من المقتبس ص ١٥ — ١٦ .

وأتى بعد ذلك غرسية غومس ، فأعاد نظر هذه القضية ، فقال: إن الحجج التى اعتمد عليها دوزى وأنطونيا فى إثبات معرفة ابن حيان اللاتينية الدارجة. وفى افتراض نقله عن مدونات مسيحية ضاعت اليوم – كلها مبنية على الأخبار الواردة فى « المقتبس » . وهذا نفسه يضعف تلك الحجج ، بل وينقضها من أساسها ، إذ أن مادة المقتبس مأخوذة فى جملتها عن المؤرخين السابقين على ابن حيان . فاذا كانت هناك معرفة بلغة عجم الأندلس أو نقل عن مدونات مسيحية فان ذلك ينبغى أن ينسب لا إلى ابن حيان ، وإنما إلى المؤرخين الذين نقل عنهم . وكان غرسية غومس حذراً فى تعليقه على رأى دوزى وأنطونيا ، فقال: إن اعتراضه ليس على الرأى نفسه ، فهو لا يملك أن ينكر على ابن حيان معرفته لعجمية الأندلس أو استطاعته بشكل أو بآخر استخدام مدونات مسيحية مكتوبة ، وإنما الاعتراض على الأدلة التى ساقها الباحثان فى البرهنة على ذلك الرأى(١) .

والحقيقة أن المسألة من العسر بحيث لا نستطيع القطع فيها برأى ، على أننا نوافق غرسية غومس على قوله إن ما ذكره دوزى وأنطونيا لا ينهض حجة على إثبات ما زعماه من معرفة ابن حيان بلغة عجم الأندلس أو نقله عن مدونات مسيحية مكتوبة ، فنصوص المقتبس وحدها لا تكفى لذلك .

غير أن بين أيدينا ما ذكره ابن حيان فى « المتين » حول الممالك المسيحية فى شمال إسبانيا ، وهو حافل بما يدل على معرفته الدقيقة بأخبارها إلى حد لا يقل عما يصوره كتاب المقتبس .

والذى نتصوره نحن أن ابن حيان كان يعرف عجمية الأندلس فعلا ، فقد كانت هذه اللغة شائعة بين جميع معاصريه كما ثبت الآن بالأدلة القاطعة ، حتى أصبح من القضايا المسلمة . وأى غرابة فى أن تعرف روح طلعة كابن حيان ما لم تكن هناك مئونة فى معرفته ، ولا استعصت عليه وسائله وأدواته ؟ ولكن رجوعه إلى مصادر مسيحية مكتوبة هو الذى نستبعده حتى يقوم عليه دليل ملموس(٢) . وإذا كانت المدونات المسيحية التى وصلت إلينا لا تكاد تقارن فى الضبط

---

(١) غرسيه غومس : حول ابن حيان ص ٤١٧ – ٤١٨ = (٢٣ – ٢٤ من الفصلة) .

(٢) لا يشير ابن حيان إشارة صريحة واضحة إلى « رواة العجم » إلا فى النص الذى ينقله المقرى عن المقتبس حول المائدة المنسوبة إلى سليمان (نفح الطيب ١/٢٥٤ – ٢٥٥ ، ٢٧٠ – ٢٧١) ولكن لا يظهر من هذه الإشارة ما إذا كان المقصود بها مصدرا مكتوبا أو شفويا .

وصحة الأخبار وتفصيلها بما جاء فى تاريخ ابن حيان،فكيف يسوغ أن ننسب تميز مؤرخنا بهذه الصفات إلى اعتماده على مثلها مما لم يحفظه لنا الزمن ؟ وربما كان المعقول هو أن يكون ابن حيان فى شرهه إلى الأخبار وتحريه مع ذلك ضبطها وصحتها كما هى عادته قد رجع إلى ثقات له من مستعربى أهل قرطبة العارفين بأخبار الممالك المسيحية فى الشمال ، كما كان يفعل بالنسبة لتاريخ الأندلس الإسلامية بالنسبة للثغور ومدن الأطراف القصية التى لم يغب عنه من أخبارها شئ . على أنه كان لا يقيد من هذه الأخبار إلا ما يتحقق من صحته ويعرضه على حسه التاريخى كشأنه فى كل ما أثبت فى تاريخه .

مكانة ابن حيان مؤرخا ، وخصائص كتابته التاريخية :

يعتبر ابن حيان بحق « صاحب لواء التاريخ بالأندلس » كما وصفه بذلك تلميذه أبو على الجيانى ، وهو فى الحقيقة بالفعل قمة الكتابة التاريخية فى هذا القطر ، ويتمثل فيه نضوج هذا اللون من ألوان الثقافة الأندلسية .

والذى يتتبع تطور الكتابة التاريخية فى الأندلس يمكنه أن يقدر الوثبة العظيمة التى أتيحت لهذا العلم من عبد الملك بن حبيب الإلبيرى أول مؤرخى الأندلس (ت ٨٥٢/٢٣٨) حتى ابن حيان أى على طول نحو قرنين ونصف من الزمان . وكانت بداية علم التاريخ على يد ابن حبيب طموحة متواضعة فى الوقت نفسه : طموحة فى نبل الغاية الذى دفع بهذا المؤلف الأندلسى فى مثل ذلك الوقت المبكر من مولد الثقافة العربية فى الأندلس إلى أن يقوم بكتابة تاريخ عام للعالم قبل أن يكتب الطبرى تاريخه بأكثر من نصف قرن ، أما تواضعها فهو فى النتيجة الذى انتهت إليها هذه المحاولة إذ أتى تاريخ ابن حبيب من الفجاجة والنقص بحيث كان ينتظر ، على أن جرأة الفقيه الإلبيرى فى إقدامه على هذا التأليف تدعو فى ذاتها إلى الإعجاب بهذا العالم المتوسط الثقافة الذى أراد أن يؤكد قوميته الأندلسية منذ ذلك الوقت المبكر فى ميدان العمل الثقافى والفكرى(١) .

---

(١) سبق أن قمنا بدراسة مفصلة لتاريخ ابن حبيب ونشر الفصول الخاصة منه بالأندلس حسب النسخة المخطوطة الوحيدة المحفوظة فى المكتبة البودلية بأوكسفورد رقم ١٢٧ مع بحث المصادر الأولى للتاريخ الأندلسى وارتباطها بنفوذ الثقافة المصرية وذلك فى مقالنا عن « مصر والمصادر الأولى للتاريخ الأندلسى » فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد :

(Mahmud A. Makki : Egipto y los origenes de la historiografia arabigo- espanola, en Revista del Instituto de Estudios Islamicos en Madrid, vol. V, 1957, pp. 157-248).

وكنا ننتظر من أول مؤرخ تنجبه أرض الأندلس أن يفيض فى الحديث عن أخبار الفتح العربى لبلده وفى تاريخها بعد الفتح ، ولكن ابن حبيب مضى يفتح على نفسه باب الحديث الواسع عن قصة العالم وتاريخ الأنبياء والرسل وسيرة النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين وغير ذلك مما لم يكن بوسعه أن يجيده أو يقدم فيه شيئا له قيمته، فلما وصل إلى الفصول التى اختص بها الأندلس إذا به يخيب الأمل فيه فيملأ كتابه بمجموعة من الأحاديث الخرافية مما نقله عن شيوخه المدنيين والمصريين .وهكذا بدأت كتابة التاريخ الأندلسى فى ظل ما يشبه أن يكون « وصاية » للفقهاء والمحدثين والقصاص المصريين .

ولكن الكتابة فى هذا الميدان لا تلبث أن تسير فى طريق النضوج بسرعة ملحوظة ، ولا يأتى القرن الرابع حتى ترتفع تلك « الوصاية » المصرية ، ويظهر بين الأندلسيين من يوصلون هذا اللون من الكتابة إلى مستوى رفيع من الإجادة والتنوع فى الوقت نفسه . أما التنوع فقد ظهرت مؤلفات تعنى بتسجيل جوانب معينة من حياة الأندلس ، فبعضها خاص بتراجم رجال الأندلس وفقهائها وعلمائها مثل كتاب ابن الفرضى ، وبعضها أكثر تحديداً ، إذ لم يتجاوز تأريخ قضاة قرطبة مثلا كما نرى فى كتاب الخشنى ، أو طبقات اللغويين والنحويين كما هو شأن كتاب الزبيدى ، هذا فضلا عن جمع الأخبار التاريخية بمعنى الكلمة على نحو ما نرى فى عديد من كتب هذا العصر ، مثل تاريخ عريب بن سعد وكتاب « أخبار مجموعة » المجهول المؤلف و « تاريخ افتتاح الأندلس » لابن القوطية . وأما الإجادة فانها تتمثل فى بنى الرازى الذين توارثوا الاهتمام بتسجيل الأندلس منذ جدهم محمد بن موسى الرازى (ت ٨٨٦/٢٧٣) وتقدمت الكتابة التاريخية بعد ذلك على يد ابنه المؤرخ الجغرافى أحمد بن محمد (ت ٩٥٥/٣٤٤) ، ثم على يد عيسى بن أحمد الرازى (ت ٣٧٩/ ٩٨٩ — ٩٩٠)(١) .

---

(١) اقتصرنا فى هذا العرض الموجز السريع على الإشارة إلى الكتب التى سلمت من غائلة الزمن فبقيت حتى الآن كلها أو أجزاء كبيرة منها تصلح لتكون فكرة سليمة عنها ، وإلا فإن إنتاج الأندلسيين فى ميدان الكتابة التاريخية مما ضاع معظمه أكثر من هذا بكثير . ولمن يريد الإلمـام بتاريخ « التأريخ » الأندلسى حتى عصر ابن حيان أن يرجع إلى المقدمة الشاملة حول هذا الموضوع والتى صدر بها راينهارت دوزى نشرته لكتاب « البيان المغرب » (ليدن ١٨٤٨ – ١٨٥١) ثم الفصل الطويل الذى يؤلف القسم الأول من كتاب بونس بويجس عن « المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين » (ص ٢٧ – ١٢٥) ، وقد أحصى المؤلف فيه أكثر من مائة اسم من أسماء هؤلاء المؤرخين .

ويصور ابن سعيد هذا الاهتمام بالتاريخ لدى الأندلسيين فيقول وإن كان كلامه غير مرتبط بعصر معين : « وعلم الأدب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أنبل علم عندهم »(١) .

وقد أتى ابن حيان أخيراً فى القرن الخامس الهجرى ، فكان تتويجاً لهذه الحركة التاريخية الأندلسية التى تقدمت بسرعة مطردة خلال القرن السابق ، فاعتبر بحق « أمير مؤرخى الأندلس » ، إذ فاق كل من مضوا قبله ، ولم يتح لهذا القطر أن يخرج قريناً له بعده .

* * *

وأول ما نلاحظه من خصائص الكتابة التاريخية عند ابن حيان الاستبلاغ فى الدقة والضبط ، فقد فاق فى هاتين الصفتين كل مؤرخ قبله ، ونحن نرى فى ابن حيان دائما كاتبا يخضع كل ما يقرأه أو يشاهده أو يبلغه لميزان نقدى علمى يبدو سابقا لعصره فى تلك الأيام حتى كأنه من نتاج عصرنا الحديث .

ولم يكن لابن حيان بد فى تأريخه للعصور السابقة عليه من الرجوع إلى الكتب التى ألفت قبله ، ولكنه — على عكس ما تصور الكثيرون — لم يكن مجرد ناقل ، بل إن شخصيته القوية تهيمن على كل ما يورده ونحس بها تطل علينا من جميع صفحات تاريخه التى يسندها إلى هذا المؤرخ أو ذاك ، سواء فى أسلوب الكتابة أو فى الميزان النقدى الصارم الذى حقق به الروايات المختلفة ومحصها وقارن فيما بينها على نحو جدير بالإعجاب . أما فى تأريخ ما عاصره — وهو موضوع كتاب « المتين » — فان هذه الروح أكثر بروزا ، إذ كان ابن حيان مطلق اليد فيما يكتب غير مازم بأن يرجع إلى أى كتاب يقيد انطلاقه .

وتبدو دقة ابن حيان فى مظاهر شتى منها احتفاله فى تحديد التواريخ بالأيام فى كثير من الأحيان، بل إنه يوفر على الباحث المعاصر الجهد ، فيثبت ما يقابل التقويم الهجرى من « التاريخ العجمى » (أى التقويم الميلادى) ، وهو فى ذلك دائما مصيب لا يخطئ ؛ ومنها مقابلته بين الروايات وتحكيم المنطق التاريخى والعقلى فى المفاضلة بينها إذا تعددت ، ومنها نبذه للأساطير والأحاديث الخرافية ولاسيما ما نسج منها حول فتح العرب للأندلس مما ملأ كتب المؤرخين قبله ومما نرى له مثلا صارخا

---

(١) ابن سعيد ، حسبما ينقل عنه المقرى فى نفح الطيب ٢٠٦/١ .

فى كتاب ابن حبيب . وقد سبق أن ضربنا مثلا لهذا التدقيق فى نبذه للتفسير الأسطورى لأصل « مائدة سليمان » وإثباته تفسيراً آخر له يتفق مع المنطق العقلى والتاريخى .

ومن الخصائص التى تستوقف النظر وتستأثر بالإعجاب فى تاريخ ابن حيان التفصيل الواسع الذى لا يكاد يعزب عنه شئ مهما دق أو صغر ، مع الإدراك الواعى لقيمة هذه الأشياء الصغيرة أو الدقيقة ، فهناك فرق كبير فى الكتابة التاريخية بين ماهو صغير وماهو تافه . فالتفاصيل الصغيرة كثيراً ما تكمل الصورة الكبرى للأحداث أو الشخصيات ، ولهذا فان لها من القيمة مالا يقل عن تسجيل عظائم الأمور ، والخط الواهى الدقيق الذى يفصل بين الأمرين شئ لا يفطن إليه إلا ذو الحاسة التاريخية الدقيقة التى تشبه الإلهام فى الشعر : لا تتأتى بكثرة العناء ولا تكتسب بالانكباب على القراءة ولا بكثرة التسطير فى الورق ، بل هى شئ أشبه ما يكون بما قاله مهيار الديلمى فى ميدان الشعر :

رحمت قوما ومـا مالت رقابهم تحت القريض فظنوا أنهم حملوا
وقعقعوا دونه الأبواب فاعتقدوا لطول ما قرعوها أنهم وصلوا
وحظهم منه حظ الناقفات رجت أن يجتنى من هبيد الحنظل العسل

و ما أكثر ما قعقع كثير من المتلبسين بمهنة التاريخ قبل ابن حيان وبعده الأبواب، فسطروا الكثير ، ولكنهم لم يصلوا إلى شئ ، إذا استعصت عليهم هذه « الحاسة التاريخية » التى فطن إليها ابن خلدون فى قلة من المؤرخين . وهذه الحاسة هى التى كانت تهدى ابن حيان حينما كان يسجل لنا وصف موكب عبد الملك المظفر فى آخر غزواته إلى بلاد الشمال بمافى هذا الوصف من تفاصيل تكون تكون « فوتوغرافية » ، وحينما كان يصف لنا فى تلك الأقاصيص والنوادر الصغيرة حياة الأمير محمد بن عبد الرحمن حتى فى نزهه ومجالسه مع حجابه ووزرائه ، وحينما رسم لنا تلك الصورة الرائعة للحصار الذى ضربه الأمير محمد على « قلعة الحنش » التى اعتصم بها ابن مروان الجليقى . . . إلى غير ذلك مما سنراه على طول هذه القطعة التى نقدمها اليوم من كتاب « المقتبس » ، وهو يكتب بهدى هذه الحاسة حينما يسجل لنا فى دقة « صحفية » خبر تلك الجريمة الغامضة الغريبة التى راح ضحيتها الأديب الأندلسى أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبنى فى جوف داره(١) ،

---

(١) نقل ابن بسام هذا الوصف بطوله فى الذخيرة ق ١ – ٢/٥٣ – ٥٧ . وقد وقعت هذه الجريمة فى سنة ٤٥٧(١٠٦٥)

أو خبر ذلك الاكتشاف الأثرى الكبير الذى وقع فى مجريط (مدريد) وعثر فيه – أثناء احتفار أحد الخنادق – على عظام حيوان هائل من حيوانات ما قبل التاريخ(١) .

وفضلا عن هذا التفصيل والتوسع فإن ابن حيان فى إحاطته الشاملة بالتاريخ الإسلامى فى المشرق والمغرب كان سريع الإدراك والتنبه للمشابهات والمفارقات بين المشرق والأندلس . نرى ذلك فى مقارناته الدقيقة بين أحداث الأندلس وما ماثلها أو خالفها مما كان يدور فى مختلف أقطار المشرق أو بين الشخصيات الموجهة للتاريخ هنا وهناك : نذكر من أمثلة ذلك مقارنته بين الفتنة البربرية الواقعة فى الأندلس والمفرقة لشمل الجماعة والفتنة الحادثة بالمشرق ، وهو ينص فى سياق ذلك على أنه تنسى فى كتابة تاريخ هذه الفتنة بمستأخرى أصحاب التاريخ بالمشرق مثل أبى محمد الحصنى وأبى بكر بن القواس القاضى والفرغانى(٢) ، ومن هذه المقارنات ما عقده بين تلقيب الحكم المستنصر مولاه غالباً بلقب « ذى السيفين » امتثالا لما فعله الأمير أبو أحمد الموفق باسحاق بن كنداج الخزرى عامله على الجزيرة(٣) .

وفى معرض المقارنة بين شخصيات الأندلس والمشرق نذكر هذه الفقرات الرائعة التى تحدث فيها عن عبد الرحمن بن معاوية الداخل « صقر قريش » وأبى جعفر المنصور العباسى(٤) ، والتى

---

(١) ابن حيان حسبما ينقل عنه ابن عبد المنعم الحميرى فى الروض المعطار ص ١٨٠ ، وقد بحث صديق المستشرق الكبير الاستاذ خايمى أوليفر أسين مدير مدرسة الأبحاث العربية فى مدريد هذا الاكتشاف فى كتابه عن « تاريخ اسم مجريط » (Historia del nombre de Madrid, Madrid, 1958) ص ١٣٥ ، حاشية ٢ وص ٢٧٦ ، حاشية ١ ، ويبدو أن العظام المذكورة كانت لحيوان من عائلة « الماموث » جد الفيل الحالى (Elephas antiquus كما يدعى باللاتينية) . ومن غريب الموافقات أنه تم فى سنة ١٩٥٦ اكتشاف آخــر مماثل للذى سجله ابن حيان هنا فى إحدى ضواحى مدريد لعظام حيوان هائل من حيوانات ما قبل التاريخ كانت شغل المتخصصين فى هذا النوع من الدراسات .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ – ٨٧/٢ – ٨٨ ؛ ولم نهتد إلى ما يزيد نا بيانا عن المؤرخين الأولين . أما الثالث فلابد أنه عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغانى (ولد سنة ٨٩٥/٢٨٢ وتوفى سنة ٩٧٢/٣٦٢ / ٩٧٣) وهو صاحب « صلة تاريخ الطبرى » الذى نقل عنه ياقوت الرومى كثيراً فى كتاب « إرشاد الأريب » (معجم الأدباء) ، وقد أثنى عليه ابن القفطى وامتدح ما فيه من تفصيل وبسط . (انظر فرانز روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلى ، ط . بغداد سنة ١٩٦٣ ، ص ١١٧ – ١١٨) .

(٣) المقتبس ، نشر عبد الرحمن الحجى ص ٢٢١ – ٢٢٢ .

(٤) ابن حيان حسبما نقل عنه المقرى : نفح الطيب ٣١٠/١ – ٣١١ .

قارن فيها بين شخصيتى محمد بن عبد الرحمن المستكفى المروانى وسميه العباسى(١) وبين المعتضد ابن عباد ملك إشبيلية وأحمد المعتضد بن أبى أحمد بن المتوكل العباسى(٢).

وإذا كان ابن حيان منذ البدء قد عرف حدود عمله فلم يتجاوز الأندلس إلى غيرها فان هذه الملاحظات تصور طرفا من إطلاعه الكامل على أخبار المشرق وكثرة استقرائه لها . أما المغرب فان علمه بتاريخ الشمال الإفريقى كله كان لا يقل عن علمه بالأندلس ، ولكنه لم يقصده لذاته ، بل اقتصر منه على ما لا غنى عنه فى تأريخ العلاقات المتصلة المتشابكة بين الأندلس ودول المغرب العربى على امتداد السواحل الإفريقية . وقد نص ابن حيان فى إحدى قطع المقتبس — وهى الخاصة بسنوات من خلافة الحكم المستنصر — على أخذه عن اثنين من المؤرخين الإفريقيين هما ابن الوراق وابن الجزار القيروانيين ، وصفحات هذه القطعة من المقتبس حافلة بالأخبار القيمة عن المغرب ، وفى القطعة التى نقدمها اليوم من نفس هذا الكتاب أخبار أخرى جديدة تماما عن العلاقات بين أمراء قرطبة المروانيين وإمارتى الأغالبة فى القيروان والمدراريين فى سجلماسة خلال القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) . كذلك نشير إلى قطعة كبيرة من تاريخ ابن حيان احتفظ لنا بها صاحب كتاب « مفاخر البربر » حول سياسة المنصور بن أبى عامر فى المغرب ، وهذه القطعة وحدها تبلغ نصف الكتاب كله(٣) .

وأهم ما يميز كتابة ابن حيان التاريخية — فضلا عن الدقة والتفصيل — نزاهته وصدقه وتجرده من الهوى ، وهى صفة كثيراً ما ألح على بيانها من كتبوا عن ابن حيان أو نقلوا من تاريخه سواء من القدماء أو المحدثين ، ولعلها بالفعل أعظم صفاته وأكثرها استحواذاً على اهتمام القارئ وإعجابه . فهو يعرف تبعة الكتابة التاريخية ، ويدرك ما تعنيه ، ويحترم قلمه فلا يضعه فى خدمة أحد . ولسنا فى حاجة إلى ضرب أمثلة على هذه الصفة ، فهى تطل من جميع صفحات تاريخه ، حيث نرى كيف يرتفع المؤرخ على المداهنة والمجاملة ، بل يخضع الأحداث والشخصيات لميزانه النقدى

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ — ٣٧٩/١ — ٣٨٠ ؛ ابن عذارى ؛ البيان المغرب ١٤١/٣ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ٤١/٢ .

(٣) نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى « مفاخر البربر » لمؤرخ مجهول الاسم ألفه سنة ٧١٢ ، بتحقيق الأستاذ ليفى بروفنسال ، ط . الرباط سنة ١٩٣٤ ، ص ٣ — ٣٧ .

والخلق الصارم ، فيعطى لكل حقه دون إسراف فى الثناء ، ولا خروج إلى ضد ذلك من التجنى أو الظلم . وقد كادت هذه الصراحة تؤدى بابن حيان إلى ما لا تحمد عقباه فى ظل بنى جهور كما سبق أن ذكرنا فى الحديث عن سيرة حياته ، ولكنه مع ذلك بقى وفيا لمبادئه ، حريصا على الصدق ، لم يحد عن ذلك الخط إلا فى مناسبات قليلة قد تكون الظروف أو التسرع فى الحكم قد ألجأته إليها . ولولاها « لكمل لو أن بشراً يكمل » — على حد تعبيره هو . وقد سبق أن نبهنا على هذه الاستثناءات القليلة فى سياق كلامنا عن حياته .

عقيدة ابن حيان وآراؤه السياسية :

غير أن نزاهة ابن حيان وصدقه لا يعنيان أنه كان مجرد مسجل للأخبار يلتزم فيها أقصى ما يستطاع من الدقة والضبط . لا . . . فابن حيان كان قبل كل شئ رجلا له مثله الخلقية وعقيدته السياسية ، ووجهة نظره التى كانت تتفق مع تلك العقيدة والمثل . وقارئ تاريخه يحس بهذه العقيدة دائما فى خلفية ما يكتبه سواء عن تاريخ الأندلس القديم أو المعاصر .

وأول العناصر التى كانت تتألفها من جماعها عقيدة ابن حيان — أو تفكيره الإيديولوجى كما يقال بلغة اليوم — هو عصبيته لقوميته الأندلسية ، واعتداده بها أشد الاعتداد ، واعتقاده بأن الأندلس ينبغى أن تحتل مكانا من أمكنة الصدارة فى العالم الإسلامى ، وتشيع هذه الروح فى كل كتابات ابن حيان ، إذ يستشف القارئ من وراء كل سطر يكتبه فى تاريخه ذلك الحب الذى أشربه لوطنه(١) . وهو يتفق فى تلك العصبية مع هذا الجيل من الكتاب والمفكرين الذين أدركوا أواخر أيام خلافة بنى مروان وعاشوا فى ظل ملوك الطوائف ، وأبرزهم صديقاه أبو عامر بن شهيد وأبو محمد بن حزم صاحب الرسالة المشهورة فى فضل الأندلس ، وهى تعتبر من أروع نماذج العصبية الفكرية للقومية الأندلسية(٢) .

---

(١) كان على ابن حيان جل اعتماد ابن سعيد فى كتابه « الشهب الثاقبة فى الإنصاف بين المشارقة والمغاربة » الذى رد فيه على الفصول الخاصة بالأندلس من كتاب بن حوقل النصيبى الجغرافى الرحالة « صورة الأرض » حيث نرى فقرات كثيرة فى تنقص الأندلسيين والهجوم عليهم . وقد نقل المقرى فى نفح الطيب صفحات عديدة من كتاب ابن سعيد المذكور (انظر النفح ١٩٦/١ وما بعدها) .

(٢) لابن حزم بيت ركز فيه عصارة هذه العصبية القومية وأورده فى كتابه طوق الحمامة (بتحقيق الاستاذ حسن كامل الصيرفى ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٦١) . :

ويا جوهر الصين سحقا فقد غنيت بياقوتة الأندلس

والمفارقة الصارخة التى تبدو عجيبة لأول وهلة هو أن هذا الجيل الذى أشرنا إلى مدى اعتداده بقوميته وبوطنه(١) ، والذى يمكن أن نطلق عليه اسم « جيل الفتنة البربرية » — كان أكثر كتاب الأندلس ومفكريها إلحاحا على نقد شعبهم،وحدة فى إظهار عيوبه ، وصراحة فى الحديث عن وجوه النقص فى طبائعه ومقومات شخصيته . ومرة أخرى نعود إلى تذكر هذا الجيل من مفكرى إسبانيا — « جيل ٩٨ » — الذى ظهر فى أعقاب كارثة سنة ١٨٩٨ بعد الحرب الإسبانية الأمريكية واستمر أثره خلال النصف الأول من القرن العشرين . وكانت هذه الحرب قد عصفت بالبقية الباقية من أمجاد إسبانيا وجردتها من ثياب امبراطوريتها القديمة ، وكشفت عن عوامل الفساد التى أدت بإسبانيا إلى هزيمتها الفاجعة . ومن هنا ظهرت هذه الطائفة من المفكرين الذين كانوا يحبون بلدهم ويعتزون ، ولكن ذلك لم يمنعهم من نقد شعبهم أمرّ النقد وأوجعه ، بل لعل ذلك الحب هو الذى حملهم على الإبلاغ فى النقد إلى أبعد حد ممكن .

وهذا هو ما نجده لدى هؤلاء المفكرين الأندلسيين الذين ظهروا فى أندلس القرن الخامس ، وعلى رأسهم ابن حزم وابن حيان ممن حاولوا أن يضعوا أصابعهم على موطن الداء ، والتعرف على الأسباب الباطنة الخفية التى أدت إلى الانهيار المفاجئ المذهل لذلك البناء العتيد الذى كان يبدو منذ سنوات قليلة نموذجا للحكم الصالح والدولة المستنيرة — أو إذا استعرنا أحد مصطلحات الفلسفة « للمدينة الفاضلة » .

وما أكثر ما ترد فى ثنايا تاريخ ابن حيان ملاحظات وتعليقات نفذ بها إلى الكشف عن العيوب الدفينة فى نظام الدولة الأندلسية ، هذه العيوب التى أدت شيئا فشيئا إلى تحللها وتصدعها ، وكأنه السرطان الخفى يستشرى فى باطن جسد ظاهره الصحة والقوة . وهى عيوب بدأت منذ أيام الحكم المستنصر ، ثم استفحل داؤها على عهد الدولة العامرية . غير أن الأمجاد العسكرية والقوة الظاهرية كانت تلقى عليها حجابا كثيفا سترها عن الأنظار . لقد كانت الفتنة تجثم تحت هذه القشرة الظاهرة من القوة والعظمة ، فلما تصدعت واجهة الدولة بعد وفاة المظفر بن المنصور

---

(١) للمستشرق الإسبانى غرسيه غومس صفحات بديعة فى تحديد مبادئ هذه الطائفة من الأدباء والكتاب القرطبيين وقد وفق هذا الباحث فى بيان الخصائص العامة التى كانت تجمع بينهم . انظر مقدمته للترجمة الإسبانية لكتاب طوق الحمامة لابن حزم ص ٢٦ — ٢٧ :

E. Garcia Gomez : El collar de la paloma, Madrid, 1952.

ابن أبى عامر إذا بهذا البنيان الشامخ ينهار فى لحظات ، وإذا بنيران الفتنة المبيرة تندلع معلنة بداية نهاية الإسلام فى الأندلس .

ونضرب مثلا على ملاحظات ابن حيان بعبارة يوردها ابن حيان على لسان ابن مامه دونة (وهو يعنى شانجه بن غرسية قومس قشتالة (Sancho García, Conde de Castilla) الذى كان حليفا لسليمان بن الحكم المستعين وبرابرته أثناء الحروب الأهلية ، وهى عبارة تركزت فيها محنة الشعب الأندلسى : « كنا نظن أن الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة ، فإذا القوم لا دين لهم ولا شجاعة فيهم ولا عقول معهم ، وإنما اتفق لهم ما اتفق من الظهور والنصر بفضل ملوكهم ، فلما ذهبوا انكشف أمرهم »(١) .

وروح القومية الأندلسية عند ابن حيان هى التى جعلته يكن للبربر كراهية شديدة تشيع على ظاهر صفحات تاريخه ، فهو يندد بقسوتهم وحقدهم الدفين على الدولة الأندلسية ورغبتهم المسعورة فى نقض بناء الحضارة الأندلسية منذ أول لحظة يتهيأ لهم فيها ذلك(٢) .

ولكن ابن حيان كان دائما حريصا على التزام النزاهة ، فهو إذ يدين القسوة من جانب البربر لا يتردد فى إدانتها كذلك من جانب الأندلسيين ، نرى ذلك فى حملته العنيفة على جبن عشيرته أهل قرطبة وفى تعبيره عن النفور الشديد مما ارتكبوه من التمثيل بجثة حباسة بن ماكسن الصنهاجى الذى قتل فى معركة أرملاط فى أثناء الحروب الأهلية بين الأندلسيين والبربر سنة ٤٠٢ (١٠١٢) :

« فركبوه بكل عظيمة ، واجتمعوا إليه اجتماع البغاث على كبير الصقورة ، فجروه فى الطرق وطافوا به الأسواق . . . جريا على ذميم عادتهم فى قبح المثلة ولؤم القدرة »(٣) .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ٣/٩٠ .

(٢) انظر على سبيل المثال تعليقه على ماكان باديس بن حبوس الصنهاجى ملك غرناطة قد اعتزمه من استئصال رعيته الأندلسية بعد أن بلغة إيقاع المعتضد بن عباد أبى نصر القرى (ابن الخطيب : الإحاطة ، نشر الأستاذ عنان ص ٤٤٤ – ٤٤٦) وحديثه عن جسارة البربر على الاغتصاب حتى اغتصاب الموتى فى قبورهم فى معرض الكلام عن مصرع الأديب أبى الفتوح ثابت بن محمد الجرجانى على يد باديس (الإحاطة ص ٤٦٦) وكذلك كلامه عن زاوى بن زيرى الصنهاجى بمناسبة نعيه (ابن بسام : الذخيرة ق ١ – ٢/٩٩) .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة (ط . الأستاذ عنان) ص ٤٩٤ – ٤٩٥ .

وعلى الرغم من هذه الكراهية للبربر – وهى كراهية لا ترجع إلى أى سبب عنصرى وإنما بسبب ما أحدثوه من الفتنة – فإننا نلمح دائما فى كتابات ابن حيان عن حروبهم إعجابا عميقا ببسالتهم وقدرتهم على الجلاد ، كما رأينا فى نفس هذا النص السابق حول مصرع حباسة بن ماكسن وفى أحاديث كثيرة عن وقائع أمراء البرابر المتغلبين على عديد من مدن الأندلس . ونلمس من وراء كل ذلك أسف ابن حيان على أن تتبدد هذه الطاقة العظيمة التى اختص بها البربر على خوض المعارك ، وأن تنصب على إخوانهم فى الدين والوطن من أهل الأندلس . فهو لا يكف أبداً عن التنديد بأهل قرطبة لرفضهم كل صلح مع البربر وللجاجتهم فى ذلك مع العجز والضعف . ويلوح لنا أن ابن حيان كان يتمنى أن تعود الأمة إلى الائتلاف بربرها وأندلسيوها وأن توجه تلك الطاقة البربرية إلى الأعداء الخارجيين الذين كانوا يتربصون بالإسلام الدوائر بدلا من أن يكون بأسهم فيما بينهم .

فالحقيقة هى أن أبرز معالم تفكير ابن حيان السياسى هو الاعتداد « بالجماعة » أو وحدة الأندلس التى اكتملت فى ظل خلافة بنى أمية ثم أطاحت بها الفتنة البربرية إلى الأبد . فقارئ تاريخ ابن حيان سواء منه المقتبس أو المتين يحس دائما بإيمان ابن حيان بقضية الوحدة الأندلسية ، وبالمرارة العميقة التى ولدها فى نفسه انفصام عرى هذه الوحدة على عهد ملوك الطوائف . وقد كانت هذه العقيدة هى التى أملت على ابن حيان ماكتبه عن أمراء بنى أمية وخلفائهم من صفحات مشبعة بالتقدير والإعجاب والثناء الخالص .

وقد يبدر إلى الظن أن الولاء الذى ربط بين أجداد ابن حيان وبين عبد الرحمن الداخل مجدد دولة بنى أمية فى الأندلس كان له أثر فى تأكيد النزعة الأموية لدى أبى مروان ، وهى صلة عاطفية روحية ربما لم ينج منها ابن حيان ، غير أنه من الخطأ أن ننسب إليها حبه للمروانية وإشادته بأمرائهم وخلفائهم ، فهى لا تزيد عن كونها عاملا ثانوياً صغيراً ، ثم علينا أن نقدر أن أول من ولى منصبا كبيراً فى ظل الدولة الأموية كان أباه خلف بن حسين ، ولكن صلة خلف وارتباطه إنما كانا بالمنصور بن أبى عامر ، وهو أول من حجر على الخليفة الأموى ونزع عنه كل سلطة فعلية . وأهم من ذلك أن مؤرخنا إنما عاش معظم عمره فى عصر ملوك الطوائف بعد انقضاء دولة المروانيين وحينما أصبح موالى بنى أمية وصنائعهم القدماء يجتهدون فى التبرؤ منهم ، والانتفاء من ولائهم ، والتنكر

لتلك الأسرة التى قلب الدهر لها ظهر المجن فذلت بعد عز(١) . فأى فائدة لابن حيان إذن فى الإشادة بمآثر هذه الدولة المروانية المنقرضة إن لم يكن الإيمان العميق بقضية لم يعد من يجرؤ على الدفاع عنها إلا القليل ؟ الحقيقة أن هذا الموقف من ابن حيان دليل جديد على نزاهته وجرأته فى الحق .

والشواهد كثيرة على هذه النزعة الأموية عند ابن حيان ، نرى منها بعض النماذج فى نفس القطعة التى نقدمها اليوم من « المقتبس » ، لعل أوضحها فيما نحن بصدده تعليقه على فقرات ساقها أبو بكر عبادة بن ماء السماء الشاعر يشتم منها الطعن على الأمير محمد بن عبد الرحمن :

« ومن دواهى أصحاب الخبر القاذفين بالغيب ، المتقحمين على الريب ، ما أصبته لأبى بكر عبادة بن عبدالله الخزرجى الشاعر وبخطه فى غض هذا الأمير الجزل محمد بن عبد الرحمن يعزوه إلى كثير من ثقات دولته ، على أنه هو (أى عبادة) وسلفه لم يزالوا أظناء فى بنى مروان ناكبين عنهم قد جاهروا لهم بالخلاف عليهم ، فما إن يؤمن مع ذلك على الاختلاق لمعايبهم والتنبث (أى النبش) « عن مساويهم »(٢) .

فابن حيان كما نرى هنا يشك فى كل ما يورده عبادة ، ويضع أيدينا على السر فى تهجمه على بنى أمية ، فقد كان هو وسلفه يتهمون بالتشيع والتعصب على بنى مروان .

والأسلوب الذى كتب به ابن حيان عن الثوار والمنتزين على أمراء بنى مروان وخلفائهم فى جميع قطع المقتبس المعروفة حتى الآن بما فيها قطعتنا الحالية يكشف عن إنكار ابن حيان على هؤلاء المتمردين الذين نزعوا إلى الفرقة وصدعوا وحدة الدولة .

ولابن حيان فى « المتين » صفحات مليئة بالحزن المرير كتبها عن خراب قصور الزهراء التى مازالت أطلالها قائمة حتى اليوم تشهد بعبقرية منشئها عبد الرحمن الناصر وبعظمة الخلافة المروانية . يقول ابن حيان :

---

(١) انظر مثلا لذلك فى أسرة بنى سراج القرطبيين ، وكانوا من بيت شهير فى موالى بنى أمية ، ذكر ابن حيان عن جدهم سراج بن عبد الله أنه كان يصرح بولائهم لبنى أمية ويفخر بكتاب عتق جدهم الأكبر سراج من عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، أما الوزير سراج بن عبد الملك بن سراج العالم اللغوى المشهور فقد « كان ينتفى مواليه بنى أمية » ويدعى أن جدهم هو سراج بن قرة الكلابى الوافد على رسول الله صلى الله عليه وسلم . انظر مناقشة القاضى عياض لهذه القضية فى « ترتيب المدارك » ، المجلد الثانى ص ٨١٥ — ٨١٦ .

(٢) المقتبس ، مخطوطة جامع القرويين ، ورقة ٥٨ ب .

« . . . وطمست أعلام قصر الزهراء . . . فطوى بخرابها بساط الدنيا وتغير حسنها ، إذ كانت جنة الأرض ، فعدا عليها قبل تمام المائة من كان أضعف قوة من فارة المسك ، وأوهن بنية من بعوضة النمروذ ، والله يسلط جنوده على من يشاء ، له العزة والجبروت »(١) .

ونشعر بمثل هذا الأسف فى حديث ابن حيان عن المحاولتين الفاشلتين اللتين حاول فيهما أنصار المروانية تنصيب عبد الرحمن المرتضى خليفة على الأندلس فى سنة ٤٠٩ (١٠١٨)(٢) ، ثم عبد الرحمن المستظهر فى سنة ٤١٤ (١٠٢٣)(٣) . فابن حيان فى تعليقه على هذين الحدثين لم يُخفِ حزنه لفشل هذه المحاولات الأخيرة المستيئسة لإعادة ملك بنى أمية .

ولكن تعصب أبى مروان للأمويين لم يمنعه أبداً من نقد أمرائهم وخلفائهم حينما رآهم يستحقون النقد ، فهو لم يتردد فى التنديد ببعض معايب الأمير عبد الله بن محمد ، وأهمها البخل والإسراع إلى سفك الدماء(٤) . وهو على الرغم من إعجابه الكبير بشخصية الخليفة العالم الحكم المستنصر لم يخله من نقد عنيف ، وذلك فى أمرين فطن مؤرخنا — فى قدرته الفائقة على الربط بين الأسباب والنتائج — إلى أنهما كانا من أكبر العوامل التى قدر لها أن تؤدى إلى انهيار الدولة المروانية كلها :

الأول هو توليته العهد ابنه هشاماً المؤيد وهو لا يزال غلاما لم يبلغ الحلم بعد :

« إلا أنه — تغمد الله خطاياه — مع ما وصف من رجاحته كان ممن استهواه حب الولد وأفرط فيه وخالف الحزم فى توريثه الملك بعده فى سن الصبا ، دون مشيخة الإخوة ، وفتيان العشيرة ، ومن يكمل للإمامة بلا محاباة ، فرط هوى ووهلة ، انتقدها الناس على الحكم وعدوها الجانية على دولته ، وقد كان يعيبها على ولد العباس قبله ، فأتاها هو مختاراً ، ولا مرد لأمر الله »(٥) .

والثانى هو استكثاره من استجلاب فرسان البرابرة العدويين :

« فكان ذلك سببا لتقدمهم طوائف الجند الأندلسى وهدمهم للملك العادى (أى القديم المؤثل)

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ — ٣٨٢/١ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ — ٣٩٧/١ — ٤٠٠ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ١٢٥/٣ — ١٢٨ .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ق ١ — ٣٦/١ ؛ ابن الأبار : الحلة السيراء ١٣/٢ .

(٤) المقتبس ، نشر أنطونيا ص ٣٩ — ٤١ .

(٥) ابن بسام : الذخيرة ق ٤ — ٤٠/١ ؛ المقرى : نفح ٨٥/٤ .

وإلقاحهم للفتنة البربرية الحالقة ، قضاء من المهمين لم تكن لديه من دونه كاشفة »(١) . ويشير ابن حيان بعد ذلك إلى أن المنصور بن أبى عامر لما استولى على مقاليد الأمر وحجر على الخليفة هشام استظهر بهؤلاء البرابرة وعلاهم على طبقات أجناده ، وانتهى الأمر بهم « إلى ما هم الآن بصدده : من إبطال الخلافة ، وتفريق الجماعة ، والتمهيد للفتنة ، والإشراف بالجزيرة على الهلكة »(٢) .

وقد كان خلف بن حسين والد ابن حيان كما نعرف أحد كتاب المنصور بن أبى عامر ، ولعله كان أخف هؤلاء الكتاب على قلبه وأكثرهم حظوة لديه ، وكان المنتظر لذلك هو أن يستبلغ أبو مروان فى الثناء على العامريين الذين أفرد لدولتهم كتابا خاصا . وقد احتفظ لنا المؤرخون الناقلون عن ابن حيان بقطع كثيرة من هذا الكتاب يبدو منها بالفعل إعجاب مؤرخنا بشخصية المنصور ولاسيما بآثاره فى الجهاد وفى إعزاز كلمة الأندلس فى شبه الجزيرة . ولكن ذلك لم يحل بين ابن حيان وبين توجيه النقد للمنصور واعتبار حجره على الخليفة أول عوامل انتقاض الدولة وانشقاق كلمة الجماعة . على أنه مع ذلك رأى فى العامريين أهون الشرين ، فقد ظلت الدولة على الأقل خلال أيام المنصور وابنه المظفر متماسكة موحدة ، وكانت وحدة الأمة كما ذكرنا أعظم ما دافع عنه ابن حيان من مثل . ولهذا فقد أغضى عن بعض خطايا العامريين مقدراً ما كان لهم من فضل الجهاد والحفاظ على قوة الدولة ما لا يسع أحداً إنكاره وما يشفع لهم ما ارتكبوا من أخطاء. وهذا هو ما يجمله ابن حيان فى حكمه على عشيرته أهل قرطبة الذين وثبوا بالدولة العامرية فهدموا بناءها وأزالوا معها رسوم الخلافة الأموية :

« وكان أهل قرطبة من قلة الرضا عن أملاكهم العامريين بحال من الجور عظيمة ، إلى أن وثبوا عليهم ، فأهلكوا الدولة ، وبها حان حينهم . والله يحكم لا معقب لحكمه »(٣) .

وقد كان هذا الاعتداد بالجماعة وبوحدة الأندلس التى حافظ عليها الأمويون دائما هو الذى جعل ابن حيان ينفر كل النفور من ملوك الطوائف الذين مزقوا تراث الخلافة ثم لم يحسن أحد منهم الحفاظ على ما وقع فى سهمه ، بل أدى تفريطهم وأنانيتهم وتناحرهم الأخرق إلى تضييع ما فى أيديهم وتضييع الأمة الأندلسية كلها معهم .

---

(١) المقتبس ، نشر الحجى ، ص ١٨٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٩٣ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ١٣/٣ .

ولهذا فقد كان ابن حيان سيئ الرأى فى جميع هؤلاء الملوك بغير استثناء ، وأحكامه عليهم جميعا جملة وأفراداً تتسم بهذه القسوة التى لا نظن أحداً ينكرها عليه أو يستكثرها من مؤرخ نزيه جعل شعاره قول الحق مهما آلم وأغضب .

ويكفينا أن نشير هنا إلى الفصل الذى كتبه ابن حيان عن محنة مدينة بربشتر التى اقتحمها الأردمانيون (النورمند) فى سنة ٤٥٦ (١٠٦٤) ، ففيه إجمال لرأى ابن حيان فى ملوك الطوائف جميعهم :

« إلى أن طرق الناعى بها قرطبتنا فجأة من صدر شهر رمضان من العام ، فصك الأسماع وأطار الأفئدة ، وزلزل أرض الأندلس قاطبة ، وصير للكل شغلا تسكع الناس فى التحدث به والتسآل عنه والتصور لحلول مثله ، إذا لم يفارقوا فيها عادتهم من استبعاد الوجل ، والاغترار بالأمل ، والإسناد إلى أمراء الفتنة الهمل ، الذين هم منهم ما بين فشل ووكل : يصدونهم عن سواء السبيل ، ويلبسون عليهم وضوح الدليل . ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا فى صنفين منهم هم كالملح ، فيهم الأمراء والفقهاء ، قل ما تتنافر أشكالهم : بصلاحهم يصلحون ، وبفسادهم يردؤون ، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذى نحن فيه من إعوجاج صنفيهم لدينا هذين بما لا كفاية له ، ولا تخلص منه . فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ذياداً عن الجماعة ، وجريا إلى الفرقة ، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم ، صدوف عما أكد الله عليهم فى التبيين لهم ، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم خابط فى أهوائهم ، وبين مستشعر مخافتهم ، آخذ بالتقية فى صرفهم ، وأولئك هم الأقلون فيهم . فما أقول فى أرض فسد ملحها الذى هو المصلح لجميع أغذيتها ؟ هل هى إلا مشفية على بوارها واستئصالها ؟ ولقد طمى العجب من أفعال هؤلاء الأمراء أن لم يكن عندهم لهذه الحادثة النكراء فى بربشتر إلا الفزع إلى حفر الخنادق ، وتعلية الأسوار ، وشد الأركان ، وتوثيق البنيان ، كاشفين لعدوهم عن السوأة السوآء من إلقائهم بأيديهم إليهم : أمور قبيحات الصور ، مؤذنات الصدور بأعجاز تحل الغير :

أمـــور لـو تدبرهـــا حـــكيم إذن لنهى وهبب ما استطاعـــا

. . . وقد أفشينا فى شرح هذه الفادحة مصائب جليلة مؤذنة بوشك القلعة ، طالما حذر عليها أسلافنا لحاقها بما احتملوه عمن قبلهم من آثاره . ولأشد مما أفشينا عند أولى الألباب ما أخفيناه مما دهانا

من داء التقاطع ، وقد أمرنا بالتواصل والألفة ، وأصبحنا من استشعار ذلك والتمادى عليه على شفا جرف يؤدى إلى الهلكة لا محالة »(١) .

ونحن نرى فى هذه العبارات نبوءة صادقة بمصير الإسلام فى الأندلس . صحيح أن هذه النهاية تأخرت بعد صدور هذه الكلمات أكثر من أربعة قرون ، ولكنها كانت نتيجة منطقية لما يقوله ابن حيان فى هذه الصفحة الرائعة النابضة بالإحساس بهول المأساة التى كانت تشرف البلاد عليها وأمراؤها فى غيهم سادرون .

ويكاد رأى ابن حيان فى ملوك الطوائف وفى المتلبسين بخدمتهم من الفقهاء والعلماء يكون هو رأى صديقه ابن حزم الذى يقول فى إحدى رسائله :

« وأما ما سألتم عنه من أمر هذه الفتنة وملابسة الناس بها مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض فهذا أمر امتحنا به ، نسأل الله السلامة ، وهى فتنة سوء أهلكت الأديان إلا من وقى الله تعالى . . . وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن فى شئ من أندلسنا هذه — أولها عن آخرها — محارب لله تعالى ورسوله وساع فى الأرض بفساد . . . فلا تغالطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه واللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم ، فالمخلص لنا فيها الإمساك للألسنة جملة واحدة ، إلا عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وذم جميعهم . فمن عجز منا عن ذلك رجوت أن تكون التقية تسعه »(٢) .

وجانب أخير من جوانب عقيدة ابن حيان وتفكيره السياسى هو نزعته « الأرستقراطية » . وينبغى أن نكون على حرص وحذر فى فهم هذا اللفظ ، فهو لا يعنى التعالى على الشعب أو احتقاره وإنما هو يعنى البعد عن الابتذال ودعوات التهريج السياسى التى شاعت فى الأندلس بعد ثورة محمد ابن هشام المهدى على دولة العامريين . وما أكثر ما نجد فى كتابة ابن حيان عن أحداث الفتنة من سخرية مريرة من توثب الغوغاء على رسوم الدولة وخططها منذ أن فتح المهدى باب الفتنة ، كما

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ، مخطوطة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، ورقة ٢٢ ب — ٢٤ ا . وقد نقل مقتطفات من هذا النص ابن عذارى فى البيان المغرب ٣/٢٥٤ — ٢٥٥ ؛ والمقرى : نفح ٦/١٩١ — ١٩٨ .

(٢) ابن حزم : رسالة التلخيص لوجوه التخليص ، ضمن مجموعة رسائل ابن حزم بعنوان « الرد على ابن النغريلة اليهودى ورسائل أخرى ، بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ١٧٣ — ١٧٤ .

نقرأ فى وصفه لاقتحامه قصور الزاهرة بمن كان معه « من العنازين والجزازين والسفلة وسائر غوغاء الأسواق »(١) . وفى موضع آخر يتحدث عن تقديم يحيى بن على بن حمود الملقب بالمعتلى إلى الوزارة محمد بن الفرضى الكاتب : « فكان أعدى من الجرب على دولته ، وارتقب أهل اللب حلول المحنة ، فقدما استعاذوا بالله من وزارة السفلة »(٢) . ويتحدث عن ابن السقاء مدبر ملك بنى جهور فيقول : « ثم خلط لأول ترقية فى الرياسة بأن اتخذ لنفسه جند سوء مال به طبعه الرذل إلى الاستظهار بهم على أقادم الجند بقرطبة ممن مرن على الاستقامة ، فتخير هو من أراذل الطبقات ومصاص شرار الناس ، وانتقاهم من أصناف الذعرة والداثرة والأساود والرقاصة ، نخل من كل طبقة مرفوضة ما بعث على الناس منهم ذئابا عادية ، وأعدهم ليوم الكريهة فلم يغنوا عنه شيئا لما حاق به قضاؤه »(٣) . وقد كانت هذه الظاهرة الناجمة عن الفتنة موضعا لسخرية بعض كتاب ذلك الجيل الذى ينتمى إليه ابن حيان مثل ابن شهيد فى رسالة « التوابع والزوابع »(٤) .

وفى وسعنا أن نتفهم وجهة نظر ابن حيان فى هذه الحملة على ما يبدو فى ظاهره من علائم ما يمكن أن يسمى فى اصطلاحنا الحديث بالروح الديمقراطية . فالواقع هو أن الدولة المروانية ظلت خلال القرون الثلاثة الماضية تضع ثقتها فى عدد من البيوتات القرطبية ذات الأصول العريقة سواء منها العربية أو البربرية أو من الموالى . فترددت المناصب والخطط فى تلك البيوتات يتوارثونها كابراً عن كابر ، وكان منهم حقا عدد من أكفأ رجال الدولة وقوادها ووزرائها وحجابها ، وارتبطت دولة بنى أمية بهذه الأسر حتى أصبحوا جزءاً لا يتجزأ منها ، بل تحولوا إلى أوتاد الدولة الراسخة . ولكن المنصور بن أبى عامر حينما استبد بالسلطة وحجر على الخليفة رأى فى هذه الأسر ذات الولاء القديم لبنى أمية خطراً يتهدد مطامعه ، فبدأ تحطيم كتلتها إما باستمالة رجالها إلى الدخول فى حزبه أو بإذلالهم وكسر شوكتهم والقضاء على كرامتهم . ومن هنا بدأ اختلال نظام الدولة الذى انتهى بانهيارها كلها . ولم يعن استخدام محمد المهدى ولا غيره من خلفاء الفتنة لأمثال

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ٥٦/٣ ؛ وانظر كذلك ص ٧٥ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ – ١٥/٢ ؛ وابن عذارى : بيان ١٣٢/٣ .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ق ٤ – ١٨٨/١ – ١٨٩ .

(٤) انظر محاورة ابن شهيد فى رحلته الخيالية إلى الجنة لبغلة صاحبه أبى عيسى وقوله لها حينما سألته عن عهده بأصحابها فى قرطبة : « . . ومن إخوانك من بلغ الإمارة وانتهى إلى الوزارة » – ابن بسام : الذخيرة ق ١ – ٢٥٤/١ .

أولئك العنازين والجزارين وغيرهم من سواد أهل السوق أى إصلاح « دمقراطى » حقيق ، وإنما كان مظهراً من مظاهر انحطاط الدولة وابتذال خططها واستشراء الفساد فيها .

وهذا هو ما جعل ابن حيان وأمثاله من الغيورين على صلاح بلدهم يحملون بشدة على هذا المظهر . بل إن ابن حيان يبالغ فى التنديد به إلى درجة السخرية من أبى الحزم بن جهور من أجل احتفاله فى حضور جنازة لامرأة من العامة(١) .

ابن حيـــان وقضية الثلب :

كانت صراحة ابن حيان الخشنة والمرارة التى تطل من كتابته عن تاريخ بلده على عهد الفتنة البربرية وعن ملوك الطوائف مما ألحق بمؤرخنا تهمة ظل كل من تعرض له يرددها واحداً عن واحد، وهى تهمة الثلب والوقوع فى الأعراض .

فابن بشكوال الذى اعتمد فى كثير من تراجم صلته على تاريخ ابن حيان ينقل فى ضرب من التدين الساذج خلال ترجمته للمؤرخ قول أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عون أنه رأى أبا مروان فى النوم بعد وفاته فسأله : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر الله لى . « فقلت له : فالتاريخ الذى صنعت ، ندمت عليه ؟ فقال : أما والله لقد ندمت عليه ، إلا أن الله بلطفه عفا عنى وغفر لى »(٢).

وغفر الله لابن بشكوال تصوره لندم ابن حيان على تاريخه ! وإلا فعلام يندم ؟ أعلى أنه كتب عن معاصريه ما لعله أصدق ما عرفه التاريخ الإسلامى على الإطلاق ؟ أم على أنه دمغ أمراء عصره بما هم أهل له ؟ أم على أنه خلص كتابته من ربقة « البلاطية » التى طالما زيفت حقائق التاريخ إذ أخضعتها لمقتضيات الملق الرخيص والنفاق المهين ؟

إن أكثر ما يشكو منه مطالع كتب المؤرخين فى العصور الوسطى — وسواء فى ذلك المسلمون وغيرهم — هو أن كثيراً منها كتب فى ظل الرغبة أو الرهبة ، فلم تخل من شر آفة يمكن أن تلحق

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ — ١٠٦/٢ — ١٠٧ .

(٢) ابن بشكوال فى ترجمة ابن حيان ، رقم ٣٤٥ . أما أبو عبد الله بن عون المعافرى فهو فقيه روى عن ابن عتاب وغيره من كبار المحدثين وأجاز له أبو عمر ابن عبد البر والعذرى . وكان فقيها فاضلا ورعا منقبضا عن الناس مواظبا على الصلاة بالمسجد الجامع كثير الكتب جامعا لها . ولد سنة ٤٤٠ وتوفى فى آخر سنة ٥١٢ . (انظر ابن بشكوال : الصلة رقم ١٢٦٠ .

بمدون التاريخ ، وهى الكذب والتزوير . ولو أننا استعرضنا التاريخ الأندلسى قبل ابن حيان وبعده لرأينا أن أكثر كتبه لم تنج من هذه الآفة . فابن عبد ربه وآل الرازى وابن القوطية وعريب بن سعد وغيرهم فى ظل دولة بنى أمية ، فجاءت كتبهم محشوة بالتمدح بأمراء هذه الدولة وخلفائها . والذين تلوا ابن حيان ممن كتبوا عن عصور المرابطين والموحدين وبنى الأحمر كانوا واقعين تحت تأثير صلتهم بتلك الدول . فابن الصيرفى هو مؤرخ دولة المرابطين ، وأما الموحدون فقد كتب عنهم — ولهم — مؤرخون مثل البيذق وابن صاحب الصلاة وابن القطان ، لم يروا فى الدنيا فضيلة إلا نسبوها إليهم ، ولا نقيصة إلا وألصقوها بأعدائهم . وبلغ بعضهم فى ذلك إلى ما هو ضرب من الكذب الصريح والتزلف الصفيق والقحة فى مجافاة الحقيقة(١) .

أما ابن حيان فلعله واحد من عدد بالغ القلة من المؤرخين حرروا أقلامهم من ربقة الخوف والطمع ، وهكذا خلف لنا ذخيرة من المادة التاريخية لا نكاد نعرف لها مثيلا فى الصدق والنزاهة .

وقد بدا ابن حيان بدعا فى ذلك ، فلم يفهمه الكثيرون حتى من معاصريه والمعجبين به ، فابن بسام الذى تورك عليه فى « ذخيرته » والذى اعتبره « خاتمة المحسنين » يقول : « وأكثر ما وجدت من كلام هذا الشيخ الباقعة فى هذا الباب أعنى الذم »(٢) ، ولهذا فإنه حينما نقل فصولا لابن حيان فى الحديث عن بعض معاصريه رأى من « التعفف » أن يحذف أسماء الأشخاص المعنيين « رغبة بكتابى عن الشين ، وبنفسى عن أن أكون أحد الهاجين »(٣) على حد قوله : وأضاع علينا بذلك الفائدة التاريخية التى كان يمكننا استخلاصها من التعرف على من قصدهم ابن حيان بقوله فى تلك الفصول الرائعة التى تعد من أجمل ما عرفناه فى باب تصوير طائفة من النماذج البشرية المختلفة ، والتحليل النفسى الدقيق لها(٤) .

---

(١) من أمثلة ذلك القطعة التى سبق لى تحقيقها ونشرها من كتاب « نظم الجمان ، لترتيب ما سلف من أخبار الزمان » لابن القطان المراكشى ، ط . تطوان (المغرب) ١٩٦٤ . انظر تقديمنا لهذا الكتاب .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ — ٢/١١٤ .

(٣) نفس المرجع ٢/٩٧ .

(٤) توصلنا مع ذلك بفضل المقارنات التاريخية إلى التعرف على بعض هؤلاء ، فالقطعة التى نقلها ابن بسام فى الذخيرة (ق ١ — ٢/٩٧ — ٩٨) فى الكلام عن أحد الفقهاء الموثقين إنما يقصد بها بغيرشك الفقيه المعروف بابن المندى ، وهو أبو عمر أحمد بن سعيد الهمدانى المتوفى سنة ٣٩٩ (١٠٠٩) . انظر فى ترجمته ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٢١ ؛ ابن سعيد المغرب ١/٢١٧ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ٦٤٩ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٣٨ .

ومثل هذا نجد عند الحجارى صاحب كتاب المسهب فيما ينقل عنه ابن سعيد ، وذلك فى معرض ترجمة الشاعر عبدالله بن خليفة المعروف بالمصرى ، وكان أحد شعراء المأمون ابن ذى النون ملك طليطلة ، وكان ابن حيان قد ذكر هذا الشاعر وأساء الثناء عليه وعلى شعره ، وكان ابن جار له من التجار فى قرطبة رحل إلى العدوة فظل سنوات هناك ، ثم عاد مدعيا أنه مصرى . فقد نقل الحجارى حكم ابن حيان على ابن خليفة هذا ، وعقب عليه بقوله : « ما كان عنده ذنب إلا جواره فبئس اللدمام »(١) . والغريب بعد ذلك أن ابن سعيد ينقل بعد ذلك عن الحجارى نفسه وعن أبى بكر ابن اللبانة الدانى فى كتابه « سقيط الدرر » عن الشاعر المذكور من الذم والثلب ما هو أشنع بكثير مما قال ابن حيان .

ويبدو أن كل ذلك أكد فى أذهان الأدباء الأندلسيين صورة ابن حيان بصفته الطعانة الثلابة الذى لم يكن لكتابة التاريخ عنده معنى إلا النيل من الحرم والوقوع فى الأعراض ، حتى إن ابن سعيد فى ترجمته للأديب أبى عبد الله محمد بن الصفار الزمن الأعمى (المتوفى سنة ٦٣٩-١٢٤٢) يقول : « وكان هذا الشيخ باقعة قد أخذ نفسه بالوقوع فى الأعراض مأخذ ابن حيان »(٢) . ثم ينقل ابن سعيد فصولا من نثر هذا الشيخ تدليلا على قوله ، فاذا بها كلها هجاء قبيح سقيم الذوق تتردد فيه الكلمات النابية وعبارات الأدب المكشوف ، فى أسلوب يمجه السمع ، ويأباه كل ذى حس سليم ، وقد يكون ابن حيان شديد العارضة حديد اللسان ، ولكن فى مقارنته بهذا المتأدب صاحب الهجاء البذىء والذوق الغليظ ظلما ما بعده ظلم لشخصية أبى مروان .

وواقع الأمر هو أن الأدباء والمؤرخين الأندلسيين كانوا قد جروا على أن يكتبوا تراجم من طراز ما نراه فى كتابى الفتح بن خاقان من فصول تبدأ بمثل هذه العبارات المسجعة : « غرة الأوان ، وإنسان عين الزمان ، وصاحب البيان الذى يسمع الصم ، ويستنزل العصم » إلى ما أشبه هذا الهراء الذى أصبح معه كل متلبس بحرفة أدب هو علمه المفرد ، وعبقريه الأوحد . وما أكثر ما جنى هؤلاء المتحذلقون المتنطعون من أمثال ابن خاقان على التاريخ والأدب بمثل هذه الأماديح التى لا تفيدنا بشىء فى التعرف على شخصية المترجم له ، فضلا عن أننا نعرف قلة ما فيها من صدق

---

(١) ابن سعيد : المغرب ١٣١/١ .

(٢) نفس المرجع ١١٨/١ .

وإخلاص ، إذ هي لا تخرج عن كونها قوالب محفوظة تردد بشكل أو بآخر فى كل ترجمة . أما عن أثر أمثال هذه الكتب فى الأدب فإن أسوأ ما فى الأمر هو أنها أصبحت تعد المثل الأعلى للتعبير الأدبى ، بما يعنيه ذلك من إفساد للأذواق ، وإحالة للأدب إلى نوع من التمارين اللفظية المبنية على القعاقع الجوفاء الخالية من كل روح وإحساس . وهذه هى محنة الأدب فى عصور تخلفه منذ تربع على عرشه أمثال الفتح بن خاقان هذا ، ومنذ عكف المتأدبون على تدارس كتبه والعناية بها حتى إن أحد أدباء المغرب المتأخرين رأى كتاب « قلائد العقيان » جديراً بأن يصنع له شرحا طويلا مع أن هذا الكتاب من أسوأ نماذج الأدب العربى وأتفهها .

وقد درج كتاب التراجم على تسطير مثل ذلك النفاق حتى أصبح الصدق لديهم شيئا مستغربا ، فإذا جاءهم مثل ابن حيان بكلام يبدو منه أن المترجم له ليس « بغرة الأوان » ولا « إنسان عين الزمان » ، بل هو بشر له ما له وعليه ما عليه فإن هذا فى نظرهم هو عين الثلب وغاية الوقوع فى الأعراض .

بل إننا حينما نتأمل ما بقى لنا مما كتبه ابن حيان عن معاصريه ونقارنه بما كتبه غيره من معاصريه لنكبر أكثر ما نكبر هذا الكاتب الذى كان يعرف معنى الكرامة ، فلم يمتهن قلمه فى تسطير زخرف من القول يعرف أنه زور وكذب ، ولنأسف أشد الأسف على ما ضاع من تاريخ ابن حيان ، وعلى أن ابن بشكوال فى تورعه الساذج الذى يقارب الغفلة قد اقتضب تراجم ابن حيان ، فلم يثبت منها إلا المدح وجردها من كل ما اشتم منه رائحة النقد أو الطعن(١) ، مع أننا حينما تقصينا أخبار هؤلاء المترجم لهم فى المصادر التاريخية الأخرى تبين لنا أن ابن حيان لم يبعد أبداً عن الصدق فى كل ما أخذه عليهم وذكره من معايبهم .

---

(١) تبين لنا تصرف ابن بشكوال فيما نقله عن ابن حيان عند مقارنة تراجم بعض قضاة قرطبة التى اعتمد فيها على مؤرخنا بمثيلاتها فى المغرب لابن سعيد عن هؤلاء الأشخاص أنفسهم ، وقد كان ابن سعيد أكثر أمانة من ابن بشكوال ، إذ نقل نصوص ابن حيان بما فيها من مدح وقدح . قارن مثلا ترجمة القاضى عبد الرحمن بن بشر المعروف بابن الحصار فى الصلة رقم ٦٩٨ وفى المغرب ١٥٨/١ ؛ وترجمة يونس بن عبد الله بن مغيث المعروف بابن الصفار فى الصلة رقم ١٥١٢ وفى المغرب ١٥٩/١ ، وترجمة أبى محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن المكوى فى الصلة رقم ٦٠٦ وفى المغرب ١٦٠/١ ؛ وترجمة أبى على الحسن بن محمد بن ذكوان فى الصلة رقم ٣١٢ وفى المغرب ١٦٠/١ - ١٦١ ؛ وترجمة أبى بكر يحيى بن محمد ابن يبقى بن زرب فى الصلة رقم ١٤٧٢ وفى المغرب ١٦١/١ .

والذى لا نخلى ابن حيان منه على كل حال هو تلك السخرية المريرة اللاذعة التى تشيع فى كتاباته ، وهى التى أضفت عليها توهجا وحيوية بعدا بها عن مجرد التسجيل التاريخى البارد . والأمثلة على هذه السخرية كثيرة يحفل بها تاريخه ، غير أننا سننتخب منها مثلا واحدا فى تصوير الخليفة المسكين هشام المؤيد بن الحكم المستنصر الذى جرت بلاهته وتخلفه العقلى على الأندلس أوخم العواقب . يقول ابن حيان بعد أن ذكر إخلاده إلى الدعة وانهماكه فى نزهه وانقطاعه إلى مظاهر تدينه التى هى أقرب إلى العته :

« ونال فى مدة هذا الانهماك والدعة أهل الاحتيال من الناس عندهم [أى عند حاشية المؤيد] الرغائب النفيسة ، بما ازدلفوا به من أثر كريم ، أو زخرفوه من كذب صريح ، حتى لقد اجتمع عند نساء القصر ثمانية حوافر عزى جميعها إلى حمار عزير المستحيى بالآية الباهرة ، واجتمع عندهن من خشب سفينة نوح عليه السلام وألواحها قطعة جليلة ، وظفرن من نسل غنم شعيب عليه السلام بثلاث ، وكلفن من هذا ومثله لعفتهن وزهد صاحبهن بأشياء توجهت على أموالهن من قبلها أعظم حيلة ، ولهجه مع ذلك بطلب ذوى الأسماء الغريبة من الناس الموافقة أسماؤهم لمن اجتباه الله من خلقه مثل عبد النور وعبد السميع وعبد اللطيف وعبد المؤمن وحزب الله ونصر الله وفضل الله ، ومثل ياسين واليسع ومن جانسه ، يصير الرجل من هؤلاء فى الحاشية ، ويستعمل على وكالة جهة ، ولا يبعد أن يتمول فى أقرب مدة ، وإن اتفق مع ذلك أن يكون ذا لحية عثلوية ، وصاحب سبال وهامة ، فقد تمت له السعادة ، ولاسيا إن كانت لحيته حمراء قانية ، فإنها أجدى عليه من دار البطيخ غلة ، ثم لا يسأل عما وراء روائه من أصل ولا فضيلة ، ولو كان مردداً فى بنى اللخناء . . . »(١) .

ابن حيـــان أديبا :

لعل أعظم ما ميز ابن حيان المؤرخ وجعله نموذجاً فريداً فى التاريخ الإسلامى هو كونه أديبا فى الوقت نفسه ، والأدب والتاريخ يمتزجان فى كل ما سطره قلمه مزاجا غريبا لا نعرف فيه أين يبدأ هذا ولا أين ينتهى ذاك . وكل صفحات تاريخه الكبير ، ولاسيا كتابه « المتين » ، تعتبر من أروع نماذج النثر الأندلسى على الإطلاق . وهذا شئ لم يتح ولا يتاح للكثير من المؤرخين ، لاسيا إذا التزموا مع ذلك التسجيل الدقيق المفصل ، فالتاريخ معدود من العلوم ، غير أنه تحول على يد ابن حيان إلى أدب خالص محض .

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ٤ — ٦٣/١ .

وقد أعان ابن حيان على ذلك امتلاكه لناصية اللغة على نحو لا نراه توفر لمؤرخ قبله ولا بعده ، وثروة عظيمة من مفردات اللغة يستخدمها فى سهولة وانسياب ، وقدرة عجيبة على الربط بين المعانى ، وملكة قصصية كانت تؤهل أبا مروان لكى يصبح كاتبا روائيا من الطراز الأول .

وتبدو قوة شخصية ابن حيان فى تفرده بأسلوب لم يتبع فيه ناثرى عصره الذين كان تكلف السجع والمحسنات البديعية اللفظية قد طغى عليهم ، فبرئ من التصنع ، وأصبح نثره محكما لكل لفظ فيه قيمته ، بحيث لا يكاد المرء يملك إزاءه تصرفا من حذف أو إضافة ، فكل شئ فيه مقدر بحساب ، وإن كان القارئ يمضى فيه فيظنه لقوة الطبع أسلوبا جرى به قلم الكاتب دون عناء ولا احتفال ، هذا مع الإيجاز الذى يبدو معه أنه هو نفسه المعنى بعبارة قالها فى الكلام عن بلاغة صديقه أبى عامر ابن شهيد : « يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام » (١) .

ويحفل نثر ابن حيان بالصور التى تبهر النظر ترد بسيطة بلا افتعال ، ولا تصنع بلاغى ، ولا قعقعة رنانة . وكثيراً ما يستخدم التشبيه والاستعارة والكناية وغيرها من أدوات البيانيين فى غير حذلقة ولا تعالم . ولننظر مثلا إلى هذه القطعة التى يتحدث فيها عن أولية ابن السقاء القرطبى مدبر ملك بنى جهور ووزيرهم :

« كان أبو الحسن إبراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن السقاء قد كابد من شظف العيش فى فتاء سنه ما لا شئ فوقه ، إذ كان يعالج السقط بسويقة ابن أبى سفيان فى قرطبة ببضاعة نزرة ، وأعلى ما انتقل إليه عند إكداء تلك الحرفة الاستخراج فى جهة الأحباس ، وإرثه عن والده محمد السقاء ، وبأسبابها خدم القضاة وتمرن مع الفقهاء ، وهو يقتات معيشته مياومة ، ويأوى ليله إلى بيت فى دويرة والده محمد بجوفى المسجد الجامع يحاضر فيه جماعة إخوة لا يجد بينهم إلى مد ساقه سبيلا ، وما هو إلا أن حمل الأمانة على كاهله ، فوضعها أسفل رجله ، وتذكر عض الكلاب لعصاه ، فتحول جرذاً للسرق والخيانة ، وابتنى القصور المنيعة ، واقتنى الضياع المغلة ، إلى أملاك لا تحصى كثيرة » (٢) .

فلنتأمل هنا ما أودعه ابن حيان من معان فى قوله وهو يصور شظف عيش ابن السقاء وضيق

---

(١) نفس المرجع ، ق ١ – ١٦١/١ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ٤ – ١٨٦/١ .

تلك « الدورة » التى كان يأوى إليها مع جماعة إخوته : « لا يجد بينهم إلى مد ساقه سبيلا » ، وكذلك إشارته إلى « عض الكلاب لعصاه » ، ثم قوله فى الكلام عن خيانته الأمانة واحتجانه الأموال بعد اعتلائه إلى الوزارة : « فتحول جرذاً للسرق والخيانة » . فهو يركز فى تلك الكلمات القليلة ما لا يسع غيره التعبير عنه إلا بمطاولة الكلام .

ولننظر إلى قوله فى الحديث عن وثوب عبد الله بن حكم بابن عمه منذر بن يحيى التجيبى ملك سرقسطة واغتياله إياه فى صميم قصره :

« فجاء بفتكة أسقطت كل من فتك فى الإسلام قبله ، ولم يفكر فى ابن ذى النون خال منذر لمادنا إليه ، وفعل ذلك بسليمان بن هود وقد جاء ناشراً أذنيه ، فحاربه ودافعه »(١) .

فنحن نرى فى هذه الكناية « ناشراً أذنيه » صورة حسية مركزة تغنى عن كثير من الكلام .

وانظر كذلك إلى قوله عن سليمان بن الحكم المستعين والتفاف شعراء قرطبة حوله يرجون منه ما لم تكن تسعف به المقادير :

« واغتنمته شعراء العامرية والدولة الأموية ، وقد نسجت على أفواههم ومحاريبهم العناكب أيام الحرب والفتنة ، واشتدت فاقتهم ، وحمت طباعهم . وكانوا كالبزاة الفذة الجياع ، انقضت لفرط الضرورة على الجرادة ، فلم يبل (فى الأصل : يبال) صداهم ، ولا سد (فى الأصل : شد) خلتهم ، لاشتغاله بشأنه ، واشتداد حاجة سلطانه »(٢) .

فى هذه السطور من التصوير الحى ما يغنى عن الإسهاب فى الوصف ، فالكناية عن خمول الشعراء بنسج العناكب على أفواههم ومحاريبهم ، وتشبيههم بالبزاة الفذة الجياع انقضت على الجرادة مما لا يتأتى إلا لقلم مفتن يمده خيال خصب ، فى غير إبعاد ولا إحاطة فى توليد الصور .

فالحقيقة هى أن أجمل ما يتميز به أسلوب ابن حيان هو مزجه بين الوصف الدقيق الواقعى الذى يصور لك الحدث فكأنك فى صميمه ، أو يحلل لك الشخصية ، فيكشف عن باطن سرها تراها كما ترى راحتك ، وخطرات الخيال التى تعين على إبراز الألوان والظلال ، فتزيد التصوير

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ — ١٥٧/١ ؛ وابن عذارى : البيان المغرب ١٧٩/٣ — ١٨٠ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٢٢ .

واقعية وصدقا ، تماما كما عرف كيف يمزج بين الكتابة التاريخية والنثر الفنى مزجا لم يتهيأ ولا نظنه يتهيأ لكثير من المشتغلين بصناعة التاريخ .

والملكة القصصية لدى ابن حيان جديرة بأن نمعن فى تأملها ، والواقع أن ابن حيان لو لم يكن مؤرخا لكان من أعلام فن كتابة الرواية والقصة ، هذا دون أن يخل بالسرد التاريخى الصحيح الصادق . وما أكثر ما نجد فى كتابته التاريخية من أخبار تتألف منها قصص متكاملة بعضها يمكن أن يتحول إلى رواية طويلة ، وأخرى فيها من تصوير النماذج البشرية وتحليل نفسياتها فى لمحات ولمسات خاطفة ما يبدو تخطيطاً لمجموعة من أروع نماذج القصة القصيرة .

وهو كثيراً ما يلجأ إلى الحوار ، فيزيد روايته التاريخية حيوية وتوهجا ، ونكاد نرى أنفسنا أمام مشهد تكتمل فيه عناصر العمل المسرحى لولا أنه مأخوذ من صميم الحياة الواقعة . وفى القطعة التى نقدم بين يديها بهذه الصفحات من كتاب المقتبس أمثلة كثيرة لذلك ، منها قصة مهلك نصر الخصى المؤتمر بمولاه عبد الرحمن الأوسط ، وبعض الحكايات عن هذا الأمير نفسه فى علته التى مات فيها نراه فيها لا سلطانا جباراً وحاكما من أعظم من شهدتهم أرض الأندلس، وإنما إنسانا رقيقا ضعيفا يسأل خدمه أن يطلعوه على مرقبة يتملى بها جمال الدنيا ويسرح بصره فى الحقول المحيطة بقصره ، فإذا رأى راعى غنم مخلداً إلى نومه المطمئن دمعت عيناه وتمنى ألا يكون قد انتشب فى أمور الحكم والسلطة لقاء أن ينعم بتلك اللحظات الغافية الوادعة التى كان يتمتع بها أقل رعاياه شأنا .

ونرى مثل ذلك فى القصة المفصلة التى يرويها عن تولى محمد بن عبد الرحمن الخلافة ، وكثيرا من النوادر التى ترد فى عرض تراجمه لحجاب الأمير محمد ووزرائه ورجال دولته ، مما يبدو إعداداً لقصص جديرة بأن تأخذ سبيلها إلى دفة كتاب مستقل أو روايات قصد بها أن تمثل على خشبة مسرح .

وابن حيان فى ذلك كله نسيج وحده ، لم يقلد أحداً من قبله ، وقلده بعض من أتى بعده فلم يلحقوا غباره ، واضطر أحدهم مثل ابن بسام الشنترينى إلى الاعتراف فى تواضع حينما ألجأه شرود لفظ ابن حيان عنه فاستكمل بعض رواياته التاريخية بفقرات من نتاج قلمه بأنه « رقع الضحى بالغلس وجمع بين حافر العير وجبهة الفرس »(١) .

---

(١) دوزى فى مقدمته لنشرته لكتاب البيان المغرب لابن عذارى ص ٧٣ وانظر كذلك كتابه اللاتينى « الجامع لأخبار بنى عباد » ١/٢١٨ – ٢١٩ .

وقد كان المستشرق الهولندى الكبير راينهارت دوزى ، بحسه الأدبى المرهف وذوقه السليم ، أول باحث محدث تنبه إلى هذا الكنز التاريخى الأدبى الذى يتمثل فيما بقى من تاريخ كاتبنا القرطبى ، فأشاد بأسلوب ابن حيان وأفاض فى الثناء عليه ومدح فيه الفحولة والجزالة مع الدقة والإحكام والإيجاز ، على أنه أتبع هذا الحكم بقوله إنه أسلوب « مشبع بالروح الأوربية »(١) .

وإذا كنا قد امتدحنا فى دوزى دائما هذه الحساسية الدقيقة حين فطن إلى تميز ابن حيان على غيره من المؤرخين وإلى اختصاصه دونهم بهذا الأسلوب الأدبى الذى جعله فى مصاف أكبر الناثرين العرب فإننا لا نملك إلا العجب من هذه العبارة الأخيرة التى أراد أن ينسب تميز ابن حيان فيها إلى « تشبعه بالروح الأوربية » ! . . .

فنحن نرى هنا كيف تلحق بهذا الباحث العظيم ذيول العصبية الأوربية التى لا تكاد ترى مفكراً أو أديبا منقطع القرين فى عالم الإسلام أو العروبة حتى تحاول أن تستأثر به وتحرم منه أمته بجرة قلم . وإلا فلم لا يعد ابن حيان – كما كان فعلا – مؤرخا خالص العروبة مسلما شديد الاعتزاز بقوميته وعروبته ودينه ولغته ؟ وأين مظاهر هذه « الروح الأوربية » فى كتابته ؟ ولقد كان كتاب المدونات المسيحية فى العصور الوسطى سواء فى إسبانيا أو فى غيرها من بلاد القارة أكثر تشبعا بالروح الأوربية من ابن حيان بغير شك . فلم لم يظهر من بينهم من يستحق أن يقرن بابن حيان من قريب ولا من بعيد ؟

الحقيقة أن هذه إحدى شطحات دوزى ، نفس فيها على الفكر التاريخى العربى أن ينجب مثل ابن حيان ، فاستكثره على أمته . وكنا نتمنى أن يكون هذا الباحث صاحب الفضل الكبير على التراث العربى أكثر تجرداً ونزاهة .

ابن حيان ناقدا :

ولعل مما يكمل لنا صورة ابن حيان الكاتب الأديب تتبع أحكام ابن حيان الناقد الأدبى . فالنقد عند أبى مروان جانب جدير بأن نوليه بعض العناية . بل إننا نزعم أن تلك الأحكام التى أصدرها على أدباء الأندلس فى ثنايا تاريخه ترفعه إلى مكان بارز فى الصف الأول من النقاد . وابن حيان ينبع فيها عن نفس الروح التى كانت تمد دائما كتاباته التاريخية ، فكما لم يكن أبو مروان

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ – ١٢٢/٢ .

مجرد سارد للأحداث ، بل هو دائما يتخلل هذا السرد هنا وهناك بأحكام تدل على نفاذ النظرة واستشفاف أعماق الأحداث والشخصيات ــ فكذلك كان عند حديثه عن الأدب والأدباء : لم يقتصر على الترجمة لهم أو الاختيار من قولهم ، وإنما شفع ذلك بالحكم لهم أو عليهم معطياً لكل حقه .

ولسنا نستطيع هنا تقصى هذه الأحكام الأدبية ، فهى منتشرة فى كل كتاباته سواء فى القطع التى بقيت لنا من « المقتبس » أو فيما حفظه لنا ابن بسام وابن الخطيب وغيره من كتاب « المتين » . ولو أن هذه الأحكام كلها جمعت ــ على كونها جزءاً صغيراً مما بقى لنا من إنتاج ابن حيان الغزير ــ لأمكن أن تصبح مادة لدراسة طيبة عن النقد الأدبى فى الأندلس كما يمثله هذا الكاتب الفذ الذى ملك عنانى الأدب والتاريخ .

على أننا سوف نختار من أحكام ابن حيان الأدبية مجموعة قليلة نرى منها كيف نفذ عن طريق قليل الكلام إلى ما يعتبر خلاصة لدراسة تحليلية عميقة :

يقول عن أبى محمد ابن حزم :

« كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب ، مع المشاركة فى كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة ، وله فى بعض تلك الفنون كتب كثيرة . . . وكان يحمل علمه هذا ويجادل من خالفه فيه على استرسال فى طباعه ، ومذل بأسراره ، واستناد إلى العهد الذى أخذه الله على العلماء من عباده ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، فلم يك يلطف صدعه بما عنده بتعريض ، ولا يزفه بتدريج ، بل يصك به معارضه صك الجندل ، وينشقه متلقيه إنشاق الخردل ، فينفر عنه القلوب . . . وأكثر معايبه ــ زعموا ــ عند المنصف له جهله بسياسة العلم التى هى أعرض من إيعابه ، وتخلفه عن ذلك على قوة سبحه فى غماره ، وعلى ذلك فلم يكن بالسليم من اضطراب رأيه ، ومغيب شاهد علمه عند لقائه ، إلى أن يحرك بالسؤال ، فيفجر منه بحر علم لا تكدره الدلاء . . . وعلى ذلك فليس ببدع فيما أضيع منه ، فأزهد الناس فى عالم أهله وقبله أردى العلماء تبريزهم على من يقصر عنهم . والحسد داء لا دواء له » (١) .

ولسنا نعلم أحداً عرف كيف يغوص على حقيقة ابن حزم وقيمة جهده العلمى وماله وما عليه كما فعل ابن حيان فى تلك الصفحات الدسمة التى ترجم فيها لابن حزم التى اقتطفنا منها العبارات السالفة .

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١٤٠/١ - ١٤٤

ويقول عن أبي عامر ابن شهيد :

« كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام . . . والعجب منه أنه كان يدعو قريحته إلى ما شاء من نثره ونظمه فى بديهته ورويته ، فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء للكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ فى الأدب ، فإنه لم يوجد له — رحمه الله — فيما بلغنى بعد موته كتاب يستعين به على صناعته ، ويشحذ من طبعه إلا ما لا قدر له ، فزاد ذلك من عجائبه وإعجاز بدائعه . وكان فى تنميق الهزل والنادرة الحارة أقدر منه على سائر ذلك . وشعره حسن عند أهل النقد ، وتصرف فيه تصرف المطبوعين ، فلم يقصر عن غايتهم »(١) .

وفى موضع آخر يشير ابن حيان إلى الكاتب أبى جعفر أحمد بن عباس وزير زهير الفتى صاحب المرية ، فيقول :

« ومن عجبه أنه . . . تنقص أديبهم (أديب قرطبة) أبا عامر ابن شهيد ، ولم يك يصلح مستملياً له »(٢) .

ولعل ما نقلناه عن ابن حيان حول انقياد الكلام لابن شهيد شعره ونثره دون عناية بالطلب من أوضح الأدلة على إرهاف حسن ابن حيان الأدبى وجودة تذوقه وفطنته إلى عنصر الإلهام فى فن الأديب المبدع . وإشارة ابن حيان إلى قلة ما وجد لدى أبى عامر من الكتب ملاحظة نافذة تدل على إدراك ثاقب لذلك العنصر الذى كان قوام إنتاج ابن شهيد الأدبى .

ولنقرن هذا الحكم بكلام ابن حيان عن أحد علماء اللغة المبرزين ذوى الصيت الطائر والمكانة المشهود بها ، وهو أبو القاسم ابن الإفليلى :

« وكان أبو القاسم . . . قد بذ أهل زمانه بقرطبة فى علم اللسان العربى والضبط لغريب اللغة فى ألفاظ الأشعار الجاهلية والإسلامية ،والمشاركة فى بعض بيانها . وكان غيوراً على ما يحمل من ذلك الفن . . . راكبا رأسه فى الخطأ البين إذا تقلده أو نشب فيه . . . واستكتبه محمد بن عبد الرحمن المستكفى بعد ابن برد ، فوقع كلامه جانبا من البلاغة ، لأنه كان على طريقة المعلمين المتكلفين ، فلم يجر فى أساليب الكتاب المطبوعين ، فزهد فيه »(٣) .

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ — ١٦١/١ — ١٦٢ .

(٢) نفس المرجع : ق ١ — ١٧٦/٢ .

(٣) نفس المرجع : ق ١ — ٢٤٠/١ — ٢٤١ .

فابن حيان يتنبه بحسه الأدبى إلى أن العلم باللغة وغريبها وحفظ الأشعار قديمها ومحدثها لا يخلق الأديب ولا الشاعر ، كما لم يضر أبا عامر ابن شهيد فى شىء قلة عنايته بالطلب ولا بعده عن استظهار الكتب .

وهذا هو ما جعل ابن حيان حريصا فيما يختاره فى ثنايا تاريخه من المنظوم والمنثور ، مدققا فيه ، منقراً عن قيمته الفنية ، فهو لا يورد النصوص الأدبية جزافا ، بل يمعن النظر فيما يأتى به على نحو قد يبدو غريباً من مؤرخ لم يكن عليه فى ذلك من مئونة ، مع أن مؤلفى المنتخبات الأدبية الذين وقفوا تآليفهم على هذا الجانب كثيراً ما يعنون الباحث فى الأدب بما يسوقونه من غث النظم ومرذول النثر . وحتى إذا اضطر ابن حيان إلى إيراد ما لا يرضاه من النصوص الأدبية وإنما أثبته لمكانة قائله أو لدلالة خاصة فإنه لابد أن يتبعه رأيه فيه .

ونذكر من أمثلة ذلك أبياتا أثبتها ابن حيان فى القطعة التى ننشرها اليوم من « المقتبس » نقلا عن معاوية بن هشام الشبينسى لأبى قصى يعقوب بن الأمير عبد الرحمن بن الحكم . فهو يعقب عليها بقوله : « وصفه بالشعر ثم لم ينشد له منه ما يصدق وصفه » ويدلل ابن حيان على رأيه بالتنبيه على إحالة بعيدة ألجأت القافية إليها ذلك الأمير المنسوب إلى الشعر فى أحد أبيات قطعته(١) .

ومثل آخر يقدمه لنا فى معرض اختياره لأبيات أحد ملوك الطوائف ، هو جبر الدولة ذو الرياستين أبو مروان عبد الملك بن هذيل بن خلف بن لب بن رزين ملك سهلة بنى رزين . فقد رأى ابن حيان بعد إيراد تلك الأبيات أنها من الضعف والتفاهة بحيث لا تستحق منه كبير نقد ، وإنما أجمل وصفها بقوله بعد أن سخر بغرور هذا الأمير المتعالم الذى أراد أن يقحم نفسه فى زمرة الشعراء :

« وشعره . . . جسم بلا روح ، وليل بلا صبوح » ، ثم يقول بعد إيراده تلك القطع : « . . . إلى غير هذا من سخفه » (٢) .

---

(١) انظر هذه القطعة من « المقتبس » ، ورقة ١٩٥ ا من الأصل المخطوط . وقد نقل ابن الأبار هذه الأبيات وتعليق ابن حيان عليها فى الحلة السيراء ١/١٢٥ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ٣/٣٠٩ – ٣١٠ . ويستوقف النظر أن الأمير المشار إليه ولى حكم سهلة بنى رزين (التى مازالت تعرف إلى اليوم باسمها العربى Albarracin) فيما بين سنتى ٤٣٦ و ٤٩٦ (١٠٤٤/١٠٤٥ – ١١٠٣) ، أى أن الحياة امتدت به بعد ابن حيان أكثر من ربع قرن . وكان ابن حيان يعرف بغير شك أن حكمه عليه لابد أن يبلغه ، فلم يمنعه ذلك من أن يعبر عن رأيه فيه بما هو معهود من صراحة خشنة لا تعرف المجاملة ولا المواربة .

ونذكر بهذه المناسبة أن مؤلفين أفردا كتابيهما للمختارات الأدبية هما ابن بسام الشنتريني والفتح بن خاقان عرضا لهذا الأمير المتشاعر فكان مذهبهما إزاءه أبعد ما يكون عن مذهب ابن حيان.

أما ابن بسام فقد ساق لنا من غث شعره ما سود به صفحات كثيرة من كتابه بعد أن قدم له بقوله : « وأما ذو الرياستين فكان له طبع يدعوه فيجيب ، ويرمى ثغره الصواب عن قوسه فيصيب » ، على أنه مع ذلك كان مقتصداً فى مدحه ، ولم يخله من نقد لمذهبه فى شعره(١) .

وأما ابن خاقان فقد أفرد له أحد فصوله المعهودة . . . من نوع تلك التراجم التى لا يظهر المرء فيها إلا بسجعات يصك السمع رنين ألفاظها الأجوف ، اللهم إلا ما حشاها به من الملق والكذب ، فقد بدأ بأن جعل ابن رزين هذا « غيثا للندى ، وليثا على العدى) كذا ! ، مع أنه لم تعلم عن هذا « الليث » غزوة على عدو ، ولا أثر عنه انتصار فى معترك ! (، وبدراً فى المحفل ، وصدراً فى الجحفل) . . . ثم مضى يورد قطعا له من نوع ذلك الهذر الذى لم يتردد ابن حيان فى وصفه بالسخف ، مقدما لها بقوله : « وله نظم ونثر ما قصرا عن الغاية ، ولا أقصرا عن تلقى الراية ، وقد أثبت منهما نبذا تروق شموسا ، وتكاد تشرب كؤوسا »(٢) .

وهذه المقارنة بين ابن حيان وهو رجل صناعته التاريخ وابن بسام وابن خاقان وهما أديبان كان يفترض فيهما أن يكونا أدق اختياراً وأشد احترازاً بحكم طابع كتابيهما — إنما تدلنا على أن أبا مروان كان أجود منهما ذوقا وأعمق إحساسا بتبعة الاختيار الأدبى . أما الصدق فى المقال والقصد فى الوصف فلا مجال لأى مقارنة بين ابن حيان وأمثال ابن خاقان من ذوى التحذلق والرقاعة . . .

وإن إحساسنا بمدى تحرى ابن حيان فى اختياراته الأدبية ليزداد عمقا وتأكداً ونحن نتأمل الفصل الطويل الذى ساقه للحديث عن شعراء الإعذار الذنونى الذى ضرب به المثل فى الأندلس فى الفخامة والإسراف . وكان المأمون يحيى بن ذى النون ملك طليطلة قد أقام هذا الإعذار فى سنة ٤٥٥ (١٠٦٣) واستدعى له مبرزى شعراء حضرته . وبدأ ابن حيان فساق وصف الإعذار نقلا عن خطاب كتب به إليه الأديب ابن جابر ، يقول بعد الفراغ منه :

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثالث ، مخطوطة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، ورقة ١٣ ب — ١٦ ا ، وقد نقل ابن عذارى عنه بعض عباراته حول ابن رزين فى البيان المغرب ٣/١٨٤ .

(٢) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ، ط . بولاق سنة ١٢٨٣ هـ . ، ص ٥١ وما بعدها .

« هذا آخر خطاب ابن جابر إلى بوصف الإعذار . . . خلا أنه سامنى ذكر مقطوعات حشا بها كتابه إلى من صنعة صديقه عبد الله بن خليفة المصرى تعاور المغنون فى تلك الليلة الغناء بها وجميعها عندى فى نهاية من الضعف والتخلف ، والتبرؤ من صنعة الشعر ، يبغى بها توشيع هذا المشهد الجليل الذى قيلت فيه بنظمها فى عقده ، فلم أسعده على ذلك ترفيعا به عن هجنتها ، وتبرئة لنقدى على استجادة سبكها ، ومذمة لزمن غفل أقحم قائلها فى زمرة الشعراء » .

ثم يتبع ابن حيان كلامه بأحكام مفصلة على شعراء ذلك المشهد : فيتحدث عن ابن خليفة « المصرى » الذى حقق ابن حيان أصله ، فإذا به لا يمت إلى مصر بصلة ، وإنما كان ابن جار له من تجار الخفافين رمت به النوى إلى بلاد العدوة ، فتردد بها ، ثم « عاد على زعمه مصريا صليبة ، وأديبا باقرة ، وشاعراً باقعة » ، وقد أوردنا ما ذكر ابن حيان فى نقده لشعره . ثم يتحدث عن ابن شرف القيروانى الذى أنشد قصيدة « أطال فيها التشبيب فخلص إلى التهنئة وقد استفرغ القريحة وطول فما أتى بطائل » ، وقام بعده محمد بن زكى الأشبونى فأنشده شعراً ركب فيه سنن من قبله . ويختم ابن حيان هذا الفصل بأسفه على أن لم يكن فى هذا المشهد إدريس بن اليمان اليابسى الذى يعتبره ابن حيان فحل شعراء الأندلس فى ذلك العصر .

ومع ذلك فقد أورد ابن حيان على عادته فى الإيعاب بعض ما اختاره من قصائد هؤلاء الشعراء « لئلا يخلو جيد التأليف من مخشلبها »(١) .

وأغرب ما نقرأ لابن بسام بعد أن نقل هذا الفصل عن ابن حيان هو قوله : « وأثبت ابن حيان فى كتابه لتلك الطائفة المنشدة يومئذ عدة قصائد ، ولم يسلك فيها سبيل ناقد » (!) وليت شعرى أى نقد كان يريده ابن بسام أحكم ولا أصدق مما قدم به ابن حيان بين يدى ما اختاره ؟ مع أنه لو كان ابن بسام فى هذا المشهد لأقبل يكيل لنا من ذلك « المخشلب » ما لا يطيق قراءته ولا سماعه إلا أولو الحول والقوة بعد أن يصوغ فى مدحه ما رأينا مثله من قبل فى كلامه عن « سخف » ذى الرياستين ابن رزين . . .

---

(١) انظر هذا الفصل بطوله فى ابن بسام : الذخيرة ق ٤ - ١٠٦/١ - ١٠٩ .

ابن حيان فى نظر المتأخرين :

ربما كان من عيوب الاستكثار فى التأليف أن تداول الكتب المطولة فى العصور الوسطى — مع عدم الطباعة وثقل مؤونة الاستنساخ — كان أمراً بالغ العسر ، وأخطر ما فيه هو تعرض تلك الكتب للضياع . وقد كان ذلك بالفعل هو ما وقع لكتب المؤلفين ذوى النفس الطويل من أمثال ابن حزم وابن حيان فى الأندلس . إذ لم يصل إلينا من إنتاجها الهائل الغزير إلا ما لا يكاد يذكر قلة . ونحن من أجل ذلك نشعر بعميق الامتنان لمؤلف مثل ابن بسام ، فقد حفظ لنا فى « ذخيرته » من تاريخ ابن حيان ما يعد وحده ذخيرة لا تقدر بثمن .

وقد كان ابن حيان فى عصره وبعد ذلك بوقت طويل موضع إعجاب الأدباء والمؤرخين ، ولكنا لا نجرؤ مع ذلك على أن نقول إنه كان صاحب « مدرسة » فى كتابة التاريخ ، فهو شخصية متفردة بذاتها ، ولم يكن لعمله من يواصله على نفس مستواه . وإذا كان هناك عدد معروف لا بأس به من تلاميذه فإن الحذر يقتضينا ألا نتسرع فى اعتبارهم من رجال مذهبه أو مدرسته . حتى أولئك الذين نعرف عنهم أنهم كتبوا صلات أو ذيولا على تاريخه لا يسهل اعتبارهم من هذا الضرب . وأما الذين استكثروا فى النقل عنه فإن تأملنا لما كتبوه يدل على أن تأثرهم بابن حيان قد وقف عند حد النقل الحرفى ، وليس هذا فى الحقيقة من التأثر فى شئ .

ولهذا فإن الإطالة فى بحث ما دعاه بعض من تعرضوا لدراسة مؤرخنا « بنفوذ ابن حيان فى المؤرخين المتأخرين » أمر يبدو لنا فيه كثير من المبالغة ، فضلا عن أنه قليل الجدوى .

ولسنا نعلم ممن كتبوا صلات لتاريخ ابن حيان إلا اثنين :

أولها القاضى ابن حبيش ، وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف ، وكان من أهل المرية ، ولد فيها سنة ٥٠٤ (١١١٠) ودرس فيها وفى قرطبة ، ثم عاد إلى المرية وأدرك محنتها حينما احتلها ملك قشتالة السليطين (ألفونسو السابع الملقب بالامبراطور Alfonso VII, el Emperador) سنة ٥٤٢ (١١٤٧) ، ويذكر عنه أن علمه بالتاريخ نجاه من المكروه ، إذ حمل إلى الملك المسيحى ، فقال له ابن حبيش إنه يعرف نسبه إلى هرقل (كذا !) ، ثم ساق له ذلك النسب كاملا ، فأعجب به الملك وخلى سبيله ، فانتقل من المرية مع أهله وعياله إلى جزيرة شقر حيث ولى الصلاة ، ثم إلى مرسية فولى هناك القضاء والصلاة . وكانت وفاته سنة ٥٨٤ (١١٨٨) .

وتلمذ عليه الكثيرون من علماء الأندلس ، منهم الضبي صاحب « بغية الملتمس » وابن دحية صاحب « المطرب » وابن حوط الله المحدث وغيرهم(١) . ويذكر ابن الأبار أن له تعليقات على تاريخ ابن حيان رآها بخطه ونقل منها فى عدة موا ضع من كتابه(٢).

والآخر هو أبو الحجاج يوسف بن محمد البياسى ، ولد فى بياسة سنة ٥٧٣ (١١٧٧) ، وجاب أنحاء الأندلس ، ثم انتقل إلى تونس حضرة الحفصيين ، فحظى لديهم وقربه سلاطينهم حتى وفاته سنة ٦٥٣ (١٢٥٥) ، وقد عرفه ابن سعيد وتلمذ عليه ووصفه بأنه من أشياخ المؤرخين حافظا لنكت تواريخ الأندلس حديثاً وقديماً(٣) .

وقد ذكر ابن سعيد أن لأبى الحجاج البياسى تاريخا ذيل به على « المتين » ووصله إلى عصره(٤) .

ولم يصلنا شئ من تعليقات ابن حبيش ولا من تذييل البياسى حتى نستطيع أن نحكم على هذين الكتابين أو نتبين مدى جدارتهما بأن يعدا تكملة حقيقية لتاريخ ابن حيان ، ولكن ما عرفناه من كتابات هذين العالمين فى غير هذا الميدان يجعلنا فى شك من ذلك ، فهو لا يرقى إلى أسلوب ابن حيان ، بل لا يكاد يقاربه فى شئ .

وقد أشار غرسية غومس(٥) إلى ناحية من نواحى تأثر المؤرخين الأندلسيين المتأخرين بابن حيان ، وهى أكثر تعلقا بالشكل منها بالمضمون ، واستشهد على ذلك بما يقدمه لنا تاريخ ابن صاحب الصلاة (ت ١١٩٨/٥٩٤)(٦) من وصف مفصل لحياة البلاط الموحدى وفخامة استقبالاته

---

(١) انظر فى ترجمة ابن حبيش الضبى : بغية رقم ٩٨٨ ؛ ابن الأبار : التكملة رقم ١٦١٧ ؛ وبونس بويجس : المؤرخـون والجغرافيون الأندلسيون ص ٢٥٣ — ٢٥٤ والمراجع المذكورة .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ١١٦/٢ — ١١٧ ، ٣١١ .

(٣) انظر فى ترجمته ابن سعيد : المغرب ٧٣/٢ ؛ واختصار القدح المعلى لابن خليل ، بتحقيق الأستاذ إبرهيم الإبيارى ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٩٤ ؛ السيوطى : بغية الوعاة ، ط . القاهرة ١٣٢٦ هـ . ، ص ٣٢٤ ؛ المقرى : نفح الطيب ١٧٢/٤ ؛ وانظر كذلك بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص ٢٩٠ والمراجع الواردة هناك

(٤) ابن سعيد : المغرب ٧٣/٣ ؛ المقرى : نفح ١٧٢/٤ .

(٥) فى مقاله : حول ابن حيان ص ٤٢٢ (= ٢٨ من الفصلة) .

(٦) يقصد السفر الثانى من كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوا رثين » . . وقد كان الكتاب حينما تحدث عنه غرسيه غومس فى سنة ١٩٤٦ لا يزال مخطوطا بعد ، والأصل الخطى الوحيد منه هو المحفوظ فى المكتبة البودلية بأوكسفورد . على أنه قد نشر أخيراً بعناية الباحث المغربى الأستاذ عبد الهـادى التازى ، وطبع فى بيروت سنة ١٩٦٤ .

واحتفالاته وأخبار الوفود والسفارات وغير ذلك مما ساقه مؤرخ الموحدين فى دقة متناهية ، فقد رأى غرسية غومس فى ذلك احتذاء لما فعله ابن حيان – أو بتعبير أصح : عيسى بن أحمد الرازى – حين استبلغ فى وصف هذه المظاهر « البلاطية » فى قرطبة على عهد الخليفة الأموى الحكم المستنصر ، مما حفظه لنا مخطوط المجمع التاريخى الملكى بمدريد .

وعلينا كذلك أن نشير فى النهاية إلى لسان الدين ابن الخطيب اللوشى الغرناطى (ت ٧٧٦/١٣٧٤) الذى كان بالنسبة لأندلس عصره – بعد أن تضاءلت وانحصرت فى مملكة غرناطة الصغيرة – كابن حيان فى محيط بيئته وزمانه . وقد ترسم ابن الخطيب فى كثير من جوانب كتاباته التاريخية خطوات ابن حيان ، وهو يعتبر بحق أعظم مؤرخى عصره وواحداً من أعظم كتاب الأندلس على أن بين الرجلين من الفرق ما بين أندلس القرنين الرابع والخامس مما كانت تحفل به من التفتح والنضج الفكرى والثقافى الموروث عن عصر الخلافة المروانية وأندلس القرن الثامن التى كانت قدما فى طريق الاضمحلال والانهيار . وإن كان الحق يقضى علينا بأن نقول إن ابن الخطيب كان بارقة من العبقرية فى ذلك العصر تشبه ومضة الذبالة المتوهجة قبل أن ينطفئ المصباح ويلف الظلام كل شئ . . .

***

أما الذين نقلوا من تاريخ ابن حيان والذين يمكن أن يعينونا بنقولهم هذه على « إعادة بناء » جزء كبير من هذا التاريخ فإن تتبعهم أمر ليس له كبير جدوى إلا إذ قصدنا إلى هذا الهدف على وجه الخصوص . وقد سبق للباحث الإسبانى ملتشور أنطونيا أن أفرد هذه المسألة بالدراسة فى بحثه عن ابن حيان(١) . فأورد قائمة طويلة بأسماء المؤرخين الذين نقلوا عنه ذكر منهم : ابن بسام وابن بشكوال وابن الأبار وابن سعيد وابن عذارى وابن الخطيب وابن خلدون والمقرى والناصرى السلاوى . غير أن ملتشور أنطونيا كان قد أنجز دراسته المذكوره قبل أن تظهر إلى النور كتب ونصوص أندلسية كثيرة وتكتشف مخطوطات عديدة ، ولهذا فإن قائمته تبدو اليوم ناقصة محتاجة إلى إعادة النظر . وعلى كل حال فلسنا فى حاجة إلى التدليل على أن كل المؤرخين التالين لابن حيان كانوا عالة على تاريخه : ينهلون من مورده كلما تهيأ لهم ذلك . ونحن نحمد الله على ما فعلوا ، فقد حفظوا لنا من كتبه المفقودة مايعتبر ذخيرة ثمينة لا كفاء لها .

***

---

(١) ابن حيان القرطبى وتاريخه ، ص ٤٠ وما بعدها .

وأما أحكام المؤرخين المتأخرين عليه ففيما عدا اتهامه بالثلب والوقوع فى الأعراض – وهى القضية التى ناقشناها من قبل – فإننا نجد إجماعا على التسليم لابن حيان بإمارة علم التاريخ فى الأندلس ويكفينا هنا أن نأتى بشاهدين نجتزئ بهما فى الحديث عن مكانة ابن حيان :

أولهما لفيلسوف التاريخ العربى ابن خلدون الذى يقول فى مقدمته :

« وجاء من بعدهم (بعد الجيل الأول من كبار المؤرخين المسلمين مثل الطبرى والمسعودى وغيرهما) من عدل عن الإطلاق إلى التقييد . . . فقيد شوارد عصره ، واستوعب أخبار أفقه وقطره ، واقتصر على تاريخ دولته ومصره ، كما فعل ابن حيان (فى الأصل : أبو حيان وهو خطأ) مؤرخ الأندلس والدولة الأموية بها وابن الرقيق مؤرخ إفريقية والدولة التى كانت بالقيروان ، ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد ، وبليد الطبع والعقل أو متبلد ، ينسج على ذلك المنوال ، ويحتذى منه بالمثال ، ويذهل عما أحالته الأيام من الأحوال ، واستبدلت به من عوائد الأمم والأجيال فيجلبون الأخبار عن الدول ، وحكايات الوقائع فى العصور الأول : صوراً قد تجردت من موادها ، وصفاحا انتضيت من أغمادها »(١) .

والشاهد الآخر مما كتبه المستشرق الهولندى العظيم دوزى أول من وجه النظر إلى ابن حيان ونشر قطعا من تاريخه :

« إن كتاب العرب يمتدحون فى كتب ابن حيان صدق الرواية بقدر ما يعجبون بجزالة لغته ورنين عباراته . وأنا أؤيدهم فى ذلك كل التأييد ، ولا أتردد فى القول بأن كتبه لوبقيت لألقت على تاريخ الأندلس الغامض ضياء باهرة ولصورته لنا أحسن تصوير ، ولوجدنا أنها تبلغ من الامتياز مبلغا يجعلنا نستغني بها عن غيرها من الكتب التى تتناول تاريخ هذه العصور . إن ابن حيان سيال الأسلوب ، ولكنه مع ذلك لا يتعثر فى الإطناب والقعقعة اللفظية ، كما فعل غيره من أصحاب الروايات المسهبة التى لا تنتهى . إنه ليسوق التاريخ مساق من يبدى رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن أسباب الأشياء ، ويناقشها عن علم وفهم وذكاء ، كما سيفعل من بعده مؤرخون نقادون كابن سعيد وابن خلدون . ويمتاز ابن حيان إلى ذلك بأسلوب صاف ناصع ، لا يهبط إلى الركاكة التى تثير السخط ، ولا يقع كذلك فى التفصح والإسراف فى قعاقع الألفاظ .

---

(١) مقدمة تاريخ ابن خلدون ، ط . المكتبة التجارية ، القاهرة بدون تاريخ ص ٥ .

رغم التزامه هذه السهولة لا يهمل جانب الجمال فى أسلوبه ، ويبعث فى كلامه دائما حماسا وغنى وطابعا غالبا من الجد . نعم ، إنه يلجأ فى بعض الأحيان إلى التشبيهات وضرب الأمثلة . ولكنه — رغم امتيازه بفصاحة القدماء — لا يولع بما أولع به معاصروه . ونخرج من هذا كله بأننا لا نجد من بين مؤرخى العرب إلا القليلين ممن نستطيع أن نقارنهم به ، ولن نجد بينهم من نقدمه عليه »(١) .

المقتبس — مخطوطاته وما نشر منه :

كان كتاب « المقتبس » لابن حيان يتألف — كما سبق أن ذكرنا — من عشرة أسفار ، وقد كرر المؤرخون المتأخرون هذه العبارة فى كل ما كتبوه عن ابن حيان من ابن سعيد إلى حاجى خليفة . وقد كان من حسن الحظ أن قطعا من هذا الكتاب الجليل قد وصلت إلينا فى مخطوطات تتفاوت جودة وضبطا ، فضلا عن النقول الكثيرة التى يوردها مؤرخو الأندلس بعد ابن حيان من هذا الكتاب . وسنورد فيما يلى بيانا بهذه القطع ما نشر منها وما لا يزال مخطوطا ، مرتبة ترتيبا زمنيا :

١ — الأولى قطعة مخطوطة كبيرة حصل عليها المستشرق الفرنسى الأستاذ ليفى بروفنسال من الخزانة العامة لجامع القرويين فى فاس بالمغرب الأقصى . وهى تضم كل إمارة الحكم بن هشام الربضى (١٨٠ — ٢٠٦) والشطر الأعظم من إمارة ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٢) ، وكانت تقع فى ١٨٨ ورقة . وقد انتفع ليفى بروفنسال كثيراً من هذه القطعة فى عديد من أبحاثه ولاسيما كتابه الجامع عن « تاريخ إسبانيا الإسلامية » الذى نشره فى باريس بين سنتى ١٩٥٠ و١٩٥٥ فى ثلاثة أجزاء .

ولم يترك لنا المستشرق الفرنسى وصفا مفصلا لهذه القطعة ، ولكننا نأخذ من بعض إشاراته إليها فى تاريخه أنه كان قد حققها تحقيقا كاملا وأعدها للنشر منذ سنة ١٩٣٨ ، وأنه أرسلها إلى إحدى الجامعات المصرية لكى تنشر هناك ولكن الجامعة المذكورة لم تعن بإخراجها على الرغم

---

(١) دوزى : جامع أخبار بنى عباد ١/١٩٠ ، ٢١٧ ، وقد اعتمدنا على الترجمة العربية التى قام بها الدكتور حسين مؤنس لكتاب تاريخ الفكر الأندلسى لأنخل جونثالث بالنثيا . إذ كان النص من بين ما أورده المؤلف فى سياق ترجمة ابن حيان. (انظــر ص ٢١١) .

من مضى اثنى عشر عاما على الفراغ منها وإرسالها(١) . ولا شك فى أن ليفى بروفنسال يعنى بذلك جامعة الإسكندرية ، فالمعروف أنه كان قد فاوض الأستاذ عبد الحميد العبادى رحمه الله فى أن تقوم تلك الجامعة بنشر المقتبس ، وأنه بعث إليه بمصورة للمخطوط ، ولكن الذى نعرفه هو أن ليفى بروفنسال لم يكن قد أتم تحقيق المخطوط ، وإلا فإنه لم يكن ليعدم الوسائل لنشر مثل هذا الكتاب الجليل فى أى مكان آخر بدلا من هذا الانتظار الطويل . ويبدو أن ليفى بروفنسال كان يريد أن يشرك معه الأستاذ العبادى أو غيره من المشتغلين بالأندلسيات فى تحقيق الكتاب ، ولكن ذلك لم يتيسر واسترد المستشرق الفرنسى مصورة المخطوطة ، وظلت فى حوزته حتى وفاته سنة ١٩٥٧ .

ومنذ هذا الوقت لم يعرف أحد لهذه القطعة مستقراً ، وقد اجتهدنا فى البحث عنها لدى من يمكن أن تكون لديه ، فسألنا عنه أرملة الأستاذ بروفنسال وأصدقاءه من المستشرقين فلم يهتد أحد إلى مآلها . ولو انتهى أمرها إلى الضياع لكان ذلك خسارة كبيرة لتراث الأندلس وتاريخها . على أننا لم نفقد الأمل بعدفى إمكان العثور على هذه القطعة الجليلة أو الاطمئنان إلى أنها ستقع فى أيد أمينة تحرص على أن تنشر بما هى جديرة به من عناية أو تعرف على الأقل مدى قيمتها ونفاستها .

٢ — القطعة الثانية هى التى تلى السابقة مباشرة ، وكانت تؤلف معها مخطوطا واحدا . وقد عرفنا بنبأ وجودها فى مكتبة جامع القرويين بفاس من الأستاذ ليفى بروفنسال نفسه ، فقد اطلع عليها واستفاد من بعض نصوصها فى كتابه عن تاريخ الأندلس . وكنا فى خوف من أن تكون قد اندثرت أو ضاعت حتى أكد لنا وجودها هناك الأستاذ الجليل محمد عبد الله عنان صاحب الفضل الكبير على الدراسات الأندلسية بما نشر من كتب قيمة فى هذا الميدان ، ثم سنحت لى الفرصة للاطلاع على هذه المخطوطة فى فاس فى إحدى رحلاتى إلى هذه المدينة الجميلة عاصمة المغرب الثقافية والروحية . وتفضل القائمون على أمر المكتبة بالسماح لنا بتصوير هذه القطعة . وأنا أقدم خالص الشكر بهذه المناسبة إلى الأستاذ الجليل الفاضل محمد العابد الفاسى أمين خزانة جامع القرويين على ما أبداه من كرم ومروءة واهتمام بإعانة الباحثين على أداء رسالتهم . والحقيقة أن هذه لم تكن المرة الأولى التى يبذل الأستاذ العابد الفاسى مثل هذا العون الكريم النبيل لكاتب هذه السطور . فقد سبق أن تفضل بمثله حينما كنت أشرع فى تحقيق ديوان ابن دراج القسطلى ، إذ تكرم بإهدائى

(١) انظر ليفى بروفنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية ١/١٥١ ، حاشية رقم ١ .

مصورة لقطعة من هذا الديوان كانت محفوظة فى تلك الخزانة فى حوافظ الأوراق المتفرقة (الدشت) ، وأعانتنى هذه القطعة على استكمال بعض الفجوات والخروم فى الديوان . وأنا أسجل شكرى من جديد للعالمين الفاضلين الأستاذين عبدالله عنان والعابد الفاسى على ما أوليانى به من كريم العناية .

وقد كانت هذه القطعة فى إحدى حوافظ الأوراق المتفرقة فى خزانة القرويين ، وهى تبدأ من حيث تنتهى القطعة السابقة أى من سنة ٢٣٢ حتى ٢٦٧ ، فهى تاريخ الأندلس خلال السنوات الأخيرة من إمارة عبدالرحمن الأوسط بن الحكم (٢٣٢ — ٢٣٨) ثم معظم إمارة محمد بن عبد الرحمن (ولى بين سنتى ٢٣٨ و٢٧٣) . وترقيم الأوراق متصل بترقيمها فى القطعة السابقة ، فهو يبدأ برقم ١٨٩ وينتهى بـ ٢٨٤ ، أى أنها تشتمل على خمس وتسعين ورقة .

٣ — القطعة الثالثة هى التى نشرها الراهب الإسبانى الأب ملتشور أنطونيا فى باريس سنة١٩٣٧ عن الأصل المخطوط المحفوظ فى المكتبة البودلية تحت رقم ٥٠٩ ، وتتناول إمارة عبدالله بن محمد (٢٧٥ — ٣٠٠) ، وتضم مائة وسبع ورقات .

٤ — القطعة الرابعة هى التى عثر عليها مؤخراً فى خزانة القصر الملكى فى الرباط عاصمة المغرب . والحقيقة أن نبأ وجودها فى تلك الخزانة ليس جديداً تماما . فقد عرف ملتشور أنطونيا نفسه بذلك ، إذ أشار إلى أنه اطلع فى قائمة لكتب الخزانة السلطانية فى مكناس (حينما كان ملوك المغرب يتخذون هذه المدينة عاصمة للبلاد) على مخطوط كان يحمل رقم ١٢٨٣ أثبت أمامه أنه القسم الخامس من كتاب « المقتبس » وأنه متعلق بسنوات من خلافة عبد الرحمن الناصر . ولم يسعدنا الحظ برؤية هذه النسخة مما لا يسمح لنا بالحكم عليها .

٥ — القطعة الخامسة هى مخطوطة المجمع التاريخى الملكى بمدريد ، وهى مخطوطة حديثه كان المستشرق الإسبانى فرانسسكو كوديرا قد قام باستنساخها عن أصل قديم كان محفوظا فى مكتبة ورثة سيدى حمودة فى قسنطينة (الجزائر) تحمل رقم ٣٣٩ . وفى سنة١٩٤٢ تبين أن المخطوط الأصلى قد فقد وذهب أثره ، وهكذا أصبحت نسخة كوديرا هى الأصل الوحيد لهذه القطعة من الكتاب . وقد اضطلع بنشر هذه القطعة فى بيروت أخيراً (فى سنة ١٩٦٥) — الأستاذ عبد الرحمن الحجى . وهى تعالج أحداث خمس سنوات غير كاملة من خلافة الحكم المستنصر بالله (٣٦٠ — ٣٦٤) .

* * *

ولنر الآن مدى اتساق ما نعرفه من قطع المقتبس التي وصلت إلينا مع ما يردده من ترجموا لابن حيان أو تحدثوا عن كتبه من أمر تلك الأسفار العشرة التي كان يتألف منها « المقتبس » .

فنجد أولا أن القطعتين الأولى والثانية وتتألف من كلتيهما مخطوطة جامع القرويين بفاس كانتا تؤلفان – على ما يبدو – السفر الثانى كاملا من الكتاب . وإذا كنا لم نستطع الاطلاع على القطعة الأولى التي كانت فى حوزة ليفى بروفنسال فإن القطعة الثانية التي نقدمها اليوم تنص صراحة على ذلك ، فهى تنتهى – بعد الفراغ من ذكر أحداث سنة ٢٦٧ بهذه العبارة : « كمل السفر الثانى بحمد الله تعالى ، يتلوه فى الثالث مبتدأ نجوم عمر بن حفصون كبير الثوار فى الأندلس » فإذا كان هذا السفر الثانى هو المتضمن أحداث الأندلس من مبتدأ خلافة الحكم بن هشام حتى قرب نهاية محمد بن عبد الرحمن (من سنة ١٨٠ حتى ٢٦٧)(١) فإن السفر الأول من المقتبس لابد أنه كان يتناول المقدمة الجغرافية التي يرجع أن ابن حيان صدر بها تاريخه(٢) ، ثم فتح العرب للأندلس، وعهد الأمراء التابعين لخلافة بنى أمية فى دمشق إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهرى (من سنة ٩١ حتى سنة ١٣٨) ثم إمارتى عبد الرحمن بن معاوية الداخل وابنه هشام (١٣٨ – ١٨٠) . أى أن

---

(١) وفيما يلى أقسام هذا السفر الثانى الذى يضم قطعة ليفى بروفنسال وقطعتنا الحالية ، وقد رجعنا فى معلوماتنا عن القطعة الأولى إلى ما أورده المستشرق الفرنسى فى تاريخه عنها :

١ – القسم الأول عن خلافة الحكم بن هشام الربضى (ولى بين سنتى ١٨٠ و ٢٠٦) وهو يشغل فى المخطوطة من الورقة الأولى حتى رقم ١٠٣ . (انظر ليفى بروفنسال : تاريخ اسبانيا الإسلامية ١/١٥٠ ، حاشية ٢) .

٢ – القسم الثانى عن إمارة عبد الرحمن الأوسط بن الحكم (ولى بين سنتى ٢٠٦ و ٢٣٨) ، ويشغل فى المخطوطة من الورقة ١٠٣ حتى ٢١٥ ا . (انظر ليفى بروفنسال : تاريخ ١/١٩٣ ، حاشية ٢) . وقد توزع هذا القسم بين قطعة بروفنسال وقطعتنا . فبقى لديه الجزء الأكبر منه (من ١٠٣ حتى ١٨٨) ، ووقع إلينا باقية (من ١٨٩ إلى ٢٠٣) . الغريب أن المستشرق الفرنسى يقول فى الموضع الذى أشرنا إليه قبل فى وصف هذا القسم إن المخطوط يبدأ بمقدمات عامة حول حكم عبد الرحمن الأوسط ثم يأخذ فى سرد الأحداث مرتبة على السنين حتى يصل إلى سنة ٢٣٢ فينقطع السرد عند الورقة ٢٠٣ . وليس هذا صحيحا فإن السرد إنما ينقطع عند الورقة ١٨٨ التى ينتهى بها الجزء الذى كان فى حوزته فقط ، وإلا فإنه يستمر بعد ذلك فى قطعتنا حتى الورقة ٢٠٣ . ويدلنا هذا على أن بروفنسال – وإن كان قد اطلع على قطعتنا – لم يفحصها بعناية ولم يستفد منها فى تاريخه على ما كان ينتظر .

٣ – القسم الثالث عن إمارة محمد بن عبد الرحمن ، وهو يبدأ بالورقة ٢١٥ ا حتى نهاية المخطوطة فى الورقة ٢٨٤ بأحداث سنة ٢٦٧ كما ذكرنا .

(٢) انظر الدكتور حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، ص ١٠١ ، وما سبق أن ذكرنا .

هذا السفر الأول كان يضم تأريخا لنحو تسعين سنة من حياة الأندلس . وليس هذا السفر مجهولا لنا تماما ، فقد أورد المقرى فى « نفح الطيب » نقولا كثيرة منه ، ولاسيما فى الجزأين الأول والرابع (من طبعة الشيخ محيى الدين عبد الحميد) .

أما القطعة الثالثة وهى التى نشرها ملتشور أنطونيا عن مخطوطة أوكسفورد فإن ظاهر ما ذكره الناشر أنها تضم القسم (أو السفر) الثالث من الكتاب كاملا . ولكن الحقيقة هى أن ما نشر ليس إلا جزءاً من هذا السفر . فنهاية القطعة التى ننشرها اليوم تنص على أن السفر المذكور يبدأ بنجوم عمر بن حفصون وأحداث ثورته . كما أنه لابد أن يكون قد تضمن سرد الأحداث بين سنتى ٢٦٧ التى ينتهى بها مخطوطنا و٢٧٥ التى يبدأ بها السرد فى مخطوطة أوكسفورد . وإذا كان المتوقع من ابن حيان التفصيل الواسع فى أحداث ثورة ابن حفصون وغيره ممن قد يكون ابن حيان أشار إليهم من الثوار فى أواخر أيام الأمير محمد فإن هذه الفجوة بين قطعتنا وقطعة أنطونيا — وتدخل فيها كذلك إمارة المنذر بن محمد (بين سنتى ٢٧٣ و٢٧٥) — لابد أن تكون كبيرة وأن السفر الثالث كان يبلغ ضعف ما نشر أو نحو ذلك .

ونأتى بعد ذلك إلى القطعة الرابعة ، وهى مخطوطة القصر الملكى فى الرباط آخر ما اكتشف من قطع « المقتبس » ، ولم تتح لنا معرفة شئ عنها إلا أنها تؤرخ لسنوات من خلافة عبد الرحمن الناصر الطويلة التى امتدت على طول خمسين سنة (٣٠٠ — ٣٥٠) . وقد ذكر أنطونيا فيما نقله عن الفهرس القديم لمكتبة القصر السلطانى فى مكناس أن هذه المخطوطة تؤلف القسم (أو السفر) الخامس من الكتاب . وربما كان لنا أن نفهم من ذلك أن خلافه عبد الرحمن الناصر قد تكون استغرقت القسمين الرابع والخامس ، بل وربما السادس أيضا من الكتاب ، فهى من أجل عهود التاريخ الأندلسى وأحفله بالأحداث . ولابد أن ابن حيان قد أسهب فى الحديث عنها كل الإسهاب .

وأخيراً نصل إلى القطعة الأخيرة ، وهى مخطوطة المجمع التاريخى الملكى بمدريد المستنسخة عن مخطوطة قسنطينة بالجزائر ، والمنشورة مؤخراً بعناية الأستاذ الحجى . ولم يسجل عليها إلى أى أسفار المقتبس تنتمى . وإذا كان كتاب « أخبار الدولة العامرية » يبدأ بولاية هشام بن الحكم المؤيد فى سنة ٣٦٦ كما سبق أن رجحنا فإن هذا يجدد لنا مشكلة توزيع « المقتبس » على الأسفار العشرة التى يذكرها من تحدثوا عن تاريخ ابن حيان . فقد استنتجنا أن خلافة عبد الرحمن الناصر ربما استغرقت سفرين أو ثلاثة على أكثر تقدير أى حتى السفر السادس . فلا يبقى إذن من سياق التاريخ

إلا خلافة الحكم المستنصر . فهل تستحق هذه الخلافة التى لم تتجاوز أكثر من ستة عشر عاما أن يخصص لها ما بقى من أسفار « المقتبس » ، وهى أربعة على الأقل ، حتى ولو افترضنا أن ابن حيان يكتب عنها بأقصى تفصيل ؟

لا . . . لسنا نظن الأمر كذلك ، فنحن نعتقد أن قصارى ما يكون المؤرخ قد أفرده لخلافة الحكم لا يتجاوز سفراً واحداً . وبذلك لا نجد تفسيراً للمسألة إلا بأن ابن حيان كان قد جعل كتابه فى « أخبار الدولة العامرية » فى أول الأمر جزءاً من « المقتبس » ، ونحن نعرف مما يذكره المؤرخون حول هذا الكتاب ومدى ما فصل ابن حيان فيه الحديث عن العامريين أنه ربما استحق أن يشغل ثلاثة أسفار أو أربعة من « المقتبس » . ثم بدا لابن حيان بعد ذلك أن يجعل له عنوانا خاصا تاركا الأمر بالخيار لقارئه « لمن شاء خزله عن تاريخه الكبير أو ضمه إليه » كما قال ابن الأبار فى عبارة سبق لنا أن علقنا عليها فى موضعها(١) . ولا عبرة هنا بما يقوله ابن الخطيب من أن كتاب « أخبار الدولة العامرية » قد « أنافت على المائة أسفاره »(٢) ، فإن مثل هذه التجزئة لو صحت لكانت شيئا لم يقصده ابن حيان ، وإنما من عمل النساخ أو الوراقين ، وربما كان السفر لديهم لا يتجاوز عشرين أو ثلاثين ورقة .

المخطوط :

القطعة التى نقدمها اليوم من « المقتبس » هى ثالثة القطع التى تنشر منه ، بعد مخطوطة أوكسفورد ومخطوطة المجمع التاريخى الملكى بمدريد . وكانت تؤلف مع تلك التى كانت فى حوزة ليفى بروفنسال سفراً واحداً محفوظاً فى خزانة جامع القرويين بفاس . على أن قطعتنا لم تكن تبلغ إلا نحو ثلث هذا السفر ، إذ تبدأ من الورقة ١٨٩ وتنتهى بنهاية السفر المذكور فى الورقة ٢٨٤ ، فهى تشتمل على أربع وتسعين ورقة (إذ ضاعت منه ورقة واحدة) . وليس على المخطوط عنوان ولا تاريخ ولا اسم ناسخ . وربما ورد شئ من ذلك على أول أوراق الأصل فى القطعة التى لم نعثر على أثر لها بعد وفاة ليفى بروفنسال .

---

(١) ابن الأبار : الحلة السيراء ٢٦٩/١ . وانظر ما سبق أن كتبناه عن ذلك فى كلامنا عن كتب ابن حيان فى الفقرات الخاصة بكتاب « أخبار الدولة العامرية » ص ٦٢ .

(٢) أعمال الأعلام : ص ٩٨ ، وقد سبق أن علقنا كذلك على هذه العبارة .

والطريف فى شأن قطعتنا هذه أنها ليست بقلم ناسخ واحد ، بل تنقسم أوراقها إلى مجموعتين متميزتين :

— المجموعة الأولى بخط أندلسى دقيق يميل إلى اللين والتدوير ، وهى الأوراق ما بين رقمى ١٨٩ و٢٣٥ . ثم تنقطع هذه المجموعة بعد ذهاب ورقة واحدة هى رقم ٢٣٦ . وتلى ذلك أوراق المجموعة الأخرى المكتوبة بخط مختلف حتى نهاية الورقة ٢٧٥ . ونعود ابتداء من الورقة ٢٧٦ حتى نهاية المخطوط فى الورقة ٢٨٤ إلى رؤية خط الناسخ الأول .

— والمجموعة الثانية هى الواقعة فى الفاصل الذى أشرنا إليه ، وتنتظم الأوراق بين رقمى ٢٣٧ و٢٧٥ ، والخط بقلم ناسخ آخر مختلف عن الأول ، وهو بحرف أغلظ قليلا من حرف المجموعة الأولى ، كما أنه أكثر ميلا إلى تحديد الزوايا ، وهو على العموم أجمل من خط المجموعة الأولى وأوضح .

فالقطعة التى بين أيدينا ليست مخطوطا واحداً ، وإنما هى نسخة ملفقة من مخطوطتين مختلفتين للكتاب . ولكن بعض الاضطراب لحق عمل من قام بهذا التلفيق أو لم يسعفه تتابع الأوراق وهو يملأ فجوة المخطوط الأول بأوراق من الثانى . فقد وضع رقم ٢٦٧ مثلا على ورقة كان حقها أن تتأخر ، فنحن نجد فيها جزءاً كبيراً من نفس النصّ الوارد فى أولى ورقات الحلقة الثانية من المجموعة الأولى بعد الفجوة التى أشرنا إليها .

وقد حملنا هذا الاضطراب على إعادة ترتيب الأوراق فى بعض المواضع . أما النص الوارد فى الورقة رقم ٢٧٦ والمكرر فى رقم ٢٦٧ فقد توفر لنا بذلك منه أصلان قابلنا أحدهما على الآخر . وسيرى القارئ تفاصيل ذلك كله فى الحواشى الخاصة بتحرير النص والملحقة فى ذيول الصفحات . كذلك قمنا فى أحد المواضع ببعض التقديم والتأخير حرصا على اتساق السياق .

ويبلغ عدد السطور فى الصفحة من أوراق المجموعة الأولى ما بين ٢٧ و٢٨ سطراً . أما أوراق المجموعة الثانية فى الصفحة نحو اثنين وعشرين سطراً على ما نقدر . وإنما نقول ذلك لأنه لم تسلم لنا من هذه المجموعة ورقة واحدة كاملة ، فتقديرنا افتراض مبنى على أساس حجم الصفحة ومساحات الهوامش .

منهجنا فى العمل :

والحقيقة هى أن العمل فى نشر مثل هذه المخطوطة على أصل وحيد كان من أشق ما يمكن أن يقاسيه محقق . فقد لحق هذا الأصل من التشويه والقطوع ما جعل الإقدام على نشره أشبه بمخاطرة غير مأمونة العواقب . وذلك لأن عدد الأوراق التى سلمت — إلى حد ما — من أوراقه الأربع والتسعين لا يعدو ثمانى ورقات (١٨٩ — ١٩٦) . أما الباقية فقد أتت الرطوبة والأرضة على الجزء الأسفل من كل ورقة حتى نهاية المخطوط . فذهبت سطور برمتها ، ولم تسلم من سطور أخرى إلابقايا كلمات وحروف متناثرة لاتتركب منها جمل ولا حتى ألفاظ مفيدة.وهذا هو ماجعل ليفى بروفنسال ، وهو أول من اهتم بهذه القطعة وحاول أن يستفيد منها ، يقلع تماما عن مجرد التفكير فى نشرها ، حتى إنه يقول فى التعليق عليها :

« وقد فحصت أوراق هذه المخطوطة بعناية ، وانتهيت من دراسى لها إلى هذه النتيجة : وهى أنها — لسوء الحظ — من التلف بفعل الرطوبة والأرضة بحيث يعد من المستحيل من الناحية العملية الخروج منها بأدنى فائدة »(١) .

وقد كانت النية فى أول الأمر معقودة على أن يشترك فى إخراج هذه القطعة الدكتور حسين مؤنس مع كاتب هذه السطور ، وأعلنا عن ذلك فعلا ، وذلك حينما كنا نعمل معا فى معهد الدراسات الإسلامية بمدريد . على أن شواغل الدكتور مؤنس الكثيرة حالت بينه وبين العمل فيه ، فاضطلعت به وحدى . وكثيراً ما هممت بالعدول عنه جملة بسبب ما كان يحف به من مشقات مضنية ، غير أن قيمة النص وفائدته الكبيرة كانت تدفع بى إلى المواصلة والمثابرة ، فضلاً عن أننى أعترف بأن هذه المشقات نفسها كانت من المغريات بالمضى فى العمل حتى أتممته على خير ما استطعت وبقدر ما سمحت معرفتى .

وقد كان العمل فى مثل هذا المخطوط الذى أفسدته القطوع وناله التشويه البالغ ولم تكد تبقى منه ورقة سليمة كان أشبه بترميم أثر معمارى تحطمت أحجاره وتناثرت وذهب بعضها إلى غير رجعة . واقتضى ذلك منى الاستعانة بكل المصادر الممكنة وباعتصار السطور المشوهة واستخلاص

---

(١) ليفى بروفنسال : تاريخ اسبانيا الإسلامية ٢٨١/١ ، حاشية ١ .

أقصى ما يمكن أن تدل عليه بقايا الكلمات . واستطعت بالفعل أن أصل إلى استكمال النص فى كثير من المواضع . وإن كنت قد التزمت الحذر ، فلم أثبت إلا ما اطمأننت إلى أنه من كلام ابن حيان إذا كان الاعتماد على مصدر ينص على النقل منه ، أو إذا كان ابن حيان نفسه ينقل عن مصدر سابق تيسر لنا وجوده مطبوعا أو مخطوطا .

وهذا مع ملاحظة شئ كشف لنا عنه هذا النص وغيره مما نشر لابن حيان : وهو أن مؤرخنا حينما كان يعتمد على مؤرخ سابق له لم يكن ينقل عنه نقلا حرفيا ، فهو — وإن احتفظ بجوهر النص — يؤثر التعبير عنه بأسلوبه هو . ولهذا فقد كان يدهشنا فى أول الأمر أن نجد نصوصا منسوبة إلى ابن القوطية أو ابن الفرضى أو غيرهما ، فإذا قابلناها على الأصول المطبوعة لأمثال هذه الكتب وجدنا أن النصين لا يتفقان تماما . صحيح أنه يمكن تعليل ذلك بأن الأصول التى رجع إليها ابن حيان كانت أكمل وأكثر تفصيلا مما وصل إلينا . ولكن هذا لا يكفى فى التفسير ، إذ أننا نلاحظ أن ما ينقله ابن حيان عن أولئك المؤرخين أشبه بأسلوبه هو وأقرب إلى روح كتابته ، مما يجعلنا على ثقة من أن أبا مروان تصرف فى النصوص التى يوردها لغيره تصرفا واسعا .

وهذا هو ما جعل مهمتنا تزداد عسراً ومشقة . ولم يكن هناك بد فى المواضع التى لم يكن من الممكن فيها استيفاء نص ابن حيان بلفظه أن نثبت فى الحواشى ما تراءى لنا فى إكماله بما بدا أن السياق يقتضيه ، وذلك معونة للقارئ على فهم النص ، واستعنا فى ذلك بالمصادر الأخرى التى وجدنا فيها ما يلقى ضوءاً على تلك النصوص . وبقيت بعد ذلك مواضع أعجزتنا تماما إذ لم نر فى بقايا السطور والكلمات ولا فى المراجع الأخرى ما يمكن أن يستدل به على شئ فى إيضاح النص ، فتركنا تلك المواضع بياضا . ومع ذلك فيمكننى أن أقول إن نص ابن حيان قد استقام فى الجزء الأكبر من الكتاب وإن ما ذهب منه لا يتجاوز نسبة ضئيلة منه .

على أن عيوب الأصل المخطوط لم تكن تنتهى عند ما ذكرنا ، فقد تعرض لكثير من ألوان التحريف والتصحيف والخطأ ، وهى عيوب ترجع إلى الناسخ — أو إلى الناسخين بتعبير أصح — ، وأكثر ما وقع هذا فى أسماء الأعلام والمواضع الإسبانية والأوربية . فقد حرف الكثير منها أو ترك بلا إعجام . وقد اجتهدت فى رد كل تلك الكلمات إلى ما أعتقد أننى لم أحد به عن الصواب بعد بحث طويل ومقابلات كثيرة على المظان المختلفة ولاسيما الإسبانية واللاتينية القديمة .

هذا عن إخراج النص محرراً محققا ، وبقيت بعد ذلك على خدمته على أساس من الاستقصاء العلمى الواسع . وكان ذلك — فيما أعتقد — أمراً ضروريا بالنسبة لنص مثل هذا يعد أكمل وأوثق ما كتبه مؤرخ أندلسى . فلم أترك فيه اسم علم أو موضع جغرافى أو مناسبة تاريخية إلا علقت عليه شارحا أو موضحا أو مستدركا أو مقابلا بين نص ابن حيان وغيره من المراجع . وكان ذلك — فضلا عن قيمته لذاته — جزءاً من توثيق النص وتحريره . واجتهدت فى هذا العمل على قدر الطاقة واستقصيت إلى أبعد حد ممكن ، ولاسيما فى تحقيق أسماء الأعلام والمواضع الجغرافية التى ترد فى النص لأول مرة ، وهى كثيرة جدا . وكان قدر كبير منها قد ورد فى الأصل محرفا أو بغير إعجام ، وقد يكون النساخ معذورين فى ذلك فهى أسماء لم يتعودوا عليها فرسموها كما اتفق لهم . وكانت تلك الأسماء عناء جديداً ، فقد اقتضت منى الرجوع إلى المدونات القديمة المسيحية الإسبانية والبرتغالية واللاتينية وإلى المعاجم الجغرافية والخرائط حتى أتمكن من تحديد أعلام المواضع . وأعتقد أنى وفقت إلى حل كثير من المشكلات فى هذا الباب .

ولما كانت هذه التعليقات من الطول بحيث لا تحتملها هوامش الصفحات فقد قسمت عملى فى كل ما أضفته حول النص إلى قسمين : حواشى تحقيق النص وتقويمه فقط ، وهى التى أثبتت فى ذيل كل صفحة مرقمة بطراز أوربى من الأرقام ؛ وتعليقات توضيحية جعلت لها أرقاما مسلسلة لكل مجلد من مجلدات الكتاب ، ووضعت هذه التعليقات بعد النص ملحقة به .

ولم يكن هناك مفر من إخراج الكتاب على مجلدات ثلا ثة :

١ — المجلد الأول : يضم المقدمة وهى هذه الدراسة عن ابن حيان وعن مخطوطة المقتبس ، ثم بقية النص الخاص بامارة عبد الرحمن الأوسط بن الحكم مع تعليقاته .

٢ — المجلد الثانى : يضم المقدمات العامة التى استهل بها ابن حيان كلامه عن إمارة محمد ، وهى تشمل أحكاما عامة حول عصره وسيرته فى مملكته وتراجم مفصلة لرجال دولته من حجاب ووزراء وكتاب وشعراء وعلماء وغير ذلك ، على منهج ابن حيان المعهود فى الكتابة .

٣ — والمجلد الثالث يشتمل على الجزء الثانى من إمارة محمد ، وفيه سرد الأحداث على نسق السنين من ٢٣٨ حتى ٢٦٧ التى تنتهى بها هذه القطعة المخطوطة ، وتلى ذلك التعليقات ، وتنتهى بالفهارس المفصلة للكتاب والخرائط التى رأيت أنها لازمة لفهم النص وتتبعه .

* * *

وقد بذلت فى العمل أقصى ما استطعت من جهد . وأنا أشكر فى النهاية كل من أعانونى بعلمهم وتشجيعهم الكريم على إنجاز هذا العمل الذى أرجو أن ينفع الله به المشتغلين فى ميدان الدراسات الأندلسية ، وأخص بالذكر أستاذى الكريم الدكتور شوقى ضيف الذى تعلمت منه وعلى يديه ما أرجو أن أكون قد احسنت الإنتفاع به فى إخراج هذا الكتاب ، والأستاذ أبو الفضل إبراهيم أستاذ تحقيق النصوص وصاحب الفضل العظيم على التراث الفكرى العربى ، وأستاذى الدكتور حسين مؤنس الذى قوى عزمى وأكد بصيرتى فيه فى أول العهد به ، والأخ الكريم الدكتور إحسان عباس الذى أفادنى ببعض الملاحظات الصائبة ، والأخ العزيز الأستاذ رشاد عبد المطلب الذى أولانى من التفانى فى العون وإمحاض النصيحة والود ما لا أظن اللسان يفى بشكره .

ويلى هذا نماذج من مخطوطات هذا الكتاب . .

نموذج رقم ١

تابع نموذج رقم ١

نموذج رقم ٢

تابع نموذج رقم ٢

نموذج رقم ٣

وأبين ذلك معنى الى من قال الله تعالى حق، وقوله الحق فاتقوا الله حق تقاته
ثم تمم ذلك بقوله عز وجل فاتقوا الله ما استطعتم فهو كان يستطيع أن
يتقيه تعالى حق تقاته لولا تفضله بالتخفيف عن خلقه فله الحمد إليه
وأمر بعضه ○ وعن كـــــــــر ملك بن محمد بن ملك المزواجي الأوربي
أنه قال رأيت في منامي أبا محمد الحسني رحمه الله يتعطف في حمته وطوبى
من ذاته في داره بن تعمدا إلى فلما أصبحت عرفت إليه لأخبره بما رأيت
فشغلت بغيري به فقال لي يا مالك فقلت له أين سوار العوم أمس وأشار
الى الوزر أبي النيت بكر عشر أمنيا حملوها فإن ملوا التي يتلون حتما
فإنا تمم بها عنيه فيما ومن مكة وبكة والحج والعمرة والكعبة من
فلك فلم أجبهم به رحمه الله قال قلنا لهم أما مكة من قوله مككت العظم
إذا استخرجت مخه ومكة اضطبعت من الأرض أي أخرجت وبكة من البك
وهو الازدحام لازدحام الحاج فيها ○ والحج قصرك الشيء في وقت
مسمى إنما هو بوزن في السنة والعمرة قصرك لما سوى الحج ومنه تقول
اعتمرت الرجل إذا قصدت إليه مرة بعد مرة وسميت الكعبة لتربيعها فهي
كالكعبة ○ قال مالك فقلت له من العجب أني كنت أرى الليلة في المنام أني
[illegible] ينعطف في حمته [illegible]
[illegible] قال [illegible] رحمه الله
[illegible]

تابع نموذج رقم ٣

[illegible]

ذكر خلافة الأمير محمد

بن عبد الرحمن الخامس

[illegible] وفي ذكر جمل من سير [illegible]

خبر البيعة للأمير محمد [illegible]

من بين اخوته بالخلافة [illegible]

قال أحمد بن خلف قال الأصبغ بن محمد الرازي

[illegible]

نموذج رقم ٤

سنة اثنتين وثلاثين ومائتين

فيها تقلب موسى بن موسى القَسَوِىُّ(١) عن الطاعة ، وأعند بتحامل عبد الله بن كُلَيْب(٢) عامل الثغر عليه ، ومدَّ يده إلى بعض أمواله ، فأحفظه ذلك ، وهاج][1]/ حَمِيَّته ، وتحرك إلى تُطِيلَة(٣) ، وابن كليب داخلها ، فطمع أن ينتهز منه [١٨٩ أ] فرصة ، فاحتجز عنه عبد الله بِحَصَانتها ، ولم يُؤْتِهِ حرباً ، واستغاث بالأمير عبد الرحمن ، فأخرج إليه ابنه محمداً بالصائفة ، وقاد معه محمد بن يحيى بن خالد(٤) ، فاحتلَّ عليه محمد بالجيوش ، فأذعن موسى ، واعترف بالذنب ، وسأل العفو ، فسارع الوَلَدُ محمد إلى إجابته وتَطْمِينِهِ وإقراره على حاله ، وتقدم بالصائفة إلى بَنْبلُونَه[2](٥) فجال بأرضها وأدَاخَها[3] ، ونَكَأَ العَدُوَّ أبْرَحَ نِكاية .

وفيها عزله الأمير عبد الرحمن حارثَ بن بَزِيع(٦)عن طُلَيْطُلَة فى شوال منها ، وولاها محمد بن السَّلِيم[4] (٧) .

وفيها كان القحط الذى عم الأندلس ، فهلكت المواشى ، واحترقت الكروم ، وكثر الجراد ، فزاد[5] فى المجاعة وضيق المعيشة .

---

(1) استكملنا هذه العبارة من النص الذى نشره ليفى بروفنسال وغرسيه غومس من جملة مقتطفات انتخباها من « المقتبس » وترجماها إلى الإسبانية تحت عنوان «نصوص مخطوطة من المقتبس لابن حيان حول أصول مملكة بنبلونة» فى مجلة «الأندلس» ، المجلد التاسع عشر ، الجزء الثانى ، سنة ١٩٥٤ :

E.LEVIPROVENCAL, E. GARCIA GOMEZ; Textos del «Muqtabis» de Ibn Hayyan sobre los origenes del reino de Pamplona, AL-ANDALUS, Madrid Granada, vol. XIX, fasc. 3 , p. 304

(2) ص : بلبلونة .

(3) ص : وأداخلها ، وقد تحتمل أيضا « وداخلها » ، على أن ما أثبتناه أصح وأشبه بأسلوب ابن حيان ، فهو كثيراً ما يستخدم هذا اللفظ (انظر على سبيل المثال القطعة التى نشرها الأستاذ عبد الرحمن الحجى من « المقتبس » ، ط . بيروت ١٩٦٥ ، ص ٢٣٦ حيث يقول : « أداخ بسيطة ») .

(4) ص : السلم ، وقد أصلحناها بما سيرد بعد ذلك فى النص .

(5) ص : فرادا .

وفيها استأمن غُلْيَالِمُ بن بَرْنَاطَ[1] بن غُلْيَالِم(٨) ، أحد عظماء قَوَامِس إفْرَنْجة على الأمير عبد الرحمن بقُرْطُبَة ، فأكرمه وأحسن إليه وإلى أصحابه ، وصرفه معهم إلى الثغر لمغاورة الملك لُذْوِيق بن قَارْلُهْ بن بِبِين[2] (٩) صاحب الفِرَنْجَة ، وكانت بينه وبين قواد لُذْوِيقَ وقائع ظهر عليهم فيها ، وأعانه عُمَّالُ الثغر ، فأثْخَنَ[3] العدو ، وأقام بمكانه ظاهراً على من انتقض عليهم من أمته مدة ، وكُتُبُه إلى الأمير متصلة .

سنة ثلاث وثلاثين ومائتين

فيها فى شعبان منها عزل الأمير عبد الرحمن محمد بن السَّلِيم عن طُلَيْطُلَة[4] ، وولاها بعده أيوب بن السليم(١٠) .

سنة أربع وثلاثين ومائتين

فيها غزا[5] بالصائفة المنذر بن الأمير عبد الرحمن(١١) ، وقاد عبد الواحد بن يزيد الإسكندرانى(١٢) ، ودَبَّرَا الوزير يحيى بن خالد .

وفيها أغزى الأمير عبد الرحمن أسطولا من ثلاثمائة مركب إلى أهل جزيرتى[6] مَيُورْقَة ومِنُورْقَة(١٣) ، لنقضهم العهد ، وإضرارهم بمن يمر إليهم من مراكب المسلمين ، ففتح الله للمسلمين عليهم ، وأظفرهم بهم ، فأصابوا سباياهم ، وفتحوا أكثر جزائرهم ، وأنفذ الأمير فتاه[7] شَنْظِيرَ الخَصِىَّ إلى ابن ميمون عامل بَلَنْسِيَة ، لِيَحْضُرَ تحصيلَ الغنائم ويقبض الخُمْس ، وكان قد صالح بعض أهل تلك الحصون على ثلث أموالهم وأنفسهم ، وأحصيت رِبَعُهُمْ وأموالهم[8] ، وقُبِضَ ما عليه صُولِحُوا(١٤) .

(1) ص : بر باط .
(2) ص : للدريق بن قارلة بن س ، والاسم الأخير ورد بغير إعجام . انظر تعليقنا على هذا الموضع .
(3) ص : فاعى ، بغير إعجام .
(4) ص : طليلة .
(5) هذه الكلمة ساقطة من الأصل مثبتة فى الحاشية .
(6) ص : جزيتى .
(7) ص : ساه .
(8) ص : وأموالهم

وفيها ظهر غُلْيَالِمُ بن بَرْنَاط[1] بن غُلْيَالِم[2] النَّازِعُ إلى الأمير عبد الرحمن ، القادم إلى بابِ سُدَّتِهِ / فى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين على من حادَّه من أُمته أهل إفرنجة ، [١٨٩ب] الذى نصبه الأمير عبد الرحمن لمغاورتهم وأمَدَّهُ بقوته ، فاقتحم عليهم بلده فى جمعه ، فقَتَّلَ وسَبَى ، وحرق وخَرَّب ، وحاصر بَرْشُلُونَة(١٥) حتى أضَرَّبها ، وتقدم إلى جِرُنْدَة(١٦)، فشارفها ، وورد كتابه على الأمير عبد الرحمن يعترف بما كان منه ، ويذكر تماديَهُ عليه ، فأُجِيبَ بالإحمادِ لفعله ، والإرْصَادِ لمكافأته ، وكتب إلى عُبَيْدِ الله بن يحيى(١٧) عامل طُرْطُوشَةَ(١٨)وإلى عبد الله بن كُلَيْب عامل سَرَقُسْطَة فى إمداده ومعونته وتحريضه على شقاق قومه وتأييد عزيمته .

وفى شهر رمضان منها عُزِلَ أيُّوب بن السَّلِيم عن طليطلة ووَلِيَهَا يوسُفُ بن بَسِيل(١٩) .

وفيها عَزَل الأمير عبد الرحمن مُعَاذَ بن عثمان عن القضاء بقرطبة ، ووَلَّى مكانه محمد ابن زياد(٢٠) .

وفيها خرج فَرَجُ بن خَيْر الطُّوطَالِقِيُّ(٢١) بدنهكة(٢٢) وأرَوْش(٢٣) ، فأظهر المعصية ، وجمع أهل الفساد ، فعالجه[3] الأمير عبد الرحمن بالخيل ، فحوصر حتى أذعن بالطاعة ، وعاد إلى الجماعة ، فاصطنعه الأمير ورفع مرتبته ، وولاه كُورَةَ بَاجَة(٢٤) ، فلم يلبث أن انتقض عليه إلى مُدَيْدَة ، وجرت منه خطوب أفسدت الصنيعة ؛ ومِنْ وَلَدِهِ بَكْرُ بن سَلَمَة(٢٥) المُسْتَنْزَلُ من ناحية الغَرْب[4] أيامَ الخليفة النَّاصِر لدين الله .

سنة خمس وثلاثين ومائتين

فيها ورد كتاب أهل مَيُورْقَة على الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، مستغيثين مِمَّا دهمهم من سُخْطِه ، مستقيلين لِعَثَرَاتهم لديه ، راغبين فى صفحه وإقالته ، فعطف عليهم وأقالهم زَلَّتَهُمْ ، وأجابهم إلى مسألتهم ، وأعطاهم ذِمَّته ، وجَدَّد لهم عَهْدَه .

(1) ص : برباط .
(2) ص : فلنادم .
(3) ربما كانت : فعاجله .
(4) ص : المغرب .

وفى آخرها عاد موسى بن موسى القَسَوىُّ إلى الخلاف ، وكشف وجهه بالمعصية ، فأفسد ما حوالى مدينةُ تُطيلَه ، وعاث حَوْزَ طَرَسُونَة(٢٦) وبُرْجَة(٢٧) ، وظاهره أخوه لأمّه العِلْجُ ابن وَنَّقُهْ(٢٨) بِبَنْبِلُونَةَ[1] ، فخرج إليه بالصائفة[2] عبَّاس بن الوليد المعروف بالطُّبْلِيِّ(٢٩) ، فعاد إلى الطاعة ، واستقال الزلَّة ، وبذل اسماعيلَ(٣٠) ابْنَهُ رَهِينَةً ، فعاد الأمير

[١٩٠ ا] إلى القَبُول منه ، والاستظهار عليه ، وأخرج / بَيْعَتَهُ والتَّوَثُّقَ منه وقَبَضَ رهينتَهُ خالدبن يحيى(٣١) ومحمد بن الوليد(٣٢)ومُطَرِّفُ بن نُصَيْر(٣٣) ، فَتَمَّمُوا سَلْمَه ، وتوثَّقوا من عهده ، وجدَّد له الأمير الولايةَ على تُطيلَةَ ، ودخل أخوه العِلْجُ ابن وَنَّقُهْ صاحب بنبلونة معه فى الأمان ، وقَبَضَ الأُمَنَاءُ المُخْرَجُونَ[3] إلى موسى رهينته التى كانت ولده اسماعيل الذى هو لابنَةِ عَمِّه مَيْمُونَة(٣٤) ، فأقبل عبَّاس الطُّلَبِى[4] بالعسكر إلى الحَضْرَة لتأخُّر الوقت عن دخول أرض الحرب ، وما تَوَلَّى اسماعيلُ بن موسى رهينَةُ أبيه موسى فى يد الأمير عبد الرحمن أن هرب من يده عن قرطبة حَانًا[5] إلى ما فارقه من الشِّقاق ، ذاهِلاً عما كان فيه من غضارة المعيشة ، لتوسعه فى القطائع المُنِيفَة والصِّلات الجَزْلَة ، فرفض ذلك كُلَّهُ ، وسَمَا للمعصية ، وأمر الأميرُ بقَصِّ أثَرِهِ ، فلم يَبْعُدْ أنْ جِىءَ به إليه من طريق الثَّغْر ، وقد انتهى إلى وادى آنَة(٣٥) فَقَبَضَ عليه هناك بَعْضُ من عرف خَبَرَهُ ، وردَّهُ للأمير عبد الرحمن بقرطبة ، فعفا عنه ، وأغضى عن زَلَّتِه ، وخلَّاه على ما كان عليه من سَعَة قطائِعِه .

وفيها سَيْلاَن عظيمان بنهر قرطبة فى شهر رجب القَمَرِىِّ الموافق لشهر يَنَيْر الشَّمْسِىِّ(٣٦) رأسِ سنة العَجَم بالأندلس ، عُدَّا فى أُمَّهات السيول ، وحمل وادى شِنِيل أيضا ، وَطَغَى مَدُّهُ ، وأخرب حَنِيَّتَيْنِ من قنطرة مدينة إسْتِجَة(٣٧) ، وأبْطَلَ عدداً من أرجائها ، وطمى السيل أيضا بكورة إشْبيليَّة التى بها قراره ، فذهب مَدُّه فى مُجْتَمَعه هناك بستٍّ عشرة قرية ما بين البحر وحاضرة إشبيلية . . . . [6] .

---

(1) ص : بنبلونة .
(2) ص : الصائفة .
(3) ص : الأبناء المخروجون .
(4) كذا ، وستجىء بعد فى النص على هذه الصورة أيضا ، وقد سبق أن وردت هذه النسبة هكذا : الطبلى .
(5) ص : حانا ، بلا إعجام ، وربما احتملت أن تكون أيضا : « خافا » أى مسرعا .
(6) كلمتان مطموستان فى الأصل ، لعلهما « هلك كل ما » أو شىء فى هذا المعنى .

فيها من ناس وبهائم وأمتعة ، فكان ذلك حَدَثاً عظيماً تحدّث الناسُ عنه زمانا(٣٨) .

وفيها هلك الطاغية رُذْمير بن أردميس[1] مَلِكُ الجَلاَلِقَة(٣٩) ، فَولِيَ ابنُهُ أرْدُون ، وكانت ولاية رُذْمِير[2] ثمانية أعوام .

سنة ست وثلاثين ومائتين

فيها ورد كتاب للأمير [من][3] عُبَيْدِ الله بن يحيى من الثغر الأعلى ، يذكر استغناءه عن العِدَّةِ التي قد أُمِرَ باحتباسها قِبَلَهُ من الحَرَس[4](٤٠) ، واكتفاءه[5] بمائة وثلاثين غلاما ذكر أنهم معه من مواليه وغلمانه ، يرضى بسالتهم ، ويحمد مذاهبهم ، ويسكن إليهم ، ويَجْتَزِئُ بخدمتهم ، لما أصبح الثغر بحمد الله من السكون والهدوء ، ووَقْمِ العدوّ بحروب[6] ، بارتضاء رأيه ، وإحماد نظره ، وقدم مِقْنَباً[7] من قِبَلِهِ من فرسان الحُرْسِ إلى مرابطهم بالماء ، وأجرى القطائع / على عِدَّتِهِ تلك التي اقتصر عليها من الرواتب [١٩٠ ب] والنفقات والعُلُوفات عليهم مما في يده من مال السلطان ، وأن يَصْرِفَ جميع مايَقْبِضُه بالثغر من الجِزَاء والعُشُور وجميع الوظائف بعد إقامة سائر النفقات الرَّاتِبَة إلى فكاكِ أسراهم ، وحَمْلِ مُرْجَلِيهِمْ ، ومَرَمَّةِ حصونهم ، ومصالح ثغورهم ، وكل مافيه تقويتهم على عدوهم ، وسَوَّغَهُ أن يرتزق في كل شهر لعِمَالته مما يجتبيه مائتي دينار دراهم ، وينهض معروفه للعام إلى ألف دينار مما يتقاضاه من جباية عمله ، فكان عمل الأمير عبد الرحمن ذلك بالثغر وأهله من جلائل مناقبه .

وفيها أدال[8] الأمير عبد الرحمن ابنَهُ الحَكَمَ بن عبد الرحمن(٤١) عن ولاية كُورَة

---

(1) كذا في الأصل ، وانظر تعليقنا على هذا الموضع وتحقيقنا لاسم هذا الملك المسيحي .

(2) ص : ولايتاه أدمير .

(3) زيادة يقتضيها السياق .

(4) كذا في الأصل ، ونرجح أن تكون « الحرس » ، وسنرى أنها سترد هكذا بعد ذلك بسطور .

(5) ص : واكتفاؤه .

(6) يبدو أن كلمات سقطت في هذا الموضع مؤداها : فكتب إليه الأمير بارتضاء رأيه . . الخ .

(7) ص : مقلب ، ولعلها كما أثبتنا ، والمقنب جماعة الفرسان .

(8) ص : أذال ، وقد تكون أيضا « أزال » .

إلبِيرَةَ(٤٢) بأخيه عبد الله بن عبد الرحمن ، ووَلّى الحكمَ كُورة تُدْمير(٤٣)ومعه سَعْدٌ أخو خَزَر[1] لايفارقه(٤٤) . ثم عَزَلَ عبد الله بن عبد الرحمن عن كورة إلبيرة فيها ، فأعاد أخاه الحكم إليها .

ولم يُخرِجْ إلى كورة تدمير فى هذه السنة وَلَداً له على عادته لإمحالٍ نالها فى هذا العام .

وفيها صَرَفَ الأمير عبد الرحمن[2] عن كورة رَيَّة(٤٥) ، وصرف خَزَرَ(٤٦) المَوْلَى الملازم له معه .

وفيها ثار حبيب البُرْنُسِيُّ بجبالِ الجزيرة الخضراء(٤٧) ، واجتمع له خلقٌ من أهل الفساد فى الأرض ، فشنَّ بهم الغارةَ على قرى ريَّة وغيرها ، فأشاع الأذى ، ونهب وقتل وسبى ، فأخرج الأمير عبد الرحمن عند ذلك الخيل مع عَبَّاس بن مَضا ، فألفى أضداده قد قصدوا حبيبا وأصحابه ، فأوقعوا بهم وقَصُّوهم ، وقتلوا خلقا منهم ، وتفرقت بقيتهم ، فانْخَنَسَ حبيب رئيسهم فى غِمار الناس ، وطُفِئَتْ نائِرَتُهُ ، وطُلِبَ دهراً فلم يُظفَرْ به(٤٨) .

---

(1) ص : أخزر ، ولعل الصواب ما أثبتنا ، وسيأتى الاسم على هذه الصورة بعد سطور .

(2) يبدو أن اسم عامل عبد الرحمن على كورة رية الذى عزل عنها فى هذه السنة قد سقط من هذا الموضع .

ذِكْرُ مَهْلَكِ نَصْرِ الخَصِيِّ الكبير
خَلِيفَةِ الأَميرِ عبدالرحمن بن الحكم رحمه الله

وفى هذه السنة هلك أبو الفتح نَصْرٌ الخصىُّ(٤٩) ، خليفةُ الأمير عبدالرحمنِ بن الحَكَم ، المُقَدَّم على جميع خاصّته ، المُدَبِّرُ لأمر داره ، المشارِكُ لأكابر وُزَرَائه فى تصريف مُلْكه ، وكان هُلْكُهُ شبيه الفَجْأَةِ فى عَقِبِ شعبانَ من هذه السنة ، أَرْقَى ما كان فى غلوائه ، وأَطْمعَ ما هو بالاحتواء على أمر سلطانه ، أَرْهَبَ ما كان الناس له ، وأَخْوَفَهُمْ لعُدْوَانِهِ ، إذ نال من أَثَرَةِ مولاه الأمير عبد الرحمن واصطفائه وإشراكه له فى الرأى مع جلة وزرائه ، وَطوْعِهِ كثيراً إلى ما يخالفهم فيه ، فوق ما ناله/ خادمٌ خاصٌّ مع أميرٍ رشيد سُمِعَ عنه ، [١٩١ ا] وله بذلك أخبار فى الناس تُصَدِّقُ دلائلَ تَحَقُّقِهِ ، سيما بها – زعموا – فى باطنه إلى غاية كرهها الله ، إخْتَرَمَهُ دونها حِمامُه ، فقَضَى ذميماً مُسْتَرَاحاً منه .

وكَثُرَ القولُ فى السبب الذى أراده ، والخَوْضُ فيما أتاه ، فكان من أَوْضَح ذلك ما ذكره أبو بكر بن القُوطِيَّة(٥٠) ، قال :

كان نصر الخصِى الجرِىءُ المُقَدَّمُ الوَسَاعُ الفهم قد غلب على قلب مولاه الأمير عبد الرحمن بن الحكم واستظهر على[1] حَرَاصَةِ مكانه لديه بانقطاعه إلى حَظِيَّتِهِ[2] طَرُوب أمِّ عبدِ الله ، الغالبَة عليه من بين جميع نسائه(٥١) ، وحَطِّهِ فى شِعْبِها ، ومُمَالأَتِهِ إيَّاها على ما تسعى له من تقديم ولدها عبد الله للأمر بعد الأمير أبيه على جميع الأَرَاجِحِ الأكبرين من ولده متى حانَ حَيْنُه ، فَخَالَصَ السَّيِّدَةَ تشديداً[3] ، وأخلصت له ، وَاستوى له بذلك أَمْرُه ، وأصبح مُلْكُ عبد الرحمن فى يَده ، يدبره كيف يشاء ، فلا يَرُدُّ أَمْرَه ، قد أجهد سَعْيَهُ آخِرَ أَمَدِهِ فى جهره وسرِّه ، بالتنويه بعبدِ الله بن سِتِّه طَرُوب ، والإشادة بذكره ،

(1) هذا اللفظ مكرر فى الأصل .
(2) ص : خطيلته .
(3) كذا ، ولعلها شديدا .

واستمالة طبقات الناس بالرغبة والرهبة إليه ، والعمل على اختزان الخلافة عن أخيه محمد ، بِكْرِ والده الأمير عبد الرحمن ومُفَضَّلِهِمْ المُشَارِ إليه إلى خالِفَتِهِمْ ابن طروب هذا ، وسوقها إليه ، يتأتى لذلك ويأتيه من جميع أبوابه ، والقضاءُ يُبعِدُه عنه ، ويسُدُّ دونه طُرُقَه ، وهو يَرْصُدُ لِوَجْبَةِ الأميرِ عبد الرحمنِ مَوْلاه ، ليقضى فى عبد الله قضاءه ، فيُمْلَى لعبْد الرحمن ويستأخِرُ يومه ، فيشقُّ ذلك على الخصِيِّ وَيَرْهَبُ فَوتَه ، حتى سوَّلت له نفسُه اغتيالَ مولاه عبد الرحمن ، وإلطافَ التدبير عليه ، كيما يتمكن من تقديم عبد الله مكانه ، ولايرهب الخُلْفَ عليه ، لكثرة أنصاره من أهل الدار وغيرهم ، وفُشُوِّ صنائعه فيهم ، فيتم له بابن طروب الاحتواءُ على الملك ويُؤَخَّرُ عنه محمد المُرَشَّحُ له وغَيْرُهُ مِمَّن[1] يَطْمَعُ فيه .

فَوثِقَ فى ذلك بِالْحَرَّانِىِّ(٥٢) الطبيب ، وكان فى عِداد صنائعه وقَدَّر منه – مع الوفاء – الشَّرَهَ إلى مايبذله له ، فخلا به ، وذكَّره أياديه لديه ، وتدارسا[2] فيما ينويه له ، وقال له :

– هل لك فى إحراز حُسْنِ رأيى للأبد ، وحَوْزِ جزيل صِلتى[3] للآخر ؟

فقال له الحَرَّانِىُّ :

– هذه هى المُنْيَةُ التى لاوراءها طَلِبَةٌ ! فَمَنْ لى بنَيْلِها ؟

فقال له :

– هذه ألف دينار مُعَجَّلة بين يَدَىْ الجَرْىِ بالحاجة ، واعْمَلْ لى سُوُرَ(٥٣) الملوك الذى يُدْنِى الأَجَلَ[4] ، ويقلب الدُّوَل ، ودَعْنى لمكافأَتِكَ إن انقضت حاجتى . فوالله لأتجاوزَنَّ بها ظَنَّكَ !

فأراه القبول لما بَذَلَه ، والقيام بما كَلَّفَه .

وخرج عنه وقد عَدَلَت البدْرَتَان جناحَيْه ، فعَملَ ذلك الخَلْطَ باسم الدَّواء المُسْهِل كما رسمه له ، وأجهد رأيه فى تقويته ، واحتال فى أن دَسَّ فى خفية إلى « فَجْر »(٥٤) خَطيَّة [١٩١ ب]

(1) ص : مما .
(2) ص : وتذارسا .
(3) ص : صلتى .
(4) ص : مدنى الأصل .

الأمير عبد الرحمن ضَرّةِ طروب مع بعض من كان يَسْتَطِبُّ لما عنده من ثقات قَهارِمَتِهَا(1) يشير لها على مادُبِّرَ على الأمير من طريق العلاج ، ويأمرها أن تُحَذِّرَهُ من شرب ما يأتيه نصر به أو يرسله ، فوقاه جَدُّهُ بذلك ، وسَقَى الخَصِيَّ مُعِيناً له(2) .

وقد كان الأمير شكا إلى نصر خلال ذلك خَلْطاً تحرَّك به عَدَلَ له عن أخذِ الدواء الذى من عادته وإعداده ليوم فارقه على التَّوَحُّشِ أمامه ، فكان من تَوْطِئَة نصر لذلك ما قَدَّرَ أنه واقعٌ به لا محالة(3) . وبكَّر بذلك الخَلْطِ المسموم إلى الأمير فى اليوم الذى رَبَطَ فيه مَوْعِدَهُ ، فأصابه حَذِراً للذى سبق إليه ، فتعلَّلَ على نصر ، ووصف وَعْكاً طاف به ليلته ، فَنَكَتَ مِرَّتَه(5) ، فلا فضل فيها للدواء ، وأشار عليه بشربه ، إذ لم يزل كثيراً يُسْعِدُه فى مثله ، فلذ يعتذر بعدم التوحُّش له ، فزجره وقال :

- سبحان الله ! شىءٌ اجتهدت لى فيه وألْطَفْتَ تركيبه تخاف غائلَتَهُ ؟ عَزَمْتُ لَتَشْرَبَنَّهُ !

فعلم نصر أن خلافة لايمكنه ، فَشَرِبَهُ بين يديه ، واستأذَنَهُ فى الخروج إلى منزله ، فأمره ، فانطلق يَرْكُضُ ورَكْضُهُ يزيده شرا ، واستغاث بالحرَّانِيِّ ، فَعَرَّفَهُ بما جرى عليه ، والسُّمُّ يَجِدُّ بِهِ ، فقال له :

- عليك بلَبَنِ المَعِزِ ، فإن شربه يُفَتِّر عنك !

فَفَرَّقَ غلمانه فى طلبه ، فعوجل قبل أن يُؤْتَى به ، ومضى لسبيله .

فسُرَّ الناسُ بحتفِهِ ، وأطبقوا على ذَمِّه ، وقال يحيى الغَزَّالُ(٥٥) عدُوُّهُ الموتور من لَدُنْهُ عند موته : [من البسيط] .

---

(1) ص : فهارمتها .

(2) كذا ، والجملة مضطربة بعض الشئ ، ولو أن المعنى المراد مفهوم ، فالمقصود أن الحرانى أوحى إلى الأمير عن طريق هذه القهرمانة بألا يتناول أى دواء يأتيه به نصر أو يرسله إليه وأن يعمل على أن يبدأ بسق نصر من هذا الدواء مشاركا له ومعينا قبل أن يذوقه الأمير ، فكان فى هذه النصيحة وقاية لعبد الرحمن واستبقاء لحياته .

(3) ص : لا محالة به .

(4) ص : فكت .

(5) ص : مرة والتصويب فى الحاشية .

أغْنَى أَبا الفَتْحِ ما قد كان يَأْمُلُهُ
من التَّصَانُع والتَّشريفِ[1] لِلدُّور
وكُلُّ عَرْضٍ وقَرْضٍ كان يَجْمَعُهُ
حُفَيْرَةٌ[2] حُفِرَتْ بَيْنَ المَقَابِرِ
لم يَأْلُهَا القوم تَضْيِيقاً ولا وَقَعَتْ
فيها الكَرَازِينُ إلَّا بَعْدَ تَقْدِيرِ
فَصَار فيها كَأَشْقَى العالَمِينَ وإنْ
لَفُّوه[3] بالنَّفْحِ فى مِسْكٍ وكافُورِ
ما العَرْفُ لو أَخْبَرُونَا بَعْدَ ثالِثَةٍ
إلا كَعَرْفِ سِواهُ المَنَاخِيرِ
وكان أَزْمَعَ[4] شيئاً لم تكُنْ سَبَقَتْ
بِهِ من اللهِ أَحْكامُ المقادِيرِ
إذا أراد الالَهُ الشَّيْءَ كَوَّنَهُ
فلَنْ يَضُرَّكَ فيه سُوءُ تَدْبيرِ

وذُكِرَ أن الغزالَ أنذر بهلك نصر هذا من طريق النَّجْم قبل وقوعه بمدة ، فقال :
[من الكامل ، الضرب الأحذ المضمر] .

قُلْ لِلفَتَى نَصْرٍ أَبِى الفَتْحِ إن المُقَاتِلَ حَلَّ بالنَّطْحِ
وأراه قَهْقَرَ فيه ثمَّ مَضَى قُدُماً ومُدْبِراً[5] إلى الرُّمْحِ
وأرى النُّحُوسَ له مُسَاعِدَةً فانظُرْ لنفسِكَ واقْبَلَنْ نُصْحى
وَوَجدْتُ ذلِكَ إِذْ[6] حَسَبْتُ له ممَّا يَدُلُّ على غَلا القَمْحِ

(1) ص : التسريف .
(2) ص : حفرة ، ولا يستقيم بها الوزن .
(3) ص : لفوه .
(4) ص : رمع
(5) كذا ، وقد تكون : ومدبرة .
(6) إذا .

ونُزُولَ أَمْــرٍ لا أَفُــوهُ بِــهِ لَوْ كَانَ يَبْلُغُ بِى إلى الـرِّبْحِ
وإذا رَأَيْتَ البَــدْرَ فى بُلَعٍ نَزَل القضاءُ بِأَبْــرَحِ البَرْحِ
/ يارُبَّ [طالِعَــةِ][1] العِشَاءِ أَتَتْ بخِلافِ ذاك[2] طوالـع فى الصُّبْحِ [١٩٢ ا]
وَلَرُبَّ رافِــلَةٍ عَشِيَّتَهـــا فِى الوَشْيِ أَضْحَتْ وَهْىَ المِسْحِ
تبكِى على من كان يُكْرِمُهـــا نَحَّــاءَ بَيْنَ نوادِبٍ نُــحٍّ

وليحيي الغزال فى نصر – وذكر مسكنه بمُنْيَتِه(٥٦) إلى جانب مقابر الرَّبَض(٥٧) والنهر – : [من الطويل] .

أَيا لاهِياً فى القصْرِ قُرْبَ المقابِرِ
يَرَى كلَّ يوم وارِداً غَيْرَ صادر
كأَنَّك قد أَيْقَنْتَ أَنْ لَسْتَ صائِراً
غَداً بينَهُمْ فى بَعْضِ تِلْكَ الحفائر
تراهُمْ فتَلْهُو بالشَّرابِ وبَعْض مــا
تَلَذُّ به من نَقْــرِ تلكَ المَزَاهِــرِ
وما أَنْتَ بالمَغْبُون عَقْــلاً ولا حِجىً
ولا بقَلِيلِ العِلْمِ عِنْـــدَ التَّخَابُــرِ
وفى ذاكَ ما أَغناكَ عن كل واعِظ
شفيقٍ وما أَغنَــاكَ عن كل زاجِـــرِ
وكم نِعْمَــةٍ يَعْصى بهــا العَبْدُ رَبَّــهُ
وبَلْوَى عَــدَتْه عن رُكوبِ الْكَبَائر
سَتَرْحَلُ عن هـــذا وإنَّك نــادمٌ
وما أَنتَ فى شَكٍّ على غير عـــاذِرِ[3]

---

(1) زيادة يقتضيها الوزن والمعنى . (2) ص : ذلك ، ولا يستقيم بها الوزن .
(3) ص : غادر . وقد تكون أيضا « غافر » .

وقال يحيى الغزال عند ذِكْرِ الناس لإنزال السلطان زِرْيَاباً(٥٨) مُغَنِّيَةً فى مُنْيَةِ نصر الخصى أثيره بعد موته ، يذكر تَقَلُّبَ الدنيا بأهلها : [من الخفيف] .

ذَكَرَ النـــاسُ ...(1) نَصْرٍ لزريا ب وأهلٌ لِنَيْلِهـــا زِرْيَـــابُ
هكذا قَدَّر الإِلَهُ وقـــد تَجْـــــــــرِى بما لاتَظُنُّــهُ الأَسْبَابُ
أَخْـرَجُوه مِنْهَـا إلى مَسْكنٍ لَيْـــــسَ عليـهِ إلَّا التُّرابَ حِجَـابُ
لايُجيبُ الـدَّاعِيـةِ فيــه ولايَرْ جِعُ من عِنْـدِهِ إلَيْـهِ جَوَابُ
وتَغَانَتْ تِلْكَ المَـرَاكِبُ عَنْهُ وأُميلَتْ إلى سِـــواهُ الرِّكابُ
لَيْسَ مَعْـهُ من كُلِّ ماكان قَدْجَمَّــــــعَ إلَّا ثَـلَاثَةٌ أثْـــوَابُ
وتـــلاشَى جميعُ ذاكَ فَلَمَّـــا يَبْقَ إلا ثَـوَابُهُ أو عِقَــابُ
عَسْكَرٌ جُنِّـــدُوا فَلَيْسَ بِمَأْذُو نٍ لَهُمْ عنـه أن يكونَ الحسَابُ
فَرَأَيْتُ الرِّقَابَ من أَهْلِهِ ذَلَّـــــــتْ وَعَزَّتْ مِنْ آخَرِينَ رِقَابُ
وكـذاك الزمانُ يَحْـدُثُ فى تَصْـ ـرِيفِهِ الذُّلُّ والبَلَا والخَـرَابُ
لَتَعَجَّبْتُ والَّذِى منـهُ أَعْجِبْـــــتُ إذا مانَظَرْتَ شَئٌ عُجَـابُ
لـكأنَّ الذى تَوَلَّى الذى كا نَ عليــــهِ مُخَلَّـدٌ لايُـرَابُ
فِعْلُهُ بَعْـدَهُ كَفِعْلِ امْرِىءٍ لَيْـــــسَ علَيْـهِ بَعْدَ المماتِ حِسَابُ
وَلَعَقْلُ الفَتَى صحيحٌ ولَــكِنْ حَيَّرَتْهُ الأَوْرَاقُ والأَذْهَـــابُ

وحكى الحَسَنُ بن محمد بن مُفَرِّح(٥٩) فى كتابه قصة مهلك نصر هذا ، فقال :

كان السبب فى مهلك نصر الفتى الكبير الغالب على الأمير عبد الرحمن بن الحكم [١٩٢ب] المظاهرِ لسيِّدته طَروب حظِّية الأمير / عبد الرحمن على سَوْق الملك إلى ولدها منه عبد الله المعزوِّ إليها أن عبد الرحمن التَوَى - بهما مَعاً فى تقديم عبد الله على محمد أخيه أكبر ولده ،

(1) لم يترك الناسخ هنا بياضا ، ولكن هناك ينبغى أن تكون قد سقطت من هذا الموضع وإلا اختل الوزن والمعنى ، ونرجح أنها « دار » ويدل على ذلك ضمير المؤنث الغائب فى الشطر الثانى من البيت وفى البيت الثالث .

المُرَشَّح من بينهم للأمر ، لصدق نفسه على كون ما بينهما فى الرَّجاحة والفضل ، وتغليبه لرأيه فيه على هواه ، لِمَعْصِيَتِه لحظيته طروب . فلما أعيا عليها وعلى نصر ظهيرها لَفْتُهُ[1] عن ذلك شقَّ ذلك على نصر ، وفكر فى سوء عاقبته مع محمد إن خَلَصَ له الأمرُ ، وقد كشف وجهه فى صَدِّه عنه ، فذهب إلى احتيال الأمير مولاه كيما يتمكَّنَ من نَصْبِ عبد الله وَدحْرِ[2] محمد ، فأتى الأمر من باب طبيب الأمير المعروف بالحرانى ، وكان يثق به ؛ فخلا معه ، وقال له :

– ما ترى رأيك فى شئ تحوز به حُسْنَ رأيى ، وتعجيلَ العطاء الرَّغيبِ منى ، وتعتقد المِنَّةَ عَلَىَّ ؟ .

فقال :

– ياسيدى . بَعْضُ هذا غاية أملى ! فكيف لى ببلوغه ؟ !

فقال له :

– فقد أمكنك ! فَخُذْ هذه الألف دينار ابتداء ، فأَصْلِحْ بها من شأنك ، واعْمَلْ لى سَنُون الملوكِ ، من أجَلِّ ما تقْدِرُ عَلَيْه وأوْحَاهُ فِعْلًا ، فَيَدُكَ فيما عندى منطلقة ! فَأَعِدَّهُ لميقاتك الذى أعَرِّفُكَ به .

فلم يخطر على عصيانه ، وأراه الرغبة فى صِلَته ، والحرص على قضاء حاجته ، وقَبَضَ الألفَ منه ، وعمل له السَّنُون كما أراده .

واتفق أن شكا الأمير إلى نصر فُتوراً يَجِدُه ، فأشار عليه بالدواء المُسْهل ، وكان من عادته ، فذَكَّره بإدخاله ، وأوصل إليه طبيبه الحرانى ، فوافقه على إدخال الدواء ، وَحَدَّ له تقديمَه ، ورسم له التَّوَحُّش لإدخاله ليوم سَمَّاهُ ، فتقدم الأمير إلى نصر بإدخال الحرانى إلى خزانة الطب ، وتمكينه مما يريد من أخْلَاَط دوائه ليقيمَهُ على حَدِّه ، فشرع الحرانى فى ذلك ، وفَجَرُ ثقة الأمير تطالعه بوصاياه ، فأمكنت الحرانىَّ منها فرصةٌ أوحى إليها

(1) ص : لفته عنى عن . وكلمة عنى هنا مقحمة لا موضع لها ولا معنى .
(2) ص : ودحو .

بشأن الدواء ، وسألها أن تُحَذِّرَ الأمير من شرب الدواء ، ففعلت ذلك خفيةً ، فحذِر الأمير ، وطار بجناح الإشفاق عليه .

فلما غَدَا به نصر فى اليوم الذى فارقه عليه أظهر الأمير الانكسار عنه ، ووصف عائقاً يمنعه منه ، وأمر لِحِينِهِ[1] نصراً بشربه ، فكأنه توانى إذ لم يَسْتَعِدَّ له ، فأكرهه عليه ، وأسرع الخروج إلى داره ، وبادر الإرسالَ فى الطبيب الحرانى ، فَعَرَّفَهُ ماجرى عليه ، واستغاثه ، فأمره أن يشرب لَبَنَ المَعِز ، فآل[2] إلى أن طُلِبَ له وجِيء به ، فأعجل عليه السُّم ، فمات ، ولم يشربه .

وذكر الفقيه أبو محمد على بن أحمد بن حزم(٦٠) أن نصراً هذا الذى إليه تُنْسَبُ مُنْيَةُ نصر — الأثير كان — عند الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وكان من الفتيان المُنْتَقَيْنَ الذين خَصَاهُمْ[3] أبوه الأمير الحكم من أبناء الناس الأحرار الذين تُعُبِّدُوا ليستخدمهم داخل قصره وأبوه المعروف بأبى الشمُول من أَسَالِمَةِ أهلِ الذِّمَّةِ(٦١) من أهل قَرْمُونَة(٦٢) ، نال[4] بابنه نصرٍ دُنيا عريضة ، وكان موته قُبَيْلَ مهلك نصر ابنه بأيام . وأخبار نصر كثيرة .

سنة سبع وثلاثين ومائتين

١٩٣ ا] / فيها كانت وقيعة البَيْضَاء(٦٣) ، والبيضاءُ مجاورة لمدينة بَقِيرَة(٦٤) من بَلَد بَنْبِلُونَة بين المسلمين والكفرة الجاشقِيِّين(٦٥) ، فكان اليومُ الأوَّلُ منها على المسلمين ، فاستُشْهِد منهم جماعةٌ ، ونالتَ فيه موسى بن موسى خمسٌ وثلاثون وخزةً تخلَّلَتْ حَلَقَ دِرْعِه ، واليوم الثانى كافحهم المسلمون ، وقد أخذ المقدِّمة موسى بن موسى مُتَحاملاً لألم جراحه ، فحامَى[5] على المسلمين ، وحَسُنَ غَنَاؤه ، فهُزِم الجاشقِّيون أعداء الله أفحشَ هزيمة ، وفُرِشَتِ الأرضُ بصَرْعَاهم(٦٦) .

---

(1) ص : الحنية .   (2) ص : قال .
(3) ص : سخطام .   (4) ص : زال .
(5) ص : محاباة ، وقد قرأها ليفى بروفنسال : محاميا (وذلك فى نشره لهذه الفقرة فيما قام بانتخابه من نصوص « المقتبس » هو والمستشرق الإسبانى غرسيه غومس فى مقالهما الذى سبق أن أشرنا إليه فى مجلة الأندلس ، سنة ١٩٥٤ ، ص٣٠٦)

وفيها هلك يَنَّقُهْ بن يَنَّقُهْ أخو موسى بن موسى لأمه وظهيرُه على أمره ، وكان قد أصابه فالِجٌ عطَّله إلى أن مضى لسبيله(٦٧) ، فوَلِيَ مكانَهُ ابنُه غَرْسِيَهْ ، واسْتَمْلَكَتْ[1] له إمارةُ بنبلونة(٦٨) .

وفيها فى أيام ولاية عبيد الله بن يحيى للثغر قام بناحيته رجلٌ من المعلِّمين ، فادَّعى النُّبُوَّة ، وألحَد فى القرآن ، فأحاله عن وجوهه ، وأوَّله على غير تأويله ، وقام معه خلقٌ كثير . وكان ينهى عن قصِّ الشارب والأظفار ، ويقول « لاتغيير لخَلْقِ الله » ، فأرسل عبيد الله مَنْ جاء به ، فلما دخل عليه وكاشفه كان أوَّلَ ما ابتدَأَهُ به أن دعاه إلى اتِّباعه ، فاستشار فيه عُبَيْدُ الله أهل العلم عنده ، فأشاروا باستتابته ثلاثة أيام ، فإن تاب وإلا قتل ، ففعل به ذلك ، فلم يَتُبْ ، فأسْلَمَهُ للقتل صَلْباً ، فجعل يقول : « أتَقْتُلُون رَجُلاً أن يقول ربِّىَ الله » ؟ فأمضى عبيد الله قَتْلَهُ بالفتوى ، وكتب إلى الأمير بأمره ، فأحْمَدَ فِعْلَه(٦٩) .

وفيها ٱبْتُدِئَ بعذاب عَبَّاس الطَّلَبىِّ وأخيه ، ووليد بن أبى لُحْمَة فى استخراج الأموال التى غَلُّوها بدفاع نصر الخصىِّ عنهم ، إذا كانوا صنائعه وبِطانَتَه ، فلَجُّوا[2] بالمال ، وشُدَّ عليهم العقاب .

وفيها أيضا قُبِضَ على مَسَرَّة الخصى الفتى الكبير وعباس أخيه ، فسجنا ، وذلك فى صفر منها ، وصُيِّرَ مكان مسرة قاسِمُ الخصِىُّ الصَّقْلَبِىُّ[3] ، وذُكِرَ أنه وُجِدَ لمسرة ثمانية آلاف دينار دراهم[4] .

وفيها عَزَلَ الأميرُ عبدُ الرحمن محمدَ بْنَ زياد عن القضاء بقرطبة وولَّى مكانَهُ سعيد[5] ابن سليان بن حبيب الغافِقِى مجموعاً له إلى الصلاة ، وذلك فى ربيع الآخر منها ، فكان آخر قضاة الأمير عبد الرحمن .

---

(1) ص : واستفلكت ، وهكذا قرأها ليفى بروفنسال ، ونظن أن الصواب ما أثبتناه .
(2) ص : فلعوا .
(3) يحتمل أيضا ان تكون « الصقلى » .
(4) ص : درهم .
(5) ص : محمد ، وهو خطأ من الناسخ صوابه ما أثبتنا .

سنة ثمان وثلاثين ومائتين

وفيها تُوُفِّى الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك/ بن مروان ليلة الخميس لثلاث خَلَوْنَ من ربيع الآخر من هذه السنة ، فدُفِنَ يوم الخميس فى تُرْبَة الخُلَفَاء(٧١) بقصر قرطبة . وأدلاه فى قبره أخَوَاه المغيرةُ وأميةُ(٧٢) ، وصلّى عليه ابنه الخليفة محمد بن عبد الرحمن .

مولده بُطلَيْطُلَه فى شعبان سنة ست وسبعين ومائة ، وأبوه الحكم يومئذ واليها لوالده[1] الأمير هشام ، فكانت سنة اثنتين وستين سنة . وكانت خلافته إحدى[2] وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وستة أيام .

وقال الحسن بن محمد بن مُفَرِّج :

قال ابن عبد البر(٧٣) : توفى الأمير عبد الرحمن ليلة الخميس لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائتين .

وقيل : بل هى لثلاث خلون منه ، فكانت خلافته إحدى وثلاثين سنة وثمانية وعشرين يوما . وقيل : بل خمسة أشهر وقيل : ثلاثة أشهر وأربعة أيام . وقيل : ستة أيام .

فدفن يوم الخميس من غد لَيْلَةِ موته فى روضة الخلفاءِ سَلَفِهِ بقصر قرطبة ، وصلّى عليه ابنه الأمير محمد بن عبد الرحمن الوالى مكانه . وكانت سنة اثنتين وستين سنة . ومولده بطليطلة من الثَّغرِ الأدْنَى أيامَ كان والده الحكم بن هشام والياً عليها لجدِّه هشام ، وذلك فى شعبان سنة ست وسبعين ومائة .

قال الفقيه محمد بن وَضّاح(٧٤) :

احْتَجَب الأمير عبد الرحمن بن الحكم عن الناس قبل موته مُدَّةً من ثلاثة أعوام أو نحوها من أجل عِلَّة أصابته طالت به واشتدت عليه ، فَحَمَتْهُ الحركة ، وهَدَّتْ قوته ،

---

(1) هذا اللفظ مكرر فى الأصل . (2) ص : أحد .

وأحدثت عليه رقّةً فى[1] نفسه ، ووَحْشَةً فى خاطره ، وشدةَ أَسَفٍ على ما نُغّصَ عليه من عَصَارة ملكه .

فذُكِرَ أنه قال يوما لأكابر خَدَمَتِهِ الخاصة ، وقد حَفُّوه فى مرضه ، وفيهم سَعْدُون زعيمهُم الذى اختصّه بعد مهلك حَظِيِّه نَصْر ومن يليه :

– يابَنِيَّ ! – وبذلك كان يخاطبهم مُستَلْطِفاً لهم ومُرْفِقاً بهم – لقد اشْتَقْتُ أن أعايِنَ ضَوْءَ الدنيا وفُسْحَةَ الأرض ، إذ قد حُمِيتُ عن الخروج إليها ، فَلَعَلِّنى أعْلُو مرقبةً يسافر بصرى فيها ، فأتسلّى بالنظر إلى بسيطها ، وجِسْمِى مُنَزَّع ، فَهَلْ سبيلٌ إلى ذلك ؟

فقالوا له : نعم يا مولانا .

وابتدر أكابرهم إنفاذَ أمره ، فأخذوا سرير خَيْزُرَانٍ لطيفاً ، وثيقَ الصَّنْعَةِ من أسِرَّةِ الخلافة ، ووضعوا فوقه فراشاً خفيفاً وثيراً حَشْوُهُ الريشُ ، أجلسوه فوقه ، واحتملوه على أعناقهم ، فصَعِدُوا به إلى العِلِّيَّةِ على هيئته التى كانت من بنيان الأمير على باب الجنَان(٧٥) من أبواب القصر القِبْلِيَّة ، ثم هبطوا كذلك ، فعانَوْا ذلك مرات يسوقون به[2] الأمير فى تعاريج دَرَجِه الدائرة ، حتى استوى لهم ذلك كما أرادوه ، وأَمِنُوا على الأمير المشقة فيه .

فوَضَعُوا الأمير عبد الرحمن عند ذلك فوق ذلك الفراش ، وشَدُّوه من جهاته ، واسْتَوْثَقُوا من اضطرابه ، وصَعِدُوا به هَوْناً ؛ حتى صَيَّرُوه بأعلى تلك العِلِّيَّة ، فأجلسوه صَدْرَها ، وأَدْنَوْهُ إلى البابِ الأوسطِ منها ، فأشرف على صحراء الرَّبَضِ قُدَّامَ باب القَصْر ؛/ [١٩٤ ا]
وسَرَّحَ[3] بَصَرَهُ فيها ، ورآها إلى كُدَى القَنْبَانِيَة(٧٦) ، ونظر إلى النهر أمامه ، والسُّفُنُ تجرى فيه صاعدةً ونازِلَةً .

فاسْتَرْوَحَتْ نفسُه ، وانشرح صَدْرُه ، وشَكَرَ لخَدَمِهِ ما تجشّموه من إدنائِهِ من مَسَرَّتِهِ وقال لهم :

(1) هذا اللفظ مكرر فى الأصل .
(2) كلمة غير واضحة فى الأصل ، وربما كانت « فراش » ، أو شيئا بمعنى « واحداً منهم مكان » .
(3) ص : وشرح .

ـ ياأولادى ! اجلسوا الآن حولى ، وأنِّسونى بكلامكُمْ ، ومَتِّعُونى بأحاديثكم ، ولاتنقبضوا عَنِّى بشىءٍ مما تتحدَّثون به بينكم إذا انفردتم ، كيما أشتغلَ بذلك عَمَّا أقاسِيه من علَّتى .

ففعلوا ، وأنِسَ هو بذلك وانبسط ، وقَطَعَ أكثرَ نهاره فى تلك العِلَّة . ودنا المساءُ ، فدَعَوْهُ إلى النزول إلى مجلسه ، فَبَيْنَاهُ يتهيأُ لذلك ، إذ وقعت عينُه فى الصحراءُ قُدَّامَه على قطيعِ شاءٍ وهى ترعى فى مُنْحَدَرِها ، ولم يُرَ معها راعٍ يسوقها ، فقال لهم :

ـ يا أولادى ! ما بالُ هذه الغنم مهملةً ولاراعِيَ لها ؟ فتأملوا فقالوا :

ـ يا مولانا هاكَ راعيها قاعدٌ إلى جانبها مستريحٌ فى فَيْءِ جِنان طَروب تجاهه ، يَتَمَلَّى[1] فى انحدارها .

فقال :

ـ لعاً[2] ! .

ثم أثبت بصره فى تلك الغنم ، فتنفَّس الصُّعَدَاءَ ، وأرسل عبرته يبكى[3] حتى أخْضَلَ لحيته ، وقال :

ـ ودِدْت والله أن أكون مكان ذلك الراعى ولا أنشِبَ فيما نشبت من الدنيا ولاأتقلَّد من أمور الناس ما تقلدت !

ثم استغفر الله كثيراً ودعاه . ونزلوا به إلى مهاده ، فلم تَطُلْ فيما بعد نهاره هذا حياته .

وذكر أحمد بن الأمير محمد بن عبد الرحمن(٧٧) قال :

اعتل جَدِّى الأمير عبد الرحمن علَّتَه التى توفى فيها ، فطاوَلَتْهُ ونَهَكَتْه ، وماطلته مدة : تارة تخفُّ عنه ، وتارة تُثْقِلُه[4] ، فيركس ويضعُف ، وينيبوا العلاجُ عنه على اجتهاد أطبَّائه فى التماسِ شفائه ، فنعى[5] عليهم وقتُ سقامِه . فلما كان قبل وفاته بأربعة أيام أو نحوها انْحَط مرضه ، وتحركت له قوة[6] خال بها أنهُ مبِلٌّ من ضناه ، فأمر بأن

---

(1) كلمة مطموسة فى الأصل تحتمل أن تكون « يتأمل » أو ما أثبتناه ومعناها يتمتع بالنظر إليها .

(2) ص : له ، والتصويب فى الحاشية ، ولعا دعاء له بأن يستقل من عثرته .

(3) ص : تبكى . (4) ص : لقلة .

(5) كذا ، وقد تكون « فعمى » أى خفى عليهم وغمض .

(6) ص : قسوته .

يصلح له الحَمَّام ، ويُعَدِّل مِزاجُه ، فاختَمّ فيه ، وأجَدّ خِضابَه ، وكان يُواليه ويُجْمِلُ به ، وحَدَّثَته نفسه بالركوب مع عياله طلبَ النزهة ، وهو يـأمل الإنظار ، والموت أدنى إليه من وريده .

فلما عزم على إتيان ماسَوَّلَتْ له نفسُه من ذلك دعا حاجِبَه عيسى بن شُهَيْد(٧٨) ، وكان خفيفاً على قلبِه ، فأوْصَلَهُ إلى نفسه صبيحةَ اليوم الذى قضى نَحْبَه فى آخره ، فَبَشَّرَهُ بتخفيف مرضه وانبعاث نشاطه ، وقال له :

– كيف ترى خِضابَنَا يا عيسى ؟

[فقال له][1] :

– أصلح الله الأميرَ سَيِّدى ! أحْسَنُ خضابٍ رأيتُ قطّ ، وأدَلُّهُ على انتعاش سيدى واقتيامِه[2] البقاء بخلوص القمر من انكسافه بفضل الله عليه وعلى رعيته .

فسرّه قولُه وقال له :

– إنَّ بعض كرائمنا سألْنَنَا تجديد العهد لديهنّ بالركوبِ مَعَهُنّ للنُّزْهَة على مقتضى[3] العادة ، فاخرُجْ من فورك ، فانظر فى إقامة مايُحْتَاجُ إليه لنزهتنا على أتمّ رسومها[4] ، واعجَلْ بذلك ، فإنّا متحرّكون صبيحةَ غدٍ[5] بحول الله .

فمضى عيسى لشأنه ، وقال الأمير للّراشدة(٧٩) القائمة على رأسه :

– أدْخُلى إلى خَزّانة الكسوة ، فَمُرِيها أن تَتَخَيّر لنا مِمّا عندنا من الوَشْى رداءً يُوسُفِيًّا من أفخر نَوْعِه ، فجيئينا به .

فمضت الرّاشِدَةُ وجاءته برداء يوسفىٍّ مُعَمّرٍ ، لم تر العيونُ آنَقَ منه/، فأمَرَ بَعْضَ [١٩٤ب]

---

(1) زيادة يقتضيها السياق .
(2) كذا ، وقد تكون « واعتيامه » أى اختياره وإيثاره .
(3) ص : معى . .
(4) ص : رسوخها .
(5) ص : غـدا .

أكابر الخدم أن تُخرجَهُ إلى عَريف الخيّاطين(٨٠) بالقصر ، فليقْطَعْهُ ثوْباً للَبُوسه ، ويَتّخذَ منه قَلَنْسُوَةً لحاجبه عيسى كيما يلبساه جميعاً لركوبهما صبيحةَ غدهما ، ويَجْمَعَ الصُّنّاعَ على إتمامِهما لِلَبُوسِهما ، فعاد إليه الخادم بجوابِ عَريف الخَيّاطين ، فَذَكَرَ أن خياطة الجلْد لاتُمْكِنُهُمْ فى مثلِ الوقتِ الذى حَدَّهُ ، لدِقّةِ صَنْعَةِ الثوب والأَنَاةِ لنَقْشِه ، وتعذُّر جَمْع[1] الأَيدى عَلَيْه ، فضلاً عن عَمَلِ القَلَنْسُوَةِ التى يَسْتَأنِفُ تَجْسيدَها لحاجبه من فَضْلِ الثوب ، ولابُدَّ من الاسْتِينَاء بها .

فشَقَّ ذلك على الأَمير وكَسَرَ منه حتى ثَنَاهُ حاجِبُه عيسى عن ذلك بلُطْفِه ، وهَوَّن عليه الخطْبَ ، وقال له .

- فى الذى تحويه خزانة الأَمير من الثِّيابِ ورفيع القلانس ما فيه مندوحَةٌ عن اسْتِكْدَادِ هذا الثوبِ الّذى لايؤمَنُ الخَطَأُ فى حَثِّه ، ولن يفوتَهُ نَيْلُ ما قام فى خاطره منه ، لأَقربِ مَدَاه[2] بحولِ الله ، وتجاوَزَهُ بالإِبلاء إلى ما سواهُ ، كما أنَّ عندى من جليل[3] خِلَعِهِ ورفيع قلانِسِهِ ما أَسُرُّه بالتَّجَمُّلِ به فى خدمته . فلْيَضَعْ عن نفسِهِ العزيزة كُلْفَةَ هذا فى مثل هذا الوقتِ الضَّيِّق ، ولْيَنْفُذْ عَزْمُهُ فى تفريج نفسِهِ بنُزْهَتِه .

فوُضِعَ ذلك الرِّداءُ على كُرْسِيٍّ فى المجلس[4] ... الإضراب عنه ، والعمل على الحركة صبيحة غد . فنظر عيسى فيما أمره به ، وهيَّأَه على رُسُومِه ، وانقضى نهارهم ، فما هو إلا[5] أن صلَّى الأَمير المغربَ ، فانتكثت مريرته ، وثارت عِلَّتُهُ ، وحَضَرَهُ حِمامه ، فتهوَّع ، ودَعَا بالطَّسْتِ ، فقاءَ دماً عَبِيطاً ، وعاوَدَ ذلك مِراراً ، فلم يُقْلِعْ عنه وَجَعُه حتى لَفِظَ نَفَسَه ، وقضى نَحْبَه . وقعد الأَمير محمدٌ من ليلته مكانَهُ ، فَتَنَظَّرَ إلى ذلك الثوب المَوْشِيِّ المُرَجَّى قطعُه موضوعاً على الكرسيِّ ، فَعُرِّفَ شأْنَهُ مع والِدِه مساءَ ليلتِه ، فعَجِبَ وقال :

---

(1) ص : جميع .

(2) بعدها فى الأصل كلمة « الله » ، ولفظ الجلالة هنا زائد لا موضع له .

(3) « من جليل » مكررة فى الأصل .

(4) يبدو أن شيئا سقط هنا مؤداه : « « وعزم على الإضراب عنه . . . الخ » .

(5) ص : إلى .

ـ لِيصِرْ كَفَنَ الأَمير نَضَّرَ اللهُ وَجْهَه !

فعُمِلَ ذلك به وأصبح حديثه موعِظَةً لمن سَمع به .

صفة الأمير عبد الرحمن

عن أحمد بن محمد الرازى(٨١) :

كان أَشَمَّ أقْنَى أعْيَنَ أسود العينين ، طُوَالٌ فخمٌ ، مُسْبلٌ ، عظيمُ اللحية ، يَخْضِبُ بالحِنَّاء .

نَقْشُ خاتمه : « عبد الرحمن بقضاء الله راضٍ » . وهو أول من استنقشه(٨٢) ، وقد مضى خبره .

تسمية ذكور أولاده

وهم فى عدد الرازى أربعون(٨٣) .

أولهم الأمير محمد الوالى بعده ، أبو العاصى الحكم الاشتياق[1](٨٤) ، أبو أيُّوب سليمان ، أبو القاسم المطرِّف(٨٥) ، أبو الحكم المنذر(٨٦) ، أبو الوليد هشام(٨٧) ، أبو بكر يحيى ، أبوعبد الملك مروان ، أبو عثمان ، (٨٨) ، أبو سعيد مسلمة ، أمية ، عبد الملك ، الأصبغ ، أبو مروان عبيدالله ، [أبو] معاوية سعيد (٨٩) ، أبو العاصى بكر أبو الأصبغ عبد العزيز ، أبو أمية العاصى ، أبو محمد عبد الله(٩٠) ، أبو حفص عمر ، الأعرج طريف ، أبو العباس الوليد ، أبو العاصى عبد الجبار ، أبو عبد الله أحمد ، أبـ[2] (٩١) ، أبو القاسم العباس ، أبو محمد موسى ، القاسم ، أبو القاسم اسماعيل ، أبو خالد يزيد ، أبو الوليد / [١٩٥ ا] إسحاق ، والغَمْرُ شقيقه ، أبو القاسم عبد الواحد ، أبو اسحاق ابراهيم ، أبو القاسم عمرو ، يعقوب ، أبو عبد الملك المغيرة ، أبو الأصبغ عثمان ، الغَرِيض(٩٢) .

وفى كتاب معاوية بن هشام الشبينسى(٩٣) قال :

---

(1) كذا ، ولعل « الاشتياق » لقب نبز به .

(2) بقية هذه الكلمة مطموسة ، ونرجح أنها « أبان » إذ أن هذا هو اسم واحد من أبناء عبد الرحمن بن الحكم نص عليه ابن الأبار فى « الحلة السيراء » ، بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ، نشر الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٣ ١ / ١٢٦ ، ٢ / ٣٦٦ . ولم يذكر أبان المشار إليه هنا ، ولعله هو الذى بقى الحرفان الأولان من اسمه .

من نُبَهَاءِ وَلَد الأمير عبد الرحمن أبو قُصَيٍّ يعقوبُ ، وكان أديبا شاعراً كَلِفاً بالعلوم جامعا للآداب مطبوعاً فى الشعر ، وكان جواداً لايُلِيقُ شيئاً ، ويسرف حتى يُخِلَّ بنفسه . وأخباره كثيرة .

قال حيّان :

وصفه بالشعر ، ثم لم يُنْشِدْ له منه ما يَصْدُقُ وَصْفَه ، بل أنشد ثلاثة أبيات من قصيدة مدح بها ابن أخيه العاصى بن الأمير محمد بن عبد الرحمن(٩٤) ليست بطائل ، والأبيات : [من الوافر]

يُنَادِى ماجِداً مِنْ عَبْـدِ شَمْسٍ كريمَ الفَرْعِ مِفْضَالَ اليَدَيْنِ
سَمَا للمكرُمَاتِ فقد حـواها بهنـدِىٍّ وخَطَّـارٍ رُدَيْنِى
وغيثاً حين يَسْكُبُ لا الثُّرَيَّا به حاذَتْ ولا نَـوْءُ البُطَيْنِ

اضطرته القافية إلى أن قَرَنَ بين أغزر الأَنْوَاء وأَنْزَرِهَا ، فأَحالَ جدا(٩٥).

والإناث فى عدد الرازى ثلاث وأربعون ، وهن :

أسماء ، وعاتِكة ، وعائشة الغالبُ عليها عَيْشُونَة ، أم الأصبغ ، وأم هشام ، وفاطمة الغالب عليها فُطَيْمَة ، وعَبْدَة ، وعبدة أخرى ، وأَمَة العزيز ، وأم كلثوم ، وأم عمرو ، زينب ، وأم هشام ، وعُبَيْدَة ، وناشدة ، وقسيمة ، عتيكة ، وكَنْزَة ، وعزيزة ، وأم حكيم كلهن[1](٩٦) ، ومَيَّة ، ولاّدة ، وأُمُّ أبين ، ولادة ، أمة الوهاب ، ظَبْىٌ[2] ، وأمة الرحيم ، رقية ، أم عثمان ، أم موسى ، وأمة الرحمن ، رَحيمة ، هُشَيْمَة ، أمة الرحيم(٩٧) ، أمة الملك ، والسيدة بُرَيْهَة ، تَمْلَال ، والمنى ، حكيمة ، أم سلمة ، آمنة ، والسيدة عُلَيَّة(٩٨) .

وزاد فى عددهن معاوية بن هشام الشبينسى نسّابة أهل البيت بنتين : أمية[3] ، ومهاة ، فَرَقَّى عددهن خمسا وأربعين بنتا .

---

(1) كذا فى الأصل ، وانظر ما كتبناه فى تحقيق هذه الكلمة .
(2) ص : لظبى .
(3) كذا وربما كانت أمينة أو آمنة .

حجاب الأمير عبد الرحمن

قال الرازى :

ألفى الأمير عبد الرحمن على حِجابة والده الأمير الحكم عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث(٩٩) أكْمَلَ من حَمَلَ هذا الاسم وأجْمَعَهُمْ لكُلِّ جمله [1] حسنة ، فأقَرَّه[2] عليها إلى أن توفى عبد الكريم حميداً فقيداً ، فولّى بعده حجابتَه سُفيانَ بن عَبْدِ رَبِّه ، وبعد سفيان عيسى بن شُهَيْد ، ثم عزله بعبدِ الرحمنِ بن رُسْتُمْ ، ثم عَزَلَ عبد الرحمن بن رستم ، فأعاد عيسى بن شهيد إلى حجابته ، فتولاها له إلى أن هلك عبد الرحمن لسبيله .

سفيان بن عبد ربه(١٠٠)

وافق الرازىَّ فيما ذكره من أسماء هؤلاء الحُجَّاب الحَسَنُ بن محمد بن مُفَرِّج فى كتابه ، وذكر سفيانَ بن عبد ربه فقال :

كان من أكابر رجال أهل الخدمة الكفاة المستقلِّين بأعبائها مِمَّنْ جمع إلى الغنَاء والكفاية العفَّةَ[3] والأمانة ، قد تولَّى خدمة الخزانة الكبرى(١٠١)أيام الأمير الحكم ، وهو أول من اسْتُخْزِنَ بالأندلس ، وحَمَلَ[4] هذا الاسم الذى اعتور من عمل عمله إلى اليوم ، شركه فى ذلك مَرْتيل المعروف بابن عَفَّان(١٠٢)جَدُّ هؤلاء الباقين اليوم إلى جانب باب القصر الأكبر المدعُوِّ بابَ السُّدَّة(١٠٣)/ولم يزل يَتَنَقَّلُ فى مراتب الخدمة إلى أن نال الحجابة [١٩٥ب]
ومن ولده الأديب أبو الأسود . وكان ذا وجاهة عند الناس ، حَدِثاً[5] مؤنس الجليس ممتعا ، تُوُفِّى فى أيام الخليفة الناصر لدين الله رحمه الله تعالى .

---

(1) كذا فى الأصل ، وهى تحتمل وجها من التأويل ، وربما كانت « خصلة » .
(2) ص : فأثره .
(3) ص : والعفة .
(4) ص : وجعل .
(5) ص : حدثا ، ومعنى الحدث الذى يجيد الكلام فى المجالس.

عيسى بن شُهَيْد(١٠٤)

مولى معاوية بن مروان بن الحكم .

قال :

كان عيسى هذا منقطعاً إلى الأمير عبد الرحمن بعهد والده الأمير الحكم مُؤَمِّلا له ، فلما أفضى الأمر إليه أزلفه به ، وقدّمه فى عِلْيَة خاصته ، وصرفه فى عَلِيٍّ مراتبها ، فولاه خُطَّةَ الخَيْلِ(١٠٥)، ثم اسْتَوْزَرَهُ ، وولاه النظر فى المظالم(١٠٦)وتنفيذ الأحكام على طبقات أهل المملكة ، ثم استحجبه مكان سفيان بن عبد ربه ، واسْتَخَصَّهُ دون أصحابه ، وكان أهلاً لإيثاره ، إذ كان من أعيان رجال الموالى فى الدولة ، وهم متوافرون ، ومن أشهرهم بالحلم والوقار والحصافة والعلم[1] والمعرفة والحزم والجزالة . وقد قاد بالصوائف(١٠٧)، فأُحْمِدَتْ سياسته ، وكانت له فى التدبير آراء صائبة ، وفى الحروب مَقَاوِمُ كريمة ، وتهيّأت له على العَدُوّ وقائع مثخِنَةٌ .

وكان نصر الخصِيُّ خليفة الأمير عبد الرحمن الغَالِبُ عليه من بين سائر أكابِرِ خَدَمِه ـ المظاهِرُ لحظتيه طروب الغالبة عليه من بين نسائه ـ قد اشتمل على قصر الأمير عبد الرحمن ومن فيه ، وشَرِكَ فى تدبير سلطانِهِ وهو شاحِنٌ لحاجبه عيسى عامِلٌ فى إقصائه ، فتسنّى له ذلك عندما اعتلَّ الأمير علته الطويلة التى حجبه فيها نصر ، وأنفذ عليه أموراً منكرة ، منها صَرْفُهُ لعيسى . هذا عن الحجابة ، وذلك بأن أخرج الأمْرَ عن مولاه بِصَرْفِ عيسى عن الحِجابة(١٠٨)وإقراره على خُطَّة الوزارة ، وتقليد عبد الرحمن بن رستم(١٠٩)الحجابَةَ مكانَهُ .

فجرى الأمر بذلك إلى أن استقلَّ الأميرُ عبد الرحمن من عِلّته ، وقعد لأهلِ خِطَطِهِ[2] ، فدخلوا عليه يَقْدُمُهُمْ الوزراءُ ، وعيسى فى عُرْضِهِمْ ، فتقدّم عبد الرحمن بن رستم جماعَتَهُمْ فى التسليمِ على الأمير ، ثم قعد فوق ابن شهيد ، فاستنكر الأميرُ ذلك ، فلما استقرَّ بهم

---

(1) ص : والحلم .

(2) موضع هذا اللفظ متآكل فى الأصل ، ولعله كما أثبتنا ، وهو يحتمل أيضا أن يكون « مملكته » .

المجلس قال لعيسى بن شهيد فما يخاطبه به : ما شأن كذا ؟ - لأمرٍ سأله عنه - ، فقال له : يامولاى ، لست بحاجب ، وهذا هو الحاجب . وأشار إلى ابن رستم . فَعَلَتِ الأميرَ عبد الرحمن كَبْرَةٌ ، وعرف من حيث أُتِي [1] ، فكظم غيظَهُ واصطبر .

فلما خرج الوزراء دعا بنصر ، فسأله عن عزل ابن شهيد ، وولاية ابن رستم ، فلم يُمْكِنْهُ إنكارُه ، وادَّعَى أن وصيَّةً خَرَجَتْ إليه من لَدُنْهُ صَدْرَ عِلَّتِه ، فكذَّبَهُ الأمير ، وعَلِمَ أنها من تحامُلِهِ وجَسَرَاتِه ، فَسَبَّه وأَغْلَظَ له ، وهَمَّ به ، ثم عفا عنه ، وأعاد عيسى بن شهيد[2] إلى الحجابة ، وعَزَلَ عنها عبد الرحمن بن رستم ، وتَرَكَهُ على الوزارة ، فلم يزل عيسى بن شهيد[2] حاجباً للأمير عبد الرحمن بن الحكم إلى أن توفى الأمير عبد الرحمن ، فأمضاه عليها محمد وَلَدُهُ الرَّاقِى بعده على الحجابة خمسة أعوام[3] إلى أن هلك عيسى صَدْر /دولة الأمير محمد سنة ثلاث وأربعين ومائتين ، وقد استكمل فى ولايته فى الدولتين عشرين سنة . [٩٦ ب]

وقال أبو بكر بن القُوطيَّة :

لما توفى الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد مُغِيث صَدْرَ دولةِ الأمير عبد الرحمن تنافَسَ الوزراء كلُّهُمْ فى خُطَّةِ الحجَابة بَعْدَه ، وكَدُّوا بالوسائل والشُّفَاعات حتى أَضْجَروه ، فأقسم أو اعتقد ألا يُوَلِّيَها واحداً منهم ، وعَطَّلَهَا مدَّة ، ثم صَيَّرَهَا إلى رجل[4] من أقادمِ صنائعه كان له اتصالٌ به قَبْلَ الخلافة أَحْظَاهُ[5] لَدَيْهِ اسمه سُفيان بن عبد رَبِّه ، أَصْلُه من بَرَابِرِ بَيَّانَةَ(١١٠) ، لم يكن له قِدَمٌ ، وكانت له يَقْظَةٌ ومعرفة ، فتولَّى حِجابَتَهُ أعواماً إلى أن مات ، فَوَلَّى عبده عبد الرحمن بن غانم(١١١) ، [ثم مات بن غانم][6] أيضا ، فصارت الحِجابة إلى عيسى بن شُهَيْدٍ ، ثم إلى عبد الرحمن بن رستم يداولُ الأمر بينهما ، إلى أن

---

(1) ص : أوتى . (2) ص : شهيب . (3) ص : أيام .
(4) ص : راجـل . (5) ص : أحضـاه .
(6) يبدو من السياق أن كلمات سقطت من الأصل فى هذا الموضع ، ولعلها ما أثبتنا بين الحاصرتين أو شئ فى هذا المعنى . ويؤكد لنا ذلك نص ابن القوطية فى تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٦٢ .

مات ابن رستم ، فاتصلت الحجابة لعيسى بن شهيد بَقِيَّةَ[1] أيام الأمير عبد الرحمن . فلما وَلِيَ ابنُه الأمير محمد أَقَرَّ ابْنَ شُهَيْد خمسة أعوام(١١٢)إلى أن تُوُفِّى سنة ثلاث وأربعين ومائتين .

وزراء الامير عبد الرحمن

قال أحمد بن محمد(١١٣) :

كان وزراء الأمير عبد الرحمن : العَبَّاس بن عبد الله القرشى(١١٤)؛ الوليد بن عبد الله القرشى(١١٥) ؛ عبيد الله بن يحيى بن خالد ؛ عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث الحاجب القائد الكاتب ، عبد الرؤوف بن عبد السَّلَام(١١٦)؛ عيسى بن شهيد الحاجب ؛ عبدالرحمن ابن رستم الحاجب ، محمد بن السليم(١١٧) ، وكانت له مع الوزارة خِطَطٌ يرتزق عليها فى كل شهر ثلاثمائة دينار ، محمد بن عبد السلام[2] بن بَسِيل(١١٨) ، وكانت تلك سبيلَه ؛ عبد الواحد بن يزيد الإسكندرانى(١١٩)، وكانت أرزاقه تنتهى إلى العدد المذكور ؛ عبدالعزيز ابن هاشم بن خالد(١٢٠)، وكانت أرزاقه أيضا عظيمة ، عبد الرحمن بن عبد الحميد بن عبد الحميد بن غانم ، محمد بن كُلَيْب بن ثعلبة ، وكان قبل وزارته على الشرطة ؛ يوسف ابن بُخْت(١٢١)، عبد الله بن أمية بن يزيد(١٢٢)؛ حسن بن عبد الغافر بن أبى عَبْدَة(١٢٣) .

قال ابن القُوطِيَّة :

والأمير عبد الرحمن أَوَّلُ من أَلْزَمَ هؤلاء الوزراء الاختلافَ إلى القصر كُلَّ يوم ، والتكلُّمَ معهم فى الرأى ، والمشورةَ لهم فى النَّوَازِل ، وأفردهم ببيتٍ رفيعٍ داخِلَ قَصْرِه مخصوصٍ بهم يقصدُونَ إليه ويجلسونَ فيه فوق أرائكَ قد نُضِدَتْ لهم ، يستدعيهم إذا شاء إلى مجلسه جماعَةً وأشتاتاً ، يخوضُ معهم فيما يُطالَعُ به من أمور مملكته ، ويفحص معهم الرأى فيما [١٩٦ب] يُبْرِمُه/من أحكامه . وإذا قعدوا فى بيتهم أخرج رِقَاعَهُ ورسائله إليهم بأمره ونَهْيه فينظرون فيما يصْدُرُ إليهم من عَزَائِمه . جرى على [ذلك][3] من تلاهم إلى اليوم(١٢٤) .

---

(1) بعدها كلمة الأمير ، وهى زائدة مقحمة بلاشك

(2) ص: محمد بن السليم بن بسيل ، ويبدو ذلك سهوا من الناسخ، وإنما الصواب ماأثبتنا . وقد ذكر ابن الأبار محمد بن عبدالسلام بن بسيل هذا فى «الحلة السيراء» وترجم له ونص على أنه ولى الوزارة لعبدالرحمن الأوسط (٢/٣٧١-٣٧٢)

(3) زيادة يقتضيها السياق .

قال ابن مُفَرِّج :

وكان قد اجتمع للأمير عبد الرحمن من سَرَاةِ الوزراء أُولي الحلوم والنُّهى والمعرفة والذكاء عصابَةٌ لم يجتمعْ مثلُها عند أحدٍ من الخُلَفَاءِ قَبْلَهُمْ ولا بَعْدَهُمْ . وسَمَّاهُمْ حَسْبَمَا تَقَدَّمَ ، فزادَ فيهم ابن [مُفَرِّج][1] عبدَ العزيز بن هاشم الملقب سُعَاد(١٢٥) من غير تسمية ابن شهيد .

قال أبو بكر :

لم يختلف أحد من شيوخ الأندلس فى أنه ما خدم ملوكَ بنى أمية فيها أحدٌ أكرمُ من عيسى بن شُهَيْدٍ غايَةً ، ولا أكرمُ اصْطِناعاً ، ولا أرْعَى لِذِمَّة . ولقد كان الحاجبُ قَبْلَهُ عبدُ الكريم بن عبد الواحد بن مُغيث بهذه الصِّفَة ، على زيادة خصالِهِ وأَدَوَاتِهِ على عيسى إلا فى باب كَرَمِ الصنيعة واستِتْمَامِها ، فلم يَكُ يَفْضُلُه درجة ، بل كان عبد الكريم يُقَصِّرُ عن عيسى فى باب قَبُولِ الهديَّة وتَجْوِيزِ المكافأة على قضاءِ الحاجة ، فإنه كان يَقْبَلُ ذلك ولا يأبَاهُ ، وكان عيسى على الضِّدِّ منه فى هذا الباب : لايقبل شيئاً منه ألبتَّة ، وكان يَهْجُرُ من عَرَضَهُ إليه ، ولا يرضى فيمن يتقلَّدَهُ من صنائعه ويشمَلُهُ[2] بنعمته إلا بِغَايَةِ التَّشريفِ والإنْهَاض ، والتَّخْوِيل والإمْدادِ .

/ فمن مَشْهُور ذلك فِعْلُه فى عبد الواحد بن يزيد الإسكندرانى ، فإنه قَدِمَ إلى الأندلس [١١٩٧] وهو فتًى مُتَأَدِّبٌ ظريف ، كان يَشْدُو شيئاً من الغناء على مذاهب الفِتْيَانِ ، فاعْتَلَقَ بحَبْل ابن شُهَيْدٍ وهو صاحب الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، فبَلَا منه فضلًا وحِجىً .

فقال له : أمْسِكْ عن الغناء الْبَتَّةَ ، فإنه يَرِيبُكَ لَدَيْنَا ، وتحقَّقْ بأَدَبِك ، وتَنَبَّهْ لحَظِّك ، فلَكَ خصَالٌ تجذِبُ بِضَبْعِكَ !

ففعل عبد الواحد ذلك ، ولزم عيسى ، فألْقَى ذكرَهُ إلى الأمير عبد الرحمن ، وأوْصَلَهُ إليه ، فأصابه على ما وصفه له عيسى ، فقَبِلَتْهُ نفسُه ، وحرَّكَهُ عنده حَظُّه ، فأدْنَى

---

(1) زيادة يقتضيها السياق . (2) ص : ينسله .

منزلَتَهُ ، ومكَّنَ خُصُوصِيَّتَهُ ، حتى نادَمَهُ وأَنِسَ به ، ثم استخْدَمَهُ ونقَّلَهُ فى[1] منازل الخدمة حتى خَوَّلَهُ[2] المدينة(١٢٦) ، ثم رَقَّاهُ إلى الوزارة والقيادة(١٢٧) .

كُتَّاب الأمير عبد الرحمن

كتب له الحاجبُ عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، مع ما كان إليه من الحجابة والقيادة ،

وعبدُ الله بن محمد بن أُمَيَّةَ بن يزيد بن أَبي حَوْثَرَةَ مولى مُعَاوية بن يزيد بن عبد الملك ابن مروان ، بَيْتُ الكتابَةِ لبنى مروان بالأندلس ، تَنَاسَقَ بعبد الله هذا ثلاثةٌ منهم ما بَيْنَهُ وبين جَدِّهِ أُمَيَّةَ بن يزيدَ كاتبِ الأميرِ الدَّاخلِ عبدِ الرحمنِ بن مُعاوية . وكان مَهْلَكُ جَدِّه أميةَ سنة أربعٍ وخمسين ومائة ، ومَهْلَكُ [أبيه محمدٍ سنة[3]] ست وعشرين ومائتين ، ومهلك عبدِ الله [هذا المذكور سنة مائتين[3]و] ت وأربعين(١٢٨). [وكانوا أَهْلَ][3] بيت نجابَةٍ[4] ...

ب] [وكتب له أيضا محمد بن سعيد الزَّجَّالىُّ ، مؤسِّس بيتٍ من][5]/ بيوت الشَّرَفِ بقرطُبَةَ من غير قِدَمٍ فى الدولة ، ومُحَمَّدُ بن موسى بن محمد(١٢٩) ؛ وكان يخاطِبُ عنه فى بعض الأوقات كُلَيْبُ الكاتب(١٣٠) من غير أن يرتسم بالخِطَّة .

---

(1) ص : من .

(2) ص : مد له ، وربما كانت تحريفا لما أثبتنا ، وقد تكون « ولاه » ، وهكذا وردت فى تاريخ ابن القوطية ص ٧٥ .

(3) زيادة يقتضيها السياق .

(4) يأتى بعد هذا اللفظ قطع ذهبت فيه بقية ما كتب فى الورقة ، وهو قطع سيتكرر بعد ذلك فى جميع أوراق المخطوط حتى نهايته .

(5) زيادة يقتضيها إكمال النص ، وسنعمل على إضافة هذه الزيادات فى مواضع قطوع النص بطراز مختلف من الحروف إعانة للقارئ على متابعة السياق بقدر ما أدى إليه اجتهادنا ، وذلك حرصا على ألا يبدو النص مقطعا خاليا من الترابط على أن هذا لم يكن مجرد اجتهاد ، وإنما استعنا دائما باستخلاص أقصى ما استطعنا من بقايا الكلمات والحروف . ولم نملأ الفراغات إلا بما تحققناه مستعينين إما بسياق الكتاب نفسه أو بالمراجع الأخرى التى تعين على استيفاء نصوصه ، ولاسيما ما نعرف منها يقينا أن أصحابها اعتمدوا على ابن حيان أو نقلوا عنه ، أو بالمراجع التى وصلت إلينا مما نعرف أن ابن حيان نقل عنها . أما ما لم تعنا عليه المصادر الأخرى فقد تركناه بياضا أو أثبتنا فى الحواشى ما بدا لنا فى أمر استكماله .

خَبَرُ الزَّجّـالِيِّ

قال أبو بكر محمد بن عمر بن القُوطِيَّة(١٣١) :

هو محمد بن سعيد بن أبي سليمان(١٣٢)، واسمه وَارَشْكِين ، من بنى يَطُّفْتَ من نَفْزَة(١٣٣)، وهو المعروف بحَمْدُون ، والملقب بـ«الأَصْمَعِيّ»(١٣٤) ، لُقِّبَ بذلك لذكائه وقوة حفظه ، وكان أول من اصطنعه فاستكتبه الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وكتب لابنه محمد بعده(١٣٥)، وأنجبت وِلادته لابنَيْهِ عبدِ الله وحامدِ ابنى[1] محمد بن سعيد ، فكانا كاتبَيْنِ نِحْرِيرَيْنِ ، كِلاهما كَتَبَ للسُّلْطَان ، خلا أن عَبْدَ الله منهما لم يَطُلْ أَمَدُهُ فى الكتابة ، وكتب نحو سِتَّةِ أشهرُ ، فأَعْجَلَتْهُ المنِيَّة .

وأما حامد أخوه فلَزِمَتْهُ الكتابةُ وشُهِرَ إلى أن مات سنة ثمان وستين ومائتين(١٣٦) .

وكتب منهم أيضا عبدُ الله بن محمدبن عبد الله بن محمد بن سعيد الزَّجَّالِيُّ [سنة][2] سبعٍ وثمانين ومائتين ، ثم إنه نالَتْهُ عِلَّةٌ عظيمةٌ مُدَّةً ، وتخفَّف ، فأعاده الأمير [عبدالله[2]] فى دولته إلى الكتابة مرارًا ، واتصلت كتابته من بعده صَدْرَ دولة حفيدِه عبدِالرحمن النَّاصِر لدينِ الله إلى أن هلك فى العسكر سنة ثِنْتَيْنِ وثلاثمائة(١٣٧) .

فَتَقَوَّضَتِ الكتابة عن بيت هؤلاءِ الزَّجَّالِيِّينَ مُدَّةً إلى أن عادَتْ عليهم بعبد الرحمن ابن عبد الله بن محمد الزجالِيِّ متقدما للناصر لدين الله فى مُهِمَّاتٍ سنة تسعوعشرين وثلاثمائة آخر دولة الناصر(١٣٨) ، ثم لم يَنْجُمْ فى بيتهم كاتِبٌ [بَعْدَه][3] إلى آخر الدولة(١٣٩) .

وقرأتُ ... ...:[4]

[١٩٨] ا / بالأدبِ أيَّامَ كانت سُوقُهُ نافقةً ، فارْتَقَى به إلى معرفة الخلفاء ، فبَنَى البيتَ المُنِيفَ ، ونالَ ذِرْوَةَ المنزلةِ الرفيعةِ ، وكانوا قِدمًا من عامَّة البُتْرِ من البَرَابِرِ ، أصولهم من ناحية

---

(1) فى الأصل : أبنـاء . (2) زيادة يقتضيها السياق .

(3) كلمة مطموسة فى الأصل ، ولعلها كما أثبتنا أو شئ فى معناها .

(4) يلى هذه الكلمة قطع فى الورقة يستمر حتى نهايتها ، ومن الواضح أن ابن حيان ينقل عن كتاب لبعض من سبقه من المؤرخين مثل الرازى أو ابن مفرج أو ابن القوطية ، والحديث كما يدل على ذلك أول الصفحة التالية عن مؤسس بيت هؤلاء الزجاليين محمد بن سعيد المذكور .

تَاكُرُونَّا(١٤٠) ، لم يُحْفَظْ لأَوَّلِهِمْ نباهَةٌ ، فَسَبقَ الأَميرُ عبدُ الرحمن بن الحكمِ إلى اصطناع جَدِّهِمْ محمد بن سعيد هذا ، وبَلَا منه فهمًا ومعرفَةً وصيانَةً وجزالةً استخدمه لها ، فَرَقَّاهُ فى منازلِ خِدْمَتِه ، واستكتبه واستخَصَّهُ ، فَسَمَا بَيْتُه[1] ، ولَحِقَ بأشراف الدولة .

[وقرأت فى كتاب القاضى][2] أبى الوليد ابن الفَرَضِىِّ(١٤١) المُؤَلِّفِ فى طَبَقَاتِ أهل الدولة والأدب بالأندلس ، قال :

هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن موسى بن عيسى الزَّجَّالِىُّ - هو فَخِذٌ من بُتْرِ البرابر بالأَنَدلُسِ - ، وكان يُلَقَّبُ بـ « الأَصْمَعِىِّ » لعنايته بالأدب وحفظِهِ لِلُّغَةِ ، وكان من أَقْوَمِ أهل زمانه بها ، وكان له حظٌّ وافرٌ من البلاغة ، ونصيبٌ حسن من صَوْغِ القريض ، ولم يكن لهؤلاء الزجاليين المُقْحَمِينَ فى بيوت الشَّرَفِ بقرطبة(١٤٢) قَبْلَ جَدِّهِمْ محمد هذا قِدَمُ رياسةٍ ، ولا سالِفُ صُحْبَةٍ للسلطانِ ، ولا تَشَبُّثٌ[3] بخدمتِه ، فهو أَوَّلُ من نَجَمَ[4] فيهم وصارَتْ له مَنْزِلَةٌ لَدَيْهِمْ ، كان سَبَبُهَا - زَعَمُوا - أَنَّ الأمير عبد الرحمن بن الحكم عَثَرَتْ به دابَّتُهُ وهو سائرٌ فى بعضِ أسفارِه ، وتَطَأْطَأَتْ ، فكادَ يكبُو لِفِيهِ ، فلَحِقَهُ جَزَعٌ تمثَّلَ إثْرهُ لما استقلَّتْ به مطِيَّتُه بقَسيمِ بيتٍ جَرَى بِفيهِ ، وهو : [من الطويل].

* وما لا يُرَى مِمَّا يقِى الله أكثَرُ *

وطلب صَدْرَ البيت ، فَعَزَبَ[5] عنه ، وتعلَّقَ بالُهُ به ، فسأَل عنه أصحابَه ، فأَضلُّوهُ وأمر بسؤالِ كل من تسمَّى بمعرفةٍ فى عسكره[6] ، فلم يكن أحدٌ يَقِفُ عليه غير محمد بن سعيد هذا الزجالى ، لِمَا أراده الله تعالى من تحريكهِ ، فقال لسائِلهِ ؛ حاجَةُ الأميرِ عندى ، فَلْيُدْنِنِى أُتِمَّها لَهُ . فأَدْناه ، فقال له أَصْلَحَ الله الأمير ، أَوَّل هذا البيت :

تَرَى الشَّىْءَ مِمَّا يُتَّقَى فَتَهَابُهُ
وما لا تَرَى مِمَّا يَقِى اللهُ أَكْثَرُ

---

(1) ص : ما يلته
(2) بياض فى الأصل بقدر نصف سطر ، وقد وضعنا فى مكانه هذه الكلمات استكمالا للسياق .
(3) ص : فشبت . (4) ص : نجم .
(5) كلمة غير واضحة فى الأصل . (6) ص : عسكر .

تمام البيت . فأَعْجَبَ الأَميرَ ما كان منه ، وراقَهُ بَيَانُهُ ، وأعجبه شَكْلُهُ ، فقال له : إلْزَم السُّرَادِقَ . فلما جالَسَهُ وحَدَّثَهُ إزدادَ قبولاً له ورَغْبَةً فيه ، فاستخدمه واستخَصَّه ، ثم استكتبه بَعْدَ حينٍ لِسِرِّه .

وكان قبل هذا اتَّخَذَهُ كاتبًا [لوزرائه إشراكًا لهم فيه][1] على رَسْمِ من تَقَدَّمَهُ ، فَحَدَتْ مُحَمَّدًا هِمَّتُهُ على التَّرَفُّعِ عن ذلك لِلتَّفرُّدِ بأعلى [المنازل][2] ، وكتب إلى الأمير عبدالرحمن يستعفيه من قَصْدِ وُزَرَائِهِ كتابًا يَقولُ [فيه] :

[إنَّ مَنْ][3] وُسِمَ بميسَمِ كتابَتِهِ - أَعَزَّهُ الله - وشُرِّفَ باسْمِها لجديرٌ أن [يَعْتَلِيَ عن كتَابَةِ وُزَرَا] ئِهِ ، ويَزْدَهِيَ بحِصَانَةِ أَسْرَارِهِ[4] ،

/ تنبيهه إيَّاه ، فأفرده بكتابته ، واتَّخَذَ للوزراء كاتبًا مُفْرَدًا لكتابتهم ، فجرى الأَمْرُ على ذلك من بَعْدِ الأَميرِ عبد الرحمن إلى آخر الدولة . [١٩٨ب]

وكان محمد بن سعيد هذا من أحد عجائِبِ الدنيا فى قوة الحفظِ ، يُضْرَبُ بِحِفْظِهِ الأَمْثِلَةُ[5] ، على تصديقِ ما يُؤثَرُ من ذلك من مشهورِ الحُفَّاظِ من صَدْرِ هذه الأمة .

فذَكَرَ عنه ابنُهُ حامِد بن محمد قال :

« جاءه يوما مُسْتَجْدٍ تَوَسَّلَ إليه بشعرٍ امْتَدَحَهُ به سأَلَهُ أن يَأْذَنَ له فى إنشاده ، ففعل ، وجعل الشاعر ينشده له مُسْحَنْفِرًا فى نشيدِه ، ومحمد مُطرِقٌ . فلما فَرَغَ من شعره ذَهَبَ إلى مُغالطته له ، فقال له : يا هذا ، ما الذى دعاك أن تنتحِلَ شِعْرًا لغيرك ، فَتَقْلِبَهُ فينا ؟ وكُنْتَ فى غِنَىً عن ذلك ، فقد كان فى قصدِكَ لنا ومَاتَّةِ أَدَبِكَ إلينا ما نَقْضِى به ذِمَامَكَ ،

---

(1) كلمات مطموسة فى الأصل لم تبق منها إلا حروف اعتمدنا عليها فى إعادة تركيبها .

(2) قطع بقدر كلمتين .

(3) قطوع فى الأصل ، استعنا فى استكمال فجوات النص فيها بما نقله عن ابن حيان صاحب كتاب المغرب (١/٣٣٠ - ٣٣١) .

(4) استكملنا النص عن المغرب لابن سعيد فى الموضع المذكور فى الحاشية السابقة ، ولكن نص ابن حيان أكمل وأكثر تفصيلا ، إذ يبدو أنه أورد الرسالة التى كتبها الزجالى كلها أو أكثر فقراتها بدليل أن القطع الذى أصاب أسفل الورقة - وقد ذهبت فيه عدة سطور - يشتمل على جزء لم يثبته ابن سعيد فيما نقل :

(5) ص : الأدلة .

ونُعِينُكَ على شأنِك ! فقال له : سُبْحَانَ الله يا سيدى ! تقول ذلك فى شِعْرٍ كَدَدْتُ فيه خاطرى ، وأتعبت فيه ذِهنى ؟ فلا والله ما أخذته من أحدٍ ، ولا سَوَّيْتُهُ إلا من نظمى ! فقال له محمد : باطِلٌ ! إنه لشعر قد رَوَيْتُهُ قديمًا وحَفِظْتُهُ ، فإن شئت فاستمِعْ إليه أُنْشِدْكَه وبدأ فأعاد الشعر عليه أو أكثره . فبقى حائرًا لِمَا فَجَأَهُ به ، وقد زالَ طمعُه ، وانقطعت حُجَّتُه ، واشتدَّتْ فَجْعَتُهُ . فلما رأى محمد سُوءَ مقامِهِ قال له : خَفِّضْ عليك ، فإنى مَزَحْتُ مَعَكَ ، وإنك الصَّادِقُ فيما قُلْتَ ، الحقيقُ بالثَّوَابِ على ما قَرَضْتَ ، وإنما أعانَنِى عليك قُوَّةُ حِفْظِى الذى ذَهَبْتُ إلى اختبارِهِ معك . ولا والله ما سَمِعْتُ بهذا الشعرِ قَبْلَ يَوْمِى . فَسَرَّى عن الشاعر هَمَّه ، وأَجْزَلَ صِلَتَهُ »(١٤٥) .

قال :

وتوفى محمد بن سعيد هذا « الأَصْمَعِىُّ » سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ، وأعْقَبَ ابْنًا نَجيبًا يُسَمَّى حامدَ بْنَ محمد وَرِثَ مكانَهُ من الأدب والمعرفة والكتابة والبلاغة ، فسَلَكَ سبيلَهُ فى خدمة السلطان ، وارتقى فوق ذِرْوةِ أبيه بِخطَّةِ الوزارة ، بحضرة الأمير محمد بن عبد الرحمن . وقد كان أديبًا حليمًا عَفًّا [جميلَ][1]الخصالِ ، خلاَ أنه كان يُعابُ بالبخل والاقتصاد ، فيُضحِى للذَّمِّ فى عِرْضِه ذَريعة .

قيل لمؤمن بن سعيد(١٤٦) الشاعرِ البذِىء : [ما بَالُكَ لا تسامر][1] الوزير حامدًا أو تراكِبُهُ حسبما نراكَ [تفعَلُهُ مع الوزراء من أصحابه مع قديم][1] اتِّصالِكَ به وسَبَبِكَ إليه ؟ [فقال مؤمن بن سعيد : هذه] / جِنازَةُ غريبٍ لا يصحبها من صَحِبَها إلَّا لِلهِ تعالى ! [١٩٩ ا]
ونُمِيَتْ كَلِمَتُهُ إلى حامِد ، فَحَقِدَها عليه . وشَيَّعَهُ مؤمنٌ بُعَيْدَ أيامٍ فى خروجه من القَصْر إلى داره لا ينكر ما عَرَفَهُ من أُنْسِه بِهِ ومذاكَرَتِهِ ، فلما أراد مؤمنٌ الانصرافَ قال له حامد : أَعْظَمَ اللهُ أَجْرَكَ أَبا مروان ! وكَتَبَ خُطَاكَ ! ـ دُعاءَ مُشَيِّعِ المَوْتَى ـ ، تعريضًا له بقوله(١٤٧)

ومن نوادر حامد بن محمد الزجالى ما حكاه محمد بن نَصْر ، قال(١٤٨) :

غَلِطَ إمامُ الوزير حامد بن محمد ليلةً فى بعض قِراءته فى صلاة التَّراويحِ فى شهر رمضان

(١) كلمات مطموسة استعنا فى استكمالها بما نقله ابن سعيد فى المغرب (١ / ٣٣١) عن ابن حيان .

بمسجد حَامد ، وحامد حاضر ، فقرأ مكان قوله تعالى : ﴿ الزَّانية والزَّانى فاجْلِدُوا كلَّ واحِدٍ منهما مائَةَ جَلْدَةٍ ﴾[1] ، فقرأ : «. . . فانْكِحُوهُمَا » ، فلما انصرف حامد قال لبعض من يَخُصُّه من جيرانه : « أما سَمِعْتَ ما أتَى به إمامُنا من تبديل حدودِنا ؟ » وتضاحك ، فقال له حامد : فقد سَنَحَتْ لى فيه بديهةٌ فاسْمَعْها ، وأنشده : [من مجزوءِ الرمل]

أبْـدَعَ القارئُ مَعْنىً لم يَـكُنْ فى الثَّقَلَـيْنِ

أمَـرَ النـاسَ جميعًا بِنِـكاحِ الـزَّانِيَـيْنِ

وأنشد لأحمد بن محمد بن فرج البَلَوِىِّ المعروف بالبَلَسَارِىِّ(١٤٩) يهجو حامد بن محمد ويكثر بُخْلَه فى اتخاذِه لصنيعٍ عنده قَتَّرَ فيه على من شَهِدَه ، وناقَضَ مُرُوءَتَه ، من أبيات فيها[2] : [من الكامل]

فَعَلَ اللَّئيمُ ولَيْـتَهُ لم يَفْعَـلِ
وأتَى بِفِعْلٍ مِثْـلُهُ[3] لم يَجْمُـلِ

ذَبَحَ[4] الضفادِعَ فى الصَّنيعِ ولم يَدَعْ
للنَّمْـلِ جَـارِحَـةً[5] ولا لِلْقُمَّـلِ

وَضَـعَ الطعامَ فَلَـوْ[6] عَلَتْهُ ذُبابَـةٌ
وَقَعَتْ لِتُكْمِلَ شَبْعَةً لم تُكْمِـلِ

وكـأنَّمـا خُرِطَتْ صِحَـافُ طَعَامِـهِ
– من دِقَّـةٍ ودَمَامَـةٍ[7] – مِنْ خَـرْدَلِ

---

(1) سورة النور ، آية ٢ .

(2) قابلنا هذه الأبيات على الرواية التى يوردها أبو عبد الله محمد بن الكتانى الطبيب فى « كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس » ، بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط. بيروت ١٩٦٦ ، ص ٢٥٤–٢٥٥ ، ولو أن المؤلف ينسبها إلى من يسميه محمد بن فرج ، وينقص منها البيت الأول .

(3) ص : فعله ، وواضح أنها محرفة عما أثبتنا .

(4) فى « التشبيهات » نحـر .

(5) فى « التشبيهات » دارجة .

(6) فى « التشبيهات » ولو .

(7) فى « التشبيهات » : وجفانه ، ولكن المحقق ذكر فى هذا الموضع أنها رسمت هكذا : « وبيانه » ، بغير إعجام . ورواية ابن حيان أصوب .

وكأنَّ فَتْرَةَ صَحْفَةٍ عـن صَحْفَةٍ[1]

فى البُعْدِ والإبْطـاءِ فَتْرَةُ مُرْسَـلِ

أُرْسِلَ هذا الشاعر آفةً على أهل هذا البيت لأمرٍ أُوذِىَ به من بعضِهِمْ ، فعَمَّمَ بهجائه ، وأفحش لهم .

ومن قوله فى شعرٍ له فيهم : [من الطويل]

هُمُ عَلَّمُونِى اللُّؤْمَ حَتَّى كَأنَّنِى

لِغَيْرِ أبى أَوْ مُعْـرِقٌ فى الزَّجَـاجِلَهْ(١٥٠)

أصحاب شرطة

الأمير عبد الرحمن بن الحكم

[قال أحمد][2] بن محمد الرازى :

أَلْفَى الأمير عبد الرحمن على الشُّرْطَة(١٥١) لأبيه الحكم [محمدَ بن كُلَيْب][3] بن ثَعْلَبَة(١٥٢)، فأمضاهُ عليها ، ثم رَقَّاهُ إلى الوزارة

199] / وقتًا تَفَرَّغَتْ فيه أيامه شرطة العدو[4] ، ثم استعفى الشرطة إذ كَرِهَ النَّظَر ، ووَلَّى مكانَهُ الشرطة سعيدَ بن عِياض القَيْسِىَّ(١٥٣) . وكان على الشرطة والرَّدِّ(١٥٤) حارثُ ابن أبى سَعْد[5] (١٥٥).

(1) فى « التشبيهات » : وكأن صحفته على أضيافه ، وما رواه ابن حيان أصح .

(2) قطع فى الورقة بقدر كلمتين لا يخرجان عما أثبتنا .

(3) لم يبق من هذا الاسم فى الورقة من خلال القطوع إلا حروف أعانتنا بقاياها على استكماله ، لا سيما وأن ابن حيان نفسه ذكر ابن كليب هذا من قبل فى عداد وزراء عبد الرحمن بن الحكم وقال انه كان على الشرطة قبل ولايته الوزارة .

(4) كذا فى الأصل ، ولم نهتد إلى وجه مقبول فى تأويل هذه العبارة ، لاسيما وأنها أتت بعد القطع المعتاد فى آخر الصفحة السابقة والذى ذهب فيه آخر سطورها ، ولابد أنه وقع فى ألفاظها تحريف أو سقط منها شئ .

(5) فى الأصل : ابن أبى سعيد ، والصواب ما أثبتنا ، وحارث بن أبى سعد هذا هو الذى سيذكره ابن حيان بعد ذلك فى وفيات سنة ٢٢١ .

قـــوّاده

عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث الحاجب الكاتب ، وقاد لثلاثة من الخلفاء : هشام والحكم وعبد الرحمن ؛ عبد الرحمن بن رستم ، عبد الواحد بن يزيد الإسكندرانى ؛ عباس بن الوليد الطلبى ، وكان كثير التردّد بالصوائف(1) .

قضاةُ قرطبة للأمير عبد الرحمن بن الحكم

على اختلاف الرواة فى عددهم وترتيب دولهم

قال أحمد بن محمد الرازى :

كان له أحد عشر قاضيا : أولهم مَسْرُورُ بن محمد ، على اختلافهم فى نَسَبِه أيضا ، إذ يقول محمد بن حارث فى كتابه : هو مسرور بن محمد بن سعيد بن شَرَاحِيل المعافِرىّ ، ويقول ابنُ عبد البَرّ : بل هو من موالى الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، يكنى [بـ](2) أبى نُجَيْح ، وذا من اختلافهم قبيح ؛ ثم سعيد بن محمد بن بشير ؛ ثم يحيى بن مَعْمَر ابن عِمْرَان الأَلْهَانِىّ الإشبيلىّ (3)؛ ثم الأسوار بن عُقْبَة ؛ ثم إبراهيم بن العباس بن عيسى ابن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، ثم يُخامِر بن عثمان المعافِرىّ ؛ ثم عَلِىُّ ابن أبى بكر القيسىُّ ؛ ثم مُعَاذُ بن عثمان الشّعبانِىُّ ؛ ثم محمد بن زياد اللّخْمِىُّ ؛ ثم سعيد ابن سليمان بن أَسْوَدَ عَمُّ سليمانَ بن أسود(4) ؛ ثم محمد بن سعيد .

وقال الحسن بن محمد بن مُفَرِّج :

قال ابنُ عبدِالبَرّ فى تاريخه :

لما وَلِىَ الأمير عبد الرحمن بن الحكم استقْضَى على قرطبة مَسْرُورَ بن محمد سنة سبع ومائتين ؛ ثم سعيدَ بن سليمانَ سنة ثمان ومائتين ، [ثم يحيى بن مَعْمَر الأَلْهَانىّ سنة تسع

---

(1) ص : بالصرائف .

(2) زيادة يقتضيها السياق .

(3) ص : الاسبيل .

(4) ص : الأسرد .

ومائتين][1] ، ثم الأَسْوَارَ[2] بن عُقْبَةَ سنة عشر ومائتين وما بعدها ؛ ثم إبراهيم بن العباس القُرَشِيّ المروانيّ جَدّ بني [أبي][3] صَفْوَانَ هؤلاء القرشيين الوُجُوهِ بقرطبة سنة ثلاث عشرة ومائتين ؛ ثم محمد بن سعيد سنة أربع عشرة وما بعدها ؛ ثم يُخَامِرَ بن عثمان سنة عشرين ومائتين أيضا ، فقَضَى أعواما ؛ ثم عليّ بن أبي بكر سنة سبع وعشرين ومائتين وما بعدها ؛ ثم مُعاذَ بن عثمانَ [الشعباني سنة][4] إحدى وثلاثين ومائتين ؛ ثم محمد بن زيادٍ اللخميّ سنة أربع وثلا [ثين ومائتين ؛ فبَلَغَتْ عِدَّةُ قُضَاتِهِ][5] عشرة رجال ، [وإنما كان سبب استكثار عبد الرحمن بن الحكم من القضاة وكثرةُ توليَتِهِ وعَزْلِهِ] / لم اتّبَاعَهُ فيهم رضا [١٥٥ ظ]
كبير الفقهاء المشاورين الأثيرِ عنده يحيى بن يحيى ، إذ كان لا يزال يشير عليه بقاضٍ ، فيولّيه الأمير عبد الرحمن مقتصرًا فيه على رأيه ، فإذا أنكر عليه يحيى شيئا رَفَعَ عليه إلى الأمير ، فلا يُؤَخِّرُ عَزْلَهُ ، ولا يَحِيدُ عن مشورته ، [وكان][6] يحيى الذى يُوَلِّي مكانه(١٥٦) .

وكان الشيخ يحيى شديدَ التَّمكُّنِ[7] من حُسْنِ رأيِ الأمير عبد الرحمن ، وكان قد آثره على جميع الفقهاء أصحابه ، وجعلَ تَوَرُّكَهُ عليه ، فمن أجْلِ ذلك كَثُرَ عَدَدُ قُضَاتِه .

قال الحسن :

وقد خالف أبو بكر ابن القوطيّة ابْنَ عبدِ البَرِّ فى عدد هؤلاء القضاة وترتيبِ دُوَلِهم ، فقال(١٥٧) :

---

(1) هذه زيادة أضفناها لأن الأصل يقتضيها بغير شك ، إذ بدونها لا تستقيم عدة القضاة الذين ذكر ابن عبد البر أنهم عشرة ، ثم إننا رأينا ابن عبد البر الذى ينقل ابن حيان عنه هنا — عن طريق الحسن بن مفرج — قد نص على تولية يحيى بن معمر هذا القضاء كما سيرد عند كلامه المفصل عن القضاة واحداً واحداً . كذلك أشار إلى ولايته القضاء ابن الفرضى فى تاريخ علماء الأندلس (ترجمة رقم ١٥٥٣) وابن سعيد فى المغرب (١٤٧/١) ، وكلاهما ينقل الخبر عن أحمد بن محمد بن عبد البر ، مما يدل على أن اسم يحيى بن معمر سقط سهواً من الناسخ فى هذا الموضع .

(2) ص : الأسود ، وهو تحريف واضح .

(3) زيادة يقتضيها صواب التسمية .

(4) موضع هاتين الكلمتين مطموس فى الأصل ، لايبدو فيه إلا بعض حروفهما .

(5) قطوع فى الأصل فى هذا الموضع ، وقد اعتمدنا فى استكمال العبارة لاستقامه السياق على ما سيورده ابن حيان نفسه بعد قليل ، فضلا عما تؤكده المصادر الأخرى .

(6) زيادة يقتضيها السياق .

(7) ص : التسكين ، وهى محرفة عما أثبتنا .

ألْى الأمير عبد الرحمن بن الحكم على قضاء والده الأمير الحكم سعيد بن محمد بن بشير المعافرىّ ، [وَجَدَهُ على القضاء لأبيه ، فأمضاه بَعْدَه . ومُحَمَّدُ بن شَرَاحِيل المعافِرىُّ] [1] جَدُّ بنِي شَرَاحِيلَ هؤلاء الذين يُنْسَبُ إليهم المَسْجِدُ والدَّرْبُ بالرَّبَضِ الغَرْبِىِّ : ثم الفَرَجَ ابن كِنَانَةَ الكنانِىُّ الشَّذُونِىُّ ؛ ثم يَحْيَى بن مَعْمَر الألْهانِىُّ الإشبيلىُّ ، ثم عزله لِرَفْعِ الفقيه يحيى بن يحيى عليه ؛ ثم الأَسْوَارَ بن عُقْبَة الجَيَّانِىُّ ، ثم إبراهيمَ بن العباس المروانِىُّ جَدُّ بَنِى أبى صَفْوَانَ هؤلاء القُرَشِيِّينَ الوُجُوهِ بقرطبة ، ثم عَزَلَهُ - زَعَمُوا - لكلمةٍ خاطَبَتْهُ بها امرأةٌ تَخَاصَمَتْ إليه بمجلِسِ نَظَرِهِ ، فلم يُنْكِرْهَا ، وذلك أنْ قالَتْ له : « يابْنَ الخلائِف ! أنْظُرْ إلَىَّ نَظَرَ اللهُ إلَيْكَ ! » ، فلم يُغَيِّرْ عليها ، فَنَمَاهَا إلى الأمير مُوسى بن حُدَيْر [2] الخازنُ الأكبر ، ورَفَعَ إليه صفحةً يقول فيها : « ما يَنْبَغى للأمير أن يَشْرَكَهُ فى سلطانِهِ مَنْ يُخَاطَبُ بمثل ما يُخَاطَبُ به ، ويُحَلِّى تَحْلِيَتَهُ » ، فذاك الَّذى أوْجَبَ عَزْلَه ، وقيل إنَّ تِلْكَ المرأةَ دُسَّتْ لتقولَ ذلك القَوْل ، فعَزَلَهُ الأميرُ سريعًا ؛ ثم اسْتَقْضَى بَعْدَهُ محمد بن زياد [3] جَدَّ بنى زيادٍ هؤلاء الرُّكْنِيِّينَ ، ثم عَزَلَهُ وأعاد يحيى بن معمر إلى القضاء ثانية ؛ ثم يُخامر ابن عثمان الجيَّانى ، واستعفاه من الولاية فأعفاه ؛ وَوَلَّى أخاه مُعَاذَ [4] بن عثمان ؛ ثم سعيد ابن سليمان الغافِقِىُّ البَلُّوطِىُّ [آخر] قُضاتِهِ ، فصارت [عِدَّةُ القضاةِ فى أيَّامِهِ عَشْرَةَ] رجال

[قالَ ابنُ عَبْدِ البَرِّ فى تاريخه :

وكانت الفُتْيَا فى أيام الأمير الحَكَمِ وأيَّامِ عبد الرحمن] [5] / وَلَدِهِ تدورُ على عيسى ابن دينار ؛ وزَوْنَان بنِ الحَسَن [6] ، ومحمد بن عيسى الاعْشَى راوية [7] وَكِيع بن الجَرَّاحِ ، [٢٠٠ب]

---

(1) زيادة عن تاريخ ابن القوطية ص ٥٨ .

(2) ص : حوثر ، والتصويب عن الخشنى (كتاب القضاة ص ٩٢ - ٩٤) وابن القوطية (تاريخ ص ٥٩ ؛ ولو أن الاسم ورد هنا « بن جدير » بالجيم ، وهو خطأ كذلك) .

(3) فى الأصل : أحمد بن زياد ، والتصويب عن ابن القوطية (نفس الموضع السابق) والخشنى (قضاة ص ١٠٠ - ١٠١) وابن سعيد (مغرب ١ / ١٥٠) ، فضلا عن أنه ورد من قبل فى نص ابن حيان كما أثبتنا ، وسيرد كذلك فى هذا الكتاب .

(4) ص : خالد ، وهو تحريف ، والصواب ما أثبتنا ، وهو أيضا ما جاء فى ابن القوطية (نفس الموضع السابق) وسائر المراجع التى تعرضت لقضاة قرطبة مثل كتب الخشنى والنباهى وابن سعيد .

(5) أعدنا كتابة هذه العبارة - وموضعها مطموس طمسا شديداً - اعتماداً على ما جاء فى المغرب لابن سعيد (١٤٩/١) وهو ينقله عن ابن عبد البر ، ولو أن نص ابن سعيد شديد الاختصار .

(6) ص : الحسين . (7) ص : رواية .

ويحيى بن يحيى الليثيّ ، وسعيدِ بنِ حَسّان ، وعبدِ الملكِ بن حبيب ، ومحمد بن خالِد الأشجّ .

وغَلَبَ يحيى بن يحيى جَميعَهُمْ على رأي الأمير عبد الرحمن ، وألْوَى بإيثارِه ، فصار يَلْتَزِمُ من إعظامِهِ وتكريمه وتنفيذِ أموره ما يَلْتَزِمُهُ الولدُ لأبيه ، فلا يستقضِي قاضيًا ولا يعقد عَقْدًا ولايُمْضِي فى الديانة أمْرًا إلاعَنْ رأيه وبعد مشورته ، ويحيى بن يحيى فى طَيّ ذلك يعترفُ للأمير عبد الرحمن بجميلِ ذلك ، فلا يَأْتِلِي فى ذكرِ إحمادِ سيرتِهِ ، ووصف مَعْدَلَتِهِ وتزيينِ آثاره لدى رعيّته ، وتحضيضهم على طاعته ، واستنهاضهِمِ لتكاليفه ، يتأتّى لذلك بلُطْفِ تناوُله وسلامة جانبه ، وكأنه لا يقصِدُه ، وَيَرَى[1] السلطانُ مَنْفَعَتَهُ ، فيزداد فى إعظام قَدْرِ الشيخ يحيى بصيرةً ، ولا يَنْقُضُ لرياسته مَرِيرةً .

قرأتُ فى كتاب مُعاوية بن هشام الشّبيَنسِيّ قال :

حدّثنى أبى هشام(١٥٨) قال :

سمعت الفقيه أصْبَغَ بْنَ خليلٍ(١٥٩) يقول :

خَرَجَ الأمير عبد الرحمن بن الحكم غازيًا إلى بَعْضِ أهل الخلافِ بالغَرْبِ الأقْصَى ، وعَقْدُهُ على أنْ لايَدْخُلَ إلى دار الحرب سَنَتَهُ ، فلم يَسْتَنْفِرْ أهْلَ المَوْسَطَةِ(١٦٠)، واقتصر على مُدَوَّنَتِهِ(١٦١) ، فلما تهيّأ له مُرَادُهُ فى عُصَاةِ أهْلِ الغَرْبِ وأصلحَهُ بدا له فى القفولِ إلى الحضرة ، ورأى الدُّخولَ إلى بَلَدِ العَدُوّ ، وإتمام غَزْوَتِهِ بالصَّمْدِ إلى نِكايَتِهِ ، فتقدّم فى تَهْيِئَةِ ذلك ، ووافى كتابُه على البَرِيد إلى وَلَدِه محمد بن عبد الرحمن ، وَهو مُخَلَّفُهُ على قرطبة ، ليلتزِمَ للكَوْنِ بالسَّطحِ على باب السُّدَّةِ من قَصْرِ الخلافة مبيتِ الأمير على العادة(١٦٢) فَأَمَرَهُ باستنفارِ الناس نحوه ، وأخَذَ بتعجيلِ الخروج إليه واللّحاقِ به بمكانٍ رَسَمَه

(2) لهم وَجْهَ عزيمَتِه ، . . . . وأمَرَهُ أن يُحْضِر

. . . . ويُقْرِئَ

الناس [كتابَ الأمير] .

---

(1) ص : يثرى ، ولعلها تحريف عما أثبتنا .

(2) ذهبت فى قطوع أسفل الورقة العبارات التى تركنا مكانها بياضا ، ولو أن المعنى فى مجمله واضح ، إذ يؤخذ من السياق أن محمداً بن الأمير عبد الرحمن أمر بجمع وجوه الناس ليبين لهم رغبة والده فى استنفار الناس للجهاد وليقرأ عليهم كتاب الأمير فى ذلك .

[فوافَيْنَا مُحَمَّدًا ، وهو] / يومئذ أَمْرَدُ ، ما فى وَجْهِهِ شَعْرَةٌ ، فسلَّمْنَا عليه ، وقضَيْنَاحَقَّه [١٢٠١]
وجَلَسْنَا على منازِلِنَا بين يديه ، وأَبطَأَ الشيخُ يحيي بن يحيي ، والعيونُ تَتَطَلَّعُ نحوه ، فكان آخِرَ القوْمِ مَجيئًا ، وصار الوَلَدُ أَشدَّ عليه منه على جميعهم إقبالاً ، وإليه انعطافًا ، وبه بَشًّا ، فأَجلسه معه على فِراشِهِ ، وأَخفَى يحيي سُؤَالَهُ ، ودَعَا له[1] .

ثمَّ [أمر][2] محمد عند ذلك بقراءة كتاب الأَمير عبد الرحمن علينا بالاسْتِنْفَار ، فأَصْغَيْنَا إليه . فلما فَرَغَ بَدَرَ يحيي بن يحيي فقال :

نعم ، أَصلح الله الأَمير . الواجبُ علينا الخُفُوفُ إلى الإمام أَصْلَحَهُ الله وأَيَّده ، والبدارُ إلى اللَّحاقِ به ، وألاَّ يعتذِرَ فى ذلك مِنَّا [إلَّا][2] معتذِرٌ قد أنزل الله فى كتابه عُذْرَه لا سواه .

فقيل للناس : قد سمعتم ، فقوموا فانظروا فى جهازكم على بركة الله . وعَجِّلوا للخروج ، فآخِر مواقيتِكم يَوْمُ كذا .

فقام الناس ، ولم يتحرَّكِ الشيخُ يحيي بن يحيي فى ذلك عن مكانه .

قال أَصْبَغ :

وورد عليَّ منهم النفيرُ بما[3] لا قِبَلَ لى به ، إذ كنتُ مُقِلاً لامالَ لى ، ولا نهوضَ بى ، فاشتدَّ عَلَيَّ[4] ، وخَبَتْ فَصَاحَتِى[5] . ولما رأيتُ يحيي لا يُشير إلى القيامِ وكنت على ظنّ أنَّ له خَبَرًا أَرَدْتُ الوقوفَ عَلَيْه ، وكانَتْ لى مكانَةٌ من صاحِبِ المدينةِ المُتَوَلِّى للقصَّةِ انبسطتْ من أَجلِها بالجلوس .

فلمَّا لم يَبْقَ غيرى أَقْبَلَ يحيي على الولد محمد ، فقال :

قَدْ يَرَى الأَمير ضَعْفِى على النَّفْرِ لِشَيْخى وَوَهَنِى وأنَّ مثلى لا يستطيع الغَزْوَ ، ولكنِّى أَبْعَثُ ابنى عَبْدَ الله[6](١٦٣) فى مثل العدة التى كنت أَغْزُو بها ، فإنَّه — إن شاء الله — أَغْنَى

(1) ص : وادعا له .
(2) زيادة يقتضيها السياق .
(3) ص : ما ، ولعلها كما أثبتنا .
(4) ص : عى ، بغير إعجام .
(5) ص : وخفت بصاحتى .
(6) كذا فى الأصل ، ولعل الصواب « عبيد الله » . انظر تعليقنا على هذا الموضع .

وأجْدَى مِنّى . فإنْ رَأى الأمير سَيّدى أن يكتُبَ إلى الإمامِ – أيَّده الله – بعُذْرى ومكانِ طَوِيَّتِى فَعَل . فقد كرهْتُ أن أعْتَذِرَ بمَحْضَر الملأ ، لِئَلاَّ أُوجدَ لِمَنْ ليس له عُذْرى سبيلاً إلى الاعتذار .

فشكر له محمد فِعْلَه ، واستحسنَ فيه رأيه ، ووعدَه بتجديد المخاطَبَةِ فى شأنه .

فقام يحيى ، وذهَبْتُ إلى القيام ، وقد هِبْتُ الكلام ، فقال لى صاحبُ المدينة :

قد علمتُ الذى تذهبُ إليه والذى تَسْتَحْيِى الكلامَ من أجله . وحَقُّكَ لازمٌ لى ، فأنتَ مخيَّرٌ بين أن تَنْفُذَ لرأيِ الإمام فتلحق به مستريحًا لِلْهَمِّ عن قلبك، وبين أن تدخُلَ بيتك ، وتُغْلِقَ بابَكَ عليك ، فلا تَخْرُجَ عنه لشىء من الأشياء إلى أن يَقْ[فُلَ الإمام أصْلَحَهُ[1]] الله ، وأنا من وَرَاءِ الحِفْظِ لك بحول الله .

قال :

فاخترت [لزومَ[1]] بيتى ، فلم أخرجْ منه إلى أن قفل الأمير ، فلم [أَهَجْ] بإغضاء صاحب المدينة ، [وأقام على[1]] بَيِّنَةٍ من أمرى ، إذ [تَبَيَّنَ له عُذْرِى[1]] .

قال ابن عبد البر :

[وكانت فُتْيَا القُضاة فى مدة عبد الرحمن بن الحكم تدور على نَفَر من[2]] / الجِلَّةِ [٢٠١ ب]
ماتُوا[3] فى أيام الأمير عبد الرحمن[4] فى مُدَّة مختلفة، إلا عبد الملك بن حبيب ، فإنه استأخر بعد آخرهم موتًا إلى أن هَلَكَ الأميرُ عبد الرحمن ، فلَحِقَ عبد الملك من أيام ولدِه

---

(1) كلمات لم تبق منها إلا بقايا وأطراف حروف أعدنا على أساسها تركيبها .

(2) أكلنا هذه الجملة معتمدين – فضلا عن السياق – على ما نقله ابن سعيد المغربى عن أحمد بن محمد بن عبد البر مرجع ابن حيان فى هذا الموضع ، إذ يقول : « وكانت فتيا (فى الأصل : فيها ، ونظنها محرفة عما ذكرنا) القضاة فى مدة عبد الرحمن تدور على عيسى بن دينار ويحيى [بن يحيى] وعبد الملك [بن حبيب] ، وكلهم مات فى مدته إلا عبد الملك فإنه أدرك فى مدة محمد ستة شهور » (المغرب ١ / ١٤٩) ؛ والخبر فى جملته يتفق مع ما نقله ابن حيان ، لولا ما نلاحظه دائما من ميل ابن سعيد إلى الاختصار الشديد .

(3) ص : مانسرا .

(4) ص : الأمير [محمد بن] عبد الرحمن . والاسم بهذه الصورة لا يتفق مع بقية الخبر ، ولهذا فقد صوبناه بما يرى فى المتن .

الأمير محمد بن عبد الرحمن ستة أشهر أو نحوها ، ثم تبع أصحابه - رحمة الله تعالى عليهم - ، فقرِضَتْ زُمْرَتهم ، وانقلبت رياسة الفتوى إلى من تلاهم .

وكان من مشاهير من رَحَلَ إلى المشرق فى طلب العلم وإنتقاء الرواية من أهل قرطبة فأدرك الغاية : محمد بن يوسف بن مطروح(١٦٤)، ومحمد بن حارث(١٦٥)، وأبوزيد عبد الرحمن ابن إبراهيم[1](١٦٦)، وعبد الأعلى بن وَهْب(١٦٧)، وبَقِيُّ بن مَخْلَد(١٦٨) رضى الله تعالى عنه، ومحمد بن وَضَّاح(١٦٩)، ويحيى بن إبراهيم بن مُزَيْن(١٧٠)، وأبَانُ بن عيسى بن دينار(١٧١)، وعُبَيْدُ الله بن يحيى بن يحيى(١٧٢)، وكان من آخرهم رِحْلَةً فى أُخْرَيَاتِ الأمير عبد الرحمن فتشوَّرَ من أعيان هؤلاء اللاحقين فى أيام الأمير عبد الرحمن : عَبْدُ الأعلى بن وهب، وأصبغ ابن خليل .

قال :

واعتلت مَنْزِلَةُ عبد الملك بن حبيب(١٧٣) عند الأمير عبد الرحمن ، ولا سيَّما من بعد وفاةِ الشيخ يحيى بن يحيى ، فإنه تَفَرَّدَ بأَثَرَتِهِ ، وحلَّ منزلته ، فلم يكُنْ يُقَدِّمُ أحَدًا من أصحابه عليه ، ولا يَعْدِلُ بمشورَتِهِ عنه .

وذكر معاويةُ بن هشام الشَّبَانِسِيُّ قال :

كانت فى أيام الأمير عبد الرحمن مخارِجُ للناسِ إلى الاستسقاء(١٧٤) فى زَمَنِ الجُدُوب ، وكان البروزُ فى أكثرها إلى مُصَلَّى الرَّبَضِ بعُدْوَةِ نهر قرطُبَةَ الدنيا ، أسفَلُها مَعْهَدًا مُصَلَّى الأعيادِ . فحضرهم مَخْرَجُ استسقاء آخرَ أيامِ الأمير عبد الرحمن بعد مَهْلَكِ نصرِ الخِصِيِّ خليفَتِهِ الغالب على رأيهِ ، أُنْذِرَ الناسُ به ليوم بِعَيْنِهِ إلى الرَّبَضِ على عادتهم ، فأنكر ذلك الفقيهُ عبدُ الملك بن حبيب ، وكَتَبَ إلى الأمير عبد الرحمن يذكر أن نصرًا هو الذى عاق الناس عن مُصَلَّى المُصَارَة ، وتولَّع بصرف بروزهم إلى مُصَلَّى الرَّبَضِ لقربه من قصره هناك ، وقد دفعه [2] مشيه نحوه ، ويذكر أن البروز إلى مصلَّى المُصَارَةِ المتَّصِل بالبلد

(1) ص : عبد الرحيم بن هارون إبرهيم . وقد وضع الناسخ على لفظ هارون خطا يشير به إلى شطب هذه الكلمة مستبدلا إياها باسم ابرهيم المذكور بعد ذلك ، غير أن هذا التصويب غير كاف ، فصحة الاسم ما أثبتنا ، وهكذا ورد فى تاريخ ابن الفرضى ، رقم ٧٧٩ ؛ وجذوة الحميدى ، رقم ٥٩١ ؛ والديباج المذهب لابن فرحون ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(2) كلمات مطموسة تماما لم نستطع تبين شىء منها .

[أَرْفَقُ بالناس] وأحْوَط ، على ازدحامهم فى القنطرة ، فقد صحَّ عنده أن جماعةً منهم هلكوا يوم الاستسقاء غرقًا[1] فى النهر فأثقلوا قارباً [ونزلوا فيه لِياذًا] من ضيق القنطرة ،[فَرَسَبَ بهم ، وهلك منهم جماعةٌ ، وأن من آفاتِ ازدحامِ الناس فى القنطرة ما بلغه من أن أحْدَاثًا] .

[٢٠٢ ا] / والمُزْعِج للخوف[2] فَمُصَلَّى المُصَارَةِ أرفق بالناس كافَّةً ؛ فإنَّ مَنْ حَرَّكَتْهُ منهم[3] إراقَةٌ أو انتقضت به طهارته تَقَارَبَ عليه شَطُّ النهر ، فَدَبَّ الناس من قُرْب ، ونال حاجَتَه بسرعة ، ومن طلب منهم التَّسَتُّر لشأنه أمكنه الاسْتِجْنَانُ بداخل الجَنَّاتِ المُلَاقِيَةِ[4] للمُصَارة فَتبرّى[5] فيها من غير بُعْدٍ عن مُصَلَّاه . فصَوبَ الأميرُ رأيَه ، وانصرف البُرُوزُ للاستسقاء إلى مُصَلَّى المُصَارَةِ الذى اختاره عبد الملك .

وذكر القاضى أبو الوليد ابن الفَرَضِيِّ قال :

بلغ من انبساطِ الفقيه عبد الملك بن حبيب على الأمير عبد الرحمن أن كتب إليه فى يوم عاشوراء(١٧٥): [من البسيط]

لا تَنْسَ ـ لا يُنْسِكَ الرحمنُ ـ عاشورَا
واذكُرْهُ ـ لا زلتَ فى الأحْيَاءِ مَذْكُورَا ـ

قالَ الرسولُ ـ صَلَاةُ الله تَشْمَلُهُ ـ
قولاً وَجَدْنا عليه الحَقَّ والنُّورَا :

من باتَ فى لَيْلِ عاشوراءَ ذا سَعَةٍ
يَكُنْ بِعِيشَتِهِ فى الحَوْلِ مَحْبُورَا

(1) كلمات مطموسة تماماً لم نستطع تبين شىء منها .

(2) ص : والمندمج العوف . ولعل الصواب ما أثبتنا ، اى المثير للخوف وهو بلا شك يصف بهذه الصفة معتل الربض الذى صرف نصر إليه الناس لقربه من قصره .

(3) ص : منه

(4) فى الأصل كلمة غير واضحة تحتمل قراءتها ما ذكرنا ، ويمكن أن تقرأ أيضا « الملحقه » .

(5) ص : فجرى .

فارْغَبَ - فَديْتُكَ - فيا فِيهِ رَغَّبْنَــا
خَيْرُ الــورى كلِّهِمْ حَيًّــا ومقْبُــورَا

وقرأت بخَطِّ عُبادَةَ الشاعر(١٧٦)قال :

كان يحيى بن يحيى وأصحابُه الفقهاءُ يحسدون عبدَ الملكِ بن حبيب لتقدُّمِهِ عليهم بعلوم لم يكونوا يعلمونها ولا يَشْرَعُون فيها ، إذ كان مع تقدُّمه فى الفقهِ والحديث عالماً بالإعراب واللغة ، مُفْتَنًّا فى العلوم القديمة ، متصرِّفًا فى الآداب الناصعة ، له تواليفُ جَمَّةٌ فى أكثر هذه الفنون، منها كتابه فى إعراب القرآن ، وفى شرحِ الحديث ، وفى الأنسابِ وفى النجوم ، وغيرها (١٧٧) .

وله بيت شعر فى التعريض ببعض قضاة الأمير عبد الرحمن ضَمَّنَهُ كتابًا خاطبه به فى شأنه : [من الخفيف] :

كانَ بالقَاسِطِينَ مِنَّــا رَؤُوفًــا وعلى المُقْسِطِينَ سَــوْطَ عَذَاب (١٧٨)

نوادِرُ من أخبار قضاة الأمير

عبد الرحمن

مستخرَجَةٌ من كتاب « الاحتِفَال »(١٧٩)

مسرور بن محمد(١٨٠):

قال محمد بن حارث [الخشنى[1]] :

[هو مسرور بن محمد] بن سعيد بن بشير[2] بنِ شَرَاحِيل المَعَاقِرِىُّ ، ووالده محمد [قاضى الجماعة بقرطبة] الشهيرُ فضله(١٨١)، ولَّاه الأم [ير عبد الرحمن بن الحكم رحمهما الله قضاءَ الجماعة بقرطبة ، و] كان من الصالحين الفاضلين .

[حدثنى من وثقت به من أهل العلم ، قال : حدثنى محمد بن أحمد بن عبد الملك المعروف بابن الزَّرَّادِ(١٨٢)، قال :

كان عندنا بقرطبة قاضٍ يعرف بمسرور ، وكان من الزُّهَّادِ ، استأذن من حَضَرَهُ من الخصوم يومًا فى أن يقومَ لحاجَةٍ] / يقضيها فأَذِنُوا له ، فقام عنهم نحو منزِلِهِ ، ولم يلبَثْ أن خَرَجَ[3] وفى يده خبزة نَيَّةٌ ، فذهب بها إلى الفرن ، فقال له بعضُ من رآه : أنا أكفيكَ أيها القاضى ! فقال له : فإذا أنا عُزِلْتُ عن القضاء - قَرَّبَهُ الله تعالى منى - تُرَانِى أَجِدُكَ كلَّ يوم تكفِينِى حَمْلَهَا ؟ ما أراك تَنْشَطُ[4] لذلك ! بل الذى حملَها قَبْلَ القضاء يحملها[5] بَعْدَ القضاء .

---

(1) اعتمدنا فيها استكلناه من هذا النص على ما بقى فيه من حروف خلال القطوع التى أصابت أسفل الورقة ، وعلى كتاب القضاة بقرطبة للخشنى ص ٧٨ - ٧٩ .

(2) ص : بكير ، وهو تحريف .

(3) ص : ضـــر .

(4) ص : نشط ، وقد تكون « نشطا » (بفتح النون وكسر الشين) .

(5) ص : يحملنا .

وقال ابن عبد البر

مسرور[1] بن محمد هذا من موالى الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، يكنى أبا نُجَيْح ، استقضاه الأميرُ عبدُ الرحمن بن الحكم بعد حامد بن يحيى(١٨٣) الذى كان آخر قضاة والده الحَكَمِ وأوّل قضاته هو ، وذلك سنة سبع ومائتين ، فلم تَطُلْ وِلايته ، وتُوُفِّى سنة ثمان ومائتين فى آخرها ..

وقال القاضى أَسْلَمُ بن عبد العزيز (١٨٤) .

سمعتُ أبى (١٨٥)يذكر أنه تَسَمَّى جماعةٌ مِنموالى الخلفاء بأسماء العرب ، فأنكر ذلك عليهم الأميرُ بفَضْلِ أَنَفَتِهِ ، وأكَّدَ فيه نَهْيَهُ (١٨٦)، وكان له مولى من عِتاقة أبيه يسمى بمحمد(١٨٧)، ووُلِدَ له وَلَدٌ سماه مسرورا ، سُمِّىَ به على[2] حَدِّ الأمير ، فَحَسُنَتْ نشأتُه ، واستقامت طريقته ، وتفقَّهَ وتعبَّدَ ، وشُهِرَ فضلُه إلى أن ولَّاه الأمير عبد الرحمن القضاء بقرطبة ، فاستقلَّ بالعمل ، وأحسن وسَلَكَ الطريقة ، فاغْتَبَطَ به الناسُ ، إلا أنه عُوجِلَ ، فتُوُفِّى من عامِهِ الذى فيه استقضاه .

سعيد بن سليمان (١٨٨) :

قال ابن عبد البر :

هو[3] سعيد بن سليمان ، يكنى أبا عثمان ، أَصْلُه من فَحْصِ البَلُّوطِ(١٨٩)، وكان عَمَّ سليمان بن أسود(١٩٠)القاضى فيما بلغنى ..

ذكر محمد بن مسرور[4] عن أبيه قال :

سمعتُ سليمانَ بى أسود القاضى يقول : كان سعيد بن سليمان يخطب بخطبة واحدة لصلاة الجمعة طولَ مُدَّته لم يُبَدلْهَا ..ولقد برز الناسُ للاستسقاء فى بعض أيَّامِهِ ، فلما ابتدأ خَنَقَتْهُ العَبْرَةُ ، وأُشْكِلَتْ عليه الخُطْبَة ، فاختصرها ، وكَثَّر من الاستغفار ، والضَّراعَةِ ، ثم صَلَّى ، وانصرف ، فسُقِىَ الناسُ ليومِهِمْ .

---

(1) ص : مسروق .
(2) ص : فى . . على .
(3) ص : أبـو .
(4) ص : مسروق .

قال :

وتولّى القضاء للأمير عبد الرحمن مَرّتَيْن .

وقال محمد بن حارث :

هو سعيد بن سليمان بن حبيب الغافِقِيُّ ، يكنى أبا خالد ، أَصْلُهُ من مدينة [غافق [1]](١٩١) وولاه الأمير عبد الرحمن قضاء الجماعة بقرطبة ، وقد كان [وَلِيَ قضاء مارِدَةَ](١٩٢)وغيرها قبل ولايته لقضاء قرطبة ، وكان من خيار [من وَلُوا القضاء للأمير عبد الرحمن ، وهو عَمُّ سليمانَ بن أسود] الذى ولى قضاء قرطبة .

وكان [يُرْوَى عن الفقيه أبى عثمان سعيد بن] عثمان الأَعْنَاقِيُّ(١٩٣)عن محمد بن وَضَّاحٍ أنه [كان يقول : وَلِيَ القضاء أربعةٌ ما وَلِيَ] القضاء فى مملكةِ [الإسلام مِثْلُهُمْ ، فاتَّصَلَ بهم] / العَدْلُ فى آفاقِها : دُحَيْمُ بن الوليد(١٩٤)بالشام ، والحارث بن مِسْكِين(١٩٥)بمصر ، [٢٠٣ ا] وسَحْنَونُ بن سعيد(١٩٦)بالقيروان ، وسعيدُ بن سليمان بقرطبة .

فأمّا دُحَيْمُ بن الوليد بن عبد الرحمن بن ابراهيم وهو المعروف باليتيم فكان[2] من أهل دِمَشْقَ ، ولّاه جَعْفَر المتوكّلُ على الله أيام رأى أن يَفْعَلَ الخيرَ أو يستصلح إلى الناس بعد استفسادِ سَلَفِهِ إليهم بالمِحْنَةِ فى خَلْقِ القرآن ، فقلّده قضاء الشام فى وقتٍ لم يَصِحّ لى تاريخُه ، ومات غَيْرَ مُمَتَّعٍ بولايته سنة خمس وأربعين ومائتين بمدينة الرَّمْلَة .

وأما الحارثُ بن مسكين فولّاه جعفر أيضا قضاء مصر سنة سبع وثلاثين ومائتين ، جاءته ولا يتُهُ وهو بالإسْكَنْدَرِيَّةِ ، فَحُمِلَ إلى الفُسْطَاطِ ، فكان قاضِيَ مِصْرَ إلى أن عُزِلَ فى ربيع الآخر سنة خمس وأربعين ومائتين .

وأما سَحْنُونُ بن سعيد التَّنُوخِيُّ فإنه وَلّاهُ[3] قضاء إفْرِيقِيَّة مُحَمّدُ بن الأَغْلَب التَّمِيمِىُّ(١٩٧)

---

(1) اعتمدنا فى استكمال النص على مرجع ابن حيان هنا وهو كتاب الخشنى : قضاة ص ١٧٠ — ١٠٨ ، فضلا عما بقى من الحروف خلال القطوع .

(2) ص : وكان .

(3) ص : ولى .

أميرُها لجعفر المُتَوَكِّلِ أيضًا سنة أربع وثلاثين ومائتين ، فلم يزل قاضِيًا إلى أن تُوُفِّيَ في صدر رجب سنة أربعين ومائتين .

وأما سعيدُ بن سليمان الأندلسى فإنه ولّاه قضاء قرطبة أميرُ الأندلُسِ عبدُ الرحمن بن الحكم ، أحسبُه فى سنة أربعٍ وثلاثين ومائتين – والشّكُّ مِنِّى – فلم يَزَلْ قاضِيَهُ إلى أن مات الأمير عبد الرحمن سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، ووَلِيَ الأَمْرَ بَعْدَه[1] ابنُه الأمير محمد ابن عبد الرحمن ، فأَقَرَّهُ[2] على القضاء وعَمِلَ له نَحْوَ سَنَتَيْنِ إلى أن ماتَ بقرطبة ، وهو على قَضَائِهِ . ولا أَعْلَمُ[3] له عَقِبًا (١٩٨).

وذُكِرَ عن أحمد بن عبد الله [بن أبي خالد أن الأمير عبد][4] الرحمن اختاره لجميلِ الثّناء عليه ، وأرْسَلَ فيه يستدعيه للقضاء ، فَجَلَسَ للحكم فى المسجد ، وعليه جُبَّةُ صوفٍ بيضاء ، وفوق رأسه قَلَنْسُوَةٌ بيضاءُ من فَضْلِ جُبَّتِهِ ، فلما أن نَظَرَ[5] إليه الوُكَلَاءُ الذين يُخاصِمونَ عن الناسِ عند القضاةِ ازْدَرَوْهُ واسْتَغْبَوْهُ ، وطلبوا الإِنْذَارَ فيه ، فجاءوا فى مغيبِه عن المسجد بقُفَّةٍ مملوءةٍ من قُشور البَلُّوطِ ، ووضعوها تحتَ الحصيرِ الذى كان يجلس فوقه فلما افْتَرَشَهُ عند استواء جُلوسه أَقَضَّ[6] عليه وتوحَّشَ من صوتِ احتكاكِه ، فتحوَّل عنه ، ونَظَرَ إلى[7] القشورِ ، فأنكر مكانَه ، وجلس على مَلَلٍ بذلك ، [وذُكِر له أن الوُكَلَاءَ فعلوا ذلك وصَحَّ عنده ما قيل له فيهم .

فَلَمَّا أَتَوْهُ من بعد ذلك قال لهم :][8] يا مَعْشَرَ الخُصَماءِ ، [عَيَّرْتُمُونى بأَنِّى بَلُّوطِىٌّ] ، وذلك ما لا خَفَاءَ به ! أُشْهِدُ [على نفسى أَنِّى بَلُّوطِىّ : عُودٌ واللهِ صَلِيبٌ لا تَفُلُّونَ[9] فيه . ثم حَلَفَ لهم بـأَثَرِ كلامِهِ هذا أَنْ لا يَخاصِمُوا عِنْدَهُ سَنَةً ، فكادَ أن يُورِثَهُمُ الفَقْرَ](١٩٩).

[وذكر محمد بن عُمَرَ بن لُبَابَةَ][10](٢٠٠)عن محمد بن أحمد العُتْبِىِّ(٢٠١) قال :

---

(1) ص : الأمير بعد . (2) ص : فأخره . (3) ص : يعلم .

(4) الزيادة عن الخشنى : القضاة ص ١٠٨ ، وقد جاءت العبارة فى الأصل : أحمد بن عبد الله رحمن .

(5) ص : نضر .

(6) ص : أقصى . (7) كلمة مطموسة هنا لم نستطع تبينها ، ولعلها « موضع » .

(8) قمنا باستكمال النص معتمدين على بقايا حروف كلماته وعلى كتاب الخشنى ، قضاة ص ١٠٩ .

(9) فى كتاب الخشنى (نفس الصفحة) : تفعلوا ، وفى نفس النص (طبعة القاهرة) ص ٩٤ : تفلوا .

(10) التكلة عن الخشنى ص ١١٢ .

٢٠٣ ب] / صَلَّى بنا يومًا سعيدُ بنُ سلمان القاضى صلاةَ الجُمُعَةِ فى المسجد الجامع بقُرْطبة ، ثم خَرَجْنَا معه نمشى نحو داره ، فلما انتهى إلى باب الفُرْنِ الذى كان يطبُخُ فيه قال لصاحب الفرن : أَطَبَخْتَ[1] خبزتى ؟ فقال له : نعم . قال : فهاتِها . فناوله إيَّاها ، فصَيَّرها تحت عَضُدِه ، وقَوَّمَ طريقَهَ إلى داره ، ونحن نمشى معه ، ونحن قد أَخَّرْنَا دَوَابَّنَا إجلالاً له ، حتى أَدَّيْنَاه إلى منزله ، فسلَّم علينا ودخل وانصرفنا عنه(٢٠٢).

وفى كتابِ القاضى أبى الوليد ابن الفَرَضِىِّ :

هو سعيد بن سليمان بن حبيب بن المُعَلَّى بن إدريس بن محمد بن يوسف الغافِقِى البَلُّوطِىُّ ، استقضاه الأمير عبد الرحمن بن الحكم مرتين(٢٠٣).

يحيى بن مَعْمَر الأَلْهَانِىّ(٢٠٤) :

قال محمد بن حارث :

يحيى بن مَعْمَر بن عِمْرَان بن مُنِير بن عُبَيْد بن أُنَيْف الأَلْهَانىّ ، من العرب الشاميِّين (٢٠٥) وكان من أهل إشبيليَّة ، مَنْزِلُهُ منها بِمَفْرَانَه(٢٠٦)، قرية بقرب الحاضرة، وعليها مَمَرُّ السَّابِلة ، وكان فى وقته فقيه إشبيليَّة وفارِضَها[2] ، وكانت له رحلةٌ لَقِىَ فيها أشهب بنَ عبدِ العزيز(٢٠٧)، وسمع منه ومن غيره من أهل العلم ، وكان وَرِعًا زاهدًا فاضلاً عَفًّا مقبلاً على عِمارة ضيعته وتَرْقِيحِ[3] معيشته ، فانتهى خَبَرُهُ إلى الأمير عبد الرحمن ، وقد احتاج إلى قاضٍ ، فاعْتَامَهُ[4] للقضاء، واستقدمه إلى قرطبة ، فقلَّده قضاء الجماعة بها ، فَصَدَقَ الظَّنُّ به ، واغتدى من خير القضاة فى قَصْدِ سيرته ، وحُسْنِ هَدْيِه ، وصلابة قناته ، وإنفاذِ الحقِّ على من توجَّه عليه ، لا يحفل لَوْمَةَ لائمٍ فيه .

وكان إذا أشكل عليه أَمْرٌ من أحكامه واختلف عليه فيه فقهاء قرطبة تَأَنَّى بهم ، وكَتَبَ فيه إلى مصر إلى أَصْبَغَ بن الفَرَجِ (٢٠٨)وغيره من نظرائه ، فيكشِفُهُمْ على وجه مايريد

---

(1) ص : أصبخت .

(2) الفارض والفرضى هو القائم بقسمة الفرائض أى المواريث .

(3) ص : تربيح ، والصواب ما أثبتنا ، والترقيح هو إصلاح المعيشة ، وهو لفظ كثير الدوران فى كلام ابن حيان

(4) فى الأصل بغير إعجام .

ويطلب النجاة من تَخَلُّفِ[1] الفقهاء عليه ، بُغْيَةَ أَجْوِبَتِهِمْ فى ذلك بما يَعْمَلُ عليه ، فكان فقهاءُ قرطبة يحقِدون ذلك عليه ، فيذمُّونه ويَتَتَبَّعُونَ عَثَرَاتِه ، ويُبَغِّضُونَهُ إلى [الناس] ، وكان أَشَدَّهم عليه زعيمُ الجماعة يحيى بن يحيى ، فهو الذى سعى[2] فى تجريحه إلى أن عُزِلَ عن القضاء .

فذكر خالدُ [بن سَعْد(٢٠٩) قال : سمعت غير واحد من مشايخ أهل العلم يقول : كان][3] بين الشيخ يحيى بن يحيى وبين يحيى بن مَعْمَر [عداوةٌ شديدة] ، فَسَعَى يحيى بن يحيى فى [عَزْلِ يحيى بن مَعْمَر القاضى عند الأمير عبد الرحمن رحمه الله ، وأقام عليه البَيِّنَاتِ [من أهل العلم والعدالة] .

[قال ابن عبد البَرّ :

وقدِمَ لَيْلَةَ عيدٍ ، وكانت تُوضَعُ للإمام عَنَزَةٌ فى المُصَلّى(٢١٠) ، فباكر أهلُ الدَّهاء والحركة واصْطَفُّوا إلى العَنَزَةِ ، ليختبروا خطبته وينتقدوا عليه ، فلما نظر إليهم عَرَفَ بهيئاتهم أنهم بالصفة التى كانوا بها][4] ، / ووقع فى رُوعِهِ السببُ الذى ذهبوا إليه ، فكادَهُمْ بأَنْ قال لِلْقَوَمَةِ : إنى أرى الناس قد أَزْحَمُوا حول العنزة ، فَقَدِّمُوها إلى الفضاء لِيَسْتَوْسِعُوا ! فبادر القَوَمَةُ إلى تقديم العَنَزَةِ حتى وَسَّعَتْ ، فتكنَّفُوها واصطَفُّوا حولها ، وتثاقل ذوو الهيئات الذين نُقِلَتْ من سببهم - كما خفَّ أولئك له - ومكثوا بمكانهم ، فَحَصَلَ الشيخ بحيلته على قُرْبِ من لم تكن عليه مَؤُونةٌ من نَقْدِه ، واسْحَنْفَرَ فى خُطْبَتِه ، فكان ذوو التحصيلِ يَعْجَبُون مِمَّا فعله ، ويَحْكُونه كثيرًا عنه .

وذكر ابراهيمُ بن محمد بن بَاز(٢١١) قال :

لم يَزَلْ عَبْدُ الملك بن حبيب مُمَالِئًا للقاضى ابنِ مَعْمَر مُخالِفًا للشيخ يحيى بن يحيى فيه إلى أن عَصَاهُ ابن معمر فى القضاء لرجل يُعْنَى به ابنُ حبيب ، توجَّهَتْ عليه فَتْوَى

---

(1) يعنى بالتخلف هنا الاختلاف . (2) كلمات مطموسة لم نستطع تبين شئ منها .

(3) استعنا فى استكمال هذا النص بكتاب الخشنى ص ٨٢ ؛ والنباهى : المرقبة العليا ص ٤٥ .

(4) استكملنا هذا النص عن ابن سعيد (المغرب ١ - ١٤٧) ، وقد جاءت القصة أيضا مع بعض الخلاف والاختصار فى كتاب الخشنى ص ٨٥ .

تُوجِبُ القضاء له برأى أَشْهَبَ ، وتوجَّهَتْ بضِدِّها عليه برأىِ ابن القاسِمِ(٢١٢) ، أَخَذَ ابنُ مَعْمَر فيه برأىِ ابن القاسم ، فَلَفَتَهُ ابنُ حبيب عَنْهُ إلى رأىِ أشهبَ ، وكلَّمَه أن يَأْخُذَه به ، فلم يَفْعَلْ ، وقال : ما أَعْدِلُ عن رَأْىِ ابن القاسِمِ ، فهو الذى أفتيتمونى به مُنْذُ قَعَدْتُ هذا المَقْعَدَ(٢١٣) . وقَضَى على الرجل برأى ابن القاسم .

فغَضِبَ عليه من يومئذ ابنُ حبيب،وظاهَرَ يحيي بن يحيي ضِدَّه على مُطَالَبَتِهِ ، ودَسَّس من رَفَعَ عليه إلى الأمير أنه لا يُحْسِنُ القضاء ، فَعَزَلَهُ فى آخر سنة تسع ومائتين ، وسَرَّحَهُ إلى بَلَدِه .

فبَلَغَنَا أنه لما أَزْمَعَ الرحيلَ رَكِبَ بُغَيْلَتَهُ التى جاء بها ، ووَضَعَ خُرَيْجَهُ الذى ساقه تحته وقال لمن شَيَّعَه من صديقه : يا أهل قرطبة . أقِلُّوا علينا اللَّوْمَ ، فكما جئناكم كذلك ننصرف عنكم !

وذكر عثمان بن سعيد الزاهد (٢١٤) قال :

لما احْتُضِرَ يحيي بن مَعْمَر بإشبيليَّه وأيقن بالموت قال لمولىً له من أهل الصَّلاح كان يَنْصَحُه : أُقْسِمُ عليك بالله أَجَلَّ الأقسام إذا أنا مُتُّ إلَّا ما ذهبتَ إلى قرطبة ، فَقِفْ بيحيي ابن يحيي وقل له : ﴿وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾(٢١٥). فَفَعَلَ مَوْلَاه ما أَمَرَهُ ، وأَبْلَغَ يحيي ما به تَقَرَّعَهُ . قال : فبكى يحيي حتى أَخْضَلَ لحيته ، وقال : [إنا لله وإنا إليه][1]راجِعونَ ! ما أَظُنُّنَا إلَّا خُدِعْنَا فى الرجل وَوُشِيَ [بينَنَا وبينَه . ثم ترحَّمَ عليه واستغفر له][2] .

[قال القاضى أبو الوليد ابن الفَرَضِيِّ :

قال خالدُ بن سعد : سمعت أحمد بن خالد(٢١٦) يقول : كانت ليحيي بن معمر رحلةٌ لَقِيَ فيها أَشْهَبَ][3] بن عبد العزيز ، وسَمِعَ منه ، وولى القضاء بقرطبة سنة تسع ومائتين

(1) التكلة عن الخشنى : قضاة ص ٨٩ ؛ والنباهى : مرقبة ص ٤٥ .
(2) التكلة عن المصدرين المذكورين فى الحاشية السابقة .
(3) التكلة عن كتاب ابن الفرضى ، ترجمة رقم ١٥٥٣ .

بعد سعيد بن بشير[1](٢١٧) فى أيام عبد الرحمن بن الحكم ، وعَجَّلَ صَرْفَه بالأَسْوَارِ بن عُقْبَة الوالى بعده سنة عشر ومائتين .

ذكر ذلك ابن عبد البر ، ولم يَذْكُرْ أنه أُعِيدَ إلى القضاء مرةً ثانيةً .

/ وحَكَى ابنُ حارث أن الأمير عبد الرحمن أعاده إلى القضاء مرة ثانية ، وذلك الصحيح [٢٠٤ب] والدليل عليه أن يحيى بن معمر صلى بالناس صلاة الخُسُوفِ بقرطبة ، وهو قاضٍ ، فى مسْجِدِ أبى عثمان من الرَّبَضِ الغَرْبِىِّ سنة ثمان عشرة ومائتين . روى ذلك أحمد بن خالد عن ابن وَضَّاح قال : صلَّيْتُ الخسوفَ مع يحيى بن معمر سنة ثمان عشرة ومائتين(٢١٨) .

الأَسْوَارُ بن عُقْبَة(٢١٩) :

قال محمد بن حارث :

هو أبو عُقْبَة الأسوارُ بن عُقْبَة النَّصْرِىُّ ، وكان من أهل جَيَّان ، فاستقدمه الأمير عبد الرحمن إلى قرطبة ، وولاه قضاء الجماعة بها ، أشار به عليه يحيى بن يحيى عند عَزْلِ ابن معمر . وكان من أهل التَّحَرِّى والتواضُعِ وحُسْنِ السيرة واقتفاء السَّلف ، حتى إنه كان يتصرف – زعموا – فى مِهْنَةِ أهله ، ويحملُ خُبْزَه إلى الفُرْن بنفسِهِ ، وعلى ذلك فما سَلِمَ من فقهاء قرطبة . وهو الذى ابْتَنَى المسجدَ الذى يعرف بمَسْجِدِ الأسوارِ فى الزُّقَاقِ الكبير بقرطبة .

وقال ابنُ عبد البر :

الأسوارُ بن عُقْبَة ، كان رجلاً صالحًا عاقلاً فاضلاً مُسْمِتًا حَسَنَ الحكمِ مستقيمَ القضاء وكان الفقيه محمد بن عيسى الأَعْشَى(٢٢٠) كثيرَ الدُّعَابَةِ لا يَصْبِرُ عنها ، فكان يقول للأسوار قَبْلَ أن يَلِيَ القضاء : كيف حالُكَ يا أبا عُقْبَة ؟ – مفتوحة العين مثقلة(٢٢١) – ، فلما وَلِيَ القضاء أتاه محمد بن عيسى ، فشَهِدَ عنده مع آخر من أهل القَبُول ، فأَعْلَمَ [بِرَدِّ اسْمِ محمدٍ][2] دُونَه ، وقال للمشهود له : زِدْنِى بَيِّنَةً ! وذلك بمَحْضَرِ الأعشى .

(1) كذا فى الأصل ، والذى جاء فى ابن الفرضى الموضع المذكور فى الحاشية السابقة : سعيد بن محمد بن بشير .
(2) فى الأصل قطع ذهب ببعض حروف هذه الكلمات ولو أننا نظنها كما أثبتنا .

فقال له : أَظُنُّكَ – أكرمك اللهُ – لم تَقْبَلْ شهادتى ! فقال له : أَنْتَ – أكرمك اللهُ – جَادٌّ فى شهادتِكَ هذه أو هازِل ؟ فإنى أعرفُكَ كثيرَ الهَزْلِ ، فَعَرِّفْنِى إن كنتَ صَدَعْتَ بها عن حَقٍّ ، فِمثْلُكَ لا تُرَدُّ شهادَتُه ، وإن كانت من أَهْزَالِكَ[1] فقد وَقَفْتُها . فقام عنه الأعشى مُنْقَطِعَ الحُجَّة . فكان يقول بعد ذلك : قاتَلَ اللهُ الأسوارَ ! فلقد قَطَعَ بى عن كثيرٍ مِمَّا كنتُ أستريح إليه من الدُّعَابةِ بعد مجلسى معه .

وأنشد[2] : [من المتقارب]

[٢٠٥ ا] / وتَحْسَبُ من خِبِّهِ أَنَّـهُ تَرَاهُ عَنِ النَّاسِ فى غُـرْبَهْ

وما ذاكَ مِنْهُ – فلا تَأْمَنُـو هُ – إلَّا لِتُمْكِنَـهُ الْوَثْبَـهْ

رَأَيْتُ لَـهُ ناظِـرَىْ هِـرَّةٍ تَـرَاءَى لهـا الفَأْرُ فى ثُقْبَهْ

ابرهيمُ بن العَبَّاس القُرَشِىّ(٢٢٢) :

قال محمد بن حارث :

هو ابراهيم بن العباس بن عيسى بن عُمَر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، يكنى أبا العباس ، استقضاه الأمير عبد الرحمن بن الحكم بمشورةِ يحيى بن يحيى ، فكان محمودًا فى قضائه ، عادلا فى حكومته ، متواضعًا فى أحواله ، غَيْرَ مُتَصَنِّعٍ[3] ولا مُتَرَفِّعٍ .

حكى محمد بن عمر بن لبابه قال :

كان القاضى أبو العباس المروانى رُبَّمَا جَلَسَ فى بيته يقضي بين الناس ، وإن جارِيَتَهُ لَتَنْسِجُ فى كِسْرِ البيت .

(1) ص : أهزلك .

(2) ذهبت فى قطوع آخر الورقة بقية هذه العبارة التى تتضمن اسم الشاعر صاحب القطعة التالية والأبيات الأولى منها، ولو أننا نظن أن قائلها ينبغى أن يكون يحيى بن الحكم الغزال فهى بأسلوبه أشبه وإلى شعره أقرب . ومن الواضح أنها فى هجاء القاضى الأسوار بن عقبة .

(3) كذا فى الأصل ، وفى كتاب القضاة للخشنى (ص ٩٠) ، ويحتمل أن تكون أيضا « متصنع » – أراد أن يقابل بها « مترفع » الآتية بعد .

قال :

وكانت ولايَتَهُ سنة أربع عشرة أو خمس عشرة

وذكر محمد بن وَضَّاح قال .

هَوِىَ ابراهيمُ بن العباس إلى الشيخ يحي بن يحي جِدًّا ، وعَوَّلَ على رأيه ، فَوَجَدَ أَعْدَاؤه السبيلَ إلى ذَمِّهِ والسِّعَايَةِ عليه ، من بابِ انقطاعِهِ إلى يحي ورضا يحي عنه من بين مَنْ لم يَزَلْ يَسْخَطُه من القُضَاة قَبْلَه ، فَوَشَّوْا الوقائع[1] فيهما[2] إلى الأمير عبدالرحمن ، وانتصحوه فى تآلُفِهِمَا ، وقالوا إن إبراهيم لا يَقْبَلُ من الناسِ إلَّا من أشارَ عليه يحي بِقَبُولِهِ ولا يَفْصِلُ فى حكومةٍ إلا عَنْ أَمْرِه ، فقد استمالَ الناسَ إليه ، فَلَهُمْ فيه هوًى شديدٌ ، وَطمَعُهُ قوىٌّ فى أن يصيرَ الأَمْرُ فى يده ، فَشَغَلَ بالَ الأمير جدًّا ، وَوَهَّمَهْ فى دَغَلِ الشيخ يحي بن يحي على انحِطاطِهِ فى شِعْبِهِ وعَزْوِه لإرادته .

فأَحْضَرَ ضِدَّهُ عَبْدَ الملكِ بن حبيب وخَلَا بِهِ ، وقال له :

ـ قد تَعْلَمُ يَدِى عندك ، وأنا مُكْتَرِثٌ لأَمْر كبيرٍ أُريد أن أسألكَ عنه ، فاصْدُقْنِى فيه .

فقال : نعم ، لا يَسْأَلُنِى الأَميرُ ـ أَعَزَّهُ الله ـ عن شىءٍ إلا صَدَقْتُهُ عنه .

قال : فإنه رُفِعَ إلينا عن قاضِينا إبراهيم وعن صديقه يحي بن يحي أنهما يَعْمَلَانِ علينا فى هذا الأمر(٢٢٣) .

فقال له عبد الملك[3] :

ـ [قد عَلِمَ][3] الأَميرُ ما بينى وبين يحي من التَّبَاعُدِ ، ولكنِّى لا أقولُ إلا [الحَقَّ : ليس يَجِىءُ][3] من عند يحي إلا ما [يَجىءُ منى][3] ، فمكانُهُ من الدِّينِ مَكَانُهُ ، [وكلُّ

---

(1) كذا ، ولها وجه من التأويل واضح ، وقد تكون « فدسوا الرقاع » .

(2) ص : فيها .

(3) استكملنا هذا النص من كتاب القضاة للخشنى ص.٩٢ .

ما رُفِعَ عليه إليك فباطِلٌ . وأما القاضى فلا ينبغى للأمير أن يَشْرَكَهُ فى عَدْلِهِ من يشركُهُ فى نَسَبِهِ .

فَعَزَلَهُ الأميرُ حينئذ عن القضاء](٢٢٤) .

[وقال محمد بن حارث :

أخبرنى بعض العلماء قال :

[٢٠٥ب] قَدِمَ مُوسى بن حُدَيْر(٢٢٥) عن الحَجِّ [وكان فى الغاية من][1]_ / النَّبالَةِ ، ودعاهُ الأمير عبد الرحمن إلى الخدمة ، فأَبَى عليه ، ولزِمَ الانقباضَ ، فَبُلِىَ بعد مُدَيْدَةٍ بامرأةٍ من جيرانِهِ اسْتَعْدَتْ عليه القاضِىَ إبراهيم ، وذَكَرَتْ أنه ظَلَمَهَا فى دارٍ لها تُلاصِقُه .

فأرسل فيه إبراهيم وأَحْضَرَهُ إلى مجلِسِه ، ووَقَفَهُ على دَعْوَى المرأةِ ، واقْتَضَى جَوَابَه .

فقال له : أُوَكِّلُ _ أَعَزَّكَ الله _ عندَكَ من يُخَاصِمُها عَنِّى .

فقال : لا بُدَّ لَكَ أن تقولَ ما عندك من إقرارٍ أو إنكارٍ ، ثم تُوَكِّلَ بعد ذلك على خُصومَتِكَ من تشاء .

فقال موسى : لا ، بل أُذاكِرُ نفسى ، وأُقَدِّمُ من يُجَاوِبُ عَنِّى بما أُحَقِّقُهُ[2] من أَمْرِها .

فأَبَى إبرهيمُ أن يَقْبَلَ منه ، واضْطَرَّهُ إلى تعجيلِ جوابه فى مجلِسِه ، واشْتَدَّ عليه . فلمَّا لَمْ يَجِدْ من الجوابِ بُدًّا ، وقد حَمِىَ والْتَظَى ، قال[3] :

أَو خَيْرٌ من ذلك _ أَصْلَحَكَ الله _ ؟ أقولُ إنَّ جميعَ ما تَدَّعيهِ هذه المرأةُ حَقٌّ ، وهى فى دعواها مُصَدَّقَةٌ لا اعْتِراضَ عندى عليها . فلاسبيلَ لَكَ إلَىَّ !

فقام وهو قد احْتَمَلَ على إبراهيم حِقْدًا عظيماً حَمَلَهُ على أن سَعَى عليه ، وَأَرْهَفَ حيلَتَهُ لمطالَبَتِهِ .

---

(1) كلمات يقتضيها السياق أو شئ فى معناها .

(2) ص : أحقه . (3) ص : فقال .

وابتداً فكَتَبَ إلى الأمير عبد الرحمن يذكُرُ له أنه تَعَقَّبَ رَدَّ أمْرِهِ فيما كان أراده عليه من مُعاوَدَةِ العمل ، ورأى أنه قَدْحٌ فى صِدْقِ طاعته ، وفريضة وَلائه ، وسألَهُ تقليدَ الخِزانةِ التى كانت مِضْمَار أمانَتِه ، فأعْجَبَ الأمير ذلك من اعْتِرَافِهِ ، وولّاه الخزانة ، فتصرَّف فيها تصرُّفًا[1] أدْنَاهُ منه ، فأنْبَسَطَ إليه فى غير شئ ، ثم سَألَهُ فى بعضِ الأيامِ الخَلْوَةَ له يُذَكِّرُهُ ، فأجابه إليها ، فقال له :

ـ صَحَّ عندى أن القاضِىَ إبراهيم بن العباس يُخَاطَبُ فى مجلس نَظَرِه بأن[2] يقال له : « يابْنَ الخلائِفِ » وأنَّ له اسما يُصْغِى قلوبَ العامَّةِ إليه !

فلم يَمْتَلِك الأميرُ عبد الرحمن حين وَقَرَتِ الكلمةُ أُذُنَهُ أن عَزَلَ إبراهيم .

قال محمدِ بن حارث :

وسمِعْتُ الأميرَ وَلِىَّ [عهدِ المسلمين][3] (٢٢٦) ابنَ الناصِرِ لدينِ اللهِ يقول إنه سمع الحاجب موسى بن محمد بن حُدَيْر(٢٢٧) يقول إن موسى بن حُدَيْر عَمَّهُ دَسَّس امرأةً من مَوَالِيه [فَوَقَفَتْ للقاضى على طريقِهِ][3] فنادَتْه : يابْنَ الخلائِفِ ! [فكان ذلك سَبَبًا لِعَزْلِ إبراهيم]

قال أحمدُ [بن عبد البَرِّ][4] :

[هو جَدُّ بَنِى أبِى صَفْوَان ، وكان عاقلاً فاضلا مُسْمِتًا ، وكان عبد الرحمن قد عزَمَ على أن يُوَلِّىَ القضاء بعد الأسْوارِ رَأسَ الفقهاء يحيى بن يحيى ، فامْتَنَعَ ، وأشار بإبرهيم بن العبَّاس على] / عبدالرحمن ، فولَّاه القضاء ، فاستقلَّ به ، وأقْسَطَ[5] فى حُكْمِهِ(٢٢٨)، [٢٠٦ ا]
وأسْرَفَ فى طَوَاعِيَتِهِ للشيخ يحيى بن يحيى والوقوفِ عند حَدِّهِ ، حتى لَحِقَتْهما معًا تُهْمَةُ

---

(1) ص : تصريفاً .　　　(2) ص : أن .

(3) استكملنا هذا النص من كتاب القضاة للخشنى ص ٩٤ .

(4) استكملنا هذا النص مما نقله ابن سعيد عن ابن عبد البر فى المغرب ١ — ١٤٨ .

(5) كذا فى الأصل ، ولا نستبعد أن تكون محرفة عن « وقسط » . انظر تعليقنا على هذا الموضع .

التَّوَاطُؤ عند الأميرِ عبد الرحمن ، فسارَعَ فى صَرْفِهِ عن القضاء ، وذلك آخر سنة ثلاث عشرة ومائتين .

قال :

وكان يَكْتُبُ للقاضى إبراهيم عَبْدُ الملك بن الحسن زَوْنَانُ الفقيه(٢٢٩) ، أشار به عليه يحيى بن يحيى .

مُحَمَّدُ بن سَعِيد(٢٣٠) :

قاضٍ للأمير عبد الرحمن بن الحكم ، لم يَذْكُرْهُ محمد بن حارث ، وذكره أحمد بن عبد البرِّ ، فقال :

القاضى محمد بن سعيد ، يُكْنَى أبا عبد الله ، وكان أَصْلُهُ من كُورَة إِلْبِيرَةَ ، وكان مَعْرِفَةً للشيخ يحيى بن يحيى ، وكان يَنْزِلُ به يحيى بِبَلَدِهِ أَيَّامَ كان يَضْرِبُ بالتِّجارةِ أَوَّلَ أَمْرِه ، بَلَا عِلْمَهُ[1] ومعرِفَتَهُ ، فأَشارَ به على الأمير عبد الرحمن ، فولَّاهُ قضاء الجماعة أَوَّلَ سنة أربع عشرة ومائتين ، فاستقلَّ به ، وكان جميلَ المذهبِ فى قضائه ، حَسَنَ السَّمْتِ والهيئة ، إلا أنه كان طاعةً ليحيى بن يحيى لا يَعْدِلُ به أَحَدًا ، وكان إذا اخْتَلَفَ عليه الفقهاءُ لم يَعْدِلْ عن يحيى مَعْدِلاً .

فاتَّفَقَ أن وَقَعَتْ له قِصَّةٌ شاوَرَهُمْ فيها ، تَفَرَّدَ الشيخُ يحيى بن يحيى بقَوْلٍ خَالَفَتْهُ[2] فيه جَمَاعَتُهُمْ ، فأَرْجَأَ القَضَاء فيها حَيَاءً من جماعتهم ، وأَرْدَفَتْهُ قِصَّةٌ أخرى شاورهم فيها [بَعْدَ][3] تَوْقِيفِهِ للأَوَّل ، وقد اغْضَبَ بذلك يحيى . فلمَّا أتاهُ كِتابُهُ بهذه الرِّدافَةِ صَرَفَهُ عن رَسُولِهِ ، وقال له :

ـ ما أَفُكُّ له خِتامًا ، ولا أُشير عليه بشيء ، إذ قد تَوَقَّفَ عن القضاء لفُلانٍ بما أَشَرْتُ به عليه وعَافَهُ .

---

(1) ص : عليه . (2) ص : خالفتهم .
(3) كلمة مطموسة فى الأصل ، ولعلها كما أثبتنا .

فلما انْصَرَفَ إليه رَسُولُهُ وعَرَّفَهُ بقوله قَلِقَ منه ، ورَكِبَ من فَوْرِهِ إلى يحيى بن يحيى ، فقالَ له :

ــ لَمْ أَظُنَّ أَنَّ الأَمرَ يَبْلُغُ بك فى تَوَقُّفِى عن القضاء لفلان بفَتْوَاكَ هذا المَبْلَغَ الذى قد غَيَّرَكَ . وهذا مَقامُ المعتذِرِ إليك ، فسوف أَقْضِى لَهُ غَيْرَ(1) يَوْمِى إن شاء الله تعالى !

فقال له يحيى : وتَفْعَلُ ذالكَ صِدْقًا ؟

قال : نعم .

فقال له يحيى بن يحيى :

ــ يا هذا ، هِجْتَ الآنَ غَضَبِى ! فإنِّى ظَنَنْتُ إذْ خالَفَنِى أصحابى أنَّك توقَّفْتَ مُسْتَخِيرًا لله ، متخيِّرًا فى الأَقوالِ . فأَمَّا إذْ(2) صِرْتَ تَتْبَعُ الهوى وتقضِى برضَا مخلوقٍ ضعيفٍ فلاخَيْرَ فيا تَجىءُ(3) بِهِ ، ولا فىَّ إن رَضِيتُهُ منكَ . فارْفَعْ مُسْتَعْفِيًا من ذاتك ، فإنه أَسْتَرُ لَكَ ، وإلَّا رَفَعْتُ فى عَزْلِكَ ! .

فَرَفَعَ يَسْتَعْفِى ، فَعُزِلَ عن القضاء .

يُخامِرِ بنُ عُثْمَانَ الشَّعْبَانِى*(٢٣١)

قال ابن حارث :

هو(4) يُخَامِرُ بن عثمانَ بنِ حسَّان بن يُخَامر بن عثمان بن عُبَيْد بن أَفْنَان بن وَدَاعَة بن عُمَر الشَّعْبَانى .

وقال عبد الله بن يوسف المعروفُ بابن الفرضِىّ .

---

(1) كذا ، ولها وجه واضح من التأويل ، على أنه يحتمل أيضا أن تكون « غد » .

(2) ص : إذا . (3) ص : يجئ .

(4) ص : هـذا .

بل هو مَعَافِرى(٢٣٢) .

قال ابن حارث : لا أعْرِفُ له كُنْيَةً . وقال غيره : كُنْيَتُهُ أبو مُخَارِق[1] .

وهو أخُو مُعَاذ بن عثمان القاضى(٢٣٣) وعَمُّ سَعْدِ بن مُعَاذ الفقيهِ(٢٣٤) ،وهُمْ من أهل جيَّان(٢٣٥) من قَرْيَةِ الأَشْعُوب(٢٣٦) . وكان انتسابُهُمْ فى العَرَبِ إلى جُذَامٍ فيما أَحْسَبُهُ ، وهم – فيما قيل – من جُنْدِ قِنَّسْرِينَ[2] ، وَوَلّى الأميرُ عبدُ الرحمن يُخَامِرَ هذا قضاء الجماعَةِ بقرطبة ، ولم يَكُ أهلاً له ، ولا راجحَ الوَزْنِ ، ولا حاضِرَ اليَقِـ[ـينِ] ، ولا واسعَ البَـ[ـصيرَةِ] فيه ، [وعامَلَ الناسَ بخُلُقٍ صَعْبٍ ، ومذهبٍ وعرٍ ، وصَلَابَةٍ جاوَزَتِ المقدارَ ، فتسلَّطَتْ عليه الألْسُنُ ، وكثُرَتْ فيه المقالة][3] .

[٢٠٦ ب] / وانبرى له شاعِرُ قرطبةَ فى ذلك الزمان يَحْيَى بنُ الحَكَمِ الغزالُ مُنْتَهِكُ الأَعْرَاضِ ، ومُخْزِى الرِّجال ، فأكْثَرَ هَجْوَهُ وذَمَّهُ ، وَوَصَفَهُ بالْبَلَهِ والجَهلِ ، فَنَدَّرَ بذِكْره . فمن قوله شعرٍ له : [من الطويل]

فَسُبْحَانَ مَنْ أعْطَاكَ بَطْشًا وقُـوَّةً   وسُبْحَانَ مَنْ وَلّى القَضَـاءَ يُخامِرا

وقوله من أخرى : [من الطويل]

فَقُلْتُ لَهُ : كَلَّفتَنِى غَيْرَ صَنْعَتِى   كما قَلَّدُوا فَضْـلَ القَضَاءِ يُخَامِرَا
فَأَصْبَحَ قَـدْ حَارَتْ به طُرُقُ الْهَوَى   يُكابِدُ لُجِّيًا من البَحْـرِ زاخِـرًا
فَقُلْتُ : لَوِ اسْتَعْفَيْتَ منها ، فقالَ لى   سَأَفْصَحُ ما قـد كانَ ذاكَ[4] مُغَايرا
فقُلْتُ له : رَأْسُ الفُضُوحِ إقَـامَةٌ   عَلَيْنَـا كذَا من غيرِ عِلْمٍ مُكابـرًا
وخَبْطُكَ فى دِينِ الإلَهِ على عَمىً   خِباطَـةَ سَكْرانٍ تَكَلَّمَ سـادِرًا

(1) ص : مخاق ، والأرجح أن تكون كما أثبتنا .

(2) ص : فلسطين ، والصواب ما أثبتنا ، وهو ما جاء فى كتاب الخشنى ص ٩٥ ، وانظر تعليقنا على هذا الموضع

(3) ما أثبتناه بين حواصر اعتمدنا فيه على ما بقى من خلال القطوع وعلى ما استخلصناه من نص الخشنى المذكور فى الحاشية السابقة

(4) ص : ذاك ، واللفظ على كل حال قلق .

فَلَنْ تَحْمِلَ الصَّخْرَ الذُّبابُ ولَنْ ترى السّـ (م) ـلاحِفَ يُزْجِينَ السَّفِينَ المواخِرا

وقوله فيه : [من المجتث]

لَقَـدْ سَمِعْتُ عَجِيبًا مِن آبِـدَاتِ يُخَامِرْ

قَـرَا عليـهِ غُلامٌ طَهَ وسُـورَةَ غافِـرْ

فقالَ : مَنْ قالَ هَـذَ ؟ هَـذَا لَعَمْرِىَ شاعِـرْ !

أَرَدْتُ صَفْعَ قَفَـاهُ فَخِفْتُ صَوْلَةَ جَائِـرْ

أتِيتُ يَوْمًا بِتَيْسٍ مُسْتَعْبِرًا مُتَحَـاسِـرْ،[1]

فقلتُ : قُومُوا اذْبَحُوهُ فقالَ : إِنِّى يُخَامِـرْ !

وكان الغَزَالُ بذيئًا مُنْتَهِكًا للأَعْرَاضِ

قال ابن حارث :

وحدَّثَنى الأميرُ ولِىُّ العَهْدِ الحَكَمُ بن النَّاصِرِ لدين الله — وقد جرى ذكر يُخَامِر وما وصف من بَلَهِهِ وغَفْلَتِه — قال :

أَلْقَى عَبْدُ الله بن الشَّمِرِ(٢٣٨) الشَّاعِرُ يَوْمًا بين سِحاءاتِ يُخامر بن عثمان التى كان يُنادِى بها الخصومَ للتَّقَدُّمِ إليه سِحاءةً مكتوبًا عَلَيْهَا « يُونُس بن مَتَّى » و« المسيحُ بن مَرْيَم » ، وخَرَجَتِ السحاءةُ إلى يَدِه ، فأَمَرَ أن يُدْعَى له بها ، فَهَتَفَ الهاتِفُ : يونُس بن متّى ، والمسيح ابن مريم ! واتَّصَلَ الهاتِفُ بخارِجِ المجلسِ ، ولا مُجِيبَ ، إلى أن صاحَ ابن الشَّمِرِ : إن نُزُولَهُما من أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ؟ . . ثم تَنَاوَلَ سِحاءةً فَكَتَبَ فيها :

يُخَامِرُ ما تَنْفَكُّ تَأْتِى بِفِضْحَةٍ
دَعَوْتَ ابْنَ مَتَّى والمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَا
فَثَوَّبَ فِينَا ثم نَادَاكَ صَائِحٌ :
فإِنَّهُمَا لَمَّـا على الأَرْضِ يُعْلَمَا

---

(1) ص : متجاسر ، ولعلها كما أثبتنا ، أى « متصنعا للحسرة » .

قَفَاكَ قَفَـا جَحْشٍ وَوَجْهُكَ مُظْلِمٌ
وَعَقْلُكَ ما يَسْوَى مِنَ الْبَعْـرِ دِرْهَمَا
فَلَا عِشْتَ مَوْدُودًا ولا رُحْتَ سالِمًـا
ولا مُتَّ مَفْقُـودًا ولا مُتَّ مُسْلِمَـا

فلم يَلْبَثِ الفقهاءُ أن أَطْبَقُوا على ذَمِّ يُخَامِر وقَدْحِه[1] ، وثارَتْ العامَّةُ به ، فتألَّب عليه قومٌ رَفَعُوا [فيه إلى الأمير عبد الرحمن يشكونَه إليه ، فلما كَثُرَ ذلك][2] على الأمير أَمَرَ الوزراءَ بالشهادةِ [والنَّظَرِ فى أَمْرِ يُخَامِر ، فذُكِرَتْ عنه أشياء مَدَارُها على قلَّةِ المداراةِ] وتركِ حُسْنِ المعاملة .

[قال محمد] بن حارث : وأخبرنى [محمد بن عبد الملك بن أَيْمَن(٢٣٩) قال :

فلمَّا أَتَى الفتى إلى يُخَامِرَ بعَزْلِهِ من عند الأمير رحمه الله قال له يخامر على رُؤوسِ الناس : قُلْ للأمير – أَصْلَحَهُ الله – إذ وَلَّيْتَنِى أَمَرْتَنِى أَنْ أَتَحَفَّظَ من السِّلْسِلَةِ السُّوءِ ، واليومَ تعزِلُنِى ببَغْيِها عَلَيَّ ! فلما بلَّغ الفتى قولَهُ إلى الأمير قال : قبَّحه الله ! ذكر أسرارَنا على رُؤوسِ الناس !] .

[٢٠٧ ا] [وكان الأمير عبد الرحمن قد ضاق بيحيى بن يحيى والفقهاء الضَّالِعِين][3] / معه فى كلِّ ما يُشير به ولا يخالِفون عن أمْرِه ، فكان الأميرُ عبدُ الرحمن يكرهُ تَألُّبَهُمْ ويَقْلَقُ منهم ويُسَمِّيهِمْ « سلسلةَ السُّوءِ » . فلما وَلَّى يخامرَ بن عثمان القضاءَ حَفَّظَهُ منهم وسمَّاهُمْ له هذا الاسم ، فَتَجَنَّبَهُمْ[4] يُخَامِر ، وأَخَذَ[5] حِذْرَهُ منهم ، فلم يلبثْ أن تَمَالأُوا عليه ، فأَفْشَوْا ذَمَّه ، وأبدوا عَيْبَهُ[6] ، وكَرَّهُوهُ إلى الناسِ ، وأَعْمَلوا أقلامَهُمْ فيه إلى الأمير حتى أَمَرَ بعَزْلِه فلما أنْ جاءَهُ الرسول فَضَحَ سِرَّه بالقَوْلِ الذى تقدَّمَ ذِكْرُه ، فزادَ فى كُرْهِهِ له .

---

(1) فى الأصل كلمة غير واضحة لعلها كما أثبتنا .
(2) استكلمنا هذا النص مع المحافظة على ما بقى من كلماته خلال القطوع من كتاب القضاة للخشنى ص ٩٥ – ٩٦ .
(3) استكملنا هذه العبارة بما يفهم من السياق فى أول الصفحة التالية .
(4) ص : فتحببهم . (5) ص : وأخـذوا .
(6) ص : عيبه .

وقال ابنُ عبد البرّ :

القاضي يُخَامِرُ بن عثمان ، لا أحفظُ له كُنْيَةً ، وأصلهُ من جيّان ، ولّاه الأمير عبد الرحمن القضاء سنة عشرين ومائتين ، وكان رجلاً فاضلا عَفًّا خَيِّرًا ، غير أنه كانت فيه عُنْجُهِيَّةٌ(1) وجَفَاءٌ(2) . لَمَّا بَلَا أَمْرَ الحكومةِ بقرطبةَ ونظر إلى قَدْرِ الشيخ ابْنِ يحيي عِنْدَ(3) أهْلِها وغَلَبَتَهُ على نفوسِهم وَطَوَاعِيَتَهُمْ له ضاقَ صَدْرًا به ، فكتب إلى الأمير عبدِ الرحمن : « إنِّي قَدِمْتُ إلى قرطبةَ ، فوَجَدْتُ لها أميرَيْن(4) : أميرَ الأخيارِ ، وأميرَ الأشرارِ . فأمَّا أميرُ الأخيارِ فَيحيي بن يحيي ، وأما أميرُ الأشرارِ فأنْتَ » . فَاسْتَجْفَاهُ عبد الرحمن وأمَرَ بعَزْلِه .

وأعادَ على القضاء سَعيدَ بن سليمان ، فلم يَزَلْ سعيدٌ قاضيًا من آخرِ سنة عشرين ومائتين إلى آخر سنةِ سبعٍ وعشرين ، فإنه تُوُفِّيَ بها ، واسْتَقْضَى الأمير عبد الرحمن مكانَهُ عليَّ بْنَ أبي بكرٍ الكِلابيَّ .

عَلِيٌّ بن أَبي بكر الكِلابيُّ(٢٤٠) :

قال ابن عبد البرّ :

هو عليٌّ بن أبي بكر القَيْسِيُّ ، يُكْنَى أبا الحَسَن ، وهو جَدُّ عليٍّ بن محمد بن البَاسُهْ(٢٤١) استقضاهُ الأميرُ عبد الرحمن سنة سبعٍ وعشرين ، أشارَ به الشيخُ يحيي بن يحيي ؛ وقلَّما كان الأميرُ عبد الرحمن يُوَلِّي قاضيًا إلا عن مَشُورةِ يحيي بن يحيي ورضاه ، ولذلك ما كَثُرَت القضاةُ في أيامه ، إذْ كان الشيخ يحيي بن يحيي يشير بالقاضي منهم بعد القاضي ، فإذا أَنْكَرَ على القاضي منهم شيئًا قال له : اسْتَعْفِ من الأمير وإلا رَفَعْتُ في عَ [ـزْلِكَ] .

وكان عليٌّ [بن أبي] بكر [شريفَ النفسِ ، حَسَنَ السَّمْتِ ، على اعتدالٍ واستقامةِ حالٍ ، ولم يَزَلْ قاضيًا وصاحبَ صلاةٍ إلى أن تُوُفِّيَ في سنة إحدى وثلاثين ومائتين . وقد

---

(1) ص : غنجية .
(2) ص : وحيا .
(3) ص : عبد .
(4) ص : أمير ابن .

قيل إنه صَرَفَهُ سنة تسع وعشرين ومائتين قبل وفاته ، وولّى مكانَه محمد بن زياد بن عبد الرحمن الّلخمِيُّ][1] .

[وقال محمد بن حارث :

[٢٠٧ب] على بن أبي بكر][2] / بن عُبَيْدٍ الكِلابيُّ يلقب [بِيُوَانِشْ][3](٢٤٢) ، وهو من أهل قَبْرَةَ(٢٤٣) .

معاذُ بن عثمان الشّعبانِى(٢٤٤) .

قال محمد بن حارث :

ولّى الأميرُ عبدُ الرحمن بن الحكم قضاء الجماعة مُعَاذَ بن عثمان الشَّعْبَانِيَّ ، وكان من أهل جَيَّان ، فكان قاضيًا بقرطبة سبعة أشهر(٢٤٥) ، ثم عَزَلَه ، وكان السببُ فى عَزْلِه - زَعَمُوا تعجيلَهُ بالحكومة ، وأنه أُحْصِيَ عليه فى مُدَّتِهِ تلك سبعونَ قضيةً أنْفَذَهَا ، فاسْتُكثِرَتْ منه ، وخِيفَ عليه الزَّلَلُ ، فَعَجَّلَ عَزْلَهُ(٢٤٦) . وقد كان - فيما سَمِعْنَا به - حَسَنَ السِّيرة، لَيِّنَ العريكَةِ[4] ، خَالَقَ الناسَ بغيرِ خُلُقٍ يُخَامِرَ أخيه ، وطَلَبَ التَّخَلُّصَ منهم ، فما اسْتَوَى له ذلك .

وسمعتُ من يحكى عنه أنَّه كانت معه صِحَّةُ ضمير ، وسلامة قَلْب ، وكان لا يظُنُّ بأحدٍ شرًّا . وكان قد وَلَّى الأَحْبَاسَ(٢٤٧) بقرطبة رجلاً أحْسَنَ الظنَّ به ، فلما بَلاه[5] أكْذَبَ ظَنَّه ، فقال فيه يحيي بن الحَكَمِ الغَزَالُ : [من الطويل]

يَقُولُ لِيَ القاضِي مُعَـاذُ مُشَـاوِرًا
- وَوَلَّى امْـرأً فيما يَرَى مِنْ ذَوِى العَدْلِ

(1) استكملنا هذا النص من ترجمة القاضى على بن أبى بكر الكلابى فى التكملة (ط . ألاركون وبالنثيا ، رقم ٢٢٩٤ ، وينص ابن الأبار على أنه ينقل هذه الترجمة من كتاب ابن حيان ، كذلك استأنسنا فيها بنص المغرب لابن سعيد (١ / ١٥٠) وهو ينقل فى هذا الموضع عن ابن عبد البر مرجع ابن حيان هنا ، ولو أن نصه كالعادة شديد الإيجاز .

(2) استكملنا النص هنا من كتاب الخشنى ص ٩٧ .

(3) إضافة عن الخشنى .

(4) ص : العركة .

(5) ص : أبـلاه .

قعيدك[1] ماذا تحسب المرء صانعا ؟

فقُلْتُ : وماذَا[2] يَفْعَلُ الدُّبٌّ فى النَّخْلِ ؟

يَدُقُّ خَـلايَاهَـا ويَأْكُلُ شُهْدَهَـا

وَيَتْرُكُ لِلذِّبَّانِ[3] ما كانَ من فَضْلِ(٢٤٨)

وللغَزَالِ فى عَدْلَيْنِ من عُدُولِ مُعَاذ : [من الطويل]

أَتَاكَ أَبـو حَفْصٍ ويَحْيَى بنُ مالِكٍ

فأَهْلاً وسَهْلاً [بالْوَغَى] [4] والمعَامِعِ

رجالٌ إذا صَبّوا عليكَ شَهَادَةً

حَكَتْ فيكَ وَقْعَ المُرْهَفَاتِ القَوَاطِعِ

اقـولُ لِدِيكِي إذْ رَأَيْتُ وُجُوهَهُمْ :

تَعَـزَّ فَقَدْ جاءَتْكَ إحْـدَى الْفَجَائِعِ !

زَنَا واسْتَهَلَّتْ عندَ ذاكَ دُموعُـهُ

وقالَ : كثيرًا ما أفاضُـوا مداوِعِـى

وقال ابن عبد البرّ :

هو معاذُ بن عثمان أخو يخامر بن عثمان ، يُكْنَى أبا عبد الله ، أَصْلُهُ من كورة جَيَّان ، وكان عابدًا ناسكًا .

أخبرنى من سمع سَعْدَ بْنَ مُعَاذ(٢٤٩) يقول : كان مُعاذ بن عثمان من الأَبْدَال(٢٥٠) ، وكانوا يَعُدُّونَهُ مُجَابَ الدَّعوة . يُذْكَرُ أنه أَتَاهُ يومًا رجلٌ مُتَظَلِّمٌ من الحاجبِ ابن رُسْتُمْ(٢٥١) ويقولُ إنه اغْتَصَبَهُ مالاً له ، فقالَ له : خُذْ طَابَعًا وامْضِ به نَحْوَه ، فَتَصَدَّ له وقُلْ له : « هذا طابَعُ

(1) ص : تعيدك ، ولعل الصحيح ما أثبتنا ، وقد ورد مكان هذه فى كتاب الخشنى (ص ٩٩) : « فديتك » .

(2) ص : وهـذا . (3) ص : اللدبان .

(4) زيادة أضفناها لكى يستقيم البيت وزنا ومعنى ، ونظنها لا تخرج عما أثبتنا .

القاضي » . فإذا هو رَكِبَ [فاجْبِذْهُ بكُلِّ قُوَّةٍ عِنْدَكَ][1] ، فاضْرِبْ بيدِكَ على عِنانِه ولاتفارِقْهُ حتَّى يَصيرَ إلينا ، [2] ، وإيَّاكَ أن [تَتَذَلَّلَ][3] له ، فإنَّهُ أَهْيَبُ لَكَ .

فَأَخَذ الرَّجُلُ الطابَع ، ومَضَى [به إلى الحاجب] [3] وقد تَقَدَّمَ [3]

[٢٠٨ ا] / وتشهدوا عنده لا أَشْهَدْتُه لكم ،[4] [2] الرجلُ بين يديه ماشاء ، وهذا وَكِيلى نُصَيِّرُهُ إليه ، ويُنْصِفُه مِمَّا يَدْعِيهِ . فأَتَوْا القاضِىَ فأَعْلَمُوه ، فأَخَذَ للرَّجُلِ بحَقِّه .

وكان تَقَلُّدُ مُعَاذ القضاءَ سنةَ اثنتين وثلاثين ومائتين ، فعَمِلَ عليه ثلاثةَ أعوامٍ ، وماتَ وهو يَليه سنةَ أربعٍ وثلاثين ومائتين بعد مَهْلَكِ الشيخ يحيى ، فَوَلِيَ مكانَهُ محمدُ ابن زِيادٍ الَّلخْمِىُّ[5] .

محمد بن زِياد الَّلخْمِىُّ :

قال محمد بن حارث :

ثم وَلَّى الأَميرُ عبدُ الرحمن قضاءَ الجماعَةِ بقرطبةَ بَعْدَ مُعاذ بن عثمان مُحَمَّدَ بن زيادِ ابن عبدِ الرحمنِ بن زُهَيْرٍ اللخمىَّ ، ومحمد هذا هو والِدُ القاضى الحبيبِ بن زياد(٢٥٣). وكان محمد حَسَنَ السِّيرة ، محمودَ الولاية ، رفيعَ البيت فى العُلَماءِ بقرطبة ، وسَمِعَ من مُعَاوِيَةَ بن صالِحٍ (٢٥٤) سَمَاعًا كثيرًا(٢٥٥) .

---

(1) كلمات مطموسة فى الأصل ، اعتمدنا فى إثباتها على بقايا حروفها .

(2) كلمات ذهبت فى قطوع الورقة بقدر ما تركنا من بياض .

(3) ذهبت فى قطوع آخر الورقة كلمات بقدر ما تركنا من بياض .

(4) أصاب السطر الأول من هذه الصفحة طمس شديد لم نستخلص خلاله إلا ما أثبتنا من كلمات . ومع ذلك فى وسعنا أن نتصور بقية الخبر ، فى اعتقادنا أن الرجل المتظلم أخذ الطابع وفعل ما أمره به القاضى ، فاعترض الحاجب ابن رستم وهو فى موكبة وعلى ملأ من الناس وطلب إليه أن يصير معه إلى مجلس القاضى ، ويبدو أن الحاجب لم يمتعض ولم يعترض ولكنه اعتذر عن عدم مرافقة الرجل ، غير أنه أمر بتصيير وكيله إلى القاضى مع الرجل ووعد بإنفاذ كل ما يحكم به القاضى معاذ والانصياع له ، وأشهد الناس على ذلك .

(5) ص : الخمى .

وقال لى محمد بن عبد الله بن أبي عِيسى(٢٥٦) :

لمـا احْتُضِرَ يحيي بن يحيي أَسْنَدَ وصيَّتَهُ[1] فى أداءِ دَيْنٍ وبيعِ مالٍ إلى محمد بن زيادٍ ، وكان القاضِى يَوْمَئِذٍ ، فكانت وَصِيَّتُه فى ذلك الوجْهِ خاصَّةً .

قال[2] :

وهو الذى صَلَّى علىيَحْيَى ، فَذُكِرَ أن ابنه إسحق بن يحيي(٢٥٧)تَقَدَّمَ يَتَقَدَّمُهُ للصَّلاة: يُكَبِّرُ ابنُ زياد ، ويُكَبِّرُ إسحقُ تِلْوَهُ ، وجَرَى على ذلك فى التسليم بعد تسليمِ ابن زياد . فلمَّا وُورِىَ يحيي وَبَّخَ ابنُ زيادٍ إسحق على ما فَعَلَهُ ، وقال له :

ـ مَنْ أَقْدَمَكَ عَلَيَّ بهذا ؟

فقال له إسحق :

ـ مَنْ قَدَّمَكَ أنتَ للصَّلاة على أبي ؟

فقال له ابن زياد :

ـ أَمْرُ الصَّلاةِ إلىَّ دُونَك، ومَعَ هذا فإنَّ أخاكَ ـ يَعْنِى عُبَيْدَ الله(٢٥٨)ـ دَعَانِى إلى ذلك، وهُوَ ـ مع فَتَائِهِ[3] ـ أَرْشَدُ منك . أَمَا والله لولا حِفْظِى لصاحبِ الحُفْرَةِ لَأَدَّبْتُكَ !

وكان عُبَيْدُ اللهِ بْنُ يَحْيَى يومئذ ابْنَ سبعَ عَشْرَةَ سنةً ، فكانَ ثَنَاءُ محمد بن زياد يومئِذٍ عليه أَوَّل أسباب سُؤْدُده ، وما زالَ ابنُ زيادٍ له على تكريمٍ ومَبَرَّةٍ .

وذكَرَ أحمدُ بن زياد(٢٥٩) عن مُحَمَّد بن وَضَّاح قال :

شهِدَ شاهِدٌ عند القاضى محمد بن زيادٍ بشهادَةٍ على المعروف بِغُرَابٍ ـ وكان جاهِلاً عاتِيًا ـ . فقال غُرَابٌ لمحمد بن زياد :

---

(1) ص : وصية .

(2) يبدو لأول وهلة أن ضمير « قال » هنا يعود على ابن أبي عيسى الذى نقل الخشنى عنه الخبر السابق ، ولكن هذا غير صحيح ، فالخشنى يسند روايته فى هذا الموضع إلى « بعض رواة الأخبار » (قضاة ص ١٠٠) ، ويعقب عليه بقوله إنه حكى هذه القصة لمحمد بن عبد الله بن أبي عيسى « فلم يعرفها » ، وقال : كان عبيد الله من أشد الناس إعظاما لأخيه إسحق ، وكان يأخذ بركابه إذا أراد أن يركب ، فما أدرى إن كان فعل مثل هذا » (قضاة ص ١٠١) .

(3) ص : فنائه .

ـ ومن شَهدَ عَلَيَّ ـ أَصْلَحَكَ اللهُ ـ ؟ فما أَحْسَبُهُ الَّليْثَ بْنَ سَعْد(٢٦٠) !

فقالَ له ابنُ زِياد :

ـ [وَمَا ذِكْرُ الليثِ بنِ سَعْدٍ ها هُنَا ؟ !

فَأَمَرَ به ـ وذلك فى المسجد ، وهُوَ والى الشرطة ـ فَقُنِّعَ أَسْواطًا .

قال : فكان ذلك من فِعْلِهِ صَوَابًا .

قال ابن وضَّاح :

وابْنُ القاسِمِ يرى أن يُعَزِّرَ السلطانُ الرجلَ فى المسجد بالسَّوْطِ ، وسَحْنُونُ يأْبَى ذلك(٢٦١).

قال :

ولما وَلِيَ سحنونُ بنُ سعيدٍ القضاءَ حَمَلَ الضَّرْبَ على الذى لا يريد غُرْمَ ما عَلَيْه وهو مَلِيٌّ بعد أن حَبَسَه][1] ، ـ فقال[2] له :

ـ مِنْ أَيْنَ أَخَذْتَ الضَّرْبَ ، وإنما كُنَّا نعرِفُ الحَبْسَ حتى يَغْرَمَ ؟

فقال :

ـ من حديثِ النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله « مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ » ، فإذا كان ظالما كما سمّاهُ[3] رسول الله صلى الله علية وسلم أَدَّبْتُه(٢٦٢) .

وذكر بعضُ الرواة قال :

بينما القاضى محمد بن زياد يومًا يُسَايِر الفقية محمد بن عيسى الأَعْشَى(٢٦٣) إذ لقيا رجلاً يمَا يَدُ سُكْرًا[4] ، فأَمَرَ ابنُ زيادِ الأَعْوانَ بأَخْذِهِ ، وحَمْلِهِ ليقيم عليه الحَدَّ ، ففعلوا .

وانْتَهَى محمدُ بْن زيادٍ من طريقِهِ إلى مكانٍ ضيِّقٍ تقدَّمَ فيه ، واسْتَأْخَرَ عنه صاحِبُه الأَعشى ، فَدَنَا إلى الغلامِ الذى كان يُمْسِكُ السَّكْرَانَ ، فقالَ له : يقولُ لَكَ القاضِى أَطْلِقِ

(1) التكملة عن الخشنى : قضاة ص ١٠١ .

(2) كذا فى الأصل ، وفى كتاب الخشنى : فقيل . ويبدو أن ابن حيان ذكر اسم موجه السؤال إلى سحنون فيما ذهب من النص فى قطوع آخر الصفحة السابقة ، فبنى الفعل للمعلوم من أجل ذلك .

(3) فى الأصل بعد هذه الكلمة لفظ الجلالة « الله » وهو زائد لا موضع له .

(4) ص : سكران .

الرَّجُلَ . فَفَعَلَ . وانتهى الأعشى مع ابنِ زيادٍ إلى مَوْضِعِهِ ، ثم سَلَّم عليه . وفارقه ابن زياد ، فدعا بالسَّكرانِ ، فقالَ له غلامُهُ : أَمَرَنِى عنكَ الفقيهُ أبو عبد الله بإطلاقِه ، ففعلتُ ، ولم أَتَّهِمْهُ . فقال : أَوَ فَعَلَهَا ؟ فهِيَ من فَعَلَاتِهِ ! وابتسم ، وقال[1] : لَعَمْرِى لقد أَحْسَنَ !

قال ابن حارث :

وما أَعْرِفُ لما أَتَى[2] عن القضاةِ والحكّامِ فى هذا الباب من الإغضاء عن السُّكارَى[3] والتغافُلِ لهم وجْهًا يتسعُ لهم القولُ فيه ، ويَنْسَاغُ[4] لهم العُذْرُ فيه إلا وجهًا واحدًا : وهو أن حَدَّ السكرانِ من بين الحدودِ كلِّها لم يَنُصَّهُ الكتابُ المُنَزَّلُ ، ولا وَرَدَ فيه حديثٌ ثابتٌ عن النبى صلى الله عليه وسلم .

وإنما ثَبَتَ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم[5] أُتِيَ برجُلٍ قد شَرِبَ ، فَأَمَرَ أصحابَهُ أن يَضْرِبُوه على مَعْصِيَتِهِ ، فضُرِبَ بالنِّعالِ وبأَطْرافِ الأَرْدِيَةِ[6] .

وتوفى صلى الله عليه وسلم ولم يَحُدَّ فى ضَرْبِ السَّكرانِ حَدًّا يلْحَقُ بسائِرِ الحدود . فلمّا نَظَرَ أبو بكر الصديق رَضِيَ الله عنه فى ذلك بَعْدَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم واستشار أصحابه قال له عَلِيٌّ بن أبي طالب رحمه الله إنَّهُ مَنْ شَرِبَ سَكِرَ ، ومن سَكِر هَذَى ، ومن هذى افْتَرَى ومن افترى وَجَبَ عليه حَدُّ الافْتِراء ، فأَرَى أن تَضْرِبَ الشارِبَ ثمانين : حَدَّ المُفْتَرِى . فَقَبِلَ ذلك منه هُوَ والصَّحابة[7] رحمةُ اللهِ عليهم .

وذَكَرَ الحديثُ أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رضى الله عنه قال عِنْدَ مَوْتِهِ : ما شَيْءٌ فى نَفْسِى منه شَيْءٌ غيرحَدِّ الخمرِ ، فإنه شيءٌ لم يَفْعَلْهُ رسولالله صلى الله عليه وسلم ، وإنما هو شَيْءٌ رأيناه بَعْدَه(٢٦٤) .

---

(1) ص : قال .   (2) ص : أوتى .

(3) ص : السكران ، ولا بأس بها لو كان الضمير الوارد بعد ذلك للغائب المفرد ، أما وهو للجمع (لهم) فقد اقتضى ذلك التصحيح .

(4) فى كتاب الخشنى : يتسع .

(5) بعد هذا اللفظ كلمة « أنه » فى الأصل ، وهى زائدة لا حاجة للسياق إليها .

(6) ص : الأرية .   (7) ص : وهو الصحابة .

وقال ابن عبد البر :

مُحَمَّدُ بن زِياد بن عبد الرحمن [يكنى][1] أبا عبد الله ، [وهو والِدُ] الحبيب ابن زياد القاضى . كان رجلاً عاقلاً [راويةً عن يحيى ، ولكنه لم يَكُنْ حافِظًا ، وأبقاهُ الأمير محمدُ على القضاء حتى تُوُفِّيَ ابنُ زياد](٢٦٥).

[قال محمد بن وضّاح] :

[٢٠٩ ا] /وكان محمد بن زياد أَحَدَ العقلاء الحُلَمَاء الأُدَبَاء . لقد أَتَيْتُ يومًا معه ومع رَجُلٍ من قُرَيش إلى عِيادَةِ[2] مريضٍ من إخوانِه ، فاستَأْذَنَ عليه ، وسَأَلَتْ بنا خادِمُهُ ، فقال[3] لها قُولِي لمولاكِ : هذا فلانٌ القُرَشِيُّ والفقيهُ ابْنُ وضّاحٍ ومحمدُ بن زيادٍ بالباب . أَخَّرَ نَفْسَهُ وقَدَّمَنَا ، وكَنَّى عَنَّا وتَسَمَّى هُوَ ، فاسْتَحسَنَّا أَدَبَه واسْتَبْرَعْنَاهُ .

وقال محمد بن حارث :

لم يُنْقَمْ[4] من محمد بن زياد فى ولايته شىءٌ فيما ذكره رواةُ الأخبارِ غيرُ دالَّةٍ كانَتْ تظهَرُ من زَوْجَتِهِ تكْفَاتَ(٢٦٦) تَبَيَّنَ أَثَرُهَا عليه على مايَفْعَلُهُ بعضُ الزوجاتِ الحَظِيَّات بِبُعُولِهِنَّ ، فَمِنْ قِبَلِها وُجدَ السَّبيلُ إلى عَيْبه .

وقال ابن عبد البر :

لم يزل محمد بن زياد على القضاء والصلاةِ معًا بقرطبة إلى أن هَلَكَ الأميرُ عبدُ الرحمن ابن الحكم ، وقد اسْتُكْمِلَ بِعَدَدِ قضاتِه عليها عَشَرَةُ قضاةٍ ، وهم :

مَسْرُورُ[5] بن محمد مَوْلاهُ ؛ سعيدُ بن سليمان ؛ يحيى بن مَعْمَر[6] الأَلْهَانِي ؛ الأَسوارُ بن عُقْبَة ، إبرهيم بن العبَّاس المروانىُّ ؛ محمد بن سعيد ؛ يُخَامِرُ بن عثمان ؛ علىُّ بن أبى بكر ؛ مُعاذُ بن عثمان ؛ مُحمدُ بن زِياد – رحمة الله عليهم أجمعين .

---

(1) استكملنا هذا النص عن ابن سعيد (المغرب ١ / ١٥٠) ، وهو ينقل بدوره عن ابن عبد البر مرجع ابن حيان هنا ، ولو أننا نظن ابن سعيد قد تصرف فيه ببعض الاختصار كما هى عادته .

(2) ص : عيـاذة . (3) ص : وقـال .

(4) ص : ينعم .

(5) ص : مسروق . (6) ص : معـز .

الوَفَاةُ لأُولِى النَّبَاهة

فى دَوْلَةِ الأمير عبد الرحمن بن الحكم

سنة سَبْع ومائتَيْن :

تُوُفِّى فيها – على خِلافٍ[1] من الرُّواةِ – فُطَيْسُ بن سُليمان . وقيل بل فى سنة سبع وتسعين ومائة فى حياة الأمير الحكم .

وفُطَيْسٌ لَقَبُهُ ، واسمهُ عثمان ، ثم صار هذا اللقب فيهم اسْماً عَلَماً تَنَازَعُوه لنباهَةِ[2] حامِلِهِ جَدِّهِمْ بانِى بَيْتِهِمْ ذلك(٢٦٧) . ذَكَرَ ذلك الوزيرُ عِيسَى بن فُطَيْس(٢٦٨) .

وغِرْبِيبُ بنُ عَبْدِ الله الثَّقَفِيُّ بطُلَيْطلَةَ(٢٦٩) .

سنة ثمان ومائتين :

فيها هَلَكَ عبد الله [المعروف] بـالْبَلَنْسِىِّ [بنُ الأميرِ] عبدِ الرحمنِ بن مُعَاوية [الدَّاخِلِ(٢٧٠) ، بَعْدَمَا][3]

/تُوُفِّى قَبْلَهُمَا فى هذه السنة أيضا[4] . [٢٠٩ب]

---

(1) ص : أحلاف . (2) ص : لنباهله .

(3) هذا هو كل ما استطعنا استخلاصه من كلمات خلال قطوع آخر الورقة ، ولا بد أن الكلام فى بقية هذه العبارة من الأحداث التى سبقت موت عبدالله البلنسى مباشرة ، وقد فصلها ابن الأبار بإسهاب فى الترجمة التى أفردها له معتمدا على ابن حيان (انظر الحلة السيراء ٢/٣٦٣ — ٣٦٤) ، ولو أننا نعتقد أن الذى ورد هنا فى باب الوفيات – طبقا لمنهج ابن حيان فى الكتابة ومع مراعاة أن الذى ذهب فى القطوع لا يتجاوز سطراً أو سطرين – ليس إلا إشارة موجزة سريعة ، إذ لابد أن ابن حيان يحيل على ما فصله من أخبار عبد الله البلنسى فى الجزء الخاص بالتأريخ على نسق السنين (تحت سنة ٢٠٨) فيما مر من الكتاب ولهذا فلنا أن نعتقد أن تمام العبارة يمكن أن يكون شيئا فى هذا المعنى : « . . بعد ما كشف وجهه بالمعصية واحتل بلنسية مستنفراً إليه كثيراً من أهلها ، وكان قد عزم على الفصول إلى قرطبة فى يوم سبت واعدهم عليه ، فضربته الريح الباردة ، وسقط مفلوجا بعد أن خطب الجمعة بأصحابه ، واحتملوه إلى مكان مضطربة ببلنسية فمات هناك فى هذه السنة » .

(4) واضح أنه سقط كذلك فى قطوع آخر الصفحة السابقة اسما اثنين من وفيات سنة ٢٠٨ ، ولابد أن أحدهما « هو مسرور بن محمد بن سعيد بن بشير قاضى الجماعة بقرطبة الذى توفى فى آخر سنة ٢٠٨ » كما سبق أن أشار إلى ذلك ابن حيان فى أخبار قضاة الأمير عبد الرحمن بن الحكم .

وفيها تُوُفِّى حُسَيْنُ بن عاصِمٍ الثَّقَفِيُّ الفقيهُ[1] (٢٧١) .

وفى كتاب القاضى ابن الفرضِيِّ :

حُسَينُ بن عاصِمِ بن كَعْب بن محمد بن عَلْقَمَةَ بن خَبَّابِ بن مُسْلِمِ بن عَدِىٍّ بن [مُرَّةَ][2] ، عُرِفَ بالثَّقَفِيِّ ، يكنى أبا الوليدِ ، قرطبِيٌّ حسيبٌ ، ابن عاصِمِ المعروفِ بالعُرْيَانِ صاحبِ الأميرِ الدَّاخلِ عبدِ الرحمن بن مُعَاوِيَةَ ، سُمِّىَ بذلك لأنَّه أوَّلُ من عَبَرَ نَهْرَ قُرْطُبَةَ إلى أصحابِ يُوسُفَ الفِهْرِىِّ بين يَدَىْ عبدِ الرحمن بن معاوية ، وهو عُرْيَانٌ ، فَلَزِمَهُ اللَّقَبُ . وكانت لحسينٍ رِحْلَةٌ سمع فيها من ابن القاسمِ وابنِ وهبٍ(٢٧٢) وأشْهَبَ ومُطَرِّفٍ(٢٧٣) وابنِ نافِعٍ (٢٧٤)ونُظَرَائِهِمْ . ووَلِيَ السُّوقَ للأمير محمد بن عبد الرحمن ، فكانَ شديدًا على أهْلِهَا فى القِيمِ ، يَضْرِبُ الباعَةَ ضَرْبًا شديدًا مُبَرِّحًا ، فكأنَّهُ سَقَطَ بذلك عن أن يَرْوِىَ الناسُ عنه ، وتُوُفِّىَ صَدْرَ أيَّامِ الأمير محمد(٢٧٥) سَنَةَ ثلاثٍ وسِتِّين ومائتَيْنِ(٢٧٦) .

سنة تسع ومائتين :

فيها تُوُفِّىَ الحاجبُ القائدُ الكاتبُ عبدُ الكريم بن عبد الواحِدِ بن مُغِيث .

وعبدُ الله الأَحْدَبُ النَحْوىُّ المُعَلِّمُ(٢٧٧) ، وكان له وَضع فى النحو .

سنة عشر ومائتين :

فيها توفى الحاجبُ عبدُ الرحمن بن غانِم فى الحَبْسِ .

ومالِكُ بن القَتِيل(٢٧٨) فى المُطْبِقِ(٢٧٩)[3] .

وفَتْحُ بن الفَرَجِ الأزدِىُّ الرَّشَّاشُ(٢٨٠) بالمشرق .

وحجَّاجُ المَغِيلِىُّ الكاتب(٢٨١) كاتِبُ التَّرْسِيل ، وهو من موالى يزيدَ بن طَلْحَةَ العَبْسِىِّ(٢٨٢)

---

(1) من الغريب أن ابن حيان يذكر وفاة الفقيه حسين بن عاصم فى سنة ٢٠٨ ، ثم ينقل بعد ذلك ترجمة له عن ابن الفرضى يقول فيها إن وفاته كانت سنة ٢٦٣ ، دون أن يستحق ذلك تعقيبا من ابن حيان ، على بعد ما بين الرأيين من خلاف ، على أن ما ذكره ابن حيان أولا هو ما رأى صوابه وإن لم يجد بأسا فى أن يثبت رأى ابن الفرضى . وقد عرضنا فى تعليقنا على هذا الموضع للآراء المتعارضة فى وفاة حسين بن عاصم فلينظر فى مكانه .

(2) إضافة عن تاريخ ابن الفرضى ، ترجمة رقم ٣٤٩ ، وهو مرجع ابن حيان هنا .

(3) ص : المطبق .

سنة إحدى عشرة ومائتين :

وَليدُ بن أُمَيَّةَ بن يزيد(٢٨٣) .

وسفيانُ بن عبدِرَبِّه الحاجب .

وسعيدُ بن القاضى محمد بن بَشير المعافِرِىُّ .

وفى كتاب القاضى [أبى الوليد ابن الفرضى][1] :

هو سعيد بن قاضى الجماعة بقرطبة محمد بن بشير بن شَرَاحِيلَ - ويقال سَرَافِيلُ - أُصولُهم من مدينة باجَة . وكان سعيدٌ هذا رجلاً صالحًا عاقلاً ، سمع من يحيى بن يحيى وغيره ، واستقضاه الأميرُ عبد الرحمن بعد والِدِه ، وتُوُفِّى [حَسْبَمَا][2]قاله الرَّازِىُّ سنةَ عَشْرٍ ومائتَيْن(٢٨٤) .

سنة اثنتى عشرة ومائتين :

[فيها تُوُفِّى عِيسى بن دينارِ بن وا] قِد الغافِقِىُّ[3] ، يكنى أبا محمد ، أصلُه من طُلَيطُلَة ، وسكن [قرطبة ، وكانت له فيها رياسَةٌ بعد انصرافه من] المشرق ، [وكان ابن القاسِمِ يُعَظِّمُهُ ويُجلُّه ويصِفُهُ بالفِقه والوَرَعِ ، وكان لا يَعُدُّ فى الأَنَدلُسِ أفْقَهَ منه فى نُظَرَائِهِ](٢٨٥) .

/ أبو زياد إبرهيم بن زُرْعَة الأندلسى مولى قريش ، روى عَنْه سَحْنُونُ ، وتوفِّى بإفريقيةَ فى هذه السنة(٢٨٦) . [٢١٠ ا]

سنة ثلاث عشرة ومائتين :

محمد بن موسى الغافِقِى ، مَوْلىً لهم ، وقد وَلِىَ الوزارةَ والكتابة(٢٨٧) .

---

(1) إضافة يقتضيها السياق ، وقد وردت هذه الترجمة فعلا فى كتاب ابن الفرضى ، ترجمة رقم ٤٧١ .

(2) مطموسة فى الأصل ، لايكاد يبين إلا بعض حروفها .

(3) استكلمنا هذه الترجمة من ترجمة عيسى بن دينار فى كتاب ابن الفرضى ، رقم ٩٧٣ ؛ والديباج المذهب لابن فرحـون ص ١٧٨ - ١٧٩ .

إبرهيم بن محمد بن مُزَيِّن(٢٨٨) .

عبد الخالق بن عبد الجباز الباهِلِيُّ قاضى طُلَيْطُلَة(٢٨٩) .

سنة ست عشرة ومائتين :

فيها مات عبد الرحمن بن عبد الحميد بن غانِم فى الحبس[1] ، على اختلاف .

سنة سبع عشرة ومائتين :

فَرَجُ بن مَسَرَّةَ بن سالِم(٢٩٠) .

سنة تسع عشرة ومائتين :

العبَّاس بن عبد الله القرشى المروانىّ .

وَجَهْوَرُ بن يوسُفَ بن بُخْت الفارسىّ الوزير .

وقال الرازى : هلكا معًا فى سنة عشرين بعدها .

سنة عشرين ومائتين :

الفقيه قَرَعُوس بن العَبَّاس بن قَرَعُوس الفقيه راويةُ مالك بن أَنَس رحمه الله .

وفى كتاب القاضى [ابن الفرضى][2] :

قَرَعُوس بن العباس بن قَرَعُوس بن عُبَيْد بن مَنْصُور بن محمد بن يوسف الثَّقَفِيُّ ، يكنى أبا الفَضْل ، وقيل أبا محمد ، قديم نبيه فقيه ، رحل فسمع من مالك بن أنس وسفيان الثورى وابن جريج[3]وابن أَبِى حازم واللَّيث وغيرهم ، فلم يتحقَّقْ بالحديث ، وتحقَّقَ بالمسائِلِ على مذهب مالك وأصحابه ، وكان متديِّنًا ورعًا فاضلا . وكان مِمَّن أُتهِمَ فى أمر الهَيْجِ (٢٩١)، فَوَقَاه الله ، وتوفى فى أيام الأمير عبد الرحمن سنة عشرين ومائتين(٢٩٢).

---

(1) ص : الحسن ، والصواب ما أثبتنا .

(2) زيادة يقتضيها السياق ، وقد ترجم ابن الفرضى لقرعوس هذا حتى رقم ١٠٨٢ .

(3) ص : جريح ، والصواب ما أثبتنا .

ومحمد بن كُلَيْبٍ بن ثَعْلَبَة بِسَرَقُسْطَةَ(٢٩٣) .

وحَمْدُون بن فُطَيْس[1](٢٩٤) .

على اختلاف فى ابن كُلَيْب وابن فُطَيْس ، ورواتُه فى أنهما هلكا سنة ست وعشرين بعدها .

وهلك إبرهيم بن عُقْبَة ، وحَرْبُ بن بَلْدِش ، وعبد الرحمن بن صُبَيْح وأصحابُهُمْ الطُّلَيْطليُّون فى المُطْبِقِ بقرطبة(٢٩٥) .

سنة إحدى وعشرين ومائتين :

فيها مات حبيب بن سليمان والدُ الفقيهِ ع [بد الملك بن حبيب ، وكان فى عِدادِ فقهاء قرطبة][2](٢٩٦) .

حارثُ بن أبى [سَعْد ، مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، يُكْنَى أبا عُمَر(٢٩٧)، رحل فسمع من ابن القاسِم وابن كِنانَةَ(٢٩٨)وغيرهما من المدنيِّينَ والمِصْريِّين ، وهو جَدٌّ بنى حارِث الذين كانت فيهم الخِطَطُ . وولى الشُّرْطَةَ الصغرى ولم يزل عليها إلى أن توفى][3] .

[ومحمد بن عيسى بن عبد الواحد بن بُخَيْح المعافرىُّ المعروف بالأَعْشَى(٢٩٩)، من أهل قرطبة ، يكنى أبا عبدالله ، رحل سنة تسع وسبعين][4]/ ومائة ، فسمع من سُفْيَان(٣٠٠) ، [٢١٠ب]
ووَكِيع(٣٠١)، ويَحْيَى القَطَّان[5](٣٠٢)، وغيرهم من المدنيين والعِراقيين ، وكان الغالب عليه الحديثُ والأَثَرُ ، وكان عاقلاً سريًّا جوادا ، وكانت فيه دُعَابَةٌ فاشِيَةٌ ، وله فيها أخبارٌ محفوظَةٌ ، وكان من الأجواد المتصدِّقين ، ومِمَّنْ جَمَعَ الفقهَ إلى رواية الحديثِ . وفى موته اختلاف : قيل سنة إحدى وعشرين ، وقيل بل سنة اثنتين بعدها .

---

(1) ورد اسم حمدون بن فطيس فى الأصل بعد العبارة التالية ، وكان حقه أن يتقدم فأعدنا ترتيب العبارتين إلى ما يلزم به المنطق .

(2) استكملنا هذا النص من ترجمة حبيب بن سليمان فى التكلة لابن الأبار ، رقم ٨٧ (ط . كوديرا) .

(3) البقية من ترجمة حارث بن أبى سعد فى كتاب ابن الفرضى ، رقم ٣٢٤ .

(4) استكملنا النص من ترجمة محمد بن عيسى الأعشى فى كتاب ابن الفرضى ، رقم ١١٠٠ .

(5) ص : القطــا .

سنة ثلاث وعشرين بعدها :

فيها توفى أبو محمد بن خالد جد بنى عَمّار المُرَادِيِّين بقرطبة(٣٠٣) .

سنة أربع وعشرين ومائتين :

محمد بن خالد بن مَرْتَنِيل[1]المعروف بالأَشَجِّ ، صاحبُ الصلاة بقرطبة ، وكان على الصلاة والشرطة معا ، وتوفى وهو ابن اثنتين وسبعين سنة(٣٠٤) .

وفى كتاب ابن الفرضى :

أبو عبد الله محمد بن خالد الأَشَجُّ ، مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، يعرف بابن مَرْتَنِيل[2]، قرطبي نبيه ، رحل فسمع من ابن القاسم وأَشْهَبَ وابن نافِعٍ ونظرائهم من المدنيين والمصريين ، وكان الغالبُ عليه الفقه ، ولم يكن له علمٌ بالحديث ، وولى الشرطَةَ للأمير عبد الرحمن ، وولى الصلاةَ أيضا . وفى موته خلاف : قيل سنة عشرين ، وقيل سنة أربع وعشرين .

سنة خمس وعشرين ومائتين :

الوليد بن عبد الخالق بن عبد الجبار بن قيس الباهِلِيُّ قاضى طليطلة(٣٠٥) .

سنة ثمان وعشرين ومائتين :

فيها مات أبو عبد الله بن محمد بن سعيد الزَّجَّالِيُّ المعروف بـ « الأَصْمَعِيُّ » ، صنيعةُ الأمير عبد الرحمن ، وهو حامِلٌ بعد الوزارة والكتابة والقيادة ، على اختلاف ، وقيل إنه توفى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين بعدها(٣٠٦) .

سنة تسع وعشرين ومائتين :

وكان [فيها موت][3]يحيى بن مَعْمَر الأَلْهَانِيُّ الذى [كان][3]قاضِيَ الجماعة .

ويحيى بن موسى(٣٠٧) .

---

(1) ص : برتيل . (2) ص : مرتيل . (3) زيادة يقتضيها السياق .

سنة ثلاثين ومائتين :

[عبد الله بن الغازِى][1]بن قَيْس(٣٠٨) .

قال ابن الفرضى فى كتابه :

عبد اللهُ بن الغازى [بن قيس ، من أهل][2]قرطبة ، وقد[3]كان عالمًا باللغة والغريب والعربية ، [بصيرًا بقراءة نافِعِ بنِ أبى نُعَيْم(٣٠٩)، روى عنه ثابتُ بنُ حَزْمٍ السَّرَقُسْطِىُّ(٣١٠) وابنُه قاسمٌ(٣١١) وغيرهما][4] .

سنة اثنتين وثلاثين ومائتين : [٢١١ ا]

[فيها مات زَوْنَان][5]الفقيهُ ، وكان مَوْلَى رسول الله صلى الله عليه [وسلم] ، واسمُهُ عبدُ الملك بن الحسن (٣١٢) .

[قال] ابن الفرضى :

هو عبد الملك بن الحسن بن محمد بن زُرَيْق بن عُبَيْدِ الله بن أبى رافِع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يُكْنَى أبا مروان ، وقيل أبا الحسن ، يعرف بِزَوْنَانَ ، روى عن صَعْصَعَةَ ابن سَلَّامٍ (٣١٣)، وكان مُفتيًا فى أيام الأمير عبد الرحمن ، وكان له رحلةٌ سمع فيها ابن القاسم وأَشْهَبَ وابنِ وَهْبٍ وغيرهم من المدنيين ، وكان يذهب أولا إلى مذهب[6]الأَوْزَاعىِّ(٣١٤) ـ وكان الفقه[7]أغلب عليه ـ ثم تحول إلى مذهبِ مالك . وهلك سنة اثنتين وثلاثين ومائتين .

---

(1) ما استكلناه فى هذه الترجمة نقلناه عن ابن الفرضى ، رقم ٦٣٢ ، وهو مرجع ابن حيان هنا .
(2) قطوع فى الأصل أكلناه فيها بما يقتضيه السياق .
(3) قطع فى الأصل بقدر كلمة .
(4) استكلنا هذه العبارات من ترجمة ابن الغازى عند ابن الفرضى .
(5) إضافة يقتضيها السياق اعتمدنا فيها على ترجمة زونان فى كتاب ابن الفرضى رقم ٨١٣ .
(6) ص . مذاهب .
(7) ص : الفقيه .

سنة أربع وثلاثين ومائتين[1] :

وعميدُ الفقهاء[2] شيخُ قرطبة يحيى بن يحيى الليثى ، هلك لثمان بقين من رجب منها ، وله ثنتان وثمانون سنة(٣١٥) .

وقال أحمد بن محمد الرّازىّ :

بل عشيّةَ[3] الأربعاءِ لثمانٍ بقين من ذى حجة منها .

وفى كتاب ابن الفرضى :

هو يحيى بن يحى بن كثير بن وهلال بن تسمال[4]بن مَنْقَايا ، أَصْلُهُ من بَرَابِرِ[5] مَصْمُودَةَ ، يتولّى بنى لَيْثٍ(٣١٦)، يكنى أبا محمد ، وكان كبير الأكابر بقرطبة ، سمع فيها لأول نشأته من زِياد بن عبد الرحمن(٣١٧)الموطأ ، [ثم رحل إلى المشرق ، فسمع المُوَطّأ من مالِك بن أَنَس][6] غيرَ أبوابٍ من الاعتكافِ شَكٌّ فى سَمَاعها من مالك ، فأثبت روايته فيها عن زيادٍ عنه . ورحل إلى مالك وهو يومئذ ابنُ ثمانٍ وعشرين[7]سنة ، فسمع منه ، ومن نافع بن [أبى][8]نعيم ، وسمع بمكة من سُفْيَانَ بن عُيَيْنَة ، وبمصر من الليث بن سَعْد ، وابنِ وهبٍ ، وابن القاسم ، وغيرهم .

وقدم إلى الأندلس بعلم كثير ، فعادت فتيا الأندلس بعد عيسى بن دينارٍ إلى رأيه وقوله ، وكان يُفتى برأى مالك صِرْفًا لا يَعْدُوه إلا فى القُنوت فى الصبح فإنه تركه لرأى الليث ، وترك يحيى من رأى مالك أيضا الأخذَ باليمين مع الشّاهد ، وأَخَذَ بقولِ الليث فى ترك ذلك وإيجاب شهيدين ، وكان أيضا لا يرى بعثة الحَكَمَيْن عند تَشَاجُرِ الزَّوْجَيْنِ ، فكان ذلك مِمَّا يُنْكَرُ عليه(٣١٨) . وكان يحيى يُفَضَّلُ بالعَقْلِ على عِلْمِه .

---

(1) إضافة يقتضيها السياق ، إذ هذه هى السنة التى توفى فيها يحيى بن يحيى ، ويبدو أن اسما أو أكثر سقط قبل اسم يحيى.

(2) ص : الفقيه .

(3) ص : عشيا .

(4) كذا فى الأصل ، والذى جاء فى كتاب ابن الفرضى فى ترجمة يحيى (رقم ١٥٥٤) : وسلاس بن شملل وهو أصح مما جاء فى الأصل .

(5) ص : البرابـر .

(6) زيادة يقتضيها السياق اعتمدنا فيها على ما ذكره ابن الفرضى

(7) هذا اللفظ مكرر فى الأصل .

(8) زيادة تتم بها صحة الاسم .

وقال محمد بن عمر بن لبابة :

فقيهُ الأندلسِ عيسى بن دينار ، وعالِمُها عبدُ الملك بن حبيب ، وعاقِلها يحيى ابن يحيى .

وكان يحيى مِمّن اتُّهِمَ بالإجلابِ فى الهَيْجِ ، فَهَرَبَ إلى طليطلة ، ثم اسْتَأْمَنَ الأميرَ الحَكَم ، [فأمَّنه][1]، وانصرف [إلى قـ] ـرطبة .

/سنة خمس وثلاثين ومائتين : [٢١١ب]

محمد بن سعيد بن رُسْتُم الوزير الحاجب ، فى صفر منها .

وأخوه القاسم قبله .

والشريف يحيى بن سليمان بن الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، وكان من الجلساء(٣١٩)

والغَمْرُ بن يحيى بن عبد الغافِرِ[2] بن أبي عَبْدَةَ(٣٢٠) .

وخطاب العاز(٣٢١) .

وأبو اليَسُول الشاعر سعيدُ [بن] يَعْمُر بن على العَبْدِيُّ بِسَرَقُسطةَ(٣٢٢) .

والأخ بَكْر بن الأمير الحكم بِتُدْمِير ، وكان قائدًا بها ، فَوَرَد بذلك كتابُ أميةَ بن سليمان[3] عاملِ تدمير ، فخرج زَيْدَانُ الفتى الكبيرُ للنظر فى إحْصَاء تَركَتِهِ والاحتياط عليها (٣٢٣) .

ومَرْوانُ بن عبد الله[4] الزَّجَّالِيُّ(٣٢٤)

وعبد الله بن محمد بن جابر(٣٢٥) .

---

(1) استكلنا بقية الكلمات معتمدين على ما سلم من حروفها خلال القطوع .

(2) ص : . . بن عبد الله العامر ، وقد أصلحنا الاسم على الصورة التى أثبتنا بعد مقابلته على ما ذكره ابن الأبار فى حديثه عن نسب هذه الأسرة فى معرض الكلام عن جهور بن عبيد الله بن الغمر بن يحيى المذكور هنا (انظر الحلة السيراء ١ / ٢٤٥) .

(3) ص : سلمن .

(4) ص : بن عبد الله الملك الزجالى ، ويبدو أن الناسخ كان مترددا فى كتابة الاسم بين « عبد الله » و « عبد الملك » فأصلحناه بما أثبتنا بعد أن رأينا فى حديث ابن حيان عن محمد بن سعيد الزجالى رأس هذه الأسرة أنه أعقب ولدين اسم أحدهما حامد واسم الآخر عبد الله ، ولم يذكر له ابنا باسم عبد الملك .

والشريف أُمَيَّةُ الأَعْشَى بن هشام بن الأمير الحكم(٣٢٦) .

وسعيد بن حَسَّان الفقيه بقرطبة(٣٢٧) فى جمادى الأُولى منها .

وفى كتاب القاضى ابن الفرضى :

سعيدُ بن حَسَّان مولى الأمير الحكم بن هشام ، يكنى أبا عثمان ، قرطبيٌّ نبيه ، رحل إلى المشرق سنة سبع وسبعين ومائة(1)، فروى عن عبد اللهِ بن عبد اللهِ بن نافعٍ(٣٢٨) ، وعبدِ الله بن عبد الحكم(٣٢٩) ، وأشهب بن عبد العزيز ، ومنه استكثر ، وسمع منه سماعه عن مالك ، وكتب رَأْيَهُ وغير ذلك من أحاديثه ، وانصرف سنة أربع ومائتين ، وكان فقيهًا فى المسائل حافظًا لها ، مشاوَرًا مع الشيخ يحيى بن يحيى وعبدِ الملكِ بن حبيب وقاسمِ بن هلال ، وكان منقطعًا إلى مؤاخاةِ يحيى ، آخذًا بِهَدْيِهِ ، مُعَظِّمًا له ، راكبًا سَنَنَهُ ، لا يخالِفُه فى شَيْءٍ يراه ، قد غَلَبَ عليه مع ذلك حِفْظُ رأى أشهب عن مالك واختياره ، وتفرَّد بروايته عنه ، وكان على فقهه(2) زاهدًا فاضلا وَرِعًا ، وتوفى فى أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم سنة ستٍّ وثلاثين ومائتين(3)، بعد خليله يحيى بن يحيى بعامين .

والأَخُ سعيدُ الخير بن الأمير الحكم(٣٣٠) فى ربيع الآخر .

ومحمد بن حَيُّون بن أبى عَبْدَة أخو حَمْدُون(٣٣١) .

ونصْرُ الفتى الخصِيُّ خليفةُ الأمير عبد الرحمن الغالبُ على دولته ، فى شعبان منها .

وعُمَر بن حَفْص بن أبانٍ .

سنة سبع وثلاثين ومائتين :

الوزير عبدُ الواحد بن يزيد الإسكندرانىُّ ، وقد نيف على الثمانين سنة والفقيه قاسمُ بن هلال القيسى (٣٣٢) . من [كتاب ابن الفر] ضى :

(1) كذا ورد التاريخ فى كتاب ابن الفرضى الذى يعتمد ابن حيان عليه هنا ، ومع ذلك فإننا نظن أن هناك خطأ فى هذا التاريخ وأن الصواب « سنة سبع وتسعين ومائة » . أنظر تعليقنا على هذا الموضع .

(2) ص : فقه .

(3) لم يفصل الناسخ هنا فيما يبدو بين وفيات سنتى ٢٣٥ و ٢٣٦ ، إذ نراه يذكر وفاة سعيد بن حسان فى هذه الأخيرة بينما يعنون للفقرة بسنة ٢٣٥ السابقة لها . وربما سقط بين الأسماء المذكورة عنوان السنة التالية .

قاسم بن هلال بن فَرْقَد بن عِمْرَان[1] القيسى ، يكنى أبا محمد ، قرطبى تفقه [على زياد] بن عبد الرحمن ، ورحل ، فسمع من ابن القاسم وابن وهب [وغير واحد] من المصريين والمد [نيين من من أصحاب مالك ، وكان عالمًا بالمسائِلِ ، ولم يكُنْ له عِلْمٌ بالحديث] ، وكان رجلاً مُعَقَّلاً وَقُورًا ، حَدَّثَ عنه [بَنُوهُ وغيرهم][2] .

سنة ثمان وثلاثين ومائتين :

/ عَلِيٌّ بن نافعٍ الملقب بِزِرْيَاب ، مَوْلَى المهدى العباسى ، فى ربيع الأول من سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، هَلَكَ قبلَ وفاة الأمير عبد الرحمن بأَرْبَعين يوما(٣٣٣) . [٢١٢ ا]

وفيها مات هارونُ بن سالم ، يكنى أبا عمر(٣٣٤) ، قرطبى قديم ، سمع من عيسى بن دينار ويحيى بن يحيى ، ورحل إلى المشرق ، فلقى أشهب بن عبد العزيز(٣٣٥) وروى عنه ، وسمع من أَصْبَغَ بن الفَرَجِ ، وعَلِيِّ بن مَعْبَد(٣٣٦) ، وسَحْنُون ، وغيرهم . وكان مُنْقَطِعَ القرينِ فى الفضل والزهدِ والعلمِ ، وكان يقالُ فيه إِنَّهُ مُجَابُ الدعوةِ . وكان يحفظ المسائل حفظًا حسنا ، إلا أن العبادة كانت أَغْلَبَ عليه ، وقد كانت تُعْرَفُ كرامَتُه وإجابَتُه فى غير ما شىء ومات على ذلك حَدَثًا فى الأربعين من عمره ، وكانت كتبه مُوَقَّفَةً عند أحمد بن خالد(٣٣٧) ، وكانت بينه وبينه قرابةٌ من طريقِ أُمِّه ، وتُوُفِّى فيما ذَكَرَهُ أَحْمَدُ سنة ثمان وثلاثين ومائتين

وفيها مات الأَميرُ عبد الرحمن بن الحكم ليلة الخميس لثلاث بقين من ربيع الآخر منها وقد تقدَّم ذكر ذلك فى مكانِه .

---

(1) فى كتاب ابن الفرضى : عمر .

(2) اعتمدنا فى ملء فجوات هذا النص على ما بقى من حروفه وعلى ترجمة قاسم بن هلال فى كتاب ابن الفرضى ، رقم ١٠٤٦ .

ذكر خصال من مَنَاقِبِ الأَميرِ عبدِ الرحمنِ بن الحَكَمِ لَمْ تَمُرَّ فى عُرْضِ أَخْبَارِهِ

قال أحمدُ بن محمد الرَّازِىُّ :

كان الأَميرُ عبد الرحمن مُقَدَّمَ الطبقةِ فى البلاغَةِ ، مَطْبُوعًا فى الكتابَة ، مُقْتَدِرًا على ما حاولَ من سَنِىِّ البيانِ المنثورِ والمنظوم ، مُؤْثِرًا(1) لمن يُحْسِنهُما ، مُقَرِّبًا(2) بوسيلَتِهِما ، وكان له التوقيعُ الوجيزُ والقريضُ المُسْتَحْسَنُ .

فمِمَّا(3) شُهِرَ من وجَزِ تَوْقِيعِه(4) :

توقيعٌ له إلى بعض من سَأَلَهُ من مَوَالِيهِ تَوْلِيَتَهُ عَمَلاً لم يكُنْ من أَهْلِهِ :

« مَنْ لَمْ يَعْرِفْ(5) وَجْهَ مَطْلَبِه كان الحرمانُ أَوْلَى به » .

ووَقَّعَ إلى ابْنِهِ المُنْذِرِ(٣٣٨) — وكان من بين وَلَدِهِ بليغًا مُفَوَّهًا —، فكَتَبَ إليه يسأله أن يأْذَنَ له فى اعتلاءِ المِنْبَرِ بالبلدِ الذى كان يَلِيهِ له ليقيمَ الجُمُعَةَ ويَخْطُبَهُمْ ، لِيُحْيِىَ رُسُومَ سَلَفِهِمْ وَيُنَوِّهَ به فى اتِّبَاعِهِمْ . فَوَقَّعَ على ظَهْرِ كِتَابِه :

« قالَتِ الحكماءُ : لو كان الكلامُ من فِضَّة ، لكان الصَّمْتُ من ذَهَب ، وإنى لأُشْفِقُ عليك مما تُحْسِنُه ، فكيفَ مِمَّا تُوُهِّمَ عليكَ بَعْضُ التقصيرِ فيه ؟ » / بِمُلْحِمِ سَدَاهُما(6) [٢١٢ب] ومُقْتَدِحِ زِنادِهِمَا(7) ومُجَارِيهما فى مِضْمَارِ باطِلِهما : زِرياب المُغَنِّى ، تالى وَحْى الشيطان ،

---

(1) ص : منثورا .
(2) ص : مرتبا .
(3) ص : بما .
(4) ص : ترفيعه .
(5) كذا ورد هذا اللفظ فى المغرب لابن سعيد ١ / ٤٦ ؛ ونفح الطيب للمقرى ١ / ٣٢٥ ؛ وفى البيان المغرب لابن عذارى ٢ / ٩٣ ؛ و « أخبار مجموعة » ص ١٣٩ ؛ وأعمال الأعلام لابن الخطيب (الطبعة الثانية) بيروت سنة ١٩٥٦ ص ١٩ : « يصب » .
(6) ص : بملحى يشداهما .
(7) ص : زيادهما .

وثالِثٍ أثَاثٍ السُّلْوَانِ ، ما له من مُتْعَةٍ نعيمٍ تَمْلِكُ القلوبَ ، وتَصُورُ[1] [إليها][2] الآذانُ ، لو أنَّ حَيًّا[3] يَسْلَمُ من الحَدَثَانِ .

جَرَتْ لهذا الأميرِ المُتْرَفِ معهم فى مجالِسِهِ ومشارِبِه[4] نوادرُ أخبارٍ ، تُؤْنِسُ زَهْرَ الرَّوْضِ غِبَّ القِطَارِ ، وهى مَبْثُوثَةٌ فى الناسِ ، على أنَّ رُسُومَ الباطِلِ إلى بِلىً وانْدِرَاس[5] (٣٣٩)

قرأت فى كتاب مُعاوِيَة[6] بن هشام الشَّبِينَسِى[7] قال(٣٤٠) :

من أبْدَعِ مكارِمِ الأمير عبد الرحمن بن الحكم الدالَّةِ على سُرُوِّه ورِفْعَةِ نفسه وفرط استحيائه ورِقَّةِ وجهه التى لم يَكُنْ يَعْدِلُهُ فيهنَّ أحَدٌ من أهلِ بيته أن أُحْضِرَ يومًا مالاً كثيرًا أتاهُ من بَعْضِ النواحى جَلَسَ لإيعابِهِ فى بِدَرِه ، وقد أمَرَ خَدَمَهُ الصَّقَالِبَةَ بِتَوَلِّى ذلك ونَضْدِه بين يديه إلى أن يأْمُرَ برفعه إلى بيت المال ، فأخَذُوا فى ذلك على عَيْنِه .

واعْتَرَتْهُ سِنَةٌ غَضَّ لها من طَرْفِهِ ، خالها بعضُ شُرَهَائِهِمْ نُعَاسًا ، فمدَّ يده إلى بِدْرَةٍ من ذلك المال ، اخْتَلَسَها حينَ غَفْلَةٍ من أصحابه ، فَصَيَّرَهَا[8] فى حِضنِه ، والأميرُ ينظرُ إليه ، فلمَّا أكملوا نَضْدَ البِدَرِ أمَرَهُمْ بإعادَة عَدِّها ، فأصابُوها تَنْقُصُ تلك البدرةَ المختلَسَة ، فَتَرَامَوْا بِسَرِقِهَا ، واشتدَّ بينهم التَّنَازُعُ فيها ، فلما أكثروا قال لهم الأمير :

- حَسْبُكُمْ ! كُفُّوا عن ذِكْرِها ، فقد أخَذَهَا من لا يَرُدُّها ، ورآه من لا يَفْضَحُهُ . فإيَّاهُ وإياكم عن العَوْدِ لمثلها ، فإنَّ كبيرَ الذَّنْبِ يَهْجُمُ عن[9] استِنْفَادِ[10] العَفْوِ ! ارفَعُوا المال وأَقِلُّوا المقالَ .

---

(1) أى تميل وتنعطف

(2) زيادة يقتضيها السياق .

(3) ص: حيور ، وقد تكون «حيوانا» أى كائنا حيا

(4) ص : ومساربه .

(5) سقط أول هذه الفقرة فى قطوع أسفل الصفحة السابقة ، ولكن السياق يدل على أن المؤلف كان فى ذكر اثنين من ذوى الصلة الوثيقة والحظوة المتمكنة من الأمير عبد الرحمن ، إذ أننا نرى الحديث فى أول الصفحة عن ثالث هذين الاثنين « مجاريهما فى مضمار باطلهما » : زرياب المغنى ، ونرجح أن هذين الاثنين اللذين كانا موضوع الحديث الذاهب أوله فى قطوع الصفحة السابقة إنما هما حظيتة « طروب » الأثيرة لديه من بين نسائه ، وحاجبه « أبوالفتح نصر الخصى » خليفته المقدم على جميع خاصته . أما المؤرخ الذى ينقل ابن حيان هذا الخبر - فالأسلوب هنا ليس أسلوب ابن حيان - فقد ذكرنا فى تعليقنا على هذا الموضع أنه لابد أن يكون الشاعر عبادة بن ماء السماء .

(6) ص : معواية .

(7) ص : الشبيلسى .

(8) كلمة مطموسة فى الأصل لا يبين إلا بعض حروفها ، ولعلها كما أثبتنا .

(9) فى المغرب لابن سعيد (١ / ٤٦) : على .

(10) ص : استفاد

فاشتدَّ عَجَبُ من سَمِعَ به من سَعَةِ كَرَمِه وشِدَّة حيائه .

وقرأت فيه :

كان مكان الأمير عبد الرحمن من صِلَةِ الرَّحِمِ والحُنُوِّ على القرابة على حال لم يُسَاوِه فيها أحدٌ من أهلِ بيته ، وكان قد اختَصَّ فوقهم جميعًا أخاه أبا عثمان سَعيد الخير [بن][(1)] الأمير الحكم ، فَحَبَاهُ بصداقته من بين سائر إخوته من وقت نشأتهما أيامَ أبيهما ، فلما أن صار الأمرُ إليه تضاعَفَ اختصاصُه لسعيدٍ ، وأُنْسُه به ، ومباطَنَتُهُ إيَّاه ، وإلْطَافُه له ، فصار يُنادمه ويخلُو به ويتصَرَّف معه فى مغازيه وصُيُوده ، ولا يَصْبِرُ عنه ، حتى اعْتَلَتْ حالُ سعيدٍ فى أهل بيته ، وحسدوه على ما أُتيح له من الزُّلْفَى إلى الأمير عبد الرحمن [وكان سعيد فى ذاته سَيِّدًا جوادًا][(2)] .

[٢١٣ ا] / تذكِرةً للشامتين ، وعِظَةً للمتفكِّرين ، وذاكَ أن قَعَدَ فيه فى بعض خَلَوَاتِهِ للأُنْسِ مع جَوَاريه والالْتِذَاذِ بأغانيه ، على استعدادٍ كان منه ليومه ذلك واحتفالٍ فى تَهْيِئَتِهِ[(3)]

فَبَيْنَمَا هو مُنْغَمِسٌ فى نعمته ، لاهٍ بِحَبْرَتِهِ ، إذ انهارَتْ تلك السِّتَارَةُ(٣٤١) السامية التى كان عَلَّاها على مَجْلِسِه الذى كان قاعدًا فيه من داءٍ اسْتَبْطَنَهَا لم يَشْعُرْ به لما أرادَهُ الله من من عَرْضِ قُدْرَته عليه ، فَخَرَّ المجلسُ على من كان فيه من نِسائه وخَدَمه ، وسَحَقَهُمْ سَحْقًا ، وقضىَ اللهُ بنجاته من بينهم بأدَقِّ سَبَب ، مِنْ قِبَلِ جائِزَةٍ(٣٤٢)صَلْبَةٍ من جيزَانِ[(4)] المجلسِ تَعَرَّضَتْ فَوْقَه ، فَأَمْسَكَتْ عنه أذَى الهَدْمِ ، ونَجَا تحتها هو وجارِيَةٌ له حَظِيَّةٌ كانَ قد أَجْلَسَها إلى جَنْبِه كانت تُسَمَّى « مُنْتَهى المُنَى » أُمُّ وَلَدِهِ مَرْوَان ، نَجَتْ بِنَجَاتِهِ ، وهَلَكَ جميعُ جواريه أشْنَعَ هَلَاكٍ ، وكُنَّ أرْبَعَ عَشْرَةَ جارِيَة .

فَارْتَجتْ المدينَةُ من شَنَاعَةِ قِصَّتِه ، واتَّصَلَ خَبَرُهُ بأخيه الأميرِ عبد الرحمن ، فسُرَّ بخُلُوصِهِ سرورًا هَوَّنَ عنده جميعَ ما أصابَه ، وهَنَّأَهُ به أصحابهُ ، واستدعى سعيدًا إلى نفسه

---

(1) زيادة يقتضيها السياق .

(2) هذا هو كل ما استطعنا استخلاصه من ألفاظ من خلال قطوع آخر الورقة .

(3) الحديث فى هذه الفقرة التى ذهب أولها فى قطوع الصفحة السابقة عن حادث وقع لسعيد الخير بن الحكم أخى الأمير عبد الرحمن وكاد يذهب ضحية له بينما كان فى مجلس سمر وغناء أقامه فى دار جديدة إلبناء على ما يظهر .

(4) ص : حائرة . . حيران ، وانظر تحقيقنا لهذا اللفظ فى التعليق ذى الرقم المذكور

فسَلَّاهُ على ما أصابَه ، وأخْلَفَ عليه بكل جارِيةٍ هَلَكَتْ ثنتين ، فأرسَلَ إليه ثمانِيَ وعشرين جاريةً بما لَهُنَّ من نَشَبٍ وكِسْوَة ، ودَفَعَ إليه مالاً واسعًا يُعِيدُ (I) لهبناءه ، ويَطْرُدُ بهشَعَثَه ، فاعتدلَتْ حالُ سعيد ، وجُبِرَ كَسْرُهُ ، واتصلَتْ ألْفَتُه بالأمير عبد الرحمن وبابنه الأمير محمد بعده.

وطالَتْ حياتُه إلى أن تُوُفِّى فى أيام الأمير محمد صدر ربيع الآخر سنة أربعين ومائتين(٣٤٣) فأرسلَ الأمير محمدٌ بكَفَنِه وحَنُوطِهِ وطيبه من عنده ، وعَهِدَ إلى بَنيه وإخوته وأهل بيته ووزرائه وأهل خدمته بشُهُودِهِ والمَشْيِ بين يَدَىْ نَعْشِه .

ذكر المجاعة

وقال ابنُ هشام الشَّبِينَسِيُّ :

نالَتْ أهْلَ الأندلُسِ مجاعةٌ شديدةٌ صَدْرَ أيامِ الأميرِ عبد الرحمن سنة سبْعٍ ومائتين(٣٤٤) وكان سَبَبُهَا انتشارَ الجرادِ بالأرْضِ ولَحْسَه [الغـ] ـلَّاتِ وتَرَدُّدَهُ بالجهاتِ ، فنالَتِ الناسَ مَجَاعَةٌ عظيمةٌ ، [كَفَى حَدَّها الأميرُ بإطعامِ][2] الضُّعَفَاء والمساكينِ من أهلِ قرطبة ، / فيهم باسْمِ أيُّوب العابدِ المُسْتَجَابِ ، بعد أنْ تَصَفَّحَ وجوهَ الناسِ حَوْلَه ، [فلم تَقَـ] ـعْ [٢١٣ ب] عَيْنُه عليه ، فنادى باسمِه مُسْتَحْلِفًا له بالله أن يَبْرُزَ إليه ، فلما أكْثَرَ من [الإزْجَـ] ـافِ به بَرَزَ وَدَنَا منه ، فاجتهد يحيى فى الدُّعاء ، وأيُّوب يُؤَمِّنُ وينادِى[3] رَبَّه فَسُقِىَ الناسُ ليَوْمِهِمْ . وغابَ[4] أيُّوب فلم يَظْهَرْ .

وَمَضَى ذِكْرُ هذا الخبر على اختلافِ الرُّواةِ فى تاريخِ عامِه[5] واسمِ الإمام المُسْتَسْقِى[6]

---

(1) ص : يعد .

(2) هذا هو أقصى ما استطعنا استخلاصه خلال قطوع آخر الصفحة .

(3) ص : ونادى .

(4) ص : وعاب .

(5) ص : علمه

(6) ص : المستق . هذا وبقية الخبر تفسر لنا أوله الذى ضاع فى قطوع آخر الصفحة السابقة ، فالمؤرخ يتحدث عن صلاة استسقاء أداها المسلمون فى قرطبة فى عام تلك المجاعة الشديدة التى أصابت الأندلس فى سنة ٢٠٧ على ما ذكر فى نهاية الصفحة الماضية ، وكان إمام المصلين فيها هو من يسميه ابن حيان « يحيى » ولابد أن يكون يحيى بن يحيى الليثى الفقيه المشهور (وقد يكون أيضا يحيى بن معمر الألهانى الإشبيلى قاضى الجماعة لولا أنه لم يكن يتولى القضاء فى هذه السنة) . ويذكر ابن حيان فى نهاية هذا الخبر أن هناك خلافا فى العام الذى أديت فيه صلاة الاستسقاء هذه وفى إمامها ، وهذا صحيح إذ أننا نجد الخبر =

وقرأتُ بخطِّ عُبَادَةَ الشاعرِ(٣٤٥) قال :

كان الشريفُ دَحُّونُ [بن][1] الوليدِ ، واسْمُهُ حبيبُ بن الوليد بن حبيبِ الداخلِ إلى الأندلس(٣٤٦) بنِ عبد الملك بن عُمَر بن الوليد بنِ عبد الملك بن مروان ، ودَحُّونُ لَقَبٌ له غَلَبَ[2] عليه ، ويُكْنَى أبا سليمان(٣٤٧) . وكان من سَرَاةِ بنى مروانَ بالأندلس وعُلَمائهم وأُدَبائهم ، ووُلِدَ أيَّامَ الأميرِ الدَّاخِلِ [فى] حياة جدِّه حبيب بن عبد الملك الداخِلِ أيضاً ، وجَدُّهُ الذى رَبَّاهُ وأَدَّبَهُ ، إذ تُوُفِّى أبوه الوليدُ فى حياة أبيه ، فَكَفَلَهُ بَعْدَهُ جَدُّه حبيبُ الذى هو والد جماعَة هذا البطْنِ الحَبِيبِيِّ[3] من بنى أُمَيَّةَ بالأندلُس ، فَنَشأَ[4] حبيبُ دَحُّونُ هذا فيهم فقيهًا فاضلاً عالماً أديبا شاعرًا مُحْسِنًا .

وكانت له رحلةٌ إلى المشرق فى أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، حَجَّ فيها ولَقِىَ عِلْيَةَ أهلِ الحديث ، فكَتَبَ عنهم ، وقَدِمَ إلى الأندلس بعلمٍ كثير ، فَذَهَبَ إلى نَشْرِه[5] ، فكان يَتَحَلَّقُ فى المسجدِ الجامعِ بقرطبة ، وهو يَلْبَسُ الوَشْىَ الهِشَامِىَّ[6](٣٤٨) وما شاكَلَهُ ، فتكاثَرَ الناسُ عليه ، فكَرِهَ ذلك الأميرُ عبدُ الرحمن ، وأَوْصَى إليه بِتَرْكِ التَّحَلُّقِ ، وقال له : إنك جَدُّ كِسْرٍ[7] من قُرَيْش ومِنَّا بحيث تَعْلَمُه ، ولا يَصْلُحُ هذا الأمرُ بِكَ[8] فَدَعْهُ ! فَتَرَكَ ذلك .

قال :

وَجَرَتْ لِدَحُّونَ فى سَفْرَتِه مع والى بنى العباس بِدَمَشْقَ - بيتِ سَلَفِهِ - قصةٌ طريفة

= التالى فى كتاب المغرب لابن سعيد (١ / ١٤٦ - ١٤٧) فى معرض الكلام عن القاضى مسرور بن محمد : « وخطب فى الاستسقاء ، فقال : يا أيوب البلوطى ، عزمت عليك حيث كنت لتقومن . فلم يقم إليه بعد أن أقسم عليه فى الثالثة ، وقال : ياهـذا . أشهرتنى ! أما كنت أدعو حيث أنا ؟ ثم رفع القاضى رأسه فقال : اللهم إنا نستشفع إليك بوليك هذا . وألح بالدعاء وكثر الضجيج والبكاء . فلم ينصرفوا إلا وأحذيتهم فى أيديهم من كثرة المطر . وطلب أيوب بعد ذلك فلم يوجد » . وابن سعيد ينقل هذا الخبر عن ابن عبد البر . أما ما ورد هنا فلسنا نعرف عمن نقله ابن حيان ، ونحن نرى بعض الخلاف فى التفاصيل بينه وبين نص ابن سعيد . وهذا هو ما يشير إليه ابن حيان بقوله : « على اختلاف الرواة فى تاريخ عامه واسم الإمام المستسقى » .

(1) زيادة يقتضيها السياق .
(2) ص : لب .
(3) ص : الحسن .
(4) ص : فنس ، بلا إعجام .
(5) ص : نثرة .
(6) فى نفح الطيب للمقرى (٣ / ٢٥٩) : الشامى
(7) كذا فى الأصـل .
(8) ص : إلا موتك .

حكاها إسحاق بن سَلَمَة(٣٤٩) عن ابنَةِ وَلَدِهِ عَبْدَةَ بنتِ بشر بن دَحُّون(٣٥٠) عن أبيها بشر(٣٥١) قال :

دَخَلَ أبي دَحُّون إلى مدينة دِمَشْق - وَطَنِهِم [الأَقْدَمِ][1] - فى رحلته إلى المشرق ، وعامِلُها يومئذ لأبي إسحاقَ المعتصمِ عُمَرُ بن فَرَجٍ الرُّخَّجِيُّ مَوْلَى بنى العبَّاس(٣٥٢)، فاتَّفَقَ أن وافَقَ كَوْنَه بها أيَّامُ غلاءٍ نَزَلَ بأهلِها [وارتفاعُ] سعرٍ [ضَجُّوا منه ، فَأَخَذَ] الرُّخَّجِيُّ بضَبْطِهِمْ : بأَنْ أَمَرَ بإزْعَاجِ مَنْ عِنْدَهُمْ [من الطارئين عليهم من أهْلِ] البلادِ والغُرَبَاء . [وَجَعَلَ] على كُلِّ مَنْ أُخِذَ من أبْناء السَّبيلِ [بعد انقضاء الأَجَل الذى ضَرَبَهُ لهم أن يَحِلَّ به أشَدُّ العِقابِ][2] .

[فابْتَدَرَ الغرباءُ الخروج عنها ، وأقام دَحُّونُ لم يَتَحَرَّكْ ، فَجِيءَ به إلى الرُّخَّجِيِّ بعد الأَجَلِ ، فقال له :

- ما بالُكَ عَصَيْتَ أَمْرِى ؟ أَوَمَا سَمِعْتَ نِدَائِى ؟

فقال له دحُّونُ :][3]

/ - ذاكَ قُدِّرَ لأنِّى ابْنُ بَجْدَتِها ! وانْتَمَى له . [٢١٤ ا]

قال الرُّخَّجِيُّ :

- صَدَقْتَ والله ! ما أنتَ فيها بغريبٍ ، وإنَّكَ لأَحَقُّ بالإقامَةِ فيها مِنَّا . فأَقِمْ ما أَحْبَبْتَ وانصرِفْ إذا شِئتَ .

وذكر إسحاق بن سَلَمَة عن أحمد بن عبدِ اللهِ الحَبِيبِيِّ عن جَدِّه قال :

---

(1) إضافة عن المقرى : نفح الطيب ٣ / ٢٥٩ .

(2) أكملنا النص بالمعنى معتمدين على ما ورد فى الموضع المشار إليه قبل ذلك من النفح ومع مراعاة ما بقى من النص خلال القطوع والفجوات .

(3) عن نفح الطيب للمقرى .

لما حَجَّ حبيبُ دَحُّونُ اجتمع بمكَّةَ مع ابن عمه محمد بن يزيد بن مَسْلَمَةَ ، وكان مُطْمَئِنًّا ببلده بالشام بحالٍ حَسَنَةٍ ، فَوَهَبَ له محمد جاريَةً تُسَمَّى عابِدة(٣٥٥)، وكانت سَوْدَاء[1] حالِكَةً من رَقِيقِ المدينة ، وكانَتْ تَرْوِى عن مالكٍ بنِ أَنَسٍ وغيره من العلماء شُيُوخِها ، فتُسْنِد عَشْرَةَ آلافِ حديثٍ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقَدِمَ بها دَحُّونُ إلى الأَندلُس ، وهو قد أُعْجِبَ بِعِلْمها وفَهْمها ، فاتَّخَذَهَا لفِراشِهِ ، فَوَلَدَتْ له بِشْرًا[2] إبْنَهُ .

(1) ص : سردا .

(2) ص : بشر .

الدّاخِلون إلى الأَمير

عبد الرحمن من قَوْمِـه

وفى كتابِ مُعاويةَ بن هِشامٍ الشَّبِينَسِيِّ :

من وُجوهِ من دَخَلَ إلى الأَندلس من بنى مروان أبو القاسم بَكَّار[1] بن عبد الواحد[2] بن داود بن سليمان بن عبد الملك بن مروان ، دخلها أيام الأَمير عبد الرحمن بن الحكم ، ودَخَلَ معه ابنُ أخيه أبوسعيد مَسْلَمَةُ بن عبد الملك بن عبد الواحد بن داود بن سليمان بن عبد الملك (٣٥٦) فَكَرَّمَهُمَا الأَميرُ عبد الرحمن ورَحَّبَ بهما وأنزلهما وأحسن إليهما وأَقْطَعَهُمَا ، وأَجْرَى لكل واحدٍ من الرزق بالمُشَاهَرَةِ ثلاثين دينارا[3] .

ودخل بعدهما من أهل بيتهما إلى الأَمير عبد الرحمن أيضا سنة ست وثلاثين ومائتين سَلَمَةُ بن عبد الملك بن عبد الواحد بن داود بن سليمان ، فأَجراهُ مُجْرَاهُمَا ، وقد [انْقَرَضَ][4] الآن عَقِبُ سَلَمَةَ هذا .

قال :

ودخل الأَندلُسَ من هؤلاء المروانِيَّة أيام الأَمير عبد الرحمن بن الحكم أَصْبَغُ بن محمد بن هشام بن محمد بن سعيد الخير بن عبد الملك بن مروان ، فأَنزله الأَمير عبد الرحمن ، وكرمه وأقطعه ، فأَلقى عصاه بالأَندلس وأَنْسَلَ ، فَعُرِفَ وَلَدُهُ ببنى السَّعيدىِّ ، وهم بإشبيلِيَّة (٣٥٧) .

---

(1) فى الأصل : أبو القاسم بن بكار ، وواضح أن لفظ « ابن » زائد لا محل له .

(2) ص : عبد الرحمن ، وهو تحريف .

(3) ص : دينـــار .

(4) كلمة مطموسة فى الأصل تدل بقايا حروفها على أنها كما أثبتنا .

[ما قِيلَ فى رِثاء الأميرِ عبد الرحمن بن الحكم] [1]

وَوَجدْتُ بخطِّ أبى بكر [عُبَادَة][2] الشاعر لِطَاهِرِ بنحَزْمٍ (٣٥٨) الشاعرِ من قصيدة يرثى بها الأميرَ عبد الرحمن [ويُهَنِّئُ][2] الأمير محمدًا ابْنَهُ بالخلافَة : [من الطويل]

[٢١٤ ب] -/ سَقَى[3] الله قَبْرًا بِالنَّخِيلِ غَمَامَةً
تكادُ إذا حُلَّتْ عُرَاهَا تَفَطَّرُ

رَأى اللهُ إذْ وَلَّى الأميرَ مُحَمَّدًا
لَكُمْ عِصْمَةً يأَيُّهَا النَّاسُ فاشْكُرُوا

فما نَطَقَ الأقْوَامُ فيه قَنَاعَةً
وهُمْ فى أبى بكرٍ - لَعَمْرِىَ - كَثَّرُوا

تَبَسَّمَتِ[4] الدُّنْيَا إليه وَأقْبَلَت
إليه قُلوبُ الناسِ لا تَتَأَخَّرُ

وخرج إلى مديح فأطال .

ولعبد اللهِ بن بَكْرٍ المُنْبَزِ بالنَّذْلِ[5] (٣٥٩) فى ذلك : [من المتقارب]

أَلَا إنَّ فى الدَّهْرِ لِلْمُبْصِرِينَ عَجَائِبُ تَبْهَرُ[6] أَنْظَارَهَا
تَسُورُ المنايَا فَمَا من عزيزٍ يُدافِعُ بالعِزِّ تَسْوَارَهَا !
وكانَ بالأمْسِ سِراجَ العُلَا يَسُوسُ البِلادَ وأقْطَارَهَا
على حِينَ أحْكَمَ رَيْبَ الدُّهُورِ وعُرْفَ[7] الأمورِ وَإنْكَارَهَا

(1) أضفنا هذا العنوان لملاءمته للسياق .

(2) كلمتان مطموستان فى الأصل ، لا تظهر منهما إلا بقايا حروف .

(3) ذهب فى قطوع آخر الصفحة السابقة بيتان أو ثلاثة أبيات مما اختاره ابن حيان من قصيدة طاهر بن حزم .

(4) ص : تسمت ، ولا يستقيم بها الوزن ولا المعنى ، وهى بغير شك تحريف عما أثبتنا .

(5) المسر بالبدل ، بلا إعجام . (6) رهس .

(7) ص : وعون ، وهى تحتمل أن يكون القسيم هكذا « وعون الأمور وأبكارها والعون جمع عوان ، والأبكار جمع بكر ، ويكون المقصود المعتاد المألوف من الأمور والحادث الطارئ الذى لا سابقة له .

أَتَتْـــهُ مَنِيَّتُـــهُ بَغْتَـــةً وقَدْ كَانَ فى الأَرْضِ جبَّارَهَا
فَوُسِّدَ بَعْدَ وثِيرِ الحَشَايَـا خِـلالَ المقابِـرِ أَحْجَارَهَا
وخَـلَّاه أَنْصَـارُهُ مُفْـــرَدًا وقَـدْ كانَ بالأَمْسِ أَنْصَارَهَـا
فَلِلَّه ما اسْتَوْدَعَتْ فى النخيل أَكُفُّ الرِّجـال وَمَنْ زَارَهَـا

ومِمَّا يُسْتَلْحَقُ

فى باب الوفـاةِ فَوْقَ هَـذَا

فى ذِكرِ عِيسى بن دِينـار(٣٦٠) :

قال محمد بن حارث :

رحل عيسى فأدرك أصحاب مالك متوافرين ، فسمع ن ابن القاسم كبيرهم ، واقتصر عليه ، فاعْتَدَلَتْ فى الفقه طَبَقَتُه ، وكان من أَهْلِ الزُّهْدِ اليابِسِ ، والدِّينِ الكامِلِ ، مع قُوَّتِه فى التفقه لمالك وأصحابه ، فلقد كان ابن وَضَّاحٍ يقولُ : هو الَّذى عَلَّم أهل الأندلس الفِقْهَ . توفى سنة اثنى عشرة ومائتين[1] .

[وفى ذكر حارث بن أبى سعد][2] :

وتوفى الفقيه أبو عُمَر حارث بن أبى سَعْد[3] سابقٍ مَوْلَى[4] الأمير عبد الرحمن(٣٦١)، رَحَلَ فسمع من ابنِ كِنَانة ، وولَّاه الأمير الحكم بن هشام الشُّرْطَةَ الصُّغْرَى ، فكان أوَّلَ من وَلِيهَا ، وأقَرَّهُ الأميرُ عبدُ الرحمن عليها . توفى سنة إحدى وعشرين ومائتين .

---

(1) ص : إحدى وعشرين ومائتين ، وهو بغير شك سهو من الناسخ ، ولعله خلط بين هذه السنة وسنة وفاة حارث ابن أبى سعيد المذكور فى الفقرة التالية ، فن المعروف أن عيسى بن دينار توفى سنة ٢١٢ ، وقد ذكره ابن حيان من قبل فى حديثه عن وفيات تلك السنة ، وما كان ابن حيان ليفوته مثل ذلك .

(2) أضفنا هذا العنوان لأن السياق يقتضيه .

(3) ص : أبو عمرو حارث بن أبى سعيد ، وقد أصلحناه بما هو معروف من إسم هذا الفقيه وكنيته .

(4) ص : مولاى .

وفى ذكر الشيخ يحيي بن يحيي[1] (٣٦٢) :

أنّه [رَحَلَ رِحْلَةً] تَيْنِ [من الأندلس : سَمِعَ فى الأُولى من مالك بن أنس والليثِ ابن سَعْد] ومن ابن وهبٍ وغيرهم ، واقْتَصَرَ [فى الثانية على عبد الرحمنِ بن القاسِمِ] ، وبه تَفَقَّهَ ، [وإليه انتَهَتِ الرياسَةُ فى العِلْمِ بالأندلُسِ على عهْدِ الأمير عبد الرحمنِ] [٢١٥ ا] / ابن الحَكَمِ ، وتُوُفِّى فى أيامه من غيرِ تحديدٍ لتَارِيخِهِ .

(1) استعنا فى استكمال هذا النص الذى عدت عليه قطوع آخر الورقة بترجمة يحيى بن يحيى الليثى فى الديباج المذهب لابن فرحـون ص ٣٥٠ ، فضلا عما بقى من حروفه .

التعليقات

(١) هو موسى بن موسى بن فرتون بن قسى أشهر أفراد هذه الأسرة المعروفة باسم بن قسى التى ملكت الثغر الأعلى (سرقسطه وما حولها) منذ القرن الثانى الهجرى حتى أوائل القرن الرابع . وقد كان جده الأعلى «قسى» قومس (كونت) الثغر الأعلى فى أواخر أيام القوطيين ، فلما افتتح المسلمون الأندلس لحق بالشام ، وأسلم على يدى الوليد بن عبدالملك وانتمى إلى ولائه . وتعاقب بنو قسى على رياسة الثغر الأعلى ، فكان مطرف بن موسى بن فرتون بن قسى (أخو موسى المذكور) هو آخــر الولاة المسلمين على بنبلونة ، إذ ثار به أهلها وقتلوه فى سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٨ م . أما موسى فقد ظل على الطاعة للأمير عبد الرحمن الأوسط بن الحكم متولياً له تطيلة ، وأرنيط ، بينما كان ابنه لب بن موسى عاملا كذلك على برجة ؛ وذلك حتى سنة ٨٤١/٢٢٦ حينما ولى الأمير عبد الرحمن عبد الله بن كليب بن ثعلبة على سرقسطة وأخاه عامر بن كليب على تطيلة ، فتعرض هذان بالإيذاء لموسى ، وأغارا على أمواله وضياعه ، كما شملا بالأذى أموال ونقه بن ونقه ، أمير بنبلونة النصرانى ، وهو أخو موسى بن موسى لأمه ، فكان ذلك سبب انقباض موسى عن الطاعة . وفى سنة ٨٤٢/٢٢٧ خرج المطرف ابن الأمير عبد الرحمن بن الحكم بالصائفة إلى بنبلونة ، فتخلف موسى عن الخروج معه ، وندب لذلك ابنه فرتون بدلا منه ، فكان تقاعد موسى مما أغضب المطرف ، فلما قفلت الصائفة ولى حارث بن بزيع سرقسطة ، فكشف وجهه بالعداء لموسى وتولى محاربته ، ولكن هذا تمكن من أسره فى موضع على نهر إبره يعرف باسم بلمة Palma . وفى سنة ٨٤٣/٢٢٨ غزا عبد الرحمن ابن الحكم الثغر الأعلى بنفسه ، وتوجه لمهاجمة موسى بن موسى وحلفائه النصارى من أهل بنبلونة وجليقية وألبة وشرطانية ، فسارع موسى إلى الإعلان بالطاعة ، وانعقد له الأمان على أن يسجل له على ولاية أرنيط ، وأطلق موسى فى نظير ذلك حارث بن بزيع من أسره . وفى سنة ٨٤٤/٢٢٩ عاد موسى إلى خلع الطاعة ، فخرج إليه الأمير عبد الرحمن وحاربه وحاصره ، وحينئذ طلب الأمان من جديد ، فانعقد له فى السنة التالية ، غير أنه عاد إلى الخلاف مرة أخرى فى سنة ٨٤٧/٢٣٢ ، فأخرج إليه الأمير صائفة أرغمته على الإذعان . وولاه الأمير مدينة تطيلة سنة ٨٤٩/٢٣٥ ، غير أنه عاد إلى العصيان فى آخــر هذه السنة ، وعاث فى أحواز تطيلة وطرسونة وبرجة ، فأخرج إليه عبد الرحمن القائد عباس بن الوليد الطبلى ، فعاد موسى إلى الطاعة ، وسلم ابنه اسماعيل رهينة ، وقبل منه الأمير عبد الرحمن ، وعقد الأمان له ولأخيه لأمه غرسية بن ونقه صاحب بنبلونة وفى سنة ٨٥١/٢٣٧ — ٨٥٢ اشترك موسى فى وقعة البيضاء المجاورة لمدينة بقيرة من بلد بنبلونة حيث دار قتال عنيف بين المسلمين والبشكنس ، وكان له فى هذه المعركة بلاء حسن جعل الأمير عبد الرحمن يوليه فى السنة التالية على سرقسطة مضافة إلى أعماله ، واستقامت طاعته حينما ولى الإمارة محمد بن عبد الرحمن على أثر وفاة والده عبد الرحمن الأوسط ، فى سنة ٨٥٦/٢٤١ كتب الأمير إليه بحشد أهل الثغور والدخول بهم إلى ألبة والقلاع ، فاضطلع بهذه الغزوة وفتح كثيراً من حصون العدو . وفى السنة التالية (٨٥٧/٢٤٢) عهد إليه الأمير محمد بغزو برشلونة ، فافتتح فى غزوته هذه حصن طراجة من آخر أحواز برشلونة ، ومن أخماس غنيمته هناك زيدت الزوائد فى المسجد الجامع بسرقسطة . وفى سنة ٨٦٠/٢٤٦ غزا الأمير محمد بالصائفة إلى غرسية بن ونقه صاحب بنبلونة وأوقع به ، ويبدو أن موسى بن موسى قد ضجر لذلك وأبدى امتعاضه ، فكتب إلى الأمير يذكر ما ناله ونال أهل بلده من النصب لمرور الغزوات المتوجهة إلى جليقية على بلده ، ويسأل أن يكون دخول

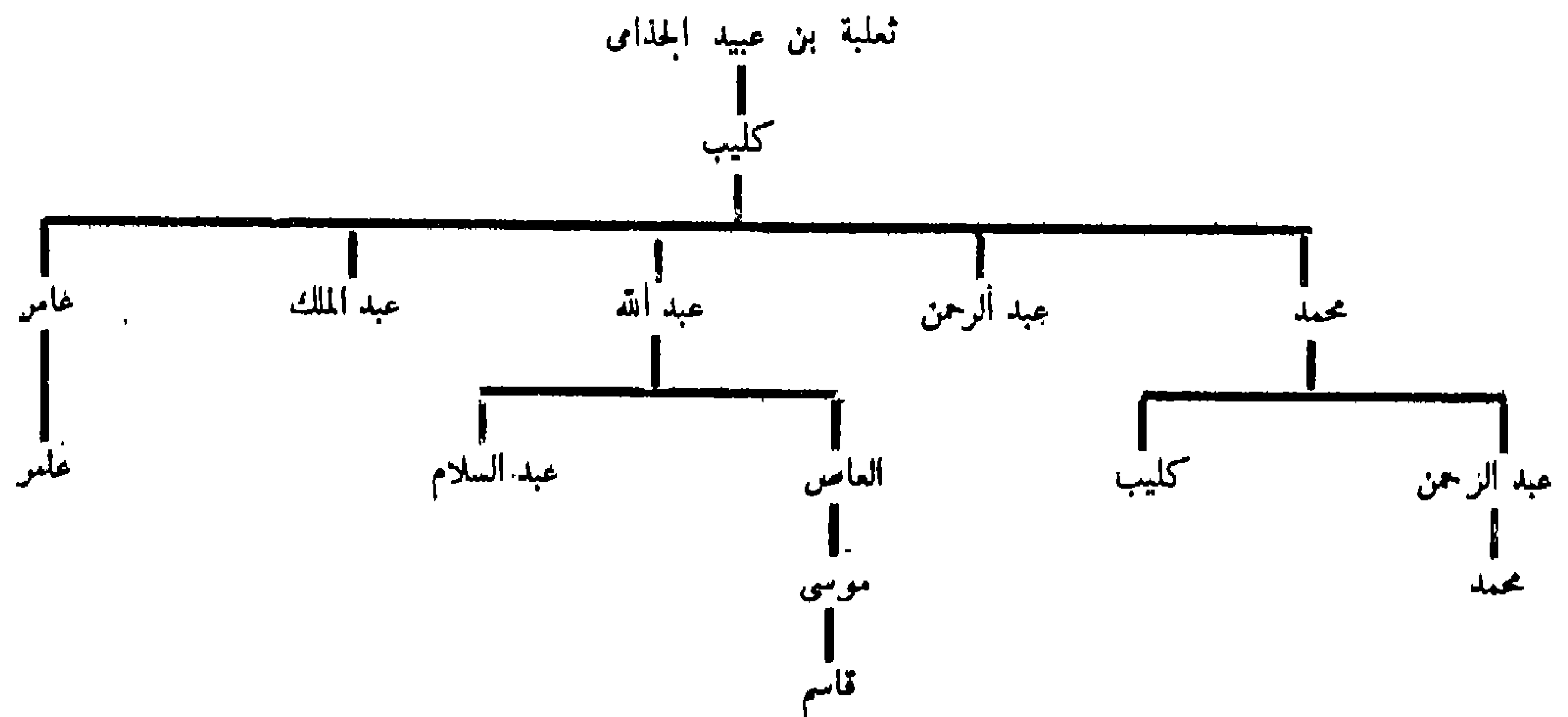
العسكر على غير ناحيته ، فأسفه الأمير بذلك ، ولو أنه تأذى به ورأى فيه بوادر عصيان جديد يوشك موسى بن موسى أن يعلنه ، ويظهر أن الأمير محمداً أراد أن يعزله عن الثغر ، وحينئذ جاهر موسى بالخلاف ، بل إنه حاول أن يمد نفوذه على ثغر طليطلة ونواحيه ، فسعى في عقد مصاهرة بينه وبين صاحب وادى الحجارة إزراق بن منتيل بن سالم ، إذ زوجه بابنته ، وكان إزراق من أهل بيت عرفوا بالولاء والإخلاص لإمراء بنى أمية ، فأزعج ذلك الأمير ، وحاول أن يفسد هذا الصهر ، فلم يتم له ، غير أنه حدث بعد ذلك بين موسى بن موسى وزوج ابنته إزراق ما أدى إلى اشتعال الحرب بينهما ، فأغار موسى على وادى الحجارة ، ولكن إزراق خرج إليه فأصابه بجراح أدت إلى وفاة موسى فى تطيلة بعد ذلك بقليل فى سنة ٨٦٢/٢٤٨ . وخلفه على ملك الثغر ابنه لُب بن موسى .

عن موسى بن موسى انظر ما سيورده ابن حيان فى هذا الجزء ، وفيه أخبار كثيرة لم تكن معروفة من قبل ، وابن عذارى : البيان المغرب (بتحقيق كولان وليفى بروفنسال) ٨٧/٢ ، ٩٥ – ٩٧ ؛ جغرافية العذرى ص ٢٩ – ٣٠ ؛ ابن حزم : جمهرة الأنساب ، الطبعة الثانية ص ٥٠٢ – ٥٠٣ (حيث يورد جدول نسب كامل لبنى قسى) ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٦٣ ، ٩٨ – ١٠٠ ؛ ابن خلدون : العبر (ط . بيروت) ٢٨٠/٤ – ٢٨١ ، ٢٨٣ – ٢٨٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ٢٦٧/٥ – ٢٦٩ ، ٢٧٩ ؛ النويرى : نهاية الأرب (نشر جاسبار رميرو) ص ٢٠٠ – ٢٠١ ، ٢٠٣ ؛ ابن سعيد : المغرب ٣٦/١ ، ٤٩ ؛ المقرى : نفح الطيب ٣٢٣/١ ؛ ليفى بروفنسال : تاريخ أسبانيا الإسلامية ٢١٤/١ – ٢١٨ ، ٣١٢ – ٣١٦ ، وانظر فى هذا المرجع الأخير جدول نسب القسويين فى الورقة المقابلة لصفحة ٣٨٨ ، وقد اعتمد فيها على ما أورده ابن حزم بصفة خاصة .

(٢) عبد الله بن كليب بن ثعلبة بن عبيد الجذامى ، وهو من أسرة ذات رياسة ونباهة منذ فجر الإسلام فى الأندلس كما أشار إلى ذلك ابن حزم فى الجمهرة (ص ٣٩٥) . وجده ثعلبة بن عبيد كان من وجوه أهل فلسطين (أى ساكنى شذونة والجزيرة الخضراء) وإن لم يكن من كبار قوادهم ، وكان له دور بارز فى تأييد عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، وارتفعت مكانته لديه ، إذ عهد إليه بعدة مهام عسكرية كبرى مثل محاصرة سرقسطة عند ثورة سليمان بن يقظان الأعرابى والحسين ابن يحيى الأنصارى بها سنة ١٦٤-٧٨١ ، وتوفى على ما يظهر فى أيام هشام بن عبد الرحمن (انظر أخبار مجموعة ص ٩١ ، ١١٢ – ١١٣ ؛ ابن القوطية : تاريخ ، ص ٦ ، ٣٠ ، ٤١ ؛ العذرى : جغرافية ص ٢٥ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ ، ص ٢٤١) . واشتهر بعد ذلك من أفراد هذا البيت عبد الله بن كليب بن ثعلبة المذكور وإخوته عامر ومحمد وعبد الملك وعبد الرحمن . وتولى الأولان القيادة لعبد الرحمن الأوسط ، فاستعمل عبد الله بن كليب على سرقسطة ، وعامر على تطيلة فى سنة ٨٤١/٢٢٦ ؛ وكانت عداوتهما لبيت موسى بن موسى القسوى سببا فى انقباض هذا عن الطاعة وعزل الأمير إياه ، وفى سنة ٨٤٢/٢٢٧ عزل عبد الله بن كليب عن سرقسطة ، ويبدو أنه انتقل إلى تطيلة بعد ذلك (العذرى : جغرافية ص ٢٩ – ٣٠) ، وفى سنة ٢٣٠ هـ ٨٤٤ كان عبد الله من بين القواد الذين عهد إليهم بقتال المجوس (النورمنديين) حينما حلوا بإشبيلية (ابن عذارى : بيان ٨٧/٢ ، العذرى : جغرافية ص ١٠٠) . وذكر ابن الأبار أن عامر بن كليب ولى على طليطلة ثم صرف عنها بأخيه عبد الله (الحلة السيراء ، نشر دوزى ص ٨٨ ، ونشر الدكتور حسين مؤنس ، ١٦١/١ ، وربما كانت طليطلة هنا تحريفا عن « تطيلة ») أما الأخ الثالث محمد بن كليب فإن ابن حيان نفسه سيذكره فى عداد وزراء عبد الرحمن بن الحكم قائلا إنه كان على الشرطة قبل تولية الوزارة ، بل إنه ولى هذه

الخطة من قبل على عهد الأمير الحكم . وقد ذكره ابن حيان فى آخر هذا الجزء الخاص بالأمير عبد الرحمن بن الحكم ، فقال إنه توفى بسرقسطة سنة ٢٢٠ أو ٢٢٦ (انظر النص ص ٨٠) . ولم يشر إلى الأخ الرابع عبد الملك بن كليب إلا ابن عبد المنعم الحميرى الذى ذكر فى « الروض المعطار » (ص ١٧٧) أنه هو الذى اضطلع ببناء قصر ماردة . وكان من أفراد هذا البيت المشهورين عامر بن عامر بن كليب بن ثعلبة الشاعر صاحب الوزير هاشم بن عبد العزيز والمتوفى سنة ٢٧٥ ، وسيتحدث عنه ابن حيان بمزيد من التفصيل فى هذا الجزء نفسه (وانظر عنه كذلك ابن الأبار : الحلة السيراء ١٦١/١ – ١٦٢ ؛ ابن سعيد : المغرب ٩٣/١ – ٩٥) . كذلك ترجم ابن الفرضى من بين أفراد هذا البيت لمحمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن كليب بن ثعلبة المتوفى سنة ٣٠٩ ، وكان مشاوراً فى الفقه وعقد الوثائق (تاريخ علماء الأندلس ، ترجمة رقم ١١٧٧ ؛ وانظر كذلك الحميدى : جذوة المقتبس ، ترجمة رقم ٩٥ ؛ وابن حيان : المقتبس ، القطعة الخاصة بتاريخ الأمير عبدالله ابن محمد ، نشر الأب ملتشور أنطونيا ، ص٨) . ومنهم عبد السلام بن عبد الله بن كليب بن ثعلبة الذى ولى القيادة للأمير عبد الله بن محمد (انظر ابن حيان : المقتبس ، نشر أنطونيا ، ص ٢٨٧) ، وكليب بن محمد بن كليب بن ثعلبة القائد كذلك (نفس المرجع والصفحة) ، وقاسم بن موسى بن العاص بن عبد الله بن كليب الذى ولى قضاء إشبيلية ولبلة وقرمونة فى أيام عبد الرحمن الناصر (انظر ابن الأبار : التكملة ، القطعة التى نشرها آنخل جونثالث بالنثيا وماكسيميليانو ألاركون ، ترجمة رقم ٢٠٢٩) .

وفيما يلى جدول بأنساب من عثرنا عليهم من أفراد هذا البيت :



(٣) تطيلة Tudela بلد تتبع الآن محافظة نبرة Navarra ، وهى تقع على بعد ٧٨ كم . إلى الشمال الغربى من سرقسطة Zaragoza وكانت من أمهات مدن « الثغر الأعلى » على عهد المسلمين فى الأندلس (انظر عنها المقال الذى كتبه ليفى بروفنسال فى دائرة المعارف الإسلامية ، ٨٦٢/٤ ، وابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار ص ٦٤ من النص العربى و ٨٠ من الترجمة الفرنسية) .

(٤) لسنا نعرف الكثير عن القائد محمد بن يحيى بن خالد هذا ، وجل ما وصلنا عنه هو ما جاء فى كتاب المقتبس نفسه لابن حيان ، فقد ذكر أنه كان من قواد الحملة التى رأسها عبيد الله بن عبد الله البلنسى صاحب الصوائف إلى بنبلونة سنة ٨٤٢/٢٢٧ ، وأنه كان قائد الحملة الموجهة لعقاب موسى بن موسى القسوى فى سنة ٨٤٤/٢٢٩ ، وإن كان ابن حيان يسميه « محمد بن يحيى الوزير » فقط (انظر « نصوص جديدة من كتاب المقتبس » بقلم ليفى بروفنسال وغرسيه غومس ، مجلة « الأندلس » ، سنة ١٩٥٤ ، ص ٢٩٦ ، ٣٠٢) . وسيذكر ابن حيان بعد قليل فى أخبار سنة ٢٣٤ أن صائفة هذه السنة كانت بقيادة عبد الواحد الإسكندرانى مضيفا إلى ذلك : « ودبر الوزير يحيى بن خالد » ، ولا ندرى ما إذا كان يحيى بن خالد المذكور هنا هو والد محمد بن يحيى القائد المشار إليه أو شخصا آخر . وقد ورد اسم « يحيى بن خالد » أيضا فى « البيان المغرب » لابن عذارى (٩٠/٢) ، وجاء فى هذا النص أنه كان واليا على الثغر الأعلى فى سنة ٢٣٧ حينما قام بناحيته رجل ادعى النبوة ، وعلى كل حال فقد يكون يحيى بن خالد وابنه محمد — إذا صح أنه ابنه — من نسل عبيد الله ابن خالد الذى كان أحد القائمين بدعوة عبد الرحمن الداخل عند جوازه من المشرق إلى الأندلس .

(٥) عن بنبلونة Pamplona عاصمة ولاية نبرة Navarra (التى كانت من ممالك إسبانيا النصرانية على عهد المسلمين) انظر ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار ص ٥٥ — ٥٦ من النص العربى و ٧٠ من الترجمة الفرنسية ، وكذلك مقال ليفى بروفنسال فى دائرة المعارف الإسلامية (تحت مادة Pampelune) ١٠٩١/٣ ، والمراجع الواردة فى هذين المصدرين .

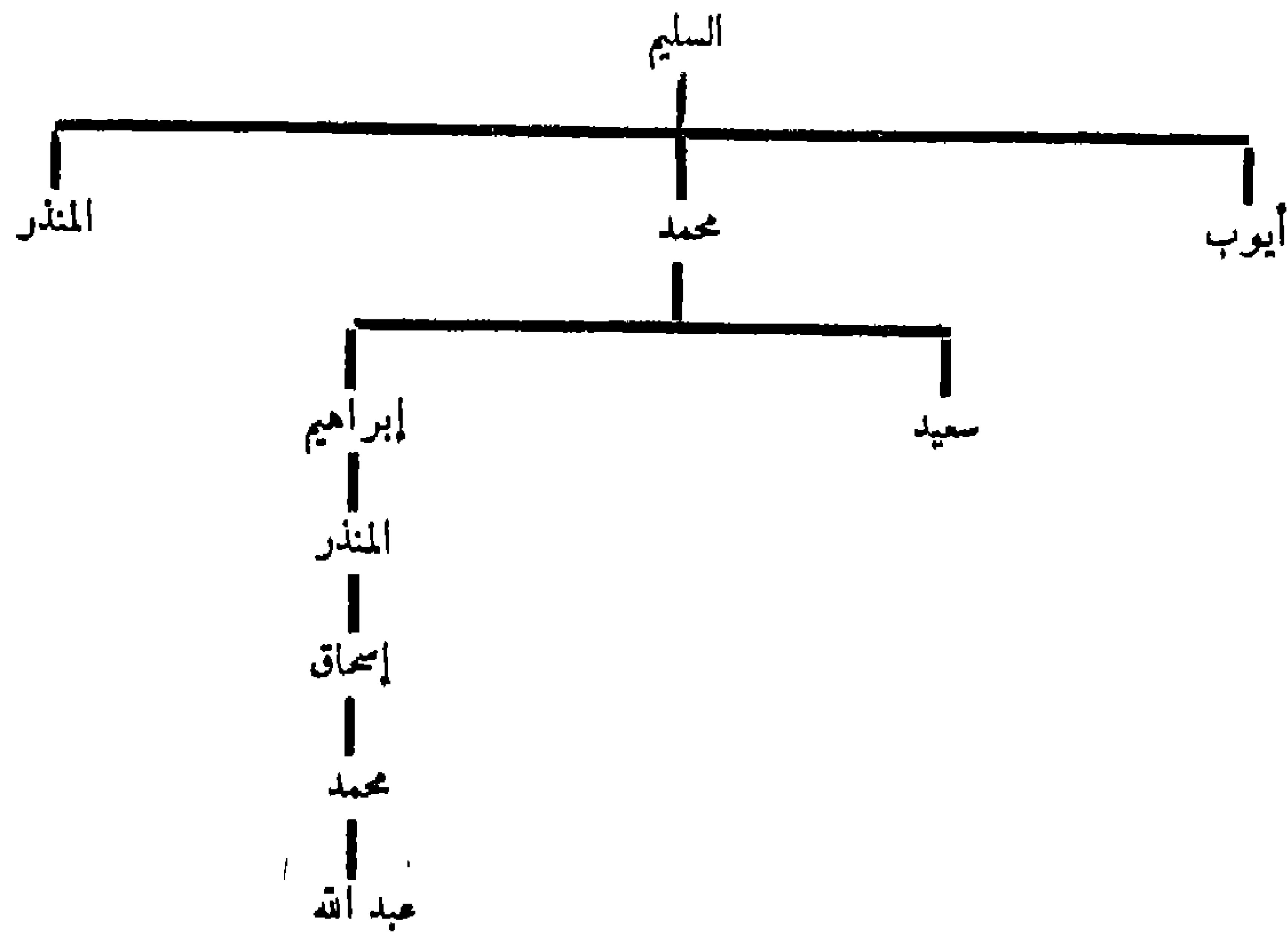
(٦) كان حارث بن بزيع المذكور من كبار قواد عبد الرحمن الأوسط بن الحكم . وقد تحدث صاحب « أخبار مجموعة » بالتفصيل عن أولية أبيه بزيع وصلته بعبد الرحمن بن معاوية الداخل (انظر ص ١٠٩) ، فقال إنه لما قام حيوة ابن الملامس بالثورة فى إشبيلية على الأمير عبد الرحمن ، وثار معه عبد الغافر اليحصبى ودارت الهزيمة على هذين فى سنة ١٥٤ قام عبد الرحمن بشراء عدد من العبيد ممن حسن بلاؤهم فى المعركة ، وكان من بينهم بزيع والد حارث بن بزيع هذا ، ويبدو أنه عهد إليه ببعض مناصب القيادة بعد ذلك . أما حارث فقد ظهر أمره فى أيام عبد الرحمن الأوسط بن الحكم ، فقد عهد إليه الأمير بقيادة الجيش الذى توجه من قرطبة إلى الثغر الأعلى حينما أعلن موسى بن موسى بالعصيان فى سنة ٨٤٢/٢٢٧ ، فالتقى به فى برجه ، وظهر حارث على موسى ، ثم فتح برجة وأسر فيها لب بن موسى ، وحاصر تطيلة بعد ذلك حتى أخرج عنها موسى بن موسى ، ثم انصرف حارث إلى سرقسطة مقر ولايته . وكان يخرج بعد ذلك إلى أرنيط المرة بعد المرة لكى يرهق موسى بن موسى ، غير أن هذا تمكن أخيراً من نصب كمين له فى موضع « بلمة » على نهر إبره ، فأوقع به هناك وأسره ، وأقام حارث أسيراً لديه مدة تسعة أشهر . فغزا الأمير عبد الرحمن إلى بنبلونة فى نفس السنة لكى يقتص من فعل موسى بقائده حارث ، وفى السنة التالية (٨٤٣/٢٢٨) وجه إلى موسى غزوة أخرى ، فصالحه هذا وأطلق سراح حارث بن بزيع . ولا نعرف بعد ذلك عن هذا القائد إلا ما يذكره ابن حيان هنا من ولايته على طليطلة وعزله عنها فى نفس هذه السنة (٨٤٧/٢٣٢ ثم ما يذكره ابن عذارى من أنه كان فى سنة ٨٥٦/٢٤١ عاملا للأمير محمد على قلعة رباح وطلبيرة . هذا ويذكر ليفى بروفنسال فى تاريخه أنه كان من قبل فى سنة ٨٣٠/٢١٥ واليا على ماردة وأنه كان يتولى « دار الطراز » بقرطبة . (عن حارث ابن بزيع انظر مقال ليفى بروفنسال وغرسيه غومس : نصوص جديدة من كتاب المقتبس ، ص ٢٩٨ ؛ العذرى : جغرافية

ص ٣٠ ؛ ابن عذارى : البيان ٩٥/٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ٢٦٨/٥ – ٢٦٩ ؛ النويرى : نهاية الأرب ص ٢٠٠–٢٠١ ليفى بروفنسال : تاريخ ٢٠٨/١ ، ٢١٦ ، ٢٥٧ ، ٢٩٢) .

(٧) محمد بن السليم بن أبى عكرمة جعفر بن يزيد بن عبد الله مولى سليمان بن عبد الملك ، وكان أول من عرف من هذا البيت هو جده أبا عكرمة جعفر بن يزيد الذى عقد بقناته لواء عبد الرحمن بن معاوية الداخل قبل موقعة المصارة التى دارت بينه وبين يوسف بن عبد الرحمن الفهرى (انظر ابن القوطية : تاريخ ص ٢٦) ، وأما محمد بن السليم هذا هو وأخوه أيوب ابن السليم فقد كانا من كبار قواد عبد الرحمن الأوسط . وسيذكر ابن حيان محمد بن السليم فى عداد وزراء هذا الأمير قائلا إنه كانت له مع الوزارة خطط يرتزق عليها فى كل شهر ثلاثمائة دينار . وولى محمد بن السليم المدينة فى أيام عبد الرحمن الأوسط على ما يفهم من نص للخشنى (كتاب القضاة ص٩٠) . وقد استقر بنو السليم على ما يظهر فى كورة شذونة ، وإلى محمد المذكور هنا تنسب «مدينة ابن السليم» التى يذكر ابن عبد المنعم الحميرى أنها هى نفسها « مدينة شذونة medina sidonia

(الروض المعطار ص ١٦٢ – ١٦٣ ، والترجمة الفرنسية ص ١٩٥ . وقد ظن ليفى بروفنسال فى مقال عن هذه المدينة فى دائرة المعارف الإسلامية ٥٠٠/٣ أن « مدينة ابن السليم » هى التى تسمى الآن Grazalema فى ولاية قادس Gadiz ، على أنه عدل عن هذا الرأى بعد اطلاعه على نص الروض المشار إليه قبل ذلك) . كذلك ذكر الإدريسى هذه المدينة فى « نزهة المشتاق » (النص العربى ص ١٧٧ والترجمة الفرنسية ص ٢١٥) . واشتهر من بنى السليم بعد ذلك نفر من الرجال ، بينهم سعيد بن محمد بن السليم الذى ولى الحجابة للأمير عبد الله بن محمد بعد أن كان واليا على السوق ثم وزيراً وتوفى سنة ٣٠٢ (ابن حيان : المقتبس ، نشر أنطونيا ص ٤ ، ٥ ، ٥٣ ؛ ابن عذارى : البيان ١٥١/٢ ، ١٦٧ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ١٠٦) ؛ وسعيد بن المنذر بن السليم الذى كان من قواد عبد الرحمن الناصر (ابن القوطية : تاريخ ص ١١٥) ومنذر بن إبرهيم بن محمد بن السليم الثائر فى المدينة المنسوبة إليهم من كورة شذونة فى أيام الأمير عبد الله ابن محمد (انظر ابن حيان : المقتبس ، نشر أنطونيا ص ٢٣ – ٢٤ ؛ ابن عذارى : البيان ١٣٥/٢ ؛ ليفى بروفنسال : تاريخ ٣٤٢/١) ؛ وأخيراً حفيد هذا المذكور : محمد بن إسحاق بن منذر بن إبراهيم الذى ولى قضاء الجماعة فى قرطبة وتوفى سنة ٣٦٧ (أنظر فى ترجمته ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ١٣١٧ ؛ الحميدى : جذوة المقتبس ، رقم ٢١ ؛ الخشنى : كتاب القضاة ص ٢٠٧ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ٥٤١/٤ – ٥٤٩ ؛ النباهى : المرقبة العليا ص ٧٥ – ٧٧ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٢٦٠ – ٢٦٢) ؛ ثم ابنه عبد الله بن محمد بن إسحاق الذى توفى سنة ٤٠٢ (ابن بشكوال الصلة ، رقم ٥٦٥) . وفيما يلى جدول بنسب من عثرنا عليهم من بنى السليم :

جعفر بن ـه بن عبد الله



(٨) ابن حيان هو المؤرخ العربى الوحيد الذى فصل لنا هذه الأحداث التى نجد لها صدى فى المدونات المسيحية القديمة وإن لم تكن على مانرى لدى ابن حيان من الضبط والدقة . أما غليالم بن برناط بن غليالم المذكور هنا فلابد أن يكون القومس (الكونت) Guillaume (أو Guillen) بن Bernard بن Guillaume نبيل فرنسى ، كان جده وسميه غليالم هو الذى يحمل لقب « دوق تولوز Duc de toulouse » ويعرفه الأدب الملحمى الفرنسى فى العصور الوسطى باسم « غليالم ذى الأنف القصير Guillaume au-Court Nez وكان قائداً لحامية أربونة Narbonne حينما اشتبك فى معركة عنيفة مع القائد الأندلسى عبد الملك بن مغيث فى صيف سنة ١٧٧/٧٩٣ فى أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة ساحقة للجيش الفرنسى الذى كان يقوده غليالم المذكور (انظر ليفى بروفنسال : تاريخ ١/١٤٥ – ١٤٦ والمراجع المذكورة) . أما ابنه برناط بن غليالم فنحن نعرف من أخباره أنه خلف أباه على إمارة هذا الجزء من جنوب فرنسا وأن الملك الفرنسى لذويق بن قارله (المعروف بلويس الورع) عهد إليه بالدفاع عن برشلونة Barcelona حينما حاصرتها جيوش قرطبة بقيادة عبيد الله بن عبد الله البلنسى سنة ١٩٧/٨١٣ (ليفى بروفنسال : نفس المرجع ١/٢١١) . وأما غليالم بن برناط المذكور فى نص ابن حيان وحفيد غليالم الأكبر فقد أعلن العصيان على ملك الإفرنج (فرنسا) ، وتحالف مع أمير قرطبة عبد الرحمن الأوسط كما يذكر ابن حيان هنا ، وكما أشار إلى ذلك بشكل عارض مبهم المؤرخ القرطبى المسيحى « سان إيولوخيو San Eulogio » فى كتابه اللاتينى « تاريخ القديسين Memoriale sanctorum » ، إذ ذكر أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم وعد غليالم هذا بأن يمينه ويمده لو أنه ثار على ملك فرنسا (انظر ليفى بروفنسال : تاريخ ١/٢١٢ ، حاشية رقم ١) . وقد كان الخبر الذى أورده إيولوخيو القرطبى موضعاً لتشكك الباحثين الأوربيين المحدثين ، ولكن نص ابن حيان الذى بين أيدينا يؤكده بصفة قاطعة فضلا عن أنه يزيدنا بيانا وتفصيلا حول علاقات عبد الرحمن بن الحكم بالقومس الإفرنجى ، بل ويضيف إليه ما يذكر من سفارته إلى قرطبة ومحالفته للأمير الأندلسى ، هذا ولو أن ابن حيان قد أخطأ فى اسم الملك الإفرنجى الذى ثار عليه غليالم كما سنرى بعد

ومن الغريب بهذه المناسبة أن ليڤي بروفنسال الذى اهتم ببيان علاقات قرطبة بمملكة الإفرنج (فرنسا) لم يشر إلى هذه الأحداث وإن كان قد نبه إلى ما ذكره المؤرخ المسيحى إيولوخيو بهذا الصدد ، مع أنه اطلع على هذه القطعة من كتاب « المقتبس » . وسوف يورد ابن حيان مزيداً من أخبار غليالم المذكور هذا فى سرده لأحداث سنة ٨٤٨/٢٣٤ — ٨٤٩ .

(٩) ذكرنا فى الحاشية السابقة أن ابن حيان أخطأ فى اسم ملك الفرنجة هذا ، فالواقع أن لذويق بن قارله بن ببين (وهو المعروف باسم لذويق أو لويس الورع Ludovico-pio = Louisle Pieux بن شارلمان charlemagne بن ببين Pepin كان قد توفى قبل هذه الأحداث بسنوات ، فقد ولى ملك بلاده ما بين سنتى ٨١٤ و ٨٤٠ م . (١٩٨ — ٢٢٥ هـ .) ، وأعقبت وفاته ثلاث سنوات نشبت فيها الحرب الأهلية فى أراضى الامبراطورية الكارولنجية بين أبناء لويس الورع ، وأخيراً تولى العرش قارله (شارل المعروف بلقب الأصلع Lechauve Charles) رابع أبناء لويس الورع ، فحكم هذه البلاد مابين سنتى ٨٤٣ و ٨٧٧ م . (٢٢٨ — ٢٦٤ هـ) . فحق الاسم إذن أن يكون « قارله بن لذويق ابن ببين » . وربما لم يكن الأمر خطأ من ابن حيان الذى كان واسع الاطلاع على أحوال الممالك الأوربية المسيحية ، وإنما تقديما وتأخيرا من النساخ ذوى المعرفة المحدودة بأسماء من يكتبون ، ولا سيما إذا كانت أسماء أجنبية غريبة .

(١٠) عن أيوب بن السليم راجع ما كتبناه من قبل عن بنى السليم (حاشية رقم ٧) ، وسنرى بعد ذلك أن ولايته طليطلة لم تطل ، إذ عزل عنها فى السنة التالية (٢٣٤) .

(١١) أشار ابن الأثير إلى هذه الغزوة التى سير عبد الرحمن على رأسها ولده المنذر ، وزادنا بيانا عنها ، إذ ذكر أنها توجهت إلى ألبة Alava (الكامل ٢٨٥/٥) .

(١٢) سيتحدث ابن حيان عن عبدالواحد بن يزيد الإسكندرانى هذا بمزيد من التفصيل ، فن ذلك حديثه عن أوليته وصلته بالأمير عبد الرحمن ، إذ يقول إنه قدم إلى الأندلس حدثا متظرفا ، وكان يشدو شيئا من الغناء ، فاتصل بالحاجب عيسى بن شهيد ، فلما رأى هذا منه نجابة وكفاية نصحه بأن يمسك عن الغناء ويكتفى بأدبه وفضله ، ففعل ، وأوصله الحاجب إلى الأمير عبد الرحمن ، فأعجب به وقربه ، ثم ولاه المدينة ، ورقاه بعد ذلك إلى الوزارة والقيادة (انظر كذلك ابن القوطية : تاريخ ص ٧٤ — ٧٥ ؛ وأخبار مجموعة ص ٨٥) . وفى سنة ٢٢١ أرسله عبد الرحمن إلى طليطلة حينما خالفت عليه ، ففتحها فى تلك السنة ، وفى سنة ٨٤١/٢٢٦ وجه عبد الرحمن صائفة إلى جليقية وجعل على رأسها ابنه المطرف وأسند القيادة إلى عبد الواحد الإسكندرانى (انظر ابن عذارى : بيان ٨٤/٢ ، ٨٦) . ويذكر العذرى أنه أبلى بعد ذلك فى قتال المجوس (النورمنديين) عند نزولهم على سواحل إشبيلية فى سنة ٨٤٤/٢٣٠ — ٨٤٥ (انظر جغرافية العذرى ص ٩٩ ؛ ليڤى بروفنسال ٢٠٦/١ ، ٢١٢ ، ٢٢٣) . ونحن نعلم مما سيذكره ابن حيان أن عبد الواحد بن يزيد الإسكندرانى توفى سنة ٢٣٧ عن نيف وثمانين سنة . وقد كان من نسله حفيد له تولى الوزارة والكتابة كان اسمه عبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد ، وتوفى أيام عبد الرحمن الناصر سنة ٣٠٩ (ابن عذارى : بيان ١٨٢/٢) .

(١٣) عن جزيرتى ميورقة Mallorca ومنورقة Menorca انظر المادتين الواردتين فى « الروض المعطار » (ص ١٨٥ ، ١٨٨ من النص و ٢٢٤ ، ٢٢٨ من الترجمة الفرنسية ، والمقال الذى كتبه عنهما المستشرق زايبولد Seybold فى دائرة المعارف الإسلامية ١/٦٣٠ - ٦٣١ تحت مادة « جزر البليار Baleares ») والدراسة القيمة التى كتبها المستشرق الإسبانى ألبرو كامبانير إى فورتس بعنوان (مخطط تاريخى لجزر البليار فى ظل الحكم الإسلامى » ، ط . بالمسا دى ميورقة سنة ١٨٨٨ .

(١٤) أشار ابن عذارى إلى هذه الأحداث فى جزيرتى ميورقة ومنورقة (بيان ٢/٨٩) ، ولو أنه أوجز كلام ابن حيان إيجازاً شديداً .

(١٥) عن برشلونة Barcelona فى العصر الإسلامى وعلاقاتها بالدولة الأندلسية انظر المقال الذى كتبه زايبولد فى دائرة المعارف الإسلامية ١/٦٧٢ والمادة التى أفردها لها ابن عبد المنعم الحميرى فى الروض المعطار (ص ٤٢ من النص العربى و ٥٣ من الترجمة الفرنسية) .

(١٦) جرندة Gerona هى عاصمة إحدى مقاطعات ولاية قطلونية Cataluna فى الطرف الشمالى الشرقى من إسبانيا على مقربة من الحدود الفرنسية ، وهى تقع على بعد ١٠٠ كم إلى الشمال الشرقى من برشلونة (انظر النص الذى نقله ليفى بروفنسال عن البكرى فى ملاحق كتاب الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٨ من الترجمة الفرنسية) .

(١٧) هو عبيد الله بن يحيى بن خالد ، ويبدو أنه كان أخاً لمحمد بن يحيى بن خالد الذى ذكره ابن حيان من قبل ، وسيعود ابن حيان إلى ذكره فى أخبار سنتى ٢٣٦ و ٢٣٧ ، كما سيذكره من بين وزراء الأمير عبد الرحمن بن الحكم . وقد كان على ما يذكر ابن حيان واليا على طرطوشة من أعمال الثغر الأعلى ، ويبدو أنه ظل واليا على الثغر كذلك فى أيام الأمير محمد على ما يفهم من نص لابن عذارى فى البيان فى ذكر أحداث سنة ٢٤٧ (٢/٩٧) .

(١٨) تقع طرطوشة tortosa قرب مصب نهر إبره فى البحر الأبيض المتوسط على مسافة تبلغ مائتى كيلو متر إلى الجنوب الشرقى من سرقسطة . انظر ماكتبه عن هذه المدينة ليفى بروفنسال فى دائرة المعارف الإسلامية ٤/٨٥٦ - ٨٥٧ ، وانظر الروض المعطار ص ١٢٤ من النص العربى و ١٥١ من الترجمة الفرنسية .

(١٩) بيت بنى بسيل من أكبر بيوتات الموالى الأمويين من أهل الشام ، وكان أول من دخل الأندلس منهم عبد السلام ابن بسيل الرومى المعروف بالشيخ ، كان بسيل أبوه مولى الشام بن عبد الملك على ما يذكر ابن الأبار أو لعبد الله بن معاوية على ما يذكر المقرى (وواضح من الاسم : « بسيل » (Basilius) والنسبة : « الرومى » أنه كان من أصل بيزنطى نصرانى) . وكان دخول عبد السلام بن بسيل إلى الأندلس فى أيام عبد الرحمن بن معاوية الداخل مع ابنيه عبد الواحد

ويحيى ، فاستعمله عبد الرحمن على إشبيلية وشذونة ومورور والجزيرة الخضراء وماردة وغيرها ، وولاه الوزارة ، وتصرف ابنه يحيى فى العمالات أيضا ، إذ ولى على جيان فى أيام عبدالرحمن بن الحكم . أما محمد بن عبد السلام فقد تصرف أيامالحكم ابن هشام فى العمالات أيضا ثم ولى الوزارة والمدينة والكتابة والخيل وغيرها من الخطط ، وسيذكره ابن حيان فى حديثه عن وزراء الأمير عبد الرحمن بن الحكم (انظر ابن الأبار : الحلة السيراء ٣٧١/١ - ٣٧٢ المقرى : نفح ٤٥/٤) . وأما يوسف بن بسيل المذكور فى هذا النص فنحن نعرف عنه - فضلا عما يذكره ابن حيان هنا من ولايته على طليطلة سنة ٢٣٤ - أنه كان من كبار رجالات الدولة فى أول أيام الأمير محمد ، وسيفصل ابن حيان دوره فى تأييد محمد فى محاولته الاستيلاء على الأمر بعد موت والده عبد الرحمن - على خلاف فى ذلك بين المؤرخين - ويفهم من نص للخشنى : كتاب القضاة ص ١٣٤) أنه ولى فى أيام الأمير محمد على شذونة . (انظر كذلك ابن القوطيه : تاريخ ص ٨٠) . وقد اشتهر عدد كبير من أفراد هذا البيت ممن تولوا مناصب كبرى فى الدولة على ما سنرى من أخبار ابن حيان فى هذا الكتاب نفسه .

(٢٠) سيترجم ابن حيان لهذين القاضيين فى حديثه الآتى عن قضاة الأمير عبد الرحمن .

(٢١) لم يرد اسم « طوطالقة » المذكورة هنا فى أى مرجع أندلسى ، والغريب أن الجغرافى الوحيد الذى أفرد لها مادة خاصة هو المشرقى ياقوت الحموى الرومى فى « معجم البلدان » (٥٠/٤ ، ط . بيروت سنة ١٩٥٧) ، وقد ضبطها بضم الطاء الأولى وكسر اللام ، وقال إنها بلدة بالأندلس من إقليم باجة فيها معدن فضة خالصة ، ثم إنه ممن ينسب إليها عبد الله (كذا وصواب الاسم : عبيد الله) بن فرج الطوطالقى النحوى ، روى عن أبى على القالى وأبى عبد الله الرياحى (كذا والصواب الرباحى ، بالباء) وابن القوطية وتحقق بالأدب واللغة وألف كتابا متقنا فى اختصار المدونة ، وتوفى سنة ٣٨٦ . على أن ياقوت من الحجج الثقات فى كل ما يكتبه عن الأندلس ، وهو ينقل دائما عن مصادر وثيقة طيبة . أما الترجمة فقد نقلها عن الصلة لابن بشكوال (رقم ٦٥٩) . وأما اسم الموضع وتحقيق مكانه فلابد أنه نقله - كالعهد به - من جغرافية أحمد بن محمد الرازى التى لم يصل إلينا نصها كاملا . ومن المعروف أن هذه الجغرافية قد ترجمت من العربية إلى البرتغالية على يد القس البرتغالى جيل بيريس Gil Peres بتكليف من ديونيس Dionis ملك البرتغال بمعاونة أحد المسلمين وهو « محمد العريف » . وعن هذه الترجمة نقلت إلى اللغة الإسبانية وضمت إلى « تاريخ إسبانيا العام المؤلف سنة ١٣٤٤ م . » (انظر عن جغرافية الرازى وترجماتها المفقودة والباقية كتاب الدكتور حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، مدريد سنة ١٩٦٧ ص ٦١ والحاشية رقم ١) . ونحن نجد الإشارة إلى طوطالقة فى نص الترجمة الإسبانية التى نشرها بسكوال دى جايانجوس تحت عنوان Memoria sobre la tenticidad de la Cronica denominada del Moro Rasis. (ط . مدريد سنة ١٨٥٢) ص ٥٤ ، ولو أن الاسم حرف إلى Tocania (وفى مخطوط آخر Totarrique وهو أقرب إلى الاسم العربى (. أما الترجمة البرتغالية التى عثر على نصها أخيراً ونشرت فى لشبونه سنة ١٩٥٤ فقد ورد فيها الاسم صحيحا : « totalica » ، وذكر أنها من أعمال كورة باجة Bega (فى البرتغال الحالية وأصبحت تدعى بعد ذلك toucănique) . انظر بحث ليفى بروفنسال : « صفة الأندلس » لأحمد الرازى محاولة لإعادة بناء أصلها العربى ، مجلة الأندلس ، المجلد الثامن عشر ، سنة ١٩٥٣ ، ص ٨٨ .

E. Lévi — Provencal : La «Description de l'Espagne» d'Ahmad Al-Razi. Essai de reconstitution de l'original arabe et traduction Française, Al-Andalus, Vol. XVIII, 1953, p. 88.

(٢٢) كذا فى الأصل ، ولم نهتد إلى تحقيق يطمأن إليه لاسم هذا الموضع .

(٢٣) لم نعثر على « أروش » هذه فى المراجع الجغرافية الأندلسية ، غير أنها وردت عرضا فى بعض كتب التراجم ، فقد أشار إليها ابن بشكوال فى كتاب « الصلة » (ص ٥٧٥ ، ترجمة ١٢٧٩) فقال إنها : «من بلاد الغرب » ، واضطرب فى تحديد موضعها ابن الأبار ، فقال مرة إنها « من عمل قرطبة » (التكملة ، ط . كوديرا ، ص ٣٩ ، ترجمة ١٢٢) ، وقال فى موضع آخر من نفس الكتاب « إنها من الثغر الغربى ، ويقال هى من عمل قرطبة » . هذا ونظن أن أروش هذه هى التى ذكرها ابن غالب فى القطعة التى نشرت من كتابه « فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس » (بتحقيق الدكتور لطفى عبد البديع) ص ٢١ ، قائلا إنها من مدائن كورة باجة (ولو أنها جاءت فى الأصل المنشور « أورش » وتبدو لنا محرفة عما ذكرنا) . ثم عثرنا بعد ذلك على نص آخر لابن حيان من كتاب « المقتبس » نفسه يقول فيه فى معرض ذكر أخبار سنة ٣٦٣ إن فيها « ولى صاحب الشرطة خال الأمير هشام رائق بن الحكم قيادة بطليوس مجموعة له إلى رمكب (كذا) وأوروش ومدلين وأم جعفر إلى ما فى يده من فحص البلوط » (انظر القطعة التى قام بنشرها من المقتبس الأستاذ عبد الرحمن على الحجى ، بيروت سنة ١٩٦٥ ص ١٤٩) ، وقد ورد فى الترجمة الإسبانية الجغرافية أحمد الرازى (وهى التى أشرنا إليها فى الحاشية السابقة ، ط . مدريد ١٨٥٢ ، ص ٥٤) ذكر لقلعة من أعمال باجة دعيت Aroquea مجاورة لطوطالقة التى علقنا عليها فى نفس الحاشية السابقة ، ولابد أن تكون هى « أروش » الواردة فى نص ابن حيان ، وأن تكون هى البلد الذى يعرف اليوم باسم Aroche (وهى مدينة رومانية قديمة كان يطلق عليها باللاتينية اسم Arucci Vetus وتقع اليوم فى مقاطعة ولبة Huelva المتاخمة لحدود البرتغال الجنوبية ، وهى تبعد بنحو تسعين كيلو متر إلى شرق باجة وبنحو خمسة وعشرين كيلو مترا إلى الشرق من حدود البرتغال الحالية . (انظر عن هذه البلدة معجم مادوث الجغرافى ٥٩٠/٢ – ٥٩١) .

(٢٤) باجة Bega بلد يقع اليوم فى جنوب البرتغال إلى الجنوب الشرقى من الأشبونة Lisboa وعلى بعد ١٨٠ كم من هذه العاصمة ، وعلى مسافة ٦٦ كم من الحدود الفاصلة اليوم بين إسبانيا والبرتغال (انظر عنها المـادة الواردة فى الروض المعطار ص ٣٦ من النص العربى و ٤٥ من الترجمة الفرنسية) .

(٢٥) لم نجد اسم بكر بن سلمة هذا فيما بين أيدينا من المراجع التى تحدثت عن الثوار المستنزلين من ناحية الغرب فى أوائل أيام عبد الرحمن الناصر ، ولعله أحد صغار المنتزين فى هذه الجهة ، على أننا نعرف من الثوار فى غرب الأندلس على أيام الأمير عبد الله بن محمد من يسميه المؤرخون بكر بن يحيى بن بكر الذى اقتعد مدينة شنتمرية من كورة أكشونبة (انظر ابن حيان : المقتبس ، ط . أنطونيا ص ١٥ – ١٦ ؛ ابن عذارى : بيان ١٣٧/٢) ، ويذكر ابن عذارى بعد ذلك فى أخبار سنة ٣١٧ أن عبد الرحمن الناصر بعد غزوته لباجة انتقل منها قاصداً إلى مدينة أكشونبة فدخلها بعد أن أصاب أموالا لخلف بن بكر (بيان ٢٠٠/٢ – ٢٠١) ، وقد أشار أيضا إلى غزوة عبد الرحمن الناصر إلى اكشونبة واستنزاله لصاحبها خلف بن بكر هذا صاحب التاريخ المجهول المؤلف فى أخبار عبد الرحمن الناصر ، والذى قام بنشر نصه العربى الأستاذان

ليڤى بروفنسال وغرسيه غومس مع ترجمة إسبانية فى مدريد – غرناطة سنة ١٩٥٠ ص ٨١ من النص العربى و ١٥٥ من الترجمة
E. lévi —provencal, E. Garcia Gomez : una Cronica anonima de Abd Al-Rahman III al-Nasir, Madrid — Granada, 1950.

فلعل بكر بن سلمة هذا من نفس تلك الأسرة التى ينتمى اليها خلف بن بكر المذكور فى هذين المصدرين .

(٢٦) طرسونة tarazona بلد من أعمال سرقسطة يبعد بنحو ٢٢ كم إلى الجنوب الغربى من تطيلة . انظر المـــادة الواردة عنها فى كتاب « الروض المعطار » ص ١٢٣ من النص العربى و ١٥٠ من الترجمة الفرنسية .

(٢٧) برجة (بضم الباء) بلدة من أعمال طرسونة المتقدمة الذكر انظر ما ورد عنها فى جغرافية العذرى ص ٣٣ ، ٤٤ ، ١٥٥ ؛ والمـــادة الواردة فى معجم مادوث الجغرافى ٤٠٦/٤ . هذا وينبغى التمييز بين برجة هذه و « برجة » أخرى (بكسر الباء) Berja من عمل مدينة المرية .

(٢٨) كان تاريخ أسرة بنى ونقة أول الأسر الحاكمة فى مملكة نبره Navarra – وهى التى يطلق المؤرخون المسلمون عليها اسم مملكة بنبلونه Pamplona (نسبة إلى قاعدتها) أو بلاد البشكنس Vascones أو البشاكسة نسبة إلى ساكنيها – تاريخا يحيط به الغموض ، إذ أن المراجع المسيحية فى العصور الوسطى لم تترك لنا عن أصول هذه الأسرة وملوكها إلا أخباراً قليلة متضاربة لا يوثق فى صحتها ، ولعل أول ضوء يلقى على تاريخ هذه الأسرة وعلى مطلع هذه الدولة المسيحية إنما هو بفضل تلك الأخبار التى يسوقها لنا ابن حيان فى « مقتبسه » .

ويذكر المؤرخون المسيحيون أن مؤسس هذه الدولة فى بنبلونة بعد خروجها من أيدى المسلمين فى سنة ٧٩٨/١٨٣ هو ونقه المعروف فى المدونات النصرانية باسم Inigo Jimenez وإن كانت سنوات حكمه لم تعرف على وجه التحديد .

ونأخذ من أخبار ابن حيان أن ونقه هذا خلف ثلاثة أبناء كانوا يتلقبون بألقاب الإمارة فى بنبلونة ، هم : ونقه بن ونقه Inigo Ini guez ؛ وغرسيه Garcia ، وفرتون Fortun . ولـكن الملك كان على ما يبدو فى يد أولهم ونقه المذكور هنا . وقد كان ثلاثتهم إخوة لأمير الثغر الأعلى موسى بن موسى بن فرتون بن قسى الذى سبق أن ترجمنا له (حاشية رقم ١) ، إذ أن أباهم ونقه كان قد تزوج من أرملة موسى بن فرتون بعد وفاته ، وهذا هو ما جعل موسى بن موسى يحالف إخوته لأمه هؤلاء عند ثورته على عبد الرحمن بن الحكم فى سنة ٢٢٦-٨٤١ ؛ فقد كانت غارات عبد الله بن كليب عامل سرقسطة وأخيه عامر عامل تطيلة على أموال موسى وتعرضهما بالأذى لونقه بن ونقه أخى موسى لأمه هى السبب فى انقباض موسى عن الطاعة . فلما وجه عبد الرحمن بن الحكم قائده حارث بن بزيع لمحاربة موسى خرج هذا إليه فقاتله واستعان بإخوته لأمه أمراء بنبلونة ولاسيما غرسيه بن ونقه ، فهزموا حارث بن بزيع فى موقعة بلمه وأسروه فى سنة ٨٤٢/٢٢٧ . فلما علم عبد الرحمن الأمير بذلك عظم عليه ، فخرج إلى موسى بنفسه فى السنة التالية ، والتقى الأمير بموسى وبنى ونقه ومن التف بهم من البشكنس والجليقيين والشرطانيين وأوقع بهم جميعا هزيمة ساحقة قتل فيها فرتون بن ونقه الذى يسميه ابن حيان « بطل بنبلونة بلا مدافع » ، وبعث الأمير برأسه لترفع بقرطبة . أما غرسية بن ونقه وابنه غلند فقد تمكنا من الفرار بعد

أن أصيبا بجراحات شديدة . وكان من نتائج هذه الحملة أن موسى بن موسى طلب الأمان فانعقد له ولأخيه ونقه بن ونقه، على أن يقر هذا الأخير على بلدة (بنبلونة) ويؤدى إلى عبد الرحمن بن الحكم سبعمائة دينار كل عام يوردها على عمال الثغر . وظل ونقه بن ونقه بعد ذلك أميراً على بنبلونة حتى توفى سنة ٢٣٧-٨٥٢ بعد أن أصابه فالج عطله . فولى مكانه ابنه غرسية الذى صاهره موسى بن موسى إذ زوجه من ابنته أورية (أو Aurea oria) . وفى سنة ٢٤٥/٨٥٩ كان خروج المجوس (النورمنديين) على سواحل الأندلس وغارتهم بعد ذلك على بنبلونة حيث أسروا غرسية بن ونقه هذا ، فافتك نفسه منهم بعد أن أدى إليهم سبعين ألف دينار ودفع إليهم بعض أبنائه رهائن . ولم يكد يخرج من أسر المجوس حتى قام بمحالفة أردون ملك أشتوريش Asturias وجليقية Galicia ، ناقضا بذلك عهوده مع عبد الرحمن بن الحكم ، فوجه إليه الأمير محمد – وكان قد خلف أباه على الملك فى سنة ٢٣٨/٨٥٢ – صائفة اقتحمت بلاد بنبلونة وعاثت فى بسائطها ، وأسرت فى حصن قشتيل ولداً لغرسية يدعى فرتون الأنقر ، فحملته عساكر المسلمين إلى قرطبة حيث ظل فى الحبس عشرين سنة ثم رد إلى بنبلونة حيث حكم بعد أبيه غرسية فى تاريخ لا نعرفه على وجه التحديد . وإن كان لابد أن يكون بعد سنة٢٥٦/٨٧٠ التى نعرف من أخبار ابن حيان أن غرسية كان لا يزال حيا فيها . ونحن نعرف كذلك مما يذكر ابن حيان أن غرسية بن ونقه هذا قد زوج ابنة له من مطرف بن موسى بن موسى الذى كان واليا على وشقة حتى ثار عليه أهلها بتدبير من عمروس بن عمرو ابن عمروس فى سنة ٢٥٩-٨٧٣ . وقبض عمروس على زوجته هذه بنت ملك بنبلونة فيمن قبض عليه من أهل مطرف وبنيه .

وعن بنى ونقه هؤلاء انظر ما سيرد فى ثنايا هذا الكتاب ؛ وكذلك ابن حزم : جمهرة الأنساب ص ٥٠٢ – ٥٠٣ (فى معرض الكلام عن نسب بنى قسى) ؛ العذرى : جغرافية ص ٢٩ – ٣٠ ، ٦٢ ، ٩٨ ؛ ابن عذارى : بيان ٩٧/٢ ؛ ابن الأثير ٢٦٨/٥ – ٢٦٩ ، ٢٩٩ – ٣٠١ ، هذا فضلا عن مقال ليفى بروفنسال وغرسية غومس : « نصوص مخطوطة من المقتبس لابن حيان ، فى مجلة الأندلس ، المجلد التاسع عشر ، سنة ١٩٥٤ ، ص ٢٩٨ – ٣٠٠ ؛ وانظر عن نسب بنى ونقه ليفى بروفنسال : تاريخ ، الجزء الأول ، الجدول المقابل لصفحة ٣٨٨ (وإن كان ينبغى إعادة النظر فى بعض تفاصيل شجرة النسب المذكورة إذ أن بروفنسال لم يستفد من كثير الأخبار والمعلومات الجديدة التى يقدمها لنا هذا الجزء من المقتبس) ، وكتاب أجواد وبليه عن « تاريخ أسبانيا فى العصور الوسطى ٤٩٧/١ – ٥٠٠ ؛ ومقال الراهب خوستو بيريث دى أوربل عن « القديم والجديد حول أصول مملكة بنبلونة » ، مجلة الأندلس ، المجلد التاسع عشر ، سنة ١٩٥٤ ، ص ١ – ٤٢ :

Fr. Justo Pérez de urbel : Lo viejo y 10 nuevo sobre el origen del reino de Pamplona, Al-Andalus, Vol. XIX, 1954, pp. 1 - 42.

(٢٩) أورد ابن حيان اسم هذا القائد أكثر من مرة فى ثنايا هذا الكتاب ، ولو أن الناسخ كتب نسبته « الطبلى » مرة و« الطلبى » مرات ، ولم نستطع أن نتحقق من صحة هذه النسبة وأى قراءتيها أصوب ، إذ أن الاسم لم يرد فى أى مرجع آخـر باستثناء ما جاء فى الكامل لابن الأثير فى معرض الحديث عن أخبار سنة ٢٣٥ من أن « عباس بن الوليد الطبلى » خرج إلى نواحى تدمير لمحاربة نفر من المتزين كانوا قد اجتمعوا وقدموا على أنفسهم رجلا اسمه محمد بن عيسى بن سابق ، فوطئ عباس بلدهم وأوقع بهم ثم أصلحهم وعاد (الكامل ٢٨٥/٥) ، وقد عاد ابن حيان إلى ذكر عباس بن الوليد المذكور فى حديثه عن قواد الأمير عبد الرحمن ، إذ قال إنه كان كثير التردد بالصوائف ، كما أنه ذكر فى أخبار سنة ٢٣٧ أن فيها كان ابتداء تعذيب عباس « الطلبى » وأخيه وغيرهما فى استخراج الأموال التى غلوها ، وكان جميعهم من صنائع نصر الخصى.

(٣٠) اسماعيل بن موسى القسوى المذكور فى هذا الموضع كان قد ولى على سرقسطة فى حياة أبيه موسى بن موسى ، فلما توفى هذا سنة ٢٤٨ (٨٦٢) ظل على هذه المدينة ، ثم ثار فى أيام الأمير محمد مع إخوته بتطيلة سنة ٢٥٨ (٨٧٢) وتقدم إلى سرقسطة فدخلها هو وأخوه لب ، وقبضا على عامل السلطان بها وأبنائه ، ثم خرج إسماعيل إلى حصن منت شون Monzon وأعلن العصيان ، فنزلته الصوائف ، ثم انقبض إلى لاردة ، فقبض عليه عبد الله بن خلف بن راشد عامل بربطانية Boltana بحصن منت شون ودفعه إلى الأمير محمد فى غزاته سنة ٢٥٩ ، فلما قفلت الصائفة أطلقه الأمير محمد . فانصرف إلى حصن منت شون ، وأعمل الحيلة على ابن راشد حتى صاهره وزوجه من ابنته ، ولكنه لم يلبث أن غدر به وقتله هو وجميع أبنائه وتغلب على بربطانية ، وترددت فى أثر ذلك الصوائف عليه بين سنتى ٢٦٥ ، ٢٦٨ (٨٧٩ — ٨٨٢) فطلب اسماعيل الصلح ، غير أنه عاد إلى النكث ، فحاصره المنذر بن الأمير محمد وهاشم بن عبد العزيز حصاراً شديداً . وخرج اسماعيل ابن موسى بعد ذلك مع بنى عمه لقتال ابن أخيه محمد بن لب بن موسى ، فلما توسطوا قلهرة Calahorra اجتمعوا به ، فهزمهم وأسر اسماعيل بن موسى وبنى عمه وحبسهم حتى أسلم إليه اسماعيل سرقسطة وتطيلة وبلتيرة Valtierra وكان ذلك فى سنة ٢٧٠ (٨٨٣ — ٨٨٤) ، ثم إن محمد بن لب أطلقهم وأخرج إسماعيل بن موسى إلى حصن منت شون ، فبقى به حتى توفى سنة ٢٧٦ (٨٨٩) . انظر عن إسماعيل بن موسى ما سيرد عنه فى ثنايا هذا الكتاب وكذلك المقتبس (ط . ملتشور أنطونيا) ص ٨٧ ؛ وابن عذارى : البيان ١٠١/٢ ؛ العذرى : جغرافية ص ٣١ — ٣٤ ، ٦١ ، ٦٣ ؛ ابن حزم : جمهرة الأنساب ص ٤٦٧ — ٤٦٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ٢٦٩/٥ .

(٣١) لعله خالد بن يحيى بن خالد أخو القائدين عبيد الله بن يحيى عامل طرطوشة والوزير محمد بن يحيى اللذين سبقت الإشارة إليهما (أنظر الحاشية رقم ٤) .

(٣٢) قد يكون محمد بن الوليد هذا أخاً للقائد عباس بن الوليد الطبل أو الطلبى الذى أشرنا إليه من قبل (راجع الحاشية رقم ٢٩) ، فنحن نعرف مما سيذكره ابن حيان فى أخبار سنة ٢٣٧ أنه كان لعباس المذكور أخ تعرض للعذاب والمصادرة باعتبارهما كانا من صنائع نصر الخصى .

(٣٣) يبدو أن مطرف بن نصير هذا هو الذى أصبح بعد ذلك من أهل ثقة الأمير محمد بن عبد الرحمن ، فسنرى أن ابن حيان سيروى عنه بعد ذلك أخباراً تدل على مدى اهتمام الأمير محمد بثغوره ، ونرى الأمير فيها يعهد إليه ببعض المهمات ذات الشأن ، وربما كان هو نفسه العامل على الجزيرة الخضراء فى سنة ٢٤٧ (٨٦١) عند مهاجمة المجوس الأردمانيين (النورماند) لها ، كما نرى فيما كتبه العذرى عن تلك الغارة فى جغرافيته (ص ١١٩) .

(٣٤) لم يرد اسم ميمونة هذه فى جدول النسب الذى أفرده ابن حزم لبنى قسى فى الجمهرة .

(٣٥) هو نهر Guadiana الذى تقع عليه بطليوس Badajoz وماردة Mérida ، ويفصل فى جزئه الأدنى عند انتهائه إلى مصبه بين إسبانيا والبرتغال .

(٣٦) نهر شنيل Genil الذى تقع عليه مدينة غرناطة هو أحد فروع « الوادى الكبير » نهر قرطبة ، وهو نهير صغير ، بالغ الأندلسيون وأهل غرناطة خاصة فى تصوير قيمته ، حتى إنهم جعلوا اسمه مرادفا لقولهم « ألف ليل » ، وذلك لأن حرف الشين كما يقول لسان الدين بن الخطيب يساوى عند أهل المغرب عدد « ألف » ، فمعنى « شنيل » إذن : « ألف نيل » ، وبذلك ذكره بعض شعراء غرناطة (انظر المقرى : نفح ١٤٢/١ ؛ وانظر حول اشتقاق هذا اللفظ وتفسيره ما كتبه رينهارت دوزى فى مجموعة « أبحاثه »

R. Dozy : Recherches sur l'histoire politique et litteraire de l'Espagne pendant le Moyen Ages, Leyden, 1849.

(٣٧) إستجه Ecja ، تقع على وادى شنيل إلى الجنوب الغربى من قرطبة بينها وبين إشبيلية ، وتبعد عن قرطبة بنحو خمسين كيلو متر ، وهى الآن من أعمال إشبيلية ، وأما قنطرتها المذكورة فى النص فقد كانت من أشهر معالمها ، وقد هدمها القائد بدر الحاجب فى سنة ٣٠٠ (٩١٢) بعد أن فتح المدينة فى مستهل إمارة عبد الرحمن الناصر ، وكان أهل إستجة قد خالفوا وخلعوا الطاعة . (انظر عن إستجة وقنطرتها المـادة الواردة فى الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى ص ١٤ من النص العربى و ٢٠ من الترجمة الفرنسية ، وكذلك المـادة التى كتبها زايبولد فى « دائرة المعارف الإسلامية » ١/٢ ، والمراجع المذكورة فى هذين الموضعين) .

(٣٨) أشار إلى خبر هذا السيل أيضا ابن عذارى : بيان ٨٩/٢ ؛ وابن الأثير : الكامل ٢٨٥/٥ .

(٣٩) ذكرنا فى حاشية هذا الموضع أن الاسم ورد هكذا فى الأصل ، ونلاحظ أن النساخ كثيراً ما يخطئون ويحرفون فى كتابة الأسماء النصرانية التى لم يتعودوا كتابتها ، ولانستبعد أن يكون لفظ « أردميس » الذى جاء فى الأصل محرفا عن كلمتين هما « برمند القس » ، ولو كان الأمر على ما نظن لا تفق تماما مع ما نعرفه من تاريخ الأسرة الحاكمة فى جليقيه Galicia وأشتوريش Asturias ، فالمذكور هنا — فيما أحسب — هو « رذمير» (Radimiro=Ramiro) بن برمند (Vermundis=Vermuds) المشهور بلقب « القس El Diacano » ، وهو الذى خلف على عرش أشتوريش الملك أذفنش (ألفونسو الثانى Alfonso II الملقب بالعفيف (El Gasto) وقد حكم بين سنتى ١٧٥ و ٢٢٧ هـ . (٧٩١ — ٨٤٢ م .) . أما رذمير المذكور هنا فقد ولى العرش سنة ٢٢٧ (٨٤٢) وظل يحكم مدة ثمان سنوات حتى ٢٣٥ (٨٥٠) ، ثم خلفه ابنه أردون Ordono I الذى حكم بين سنتى ٢٣٥ (٨٥٠) و ٢٥٢ (٨٦٦) . ونلاحظ بصفة عامة أن ابن حيان فى الغاية من الدقة والضبط عند حديثه عن ملوك إسبانيا المسيحية وأمرائها وأحداث دولها وتواريخها . (انظر عن حكم رذمير بن برمند كتاب أجوادو بليه : تاريخ إسبانيا فى العصور الوسطى ٤٨١/١) .

(٤٠) ذكرنا فى التعليق على هذه الكلمة أنه من الأرجح أن تكون محرفة عن « الخرس » ، ويعنى المؤرخ بها هؤلاء المماليك الذين كان الحكم بن هشام والد عبد الرحمن قد استكثر منهم حتى بلغ عددهم خمسة آلاف ، وكانوا يسمون الخرس لعجمتهم (انظر ابن سعيد : المغرب ٣٩/١ ؛ ابن الأثير : الكامل ٢٠٣/٥ ؛ المقرى : نفح ٣٢٠/١ ؛ ابن خلدون :

العبر ٢٧٧/٤) . وربما دلنا على صحة هذا التوجيه الذى ارتأيناه فى قراءة الكلمة أن عدداً من هؤلاء « الحرس » كانوا قد أخرجوا إلى الثغر الأعلى مع حارث بن بزيع حينما أسره موسى بن موسى بعد موقعة بلمة سنة ٢٢٧ (٨٤٢) ، فلما توجه إليه الأمير عبد الرحمن فى السنة التالية أطلق ابن بزيع « ومن كان أسر معه من الحرس » (انظر العذرى : جغرافية ص ٣٠) هذا وسيرد اللفظ بالخاء المعجمة بعد قليل .

(٤١) سيذكر ابن حيان « أبا العاصى الحكم الاشتياق » (كذا !) من بين من سيورد أسماءهم من أبناء الأمير عبد الرحمن ابن الحكم ، ولم يورده ابن حزم بين من ذكر من ولد هذا الأمير إذ أن عقبة كان قد انقرض فى عهده ، ونحن نعرف أن عبد الرحمن كان يكل إلى ابنه الحكم هذا بعض المهام العسكرية ومناصب الحكم فى حياته ، من ذلك إخراجه إياه فى سنة ٢٢٤ (٨٣٩) إلى دار الحرب وأمره له بالتجول فى الثغور وتفقدها (انظر ابن عذارى : بيان ٨٥/٢) ، وولايته كورتى إلبيرة وتدمير كما نرى من نص ابن حيان هنا ، وقد عهد إليه أخوه الأمير محمد تمثل ذلك ، فابن حيان نفسه سيذكر فى أخبار سنة ٢٣٩ (٨٥٣) أن محمداً أخرج أخاه الحكم إلى طليطلة بالصائفة فاحتل قلعة رباح وأمر ببنيان سورها واسترجاع من فر من أهلها (انظر ، كذلك البيان ٩٤/٢ ، وكذلك ليفى بروفنسال ٢٩٢/١)

(٤٢) كانت إلبيرة Elvira (Iliberris. الرومانية) من كبريات حواضر الأندلس ، وبها نزل جند دمشق من العرب ، ثم خربت فى الفتنة التى شبت فى أيام الأمير عبد الله بن محمد وانتقلت عاصمة إقليمها إلى غرناطة Granada (انظر عن البيرة المـــادة التى كتبها زايبولد فى دائرة المعارف الإسلامية ٢٦/٢ - ٢٧ ؛ والروض المعطار ص ٢٩ من النص العربى و ٣٧ من الترجمة الفرنسية ؛ وابن الخطيب : الإحاطة ، بتحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، ٩٩/١ وما بعدها) .

(٤٣) تنسب كورة تدمير إلى الملك الذى كان يحكمها فى أيام الفتح العربى للاندلس Teodomiro ، وقد نزلها جند مصر ، وانتقلت عاصمتها بعد ذلك إلى مدينة مرسيه فى أيام عبد الرحمن بن الحكم سنة ٢١٠ (٨٢٥) . (انظر المـــادة التى كتبها عنها ليفى بروفنسال فى دائرة المعارف الإسلامية ٨٤٨/٤ ؛ الروض المعطار ص ٦٢ من النص و ٧٨ من الترجمة وكتاب جاسبار رميرو : مرسيه الإسلامية ، سرقسطة سنة ١٩٠٥ :

Mariano Gaspar Remiro : Historia de Murcia Musulmana, Zaragoza 1905.

(٤٤) نظن أن سعداً المذكور هنا هو أخو خزر بن مؤمن الذى ذكره ابن حيان فى معرض الحديث عن غزوة عبيد الله ابن عبد الله البلنسى إلى الثغر الأعلى فى سنة ٢٢٧ (٨٤٢) ، إذ يفهم من نص المقتبس أن خزر بن مؤمن هذا كان من جملة قواد عسكر السلطان فى تلك الغزوة ، وكان من بينهم أيضا محمد بن يحيى بن خالد وموسى بن موسى القسوى ، فلما انتهت الغزوة نشب الخلاف بين خزر وموسى وتفاقم حتى أدى الأمر بعد ذلك إلى خروج موسى على الطاعة ومباينته بالخلمان (انظر مقال ليفى بروفنسال وغرسيه غومس : « نصوص مخطوطة من المقتبس لابن حيان » ، ص٢٩٨) . واسم خزر بن مؤمن هذا هو الذى ورد فى الكامل لابن الأثير (٢٦٧/٥) ونهاية الأرب للنويرى (ص٢٠٠) محرفا إلى « جرير بن موفق » « وقد وصفه كلاهما بأنه كان « من أكابر الدولة » .

(٤٥) كورة ريه هى المنطقة التى أصبحت مدينة مالقة (Malaga) عاصمتها فى جنوب شرق شبه الجزيرة ، وهى كلمة مأخوذة من اللاتينية ، والأصل فى ضبطها تشديد الياء وضمها ، إذ هى تقابل Regio ومعناها « الملكية » ، وقد أورد هذا التفسير ابن سعيد فى المغرب (بتحقيق الدكتور شوقى ضيف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٤ ، ٤٢٣/١) إذ قال إن معنى ريه عند النصارى « سلطانة » . وقد نزل هذه الكورة جند الأردن بعد الفتح العربى . انظر مادة (ريه) فى الروض المعطار ص ٧٩ من النص و ٩٩ من الترجمة ، وكذلك المـادة التى كتبها ليفى بروفنسال فى دائرة المعارف الإسلامية ١٢٢١/٣ ، وبحث دوزى لأصل هذا اللفظ واشتقاقه فى مجموعة « أبحاثه » ، الطبعة الثالثة ٣١٧/١ — ٣٢٠ ؛ وأخيراً البحث الذى صدر به جيين روبلس كتابه « تاريخ مالقه الإسلامية » (الطبعة الثانية مدريد سنة ١٩٥٧) :

Guillén Robles : Historia de Malaga Musulmana, Madrid, 1957.

(٤٦) انظر تعليقنا على اسم سعد أخى خزر المذكور هنا فى الحاشية السابقة ، رقم ٤٤ .

(٤٧) الجزيرة الخضراء أو جزيرة أم حكيم هى التى تعرف الآن باسم **Algeciras** ، وتقع فى اقصى الطرف الجنوبى لإسبانيا مطلة على مضيق جبل طارق ومواجهة لمدينة سبتة على الساحل الافريقى . انظر عنها المـادة الواردة فى الروض المعطار ص ٧٣ من النص و ٩١ من الترجمة ومقال زايبولد فى دائرة المعارف الإسلامية ٢٧٩/١ .

(٤٨) عن ثورة حبيب البرنسى هذا انظر ابن عذارى : بيان ٨٩/٢ — ٩٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ٢٨٨/٥. (وهو يسميه حبيبة البربرى) . أما البرنسى فهو نسبة إلى « البرانس » وهم بطن كبير من البربر يقابلون « البتر » . انظر مادة « بربر Berbéres » التى كتبها رينيه باسيه René Basset فى دائرة المعارف الإسـلامية ٧١٦/١ — ٧٢٣ .

(٤٩) هو أبو الفتح نصر بن أبى الشمول ، كان أبوه من نصارى قرمونة ، ثم اعتنق الإسلام فى أيام الحكم بن هشام الربضى على ما يبدو ، وكان الحكم قد خصى عدداً من ذوى الجمال من أهل قرطبة ، فكان نصر المذكور من بينهم ، وعلت منزلته من عبد الرحمن بن الحكم حتى أصبح يتصرف باسمه فى أمور الدولة ، وارتفع نجمه بعد ذلك حينما عهد إليه الأمير بقيادة الجيوش التى ذادت المجوس الأردمانيين (النورماند) عن الأندلس عندما نزلوا بسواحل البلاد سنة ٢٣٠ (٨٥٠) ، وكان نصر يمالئ طروبا حظية الأمير عبد الرحمن على تولية ابنها عبد الله العهد بدلا من أخيه محمد كبير أبناء الأمير ، ومن أجل ذلك حاول أن يسم مولاه فى الخبر الطويل الذى سيقصه ابن حيان بعد فى تفصيل ودقة ، ولكنه لقى مصرعه فى هذه المحاولة سنة ٢٣٦ (٨٥٠ — ٨٥١) .

عن نصر هذا أنظر ابن حزم : جمهرة الأنساب ص ٩٦ ؛ ابن سعيد : مغرب ٤٩/١، ٥١، ١١٤، ١٢٤، ٣٣١ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٧٦ — ٧٧ ؛ ابن خلدون : العبر ٢٨٢/٤ — ٢٨٣ ؛ المقرى : نفح ٣٢٧/١ ؛ الخشنى : كتاب القضاة بقرطبة ص ١١١ ، وانظر كذلك ليفى بروفنسال : تاريخ ٢٢٣/١ — ٢٢٥ ، ٢٧٥ — ٢٧٧ .

(٥٠) هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم المعروف بابن القوطية ، وهو إشبيلي الأصل ، كان جده الأعلى مولى لعمر بن عبد العزيز بن مروان ، وأما لقبه الذى عرف به « ابن القوطية » فيرجع إلى كونه من ذرية سارة القوطية حفيدة غيطشة witiza ملك القوط قبل لذريق الذى فى عهده فتح العرب الأندلس ، وكان عالما بالنحو واللغة متقدما فيهما وله فى ذلك كتب حفظ لنا بعضها ، وقدم إلى الشورى وتصرف فى الخطط الجليلة ، وتوفى سنة ٣٦٧ (٩٧٧) . ومن كتبه « تاريخ افتتاح الأندلس » الذى حققه باسكوال دى جايا نجوس ونشره خوليان ريبيرا مع ترجمة اسبانية فى مدريد سنة ١٩٢٦ ، وفيه يتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح العربى حتى نهاية عهد الأمير عبد الله بن محمد .

انظر فى ترجمته : ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، رقم ١٣١٦ ؛ الحميدى : جذوة المقتبس ، رقم ١١١ ؛ الضبى : بغية الملتمس ، رقم ٢٢٣ ؛ القاضى عياض « أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبى السبتى : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، بتحقيق الدكتور أحمد بكير محمود ، ط . بيروت ١٩٦٧-١٩٦٨ ، ٥٥٣/٢- ٥٥٥ ؛ ابن خاقان : مطمح الأنفس ص ٥٨ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٦٤٩/١ ؛ المقرى : نفح ٧٣/٤ - ٧٤ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٢٦٢ - ٢٦٣ ؛ وانظر عن كتب ابن القوطية كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، القاهرة ١٩٦٢ ، ٨٩/٣ - ٩١ ؛ بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ، ط . مدريد ١٨٩٨ ، ص ٨٣ - ٨٧ ؛ جونثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢٠٢ - ٢٠٦ . وقد اعتمد عليه ابن حيان فى مواضع عديدة من كتاب المقتبس سواء هذه القطعة التى بين أيدينا أو القطعة الأخرى التى نشرها الراهب ملتشور أنطونيا فى باريس سنة ١٩٣٧ حول إمارة عبد الله بن محمد (انظر ص ٣ ، ٧ ، ٨٦ ، ١٢٩) . ونلاحظ بمقابلة ما ينقله ابن حيان فى هاتين القطعتين عن ابن القوطية على النص المطبوع فى مدريد أن نقول ابن حيان مفصله تفصيلا مسهبا يؤكد لنا صحة ما ذهب إليه خوليان ريبيرا من أن كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس» ليس من إنشاء ابن القوطية ، وإنما هو أقرب إلى أن يكون سماعا دونه عنه بعض من كان يحضر مجالسه من المولعين بالأخبار (انظر تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢٠٣) ، فخبر مصرع نصر الفتى الذى أورده ابن حيان هنا مثلا لا يرد فى النص المطبوع إلا على صورة مقتضبة موجزة لا تكاد تتجاوز بضعة سطور ، بينما هو لدى ابن حيان على ما يرى من التفصيل (انظر هذا الخبر فى كتاب ابن القوطية ص ٧٦ - ٧٧) .

(٥١) عن طروب جارية الأمير عبد الرحمن بن الحكم وحظيته انظر ابن القوطية : تاريخ ص ٦١ ، ٧٦ ، ٧٩ - ٨٠ ابن عذارى : بيان ٩٢/٢ ؛ ابن سعيد : مغرب ٤٦/١ - ٤٧ ؛ ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ٥ ؛ المقرى : نفح ٣٢٦/١ - ٣٢٧ ؛ وقد أفرد ابن الأبار لها ترجمة فى كتاب التكلة (بتحقيق جونثالث بالنثيا وألاركون) رقم ٢٨٥٥ ، وذكر أنه إليها ينسب المسجد الواقع بصدر الربض الغربى بقرطبة ؛ وانظر كذلك ليفى بروفنسال : تاريخ ٢٧٥/١-٢٧٨ .

(٥٢) هو يونس بن أحمد الحرانى الطبيب . انظر فى ترجمته : ابن أبى أصيبعة (ط . القاهرة سنة ١٨٨٢) ٤٢/٢ (وقد نشر الأستاذان نور الدين عبد القادر وهنرى جاهيه من هذا الكتاب الباب الثالث عشر فى طبقات الأطباء بإفريقيه والأندلس ، الجزائر سنة ١٩٥٨ ، انظر ص ٢٣) ؛ جمال الدين على بن يوسف القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ط . ليبزج سنة ١٩٢٣ ، ص ٣٩٤ - ٣٩٥ ؛ أبو داود سليمان بن حسان بن جلجل الأندلسى : طبقات الأطباء والحكماء ،

بتحقيق الأستاذ فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٩٤ – ٩٥ ؛ صاعد الطليطلي : طبقات الأمم ، ط . بيروت سنة ١٩١٢ ، ص ٧٨ . هذا وقد كان ليونس الحراني المذكور ابنان يسميان أحمد وعمر اشتغلا بالطب أيضا فى أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر (انظر ترجمتهما فى كتاب ابن أبي أصيبعة ، نشر نور الدين عبد القادر وجاهيه ص ٢٣ – ٢٥) .

(٥٣) كذا جاءت الكلمة فى الأصل : « سوُر الملوك » ، وسيرد بعد ذلك فى نص آخر لابن حيان : « سنون الملوك » وقد يكون اللفظان تحريفا لكلمة « بسون » ، ويعلق الأستاذ فؤاد سيد فى بعض حواشيه على كتاب ابن جلجل (ص ٩٤) على هذا اللفظ فيقول إن « البسون » سم مركب يدعى بأسماء مختلفة ، وهى كلمة لم ترد فى المعاجم العربية ، وقد تكون مأخوذة من الإسبانية Pocion أى شراب (Poison بالانجليزية والفرنسية) . انظر فى تحقيق هذه الكلمة دوزى : ملحق المعاجم العربية ، ط . باريس – ليدن ١٩٢٧ ، ٨٧/١ ؛ وفرانسسكو سيمونيت : معجم الألفاظ الإيبيرية واللاتينية المستعملة بين المستعربين ، ط . مدريد ١٨٨٨ ، ص ٤٦٢ .

(٥٤) أشار ابن القوطية إلى هذه الجارية إشارة عابرة (تاريخ ص ٧٧) وأفرد لها ابن الأبار ترجمة فى كتاب التكملة (تحقيق بالنثيا وألاركون) رقم ٢٨٥٦ ، ولو أن كليهما سماها « فخراً » ، وعلى ذلك قرأها ليفى بروفنسال حينما تعرض لذكرها فى تاريخه ٢٦٧/١ . وقد أضاف ابن الأبار أن لها مسجداً رفيعا من أمهات المساجد بقرطبة ، وأنها أم أبى الوليد بشر الأديب الشاعر بن الأمير عبد الرحمن بن الحكم الذى ترجم له ابن الأبار (الحلة السيراء ١٢٦/١) .

(٥٥) هو يحيى بن الحكم البكرى الجيانى المعروف بالغزال ، ولد فى نحو سنة ١٥٦ (٧٧٣) وتوفى قريبا من سنة ٢٥٠ (٨٦٤) ، وولاه الأمير عبد الرحمن قبض الأعشار ببلاط مروان على ما يذكر ابن دحية ، ثم اضطلع بسفارتين عهد بهما إليه الأمير : الأولى إلى بلاط تيوفيل ملك بيزنطة ، والثانية إلى ملك المجوس (النورمند) ، وكانت له كذلك رحلة إلى بلاد المشرق ، وقد احتفظت لنا المراجع الأندلسية بجملة طيبة من شعره ، ويضيف ابن حيان إلى ما نعرف قطعة صالحة .

فى ترجمة الغزال وأخباره ومنتخبات شعره انظر الحميدى : جذوة رقم ٨٨٧ (ص ٣٥١ – ٣٥٣) وكذلك ص ١٨٧ و ٢١٢ ؛ الضبى : بغية ، رقم ١٤٦٧ ؛ ابن دحية الكلبى : المطرب من أشعار أهل المغرب ، ط . القاهرة سنة ١٩٥٤ بتحقيق الأستاذ ابراهيم الإبيارى ، ص ١٣٣ – ١٥١ ؛ الخشنى : كتاب القضاة ، ص ٩٥ ، ٩٩ ؛ ابن عذارى : البيان ٩٣/٢ ؛ ابن سعيد : المغرب ٣٢٤/١ ، ٥٧/٢ ؛ الثعالبى : يتيمة الدهر ٥٦/٢ ؛ ابن خلدون : العبر ٢٨٢/٤ ؛ المقرى : نفح ٢٦٣/١ ، ٣٢٤ ، ٢١/٣ – ٢٩ .

ومن الدراسات الحديثة : مجموعة أبحاث دوزى (Recherches) ٢٦٧/٢ (الطبعة الثالثة) ؛ بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ، ص ٣٨ – ٤٥ ؛ بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى (ترجمة حسين مؤنس) ص ٥٥ – ٥٦ ؛ نيكل : الشعر الأندلسى (ط . بلتيمور سنة ١٩٤٦) ، ص ٢٠ – ٢٧ ؛ ليفى بروفنسال : تاريخ ٢٥٢/١–٢٥٤ ، ٢٧٣ – ٢٧٥ ، وكذلك مقاله « سفارات متبادلة بين قرطبة وبيزنطة Un échange d'ambassades entre Cordoue et Byzance » الذى ضمنه كتابه « الإسلام فى المغرب والأندلس Islam d'Occident » ص ٧٩ – ١٠٧ ؛ ومقال الدكتور حسين مؤنس : غارات النورمانيين على الأندلس بين سنتى ٢٢٩ و ٢٤٥ (٨٤٤ – ٨٥٩ م)

فى « مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية » (مايو ١٩٤٩ ، المجلد الثانى ، العدد الأول) ، وكتاب الباحث الانجليزى ألين عن سفارة الغزال إلى بلاط النورمان (الفايكنج) :

W.E.D. Allen : the Poet and the Spae - wife. An attempt to reconstruct Al-Ghazal's embassy to the Vikings, London, 1960.

(وانظر ما كتبته فى عرض هذا الكتاب ونقده فى « صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد » ، المجلدين التاسع والعاشر لسنتى ١٩٦١ – ١٩٦٢ ، ص ٤٢٠ – ٤٢٤ من القسم العربى) ؛ والدكتور إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ، عصر سيادة قرطبة ص ١١١ – ١٢٢ (وانظر بصفة خاصة ص ٢٨٩ – ٢٩٠ حيث يورد قطعا جديدة للغزال نقلها عن بهجة المجالس لابن عبد البر) ، كذلك أضاف الدكتور إحسان عباس إلى مانعرفه من شعر الغزال مادة أخرى طيبة بنشره « كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس » لأبى عبد الله محمد بن الكتانى الطبيب ، بيروت ١٩٦٦ ، فقد وردت فيه قطع أخرى للغزال لم تكن معروفة من قبل (انظر ص ١٢١ ، ١٦٣ ، ١٨١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٦) .

(٥٦) عن « منية نصر » انظر المسادة التى أفردها لها ابن عبد المنعم الحميرى فى « الروض المعطار » ص ١٨٧ من النص و ٢٢٦ – ٢٢٧ من الترجمة الفرنسية ، وقد ذكر فيها أنها قرية (أو ضاحية) قريبة من قرطبة موفية على النهر ، وذكر ليفى بروفنسال فى تعليقه على هذا الموضع أنها كانت تقع فى غربى قرطبة على ضفة الوادى الكبير قريبا من مقابر الربض ، وقد اهتم بها بعد ذلك الأمير عبد الله بن محمد وشيد قصورها ومبانيها على ما يذكر ابن حيان نفسه فى « المقتبس » (نشر أنطونيا) ص ٣٨ – ٣٩ ؛ ويذكر ابن حيان فى موضع آخـــر من نفس الكتاب (القطعة التى نشرها الأستاذ عبد الرحمن الحجى ص ٢١) أن الخليفة الحكم المستنصر أنزل فى قصور هذه المنية أعضاء السفارة التى رأسها « بون فيل » والقادمة عليه من « بريل » أمير برشلونة فى سنة ٣٦٠ (٩٧١) . وانظر عن لفظ « المنية » واستخدامه فى الأندلس ليفى بروفنسال : الأندلس فى القرن العاشر ، ص ٥٢ والحاشية رقم ١ .

(٥٧) كانت هذه المقابر تحمل اسم (الربض) تذكيراً بثورة الربض المشهورة التى نشبت ضد الحكم بن هشام فى سنة ٢٠٢ (٨١٨) والتى كان من عواقبها أن أمر الحكم بهدم كل مبانى هذه المنطقة وتركها خلاء ، وهكذا تحولت منذ أيامه إلى مقابر ، وكان الحكم قد أوصى خلفاءه بألا يسمحوا بأن يعاد البناء فيها ، فاحترم من تلاه من أمراء بنى أمية تلك الوصية ، ولم يرتفع فيها بناء حتى نهاية الدولة . وقد أورد ابن حيان فى القسم الخاص بالحكم بن هشام « الربضى » من كتاب المقتبس (وهو الذى لا يزال مخطوطا) فى الورقة ٢٤٦ ظ (على ما يذكر ليفى بروفنسال) نصا طريفا حول وصية الحكم المشار إليها ، فقال إنها ظلت محترمة مدة قرنين من الزمان حتى أيام الخليفة هشام بن الحكم المؤيد حينما كان يضطلع بأمور الدولة الحاجب العامرى المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر ، إذ سمح للناس بالبناء هناك ، واتفق أن مر الخليفة هشام المؤيد بهذه المقابر فرأى الناس شارعين فى عمارتها ، فغضب وأرسل إلى الحاجب المظفر رسالة يلومه فيها أشد اللوم على سماحه للناس بعمارة الربض على ما فى ذلك من مخالفة لوصايا أسلافه وانتهاك ما جرى به التقليد ، وطلب إلى الحاجب أن يأمر بهدم ما بنى هناك ، فانصاع عبد الملك لتلك الرغبة ، وأمر بهدم كل ما ارتفع من بناء وتسويته بالأرض كما كان . بل إن هذا التقليد إستمر حتى بعد سقوط الدولة المروانية وظل جاريا محترما حتى سقوط قرطبة فى أيدى المسيحيين ، يشهد بذلك قول ابن الأبار فى الحلة السيراء (ط . دوزى ص ٣٨ – ٣٩ ، ١/٤٤ ط . مؤنس) فى معرض الحديث عن الحكم

ابن هشام وإخماده ثورة الربض : « وهو الذى أوقع بأهل الربض ، فنسب إليه ، وأمر بهدمه وتعطيله ، وصير ذلك وصيته فيمن خلفه وعهداً على بنيه ما كان لهم سلطان فى الأندلس ، فلم يعمر ولا اختطت فيه دار إلى آخـــر دولتهم ثم بعدها إلى أن ملك الروم قرطبة يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال سنة ٦٣٣ (١٢٣٦ م .) ، وأقام على ذلك نحواً من أربعمائة سنة وثلاثين سنة ، ولا أعلمه إلا كذلك إلى اليوم » . وقد أكد ابن سعيد كذلك هذا الخبر (المغرب ٤٢/١) . وعن مقابر الربض انظر ليفى بروفنسال : تاريخ ٣٨٠/٣ – ٣٨١ ؛ والأندلس فى القرن العاشر ص ٢٠٩ .

(٥٨) زرياب هو أبو الحسن على بن نافع مولى أمير المؤمنين المهدى العباسى وتلميذ المغنيين المشهورين ابراهيم الموصلى وابنه اسحاق ، قدم إلى الأندلس سنة ٢٠٦ (٨٢١) فقربه عبد الرحمن بن الحكم إليه وارتفع مكانه عنده ، وأورث صناعة الغناء بالأندلس بنيه وعدداً كبيراً من تلاميذه وقيانه ، كما أدخل إلى هذه البلاد جملة من التقاليد الحضارية المشرقية . وتوفى زرياب سنة ٢٣٨ (٨٥٢) قبل وفاة الأمير عبد الرحمن بأربعين يوما . انظر فى ترجمته وأخباره المقرى : نفح الطيب ٣٢٢/١ ؛ ٢١٥/٢ ؛ ٢٧/٣ ؛ ١١٧/٤-١٢٩،١٤٩/٥ (ومعظم أخبار المقرى ما نقله عن ابن حيان) ؛ ابن القوطية : تاريخ ص٥٩ ، ٦٨-٦٩ ؛ الخشنى : كتاب القضاة ص ١٢ ؛ ابن خلدون : مقدمة (ط . القاهرة بدون تاريخ) ص ٣٥٧ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ٤٥/٣ ؛ الحميدى جذوة ص ١٣٧ ، ١٦٢ ، ابن دحية : المطرب ص ١٤٧ ، ١٥٢–١٥٣، ابن عبد ربه: العقد الفريد (ط . محمد سعيد العريان) ٣٦/٧ ، ٨٠ ؛ ١٤٥/٨ ؛ ابن حزم : طوق الحمامة ص١١٦ ؛ ابن سعيد : المغرب ٤٧/١ ، ٥١ ؛ ٩٦/٢ ؛ الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين (بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابرهيم ، القاهرة ١٩٥٥) ، ص ٢٩٢ ؛ ومن الدراسات الحديثة انظر خوليان ريبيرا : موسيقى مدائح العذراء ، ط . مدريد ١٩٢٢ ، ص ٥٣ – ٥٧

(Julian Ribera y tarrago: La musica de las cantigas)

وليفى بروفنسال : تاريخ ٢٦٨/١ – ٢٧٢ ؛ وأخيراً الدراسة التى أفردها له الدكتور محمود أحمد الحفنى بعنوان « زرياب أبو الحسن على بن نافع موسيقار الأندلس » ، مجموعة أعلام العرب رقم ٥٤ ، ط . القاهرة ، بدون تاريخ .

(٥٩) هو أبو بكر الحسن بن محمد بن مفرج بن حماد بن الحسين المعافرى المعروف بالقبشى ، من أهل قرطبة ، كان محدثا ومؤرخا ، وهو صاحب كتاب « الاحتفال فى تاريخ أعلام الرجال » فى أخبار الخلفاء والقضاة والفقهاء ، وهو الكتاب الذى يروى عنه ابن حيان هنا . ولد سنة ٣٤٨ (٩٥٩) وتوفى سنة ٤٣٠ (١٠٣٩) . انظر ترجمته فى : ابن بشكوال : الصلة رقم ٣٠٨ ؛ وكذلك بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص ١١٩ والمراجع المذكورة فى هذا الموضع ؛ جونثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى (ترجمة مؤنس) ، ص٢٧٥ . وقد كان لكتاب ابن مفرج مكانة كبيرة لدى المؤرخين الذين تلوه فكثر اعتمادهم عليه ونقلهم منه ، كما نرى فى كتاب الصلة لابن بشكوال وفى « الإحاطة » لابن الخطيب (انظر مقدمة الإحاطة ، مخطوطة المجمع التاريخى الملكى بمدريد ، ورقة ٦ ب ، وطبعة الأستاذ محمد عبد الله عنان ٩١/١) ، وفى المطرب لابن دحية (ص ١٥١) . وسنرى ابن حيان ينقل عنه كثيرا فى ثنايا هذه القطعة من « المقتبس» كما نقل عنه أيضا فى القطعة الخاصة بالأمير عبد الله (نشر أنطونيا ، ص ٥ ، ٧ ، ٣٦) . أما عن نسبة هذا المؤرخ «القبشى» فهى ترجع إلى « عين قبش » (بضم العين وفتح الباء المشددة) وهو حى كان يقع فى غرب قرطبة ، وسوف نعلق على هذا الاسم فى موضعه .

(٦٠) اعتمد ابن حيان فى هذا النص على كتاب الجمهرة لابن حزم ص ٨٧ – ٨٨ ، ولو أن الأصل الذى يعتمد عليه ابن حيان فيما يبدو أكثر تفصيلا بكثير من النص المطبوع ، ويدلنا على هذا أن النص الذى بين أيدينا قد يكون اختصاراً الكتاب الأصلى . وقد انتهى الدكتور حسين مؤنس إلى مثل هذا الرأى فى بعض تعليقاته على نص الحلة السيراء (١/١٢٦ ، حاشية ١) بمناسبة ترجمة بشر بن الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وذلك حينما رأى ابن الأبار ينقل عن جمهرة الأنساب نصاً لم يرد أصلا فى النسخة المطبوعة .

(٦١) هذه الإشارة إلى « أسالمة أهل الذمة » ذات قيمة كبيرة فى التعريف بطائفة كبيرة من طوائف المجتمع الأندلسى والمقصود بها من اعتنقوا الإسلام من العجم أو النصارى . وكان الأندلسيون يستخدمون فى التعبير عن هؤلاء لفظى « الأسالمة » و « المسالمة » ، وقد استعمل ابن الفرضى فى تراجم كتابه تعبيراً مشابها للذى نقله ابن حيان هنا عن ابن حزم ، إذ ذكر فى ترجمة عبد الله بن عمر بن الخطاب الإشبيلى أنه «كان من مسالمة الذمة فلاً إشبيلية علما وبلاغة ولسانا حتى شرقت به العرب » (تاريخ علماء الأندلس ، رقم ٦٤٧) ، وابن حيان كثيراً ما يستخدم لفظ « المسالمة » فى القطعة الخاصة بالأمير عبد الله من كتاب « المقتبس » . وقد استبلغ فى دراسة هذا اللفظ ودلالته الدكتور حسين مؤنس فى كتابه « فجر الأندلس » (طبعة القاهرة ١٩٥٩) ، ص ٤٢٩ – ٤٤٧ .

(٦٢) قرمونة Carmona . مدينة تقع فى مقاطعة إشبيلية وعلى بعد ٣٥ كيلو متر إلى الشمال الشرقى منها ، واسمها من أصل لاتينى (Carmo) إذ كانت من المدن التى اختطها الرومان ، وكانت من القواعد الأندلسية الكبيرة على عهد المسلمين . انظر فى وصفها ياقوت : معجم البلدان ٤/١٩٦ ؛ وابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار ص ١٥٩ من النص و ١٩٠ من الترجمة الفرنسية ، وكذلك المـــادة التى كتبها زايبولد فى دائرة المعارف الإسلامية ١/٨٤٩ والمراجع المذكورة فى هذين المصدرين الأخيرين .

(٦٣) البيضاء (بالإسبانية Albelda) حصن صغير أنشأه موسى بن موسى القسوى على بعد عدة كيلو مترات إلى جنوب مدينة « لكروى » (Logrono) الحالية ، وهى الآن مدينة صغيرة تقع على بعد ٩١ كيلو متر إلى الشمال الغربى من تطيلة ، ويتردد ذكر « البيضاء » فى الحوليات المسيحية ، إذ تذكر أنه لم يكد موسى بن موسى يتم بناءها حتى حاصرها ملك جليقية وأشتوريش أردون (ordono I) فخرج موسى للقائه ودارت بين المسلمين والنصارى معركة حامية تعرف فى الحوليات المسيحية باسم موقعة « كلابيخو Clavijo » وتقول هذه الكتب إن المسلمين أصيبوا فيها بهزيمة منكرة وإن موسى أصيب بجراحات شديدة وقتل فيها زوج ابنته غرسيه ، وتحدد المراجع المسيحية هذه المعركة بسنة ٢٤٥ هـ . (٨٥٩ – ٨٦٠ م .) ، على أن المراجع الإسلامية لا تذكر شيئا عن ذلك مما يشكك فى صحة هذا الخبر وإن كان بعض الباحثين الأوروبيين المحدثين عادوا إلى تأكيد وقوعها فى السنة المذكورة ، مثل سانشث ألبورنوث Sanchez Albornoz وبيريث دى أوربل Pérez de Urbel (أنظر ليفى بروفنسال : تاريخ ١/٣١٤ – ٣١٥ والمراجع المذكورة فى الحواشى ، وكذلك بيريث دى أوربل فى مقاله « القديم والجديد حول أصول مملكة بنباونة » فى مجلة الأندلس ، المجلد التاسع عشر ، سنة ١٩٥٤ ، ص ٢٠ – ٢٦) . ويرى هذا الباحث الأخير أن هناك موقعتين دارتا لدى مدينة البيضاء : الأولى

هى التى يتحدث ابن حيان عنها هنا والتى أحرز فيها موسى بن موسى انتصاراً باهراً على الجاشقيين سنة ٢٣٧ (٨٥١) والثانية هى التى وقعت بين موسى وأردون ملك جليقية ومنى فيها بهزيمة فادحة ، وكانت بعد المعركة الأولى بنحو ثمان سنوات ، ويرى بيريث دى أوربل أن المراجع العربية قد سكتت عن ذكر تلك المعركة ، على أننا نستبعد ذلك إذ لو صح حدوث تلك المعركة لما سكت عن ذكرها ابن حيان الذى لم يضرب صفحا أبداً عن جميع ما دار من وقائع سواء أكانت للمسلمين أم عليهم .

(٦٤) بقيرة (بالإسبانية Vigura) تقع على بعد كيلو مترات قليلة إلى جنوب البيضاء ، وهى الآن من عمل مدينة « لكرونى » (لوجرنيو Logrono) (انظر ياقوت : معجم البلدان ٢٥٣/٢ وقد قال إنها معدودة فى أعمال تطيلة ، وقد احتفظ لنا العذرى عنها بنص بالغ القيمة عرض فيه تاريخ إنشائها وظروفه ، فقال : إن مؤسسها هولب بن موسى ابن موسى القسوى ، أنشأها بعد أن انصرف من قرطبة منطلقا من أسر الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وقال إنه لما بلغ إخوة لب إنشاء هذا الحصن عسكروا إليه فخرج إليهم وهزمهم ، ولكنهم تمكنوا بعد ذلك من القبض عليه فى قلهرة Calahorra ثم أطلقوه بعد ذلك ، فتوجه إلى بقيرة ، وبقى بها حتى مات (انظر جغرافية العذرى ص ٣١ — ٣٢) . وذكر مادوث فى معجمه الجغرافى (٥٨/١٦ — ٥٩) أن الأمير عبد الله بن محمد سجن فيها عمين كانا يتوليان سرقسطة وتطيلة ، على أننا لا نعرف من أين استمد هذه الأخبار إذ لم نجد ما يؤكدها فى المراجع العربية . هذا وقد اختص أحد المؤرخين الأندلسيين بقيرة بكتاب خاص ، وهو أبو عبد الله بن المؤذن الوشقى صاحب « تاريخ بقيرة » ، وكان هذا الكتاب من بين الكتب التى سردها ابن الخطيب فى مقدمة (الإحاطة) فى كلامه عن تواريخ الأقاليم والمدن : انظر الإحاطة ، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، ص ٩١ ، وعن ابن المؤذن الوشقى وتاريخه انظر بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص ٣٩٥

(٦٥) الجاشقيون هم أهل المنطقة المعروفة فى الفرنسية باسم Gascogne (بالإسبانية Gascuna) وهى الواقعة فى جنوب غربى فرنسا فيما وراء جبال البرتات (البيرينيه) .

(٦٦) أشار ابن الأثير فى إيجاز إلى معركة « البيضاء » هذه ، وقال إنها كانت مشهورة بالأندلس (الكامل ٢٩١/٥) .

(٦٧) ينقه بن ينقه Inigo Iniguez هو الذى سبق أن تحدثنا عنه عند التعليق على بنى نيقه ملوك بنبلونة (رقم ٢٨) ، وقد كان تاريخ هذه الأسرة مجهولا غامضا إلى حد كبير فى المدونات المسيحية حتى جلى ابن حيان فى « المقتبس » كثيراً من خفاياه . ونيقه (أو ونقه) المذكور هو أخو موسى بن موسى القسوى لأمه ، إذ أن أباه المعروف باسم Inigo Jimenez كان قد تزوج من أرملة موسى بن فرتون بعد وفاته . وابن حيان فى نصه الوارد هنا هو الوحيد الذى يحدد لنا تاريخ وفاة ينقه المذكور بسنة ٢٣٧ (٨٥١ — ٨٥٢) ، ويرجح بيريث دى أوربل فى مقاله عن « القديم والجديد حول أصول مملكة بنبلونة » (ص ١٨ — ١٩) أن ينقه كان يبلغ نحو سبعين سنة حينما أدركته الوفاة بعد هذا الفالج الذى أصابه . وقد كان ينقه بن ينقه مصاهراً لأخيه لأمه موسى بن موسى القسوى ، إذ أنه زوجه من ابنة له تدعى « أسونا » (Assona) ، وهى أم ولده لب بن موسى الذى سيتحدث ابن حيان عن أحداثه ووقائعه فى الثغر الأعلى . ويعرف ينقه

ابن ينقه المذكور هنا فى المدونات المسيحية باسم Inigo Arista ، ومعنى لفظ arista فى الإسبانية القديمة « الحجر اليابس » ، ومن هنا يرى بيريث دى أوربل فى مقاله الذى أشرنا إليه (ص ١٨ حاشية ١) أنه ربما كانت فى هذا اللقب الذى أطلق عليه إشارة إلى الفالج الذى عطله مدة قبل وفاته .

(٦٨) راجع حول غرسيه بن ونقه الذى يذكر ابن حيان هنا أنه خلف أباه على إمارة بنبلونة سنة ٢٣٧ (٨٥١–٨٥٢) ما سبق أن أوردناه عن بنى ينقه فى الحاشية رقم ٢٨ ، ونضيف إلى ذلك أخبارا وافانا بها العذرى فى جغرافيته حيث يذكر خبر أسر المجوس له عند انتهائهم إلى حائط بنبلونة فى سنة ٢٤٥ (٨٥٩) وافتدائه منهم بسبعين ألف دينار بعد أن ارتهن بعض ولده (ص ١١٩) ، ثم خبر مظاهرة لب بن موسى له حينما ثار بأرنيط واستولى على تطيلة وسرقسطة والثغر كله (ص ٣١) ، ومظاهرة عمروس بن عمر الثائر بالثغر له وللشرطانيين فى سنة ٢٥٧ (٨٧١) ، (ص ٦٢) ، وسيذكر ابن حيان فيما يلى مزيداً من أخبـاره . وعلى كل حال فإن هذه الأخبار التى أمدنا بها ابن حيان والعذرى تضيف الكثير إلى المعلومات الغامضة المتناقضة الواردة فى المدونات المسيحية ، فقد كان الشائع فى كتب التاريخ الإسبانية المسيحية أن غرسيه ابن ينقه قد توفى فى سنة ٨٤٣ م . (٢٢٨ – ٢٢٩ هـ) ، وقد ثبت بعد ظهور نص ابن حيان خطأ هذا الرأى ، كذلك يذكر بيريث دى أوربل فى مقاله الذى أسلفنا الإشارة إليه عن أصول ملكة بنبلونة (ص ٢٨ حاشية ٤) أنه لا يوجد أى ذكر لغرسيه بن ينقه فى المدونات المسيحية بعد سنة ٨٦٠ م (٢٤٥ – ٢٤٦ هـ .) ، مما حمل الباحثين المحدثين على أن يرجعوا وفاته حول هذا التاريخ بينما نرى الآن أن المؤكد هو أن وفاته لاحقه لسنة ٨٧١ (٢٥٧) .

(٦٩) ذكر خبر هذه الثورة التى نشبت فى الثغر ابن عذارى : البيان ٢/٩٠ (ولو أنه يسمى عامل الثغر يحيى بن خالد ، ولعله خلط بين عبيد الله بن يحيى (بن خالد) المذكور هنا وأبيه يحيى) ؛ وابن سعيد : المغرب ١/٥٠ ، وابن الأثير : الكامل ٥/٢٩١ . وقد عرض لدراسة هذه الثورة الباحث الإسبانى ميجيل أسين بلاثيوس فى بحثه عن « ابن مسرة القرطبى ومدرسته Ibn masarra y su escuela فى مجموعـة « الأبحاث المختارة obras escogidas » (مدريد ، سنة ١٩٤٦) ١/٢٩ – ٣٠ ، وأشار إلى التشابه بين تعاليم هذا الثائر فى النهى عن قص الشارب والأظافر وبين بعض التعاليم الفيثاغورية القديمة ، كما أورد احتمال أن يكون لنزعة ذلك المعلم فى تأويل القرآن صلة بالدعايات الشيعية التى كانت تضطرب خلال ذلك الوقت فى الشمال الإفريقى والأندلس . (انظر كذلك بحثنا عن « التشيع فى الأندلس » ، فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، المجلد الثانى سنة ١٩٥٤ ص ١٠٠) .

(٧٠) انظر عن هذين القاضيين ما سيورده ابن حيان فى آخـر هذا القسم من أخبار قضاة الأمير عبد الرحمن .

(٧١) عن « تربة الخلفاء » أو « روضة الخلفاء » هذه هى المقبرة الملكية التى كانت ملحقة بقصر الخلافة المواجه للمسجد الجامع بقرطبة انظر ليفى بروفنسال : الأندلس فى القرن العاشر ص ٢٢٢ ؛ نفس المؤلف : تاريخ ١/١٣٨ ، ١٩١ ؛ جورج مارسيه : موجز لتاريخ الفن الإسلامى George Marcais manuel d'art musulman, Paris 1926 الجزء الأول ، ص ٢٤٢ .

(٧٢) ذكرهما ابن حزم فى حديثه عن ولد الحكم بن هشام الربضى (جمهرة الأنساب ص ٨٨ – ٩٠) . أما « المغيرة ابن الحكم » فهو الذى تنسب إليه « منية المغيرة » ، وهى ربض من أرباض قرطبة يقع فى شرقيها إذ كان بها منزله . وقد

ذكر ابن حزم أن أباه الحكم كان قد ولاه العهد بعد أخيه عبد الرحمن ، ولكن هذا لم يلبث أن خلعه ، وأيد هذا الخبر ابن عذارى فى البيان (٧٧/٢) فقال: إن الحكم حينما اشتد به المرض سنة ٢٠٦ أخذ البيعة لابنه عبد الرحمن ثم للمغيرة من بعده فبويع للأخوين فى دار عبد الرحمن بن الحكم (وانظر كذلك نفح الطيب للمقرى ٣٢٢/١ ؛ وليفى بروفنسال : تاريخ ١٩٠/١ وعن المنية المنسوبة للمغيرة انظر ما كتبه ليفى بروفنسال أيضا فى كتاب « الأندلس فى القرن العاشر » ص ٢٠٥) .

وأما أمية بن الحكم فإننا لنعرف مما يذكره ابن عذارى (بيان ٨٤/٢) أن عبد الرحمن أخاه عهد إليه بقيادة الحملة التى غزت طليطلة فى سنة ٢١٩ (٨٣٤) وحاصرتها حصاراً شديداً ، وأورد ابن حزم فى الجمهرة (ص ٨٩ - ٩٠) أسماء جملة من ذرية أمية بن الحكم هذا .

(٧٣) هو أبو عبد الملك أحمد بن محمد بن عبد البر القرطبى ، من موالى بنى أمية ، كان بصيراً بالحديث والفقه ، وله كتاب فى « الفقهاء بقرطبة » ، وكان وثيق الاتصال بعبد الله بن عبد الرحمن الناصر ، فلما اتهم عبد الله بمحاولة خلع أبيه واغتياله قبض على ابن عبد البر معه وأودع السجن ، بل إن الناصر اتهمه بأنه هو محرض ابنه على هذه المحاولة لطمعه فى أن يتولى قضاء الجماعة ، وتوفى ابن عبد البر فى سجنه سنة ٣٣٨ (٩٥٠) ، وقيل إنه خنق فى السجن . وعلى كتاب ابن عبد البر فى فقهاء قرطبة كان أكثر اعتماد ابن الفرضى فى تاريخ علماء الأندلس حتى إنه نقل عنه فى أكثر من مائة وثلاثين موضعا ، وكذلك ابن سعيد فى كثير من المواضع التى تحدث فيها عن قضاة قرطبة (انظر المغرب ١٤٣/١ - ١٥٥) ، وابن حيان كما سنرى فى الفصل المتعلق بذلك . (انظر ترجمة ابن عبد البر فى ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ١٢٠ ، القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ٤٢٠ - ٤٢١ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٣٧ ؛ وانظر فى محنته وموته القاضى عياض (فى الموضع المذكور) وابن الأبار : الحلة السيراء ص ١٠٦ (ط . دوزى) و ٢٠٧/١ - ٢٠٨ (ط . مؤنس) ، وكذلك بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون ص ٥٨ - ٥٩) .

(٧٤) هو أبو عبد الله محمد بن وضاح بن بزيع القرطبى مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، روى بالأندلس ، ثم رحل إلى المشرق رحلتين سمع فيهما من كبار الزهاد والمحدثين ويعتبر هو وبقى بن مخلد القرطبى مدخلى علم الحديث والبصر بطرقه وعلله إلى الأندلس . ولد فى سنة ١٩٩ أو ٢٠٠ (٨١٤ - ٨١٥) وتوفى سنة ٢٨٧ (٩٠٠) . انظر فى ترجمته ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ١١٣٤ : الحميدى : جذوة ، رقم ١٥٢ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٢٣٩ - ٢٤١ ؛ الضبى : بغية رقم ٢٩١ ؛ ابن خير : فهرسة ص ١٢٦ - ١٢٧ ، ١٣٧ - ١٣٨ ، ١٥٠ ؛ وبونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون ص ٤٩ ؛ لوثى أورتيث : دخول المذهب المالكى إلى الأندلس ص ١٠٢ - ١٠٦ ، ١٠٩ - ١١٣ .

(٧٥) باب الجنان من أبواب قصر قرطبة الجنوبية ، وهو يطل على نهر الوادى الكبير وعلى مقبرة الربض أو صحراء الربض كما سيذكر ابن حيان ، وهو الفضاء الواسع الممتد إزاء القصر الخلافى ، ويفصله عنه مجرى الوادى الكبير ، وهو الذى كان الحكم بن هشام قد أمر بهدم مبانيه وتسويته بالأرض بعد ثورة الربض كما سبق أن ذكرنا فى حاشية سابقة (رقم ٥٧) . انظر عن باب الجنان : ليفى بروفنسال : تاريخ ١٤٦/١ ، ١٣١/٢ .

(٧٦) الكدى جمع كدية (بضم الكاف وسكون الدال) معناها الربوة . وهناك مواضع كثيرة فى إسبانيا مازالت تحمل هذا الاسم العربى حتى الآن باقيا بنفس صورته الأولى : Alcudia ، ونجدها منثرة فى لقنت Alicante

والمرية Almeria والجـــزر الشرقيـة Islas Baleares وقادس Cadiz وقشتليون Castellon وغرناطة Granada وبلنسية Valencia (انظر دراسة أسين بلاثيوس عن الأعلام الجغرافية الإسبانية ذات الأصول العربية ص ٥٦) :

Miguel Asin Palacios : Contribucion a la toponimia arabe de Espana, Madrid Granada, 1944.

أما القنبانية (بالإسبانية Campina) فالمقصود بها هنا الحقول الواسعة الممتدة فى جنوبى قرطبة ، والاسم لاتينى الأصل مشتق من لفظ Campus (بالإسبانية Campo) أى الحقل .

(٧٧) سوف يورد ابن حيان جملة من أخبار أبناء الأمير محمد ، غير أننا لا نجد بينهم أحمد المذكور هنا وراوية هذا الخبر المتعلق بوفاة جده الأمير عبد الرحمن . على أن ابن حزم فى كلامه عن ولد الأمير محمد ذكر أنهم كانوا ثيفا وثلاثين ذكراً ، وأشار من بينهم إلى أحمد المشار إليه هنا ، وإلى من بقى حتى عهده (أى عهد ابن حزم) من ذريته ؛ وكان بعضهم قد انتقل فى ذلك الوقت إلى جزيرة ميورقة وبعضهم إلى قلعة رباح . (انظر جمهرة الأنساب ، الطبعة الثانية بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٩٩) . وفيما عدا ذلك لم تحتفظ لنا المراجع بشئ عن أحمد هذا .

(٧٨) سيترجم ابن حيان بعد ذلك ترجمة مفصلة للحاجب عيسى بن شهيد عند الحديث عن حجاب الأمير عبد الرحمن .

(٧٩) كانت وظيفة « الراشدة » من وظائف قصور الخلافة فى ظل بنى أمية وقصور كبار رجالات الدولة ، وقد أشار ليفى بروفنسال فى حديثه عن وظائف القصور وطبقات أهل الخدمة فيها إلى أنه يبدو من بعض نصوص المقتبس (القطعة التى لا تزال مخطوطة والخاصة بعهد الأميرين الحكم بن هشام وابنه الأمير عبد الرحمن وهى المتصلة بالقطعة التى ننشرها ، ورقة ١٩٤ وجه) أن قصر الأمير كان يشتمل على عدد كبير من القائمات بالخدمة من النساء ترأسهن « قهرمانة » وتتلوها الوصيفات والطاهيات و « الراشدات » أى المدبرات ، ويبدو من هذا النص أن الراشدات كن ذوات الصلة المباشرة بالأمير القائمات على رأسه وأنه كانت لهن الرياسة على من يدعوهن المؤرخ « الخزنات » (بتشديد الزاى) أى الأمينات اللاتى يعهد إليهن بحفظ الخزائن المختلفة مثل « خزانة الكسوة » المذكورة هنا . (انظر ليفى بروفنسال : تاريخ ٣/٤٠٠ ، حاشية ٣) .

(٨٠) اصطلاح « العريف » من الاصطلاحات الشائعة فى الحديث عن النظم الإدارية الأندلسية ، ويبدو أنه كان يستخدم أولا فى التنظيم العسكرى الطبقى ، فنحن نجد صاحب كتاب « أخبار مجموعة » (ط . مدريد سنة ١٨٦٧ بتحقيق لافونتى ألكنترا مع ترجمة إسبانية ص ١٢٩ من النص العربى و ١١٦ — ١١٧ من الترجمة) يذكر أن حرس الأمير الحكم بن هشام الربضى يتألف من ألفى رجل مقسمين إلى عشرين فرقة كل منها من مائة رجل على رأس كل منهم « عريف » (انظر كذلك ليفى بروفنسال : تاريخ ١٨٩/١ — ١٩٠ ، ٧٢/٣ — ٧٣) . على أن الاصطلاح اتسع بعد ذلك إلى الدلالة على رئيس مجموعة من الخدام أو رؤساء الحرفيين أو الصناع (انظر ليفى بروفنسال : نفس المرجع ٧٨/٣ ، ٣٠٢) دون أن يعنى ذلك عدم استخدامه فى التنظيم العسكرى الطبقى ، ويدل على ذلك شيوعه فى كتاب ابن حيان نفسه للدلالة على رؤساء الفرق العسكرية الصغيرة (انظر القطعة التى نشرها من « المقتبس » الأستاذ عبد الرحمن الحجى ص ٤٥ ، ٤٩ ، ١١٨ ، ١٥٣ ، ١٩٦ ، ٢٢٣) ، وأما فى النص الذى بين أيدينا فإن « عريف الخياطين » هو رئيس المشتغلين بهذا العمل فى داخل القصر الملكى

كما هو واضح ، ولابد أنه كان هناك عرفاء آخـرون يرأسون طوائف الحرفيين ممن كانوا يقومون بالخدمة في القصر . وقد انتقل لفظ « العريف » من العربية إلى الإسبانية دون كبير تحريف فى صورة Alarife وإن كان قد أصبح مقتصراً على الدلالة على رئيس البنائين . (وانظر كذلك الدكتور حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٤٦٤) .

(٨١) سوف يفرد ابن حيان فصلا للكلام عن آل الرازى وأولية بيتهم فى الأندلس .

(٨٢) يختلف ما ذكره ابن حيان هنا عما يقوله ابن عذارى (البيان ٨١/٢) ، إذ يذكر هذا المؤرخ فى معرض الحديث عن نقش خاتم الأمير عبد الرحمن بن الحكم أنه كان له خاتم باسمه ، فتلف ، فأمر بطلبه ، ولكنه لم يجده ، فأعاد نقش خاتم جده عبد الرحمن بن معاوية الداخل وكانت عبارته « عبد الرحمن ، بقضاء الله راض » ، ثم بعث فى عبد الله بن الشمر الشاعر فأمره بأن يقول شعراً بما ينقش فيه ، فقال :

خـاتم للملك أضحى حكمه فى الناس مـاضى

عابـد الرحمن فيـه بقضـاء الله راض

فاستحسن عبد الرحمن البيتين وأمر بنقشهما فى الخاتم ، وسوف يكون هذا النقش هو الذى سيستخدمه عبد الرحمن الناصر (أنظر ابن عذارى : بيان ١٦١/٢) .

(٨٣) يخالف هذا العدد ما ذكره ابن حزم فى كتابيه جمهرة الأنساب (بتحقيق الاستاذ عبد السلام هارون ص ٩٨) ونقط العروس فى تواريخ الخلفاء (بتحقيق الدكتور شوقى ضيف فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، سنة ١٩٥١ ، ص٧٥) من أن عدد أبناء الأمير عبد الرحمن كان مائة : خمسون ذكراً وخمسون أنثى . وقد نقل هذا الخبر عن ابن حزم بن سعيد فى المغرب (٤٥/١) ، والمقرى فى النفح (٣٢٥/١) . أما أسماؤهم فإن ابن حزم لم يذكر منهم — كعادته فى الجمهرة — إلا من كان لهم عقب وذرية فى عصره ، فهو لا يورد أسماء من انقرض نسلهم ، ولذا فإنه اكتفى بتسجيل أسماء الأربعة الذين أعقبوا وبقيت ذريتهم إلى أيامه وهم : الأمير محمد ، المطرف ، المنذر ، هشام .

(٨٤) انظر ما سبق أن كتبناه عن الحكم المذكور فى التعليق رقم ٤١ .

(٨٥) ذكره ابن حزم فى القائمة التى أشرنا إليها فى الحاشية السابقة من بين من أعقب من ولد الأمير عبد الرحمن بن الحكم (جمهرة ص ٩٨) ، إذ قال إن هناك أربعة بنين ذكوراً ينتهى نسبهم إلى عبد الله بن المطرف المذكور ، وأضاف ابن حزم إلى ذلك أن المطرف هو الذى ينسب إليه فحص مطرف بين دور الربض الشرقى بقرطبة ، وهو المعروف أيضا بفحص ابن بسيل . وقد اشترك المطرف فى كثير من الحملات والصوائف فى عهد والده عبد الرحمن (انظر ليفى بروفنسال : تاريخ ٢٠٦/١ ، ٢١٧ ، ٢٦٧) .

(٨٦) ذكره ابن حزم كذلك من بين من أعقبوا (جمهرة ، الموضع المشار إليه من قبل) ، وقال إن خمسة رجال بقوا من عقبه ينتهى نسبهم إلى مروان بن المنذر المذكور وإنهم كانت لهم ثروة وحال ظاهرة وآداب وخير ، ثم انقرضوا ولم يبق

لهم عقب إلا من رجل واحد منهم ، كذلك ذكر ابن حزم من نسل المنذر هذا الشاعر أبا الحكم المنذر بن سعيد بن المنذر ابن مروان بن المنذر بن مروان بن الحكم . هذا وسيذكر ابن حيان عند سرده أحداث إمارة محمد على السنين فى الكلام عن سنة ٢٤٢ (٨٥٦ – ٨٥٧) أن الأمير وجه أخاه المنذر بن عبد الرحمن بالصائفة الى طليطلة فحاصرها وانتسف معايشها وأورد ابن عذارى هذا الخبر أيضا (البيان ٩٦/٢) إلا أنه جعل المنذر المذكور ابن الأمير محمد لا أخاه . وقد قاد المنذر كثيراً من الحملات فى أيام أبيه عبد الرحمن بن الحكم (انظر ليفى بروفنسال: تاريخ ٢٠٧/١ ، ٢٦٧ ، ٢٨١) . وقد أورد المقرى فى نفح الطيب (١١٤/٥ – ١١٧) أخبار طريفة عن المنذر المذكور تصور أخلاقه وطباعه ومحاورات بينه وبين أبيه الأمير عبد الرحمن ، وقصصا أخرى تصور كرم نفسه بعد أن امتحنه أبوه وتعهده بالتأديب ، ثم قطعتين من شعره . وأورد ابن الأبار فى كتاب « التكلة » (رقم ١٠٤أ) ترجمة لواحد من عقبه هو المنذر بن عبدالرحمن بن عبدالله بن المنذر المذكور ، وهو المعروف باسم المذاكرة للكثرة ما كان يطلب بها أصحابه ، وترجمة أخرى للمنذر بن سعيد بن عبد الملك بن المنذر الذى كان بدوره أديبا متفننا روى عن أبى يحيى زكريا بن بكر بن الأشج ديوان شعر أبى الطيب المتنبى وكانت وفاته سنة ٤١٢ (١٠٢١ – ١٠٢٢) . (انظر التكلة ، رقم ١١٠٦) .

(٨٧) ذكره ابن حزم فيمن ذكر من بين المعقبين من ولد الأمير عبد الرحمن (جمهرة ص ٩٨) ، وسوف يورد ابن حيان نفسه فى هذا الجزء من المقتبس خبراً ينقله من كتاب معاوية بن هشام الشبينى يسنده ابرهيم إلى أبيه هشام بن عبدالرحمن المذكور ، وهو حول منافسة الأمير محمد لأخيه هشام فى جارية يبدو أن الأمير تعشقها قبل أن يصل إلى الإمارة ثم طلبها نفسه بعد ذلك فأرسل إلى أخيه هشام يستهديه إياها فى خبر طويل ، ويتبع معاوية بن هشام تلك القصة بقوله: إن هشاما المذكور كان من أهل العلم والبصر بالعربية والحديث مكثراً من الرواية عن يحيى بن يحيى وغيره وإن أباه الأمير عبد الرحمن كان قد نصبه للصلاة على جنائز أهل قصره . وقد نقل ابن الأبار بعض هذه الأخبار عن كتاب ابن حيان فى ترجمة بشر بن الأمير عبد الرحمن (الحلة السيراء ١٢٦/١) .

(٨٨) كذا ورد هذا الاسم بالكنية فقط : « أبو عثمان » ، ونحن نرجح أن صحته « عثمان » فقط ، فهناك من أبناء الأمير عبد الرحمن من يحمل اسم عثمان ، وهو لم يرد فى هذه القائمة فلابد أن يكون الناسخ قد اضطرب فى كتابة هذه الأسماء المتوالية فأضاف « أبو » إلى الاسم المذكور . أما « عثمان بن عبد الرحمن » الذى نشير إليه فيشهد به الحميدى الذى ترجم له فى الجذوة (رقم ٧٠٤) قائلا: إنه كان شاعراً أديبا أورد بعض شعره أبو عامر بن مسلمة ، وإلى هذه الترجمة أشار ابن الأبار فى موضعين من الحلة السيراء (١٢٦/١ ، ٣٦٧/٢) ، إلا أن ابن الأبار ينص على أن الرازى لم يذكره فى كتاب « الاستيعاب فى الأنساب » من تأليفه .

(٨٩) سيذكر ابن حيان عند سرده لأحداث إمارة محمد على نسق السنين أن سعيد بن عبد الرحمن المذكور كان فى طليطلة عند وفاة والده عبد الرحمن وأن عامل المدينة يومئذ كان حارث بن بزيع ، وذلك حينما انتكث أهل طليطلة وخلعوا الطاعة فأسروا عاملهم حارث بن بزيع ، وهرب سعيد ناجيا بنفسه .

(٩٠) أبو محمد عبد الله هو ابن حظية عبد الرحمن الأثيرة إليه من بين نسائه ، وهو الذى حاولت أمه وصنيعتها نصر

الخصى أن يولياء الخلافة فى الخبر الذى سبق لابن حيان أن قصه عند الحديث عن مهلك نصر ، وسيزيدنا ابن‌حيان بيانا عن ذلك عندما يفصل خبر تولى محمد الإمارة والظروف التى أحاطت بذلك .

(٩١) ذكرنا فى حاشية هذا الموضع أن الكلمة مطموسة فى الأصل وأننا نرجح أن تمام الاسم هو « أبان » ، فقد نص الرازى فى كتاب « الاستيعاب فى الأنساب » على أن أبانا هذا كان من بين أبناء الأمير عبد الرحمن (وذلك فيما نقله ابن‌الأبار فى الحلة السيراء (١٢٦/١ ، ٣٦٦/٢)، ويضيف ابن الأبار إلى ذلك قوله : إن ابن حزم ذكره أيضا فى جمهرة الأنساب ووصفه بالشعر ، ولكنا لم نعثر على هذه الإشارة فى النص المطبوع من الجمهرة . وقد ذكر ابن الأبار فى موضع آخر (التكلة ، ترجمة رقم ٢٨٥٤) أن عبد الرحمن أنجب أبانا هذا من جاريته قلم .

(٩٢) يبدو أن عدد الذكور من أبناء الأمير عبد الرحمن كان أكبر فعلا مما يذكره الرازى ، وقد يكون ابن حزم على حق حينما أوصل العدد الى خمسين (كما أشرنا إلى ذلك فى التعليق رقم ٨٣) ، أو على الأقل الى خمسة وأربعين كما يقول ابن عذارى (بيان ٨١/٢ وهذا هو هو الرقم الذى ارتضاه ليفى بروفنسال فى تاريخه ٢٦٧/١) ، وذلك لأن هناك أسماء أبناء لعبد الرحمن بن الحكم لم ترد فى القائمة التى يعتمد ابن حيان فيها على الرازى مثل بشر الذى ترجم له ابن الأبار فى الحلة ١٢٦/١) قائلا : إن ابن حزم ذكره فى الجمهرة (ولوأننا لا نجد أى إشارة إليه فى النص المطبوع) ونقل قطعة من شعره أنشدها أبو عمر بن فرج فى كتاب « الحدائق » ، وربما تكون أسماء أخرى قد سقطت كذلك قياساً على اسم بشر المذكور .

(٩٣) هو معاوية بن هشام بن محمد بن هشام بن الوليد بن الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية الداخل القرطبى ، ويعرف بابن الشبانسى أو الشبينسى أو الشبانسية ، كان أديبا أخباريا تاريخيا فصيحا ، وكان أبوه من رجالات الدولة الأموية توفى على ما يذكر ابن عذارى (بيان ١٦٩/٢) فى سنة ٣٠٠ (٩١٢) كذلك كان عمه معاوية بن محمد بن هشام من جلة الفقهاء والعلماء وكانت وفاته فى سنة ٢٩٨ (٩١٠ — ٩١١) . (انظر ابن الأبار : تكلة رقم ١٠٧٧ ؛ وابن عذارى : بيان ١٥٥/٢) ؛ ونعرف أنه كان لمعاوية المذكور أخ كان يدعى محمداً بن هشام القرشى ويعرف أيضا باسم « ابن الشبانسية » كان عاملا لعبد الرحمن الناصر على كورة شذونة ، وتوفى سنة ٣١٦ (٩٢٨) وهو لا يزال متوليا عملها (انظر ابن عذارى : بيان ٢١٣/٢) . أما معاوية فقد كتب تاريخا فى دولة قومه بنى مروان ، وهو الكتاب الذى يعتمد عليه ابن حيان فى هذه القطعة من المقتبس وفى القطعة الأخرى التى نشرها أنطونيا (انظر ص ٣٧ — ٣٨ ، ١٠٢ — ١٠٣ ، ١٣٨) ، ولابن الشبانسية تأليف فى نسب العلوية وغيرهم من قريش سماه « التاج السنى فى نسب آل على » ، ولم يحفظ لنا ابن الأبار فى ترجمة له سنة مولده ولا وفاته ، وإن كان الغالب على الظن هو موته خلال عهد عبد الرحمن الناصر أى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (انظر ابن حزم : جمهرة الأنساب ص ٩٦ ؛ ابن الأبار : التكلة رقم ١٠٧٨ ؛ الحلة السيراء ٤٠/١ ، ١٢٥ ؛ ابن سعيد : المغرب ١١٥/١ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، بتحقيق عنان ١٠٧/١ ؛ وانظر كذلك بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون ص ١٢٥ ، ليفى بروفنسال وغرسيه غومس : تاريخ مجهول المؤلف لعصر عبد الرحمن الناصر ، مدريد — غرناطة سنة ١٩٥٠ : E. Mvi — provençal, E. Garcio Gomez : una Cronica Anonima de Abd Al-Rahman, III, Madrid — Granada, 1950). انظر المقدمة ص ٢٠ — ٢١

(٩٤) أشار ابن حزم إلى العاصى بن محمد هذا من بين المعقبين من ولد هذا الأمير (الجمهرة ص ٩٩) ، كذلك ذكره

صاحب القطعة التى نشرها بروفنسال وغرسيه غومس حول تاريخ عبد الرحمن الناصر (وهى التى أسلفنا الإشارة إليها فى التعليق السابق) فى معرض الكلام عن بيعة عبد الرحمن بن محمد الناصر فى سنة ٣٠٠ (٩١٢) بعد وفاة جده ، إذ قال إن أول من بايعه كانوا أعمامه أولاد الأمير عبد الله وتلاهم إخوة جده أبناء الأمير محمد ، وهم العاصى وسليمان وسعيد وأحمد (انظر النص المذكور ص ٢٩ وص ٩٢ من الترجمة الإسبانية) .

(٩٥) نقل ابن الأبار فى الحلة (١٢٦/١) هذا النص والأبيات الثلاثة التالية عن ابن حيان ، وأثنى على حكم مؤلفنا ونقده لشعر يعقوب بن عبد الرحمن المذكور ، ثم أورد ابن الأبار أبياتا أخرى له نقلها من كتاب « الحدائق » لابن فرج الجيانى . هذا وقد أورد المقرى فى نفح الطيب (١١٨/٥ — ١١٩) بعض أخبار يعقوب بن عبد الرحمن ومنتخبات أخرى من شعره ، وفى هذه الأخبار ما يؤكد ما ذكره ابن حيان هنا عن كرمه إلى حد الإسراف .

(٩٦) يبعد أن يكون هذا اللفظ كما رسم فى الأصل : « كلهن » اسما لإحدى بنات الأمير عبد الرحمن ، ونلاحظ عند مراجعة هذه القائمة أنه ينقصها اسم من أهم أسماء أولئك البنات وأعظمهن صيتا ومكانة ، ونعنى بها « البهاء » ، وكانت من خيرة نساء بنى أمية ، من أهل الزهد والعبادة والتبتل ، وكانت تكتب المصاحف وتحبسها (أى توقفها) على المساجد ، وينسب إليها مسجد البهاء من مساجد ربض الرصافة ، وتوفيت فى صدر دولة عبد الرحمن الناصر فى سنة ٣٠٥ (٩١٧ — ٩١٨) فلم يتخلف أحد عن جنازتها (انظر فى ترجمتها ابن الأبار : تكملة ، ط . بالنشيا والأركون ، رقم ٢٨٥٨ ؛ ابن عذارى : البيان ١٧٦/٢) ، ولهذا فإننا لا نستبعد أن يكون لفظ « كلهن » الوارد فى الأصل تحريفا عن اسم « البها ء ».

(٩٧) تكرر هذا الاسم من قبل ، ومع ذلك فقد يكون عبد الرحمن — مع هذه الكثرة الهائلة فى عدد بناته — قد أطلق نفس الاسم على اثنتين منهما ، وهو شئ رأينا أمثلة له فى نفس القائمة المذكورة .

(٩٨) أشار ابن عذارى إلى السيدة علية بنت عبد الرحمن بن الحكم وقال: إنها توفيت فى سنة ٣١٠ (٩٢٢ — ٩٢٣)، ولابد أن حياتها طالت كثيراً حتى إنها أدركت عهد عبد الرحمن الناصر الذى كان بمثابة أبناء أحفادها . (أنظر البيان المغرب ١٨٣/٢) .

(٩٩) هو عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، وجده هذا الداخل إلى الأندلس مع طارق بن زياد هو مغيث بن الحارث ابن حويرث بن جبلة بن الأيهم الغسانى الذى يدعى « مغيث الرومى » ، وهو الذى اطلع بفتح قرطبة (انظر المقرى : نفح ١١/٤ — ١٣) ، أما عبد الواحد بن مغيث فقد كان حاجبا لعبد الرحمن بن معاوية الداخل ثم لهشام ابنه ، وكانت وفاته فى أيام الحكم الربضى فى سنة ١٩٩ (٨١٤ — ٨١٥) ، (انظر ابن سعيد : المغرب ٤٤/١) ، وقد أعقب ثلاثة أبناء كان لهم مكانة عظيمة فى أيام هشام بن عبد الرحمن وابنه الحكم ، وهم عبد الملك وعبد الكريم وعبد الحميد ، أما الأولان فقد توليا القيادة فى أيام هذين الأميرين ، وولى الأمير هشام عبد الكريم على كورة جيان ، ثم أغزاه فى سنة ١٧٨ (٧٩٤) إلى ألبة والقلاع ، كما وجه أخاه عبد الملك إلى إفرنجة فانتهيا إلى أرض العدو وأثخنا فيها وأصابا غنائم كثيرة ، وفى السنة التالية (١٧٩ — ٧٩٤) قاد عبد الكريم حملة على أشتوريش فوصل إلى أستورقة وافتتحها . ولما ولى الحكم ابن هشام الإمارة وجه عبد الكريم إلى سرقسطة عند ثورة بهلول بن مرزوق بها فأوقع به ، وفى سنة ١٩٦ (٨١٢) استطاع أن يستنزل عمروس بن يوسف الثائر بالثغر الأعلى ويقدم به على قرطبة ، وعهد إليه الحكم حينئذ بولاية سرقسطة

وتطيلة ووشقة ، وفى سنة ٢٠٠ (٨١٦) غزا إلى بلاد ألبة والبشكنس ، فأوقع هزيمة ساحقة بجيوش أذفنش (ألفونسو الثانى) ملك أشتوريش ، وكان له بعد ذلك مقام محمود فى إخماد ثورة الربض سنة ٢٠٢ (٨١٨) ، وهو الذى توسط فى استسلام وعقد الأمان لهم . وفى سنة ٢٠٨ (٨٢٣) عاد إلى قيادة الحملة التى توجهت إلى ألبة والقلاع ووصلت إلى جرنيق Guernica ، وأخيراً توفى سنة ٢٠٩ (٨٢٤) بعد أن تقلب فى أعلى مناصب الدولة ، إذ ولى القيادة والكتابة والوزارة فضلا عن الحجابة (وهى بمثابة رياسة الوزراء) معظم أيام الحكم الربضى وثلاث سنوات من إمارة عبد الرحمن الأوسط ، ويسميه ليفى بروفنسال بحق أعظم رجال دولة الحكم على الإطلاق ، والواقع أنه كان يجمع خصالا قل أن تتوفر كلها فى واحد من رجال الدولة ، فقد كان عسكريا ممتازاً وسياسيا محنكا وكاتبا أديبا عالمـا ، وكان على حد قول الرازى « أكمل من ولى الحجابة لبنى مروان » .

انظر فى ترجمة عبد الكريم بن مغيث وأخباره : ابن الأبار : الحلة السيراء ١/١٣٥ — ١٣٦ ؛ ابن عذارى : بيان ٤٨/٢ ، ٦٤ — ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٨٠ — ٨٢ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٤٥ ، ٦١ — ٦٢ ، ٧٤ ؛ الخشنى : كتاب القضاة ص ٧٣ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/٤٠ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ابن الخطيب : الإحاطة (تحقيق الأستاذ عنان) ٤٨٨/١ ؛ أعمال الأعلام ص ١٢ ، ١٩ ؛ المقرى : نفح ٣١٧/١ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ — ٣٢٤ ، ٢٢٦/٤ ؛ ليفى بروفنسال تاريخ ١٤٣/١ — ١٤٤ ، ١٥٥ — ١٥٦ ، ١٦٦ — ١٦٨ ، ١٧٤ — ١٧٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٢ — ٢٠٣ ، ٢٨٦) .

هذا ولم يفرد ابن حيان ترجمة هنا لعبد الكريم بن مغيث إذ يغلب على الظن أنه فعل من قبل فى الجزء الخاص بإمارة الحكم ابن هشام التى قضى الشطر الأعظم من حياته فيها . أما عبد الحميد بن مغيث فسيأتى ذكره فى الكلام عن إمارة محمد بن عبد الرحمن.

(١٠٠) هو سفيان بن عبد ربه المصمودى (من مصمودة إحدى قبائل البربر) ، ذكر ابن القوطية الظروف التى أحاطت بولايته الحجابة فقال : إنه لما توفى عبد الكريم بن مغيث فى صدر ولاية عبد الرحمن الأوسط (سنة ٢٠٩ — ٨٢٤) تنافس الوزراء كلهم فى خطة الحجابة ، فأخذت الأمير ضجْرة أقسم معها ألا يولى واحداً منهم ، ثم أمر بالإقراع بين الخزان (جمع خازن وهو المتولى للشؤون المـالية فى الدولة) فخرجت القرعة إلى (ورد الاسم فى الأصل خطأ : « مهران ») ، فولاه الحجابة ، ويزيدنا ابن القوطية بعد ذلك تعريفا به فيقول : إنه كان من البربر لا قديم له (أى أنه لم يكن من أسرة عريقة فى مناصب الخدمة) وكان له بالإمير عبد الرحمن اتصال وهو ولد (أى قبل أن يتولى الإمارة) ، وظل سفيان على الحجابة حتى وفاته سنة ٢١١ (٨٢٦) على ما سيذكر ابن حيان فى الوفيات ، ويقول ابن حزم : إن نسل سفيان بن عبد ربه قد باد فى وقته وانقرض فلم يعد منهم بقية . أنظر ابن القوطية : تاريخ ص ٦٢ ، ٦٨ ؛ ابن سعيد : مغرب ٥٠/١ ؛ ابن عذارى : بيان ٨٠/٢ ؛ ابن حزم : جمهرة ، ص ٥٠٠ ، وقد نقل كلامه صاحب كتاب مفاخر البربر (بتحقيق ليفى بروفنسال ، ط . الرباط سنة ١٩٣٤) ص ٨٠ .

(١٠١) يوافينا ابن حيان بأخبار قيمة عن خطة من أهم خطط الدولة فى ظل أمراء بنى أمية ، وهى خطة الخزانة التى كان متقلدها يدعى « الخازن » ، ونحن نرى من هذا النص أن ظهور هذه الخطة قد بدأ فى أيام الحكم بن هشام أى فى أواخر القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادي) ، ثم أخذت قواعدها تستقر ومعالمها تتحدد فى أيام عبد الرحمن الأوسط ، وقد كانت وظيفة الخازن أشبه ما تكون بالعمل الذى يتولاه الآن وزراء المـالية أو الخزانة . ولم يكن يعهد بهذا المنصب دائما إلى فرد واحد ،

مل فى كثير من الأحيان إلى مجموعة من الرجال يرأسهم « الخازن الأكبر » ، غير أن المصادر لاتمدنا بالكثير عن تفاصيل أعمال الخزان وكيفية تسييرهم لها وحدود سلطاتهم . ويذهب ليفى بروفنسال فى تاريخه (٣١/٣ - ٣٢) إلى أن السبب فى قلة المعلومات المتوفرة لدينا عن عمل « الخزان » يرجع إلى أن وظائف الخزانة كانت تسند فى الغالب إلى غير المسلمين من الذميين ، وإذا كان صحيحا أن من بين متقلدى وظائف الخزانة فى الأندلس عدداً من المسيحيين واليهود فإننا لا نعتقد أن العادة جرت بذلك ، ولو أننا تأملنا أسماء الذين تولوا هذا العمل منذ ظهوره نظاما إداريا محدداً فى الأندلس حتى عهد عبد الرحمن الناصر مثلا ، وهذه هى الحقبة التى تقعد خلالها هذا النظام واستقرت أصوله لوجدنا أن الكثرة العظمى من المسلمين .

(١٠٢) لم يذكر ابن القوطية اسم مرتيل بن عفان هذا بين أسماء من تولوا الخزانة للأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وهم عنده : موسى بن حدير شيخ الخزان ، وابن بسيل الملقب بالغماز ، وطاهر بن أبى هارون ، وسفيان بن عبد ربه (تاريخ ص ٦٢) ولم نجد فيما بين أيدينا من مراجع أى إشارة إلى مرتيل بن عفان المذكور .

(١٠٣) « باب السدة » هو الباب الرئيسى لقصر الخلافة بقرطبة المطل على ضفة الوادى الكبير وعلى القنطرة . وقد كان القصر مواجها للمسجد الجامع بقرطبة ، وكان له خمسة أبواب أعظمها وأهمها باب السدة المذكور الذى كان يواجه « الرصيف » أى الطريق المرصوف الذى يحاذى ضفة النهر ، ومنه كان يدخل ضيوف السلطان وزواره ، ومن هنا كانت دعوته باسم « باب السدة » وكان أمام هذا الباب سارية عارية جرت العادة بأن تعرض فوقها أهم الغنائم التى كان أمراء قرطبة وخلفاؤها يحوزونها فى حملاتهم العسكرية ، كما أصبح من المعتاد أن تعلق فوقها رؤوس من يظفرون بهم من الأعداء سواء أكانوا من زعماء الممالك المسيحية فى « دار الحرب » أو الثائرين المسلمين الخطرين على سلامة نظام الحكم ، أماالأبواب الأربعة الباقية فهى « باب الجامع » المفضى إلى المسجد الجامع الذى تفصله عن القصر « المحجة العظمى » وهى التى تمتد بعد ذلك إلى القنطرة ، ثم « باب الجنان » ، « باب الوادى » الواقع فى نفس الجانب الذى جعل فيه باب السدة ، وأخيراً الباب الشمالى وهو المعروف باسم « باب قورية » . وقد شاع فى الأندلس بعد ذلك استخدام اصطلاح « باب السدة » وإطلاقه على الأبواب الرئيسية/الكبرى للقصور قياسا على باب السدة فى قصر الخلافة بقرطبة . انظر مقال العالم الأثرى ليوبولدو توريس بلباس : « باب السدة فى قرطبة وأبواب السدة فى شرق الأندلس » ، وبجلة الأندلس ، المجلد السابع عشر ، سنة ١٩٥٢ ، ص ١٦٥-١٧٥ .

Leopoldo Torres Babas : «Bab al-Sudda» y les zudas de la Espana orien-
Al-Andalus, Vol. XVII, 1952.

(١٠٤) أسرة بنى شهيد من أكبر الأسر الأندلسية وأثراها وأشهرها فى عصر الإمارة والخلافة ، وقد تصرف أفرادها لخلفاء بنى أمية فى الخطط الكبرى من القيادة والكتابة والوزارة والحجابة إلى انقراض الدولة المروانية . وتنتهى هذه الأسرة إلى شهيد بن عيسى بن شهيد بن الوضاح ، وقد نسبهم ابن الأبار فى « الحلة » إلى قبيلة أشجع بن ريث بن غطفان ، أى أنه جعل لهم نسبا عربيا خالصا ، ولكن غيره من المؤرخين مثل الرازى وابن حيان فى هذا النص يذكرون أن جدهم كان مولى لمعاوية ابن مروان بن الحكم ، ولعل هذا هو الصواب ، فابن حزم لم يشر إليهم بشئ فى حديثه عن استقر بالأندلس من قبيلة أشجع ، ويقول المقرى : إن شهيد بن عيسى بن شهيد كان من سبى البرابر وقيل إنه رومى ، وكان الوضاح مع الضحاك بن قيس فى وقعة مرج راهط . أما شهيد بن عيسى فقد دخل الأندلس فى أيام عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، وكان وثيق الصلة بالأمير الأموى

إلى سعد ترى معه عبد الرحمن يستخلفه على قصره حينما يعزم على الخروج لإخماد ثورة عبد الغفار اليحصبي فى سنة ١٥٤ (٧٧١) . ثم أسند عبد الرحمن بن معاوية إلى شهيد بعض المهام العسكرية الكبرى فأبلى فيها أحسن البلاء ، كان منها خروجه لقتال وجيه الغسانى الذى ظاهر شقيا بن عبد الواحد الدعى الفاطمى على ثورته بين سنتى ١٥٠ و ١٦٠ (٧٦٧ — ٧٧٧) (انظر : « أخبار مجموعة » ص١١١) ، وولى القيادة كذلك فى أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن ، فقد أسند إليه هذا الأمير إخضاع تدمير التى كان سليمان بن عبد الرحمن الداخل أخو الأمير قد أشعل فيها نار الثورة ، فأنجز المهمة بنجاح (ابن عذارى : بيان ٦٣/٢).

وأما الحاجب عيسى بن شهيد المذكور هنا ، فإن ترجمة ابن حيان له والأخبار التى سيوردها فى ثنايا هذا الكتاب تعتبر أوفى ما كتب عنه ، ونحن نعرف — فضلا عن ذلك — أنه وكل إليه بعض مناصب القيادة فى أثناء غزو المجوس (النورماند) لإشبيلية فى سنة ٢٣٠ (٨٤٥) ، كذلك نعرف أنه ولى الكتابة والحجابة لعبد الرحمن الأوسط وسنوات من إمارة خليفته محمد ، ويحدد ابن عذارى ولايته الحجابة بسنة ٢١٨ (٨٣٣) وهى ولاية استمرت بغير انقطاع حتى وفاته سنة ٢٤٣ (٨٥٧ — ٨٥٨) . (انظر ابن الأبار : الحلة ٢٣٧/١ — ٢٣٨ ؛ ابن عذارى : بيان ٨٠/٢ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٩٣ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٦٢ ، ٧٤ — ٧٥ ؛ العذرى : جغرافية ، ص ٩٩ ، ابن سعيد : مغرب ٥٠/١ ؛ المقرى : نفح ٤٥/٤ ؛ وانظر كذلك ليفى بروفنسال : تاريخ ٢٨٦/١ — ٢٨٧ ؛ الأندلس فى القرن العاشر ص ١٠١— ١٠٣) . هذا وقد ولى الحجابة أيضا للأمير محمد : أمية بن عيسى بن شهيد ، وسيورد ابن حيان جملة من أخباره فى موضعه.

(١٠٥) خطة الخيل — ومتوليها يدعى « صاحب الخيل » — تعنى وظيفة الإشراف على شؤون الخيل وكل ما يتصل بلوازمها وأدواتها فى التنظيم العسكرى للجيش فى ظل الدولة الأموية ، وقد كانت من أرفع خطط الدولة ، وكثيراً ما كان يتولاها قواد كبار يعهد إليهم بقيادة الصوائف . وقد أفادنا ابن حيان نفسه فى غير موضع من كتاب المقتبس (القطعة التى نشرها الأستاذ عبد الرحمن الحجى ، بيروت ١٩٦٥) بتفاصيل شائقة عن هذه الخطة ، ونفهم مما أورده فى بعض هذه المواضع أن « صاحب الخيل » كان ممن يعهد إليهم بترتيب الكتائب وتنظيم العساكر (ص ٤٧) وأنه كثيراً ما كان يضطلع بقيادة الحملات العسكرية إلى دار الحرب (ص ٩٢) وأن مكانته فى الدولة كانت تلى مكانة « صاحب المدينة » (وهو بمثابة الحاكم العام للعاصمة) ، وتحته كان أصحاب الشرطة العليا والوسطى وأصحاب الخزون (فى الأصل : المخزول ، ونظنها تحريفا لما ذكرنا) والخزان (ص ٣٠ ، ٩٤) ، وكان مقر عمل صاحب هذه الخطة ما يعرف باسم « دار الخيل » وفيها متصرفون يعملون تحت رياسة المضطلع بها يعرفون باسم « الوكلاء » (ص ١٥١ ، ١٨٩ ، ١٩٧) ، هذا وسوف يرد فى هذا الجزء من المقتبس ما يلقى أضواء جديدة على هذه الخطة فى أثناء الحديث عن بعض من تولوها .

(١٠٦) خطة « النظر فى المظالم » أو « أحكام المظالم » من الخطط القضائية التى كان لها فى الأندلس وضع خاص ليس ماثلا تماماً لما جرى به العمل فى المشرق ، وإذا كانت هذه الخطة قد ظهرت فى عصر مبكر فى دولة بنى أمية بالأندلس فإن معالمها لا تتضح وواجباتها لا تتحدد إلا فى القرن الرابع الهجرى فى ظل الخلافة المروانية ، ويبدو من استقراء النصوص حولها أن صاحبها كان فى مرتبة أدنى من قاضى الجماعة (الذى يقابل قاضى القضاة فى المشرق) ، وأنه على الرغم من ذلك كان ينظر فى القضايا العاجلة التى لا تحتمل بطء الإجراءات القضائية العادية وتعقيدها ، وتصور لنا حدود هذه الوظيفة قصة يرويها ابن عذارى (البيان ٣١٠/٢—٣١١) يذكر فيها أن رجلا من العامة وقف عليه بمجلسه فاستصرخه على أحد الفتيان والصقالبة الذين كانوا يقفون على رأسه فقال: إنه ظلمه فى معاملة كانت بينهما وإنه دعاه إلى القاضى فلم يأت (وكان القاضى

هو عبد الرحمن بن فطيس) فغضب المنصور ولام قاضي الجماعة على تهاونه ثم أمر فتاه بأن ينزل ويساوى خصمه الشاكى فى المقام ، وأمر صاحب شرطته بأن يحمل الرجلين إلى « صاحب المظالم » حتى ينظر فى القضية وينفذ فيها حكمه ، وكثيراً ما كان « النظر فى المظالم » يضم إلى اختصاص قاضي الجماعة كما نستخلص من بعض تراجم القضاة . (وانظر فى هذه الخطة كتاب ليفى بروفنسال : تاريخ ١٤٥/٣ — ١٤٧) .

(١٠٧) الصوائف (جمع صائفة ، مشتقة من « الصيف ») ، هى الحملات التى جرت عادة أمراء بنى أمية وخلفائها على توجيهها إلى « دار الحرب » خلال فصل الصيف . وقد استقر تقليد هذه الحملات حتى أصبحت وظيفة ثابتة يعهد بها إلى أحد القواد الكبار أو إلى واحد من أفراد الأسرة الحاكمة ، وكثيراً ما كان الأمير أو الخليفة نفسه هو الذى يضطلع بقيادتها ، وكان الاستعداد لها يبدأ فى شهر يونيه ، وكانت قيادة الجيش تتكتم دائماً أخبار الطريق الذى ستنتهجه حملة الصائفة حتى تكون ضرباتها مفاجئة للعدو ، وقد وافتنا المراجع الأندلسية بكثير من التفاصيل حول هذه الحملات وفى القطع المنشورة من «مقتبس» ابن حيان وفى هذه القطعة مادة طيبة حول الصوائف التى أصبحت على طوال أيام الدولة الأموية وفى ظل العامريين بعدهم تقليداً محترما سنويا . وقد بقى لفظ « الصائفة » فى اللغة الإسبانية بعد أن انتقل إليها من العربية فى صورة « aceifa » .

(١٠٨) أفادنا ابن حيان فى هذه الصفحات التى يفردها لتراجم وزراء الأمير عبد الرحمن وحجابه وفى كثير من القصص التى سترد بعد ذلك فى معرض الحديث عن وزراء الأمير محمد بتفاصيل جديدة كثيرة حول النظم الإدارية وخطط الدولة العليا فى ظل أمراء بنى أمية . فنحن نرى فى هذه الترجمة الخاصة بعيسى بن شهيد كيف كانت خطتا الحجابة والوزارة وكان الأمير عبد الرحمن بن الحكم هو أول من فخم الدولة ورتب رسومها وآيينها كما ينص على ذلك ابن حيان بعد قليل ، ويقول ابن خلدون فى الكلام عن خطة الوزارة بالأندلس : « وأما دولة بنى أمية بالأندلس فأبقوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة ، ثم قسموا خطته أصنافا وأفردوا لكل صنف وزيراً ، فجعلوا لحسبان المـال وزيراً ، وللترسيل وزيراً ، وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيراً ، وللنظر فى أحوال أهل الثغور وزيراً ، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم ، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له ، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت ، فارتفع مجلسه عن مجالسهم ، وخصوه باسم الحاجب ، ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم » (المقدمة ، ط . المكتبة التجارية الكبرى ، بدون تاريخ ، ص ٢٣٩ — ٢٤٠) ، فوظيفة الحاجب التى يتحدث عنها ابن حيان هنا فى ترجمته لعيسى بن شهيد هى التى تقابل فى اصطلاحنا الحديث « رئيس مجلس الوزراء » (انظر كذلك عن هذه الوظيفة ليفى بروفنسال : تاريخ ١٨/٣ — ٢٢ ؛ والدكتور أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، الإسكندرية سنة ١٩٦٨ ، ص ١٤٢ وما بعدها) .

(١٠٩) أسرة بنى رستم التى ولى بعض أفرادها الوزارة والقيادة والحجابة للأمويين فى الأندلس تنتهى إلى عبد الرحمن بن رستم الفارسى مولى الغمر بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، وهو مؤسس الدولة الرستمية فى تاهرت بالمغرب الأوسط (جمهورية الجزائر الحالية) ، وكانت هذه الدولة تدين بتعاليم الإباضية إحدى فرق الخوارج ، ونحن نعلم أن العلاقات بين هذه الدولة الخارجية المذهب والأمويين أصحاب قرطبة كانت تتميز دائماً بالمودة والصداقة ، على الرغم من تمسك الأمويين بمذهب أهل السنة ونفورهم من جميع البدع المذهبية ، فقد كان أمراء قرطبة بحكم عداوتهم للعباسيين وعمالهم الأغالبة فى افريقية ولدولة الأدارسة

الشيعة فى المغرب الأقصى يرون من السياسة أن يؤيدوا الرستميين الخوارج ويظاهروهم على جيرانهم أعداء الأمويين التقليديين . وفى سنة ٢٠٧ (٨٢٢ – ٨٢٣) قدم على عبد الرحمن بن الحكم بقرطبة بنو عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت فاستقبلوا استقبالا فخما أنفق فيه الأمير الأندلسى ألف ألف دينار (على ما يذكر ابن سعيد فى المغرب ٤٨/١) ، ويبدو أن بعض بنى رستم قد استقروا منذ هذا التاريخ فى الأندلس ، بل إن صلتهم بهذه البلاد قد تكون سابقة لهذا التاريخ ، فابن الأبار يذكر أن أول من دخل الأندلس منهم هو سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم حفيد منشئ الدولة ، واتصل ابنه محمد بن سعيد بعبد الرحمن بن الحكم قبل ولايته الإمارة وحينما كان يلى لأبيه الحكم عمل شذونة فى جنوب الأندلس ، واستقر محمد هذا فى ناحية الجزيرة الخضراء ، فلما ولى عبد الرحمن الإمارة اصطنعه واستقدمه وتصرف له فى الوزارة والقيادة وغيرهامن خطط الدولة . وفى سنة ٢١٤ (٨٢٩) عهد إليه عبد الرحمن بحكم الثغر الأدنى (طليطلة) حينما نشبت ثورة هاشم الضراب ، ثم كتب إليه الأمير يعنفه ويتهمه بالتقصير فى محاربة هذا الثائر ، فتقدم ابن رستم والتقى بهاشم ، ووقعت حرب شديدة أبلى فيها ابن رستم خير البلاء حتى هزم هاشما وقتل آلافا ممن معه (ابن عذارى : بيان ٨٣/٢) ، وكان ابن رستم المذكور أحد القواد الذين صدوا هجمات المجوس (النورمانديين) عند نزولهم بإشبيلية سنة ٢٣٠ (٨٤٤ – ٨٤٥) (ابن عذارى بيان ٨٧/٢ – ٨٨ ؛ العذرى : جغرافية ص ٩٩ – ١٠٠) وقد توفى محمد بن سعيد بن رستم المذكور – على ما سيذكر ابن حيان نفسه بعد قليل حينما يتحدث عن الوفيات فى عهد عبد الرحمن – فى سنة ٢٣٥ (٨٤٩ – ٨٥٠) . ويذكر ابن الأبار – نقلا عن الرازى – أنه كان أديبا حكيما شاعراً لاعباً بالشطرنج .

أما عبد الرحمن بن رستم الذى يذكر ابن حيان فى هذا النص أنه ولى الوزارة والحجابة فترة ما فقد رجح ليفى بروفنسال أن يكون ابناً أو أخاً لمحمد بن سعيد بن رستم المذكور آنفا . (انظر ابن القوطية : تاريخ ص ٦٢ ؛ ابن الأبار : الحلة ٣٧٢/٢ – ٣٧٣ ؛ ليفى بروفنسال : تاريخ ٢٠١/١ ، ٢٢٣ – ٢٢٤ ؛ ٢٤٦ ، ٢٧٠ ؛ وعن الرستميين انظر دائرة المعارف الإسلامية تحت هذه المـــادة ؛ وكذلك مقال الأستاذ محمد بن تاويت : "دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الخامس سنة ١٩٥٧ ص١٠٥ – ١٢٨ ، وانظر بصفة خاصة ص١١٦ ، حاشية ٣)

(١١٠) بيانة Baena بلدة تقع على بعد ٦٤ كيلو متر إلى الجنوب الشرقى من قرطبة ، وكانت قديما من أعمال مدينة قبرة Cabra (انظر ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار ص ٥٩ من النص و ٧٤ من الترجمة الفرنسية والحاشية الواردة فى هذا المرجع) .

(١١١) هو عبد الرحمن بن عبد الحميد بن غانم ، وأبوه عبد الحميد بن غانم كان رأس أسرة اشتهر كثير من أفرادها وتولوا أرقى المناصب فى الدولة الأموية . وكان عبد الحميد بن غانم من موالى عبد الرحمن بن معاوية الداخل ومن كبار رجالات دولته ، وأهدى إليه هذا الأمير جارية كانت له ثم وقعت فى أسر أبى زيد عبد الرحمن بن يوسف الفهرى عند هجومه على قرطبة أثناء الحرب الدائرة بينه وبين عبد الرحمن بن معاوية فى سنة ١٣٨ (٧٥٦) ، فلما استنقذها الأمير الأموى كرهها فأهداها إلى عبد الحميد بن غانم ، فهى أم ولده عبد الرحمن المذكور هنا . وعهد إليه الأمير الداخل بقيادة فرق الرجالة ، كما أسند إليه بعض المهام العسكرية الكبرى مثل تكليفه إياه بالقبض على يحى بن يزيد بن هشام اليزيدى الثائر على الأمير عبد الرحمن (انظر « أخبار مجموعة » ص ١٠٩ – ١١٠) .

أما عبد الرحمن بن عبد الحميد فقد ولى الوزارة والحجابة للحكم بن هشام ثم لابنه عبد الرحمن خلال فترة قصيرة كما يذكر ابن حيان هنا ، وسوف يذكر هذا المؤرخ عند كلامه عن الوفيات أنه مات فى الحبس سنة ٢١٠ (٨٢٥ – ٨٢٦) ، ولسنا نعرف الظروف التى أحاطت بنكبة عبد الرحمن بن غانم حتى أدت به إلى الوفاة فى الحبس .

على أننا سنرى فى الجزء الخاص بالأمير محمد أن ابنه وليد بن عبد الرحمن بن غانم كان مقربا من الأمير فولى عدة مناصب كبرى ، منها خطتا المدينة والوزارة وقيادة الجيوش ، وكذلك ابناه محمد وعبد الرحمن اللذان ارتفع شأنهما فى أيام عبد الله ابن محمد وحفيده عبد الرحمن الناصر أول خلفاء الأندلس .

انظر ابن القوطية : تاريخ ص ٦٢ ؛ وانظر عن بنى غانم عامة ابن الأبار : حلة ١٤١/١ ، ١٦٢ ، ٣٧٤/٢ .

(١١٢) يختلف ما نقله ابن حيان عن ابن القوطية هنا عما نراه فى النص المنشور لهذا الكتاب (تاريخ ص ٦٢) ، إذ نجد فيه أن عيسى بن شهيد إنما حجب للأمير محمد نحو العامين فقط . والذى ذكره ابن حيان هو الصواب . ونكرر هنا ما سبق أن أشرنا إليه من التنبيه على أن النص المنشور لابن القوطية لا يمثل الكتاب الحقيق الذى ألفه هذا المؤرخ والذى ينقل عنه ابن حيان . (راجع تعليقنا السابق رقم ٥٠) .

(١١٣) أحمد بن محمد المذكور هنا هو الجغرافى المؤرخ أحمد بن محمد بن موسى الرازى صاحب التاريخ الذى يعتمد ابن حيان كثيراً عليه . وسوف نعلق عليه فى موضعه .

(١١٤) هو العباس بن عبد الله بن عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم المروانى القرشى . وجده عبد الملك بن مروان هو الداخل إلى الأندلس قادما من مصر على عبد الرحمن بن معاوية الداخل سنة ١٤٠ (٧٥٧ – ٧٥٨) ، وكان قد أتى فى عشرة من بنيه هاربا من اضطهاد العباسيين وتنكيلهم ببقايا الدولة الأموية فى المشرق . فولاه عبد الرحمن على إشبيلية ، وولى ابنه عبد الله – والد المذكور هنا – على مورور Moron ، وأغنى كلاهما فى حرب يوسف بن عبد الرحمن الفهرى المنازع لعبد الرحمن بن معاوية فى السلطنة ، ولما زحف أهل إشبيلية على الأمير الأموى طالبين بثأر أبى الصباح اليحصبى أبلى عبد الملك بلاء حسنا فى قتالهم ، وكذلك ابنه عبد الله ، فأحظاه عبد الرحمن وزوج ابنته كنزة من ابنه هشام ولى عهد الأمير وقدمه واستوزر أبناءه عبد الله وابرهيم وحكما . (انظر « أخبار مجموعة » ص ٩٦ – ٩٩ ؛ ابن الأبار : الحلة السيراء ٣٦/١ – ٣٨ ، ٥٦ – ٥٧ ، ٦٠ ؛ ابن عذارى : البيان ٤٩/٢ ؛ المقرى : نفح ٥٩/٤ – ٦٠) .

أما العباس بن عبد الله القرشى أو المروانى فقد تقلب كذلك فى كثير من مناصب الدولة الكبرى ، إذ ولاه الأمير هشام بن عبد الرحمن على باجة Beja على ما نستخلص من نص لابن القوطية (ص ٤٥ ، وننبه هنا إلى أن الاسم ورد فى النص المطبوع « العباس بن عبد الله المروزى » وهو تحريف صوابه « المروانى ») ، ثم ولى الوزارة وقيادة الجيوش كذلك للحكم بن هشام الربضى (ابن عذارى : بيان ٦٨/٢ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، بتحقيق الأستاذ عنان ٤٨٧/١) ، وقد روى الخشنى عنه أخباراً تدل على مكانته العظيمة لدى الحكم بن هشام (أنظر كتاب القضاة ص ٤٧ – ٤٨ ، ٥٢ ، وكذلك النباهى : المرقبة العليا ، ص ٤٦ – ٤٧ ، ١٩٣ ؛ وأخبار مجموعة ص ١٢٧) . وقد ظل على القيادة والوزارة فى عهد

عبد الرحمن الأوسط بن الحكم حتى وفاته سنة ٢١٩ (٨٣٤) كما سيذكر ابن حيان فى باب الوفيات . وقد أورد ابن حزم فى الجمهرة (ص ١٠٧ — ١٠٨) نصا طريفا عن هذه الأسرة عدد فيه كثيراً من أسماء من اشتهروا منهم طوال أيام الدولة الأموية والمعقبين منهم حتى عصره . وسيورد ابن حيان فى هذا الجزء من المقتبس أخبار بعض هؤلاء سنعلق على كل واحد منهم فى موضعه . هذا ونلاحظ أن الخشنى فى بعض المواضع من كتابه والنباهى يذكران العباس المترجم له هنا باسم « العباس بن عبد الملك » لا عبد الله كما هى صحة الاسم ، مما يشكك فى أن المذكور فى تلك المواضع شخص آخر ؛ ولكن ينبغى ألا يتوهم شئ من ذلك ، فهذان المؤلفان إنما ينسبانه فى تلك المواضع لجده عبدالملك لا لأبيه ، ولعل ذلك لشهرة عبد الملك بن عمر المروانى مؤسس هذا البيت من بيوت الرياسة المروانية فى الأندلس .

(١١٥) الوليد بن عبد الله القرشى المذكور فيما يغلب على ظننا هو أخو العباس بن عبد الله الذى أسلفنا الحديث عنه فى التعليق السابق .

(١١٦) هو عبد الرؤوف بن عبد السلام بن ابرهيم بن يزيد بن عبد الله بن جابر بن عمر بن أيوب مولى مروان ابن الحكم ، كان من كبار رجالات الموالى الأمويين بالأندلس ، وكان جده الأكبر عبد الله بن جابر قاضيا لعمر بن عبد العزيز بالشام ، وأول من دخل الأندلس من هذه الأسرة هو أبوه عبد السلام بن ابرهيم وأخواه أبو المفوز وعقبة ، فتناسلوا بها وخدموا أمراء بنى أمية وتصرفوا فى الولايات ، وكان أبو الدهاث عبد السلام أمينا للأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل بكورة إلبيرة . أما عبد الرؤوف المذكور فقد ولى طليطلة ونواحيها للأمير عبد الرحمن بن الحكم الأوسط سبعة أعوام وتصرف فى غير ذلك من الكور ، ثم استوزره عبد الرحمن فى آخر أيامه ، واستوزره الأمير محمد بن عبد الرحمن أيضا ، وتوفى فى أيامه وهو وال للوزارة ، وسنرى من حديث ابن حيان بمناسبة ولاية الأمير محمد أنه كان يلقب بالبواب ، إذ كان يتولى حراسة باب الجنان من أبواب قصر قرطبة القبلية (أى الجنوبية) فى أواخر أيام عبد الرحمن الأوسط ، وقد رأى الأمير محمد فى تلك القصة من أمانته وضبطه ما جعله يقره على عمله حينا ولى مقاليد الحكم فى سنة ٢٣٨ (٨٥٢) . (انظر كذلك ابن القوطية : تاريخ ص ٨١ — ٨٢) . وكان لذرية عبد الرؤوف هذا مكانة عالية فى الدولة الأموية . فقد ولى ابنه عبد الوهاب الكور المجندة وغيرها فى أيام الأمير محمد وابنيه المنذر وعبد الله وتوفى بإشبيلية وهو عامل عليها . (انظر ابن الأبار : الحلة ١/٢٤٠ — ٢٤١) ، كذلك نعرف مما ذكره ابن حيان نفسه فى القطعة الخاصة بإمارة عبد الله من كتاب المقتبس (ص ٥٠ — ٥١) أن عمر بن حفصون الثائر بكورة ريه كان قد أظهر الانقياد والطاعة فى أول ولاية عبد الله ابن محمد ، فقبل منه الأمير سنة ٢٧٥ « ٨٨٨ » وسجل له على عمل كورة ريه ولكنه أشرك معه فى حكمها عبد الوهاب بن عبد الرؤوف المذكور ، وتظاهر عمر بن حفصون بالقبول ولكنه لم يلبث أن عاد إلى النكث وخلع الطاعة وطرد عبد الوهاب وتفرد بكورة رية . ونعرف كذلك من أخبار هذه الأسرة ما يذكره صاحب القطعة مجهولة المؤلف فى تاريخ عبد الرحمن الناصر عن محمد بن عبد الوهاب بن عبد الرءوف ، إذ يذكر أن أول غزوة غزاها عبد الرحمن سنة ٣٠٠ (٩١٢) كانت إلى حصن المنتلون الذى كان الثائر سعيد بن هذيل معتصما به ، فضرب عبد الرحمن عليه الحصار ومازال به حتى استأمن ابن هذيل وأسلم الحصن بعد أن أرهقه الحصار ، فقبل منه عبد الرحمن وولى على الحصن عاملا من قبله هو محمد بن عبد الوهاب المذكور (انظر ص ٣٦ من النص العربى و ٩٩ من الترجمة الإسبانية) . ويزيدنا ابن الأبار أن محمد بن عبد الوهاب ولى كورة جيان ومات بها . وأخيراً نعرف من أفراد هذه الأسرة الوزير أبا وهب عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب

ابن عبد الرؤوف الذى اختصه ابن الأبار بترجمة طويلة ذكر فيها أن عبد الرحمن الناصر استوزره وصرفه فى الولايات وكان بصيراً بالعربية والنحو ، شديد التكبر ، وأورد جملة من شعره (الحلة ١/٢٤٠ – ٢٤٤ ؛ الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابرهيم ص ٣٢١) . كذلك ترجم ابن الأبار لأخيه غالب بن محمد بن عبد الوهاب الذى ولى خطة العرض وكان كاتبا للحكم المستنصر قبل أن يلى الخلافة ، وأورد قطعا من شعره (الحلة ١/٢٤٤–٢٤٥) . وانظر عن هذه الأسرة بوجه عام ليڤى بروفنسال : الأندلس فى القرن العاشر ص ١٠٣ .

(١١٧) عن أسرة بنى السليم انظر تعليقنا السابق رقم ٧ .

(١١٨) عن أسرة بنى بسيل انظر تعليقنا السابق رقم ١٩ .

(١١٩) عن عبد الواحد بن يزيد الإسكندرانى انظر التعليق رقم ١٢ .

(١٢٠) لاشك فى أن عبد العزيز بن هاشم المذكور هنا هو والد الوزير المشهور هاشم بن عبد العزيز الذى كان أكثر وزراء الأمير محمد حظوة لديه وقربا منه وأخيه أسلم بن عبد العزيز الذى ولى قضاء الجماعة لعبد الرحمن الناصر . وقد اختلف المؤرخون فى نسب هذه الأسرة المشهورة على ما سنفصله بعد عند التعليق على اسم هاشم بن عبد العزيز ، ويبدو لنا أنها من رهط عبد الله بن خالد الذى كان من أعظم أعوان عبد الرحمن بن معاوية الداخل عند قدومه إلى الأندلس وسيرد فيما بعد أن عبد العزيز بن هاشم هذا كان يلقب بسماد .

(١٢١) هو أبو الحجاج يوسف بن بخت الفارسى مولى عبد الملك بن مروان بن الحكم ، دخل الأندلس فى طالعة بلج ابن بشر القشيرى سنة ١٢٣ (٧٤١) ، وكان من رؤساء الموالى الأمويين بكورة دمشق (أى إلبيرة Elvira) هو وعبيدالله ابن عثمان وعبد الله بن خالد ، وكانوا قد حضروا واقعة شقندة Secunda مع يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والصميل بن حاتم ، وكان لهم فيها بلاء عظيم ، فكانوا من يوسف بأشرف المنازل ، ولما ترددت الأنباء بعزيمة عبد الرحمن بن معاوية على الجواز إلى الأندلس ووفد سفراؤه إلى هذه البلاد انضم يوسف بن بخت إلى هذه الدعوة وكان من القائمين بأمر عبد الرحمن المروجين لدعوته ، وهو الذى أخذ له بيعة جند الأردن (ريه أو مالقة Malaja) . ولما جاز عبد الرحمن البحر أقبل عليه عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ، فنقلاه إلى قرية طرش Torrox منزل أبى الحجاج يوسف بن بخت وأتاه هذا ، فانثالت عليه الموالى الأموية كلها ، وعرف له عبد الرحمن فضل سابقته بعد أن تمهد له الأمر ، فولاه حجابته ، وكان يستخلفه على قصر قرطبة عند غيابه ، ولما مات عبد الرحمن الداخل وخلفه ابنه هشام ظل قريب المكانة منه ، فعهد إليه الأمير ببعض مناصب القيادة ، فكان هو قائد الحملة التى توجهت إلى جليقية فى سنة ١٧٦ (٧٩٢) ، فالتقى ببرمود Vermudo الملقب بالكبير ملك جليقية وأشتوريش وألحق به هزيمة ساحقة ، وبلغ الفىء فى هذه الغزوة على ما يذكر بعض المؤرخين ٣٩,٠٠٠ (كذا ، وفيه مبالغة كبيرة بغير شك) . وتوفى بعد ذلك بطليطلة فى تاريخ لا نعرفه على وجه التحديد .

وكان ليوسف بن بخت ذرية نابهة أولها ابنه جهور بن يوسف الذى كان وزيراً للأميرين الحكم بن هشام الربضى

وابنه عبد الرحمن ، ويسميه صاحب « أخبار مجموعة » (شيخ الوزراء) فى أيام عبد الرحمن الأوسط ، وتوفى على ما سيذكر ابن حيان فى باب الوفيات فى سنة ٢١٩ أو ٢٢٠ (٨٣٤ — ٨٣٥) .

والذى ورد فى النص من أن « يوسف بن بخت » كان من وزراء عبد الرحمن بن الحكم يبدو لنا أمراً عسيراً على التصديق إذ هو يقتضى أن يكون عمر أبى الحجاج يوسف قد طال حتى جاوز المائة بكثير ، وهو شئ لو كان صحيحا للاحظه أحد ممن تحدثوا عنه وسجلوه ، ثم إننا لم نر أحداً من المؤرخين أثبت كونه وزيراً لعبد الرحمن الأوسط — فيما عدا النص الذى بين أيدينا — إلا ابن القوطية فى تاريخه (ص ٦٢) ، بينما تقف الأخبار التى جمعناها عنه عند غزوته السالفة الذكر لجليقية فى سنة ١٧٦ (٧٩٢) . وأرجح الظن عندنا هو أن هناك سهواً من الناسخ فى هذا المكان — فنحن نحسن الظن بمؤرخنا ابن حيان وبمرجعه فى هذا الموضع وهو أحمد بن محمد الرازى ، وكلاهما من أهل الضبط والتحقيق — وأن المقصود هنا ليس يوسف ابن بخت وإنما هو ابنه جهور بن يوسف بن بخت الذى توفى كما ذكرنا بين سنتى ٢١٩ و ٢٢٠ ، لا سيما وأن سائر المراجع تذكر جهور بن يوسف المذكور بين وزراء الأميرين الحكم وابنه عبد الرحمن . (انظر فى أخبار يوسف بن بخت وابنه جهور أخبار مجموعة ص ٦٦ ، ٧٦ ، ٨٥ ؛ ابن القوطية ص ٢٣ ، ٣٨ ، ٦٢ ؛ ابن عذارى : بيان ٢-٤٥ — ٤٦ ، ٦٣ — ٦٤ ؛ ابن الأبار : الحلة ٣٧٥/٢ ؛ المقرى: نفح ٣١٦/١ ، ٣١/٤ ، ٤٥ ، ٥١؛ ليفى بروفنسال : تاريخ ١٤٣/١ ؛ حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٢٣٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٦٦٦ ، ٦٦٨) . وقد توارث بنو جهور البختيون هؤلاء مناصب الوزارة وكبريات الخطط لأمراء بنى أمية وخلفائهم كما سوف نرى عندما يعرض ابن حيان فى هذه القطعة نفسها لنفر منهم .

(١٢٢) سوف يترجم ابن حيان لعبد الله بن أمية هذا ترجمة مفصلة فى معرض الحديث عن كتاب الأمير محمد .

(١٢٣) هو حسن بن عبد الغافر بن أبى عبدة حسان بن مالك بن عبد الله بن جابر ، وكان عبد الله بن جابر مملوكا لمروان ابن الحكم أبلى يوم مرج راهط بلاء حسنا فى صفوف الجيش المروانى مما حمل مروان على أن يمن عليه بإعتاقه ، وكان أول من دخل الأندلس من هذه الأسرة هو أبوه عبدة حسان بن مالك جد المذكور هنا ، دخل سنة ١١٣ (٧٣١) ، وكان له أولاد قتلوا بالمشرق ، لم يبق منهم إلا عبد الغافر لصغر سنه ، فنشأ فى المشرق مع عبد الرحمن بن معاوية وتأدب معه ، فلما قدم بدر مولى عبد الرحمن إلى مواليه الشاميين بالأندلس لتمهيد أمره فى هذه البلاد استراح بخبره إلى أبى عبدة فاستجاب له على الفور ، ووجه ابنه عبد الغافر إلى عبد الرحمن وأيده على أمره . فلما توطد الملك للداخل استوزر أبا عبدة وقدمه على جيوشه ، ثم استعمله على إشبيلية قائداً بها ، وعهد إليه بالتضييق على أهل باجة الثائرين على سلطته ، وأبدى أبو عبدة كفاية وحزما وانقاد له غرب الأندلس كله فظل يحكم هذه الرقعة خمسة أعوام حتى توفى بإشبيلية . أما عبد الغافر بن أبى عبدة والد الوزير المذكور هنا فإنه تصرف فى الوزارة كذلك لعبد الرحمن ، ثم عهد إليه الأمير هشام بن عبد الرحمن عند ولايته بقيادة الشرطة ، ويبدو أن عمره طال حتى أدرك إمارة الحكم بن هشام الربضى فكان صاحب أختامه ، وهى وظيفة استقل بها من قبل فى عهد هشام بن عبد الرحمن . وكان أخوه عبد العزيز يشركه أيضا فى الوزارة للحكم الربضى .

عن أبى عبدة حسان بن مالك انظر ابن عذارى : بيان ٤٨/٢ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٣٨ ، أخبار مجموعة ص ٧٦ المقرى : نفح ٤٥/٤ ؛ ابن خلدون : العبر ٣٤٣/٤ ؛ والدكتور حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٤٠٩ .

وقد تكاثرت سلالة الوزير أبى عبدة وأبنائه فى الأندلس وتولى الكثيرون منها أعلى مناصب الدولة ، على أنهم من الكثرة بحيث لا نستطيع استيفاءهم فى هذا التعليق ، ومما يزيد فى عسر الأمر أن المؤرخين الذين أشاروا إليهم يكتفون برفع أنسابهم إلى أبى عبدة دون تحديد لشجرات النسب وتسلسله مما لا يمكننا من التعرف على مدى قرابة بعضهم لبعض . ويكفى أن نذكر هنا أن ابن حيان فى الجزء الخاص بالأمير عبد الله من كتاب « المقتبس » (نشر أنطونيا ، ص ٥ — ٦) يقول : « ومن الغريب أن اجتمع فى بيت الوزارة فى أيامه أربعة رجال من وزرائه أقارب من بيت واحد من صميم الموالى آل أبى عبدة حسان بن مالك هم : أبو عثمان عبيد الله بن محمد بن أبى عبدة ، وأبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى بن أبى عبدة ، وسالم ابن على بن أبى عبدة ، وعبد الرحمن بن حمدون بن أبى عبدة المعروف بدحيم » . وقد كان أشهر هؤلاء القائد أبو العباس . أحمد بن محمد بن أبى عبدة الذى يعتبر من عباقرة القادة العسكريين والذى ظل طيلة أيام الأمير عبد الله يتردد بالحملات على الثائرين والناكثين بغير انقطاع ، فلما مات الأمير عبدالله وخلفه حفيده عبد الرحمن ظل فى خدمته ومازال يتردد بالحملات حتى استشهد أخيراً فى سنة ٣٠٥ . (٩١٧) فى موقعة قاشتره مورش Castro muros بعد أن أبلى أعظم البلاء ويلى القائد أبا العباس فى الشهرة أبو عثمان عبيد الله بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبى عبدة الذى تصرف للأمير عبد الله بن محمد فى الكور وحجابة الأولاد والمدينة والخيل والقيادة ، واستأذن فى الحج فأدى الفريضة وعاد فلزم داره وخمل ذكره بعد ذلك بتدبير من بدر بن أحمد الخصى الصقلى وصيف الأمير ، وقد ولى كورة جيان وظل يتردد بالحملات على الثوار ، وكان له فضل بناء كثير من الحصون منها حصن أندوشر Andujar ، وقد روى لنا ابن حيان فى المقتبس كثيراً من أخبار حملاته (الحلة السيراء ١٤٦/١ — ١٤٧ ؛ المقتبس ، نشر أنطونيا ص ٦ ، ٤٨ ، ٥١ — ٥٢ ، ٩٤ — ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٦) ، وكانت وفاته فى سنة ٢٩٦ (٩٠٩) .

ولاسم عبيد الله بن محمد الغمر المذكور أهمية خاصة فى التاريخ الأندلسى ، إذ من صلبه ينحدر الرئيس أبو الحزم جهور أول ملك من ملوك الطوائف فى قرطبة ومؤسس دولة الجهاورة التى حكمت عاصمة الأندلس القديمة بعد انتثار سلك الدولة المروانية. فأبو الحزم جهور هو ابن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد المذكور .

ونود بهذه المناسبة أن نصحح خطأ فى نسب بنى جهور وقع فيه بعض المؤرخين القدماء وأوقع فى اللبس والاضطراب كثيراً من الباحثين ، فالنسب الذى أوردناه هو الصحيح وهو الذى أثبته ابن حيان نفسه (كما ينقل عنه ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول : الجزء الثانى ص١١٧) ، وهو الذى اتفق عليه كذلك ثقات المؤرخين القدماء قريبو العهد بملك الأسرة الجهورية ، مثل الحميدى (جذوة المقتبس ؛ ترجمة رقم ٣٥٨ ص ١٧٦ وكذلك ص ٢٦ وأغلب الظن أنه ينقل فى هذا الموضع — كما ينقل فى كثير من صفحات كتابه — عن أستاذه ابن حزم وهو ما هو من الضبط والمعرفة الدقيقة بأنساب رجال الدولة المروانية وأخبارهم ، وعن الحميدى ينقل الضبى فى بغية الملتمس ص ١٣ و ص ٢٤٣ — ٢٤٤ ، ترجمة ٦٢٣ ، وعبد الواحد المراكشى فى المعجب ص ٥٧) ، وابن بشكوال فى كتاب الصلة (ترجمة رقم ٢٩٧ ص ١٣٢) ، وابن الأبار فى الحلة (٢٤٥/١ ، وهو ينقل هذا النسب عن كتاب أحمد بن محمد بن موسى الرازى « الاستيعاب » فى أنساب موالى بنى أمية) ، ولكننا مع ذلك نطالع فى كتابى « البيان المغرب » لابن عذارى المراكشى و « أعمال الأعلام » لابن الخطيب نسبا مغايراً لما ذكرنا . أما ابن عذارى فيذكر نسب أبى الحزم جهور أول ملوك دولة بنى جهور فى قرطبة على النحو التالى :

جهور بن محمد بن جهور بن عبد الملك بن جهور بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الغمر بن يحى بن عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن أبى عبدة » (البيان ٣/١٨٥) .

ولو قارنا بين الجدول الأول الذى أثبتناه (عن ابن حيان والحميدى – أو ابن حزم – وابن بشكوال والرازى) وبين جدول ابن عذارى (ولسنا ندرى من أين نقله فهو لا ينص على مصدره هنا) لوجدنا أن ابن عذارى أضاف إلى سلسلة النسب الأولى خمسة أسماء لا أقل وهى : « عبد الملك بن جهور » الذى وضعه بين جهور الأكبر وعبيد الله (وهو هنا يحرف الاسم كذلك إلى عبد الله) ، ثم « أحمد » بين عبيد الله المذكور ومحمد ، وأخيراً « يوسف بن بخت » بن عبد الغافر وأبى عبدة .

ويضيف ابن عذارى إلى ذلك توضيحا يقول فيه إن جده بخت بن أبى عبدة كان من الفرس مولى لعبد الملك بن مروان ، ودخل يوسف بن بخت إلى الأندلس قبل دخول عبد الرحمن بمدة وكان أحد كبار الموالى بقرطبة . (البيان ٣/١٨٥–١٨٦) .

أما ابن الخطيب فهو يذكر هذا النسب على النحو التالى : « أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن أحمد ابن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن أبى عبدة » (أعمال الأعلام ص ١٤٧) ، ثم يضيف كلمة عن دخول جدهم « يوسف بن بخت بن أبى عبدة إلى الأندلس وعظيم أثره وسعة باعه » . . إلى آخره . وبتأمل هذا الجدول نرى أن ابن الخطيب كان أكثر « تواضعا » ، فهو لم يزد على سلسلة النسب التى أوردناها أولا إلا ثلاثة اسماء : « أحمد » ابن عبيد الله ومحمد ، ثم « يوسف بن بخت » بن عبد الغافر وأبى عبدة .

وقد بدا أمر هذا النسب الملتف المعقد مشكلة أمام الدكتور حسين مؤنس حينما رأى ابن الأبار يترجم فى الحلة السيراء (٢/٣٧٥) للوزير محمد بن عبد الملك بن جهور بن يوسف بن بخت ، فعلق على هذا النسب قائلا : « يلاحظ التناقض بين ما يذكره ابن الأبار هنا من أن جهور من أحفاد يوسف بن بخت وما قاله قبلا من أن الجهاورة من أحفاد حسان بن مالك المعروف بأبى عبدة . وإلى أن نعثر على الجزء الأول من تاريخ ابن حيان لن نستطيع القطع فى الموضوع » . (حاشية رقم ١) .

ويبدو لنا أن الدكتور حسين مؤنس – وهو بدوره مؤرخ واع مدقق – لم يكتب هذا الكلام عما سماه « تناقض » ابن الأبار إلا وفى ذهنه سلسلتا النسب اللتان أوردهما ابن عذارى وابن الخطيب ، وإلا فان الأبار لم يتناقض فى شئ ، فهو لم يذكر أبداً أن لأسرة يوسف بن بخت أدنى صلة بالجهاورة الذين قدر لهم أن يحكموا قرطبة . أما ما يقوله الدكتور مؤنس من أن علينا أن ننتظر حتى نعثر على الجزء الأول من تاريخ ابن حيان حتى نستطيع القطع فى الموضوع فإن الأمر أيسر مؤونة من هذا ، وفى وسعنا أن نقطع فيه دون حاجة إلى هذا الانتظار ، بل يكفينا أن نتأمل ما تجمع لنا من أخبار هذه النسبة من المراجع ونقارن بينها ونقوم هذه الأخبار بما تستحقه من ثقة .

فن الواضح بعد ما نقلناها أن هناك بيتين من كبار بيوتات الموالى الأمويين وجدا فى الأندلس منذ عصر مبكر : هما بيت يوسف بن بخت الفارسى مولى عبد الملك بن مروان بن الحكم ، الداخل فى طالعة بلج بن بشر القشيرى سنة ١٢٣ (٧٤١) (انظر تعليقنا السابق رقم ١٢١) ، وبيت أبى عبدة حسان بن مالك الداخل إلى الأندلس فى سنة ١١٣ (٧٣١) ، وقد كان لمؤسسى هذين البيتين دور كبير فى تمهيد دولة عبد الرحمن بن معاوية الداخل عند قدومه إلى الأندلس وبلاء عظيم فى توطيد

دعائم الدولة المروانية والكفاح ضد الثائرين بها الساعين لنقضها ، مما جعل عبد الرحمن يصطنع كلا الرجلين ويختصهما بثقته ، ومضى ذلك تقليداً فى أسرته فجرى أمراؤها على اصطناع رجال من بنى أبى عبدة وبنى بخت حتى نهاية دولتهم تقريبا . وهما أسرتان مختلفتان متميزتان تماما ، ولكن تصادف أن تسمى أفراد من كلتيهما باسم جهور ، أولهم جهور بن يوسف بن بخت ثم حفيد هذا : جهور بن عبد الملك بن جهور البختى ، وكلاهما تولى الوزارة ، أما الأسرة الثانية ؛ بيت أبى عبدة فأول من تسمى فيها باسم جهور هو ابن عبيد الله بن محمد بن الغمر ، وتبعه حفيده أبو الحزم جهور أول من ولى ملك قرطبة بعد انفراط عقد الدولة المروانية ومنشئ دولة الجهاورة .

وكان هذا الاتفاق فى اسم (جهور) بين أفراد من البيتين هو الذى جعل الأمر يختلط ويلتبس على ابن عذارى وابن الخطيب فيخلطان فى نسب الجهاورة هذا التخليط الغريب ، فابن الخطيب يقحم اسم يوسف بن بخت بين عبد الغافر وأبى عبدة ، ويجعل بختا ابن أبى عبدة ، ثم يمضى متحدثا عن يوسف المذكور وأعماله ، فضلا عن إقحام اسم « أحمد » فى موضع آخر ، ولذلك علة هو أنه وجد فى بيت بنى أبى عبدة أجداد الجهاورة اسم مشهور الذكر طائر الصيت هو القائد أحمد بن محمد بن عيسى ابن أبى عبدة الذى كان أعظم قواد الأمير عبد الله بن محمد وعبد الرحمن الناصر من بعده ، ولعله أعظم من أنجبهم الأندلس من القادة العسكريين على الإطلاق ، فلم ير ابن الخطيب بأسا فى أن يقحمه فى سلسلة النسب التى أوردها . أما ابن عذارى فقد كان تخليطه أشد ، فهو فضلا عن الأسماء التى أقحمها موافقا ابن الخطيب فيها أضاف من حصيلته اسمين آخرين هما « عبد الملك بن جهور » ولا شك فى أن ذلك راجع إلى أن من بين البختيين وزيراً اشتهر فى أيام الأمير عبد الله بن محمد هو « جهور بن عبد الملك » وابنا له يدعى عبد الملك بن جهور ولى الوزارة لعبد الرحمن الناصر ، فلم ير ابن عذارى بدوره بأسا — وقد اختلط عليه أمر الأسرتين — فى أن يضيف « عبد الملك بن جهور » إلى جدول نسب بنى أبى عبدة .

هذا وقد وقع ليڤى بروفنسال فى هذا الخلط أيضا حينما نسب بعض وزراء عبد الرحمن الناصر البختيين إلى بنى أبى عبدة (انظر كتابه الأندلس فى القرن العاشر ص ١٠٠ — ١٠١) .

(١٢٤) جاء فى النص المنشور من كتاب ابن القوطية موجز لهذه الفقرة ، وقد اختصرت فى أقل من سطرين ، وسنورده فيما يلى حتى يتجلى مدى الفرق بين هذا النص المطبوع ، وما ينقله ابن حيان عن ابن القوطية : « وعبد الرحمن أول من رتب اختلاف الوزراء الى القصر والتكلم فى الرأى على ما هو جار إلى اليوم » (انظر تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦١) . وما يورده ابن حيان حافل بتفاصيل على أكبر جانب من القيمة والخطر فى بيان ترتيب جلوس الوزراء والطريقة التى كان يجرى بها اتصال الأمير أو الخليفة بوزرائه ، وهى أشبه ما تكون بما نعرفه فى عصرنا الحاضر من الاتصال بين رئيس الدولة وأجهزة الحكم المختلفة .

(١٢٥) عن عبد العزيز بن هاشم انظر تعليقنا السابق رقم ١٢٠ .

(١٢٦) ربما كان عبد الواحد بن يزيد الإسكندرانى من أول من عهد إليهم بمنصب « صاحب المدينة » فيما نعرف ، فالكثير من هذه الخطط التى استقرت رسومها بعد ذلك فى ظل خلافة بنى أمية وتأصلت فى الأندلس حتى نهاية الإسلام فى تلك البلاد إنما بدأت فى الظهور والتحدد فى أيام عبد الرحمن بن الحكم الأوسط ، إذ كان هو الذى أعطى الدولة المروانية رونقها

ونظم آيينها ورتب طبقات الخدمة فيها . أما خطة المدينة فيبدو أنها كانت بمثابة الحكم والإشراف على الأمن العام فيها ، وصاحب المدينة فى قرطبة كان هو حاكمها العام أو « محافظها » كما نقول اليوم فى مصر . وكان أصحاب الشرطات الثلاث : الشرطة العليا والوسطى والسفلى يخضعون له ويأتمرون بأمره ، وإن كنا لم نستطع حتى الآن أن نميز تمييزاً واضحا بين اختصاصات صاحب المدينة وأصحاب الشرط المذكورة . ويذكر ليفى بروفنسال نقلا عن ابن حيان فى القسم المفقود من « المقتبس » الذى يؤرخ فيه لعصر الأمير الحكم الربضى بن هشام ومعظم إمارة عبد الرحمن الأوسط (ورقة ١٤٢ وجه) أن « والى المدينة » فى عهد هذا الأمير الأخير كان يتقاضى وظيفة أو مرتباً شهريا يبلغ مائة دينار . وقد كان هناك خلال عصر الأمارة الأموية صاحب واحد للمدينة ، فلما اتسعت خطط قرطبة وامتد العمران فيها بعد إعلان الخلافة وبناء مدينة الزهراء ، أصبح هناك صاحب لمدينة الزهراء مستقل العمل عن صاحب المدينة فى قرطبة ، وحدث مثل ذلك حينما بنى المنصور بن أبى عامر مدينة الزاهرة ، إذ عين لها « صاحب مدينة » خاص أيضا . وسوف يرد فى هذا الجزء الذى ننشره من « المقتبس » من أخبار من ولوا هذه الخطة ما يوضح لنا الكثير من جوانبها وتفاصيل أعمالها ، وفى الجزء الذى نشره الأستاذ عبد الرحمن الحجى المتعلق بسنوات من حكم الخليفة الحكم المستنصر تفاصيل أخرى على أكبر قدر من الخطر والطرافة ، ويكفى أن نذكر أن ابن حيان يشير إلى هذه الخطة أو المتقلدين لها فى أكثر من ثلاثين موضعا فى هذا الجزء الصغير من كتابه . ومما يجدر بالذكر أن هذه الخطة الأندلسية قد انتقلت إلى إسبانيا المسيحية المجاورة كما انتقل كثير من النظم بأوضاعها ورسومها وأسمائها العربية بحكم التفوق الحضارى للمسلمين الأندلسيين على جيرانهم فى دول إسبانيا المسيحية ، فإذا بنا نجد منذ أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) فى مملكتى نبره Navarra وأرغون Aragon منصبا إداريا قضائيا مقابلا لخطة « صاحب المدينة » فى الأندلس الإسلامى وكانوا يسمونه zabalmedina أو مختصراً فى صورة Zalmedina (وهما لفظان مأخوذان من مقابلهما العربى كما هو واضح) ، ثم تطورت تسمية هذه الوظيفة فدعى متوليها Justicia Mayor وقد أفرد المستشرق الإسبانى خوليان ريبيرا Julian Ribera هذه الخطة فى مملكة أرغون بدراسة تاريخية بديعة أثبت فيها أصولها العربية الأندلسية فى كتابه « أصول خطة « الخوستيثيا » فى أرغون » ، ط . سرقسطة سنة ١٨٩٧ :

Julian Ribera y Tarrago : Origenes del Justicia de Aragon, Zaragaza, 1897.

انظر كذلك ليفى بروفنسال : تاريخ ١٥٨/٣ — ١٥٩ .

(١٢٧) وردت هذه الفقرة وقد اختصرت كذلك اختصاراً شديداً ولحقها كثير من التحريف والتشويه فى النص المطبوع من كتاب ابن القوطية (ص ٧٤ — ٧٥) . هذا وقد أورد المقرى فى نفح الطيب (٨٢/٥) خبراً جرى بين الإسكندرانى هذا ومحمد بن سعيد الزجالى يفهم منه كيف كان اشتغال الإسكندرانى فى شبابه بالغناء مريباً له كما قال له الحاجب عيسى بن شهيد . يقول المقرى : « وحضر [الزجالى] مع الوزير عبد الواحد بن يزيد الإسكندرانى فى مجلس فيه رؤساء فعرض عليهم فرس مطهم ، فتمثل فيه عبد الواحد بقول امرئ القيس :

* بريد السرى بالليل من خيـــل بربرا *

ففهم الزجالى بأنه عرض بأنه من البربر ، فلم يحتمل ذلك ، وأراد الجواب فقال مديجا لمـــا أراده ومعرضا : أحسن عندى من ليل يسرى بى فيه على مثل هذا يوم على الحال التى قال فيها القائل :

ويوم كظل الرمح قصر طـوله ، دم الزق عنـا واصطفاق المزاهـر

وإنما عرض للإسكندراني بأنه كان يشهد مجالس الراحات في أول أمره ومعرفة الغناء » .

(١٢٨) أورد لنا ابن حيان في هذا النص أخباراً جديدة لم تكن معروفة من قبل عن أولية بيت أمية ابن يزيد الذين توارثوا الكتابة والوزارة وغيرها من المناصب الكبرى لأمراء بني مروان . أما الأول أمية بن يزيد فقد دخل الأندلس في طالعة بلج بن بشر القشيري من الشاميين في سنة ١٢٣ (٧٤١) ، فاتصل بخالد بن زيد كاتب يوسف ابن عبد الرحمن الفهري ووزيره ، وتلمذ عليه واشتغل بالكتابة تحت نظره ، فلما توطد ملك الأندلس لعبد الرحمن بن معاوية الداخل صار خالد بن يزيد إلى كتابته ، غير أنه نفر بعد ذلك عن القرار بالأندلس وسأل الإذن بالخروج إلى المشرق ، ولعله فعل غضبا لمولاه يوسف بن عبد الرحمن حينما أوقع به عبد الرحمن الداخل وقتله ، فأذن له الأمير ، واستكتب بعده أمية بن يزيد واشتمل عليه لكونه من مواليه ، ويروى ابن الأبار هنا خبراً يصور مدى وفاء أمية بن يزيد لأستاذه خالد ، إذ يقول إن الأمير عبد الرحمن أمره بأن يكتب كتاباً بسراح خالد وإخراجه من الأندلس فأبى أمية ذلك وقال : معلمي وولي الإحسان قبل يكون أول شيء يجرى له على يدى الكتابة بخروجه عن أهله وماله ؟ ! وارتفعت مكانة أمية بعد أن استقل بالكتابة وأصبح في عداد ما يشاورهم الأمير ويؤثر آراءهم ، وقيل إنه كان ممن اتهموا في ثورة يحيى بن يزيد اليحصبي ، فاتفق أن مات قبل قتل اليزيدى واطلاع عبد الرحمن على ما كان خافيا من أمر تلك المؤامرة (انظر ابن الأبار : الحلة ٢/٣٧٣ ؛ نفس المؤلف ؛ إعتاب الكتاب ص ٧١ - ٧٢ ؛ ابن عذارى : بيان ٢/٥٨ ؛ المقرى : نفح ٤/٤٥) ، وكانت وفاة أمية في سنة ١٥٤ (٧٧١) على ما يذكر ابن حيان هنا .

وأعقب أمية بن يزيد ولداً هو محمد بن أمية الذى اشتغل بالكتابة أيضا للأميرين هشام وابنه الحكم ، غير أنه اتهم بالميل إلى عمه سليمان بن عبد الرحمن بن معاوية الذى بدأ ثورته على هشام أخيه وواصلها في عهد الحكم ، بل إنه كان على ما يظهر هو المحرض لسليمان على مواصلة العصيان والثورة ، ويروى ابن سعيد بهذه المناسبة عن « تاريخ ابن حيان » نفسه نصا له أهميته فيما نحن بصدده ، إذ يقول : « وكان سليمان قد هم بالركون [أى إلى الطاعة والانقياد] حتى كتب إليه ابن أمية :

لا تقبلن عهوداً لا وفـاء لهـا ، إن المدير عليك الرأى شيطان
إن الصدور التي استعذبت أولها ، أعجازها لك إن حصلت خطبان
كيف المقام بأرض ليس يملكها ، ذاك المبرأ من نقص سليمان »

(المغرب ١/٧١ - ٧٢ . وإنما أوردنا هذا النص الذى ينقله ابن سعيد عن « المقتبس » لأنه قد يكون من بين ما ذهب في القطع الذى لحق آخـر الصفحة التي جاء فيها ذكر بني أمية بن يزيد من الأصل المخطوط ، وبهذا يكون مكملا للفجوة التي لحقت هذا الموضع كما نبهنا على ذلك في هذا الموضع من حواشي تحقيق النص) . وكانت وفاة محمد بن أمية بن يزيد في سنة ٢٢٦ (٨٤١) على ما يذكر ابن حيان وهو خامل معزول عن الكتابة .

أما عبد الله بن محمد بن أمية بن يزيد فقد ولى الكتابة والوزارة للأميرين عبد الرحمن بن الحكم وابنه محمد ، وتصرف قبل الوزارة في الولاية والعرض (ابن الأبار : الحلة ٢/٣٧٣) ، وأثنى عليه ابن القوطية وقال إن الأمير محمداً عند ولايته

اقره على الكتابة فتصرف فيها نحو عامين (٢٣٨ – ٨٥٢/٢٤٠ – ٨٥٥) ، ثم أقعدته علة عن الركوب أعواما أقام الخدمة فيها قومس بن أنتنيان إلى أن توفى عبد الله سنة ٢٤٦ (٨٦٠م) ، فولى قومس الكتابة بعده (انظر ابن القوطية : تاريخ ص ٦٢ ، ٨٢ ، ٨٥ ؛ وابن الأبار : حلة ٣٧٣/٢) .

واشتهر من بيت بنى أمية هؤلاء بعد عبد الله المذكور ابناه : محمد الذى ولى الوزارة لعبد الرحمن بن محمد الناصر وتوفى سنة ٣٠٩ (٩٢١ – ٩٢٢) (انظر ابن عذارى : بيان ١٨٢/٢) ؛ وعبد الملك بن عبد الله بن أمية الذى سيقص علينا ابن حيان فى هذا الجزء من « المقتبس » جملة من أخباره ، ونعرف منها أن الأمير محمداً ولاه « الكتابة العليا » بعد وفاة حامد بن محمد الزجالى ، ولم يكنْ يستكمل أدواتها مما أثار عليه حسد كثير من رجالات الدولة وتشنيعهم عليه ، وكان أشدهم فى ذلك الوزير هاشم بن عبد العزيز ، ولكن الأمير محمداً تمسك به ولم يقبل فيه قول أعدائه ومنافسيه ، ثم ولى الوزارة والقيادة للأمير عبد الله بن محمد ، وقتله المطرف بن الأمير عبد الله فى سنة ٢٨٢هـ (٨٩٥) فى خبر طويل يقصه ابن حيان فى الجزء الذى نشره أنطونيا من المقتبس (انظر ص ٥ ، ٧٩ – ٨٢ ، ١٠٨ ، ١١١ ؛ ابن عذارى : البيان ١٢٤/٢ ، ١٥١ ، ١٥٢ ؛ العذرى : جغرافية ص ١٠٣) . ثم مروان بن عبد الملك بن عبد الله بن أمية الذى ولى القيادة بعد أبيه حتى سخط عليه الأمير عبد الله فقبض عليه وسجنه ثم قتله سنة ٢٨٤ (٨٩٧) (المقتبس ص ٤ ، ١١٤ ، ١١٨ ، ١٢٢) .

كذلك يبدو أنه كان من أفراد هذا البيت وليد بن أمية بن يزيد الذى سيذكره ابن حيان فى الجزء الخاص بالوفيات ، قائلا إنه توفى سنة ٢١١ (٨٢٦ – ٨٢٧) وإن كان مؤرخنا لا ينص صراحة على أنه من هذا البيت ولا يزيدنا بيانا بشئ من أخباره .

(١٢٩) لعله يعنى محمد بن موسى الغافقى الذى سيشير إليه ابن حيان عند كلامه عن الوفيات فى آخـر هذا الفصل ، وسيذكر المؤرخ فى ذلك الموضع أنه ولى الوزارة والكتابة وأنه توفى سنة ٢١٥ (٨٣٠) ولم نجد فى المراجع الأخرى ما يزيدنا بيانا عنه .

(١٣٠) لم نعثر فى المراجع الأخرى ما يزيدنا معرفة بكليب الكاتب هذا ، فيما عدا إشارة عابرة وردت فى « الجمهرة » لابن حزم (ص ٩٤) جاء فيها أن من بين ولد عبد الرحمن بن معاوية الداخل رجلا يدعى مسلمة ، وكان يلقب بكليب ، وإليه تنسب أرحى كليب بقرطبة على الوادى الكبير ، ووصفه ابن حزم بأنه « الكاتب » وقال إن عقبه انقرض فى سنة ٤٢٢ (١٠٣١) فى خبر طريف يدلل به ابن حزم على فائدة علم النسب (الجمهرة ص ٦ ، ٩٤) فلعل « كليبا الكاتب » الذى يذكره ابن حيان هو نفس الذى يتحدث عنه ابن حزم .

(١٣١) لم يرد هذا الخبر عن محمد بن سعيد الزجالى فى النص المنشور من كتاب ابن القوطية ، وقد سبق أن نبهنا قبل ذلك إلى أن ابن حيان إنما يرجع إلى أصل أوسع بكثير من ذلك الذى وصل إلينا .

(١٣٢) فى ترجمة محمد بن سعيد الزجالى وأخباره (وما ذكره ابن حيان هنا يعتبر أوفى ما كتب عنه) انظر : الزبيدى

طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٨٣ ؛ ابن الأبار : إعتاب الكتاب ص ١٧٢ — ١٧٤ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/٣٣٠—٣٣١ المقرى : نفح ٥/٨١ — ٨٢ ؛ السيوطى : بغية الوعاة ؛ مفاخر البربر ص ٧٦ .

(١٣٣) نفزة إحدى قبائل البتر من البربر ، والبربر ينقسمون إلى بطنين كبيرين : البتر والبرانس ، والأولون ينتمون إلى مادغيس الأبتر بن بركان (انظر مفاخر البربر ص ٧٦) ، وقبيل نفرة ينتمى إلى نفراو (ويوضح ابن حزم هنا نطق هذه الكلمة فيقول : بالسين بين الزاى والشين ، أى أنه حرف أقرب إلى الـ (J) الانجليزية أو الفرنسية التى تكتبها اليوم هكذا « جـ » (بن لوى الكبير بن زجيك بن مادغيس « أو مادغس » ابن بر (الذى يسميه صاحب مفاخر البربر : بركان)(انظر ابن حزم: جمهرة الأنساب، ص ٤٩٥ — ٤٩٧ ؛ ومفاخر البربر فى الموضع المشار إليه قبل ؛ وابن خلدون : العبر ٦/٩٠) . أما بنو يطفت (والتسمية عند ابن حزم « يطوفت » وعند ابن خلدون « تطوفت ») فهم من ولد نقراو المذكور ، ومع ذلك فإن ابن حزم جعل بنى الزجاليين لا من نفزة وإنما من مديونة بن تمزيت بن ضرى بن زجيك بن مادغس (جمهرة ص ٥٠٠) . ووافق صاحب مفاخر البربر ما يذكره ابن حيان فى النص من أن الزجاليين ينتهون إلى نفزة (ولو أن لفظ « الزجالى » ورد فى هذا الموضع خطأ : « الرجال ») .

(١٣٤) عبد الملك بن قريب بن على بن أصمع الباهلى المعروف بالأصمعى هو اللغوى المشهور المتوفى بمرو من خراسان سنة ٢١٦ (٨٣١) ، وكان معروفا بحضور البديهة وقوة الذاكرة ، تروى عنه نوادر كثيرة فى هذا الباب (انظر فى ترجمته : ابن الأنبارى : نزهة الألباب ص ١٥٠ — ١٧٢ ؛ الزبيدى : طبقات ص ١٨٣ — ١٩٢ ؛ الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ١٠/٤١٠ — ٤٢٠ ؛ الذهبى : العبر فى خبر من غبر ١/٣٧٠ ؛ السيوطى ؛ بغية الوعاة ، ص ٣١٣ ؛ وراجع بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ٢/١٤٧ — ١٥١) .

(١٣٥) ليس من المعقول ما يذكره ابن حيان هنا من أن محمد بن سعيد الزجالى كتب للأمير محمد بن عبد الرحمن ، إذ أنه توفى — كما سيذكر ابن حيان نفسه — فى سنة ٢٣٢ أو فى ٢٢٨ ، أى قبل أن يلى محمد الإمارة بست سنوات على الأقل ولسنا نظن أن مثل هذا التناقض يغيب على ابن حيان ، وربما يكون فى العبارة سقط وأن تكون صحتها : « وكتب [ابناه] لابنه محمد بعده » .

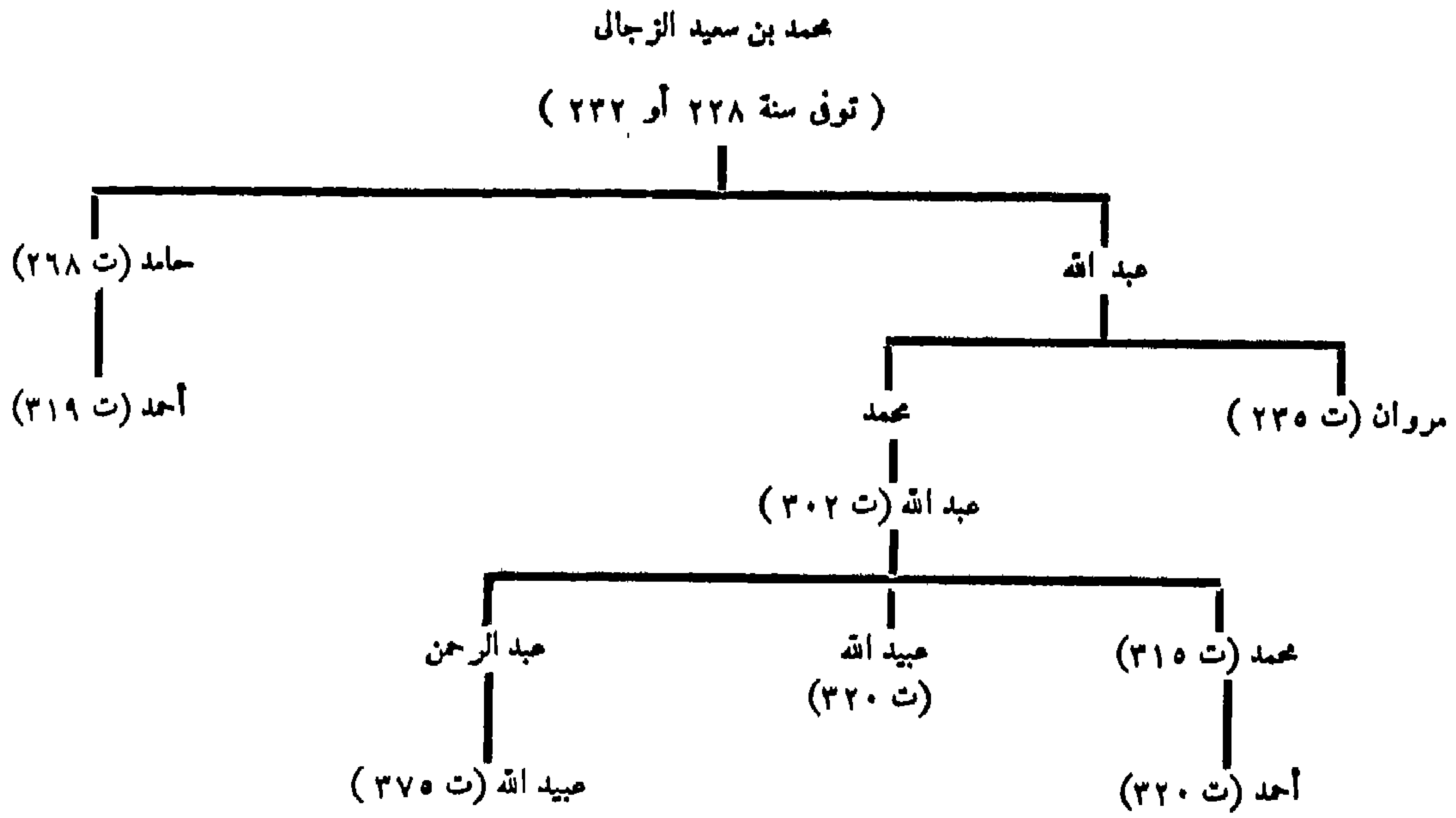
(١٣٦) سيذكر ابن حيان جملة من أخباره فى هذا الجزء من المقتبس . وانظر كذلك ابن القوطية ؛ تاريخ ص ٨٣—٨٥ ، ابن سعيد : المغرب ١/٣٣١ ؛ المقرى : نفح ٥/٨٢ — ٨٣ . وقد عرف من ولده من يسميه ابن عذارى « أحمد بن حامد الزجالى » المتوفى سنة ٣١٩ (٩١٣) فى أيام عبد الرحمن الناصر ، دون أن يوضح لنا المنصب الذى كان يتولاه (البيان ٢/٢٠٦) .

(١٣٧) فى ترجمة عبد الله بن محمد الزجالى المذكور انظر الخشنى : قضاة ص ١٥٨ ، ١٧٣ ابن القوطية : تاريخ ص ١٠٤ ؛ ابن حيان : المقتبس (نشر أنطونيا) ص ٦ ؛ ابن عذارى : البيان ٢/١٢٠ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦٥ ؛ ابن الأبار : إعتاب الكتاب ص ١٧٢ — ١٧٤ ويذكر ابن الأبار فى هذه الترجمة نقلا عن « المقتبس » لابن حيان أن الامير عبد الله بن محمد كان قد عزل عبد الله بن محمد الزجالى عن خطتى الوزارة والكتابة فى بعض أوقاته لموجدة وجدها عليه ثم أقاله

بعد مديدة وأعاده الى خطته وكان محببا للناس فأبدوا فرحاً لرجعته . ثم يروى قطعتين لابن عبد ربه تصوران ذلك ؛ والقطعة مجهولة المؤلف فى تاريخ عبد الرحمن الناصر ص ٤٧ من النص العربى و ١١٤ من الترجمة .

(١٣٨) عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد الزجالى ، ذكره ابن عذارى فى مواضع عديدة من البيان ، فقال إنه ولى خطة العرض فى سنة ٣٠٨ (٩٢٠ - ٩٢١) ، وولى الخزانة لعبد الرحمن الناصر فى سنة ٣١٦ (٩٢٨) . (انظر البيان ١٥٩/٢ ، ١٨٠ ، ١٩٧) . هذا وقد ذكر ابن عذارى كذلك أخاً له يدعى محمد بن عبد الله بن محمد الزجالى ولى خزانة المـال فى سنة ٣٠٧ (٩١٩ - ٩٢٠) والوزارة لعبد الرحمن الناصر فى سنة ٣١٤ (٩٢٦) وتوفى فى السنة التالية . (البيان ١٧٥/٢ ، ١٩٢ ، ١٩٥) . أما « مهمات سنة ٣٢٩ » التى يشير ابن حيان إلى تقديم عبد الرحمن بن عبد الله الزجالى فيها بتكليف من الخليفة عبد الرحمن الناصر فلم نستطع أن نعرف أى نوع من المهمات يعى المؤرخ ، فالمراجع التاريخية التى بين أيدينا تصمت عن تفسير ذلك . وأغلب الظن أنها كانت من قبيل السفارات التى وجه بها عبد الرحمن الناصر إلى بعض جيرانه ، ربما فى الشمال الافريقى .

(١٣٩) الواقع أن الذين نبغوا من هذا البيت البربرى الأصل كثيرون أشار ابن حيان هنا إلى بعضهم وذكر آخـرين فى مواضع أخرى من كتابه ، وفى غير كتاب ابن حيان من كتب التاريخ والتراجم أخبار كثيرة عن زجاليين ولوا مناصب كبرى فى الدولة أو اشتهروا بالعلم والفقه ، نذكر من بينهم مروان بن عبد الله الزجالى الذى سيذكره ابن حيان نفسه فى وفيات سنة ٢٣٥ (٨٤٩ - ٨٥٠) ؛ وأحمد بن محمد الزجالى الذى يذكر صاحب القطعة المجهولة المؤلف فى تاريخ الناصر (ص ٨٣ من النص و ١٥٧ من الترجمة) أن الخليفة عبد الرحمن ولاه على مدينة إشبيلية ؛ وعبيد بن عبد الله الزجالى (ويبدو أنه أخو عبد الرحمن ومحمد المذكورين فى الحاشية السابقة) وقد ولى فى أيام عبد الرحمن الناصر خطط العرض والخيل والمواريث والبنيان (ابن عذارى : بيان ١٩٣/٢ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٨) وكانت وفاته سنة ٣٢٠ (٩٣٢) عن إحدى وأربعين سنة ؛ وعبيد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الزجالى الذى كان وزيراً للحكم المستنصر (القاضى عياض : ترتيب المدارك ، تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى ، الرباط ١٩٦٥ ، ترجمة رقم ١١٣٦ = ٥٥٣/٢ من طبعة بيروت (حيث يرد الاسم عبد الله) ، وهذا هو نفسه الذى يترجم له ابن الفرضى فى تاريخه (رقم ٧٣٠) باسم أبى بكر عبد الله ابن عبد الله الزجالى ، وقال انه كان وزيراً للحكم المستنصر وإنه كان زاهداً عابداً وكانت وفاته سنة ٣٧٥ (٩٨٥ - ٩٨٦) وقد أشار ابن حيان فى جزء آخر من « المقتبس » نفسه إلى « عبيد الله بن عبد الله الزجالى » ذاكراً إياه منبين وزراء الحكم المستنصر (نشر الحجى ، ص ٨٢) . وفيما يلى جدول تقريبى بأنساب من عثرنا على أخبارهم من بيت الزجاليين .



وفى أواخر أيام الدولة الأموية نسمع عن وزير من أسرة الزجاليين اشتهر بكنيته وإن اختلف فيها المؤرخون : فابن بسام يدعوه أبا الوليد الزجالى (الذخيرة ، القسم الأول ٢٨٧/١) ، وابن خاقان يدعوه أبا مروان (قلائد العقيان ص ١٥٢ وعنه نقل المقرى فى النفح ٢-١٦١) ، وقد أعطى هذا الوزير اسمه للحير (أو المتنزه المعروف فى خارج باب اليهود أو باب الهدى فى قرطبة . وفى ديوان ابن قزمان المتوفى سنة ٥٥٥ (١١٦٠) زجلان فى مدح من يدعوه أبا الوليد الزجالى (انظر ديوان ابن قزمان ، بتحقيق نيكل ، مدريد سنة ١٩٣٣ ، رقمى ٢٢ (ص ٥٥ - ٥٧) و ٨٩ (ص ٢١٢-٢١٤) .

وأخيراً ينبغ من بنى الزجالى على أيام الموحدين أديب يجدد ذكرى آبائه هو أبو يحيى عبيد الله بن أحمد بن محمد بن أحمد ابن محمد بن عبيد الله الزجالى الذى ولد بقرطبة سنة ٦١٧ أو ٦١٨ (١٢٢٠ - ١٢٢١) ودرس بها ثم تنقل فى بعض مدن الأندلس واستقر أخيراً فى مدينة مراكش حتى وفاته سنة ٦٩٤ (١٢٩٥) . وهو صاحب كتاب « رى الأوام ومرعى السوام فى نكت الخواص والعوام » ، وهو يشتمل على مجموعة ضخمة من أمثال العوام فى الأندلس أفردها بالدراسة الباحث المغربى الدكتور محمد بن شريفة فى رسالته التى تقدم بها للحصول على إجازة الدكتوراه من كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وقد ألحق الدكتور بن شريفة بدراسته نص الجزء الخاص بالأمثال العامية بعد أن حققه تحقيقا علميا ممتازاً . وقد أفدت من هذه الدراسة فى بعض ماكتبته حول الزجاليين ، فقد استوفى الدكتور بن شريفه الكلام فى ذلك فى الجزء الأول من دراسته المذكورة (الفصل الأول ص ١ - ٥٠ من النسخة المكتوبة على الآلة الكاتبة ، سنة ١٩٦٨) . وقد تفضل المؤلف بإهدائى مشكوراً هذه النسخة من بحثه القيم الذى نرجو أن ينشر قريبا .

(١٤٠) لا تعرف فى إسبانيا اليوم مدينة ولا اقليم بهذا الاسم ، مع أن فى كتب الجغرافيين الأندلسيين ما يدل على أنها كانت مدينة أزلية » (أى قديمة الإنشاء) بمقربة من إستجه Acija . ومنطقة تاكرونا (أو تاكرنا كما تعرف فى الشائع) هى التى تشمل اليوم الإقليم الجبلى المحيط بمدينة رندة Ronda الواقعة على بعد نحو مائة كيلو متر إلى غرب مالقة

Malga (انظر مادة « تاكرنا » فى الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى ص ٦٢ من النص العربى و ٧٨ من الترجمة الفرنسية ، وما كتبه تحت هذه المـادة ليفى بروفنسال فى « دائرة المعارف الإسلامية » ٦٦٣/٤ (. وقد بحث راينهارت دوزى هذا اللفظ وبناء فى الطبعة الثالثة من مجموعة أبحاثه (Recherches ٤٣/٢) واقترح فى تفسيره أن يكون المقطع « تا » اسم الإشارة فى اللغة البربرية و « كرونا » اللفظ اللاتينى Corona الذى يعنى التاج إشارة إلى الجبال العالية فى هذه المنطقة ، وهو تفسير لا يخلو من تكلف ولو أن الثابت هو أن اسم « تاكرونا » شائع فى كثير من جهات المغرب وإن كان ينطق بصور متغايرة ، وأشهر هذه المواضع « تكرونة » فى تونس . (انظر كذلك تعليق الدكتور حسين مؤنس على هذا الموضع فى تحقيقاته على الحلة السيراء لابن الأبار (٢٤٢/٢) .

(١٤١) أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدى المعروف باسم ابن الفرضى ، ولد فى قرطبة سنة ٣٥١ (٩٦٢) وقرأ بها على أبى عبد الله بن مفرج ويحيى بن مالك بن عائذ وغيرهما من الشيوخ ، ورحل إلى المشرق سنة ٣٨٢ (٩٩٢) فأخذ بمكة ومصر والقيروان ، ثم عاد إلى بلده بعد أن جمع علماً كثيرا ، واشتغل بالتأليف ، فصنف كتابه « تاريخ علماء الأندلس » (الذى نشره المستشرق الإسبانى فرانسسكو كوديرا سنة ١٨٩٠ فى مدريد) ، وكتابا فى « أخبار شعراء الأندلس » وجمع فى « المؤتلف والمختلف » كتابا أثنى عليه ابن بشكوال ، وكذلك على كتابه « مشتبه النسبة » . وحدث عنه المحدث أبو عمر بن عبد البر وكان صديقا له واشترك معه فى كثير من شيوخه ، وقتل ابن الفرضى فى الفتنة البربرية حينما اقتحم البربر قرطبة سنة ٤٠٣ (١٠١٣) ، وأثنى عليه ابن حيان – فيما ينقل عنه ابن بشكوال – قال إنه كان جماعا للكتب وتقلد « قراءة الكتب » فى عهد الدولة العامرية واستقضاه محمد بن هشام المهدى بكورة بلنسية . (انظر فى ترجمته : ابن بشكوال الصلة ، رقم ٥٦٧ ؛ الحميدى : جذوة رقم ٥٣٧ ؛ الضبى : بغية ، رقم ٨٨٨ ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ١٣٠/٢ ابن خاقان : مطمح ص ٦٥ – ٦٦ ؛ ابن سعيد : المغرب ١٠٣/١ – ١٠٤ ؛ ابن خلكان : وفيات ٤٧٩/١ ؛ المقرى : نفح ٣٢٩/٢ – ٣٣١ .

ومن الدراسات الحديثة انظر بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون ص ١٠٥ – ١٠٨ ؛ نيكل : الشعر الأندلسى ص ٣١ – ٣٢ ؛ الدكتور حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، مدريد ١٩٦٧ ، ص ٩٩ – ١٠١ .

وقد ضاعت معظم كتب ابن الفرضى ولم يبق لنا منها إلا « تاريخ علماء الأندلس » الذى نشر عدة مرات والذى كان رأس القائمة التى تتابعت فيها معاجم لتراجم الرجال تذييلا على كتابه ابتداء من ابن بشكوال صاحب « الصلة » حتى ابن الخطيب الغرناطى صاحب « عائد الصلة » ، كذلك أمكن العثور على نسخة خطية وحيدة من كتاب « مشتبه النسبة » له ويعمل الآن على تحقيقها وإعدادها للنشر الأستاذ رشاد عبد المطلب .

والنص الذى ينقله ابن حيان هنا عن محمد بن سعيد الزجالى ليس مما ورد فى « تاريخ علماء الأندلس » ، وهذا واضح مما ذكره ابن حيان من أنه قرأه فى كتاب ابن الفرضى « المؤلف فى طبقات أهل الدولة والأدب بالأندلس » ولا نعلم ما إذا كان هذا هو العنوان الحقيقى للكتاب أم أن ابن حيان ذكره بالمعنى ، فالمترجمون لابن الفرضى لم ينصوا على كتاب له بهذا العنوان ، وإنما ذكروا « أخبار شعراء الأندلس » (انظر فضلا عن تراجم ابن الفرضى حاجى خليفة : كشف الظنون ١٦٥/٢ وربما كان هو نفسه الذى ذكره ابن حيان وإن كان بعنوان مغاير بعض الشىء .

(١٤٢) علق الدكتور محمد بن شريفة فى دراسته التى أسلفنا الإشارة إليها عن كتاب « رى الأوام » ومؤلفه أبى يحيى الزجالى على قول ابن الفرضى هنا « . . هؤلاء الزجاليين المقحمين فى بيوت الشرف بقرطبة » وعلى قول ابن حيان السابق « من غير قدم فى الدولة » بأن فى هذا الكلام « لونا من الهجاء لا معنى له » ، ويضيف الكاتب إلى ذلك : « ونحسب أن الذى أملاه هو التنافس المعروف بين العصبيتين الأندلسية والبربرية ، وينبغى أن نتنبه إلى أن الرجلين كتبا هذا الكلام فى ظروف ما يسمى بالفتنة البربرية وأعقابها ، ولعل ابن الفرضى رحمه الله ذهب ضحية هذا القوم وشبهه فى حق البربر . وأما ابن حيان فإن وقوعه فى الأعراض من لوازم كتابته ، وعبارته فى حق الزجاليين تعتبر هينة إذا قورنت بما قاله فى بيوتات أندلسية أخرى (القسم الأول من الدراسة ص ٨) . وفى رأيى أن كل هذا تحميل للعبارات أكثر مما تحمل وتأويل لها فى ظل ذلك الصراع القديم بين العصبيتين الأندلسية والبربرية تأويلا لا يخلو من اعتساف . فابن الفرضى وابن حيان حينما قالا هذا البيت لم يكن له قدم فى الدولة وإنهم « مقحمون فى بيوت الشرف بقرطبة » لم يقصدا بذلك هجاء ولا تنقصا ، وإنما كان كلامهما تقريراً لحقيقة تاريخية واقعة ، وهى أن الزجاليين لم يكونوا من أسر الموالى الذين ارتبطوا ببنى أمية منذ الفتح كما كان الأمر فى معظم بيوتات كبراء الدولة وأعيانها من أمثال بنى مغيث وبنى حدير وبنى شهيد وبنى أبى عبدة وغيرهم ، وإنما كانوا حديثى عهد بخدمة السلطان ، وعبارة ابن الفرضى صريحة فى ذلك : « لم يكن لهؤلاء الزجاليين . . قبل جدهم محمد قدم رياسة ولا سالف صحبة للسلطان » ، وليس هذا من الثلب ولا الوقوع فى الأعراض فى شئ ، ولا معنى لأن نسرف فى التأول ، فنقول إن كلام ابن الفرضى وابن حيان قد أملته ظروف « الفتنة البربرية » ، فأغلب الظن أن أولهما قد كتب هذه العبارة قبل أن تندلع نيران الفتنة بسنوات طويلة ، وأما ثانيهما فلعله كتبه بعد أن مضت سنوات أخرى عليها . ولانظن أن ابن الفرضى ذهب ضحية مثل هذا القول « فى حق البربر » ، إذ أن هؤلاء ما كانوا لينقبوا فى كتب ابن الفرضى وأمثاله بحثا عن عبارات مثل هذه لكى يتكلوا بأصحابها ، والأمر أولا وأخيراً أيسر مؤونة من كل ذلك . والترجمة التى أثبتها ابن حيان ونقل بعضها عن ابن الفرضى حافلة بعبارات الثناء على محمد بن سعيد الزجالى ، بل إننا نلمح فيها الإعجاب بشخصيته وخلاله ولسنا نرى فيها من « الثلب والوقوع فى الأعراض » قليلا ولا كثيراً .

(١٤٣) ورد الشطر الأول من هذا البيت فى كتاب الثعالبى : التمثيل والمحاضرة ، تحقيق الأستاذ عبدالفتاح محمد الحلو ، القاهرة سنة ١٩٦١ ، ص ٩ ، وجاء البيت كاملا فى عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٦٤/١ ؛ وقد ذكر الدكتور بن شريفة فى تحقيقه لهذا البيت أن أبا يحيى الزجالى قد أورده فى طليعة الأبيات التى يتمثل بها فى كتابه « رى الأوام » (انظر ص ه من دراسته) .

(١٤٤) نقل هذا الخبر ابن الأبار فى إعتاب الكتاب (ص١٧٤) وابن سعيد (مغرب ٢٣٠/١) والمقرى (نفح ٨١/٥ – ٨٢) .

(١٤٥) روى أبو الفرج الإصبهانى فى كتاب الأغانى (١٦٩/١٨) قصة وقعت بين البحترى وأبى تمام تكاد تكون هى نفسها التى تقص هنا عن محمد بن سعيد الزجالى والشاعر الذى أنشده قصيدة يمدحه بها ، فقد روى البحترى أنه دخل على أبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى ، فأنشده قصيدته التى أولها :

* أأفاق صب من هـوى فأفيقا *

فسر أبويوسف بها ، وكان فى مجلسه رجل رفيع نبيل المجلس ، فلما فرغ البحترى من إنشاده أقبل عليه الرجل فوبخه واتهمه بأن ذلك الشعر له وأن البحترى متنحل له ثم اندفع فأنشد أكثر القصيدة واضطرب الشاعر وتحير وجعل يحلف بكل محرجة من الأيمان بأن الشعر له لم يسمعه من أحد ، فلم ينفعه ذلك ، ولامه أبوسعيد على انتحاله شعر غيره وقال إنه كان له من قرابته منه ما يغنيه عن ذلك ، وشرع البحترى فى الخروج يجر رجليه وهو منكسف البال ، فما بلغ باب الدار حتى رده الغلام إلى المجلس ، فأقبل الرجل عليه قائلا إن الشعر له ثم دعاه إليه وعانقه وضمه ، وعرفه بنفسه ، فاذا به أبو تمام الطائى ، ولزمه البحترى منذ ذلك اليوم وأخذ عنه واحتذى فنه . (انظر كذلك شرح الشريشى على مقامات الحريرى ، بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابرهيم ١/٩٠ - ٩١) .

(١٤٦) سوف نعرض لمؤمن بن سعيد ومظان ترجمته فيما بعد .

(١٤٧) أورد ابن سعيد هذا الخبر فى المغرب ١/٣٣١ .

(١٤٨) ذكر المقرى أيضا هذه القصة فى النفح ٥/٨٢ - ٨٣ .

(١٤٩) لم نهتد إلى ما يزيدنا بيانا عن هذا الشاعر ، على أننا رأينا أربعة من أبيات هذه القطعة فى كتاب « التشبيهات من أشعار أهل الأندلس » للشيخ أبى عبد الله محمد بن الكتانى الطبيب (بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥) مع فروق فى الرواية اثبتناها فى موضعها من حواشى تحقيق النص . وقد نسبها ابن الكتانى إلى من يسميه « محمد بن فرج » دون مزيد بيان . وقد حاول الدكتور إحسان عباس محقق الكتاب أن يعرف من هو محمد بن فرج هذا ، فسبق إلى ظنه أنه ينبغى أن يكون من بنى فرج الجيانيين المعروفين ، وهم أحمد وسعيد وعبد الله أبناء محمد بن فرج ، وأضاف الدكتور إحسان إلى ذلك أنه إذا لم يكن فى الاسم خطأ أو إيجاز فإنه قد يكون محمد بن فرج والد بنى فرج المذكورين ولو أن المصادر لم تذكر له علاقة بأدب ولا شعر ، وختم كلامه أخيراً بأن الحميدى ترجم لمن يسميه محمد بن الفرج بن عبد الوليد الأنصارى الطليطلى (رقم ٧٩) وهو فقيه أورد له الحميدى بيتين من الشعر . وأخيراً ختم الدكتور إحسان تعليقه بقوله إنه على كل حال يظن أن « محمداً » سهو وأن الصواب « أحمد » وبذلك يكون هذا الشاعر هو صاحب كتاب الحدائق نفسه . (انظر فهرست الشعراء ص ٣٣٠) . على أن نص ابن حيان يغنينا عن هذا العناء ، فهو يورد اسم الشاعر كاملا ونسبه ، ونلاحظ أن هذه هى أول مرة نسمع فيها باسم هذا الشاعر ، إذ لا تسعفنا المراجع الأخرى المعروفة لنا حتى الآن بأى شئ عنه ، ولكنه على كل حال ليس من بنى فرج الجيانيين المعروفين ، وإنما هوشاعر متقدم عاش فى منتصف القرن الثالث الهجرى على ما يرى من هجائه لحامد الزجالى المتوفى سنة ٢٦٨ (٨٨١ - ٨٨٢) . أما نسبة هذا الشاعر : « البلسارى » فلم نهتد إلى وجه فى تأويلها ، إلا إذا كانت محرفة عن « الشبلارى » ، وحينئذ يكون نسبة إلى « شبلار » أحد أرباض قرطبة (أى أحيائها) . وقد اختلف المؤرخون فى ضبط هذا اللفظ ، أما ابن القوطية (تاريخ ص ٢٩) فقد جعله بضم الشين والباء وتشديد اللام ، وأما ابن بشكوال (الصلة ، بتحقيق السيد عزت العطار الحسينى ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٤٥٥) والمقرى فى النفح (٢/١٣) فيضبطانه بفتح الشين وسكون الباء ، وقد جاء ذكر هذا الربض أيضا فى المقتبس لابن حيان دون ضبط (نشر عبد الرحمن الحجى ص ٢٠٩) ، ومع ذلك فإن الباحث اللغوى الإسبانى فرانسسكو سيمونيت رأى أن الصواب فى ضبط هذا اللفظ إنما هو بفتح الشين وضم الباء المخففة ، إذ هو مشتق من كلمة Sabula اللاتينية ، ومعناها الرمل ، فهو

آت من لفظ Sabular أى المكان الكثير الرمل (Sabularia باللاتيينية الدارجة المتأخرة ومثل Sablière بالفرنسية) انظر كتاب سيمونيت : معجم الألفاظ الإيبيرية واللاتينية المستخدمة بين المستعربين ، مدريد ١٨٩٧ ، ص ٥٧٣ :
Francisco Simonet : Glosario de voces ibéricas y latinas usadas entre los mozarabes Madrid, 1897.

وانظر كذلك ليڤى بروفنسال : تاريخ ٣/٣٧٠ ، حاشية رقم ١ .

(١٥٠) الزجاجله تسمية كانت شائعة فى قرطبة تطلق على هؤلاء الزجاليين من سلالة محمد بن سعيد الكاتب الوزير ، وقد كان هناك ربض فى قرطبة يدعى « ربض الزجاجلة » يقع بين باب عامر وباب اليهود (الذى سمى بعد ذلك باب الهدى) ومقبرة تحمل نفس هذا ، فضلا عن ذلك المتنزه المشهور الذى كان يعرف باسم « حير الزجالى » انظر ليڤى بروفنسال : (تاريخ ص ٣٣٥ ، ٣٨٢) .

(١٥١) لهذا النص قيمة خاصة ، إذ هو يلقى أضواء على خطة من الخطط السلطانية فى ظل الدولة الأموية بالأندلس فى عصر مبكر ، وهى خطة الشرطة التى لا نعرف عنها الكثير . فابن حيان يفيدنا هنا بأسماء ثلاثة من أوائل أصحاب الشرطة كان أحدهم يتولى هذه الخطة قبل ذلك فى أواخر أيام الأمير الحكم بن هشام-الربضى الذى ولى الإمارة فى أواخر القرن الثانى الهجرى والسنوات الست الأولى من القرن الثالث . ونذكر بهذه المناسبة أنه على الرغم من تعدد الإشارات فى المراجع التاريخية الأندلسية التى بين أيدينا وفى معاجم التراجم إلى من ولوا الشرطة فى ظل أمراء بنى أمية وخلفائهم فإننا لا نعرف إلا القليل عن حدود هذه الخطة واختصاصاتها . صحيح أن بعض المؤرخين المتأخرين — وأهمهم ابن سعيد (حسبما ينقل عنه المقرى فى النفح ٢٠٣/١) وابن خلدون (فى المقدمة ص ٢٥٦ — ٢٥٧) — قد أفردوا خطة الشرطة بالكلام ، مع إشارات محددة واضحة إلى عملها وحدوده وواجباته فى الأندلس تحت حكم بنى أمية ، ولكن هذه المصادر ينبغى أن تستخدم فى حذر واحتراس ، فابن سعيد وابن خلدون — وإن كانا من أهل المعرفة الواسعة والتحقيق فيما يتصل بالتاريخ الأندلسى — لا يخرجان عن كونهما مؤرخين متأخرين بعد بهما العهد عن دولة بنى أمية ، ولا يؤمن مع ذلك أن يعتسفا الحكم أو يشوب حديثهما نظر إلى واقع أحوال تلك النظم فى عصريهما بعد أن أصابها تطور كبير على طول قرون عديدة من تعاقب العصور وتقلب الدول .

ويبدو من نص ابن حيان الوارد هنا أن خطة الشرطة كانت معروفة فى الأندلس قبل عبد الرحمن الأوسط ، ولكن إلى هذا الأمير يرجع الفضل فى إدخال تعديلات جديدة مهمة على هذا النظام ، فابن سعيد يقول فى المغرب (٤٦/١) إنه « هو الذى ميز ولاية السوق من أحكام الشرطة المسماة بولاية المدينة ، فأفردها وصير لواليها ثلاثين دينارا فى الشهر ولوالى المدينة مائة دينار » ، على أن هذا النص نفسه مضطرب غامض ، فهو لا يبين لنا مدى العلاقة بين « صاحب المدينة » (وهكذا كان يسمى المضطلع بهذه الخطة لا « والى المدينة ») و « صاحب الشرطة » ، إذ أنهما كانتا خطتين متميزتين وإن كانت أعمالهما متداخلة فهى متصلة بالمحافظة على الأمن ، غير أن المراجع لم تفدنا فى التعرف على تحديد اختصاصات كل منهما وواجباته ، وكل ما يبدو لنا هو أن صاحب المدينة كان أعلى مكانة من صاحب الشرطة وأوسع اختصاصا ، ويقول ابن سعيد فى وصف عمل هذه الخطة (حسبما نقله المقرى فى النفح ٢٠٣/١) : « وأما خطة الشرطة بالأندلس فإنها مضبوطة إلى الآن ، معروفة بهذه السمة ، ويعرف صاحبها فى ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل ، وإذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن وجب عليه

دون استئذان السلطان ، وذلك قليل ، ولايكون إلا فى حضرة السلطان الأعظم ، وهو الذى يحد على الزنا وشرب الخمر ، وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه ، قد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضى ، وكانت خطة القاضى أوقر وأتق عندهم من ذلك » . ومرة أخرى نجد هنا الخلط وعدم التحديد بين خطتى الشرطة والمدينة ، كما أننا لا نعرف بدقة مدى صلة خطة الشرطة بالقضاء .

على أن المشكلة فى التعرف على حقيقة خطة الشرطة لا تنتهى عند هذا الحد ، بل إن لدينا ذلك التجديد الذى أدخله عليها عبد الرحمن الأوسط نفسه ، إذ هو الذى فرع الشرطة إلى نوعين : الشرطة العليا ، والشرطة الصغرى ، وإلى هذا التعديل تشير تلك العبارة الواردة فى أول الصفحة رقم ١٩٩ ب بعد قطوع كثيرة أصابت أسفل الصفحة السابقة والتى رسمت كلماتها هكذا « وقتا تفرعت فيه أيامه شرطة العدو ») ! ؟ (، وقد ذكرنا فى حاشية هذا الموضع أننا لم نهتد إلى وجه مقبول فى تأويل هذه العبارة ، ولابد أن تحريفا شديداً قد لحق ألفاظها أو سقط منها شئ ، ومع ذلك فإننا نعتقد أنها تشير إلى ذلك التفريع فى أنواع الشرطة ودرجاتها . أما الفرق بين الشرطتين فإن لابن خلدون نصا صريحا حول هذه الناحية يقول فيه (مقدمة ص ٢٥١ — ٢٥٢) : « ثم عظمت نباهتها [أى نباهة خطة الشرطة] فى دولة بنى أمية بالأندلس ، ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى ، وجعل حكم الكبرى على الخاصة [أقحمت هنا كلمة « والدهماء » وتبدو لنا زائدة لا معنى لها] وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم فى الظلامات وعلى أيدى أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه ، وجعل صاحب الصغرى مخصوصا بالعامة [ربما كان هنا موضع « والدهماء »] ونصب لصاحب الكبرى كرسى بباب دار السلطان ورجال يتبوؤون المقاعد بين يديه ، فلا يبرحون عنها إلا فى تصريفه . وكانت ولايتها للأكابر من رجلات الدولة حتى كانت ترشيحا للحجابة والوزارة » . (انظر كذلك تعليق ليفى بروفنسال على هذه العبارة فى تاريخه ١٥٥/٣ — ١٥٦ وتعليق الدكتور حسين مؤنس فى الحاشية رقم ٢ على نص فى الحلة ٢٣٣/١ — ٢٣٤) .

غير أن هناك خطة أخرى ظهرت على وجه التحديد فى سنة ٣١٧ (٩٢٩) ابن عذارى : البيان ٣٠٣/٢ ط . بيروت) فأضافت تعقيداً جديداً على المسألة ، تلك هى خطة الشرطة الوسطى ، وهى خطة أفادتنا المراجع الأندلسية بأسماء بعض من تولوها ، ومن بينهم الحاجب المشهور محمد بن أبى عامر فى مبدأ ظهور أمره وبزوغ نجمه على أيام الخليفة الحكم المستنصر وقبل أن يترقى فى المناصب حتى يصل إلى الحجر على الخليفة والاستئثار بالسلطة كلها . ولكن هذه المراجع لم تفدنا بشئ عن واجبات « الشرطة الوسطى » واختصاصاتها . وقد حاول ليفى بروفنسال (تاريخ ١٥٦/١ — ١٥٧) استكناه حقيقتها فقال إن ما يظهر له هو أن ضخامة الدولة واتساع العمران فى قرطبة وازدياد عدد السكان فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر — كل ذلك أدى إلى ظهور طبقة جديدة أشبه بما يسمى اليوم الطبقة الوسطى « أو البورجوازية » تقف بين الخاصة أو الارستقراطية والعامة أو الدهماء ؛ وكانت هذه الطبقة تتألف من « الأعيان » والتجار وصغار الموظفين والمتقلدين لبعض الخطط الإدارية والقضائية الصغرى ، ومن ظهرت الحاجة إلى شرطة جديدة تتلاءم مع هذه الطبقة حديثة العهد بالظهور ، فكانت هذه « الشرطة الوسطى » .

ورأى بروفنسال الذى أثبتناه هنا وجيه قد لا يخلو من الصواب ، ولكنا لم نر فى المراجع ما يؤيده . والذى يبدو لنا بعد استقراء ما ورد عن الشرطة بفروعها الثلاثة وسير من تولوها خلال النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى هو أن هذه

هذه الخطط قد تحولت إلى حد ما إلى ألقاب تشريفية ، فأصبحت تدل على التنويه أكثر مما تدل على واجبات وظيفة بعينها . ونقول « إلى حد ما » لأنه ليس معنى كلامنا أن الخطة وأعمالها قد اختفت وإنما أصبحت تسند إلى شخصية من كبار رجالات الدولة تنويها به وتعبيراً عن ترقيته ورفع مكانته ، ويكون لهذه الشخصية الإشراف الأعلى عليها ، ولكنه لا يباشر واجباتها بنفسه بل ينتدب لها من يرضاه . ونحن نرى مصداقا لذلك فى حديث ابن حيان نفسه فى الجزء الخاص بسنوات من خلافة الحكم المستنصر بالله (القطعة التى نشرها الأستاذ الحجى) حيث نقرأ مثلا عن صاحب الشرطة العليا — وهو هشام بن محمد بن عثمان المصحفى — وهو فى الوقت نفسه قائد طرطوشة وكوره بلنسية (ص ٢٠ — ٢١) ، وفى موضع آخر نرى صاحبا للشرطة العليا يخاطب بتقديمه من قيادة مدينة لاردة إلى مدينة سرقسطة وتطيلة وأعمالها (ص ٦٨) ، وآخر وظيفته الحقيقية هى قيادة الجيوش بجيان (ص ٧٢) ، أو قيادة الأساطيل (ص ٨٠ ، ٨٧ ، ٨٩) . أما الشرطة الوسطى فنعرف عن أشهر من تولوها وهو محمد بن أبى عامر (الحاجب المنصور فيما بعد) أنه قدم إلى هذه الخطة مجموعة إلى ما كان بيده من خطة المواريث والقضاء بإشبيلية وكالة ولى العهد الأمير هشام والسكة (ص ٧٢) . فكيف كان ابن أبى عامر يجمع بين كل تلك الوظائف فى وقت واحد ؟ أغلب الظن أن حكم « الشرطة الوسطى » التى كان ابن أبى عامر يتولاها لا يختلف كثيراً عن حكم خطة القضاء على إشبيلية ، فإنه كما نعرف كان مقيما دائما خلال تلك السنوات فى قرطبة ، ولا نعلم أنه غادرها إلى إشبيلية ولا أنه تولى فيها خطة القضاء بصفة فعلية . . وإنما كان ذلك من قبيل التنويه والتشريف ، بينما كان فى إشبيلية قاض يصرف فيها شئون خطته فعلا ، فولاية قضاء إشبيلية لا تزيد عن كونها ولاية نظرية فيها من معانى التفخيم أكثر مما فيها من تصرف حقيقى فى عمل من الأعمال . ومثل هذا يمكن أن يقال عن خطة أخرى أسندت إلى ابن أبى عامر فى سنة ٣٦٢ (٩٧٣) وهى « قضاء القضاة » بالعدوة (أى فى شمال المغرب الأقصى) مع أنه كان قد أوفد إلى هناك فى مهمة أنجزها وعاد بعدها إلى قرطبة على الفور . وأما « الشرطة الصغرى » فنحن نسمع عن وال لها كان فى الوقت نفسه قاضيا على الثغر وخازنا (ص ١٠٦) . وفى نص آخر نرى اثنين أو ثلاثة يدعون بأصحاب الشرطة فى وقت واحد مع أن بعضهم لم يكونوا يقيمون فى قرطبة أصلا (ص ١١٩) . كل هذا يدل على أن كثيراً من تلك الخطط سواء فيها القضاء أو الشرطة بأنواعها قد تحولت إلى مجرد ألقاب أو وظائف « فخرية » كما نقول الآن . حتى بعض الخطط الصغرى مثل خطة « العرض » لحقها مثل ذلك ، فابن حيان يذكر (ص ١٧٧) أن الخليفة أراد الإنعام على الأديب الشاعر محمد بن حسين الطبنى الذى قفل من المغرب مع القائد غالب فولاه خطة « العرض » ، ولا نظن أن الطبنى كان يباشر هذه الوظيفة فعلا ، ولكن هذه التولية كما ينص المؤلف نفسه كانت من قبيل « التكريم » . وقد كانت الشرطة العليا أعلى مكانا بطبيعة الحال من الوسطى فى نسق هذه الألقاب التشريفية . فابن حيان يذكر أن الخليفة قدم عبد العزيز بن حكم التجيبى فى سنة ٣٦٤ (٩٧٥) من الشرطة الوسطى إلى الشرطة العليا مع توليته على دروقة فى الثغر الأعلى (ص ٢٢٥) وهو فى واقع الأمر لم يباشر أعمال هذه ولا تلك ، وإلا فمن أين له أن يكون صاحب الشرطة فى قرطبة وهو فى الوقت نفسه متول لحكم بلد شاسع البعد عن العاصمة فى الثغر الأعلى ؟ كل ذلك يدعونا إلى أن نعيد النظر فى الأحكام التى قالها الباحثون المحدثون عن خطة الشرطة فى تلك الفترة (النصف الثانى من القرن الرابع) على ضوء ما ذكرناه من أنها كانت وظائف تنويه وتشريف أشبه بالألقاب منها بالأعمال . وعلى كل حال فالمسألة جديرة بأن تطرح على البحث من جديد .

(١٥٢) سبق أن علقنا على اسم كليب هذا فى الحديث عن بيت بنى كليب بن ثعلبة بن عبيد (انظر التعليق رقم ٢) .

(١٥٣) لعل المذكور هنا هو أبو عثمان سعيد بن عياض الطليطلى الذى ترجم له ابن الفرضى (رقم ٤٧٧) وقال إنه

رحل إلى المشرق فسمع بإفريقية من قاضي القيروان عبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون ، وكان من أهل المسائل والفتيا . وترجم له القاضي عياض في ترتيب المدارك (٣/١٦١) ونقل عن ابن أبي دليم أنه ولي قضاء طليطلة وصلاتها ، وعن الخشني أنه قتله أهل طليطلة .

(١٥٤) خطة الرد من الخطط القضائية التي تميز بها الأندلس . وقد أفادنا ليفي بروفنسال في تاريخه (٣/١٤٣ – ١٤٥) بمعلومات قيمة استقاها من كتاب « الأحكام الكبرى » الذي لا يزال مخطوطا بعد لأبي الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي القرطبي ، وهو مؤلف عاش في القرن الخامس الهجري (بين سنتي ٤١٣ و ٤٨٦–١٠٢٢ – ١٠٩٣) أي أنه معاصر تقريبا لابن حيان وقريب العهد بالنظم القضائية السائدة في قرطبة الخلافة . ويذكر ليفي بروفنسال عن ابن سهل أن الرد كان من بين الخطط الستة التي تخول لمتقلديها سلطة إنفاذ الأقضية وهي : القضاء ، والشرطة ، والمظالم ، والرد ، والمدينة ، والسوق . ويعلل ابن سهل تسمية هذه الخطة فيقول : « وإنما كان [صاحب الرد] يحكم فيما استرابه القضاة وردوه عن أنفسهم » ، ولكن الذي لا نعرفه على وجه التحقيق هو ما إذا كان لصاحب الرد سلطة الفصل في تلك القضايا التي يستريبها القضاة و « يردونها » عن أنفسهم ، أم أن هناك سلطة أخرى هي التي لها سلطة الحكم النهائي . والمؤكد على كل حال هو أن « صاحب الرد » كان أدنى منزلة من قاضي الجماعة ، يدل على ذلك وضعه ومجلسه في الاحتفالات والمناسبات الرسمية ، إذ كان يأتي في الترتيب بعد قاضي الجماعة مع « الحكام » وهم أصحاب الشرطة وصاحب السوق (انظر المقتبس ، نشر عبد الرحمن الحجي ص ١٩٨) وكان يسند إلى « صاحب الرد » أيضا في بعض الأحيان الخروج إلى الكور لمطالعة رعاياها والكشف عن سير عمالها والتحقيق في شكاياتهم من العمال (نفس المرجع ص ١٠٠ ، ١٠٤) .

(١٥٥) سيترجم ابن حيان لحارث المذكور فيما بعد .

(١٥٦) أورد ابن عذاري مجمل هذه الفقرات الأخيرة في « البيان » (٢/٨٠) ، وسيترجم ابن حيان ليحيى بن يحيى في نهاية هذا الفصل .

(١٥٧) ورد هذا النص مع خلاف طفيف في بعض ألفاظه وزيادات أضافها ابن حيان في نص ابن القوطية المطبوع (ص ٥٨ – ٥٩) . هذا وسيورد ابن حيان ترجمات مفصلة لكل هؤلاء القضاة وجمل من أخبارهم .

(١٥٨) هو هشام بن محمد بن هشام بن الوليد بن الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ٣٠٠ (٩١٢) ، وقد سبق أن أشرنا إليه في سياق ترجمتنا لابنه المؤرخ معاوية بن هشام بن الشبينسي (انظر تعليقنا رقم ٩٣) .

(١٥٩) أبو القاسم أصبغ بن خليل القرطبي ، فقيه على مذهب الإمام مالك ، كان عالما بالشروط والوثائق ، ودارت عليه الفتيا بالأندلس خمسين عاما ، سمع بالأندلس من الغازي بن قيس ويحيى بن مضر ويحيى بن يحيى الليثي تلاميذ الإمام مالك والرواة عنه ، ثم رحل إلى المشرق ، فسمع بمصر من أصبغ بن الفرج وبإفريقية من قاضي القيروان عبد السلام بن سعيد المشهور بسحنون تلميذ الفقيه المصري الكبير عبد الرحمن بن القاسم . وكان شديد التعصب لمذهب مالك قليل العلم بالحديث

اللغة ، وكانت وفاته سنة ٢٧٣ = ٨٨٦–٨٨٧ » . انظر فى ترجمته ابن العرضى ، رقم ٢٤٥ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٣٢٣ الخشنى : القضاة ص ١٠٤ – ١٠٥ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ١٤٢/٣ – ١٤٤ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٩٧ ؛ النباهى : المرقبة العليا ص ٥٥ – ٥٦ ؛ وانظر ما كتبه عنه القس لوبث أورتيث فى دراسته القيمة عن « دخول المذهب المـالكى إلى الأندلس » ، مدريد سنة ١٩٣٠ ، ص ٦٠ – ٦١ ، ١٢٠ – ١٢٤ :

José Lopez ortiz : La recepcion de la escuela Malequi en Espana, Anurio de historia del derecho espanol, tomo VII, Madrid, 1930, pp. 1 - 167.

(١٦٠) تقسيم الأندلس إلى موسطة وشرق وغرب كان شائعا فى كتابات الأندلس منذ قديم . ويقصد بالموسطة المنطقة التى تقع لا فى وسط شبه الجزيرة بالضبط، ولكن المنطقة التى تتوسط ما كان للمسلمين من هذه البلاد، وتقع فى مركزها العاصمة قرطبة . وهو تقسيم تقريبى قصد منه التوضيح ، وقد جرى عليه بعض المؤلفين فيما بعد نذكر منهم أبا الحسن على بن بسام (ت ٥٤٢/١١٤٧) حين قسم كتابه « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » إلى ثلاثة أقسام أفرد لكل منها جزأين :قسم لكل من هذه الأجزاء الثلاثة الكبرى : الموسطة والغرب والشرق (انظر مقدمة ابن بسام فى الجزء الأول من القسم الأول ص ١١ وما بعدها) ، وتلا ابن بسام فى هذا التقسيم أبو الحسن على بن سعيد فى كتابه المغرب (انظر ما ينقله عنه المقرى فى نفح الطيب ٢١٠/١ ، وتعليق الدكتور حسين مؤنس على هذا التقسيم فى كتابه عن الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، مدريد ١٩٦٧ ص ٤٩٣ – ٤٩٤) . ويبدو أنه فى حالات « الاستنفار » أو تعبئة الجنود للغزو كان هناك تقسيم جغرافى متبع فى الأندلس مشابه لمـا ذكرناه إلى موسطة وشرق وغرب ، ولو أننا لا نعرف تفاصيله ، وسنرى مظهراً لذلك فى نص سيورده ابن حيان فى هذا الجزء نفسه من « المقتبس » ناقلا إياه عن معاوية بن هشام الشبينسى عن « عدة الأجناد والمطوعة المستنفرين من أهل كورة الموسطة » ، على أننا نشك فى مدى دقة هذا التعبير : « كورة الموسطة » ، فلسنا نعرف فى التقسيم الإدارى للأندلس ما يمكن أن يطلق عليه اسم كورة الموسطة ولا ذكر أحد من الجغرافيين ، والأغلب هو أن هذه التسمية فيها الكثير من التجوز والتساهل ، والمقصود بها المناطق الواقعة فى وسط الأندلس والمحيطة بالعاصمة قرطبة (انظر عن اصطلاح الكورة ومكانه من المصطلحات الجغرافية الإدارية الدكتور حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٥٧٦ – ٥٧٧) .

(١٦١) يقصد بـ « المدونة » فى الاصطلاح العسكرى الأندلسى الجنود النظاميون المسجلون فى « ديوان الجند » تمييزاً لهم عن طبقات الجنود الأخرى مثل « الحشم » (أى المرتزقة) و « المطوعة » (أى المتطوعين) . . . الخ . وهم الذين كانت الدولة تستدعيهم حينما يخرج أمر بـ « الاستنفار » أى التعبئة وذلك طبقا لمـا هو مسجل فى « ديوان الجند » من أسمائهم ورتبهم . (انظر ليفى بروفنسال : تاريخ ٦٧/٣ – ٦٨) .

(١٦٢) كانت العادة قد جرت فعلا بأن الأمير إذا خرج إلى غزو يطيل فيه الغياب عن قرطبة استخلف على قصر الخلافة (المواجه للمسجد الجامع) واحداً من أبنائه ، وكان لهذا المستخلف مجلس فى سطح القصر لا يغادره ليلا ولا نهاراً ولا يخرج منه البتة ، يؤكد ذلك خبر يقصه ابن حزم فى « طوق الحمامة » « نشر الأستاذ حسن كامل الصيرفى ، القاهرة سنة ١٩٥٠ ، ص ١٤٤ – ١٤٥ (بمناسبة خروج الأمير عبد الرحمن فى بعض غزواته واستخلافه ابنه محمداً على سطح القصر . وانظر كذلك ابن القوطية (تاريخ ص ٨٦) حيث يذكر أن الأمير محمداً استخلف ولداً له عند خروجه إلى بعض مغازيه وأبقاه فى السطح .

وقد بقى مجلس السطح هذا الذى كان الأمير أو الخليفة يشرف منه على الرصيف محترما له مكانته وهيبته حتى أواخر أيام الدولة المروانية حتى بعد إنشاء عبد الرحمن الناصر ضاحيته الملكية الفخمة فى مدينة الزهراء ، فابن حيان يصف لنا فى جزء آخر من « المقتبس » (نشر الحجى ص ٢٢١) كيف كان الخليفة الحكم المستنصر بالله يقف على مجلس سطح القصر المذكور لكى يستعرض جيوشه التى كانت خارجه لغزو حصن غرماج من الثغر الأوسط فى سنة ٣٦٤ (٩٧٥) . ونأخذ مما يذكره ابن حيان فى هذا الموضع أن مجلس السطح كان يقع فوق « باب السدة » (الباب الرئيسى لقصر الخلافة أنظر ما سبق أن كتبناه عن « باب السدة » ، التعليق رقم ١٠٣) ، وأنه كان المكان الذى اعتاد الخلفاء أن يطلوا منه عندما كانوا يريدون الظهور لعامة الشعب (انظر المقتبس ، نفس الجزء ص ٢٣٣) .

(١٦٣) ذكرنا فى حاشية هذا الموضع أن الاسم جاء فى الأصل « عبد الله » وأننا نرجح أن الصواب « عبيد الله » ، فهو الذى اشتهر من أبنائه وطارصيته وورث مكانة أبيه فى الفقه والعلم وعظم الجاه لدى أمراء بنى أمية . وسنترجم لعبيد الله هذا فيما بعد .

(١٦٤) أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطروح البكرى القرطبى الملقب بالأعرج ، روى بالأندلس عن الغازى ابن قيس وعيسى بن دينار الطليطلى ، وبمصر عن أصبغ بن الفرج ، وبالمدينة عن مطرف بن عبد الله ، وولى الصلاة فى أيام الأمير محمد ، وكانت الفتيا تدور عليه وعلى أصبغ بن خليل وعبد الأعلى بن وهب ، وتوفى سنة ٢٧١ (٨٨٤ — ٨٨٥) . انظر فى ترجمته ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ١١١١ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ١٥٨ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٩٤-٩٥ ، الخشنى : قضاة ص ١١٤ — ١١٥ ، ١٣١ — ١٣٢ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٢٦٤ — ٢٦٥ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ١٤١/٣ — ١٤٢ ؛ وانظر كذلك لويث أورتيث : دخول المذهب المالكى إلى الأندلس ، ص ١٢١ ، ١٢٦ .

(١٦٥) سيتحدث ابن حيان عن محمد بن حارث هذا بمزيد من التفصيل عند الكلام عن محنة بقى بن مخلد إذ أنه كان أحد ثلاثة من الفقهاء تعصبوا عليه واشتدوا فى طلبه ، وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

(١٦٦) أبو زيد عبد الرحمن بن ابرهيم بن عيسى بن يحيى بن يزيد القرطبى مولى معاوية بن أبى سفيان المعروف بابن تارك الفرس ، سمع بالأندلس من يحيى بن يحيى ، ورحل فى أيام عبد الرحمن بن الحكم إلى المشرق ، فسمع من شيوخ المالكية فى المدينة : ابن كنانة وابن الماجشون ومطرف بن عبد الله ، وله من سماعه هذا ثمانية كتب تعرف باسم « ثمانية أبى زيد » وكان مقدما فى الشورى والفتيا ، وتوفى سنة ٢٥٨ أو ٢٥٩ (٨٧٢ — ٨٧٣) . انظر فى ترجمته ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ٧٧٩ ؛ الخشنى : قضاة ص ١٠٤ — ١٠٥ ؛ الحميدى : جذوة رقم ٥٩١ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ١٤٨/٢ — ١٤٩ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٤٧ — ١٤٨ ؛ لويث أورتيث : دخول المذهب المالكى إلى الأندلس ص ٧٧ — ٧٨ ، ١٢٥ — ١٢٦ ، ١٥١ — ١٥٢ .

ويعتبر أبو زيد « ابن تارك الفرس » وعبد الملك بن حبيب أكبر ممثلين لاتجاه يمكن أن نسميه « مدنيا » فى داخل المالكية الأندلسية ، ونعنى بذلك أن الجيل الأول من المالكيين الأندلسيين كانوا يعتمدون فى علمهم على شيوخهم المصريين من

تلاميذ مالك بن أنس من أمثال عبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن وهب وأشهب بن عبد العزيز ثم على الجيل التالى لهؤلاء مثل أصبغ بن الفرج والحارث بن مسكين وبنى عبد الحكم ، وظل هذا هو الاتجاه الغالب لا على مالكية الأندلس وحدهم ، بل كذلك فى افريقية (تونس) . على أنه كان هناك رد فعل لهذا الاتجاه تزعمه هذان الفقيهان : أبو زيد وعبد الملك بن حبيب من أجل العودة إلى مالكية أهل المدينة باعتبارهم الأصل وغيرهم الفرع ، على أن ذلك الاتجاه المدنى لم يقدر له نجاح كبير فى الأندلس ، وظل المالكيون الأندلسيون متمسكين بما أخذوه عن شيوخهم المصريين من ابن القاسم فطبقات الفقهاء بعده . وقد بحثنا هذا الجانب من تاريخ المالكية الأندلسية بالتفصيل فى بحثنا عن « التيارات الثقافية المشرقية وأثرها فى تكون ثقافة الأندلس (دراسة بالإسبانية ، مدريد ١٩٦٧) ، ص ١٠٢ – ١٠٣ .

(١٦٧) أبو وهب عبد الأعلى بن وهب بن عبد الأعلى القرطبي مولى قريش ، سمع من يحيى بن يحيى ، ورحل ، فسمع من مطرف بن عبد الله بالمدينة ، ومن أصبغ بن الفرج بمصر ، ومن سحنون بن سعيد بإفريقية ، وكان يشاور فى الأحكام مع يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان وعبد الملك بن حبيب وأصبغ بن خليل ، وكان يتهم بالميل إلى الاعتزال ، فكان أصحابه يحيى بن يحيى وابن حبيب وابرهيم بن حسين بن عاصم يطعنون عليه بذلك أشد الطعن ، وكانت وفاته فى سنة ٢٦١ أو ٢٦٢ (٨٧٥ – ٨٧٦) . انظرفى ترجمته ابن الفرضى ، رقم ٨٣٥ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٦٥٣ ؛ الخشنى : قضاة ص ١٠٤– ١٠٥ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ١٣٨/٣ – ١٤٠ ابن فرحون ص ١٧٣ ؛ النباهى : مرقبة ص ٥٥ – ٥٦ ؛ وانظر كذلك لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكى إلى الأندلس ، ص ١٢٤ – ١٢٦ ، ١٤٥ – ١٤٦ ؛ وأسين بلاثيوس : ابن مسرة القرطبي ومدرسته (مدريد ١٩٤٦) ص ٢٨ – ١٨٠ (ولوأن الاسم ورد خطأ « عبد العلى » بدلا من « عبد الأعلى ») ؛ وانظر كذلك بحثنا عن « التيارات الثقافية المشرقية » ص

(١٦٨) سيترجم ابن حيان لبقى بن مخلد ترجمة ضافية فيما بعد .

(١٦٩) سبق أن علقنا على اسم محمد بن وضاح ؛ انظر رقم ٧٤ .

(١٧٠) أبو زكريا يحيى بن ابرهيم بن محمد بن ابرهيم بن مزين مولى رملة بنت عثمان بن عفان ، قرطبي أصله من طليطلة ، روى بالأندلس عن عيسى بن دينار ومحمد بن عيسى الأعشى ويحيى بن يحيى والغازى بن قيس ، ورحل فى أيام الأمير عبد الرحمن ابن الحكم ، فلقى بالمدينة مطرف بن عبد الله وأخذ عنه الموطأ ، وسمع بالعراق ومصر ، وله عدة كتب ذكرها ابن الفرضى بالتفصيل ، ومن أجلها كتاب فى « تفسير الموطأ » يعد من الكتب التى أصلت المذهب المالكى فى الأندلس ، وكانت وفاته فى سنة ٢٥٩ أو ٢٦٠ . انظر فى ترجمته ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ١٥٥٦ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٨٨٠ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ١٣٢/٣ – ١٣٤ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٣٥٤ – ٣٥٥ . وقد أفادنا ابن الأبار بمعلومات طيبة عن أصل هذه الأسرة وبعض رجالاتها ، فقال إنهم كانوا من أكشونبة Oxonora فى غرب الأندلس (البرتغال الحالية) ، وكان أولهم لباهة ابرهيم بن مزين « الكاتب » الذى ولى إمارة طليطلة عدة سنوات فى أيام عبد الرحمن الداخل ، وتلاه ابنه محمد (جد المترجم له) الذى يذكر من بين تلاميذ الإمام مالك بن أنس وكان قد ولى القضاء فى قرطبة فترة قصيرة فى سنة ١٧٠ (٧٨٦) ثم استعفى من منصبه ورحل لأداء فريضة الحج ولتلقى العلم ، وكانت وفاته سنة ١٨٣ (٧٩٩

(انظر فى ترجمة ابن الأبار : تكلة رقم ٣٠١ ؛ المقرى : نفح ٢٦٩/٣) . وسكن ابرهيم بن محمد (والد المترجم له) قرطبة وكان يتعاقب مع الحجاب وجلة الوزراء والقواد فى أيام الحكم بن هشام ، ثم ولى إمارة طليطلة التى وليها جده من قبل أعواما متصلة (انظر ابن الأبار : الحلة السيراء ٨٨/١) ، وكانت وفاته فى سنة ٢١٣ (٨٢٨) على ما سيذكر ابن حيان فى باب الوفيات وعلى الرغم من تنقل بعض أفراد هذه الأسرة فى مختلف كور الأندلس فإن جماعها قد استقر على ما يبدو فى موضعهم الأول فى أكشونبة ، إذ أننا نعرف أنهم تولوا رياسة مدينة شلب Silves (فى جنوب البرتغال الآن) بعد انفراط عقد الخلافة الأموية وتغلب ملوك الطوائف ، فكانت لهم هذه الإمارة الصغيرة يتعاقبون عليها حتى خلع آخرهم عنها وهو عيسى بن محمد بن عيسى الملقب بالمظفر — وهو من ولد يحيى بن ابرهيم المترجم له (على خلاف فى نسبه) — على يد المعتضد بن عباد سنة ٤٤٥ (١٠٥٣ — ١٠٥٤) ثم قتله المعتضد وملك من يده مدينة شلب (انظر ابن عذارى : بيان ١٩٢/٣ — ١٩٣ ، ٢١٣ ، ٢٩٦ — ٢٩٨) . وكان لعيسى بن محمد المذكور آخر أمراء بنى مزين ولد يدعى أبا بكر محمداً الكاتب ، له كتاب فى تاريخ الأندلس بقيت منه قطع متفرقة فى بعض المصادر الأندلسية المتأخرة ، وقد اعتمد عليه ابن الأبار فى كتاب « الحلة » (انظر ١٧/٢ — ١٨ ، مع تعليق مفيد للدكتور حسين مؤنس فى هذ الموضع ؛ ١١٦ ، ١٢٩ ؛ وانظر ما كتبه عنه بونس بويجس فى كتابه عن المؤرخين والجغرافيين فى الأندلس ، ص ١٧١) .

وراجع أخيراً ما قاله ابن حزم فى رسالته عن ابن مزين المترجم له وحول مؤلفاته (ولو أنه يسميه أبا إسحاق ابرهيم ابن مزين ، والصواب يحيى بن ابرهيم بن مزين (حيث يقول فى معرض الفخر بالمؤلفين الأندلسيين : « ومنها كتاب أبى إسحاق ابرهيم بن مزين فى تفسير الموطأ والكتب المستقصية لمعانى الموطأ وتوصيل مقطوعاته من تأليف ابن مزين أيضا ، وكتابه فى رجال الموطأ وما لمالك عن كل واحد منهم من الآثار فى موطئه » (المقرى : نفح ١٦٢/٤) .

(١٧١) أبو القاسم أبان بن عيسى بن دينار بن واقد الغافقى القرطبى ، وهو ابن الفقيه المالكى المشهور عيسى بن دينار صاحب كتاب « الهداية » ، تلمذ على أبيه وغيره من شيوخ الأندلس ، ثم رحل إلى المشرق فسمع من سحنون بن سعيد قاضى القيروان ، وسمع بالمدينة من ابن كنانة ومطرف بن عبد الله وابن الماجشون ، وكان من الفقهاء الصالحين . وذكر عنه بعض مترجميه أنه ولى قضاء طليطلة ، ولكن المعروف هو أن الأمير محمد بن عبد الرحمن طلب إليه أن يتولى قضاء جيان فأبى ولج فى الإباء ، فأمر محمد بإكراهه على العمل وأن يوكل به نفر من الحرس يحملونه إلى حضرة جيان فيجلسوه هناك مجلس القضاء ، فحكم بين الناس يوما واحداً ثم هرب . غير أنه كان من الفقهاء المشاورين فى أيام الأميرين عبد الرحمن ابن الحكم وابنه محمد . وكانت وفاة أبان فى سنة ٢٦٢ (٨٧٦) . انظر فى ترجمته ابن الفرضى ، رقم ٥١ ؛ الحميدى ، رقم ٣١٨ ؛ الخشنى : قضاة ص ١٦ ، ١٠٤ — ١٠٥ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ١٥٠/٣ — ١٥١ ؛ النباهى : مرقبة ص ١٢ — ١٣ ، ٥٥ — ٥٦ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٩٨ ؛ وانظر كذلك لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكى ص ١٢٤ — ١٢٦ ، ١٥٢ ، ١٥٦

(١٧٢) أبو مروان عبيد الله بن يحيى بن يحيى بن كثير الليثى القرطبى ، سمع بالأندلس من أبيه الفقيه المشهور يحيى ابن يحيى تلميذ الإمام مالك بن أنس ، ورحل إلى المشرق حاجا وتاجراً ، وسمع ببغداد ومصر ، وكان عظيم المال والجاه ، مقدما فى المشاورة فى الأحكام منفرداً برياسة الفقهاء ، وطال عمره حتى تتابعت فى الأندلس أجيال من تلاميذه ، وكان آخر

من بقى من الرواة عن أبيه يحيى . وتوفى سنة ٢٩٨ (٩١٠ – ٩١١) . انظر فى ترجمته ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ٧٦٢ ؛ الحميدى جذوة ، رقم ٥٨١ ؛ الخشنى : قضاة ص ٩ – ١١ ، ٤١ ، ٦٢ – ٦٣ ، ٧٠ ، ٨٣ ، ١٠٠ – ١٠١ ، ١٩٣ ابن القوطية : تاريخ ص ١٠٦ ، ابن حيان : المقتبس (نشر أنطونيا) ص ٧ – ٩ ، ٩٥ ؛ ابن سعيد : المغرب/١٥٣ ، ١٥٥ ، ابن فرحون ديباج ص ١٤٦ ؛ النباهى : مرقبة ص ٤٨ ، ٥٠ ، ٧٤ ؛ وراجع كذلك لوبث أورتيث : دخول المذهب المسالكى ص ١٢٦ – ١٢٧ ، ١٥٢ – ١٥٥ .

(١٧٣) أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان الإلبيرى ، من موالى عباس بن مرداس السلمى ، سمع بالأندلس من صعصعة بن سلام الدمشقى والغازى بن قيس وزياد بن عبد الرحمن اللخمى المعروف بشبطون ، ورحل سنة ٢١٦ (٨٣١) إلى المشرق ، فسمع بالمدينة من ابن الماجشون ومطرف بن عبد الله وابرهيم بن المنذر الحزامى ، وبمصر من أصبغ بن الفرج وأسد بن موسى ، وكان من موطدى المذهب المسالكى فى الأندلس وإن كان من متزعمى الاتجاه إلى الأخذ بآراء شيوخ المدنيين من المسالكية دون المصريين ، ولكن اتجاهه لم يقدر له النجاح ، وقد أصبح لابن حبيب مكانة عظيمة فى الأندلس ، وكان من المشاورين لدى القضاة ، وهذا ما أوجد تنافسا شديداً بينه وبين يحيى بن يحيى الليثى ، على أنه كان يتميز على يحيى وأصحابه من الفقهاء بالتمكن من علوم كثيرة إلى جانب الفقه وكان غزير التأليف فيها جميعا ، إذ له مؤلفات فى الفقه والتاريخ واللغة والطب ، وإن كان علمه بالحديث قليلا . وتوفى سنة ٢٣٨ (٨٥٢) .

راجع فى ترجمته : ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ٨١٤ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٦ ، ١٩٤ – ١٩٦ ، ٢٠٣ – ٢٠٥ ٢١١ – ٢١٣ ؛ الخشنى : قضاة : ص ٥٤ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٤ – ١٠٥ ؛ الزبيدى : طبقات ص ٢٨٢ – ٢٨٣ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٦٢٨ ؛ الفتح بن خاقان : مطمح الأنفس ص ٣٦ ؛ الضبى : بغية ، رقم ١٠٦٣ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ٣-٣٠ – ٤٧ ؛ ابن سعيد : المغرب ٩٦/٢ ؛ ابن فرحون : الديباج ص ١٥٤ – ١٥٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة (مخطوطة الإسكوريال رقم ١٧٦٣ (ص ٢٦٤ – ٢٦٥ ؛ النباهى : مرقبة ص ٢ – ٣ ، ٨ – ٩ ، ١٥ ، ٥٠ ، ٥٥ – ٥٦ ، ١٥١ ، ١٧٩ ، ١٨٨ ؛ ابن عذارى : بيان ١١٠/٢ – ١١١ ؛ المقرى : نفح الطيب ٢١٤/٢ – ٢١٧ ؛ ياقوت الرومى : معجم البلدان ١-٣٢٣ ؛ ابن حجر العسقلانى : لسان الميزان ٥٩/٤ – ٦٢ ؛ السيوطى : بغية الوعاة ص ٣١٢ .

ومن الأبحاث الحديثة انظر دائرة المعارف الإسلامية ٢-٤٠٢ (وهو مقال قصير قليل القيمة) ، بروكلمان : تاريخ الأدب العربى (الترجمة العربية ٨٦/٣ – ٨٧ ؛ بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص ٢٨ – ٣٨ ؛ جونثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص١٤١ – ١٤٤ من الأصل و ١٩٣ – ١٩٦ من ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، لوبث أورتيث : دخول المذهب المسالكى ص ٨٢ – ٩٤ ؛ نيكل : الشعر الأندلسى ص ٢٣ – ٢٤ ؛ دوزى : مقدمة طبعته للبيان المغرب (١٨٤٨–١٨٥١) ص ١٣ ؛ ومجموعة أبحاثه (الطبعة الثالثة) ص ٢٨–٣٤ ؛ ودراستنا عن « التيارات الثقافية المشرقية » ص ١٠٣–١٠٤ ؛ وقد قمنا بدراسة ترجمة عبد الملك بن حبيب و « تاريخه » الذى ما زال مخطوطا فى مكتبة « البودليانا » بأوكسفورد فى مقالنا عن « مصر والمصادر الأولى للتاريخ الأندلسى » فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الخامس سنة ١٩٥٧ ، وانظر بصفة خاصة ص ١٨٩–٢٠١ ، وكذلك ص ٢٢١–٢٤٣ حيث نشرنا الفصول

الأخيرة من الكتاب المذكور ، وهى الخاصة بفتح الأندلس وبعض أخبارها . هذا وسيعود ابن حيان إلى الكلام عن ابن حبيب بعد ذلك فى آخر هذا الجزء الخاص بالأمير عبد الرحمن بن الحكم .

(١٧٤) جرت العادة فى مدن الإسلام فى الشرق والغرب على أن تقام الصلوات الجامعة الكبرى : صلوات العيدين وصلوات المناسبات الخاصة الطارئة مثل الاستسقاء فى أوقات الجدوب واحتباس المطر لا فى المساجد الجامعة بل فى الهواء الطلق فى « مصليات » خاصة يتفق عليها خارج أسوار المدن حيث يكون هناك فضاء يتسع للجماهير الكثيرة التى لا تسعها المساجد (انظر مادة « مصلى » بقلم المستشرق فنسنك ، فى دائرة المعارف الإسلامية ٧٩٧/٣) . أما قرطبة فقد كان فيها مصليان كبيران لذلك ، هما اللذان يشير إليهما ابن حيان فى هذا النص ، وهما : مصلى المصارة ومصلى الربض .

أما « مصلى المصارة » فقد كان يقع على الضفة اليمنى للوادى الكبير نهر قرطبة فى الفضاء الذى يحمل نفس هذا الاسم متصلا بباب القنطرة عن طريق « الرصيف » الموازى لضفة النهر . ولفظ « المصارة » من الألفاظ التى اختصت بها الأندلس ومنها انتقل إلى المغرب ، وهو يعنى الفضاء الفسيح الواقع خارج المدينة والذى يعد من متنزهاتها . ولم تكن مدينة أندلسية تخلو من « مصارة » يخرج إليها الناس فى أيام الأعياد للتروح والنزهة . وما زالت هناك فى إسبانيا مواضع كثيرة تحمل اسم Almuzara الموروثة عن «المصارة» العربية . (انظر بحث خايمة أوليفر أسين عن « تاريخ اسم مجريط » ص٣٤٢-٣٤٧ : Jaime Oliver Asin : Historia del nombre de Madrid, Madrid, 1958).

وفى مدن المغرب « مصارات » كثيرة مازالت تحمل هذا الاسم حتى اليوم . ومصارة قرطبة هى التى دارت فيها المعركة المشهورة بين عبد الرحمن بن معاوية الداخل ويوسف بن عبد الرحمن الفهرى فى سنة ١٣٨ (٧٥٦) والتى توطد بعدها سلطان مجدد الدولة الأموية . وكثيراً ما كانت تقام فيها المواكب الملكية واستعراضات الجيوش طوال أيام دولة بنى مروان ، هذا فضلا عن صلوات الاستسقاء التى أشرنا إليها . ولم يكن فى مصلى المصارة على طول عهد أمراء بنى أمية بناء مشيد ولا محراب ثابت ، وإنما كان الإمام يتخذ مقامه حيث يرى . وأول من بنى محرابا هناك هو عبد الرحمن الناصر أول خلفاء بنى أمية ، إذ أقام فيه محرابا مبنيا فى سنة ٣٠٦ (٩١٨) كما ينص على ذلك صاحب « البيان المغرب » وصاحب القطعة المجهولة فى تاريخ عبد الرحمن الناصر (ص ٥٧) . وللعالم الأثرى الإسبانى ليوبولدو توريس بلباس بحث طيب عن مصليات الأندلس ومصلى المصارة بوجه خاص فى مقاله : « المصلى » و « الشريعة » فى المدن الأندلسية (Musalla y saria en las ciudades Hispano-musulmanas) ، فى مجلة الأندلس ، المجلد الثالث عشر ، سنة ١٩٤٨ ص ١٦٧ — ١٨٠ ، وانظر بصفة خاصة ص ١٧٠ — ١٧١ ؛ وكذلك نفس المؤلف : « المصارة » ، مجلة الأندلس سنة ١٩٥٩ ، المجلد الرابع والعشرين ص ٤٢٥ — ٤٣٣ . وللعالم اللغوى أوليفر أسين بحث بديع عن لفظ « المصارة » والخلاف فى اشتقاقه بعنوان «las des almuzaras» (المصارة والمزارعة) ، مجلة الأندلس ، المجلد السابع والعشرين ، سنة ١٩٦٢ ص ١٥٥ — ١٧٩ .

أما المصلى الآخر فهو « مصلى الربض » ، وكان يقع على الضفة اليسرى للوادى الكبير فى جنوبى المدينة وعلى مقربة من مقبرة الربض التى أصبح يحمل اسمها بحكم هذا الجوار (انظر ما كتبناه عن هذه المقبرة من قبل فى التعليق رقم ٥٧) . وتفصله عن قرطبة القنطرة ، ولهذا فقد كان الوصول إليه يقتضى عبور القنطرة ، بعكس مصلى المصارة الذى كان أقرب

إلى المدينة وأكثر اتصالا بها ، وهذا هو ما جعل الفقيه عبد الملك بن حبيب يؤثره على سابقه ويعده « أرفق بالناس » وأقرب إلى قضاء حوائجهم ، على ما فى عبور القنطرة من خطر الازدحام وما فى جواز النهر على المراكب من خطر الغرق . وكانت « منية نصر » قريبة من مصلى الربض المذكور ، إذ كانت تقع على نفس الضفة اليسرى للوادى الكبير (انظر تعليقنا رقم ٥٦) .

وإذا كان الأمير عبد الرحمن قد صوب رأى عبد الملك بن حبيب فى البروز إلى مصلى المصارة وإيثاره على مصلى الربض فليس معنى ذلك أن صلوات الإستسقاء والعيدين قد انقطعت إقامتها فى هذا المصلى الأخير ، فنحن نعرف من أخبار سنة ٣٠٢ (٩١٥) فى أول أيام عبد الرحمن الناصر أن صلوات الاستسقاء أقيمت فى هذا المصلى خمس مرات فى أيام مختلفة بعد أن توالى القحط وانقطع المطر . وفى سنة ٣١٧ (٩٢٩) تكرر المحل واستمر احتباس الغيث ، فمهد الخليفة عبد الرحمن بالاستسقاء فى المسجد الجامع وفى مصلى الربض ومصلى المصارة معا (انظر ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار هاتين السنتين ، وكذلك مقال توريس بلباس الذى أشرنا إليه من قبل عن « المصلى والشريعة فى المدن الأندلسية » ص ١٧١) .

ولكى يتتبع القارئ ما يقوله ابن حيان فى هذا الخبر فإننا أوردنا فى ملحقات هذا النص فى آخر الكتاب خريطة لقرطبة بينا فيها المواضع المذكورة فى السياق : مصلى الربض ومصلى المصارة ومنية نصر والقنطرة وقصر الخلافة وجنان القصر .

(١٧٥) ورد هذا الخبر وثلاثة من الأبيات المروية هنا فى ترتيب المدارك للقاضى عياض ٤٧/٣ ؛ ونفح الطيب للمقرى ٢١٤/٢ ، مع اختلاف طفيف فى قراءة بعض الألفاظ .

(١٧٦) هو أبو بكر عبادة بن عبد الله بن عبادة المعروف بابن ماء السماء الشاعر المشهور ، وسيأتى التعليق على اسمه وعلى مظان ترجمته فى موضعه .

(١٧٧) فى « ترتيب المدارك » للقاضى عياض (٣٥/٣ — ٣٦) ثبت واف بأسماء تواليف عبد الملك بن حبيب ، وكذلك فى ترجمته التى أوردها ابن الفرضى .

(١٧٨) القاسط هو الظالم وهو عكس المقسط أى العادل .

(١٧٩) يعنى كتاب « الاحتفال فى تاريخ أعلام الرجال » لأبى بكر الحسن بن محمد بن مفرج القبشى (أنظر تعليقنا السابق رقم ٥٩) .

(١٨٠) عن مسرور بن محمد انظر ابن الفرضى ، رقم ١٤٢٨ ؛ الخشنى : قضاة ص ٧٨ — ٧٩ ؛ ابن سعيد : المغرب ١٤٦/١ — ١٤٧ .

(١٨١) يعنى قاضى الجماعة أبا عبد الله محمد بن سعيد بن بشير ، كان كاتبا فى حداثته لابرهيم بن عبد الملك بن عمر ابن مروان بن الحكم فى باجة ، ثم كتب لقاضى الجماعة فى أيام هشام بن عبد الرحمن بن معاوية : المصعب بن عمران ،

وخرج بعد ذلك حاجا فلقى مالك بن أنس وطلب العلم بمصر أيضا ، ثم انصرف فلزم ضيعته بباجة ، فلما مات المصعب بن عمران أشير على الحكم بن هشام بأن يستقضى محمد بن بشير مكانه، فولى القضاء ، وكان من خيرة من تولوه . وصرف عن القضاء ثم وليه مرة ثانية ، وكانت وفاته سنة ١٩٨ (٨١٣-٨١٤) . انظر ترجمته وأخباره فى الخشنى : قضاة ص ٥١-٦٧ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٤٤ — ٤٥ ، ٥٦ — ٥٧ ؛ الضبى : بغية ، رقم ٦٩ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ٤٩٣/٢- ٥٠٠ ؛ ابن الأبار : تكلة رقم ٣٠٢ ؛ ابن سعيد : المغرب ١٤٤/١ — ١٤٥ ؛ النباهى : مرقبة ص ٤٧ — ٥١ ؛ المقرى : نفح ٣٤٣/٢ — ٣٤٩ ؛ ومن الأبحاث الحديثة لويث أورتيث : دخول المذهب المالكى إلى الأندلس ص ٦٠ ، ٦٧ — ٦٨ ، ٧٠ ؛ ٨٠ .

(١٨٢) محمد بن أحمد بن عبد الملك بن سلام معتق الأمير هشام بن عبد الرحمن ، يعرف بابن الزراد القرطبى ، روى عن محمد بن وضاح ومحمد بن عبد السلام الخشنى وابن هلال ، ورحل إلى المشرق ، وكان يهتم بأخبار الزهاد والعباد ، وكان كثير الحكاية عن ابن وضاح وتوفى سنة ٣٠٤ أو ٣٠٥ (٩١٦ — ٩١٨) ، عن ابن وضاح والخشنى يعتمد عليه فى كثير من أخبار قضاة قرطبة . انظر ترجمته فى ابن الفرضى : تاريخ رقم ، ١١٦٥ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٧ .

(١٨٣) كذا جاء الاسم أيضا فى تاريخ ابن الفرضى ، رقم ٣٢٨ ، وابن سعيد : المغرب ١٤٦/١ ؛ أما الخشنى (قضاة ص ٧٨) فيسميه حامد بن محمد بن سعد بن اسماعيل بن حامد بن عبد اللطيف الرعينى الشذونى . وذكر ابن الفرضى أنه توفى سنة ٢٠٧ (٨٢٢ — ٨٢٣) ، ونقل عنه هذه الترجمة أيضا ابن الأبار فى التكملة ، رقم ٩٤ .

(١٨٤) أبو الجعد أسلم بن عبدالعزيز بن هاشم القرطبى أخو الحاجب هاشم بن عبد العزيز ، ولد سنة ٢٣١ (٨٤٥-٨٤٦) وسمع بالأندلس من بقى بن مخلد ، ورحل إلى المشرق سنة ٢٦٠ (٨٧٤) ، فلقى بمصر أصحاب الإمام الشافعى ومحمد بن عبد الحكم ويونس بن عبد الأعلى وغيرهم ، وولى قضاء الجماعة مرتين فى أيام عبد الرحمن الناصر ، وكان أميل إلى مذهب الشافعى منه إلى مذهب مالك ولو أنه فى أقضيته كان يحكم بما جرى به العمل فى الأندلس طبقا للمذهب المالكى . وتوفى أسلم فى سنة ٣١٩ (٩٣١) . انظر فى ترجمته ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ٢٧٨ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٣٢٢ ؛ الخشنى : قضاة ص ١٨٢ — ١٨٨ ، ١٩٠ — ١٩١ ؛ ابن الخطيب : الاحاطة (بتحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ٤٢٧/١ — ٤٣٠ ؛ النباهى : مرقبة ص ٥٧ — ٥٨ ، ٦٣ ؛ ابن سعيد : المغرب ١٥٤/١ — ١٥٥ .

(١٨٥) أسلم بن عبد العزيز يسند روايته هنا إلى أبيه عبد العزيز بن هاشم بن خالد الذى سبق لابن حيان أن ذكره من بين وزراء الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وذكر ابن حيان فى موضع آخر من هذه القطعة من المقتبس أن عبد العزيز بن هاشم هذا كان يلقب بسعاد ، ولم نعرف من أخباره أكثر من هذه الإشارات . انظر تعليقنا على هذا الاسم فيما سبق (رقم ١٢٠) .

(١٨٦) لسنا نعرف على وجه التحديد ما يقصد به راوى الخبر هنا من أن « جماعة من موالى الخلفاء تسموا بأسماء العرب » وأن « الأمير أنكر عليهم ذلك بفضل أنفته وأكد فيه نهيه » . فلسنا نعرف أن العرب أسماء اختصت بها دون الموالى . وقد

استعرضنا أسماء بيوت موالى بنى أمية وغيرهم بالأندلس وأسماء كثير من ذراريهم فلم نر فيها ما يدل على فروق جوهرية بينها وبين أسماء العرب الخلص التى أورد لنا ابن حزم مئات النماذج فيها فى كتابه « جمهرة أنساب العرب » ، ولم نر فى المراجع الأندلسية – بخلاف هذا النص – ما يدل على أن أمراء بنى أمية قد ضاقوا ذراعا بهذه الأسماء . وما أكثر ما نجد حتى فى سلائل الأسر المسيحية الأصول من يتسمون بأسماء محمد وأسماء صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام (والأسماء الشائعة بين خلفاء بنى أمية مثل معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك وهشام والوليد والحكم والأصبغ وعبد العزيز وعبد الرحمن وسليمان دون أن يبدو ذلك غريبا لأحد . صحيح أنه عرفت فى فترة متأخرة من أيام دولة بنى أمية وأيام الدولة العامرية أسماء شاعت بين الفتيان والصقالبة مثل مبارك ومظفر وواضح وخيران وزهير ولبيب وفاتن وغيرها ، ولكننا لا نعرف أن هذه الأسماء فرضت فرضا ولا أن هؤلاء منعوا من استخدام غيرها . والواقع أن اسم « مسرور » المذكور هنا أشبه فعلا بهذه الأسماء ، ولكننا لم نر لهذه الظاهرة أمثلة كبيرة تؤكد مايذكره راوى هذا الخبر . والغريب أن هذا الراوى نفسه وهو عبد العزيز بن هاشم ما ينتمى هو بدوره إلى إحدى أسر موالى بنى أمية (بنى عبد الله بن خالد) ولا نعرف أن اسمه هو ولا أسماء آبائه وأجداده قد أثارت فى نفوس مواليه الأمويين استنكاراً ولا أنفة .

(١٨٧) فى التعليق السابق أشرنا إلى غرابة ما يذكره راوى الخبر عن استنكار الأمير لتسمى جماعة من موالى الخلفاء بأسماء العرب . وأغرب منه ما يذكر هنا من أن والد القاضى مسرور – واسمه محمد – كان مولى من عتاقة أحد أمراء بنى أمية دون تعيين اسمه . ونحن نعرف أن مسروراً هذا كان ابن محمد بن سعيد بن بشير قاضى الجماعة للأمير الحكم بن هشام . ووجه الغرابة فى هذا الخبر أن كل من ترجموا لمحمد بن بشير لم يذكروا شيئا عن ولائه ، بل إنهم أكدوا كونه عربيا صريح النسب ، ينتهى إلى قبيلة معافر اليمنية ، وأن أصله من الجند النازلين بباجة حينما وزع أبو الخطار الكلبى عرب الأندلس على الكور المجندة فخص الجند المصريين منهم كورتان : تدمير (مرسية) وباجة فى غرب الأندلس ، ولهذا فإن القاضى عياض مثلا يذكر فى عقب ذلك فى ترجمته (ترتيب المدارك ٤٩٣/٢) أن « عداده فى عرب مصر » . ولم تكن كلمة « الجند » تطلق إلا على العرب الخلص . ولم يشر أحد ممن ترجم لمحمد بن بشير إلى أنه كان مولى عتاقة لأحد ، ولو كان صحيحا أنه مولى للفت ذلك نظر من ترجموا له واختصوه بالملاحظة ، كما فعل المؤلفون دائما حينما وقعوا على خبر قاض من الموالى . وقد رأينا ذلك فى ترجمة القاضى عمرو بن عبد الله بن ليث الملقب بالقبعة الذى ولاه الأمير محمد بن عبدالرحمن قضاء الجماعة ، فمحمد بن حارث الخشنى يقول فى ترجمته : « كان مولى ، وهو أول من ولى قضاء الجماعة للخلفاء من الموالى ، فشق ذلك على العرب . . وتكلموا فيه ، فبلغ ذلك الأمير محمداً رحمه الله فقال : وجدت فيه ما لم أجد فيهم » . (كتاب القضاة ص ١١٧ – ١١٨) . وهذا النص نفسه يدلنا على أن أول من نال خطة القضاء من الموالى كان فى زمن الأمير محمد فى حدود سنة ٢٥٠ أو ٢٥١ (٨٦٤ – ٨٦٥) وأن ذلك أثار ثائرة العرب . كذلك ترجم ابن بشكوال فى الصلة (رقم ٦٣٧ لفقيه من نسل محمد بن سعيد بن بشير يدعى عبد الله بن ابراهيم وعاش بين سنتى ٤١٤ و ٤٩٨ ، فقال فى رفع نسبه إنه معافرى ، ولم يذكر ولاء له . هذا والمؤرخ الوحيد فيما نعرف الذى ذكر أن محمد بن بشير كان من الموالى هو ابن عبد البر كما رأينا فيما سبق أن نقله عنه ابن حيان فى هذه القطعة من المقتبس فى أول الكلام عن قضاة الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وقد لفت هذا الخلاف نظر ابن حيان ، فقال : « وذا من اختلافهم قبيح » ، ولو أنه لم يدل برأى قاطع فى الموضوع .

ونرى هنا مظهرا آخر من مظاهر غرابة هذا الخبر الذى يسنده ابن حيان إلى قاضى الجماعة أسلم بن عبد العزيز .

(١٨٨) عن سعيد بن سليمان البلوطى أو الغافقى انظر – فضلا عما أورده ابن حيان هنا – ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ٤٧٥ ؛ الحشنى : قضاة ص ١٠٧ – ١١٣ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٧١ – ٧٢ ، ١٠٢ ؛ ابن سعيد : مغرب ١٤٧/١ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ٢١/٣ ، ٤٣ ؛ النباهى : مرقبة ص ٥٤ .

(١٨٩) فحص البلوط El Valle de los Pedroches كورة تضم السهل المنبسط الممتد فى شمال غربى قرطبة ، وكانت أهم مدنها على عهد الإسلام فى الأندلس بطروش أو بطروج Pedroche وغافق (التى أصبحت تدعى اليوم Belacazar) . انظر ياقوت : معجم البلدان ٣٦٥/٤ ؛ الإدريسى ص ١٧٥ ، ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٤٠ – ١٤٣ من النص العربى و ١٦٨ – ١٧١ من الترجمة الفرنسية ؛ الحلة السيراء ، بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ١٧٩/٢ والتعليق رقم ١ .

(١٩٠) أبو أيوب سليمان بن أسود بن سليمان الغافقى القرطبى ، ولى قضاء الجماعة فى أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم وابنه محمد مرتين ، وكان آخـر قضاته . ترجم له ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ٥٤٧ ؛ الحشنى ص ١٢٦ – ١٤١ ، ١٤٤ – ١٥٤ ؛ ابن القوطية : تاريخ ٧٢ – ٧٣ ، ١٠١ ؛ ابن سعيد : مغرب ١٥١/١ – ١٥٢ ؛ النباهى : مرقبة ص ٥٦ – ٥٩ .

(١٩١) كان حصن غافق على عهد المسلمين قاعدة كورة فحص البلوط التى مر التعليق على اسمها . وهو منسوب إلى قبيلة غافق بن الشاهد بن علقمة بن عك بن عدنان التى يقول عنها ابن حزم : « ودارهم بالأندلس معروفة باسمهم فى الجوف فى شمال قرطبة » (جمهرة ص ٣٢٨) ، وهو يعنى بذلك حصن غافق المذكور ، ويضيف ابن حزم إلى ذلك أنه كان منهم أمير الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى صاحب الغزوات المشهورة فى افرنجة (فرنسا) والذى استشهد أخيراً فى بلاط الشهداء (موقعة بواتييه) . وقد أفرد صاحب « الروض المعطار » مادة لغافق (ص ١٣٩ من النص العربى ، وانظر تعليق ليفى بروفنسال على هذا الموضع فى ترجمته الفرنسية للروض ص ١٦٧ حيث يقول إنه لم يمكن تحديد موقع هذا الحصن الآن ، إذ أنه اندثر ولم يبق ذكر لاسمه العربى القديم) . على أن الباحث الإسبانى فليكس إيرنانديث جنمينث قد أعاد دراسة هذا العلم الجغرافى فى بحث طريف بالغ القيمة ، وانتهى من هذه الدراسة إلى أن هذا الحصن قد احتفظ مدة طويلة باسمه العربى محرفا بعد أن استولى عليه المسيحيون فى صورة Gahet ثم Gahete ، ثم استبدل بهذا الاسم اسم آخـر أصبح هو الجارى حتى اليوم وهو Belalcazar ويصدق اليوم على قـرية صـغيرة تتبع بلدة (إينوخوسا دل دوكى Hino josa del Duque » وعلى بعد ثمانية كيلومترات من هذه البلدة . وهى تقع على بعد نحو مائة كيلو متر إلى الشمال الغربى من قرطبة . انظر :

Felix Hernandez Jimenez : Estudios de Geografia historica espanola, VII : Gafiq, Gahet, Gahete = Belalcazar, Al-Andalus, IX, 1944, pp. 71 - 109.

(١٩٢) تقع ماردة mérida فى غرب الأندلس على بعد نحو مائتى كيلومتر إلى شمال إشبيلية (انظر الروض المعطار . ص ١٧٥ من النص و ٢١٠ من الترجمة ، وكذلك مقال ليفى بروفنسال عنها فى دائرة المعارف الإسلامية ٥٢٧/٣ والمراجع الواردة فى هذين الموضعين) .

(١٩٣) أبو عثمان سعيد بن عثمان الأعناق (أو العناق) القرطبي ، ولد سنة ٢٣٣ (٨٤٧ – ٨٤٨) وسمع بالأندلس من محمد بن وضاح ويحيى بن ابرهيم بن مزين ومحمد بن عبد السلام الخشنى ، ورحل إلى المشرق ، فلقى جماعة من أصحاب الحديث منهم نصر بن مرزوق ، وسمع فى مصر على يونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم والحارث بن مسكين وغيرهم ، وأخذ عنه الكثيرون فى الأندلس ، وتوفى سنة ٣٠٥ (٩١٧) . انظر فى ترجمته ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ٤٨٤ الحميدى : جذوة ، رقم ٤٧٣ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ٩٠ ، ١٣٣ ، ١٤٩ ؛ الضبى : بغية ، رقم ٨٠٣ ؛ ابن عذارى : بيان ١٧٩/٢ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٢٣ ؛ المقرى : نفح ٣٨٩/٣ ؛ والقطعة مجهولة المؤلف فى تاريخ عبد الرحمن الناصر ، ص ٥٦ من النص العربى و ١٢٥ من الترجمة الإسبانية .

(١٩٤) أبو سعيد عبد الرحمن بن ابرهيم الدمشقى المعروف بدحيم قاضى فلسطين والأردن . ولد سنة ١٧٠ (٧٨٦–٧٨٧) وسمع من سفيان بن عينية وابن مسلم وغيرهما ، وتوفى سنة ٢٤٥ (٨٥٩ – ٨٦٠) . انظر فى ترجمته الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، ط . الكويت ١٩٦٠ ، ٤٤٥/١ .

(١٩٥) أبو عمرو الحارث بن مسكين بن محمد بن يوسف ، مولى محمد بن زياد بن عبد العزيز بن مروان ، فقيه مصرى مشهور ، تلمذ على الطبقة الأولى من أصحاب الإمام مالك المصريين من أمثال عبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن وهب وأشهب بن عبد العزيز ، وكان فقيها ورعا زاهداً ، وولى قضاء مصر ، وتوفى سنة ٢٤٥ (٨٥٩ – ٨٦٠) . انظر فى ترجمته : أبا عمر محمد بن يوسف الكندى : قضاة مصر ، ط . روما سنة ١٩٠٨ ، ص ١٤١–١٤٨ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٥٦٩ – ٥٧٧ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٠٧ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ٣٠٨/١ ؛ ١٤٤/٢ .

(١٩٦) أبو سعيد عبد السلام بن سعيد التنوخى المعروف بسحنون ، فقيه افريقية المشهور ، تلمذ بمصر على عبد الرحمن ابن القاسم وتفقه به ، وجمع من سماعه كتاب « المدونة » التى أصبحت تعد من أمهات كتب الفقه المالكى ، وولى قضاء القيروان ، وتوفى سنة ٢٤٠ (٨٥٤) . وترجماته فى كتب الطبقات والرجال أكثر من أن يحال فيها على كتاب بعينه . ويكفى أن نشير هنا إلى أهمها : الخشنى : طبقات علماء افريقية ، ط . الجزائر ١٩١٤ ، ص ٢٢٧ – ٢٣٦ ؛ أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيروانى : طبقات علماء افريقية وتونس ، تحقيق الأستاذين على الشابى ونعيم حسن اليافى ، تونس سنة ١٩٦٨ ص ١٨٤ – ١٨٧ (وانظر قائمة المراجع الوافية التى أوردها المحققان فى حاشية هذا الموضع) ؛ عبد الرحمن ابن محمد الدباغ : معالم الإيمان ، ط . تونس ١٣٢٢ هـ ، ٤٩/٢ – ٦٨ ؛ المالكى : رياض النفوس ، بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١ ، ٢٤٩/١ – ٢٩٠ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٥٨٥ – ٦٢٦ ؛ ابن فرحون : ديباج ، ص ١٦٠ – ١٦٦ ؛ النباهى : مرقبة ص ٢٨ – ٣٠ وانظر بروكلمان : تاريخ الأدب العربى (الترجمة العربية) ٢٨٠/٣ – ٢٨٤ .

(١٩٧) ولى أبو العباس محمد بن الأغلب على افريقية فيما بين سنتى ٢٢٦ و ٢٤٢ (٨٤١ – ٨٥٦) .

(١٩٨) ورد النص المتقدم فى كتاب القضاة للخشنى (ص ١٠٧ – ١٠٨) ولكن النصين ليسا متطابقين تماما . ويبدو أن ابن حيان لم يعتمد هنا على أصل مكتوب موثق لكتاب الخشنى ، ولعله اعتمد فى إثباته على ذاكرته ، بدليل قوله من تاريخ ولاية سعيد بن سليمان القضاء للأمير عبد الرحمن : « أحسبه فى سنة أربع وثلاثين ومائتين – والشك منى – » . فالذى جاء فى نص الخشنى المطبوع يختلف عما هنا اختلافا له قيمته : « قال محمد (ابن حارث الخشنى) : ولم أسمع بتاريخ ولايته القضاء متى كان ، غير أنه كان بلا شك بعد سنة أربع وثلاثين ومائتين » (ص ١٠٨) .

(١٩٩) ورد هذا النص أيضا فى ترجمة سعيد بن سليمان فى كتاب الخشنى (ص ١٠٨ – ١٠٩) مع اختلافات قليلة إلا أنها تدل على أن ابن حيان إما كان يعتمد على ذاكرته فى النقل عمن تقدمه من المؤرخين أو أنه كان يعتمد إعادة صوغ النصوص وكتابتها طالما احتفظ بجوهر معناها . ومن أمثلة تلك الاختلافات أن الخشنى يستخدم لفظ « الأقروف » فى المكان الذى استعمل ابن حيان فيه لفظ « القلنسوة » .

هذا وعلينا أن ننبه هنا إلى شئ تميز به النظام القضائى فى الأندلس ، مما يدلنا عليه النص الذى بين أيدينا ، ونعنى به وجود هذه الطائفة من « الوكلاء الذين يخاصمون عن الناس عند القضاة » ، وهم الذين يسميهم بعد ذلك « الخصماء » (ويسميهم الخشنى « الخصوم ») ، ويبدو أن هؤلاء كانوا يتخذون من عملهم حرفة يتكسبون بها ، بدليل ما يذكره المؤرخ بعد ذلك من أن القاضى حلف ألا يخاصموا عنده سنة « فكاد أن يورثهم الفقر » ، وعمل هؤلاء « الوكلاء » أو « الخصماء » يكاد أن يكون مطابقا تماما لعمل « المحامين » فى نظمنا القضائية الحديثة على ما نرى من وصف هذا النص له .

(٢٠٠) أبو عبد الله محمد بن عمر بن لبابه القرطبى مولى عثمان بن عبيد الله بن عثمان ، روى عن عبد الأعلى بن وهب وأبان بن عيسى بن دينار ومحمد بن وضاح ويحيى بن ابرهيم بن مزين ومحمد بن أحمد العتبى وغيرهم ، وكان مشاوراً فى أيام الأمير عبد الله بن محمد ، ثم انفرد بالفتيا فى أول أيام عبد الرحمن الناصر ، وولى الصلاة بقرطبة ، وكان مولده سنة ٢٢٥ (٨٤٠) ، وتوفى سنة ٣١٤ (٩٢٦) . انظر فى ترجمته ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ١١٨٧ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٦١٠ ؛ الضبى : بغية ، رقم ٢٢٢ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٢ ؛ الخشنى : قضاة ص ٣٦ – ٣٧ ، ٦٥ ، ٩٠ ، ١١٢ ، ١٢٨ ، ١٣٦ – ١٣٧ ، ١٦١ – ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ؛ ابن حيان : المقتبس (نشر أنطونيا) ص ٧ – ٨ ، ٤٧ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ١٤٥ – ١٤٦ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٢٤٥ – ٢٤٦ ؛ النباهى : مرقبة ص ٥٠ ، ٢٠٤ – ٢٠٥ ؛ ومن الأبحاث الحديثة : بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص ٤٥ ؛ لويث أورتيث : دخول المذهب المالكى ص ١٥٢ – ١٥٥ .

(٢٠١) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن أبى عتبة القرطبى مولى آل عتبة بن أبى سفيان ، سمع بالأندلس من يحيى بن يحيى وطبقته ، ورحل فسمع من سحنون بن سعيد بافريقية ومن أصبغ بن الفرج بمصر ، وهو صاحب كتاب « المستخرجة » الذى يعتبر من أمهات كتب الفقه المالكى بالأندلس والمغرب ، وتوفى سنة ٢٥٤ أو ٢٥٥ (٨٦٨–٨٦٩) أنظر فى ترجمته ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ١١٠٢ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٥ ؛ الضبى : بغية ، رقم ٩ ؛ ابن القوطية : تاريخ ، ص ٨١ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٢٣٨ – ٢٣٩ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ١٤٤ –

١٤٦ ؛ المقرى : نفح ٢/٤١٤ – ٤١٥ ، ٤/١٦٤ ؛ ومن الأبحاث الحديثة بروكلمان : تاريخ الأدب العربى (الترجمة العربية (٣/٢٨٤ – ٢٨٥ ؛ لويث أورتيث : دخول المذهب المـالكى ص ١٤٣ – ١٥٢) وفى هذا الكتاب بحث واف جمع فيه المؤلف كل ما يتعلق بنشاط العتبى فى ميدان الفقه وأورد تحليلا طيبا لمـا بقى من مادة كتاب « المستخرجة » أو « العتبية » والقطع المخطوطة منها فى شتى مكتبات العالم) .

(٢٠٢) ورد هذا الخبر فى كتاب القضاة للخشنى مع اختلافات طفيفة (ص ١١٢) .

(٢٠٣) جاء هذا النص فى الترجمة التى أفردها ابن الفرضى لسعيد بن سليمان (رقم ٤٧٥) .

(٢٠٤) فى ترجمة أبى بكر يحيى بن معمر الألهانى الإشبيلى انظر ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ١٥٥٣ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٩٠٤ ؛ ابن حزم : جمهرة ص ٤٣٣ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ٥١ – ٥٥ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/١٤٧ – ١٤٨ ؛ الخشنى : قضاة ص ٩٨ – ١١٠ ؛ النباهى : مرقبة ص ٤٤ – ٤٥ ، ١٤٢ ، ١٥٧ ؛ ومن الأبحاث الحديثة لويث أورتيث : دخول المذهب المـالكى ص ٦٨ – ٦٩ ، ٨١ –٨٢ ، ٨٤ .

(٢٠٥) ذكر ابن حزم فى الجمهرة (ص ٤٣٣) أن بيت القاضى يحيى بن معمر ينتسب إلى حمير ، وأن جده الأعلى حوشب ذا ظليم بن عمرو الألهانى الحميرى قتل مع معاوية بصفين . أما الداخل منهم إلى الأندلس فقد كان جد يحيى المباشر عمران بن منير بن حوشب ذى ظليم ، مع طالعة بلج بن بشر القشيرى من أهل الشام .

(٢٠٦) كذا أيضا تسميته الموضع فى كتاب الخشنى (قضاة ص ٧٩) : مغرانة . ولو أنه قال فى التعريف به إنها « حارة » من طرف الحاضرة لا « قرية » كما يذكر ابن حيان هنا ، ونرجح أن يكون الاسم فى كلا الموضعين محرفا عن عن « مقرانة » (بالقاف) ، والقاف والغين كثيراً ما تلتبسان فى المخطوطات المغربية والأندلسية إذ أن كلتيهما تكتب بنقطة مفردة من أعلى . ولابد أن (مقرانة) هذه هى نفسها « مقرينة » التى يفرد لها ابن سعيد فصلا فى كتاب المغرب (١/٢٨٨) تحت عنوان « كتاب النسرينة ، فى حلى قرية مقرينة » ، وقال عنها إنها « قرية فى نطاق حضرة إشبيلية » كان ينتسب إليها الشاعر الوشاح الزجال أحمد المقرينى المعروف بالكساد . ويبدو أنها كانت فى البدء ضاحية من ضواحى إشبيلية ، فلما اتسع عمران هذه المدينة اتصلت بها وأصبحت من أحيائها ، ومازالت كذلك حتى اليوم . وقد كان هناك باب من أبواب سور إشبيلية يطل على هذا الحى ويحمل اسم « باب مقرانة » أشار إليه ابن الأبار فى معرض الكلام عن خروج ابن عمار وزير المعتمد بن عباد من إشبيلية إلى مرسية (الحلة السيراء ٢/١٤٠ ، وقد ذكر الدكتور حسين مؤنس فى التعليق على هذا الموضع أن هذا الاسم نسبة إلى قصر رومانى قديم كان هناك يدعى قصر مكاريوس macarius وأنه مازال قسم من السور العربى القديم باقيا هناك حتى اليوم) . وقد أشار ليفى بروفنسال إلى باب مقرانة أو مقرينة وذكر أنه كان من أبواب اشبيلية الشمالية وكان يقع إلى الغرب من « باب قرطبة » (انظر تاريخه ٣/٣٣٧ – ٣٣٨ والخريطة التى أوردها لإشبيلية فى القرن العاشر الميـلادى) .

(٢٠٧) أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز القيسى العامرى ، الفقيه المصرى المعروف تلميذ مالك بن أنس والليث بن سعد ، انتهت إليه رياسة المذهب المالكى بمصر بعد وفاة عبد الرحمن بن القاسم سنة ١٩١ (٨٠٦) ، وعليه تلمذ كثير من فقهاء مصر وافريقية والأندلس ، وتوفى سنة ٢٠٤ (٨١٩) . انظر فى ترجمة القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ٤٤٧ — ٤٥٣ ؛ ابن فرحون : الديباج ص ٩٨ — ٩٩ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ، بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابرهيم ، القاهرة ١٩٦٧ ، ١-٣٠٥ ؛ وعن أثر فقه أشهب فى الأندلس انظر بحثنا عن « التيارات الثقافية المشرقية .. » ص ١٣٤ ، ١٣٨ — ١٣٩ .

(٢٠٨) أبو عبد الله أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع مولى عبد العزيز بن مروان ، الفقيه المصرى المعروف ، صحب جلة أصحاب مالك المصريين من أمثال عبد الله بن وهب وأشهب بن عبد العزيز ، على أنه كان أكثر تفقهه بابن القاسم ، ورأس مالكية مصر بعد وفاة أشهب ، وتوفى سنة ٢٢٥ (٨٤٠) . انظر فى ترجمته القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٥٦١ — ٥٦٥ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٩٧ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ٣٠٨/١ ؛ وانظر عن أثره فى مالكية الأندلس بحثنا عن « التيارات الثقافية المشرقية . . » ص ١٣٦ — ١٣٧ .

(٢٠٩) أبو القاسم بن خالد بن سعد القرطبى ، كان من أئمة الحديث فى الأندلس بصيراً بعلله وطرقه ورجاله ، وله كتاب فى رجال الأندلس ورواة الحديث فيه ألفه للحكم المستنصر ، وكان الحكم كثير الإعجاب به يضعه فى مصاف كبار أهل التجريح والتعديل المشارقة من أمثال يحيى بن معين . وتوفى خالد سنة ٣٥٢ (٩٦٣) . انظر فى ترجمته ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ٣٩٦ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٤٠٩ ؛ الضبى : بغية ، رقم ٦٩٥ ؛ وانظر بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص ٦٨ — ٦٩ .

(٢١٠) العنزة (بفتحتين) هى العصا القصيرة . ووضع هذه العصا للإمام فى المصلى يراد به تحديد المكان الذى يقوم فيه لكى يؤم المصلين . ويدل هذا على أن المصليات كانت تخلو من المحاريب الثابتة كما سبق أن ذكرنا فى تعليق سابق (انظر رقم ١٧٤) .

(٢١١) أبو إسحاق ابرهيم بن محمد بن باز القرطبى المعروف بابن القزاز ، سمع من يحيى بن يحيى الليثى وسعيد بن حسان وأبى زيد بن ابرهيم وغيرهم من شيوخ المالكية بالأندلس ورحل إلى المشرق فأخذ بمصر عن يحيى بن عبد الله بن بكير وأبى الطاهر أحمد بن أبى السرح وأخذ بإفريقية عن فقيهها المشهور سحنون بن سعيد ، فلما عاد إلى الأندلس أصبح من الفقهاء المشاورين المقدمين فى الفتيا ، على أنه فيما يبدو آثر حياة الجهاد ، فخرج إلى مجريط (مدريد) للرباط ومعه خمسة من تلاميذه القرطبيين منهم ابنه أحمد وأبو عبد الله محمد بن عبد البر وأحمد بن خالد وأحمد بن أبى زرعة ، ولكنه مرض فى الطريق إلى مجريط ، فحمله تلاميذه إلى طليطلة حيث أدركته الوفاة سنة ٢٧٤ (٨٨٧) . انظر فى ترجمته ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ١٠ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٢٥٨ ، ابن الأبار : تكلة (بتحقيق ابن أبى شنب وألفريد بيل) ط . الجزائر ٢٩ ، رقم ٢ ابن فرحون : ديباج ص ٨٤ ، ومن الأبحاث الحديثة : محمود على مكى : مدريد العربية ، القاهرة ١٩٦٧ . ص ١١٧ .

(٢١٢) أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم العتقى ، فقيه مصر المشهور ، تلمذ على الإمام مالك بن أنس وأطال صحبته وحفظ فقهه ، وكانت له رياسة المالكية فى مصر حتى وفاته سنة ١٩١ (٨٠٧) ، وعليه تفقه كبار رجال المذهب المالكى فى مصر وافريقية والأندلس وموطدو دعائم هذا المذهب فى جميع تلك الأقطار من أمثال أصبغ بن الفرج والحارث ابن مسكين ، وسحنون بن سعيد ، ويحيى بن يحيى وعيسى بن دينار . ومن سماعه جمع سحنون كتاب « المدونة » ، وعيسى ابن دينار كتاب « الهداية » . انظر فى ترجمته ترتيب المدارك للقاضى عياض ، المجلد الأول ص ٤٣٣ — ٤٤٧ ؛ وابن فرحون ديباج ص ١٤٦ — ١٤٧ ؛ والسيوطى : حسن المحاضرة ٣٠٣/١ ؛ ومن المراجع الحديثة بروكلمان : تاريخ الأدب العربى (الترجمة العربية) ٢٨٠/٣ ؛ وعن تأثير عبد الرحمن بن القاسم فى مالكية الأندلس انظر بحثنا عن « التيارات الثقافية المشرقية » ص ١٣٤ — ١٣٨ .

(٢١٣) يصور هذا الخبر مدى التزام الفقهاء الأندلسيون بآراء عبد الرحمن بن القاسم وتمسكهم بها أشد تمسك . وقد نوه بذلك المؤرخون الأندلسيون منذ قديم وافتخروا به حتى إن أبا الوليد اسماعيل بن محمد الشقندى يقول فى رسالته فى فضل الأندلس : « وأهل قرطبة أشد الناس محافظة على العمل بأصح الأقوال المالكية ، حتى إنهم كانوا لا يولون حاكما إلا بشرط ألا يعدل فى الحكم عن مذهب ابن القاسم » (المقرى : نفح الطيب ٢٠٢/٤) . وقد أحصى الفقيه أبو إسحاق الغرناطى فى القرن الثامن الهجرى المسائل التى خالف فيها الأندلسيون مذهب ابن القاسم ، فلم تتجاوز ثمانى عشرة مسألة (انظر لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكى إلى الأندلس (الملحق ص ١٦٩ — ١٧٠ حيث نقل هذه المسائل عن مخطوطة الإسكوريال رقم ١٠٧٧ ، ورقة ٢٣٤ ا) .

(٢١٤) هو أبو سعيد عثمان بن سعيد بن كليب الإلبيرى ، كان موصوفا بالزهد وولى الصلاة بحاضرة إلبيرة ، وحدث عنه محمد بن أحمد بن مفرج وغيره ، وكانت وفاته سنة ٣٤٠ أو ٣٤١ (٩٥١ — ٩٥٣) . انظر ترجمته فى ابن الفرضى : تاريخ رقم ٨٩٨ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ٥٥ ، ٤٤٤ ؛ الخشنى : قضاة ص ٨٤ ، ٨٩ .

(٢١٥) القرآن الكريم ، سورة الشعراء ، آية رقم ٢٢٧ .

(٢١٦) أبو عمر أحمد بن خالد بن يزيد المعروف بابن الجباب القرطبى ، سمع بالأندلس من محمد بن وضاح والخشنى وابرهيم بن محمد بن باز وغيرهم ، ورحل إلى المشرق ، فلقى كثيراً من أصحاب الحديث ، وعاد فكان إمام وقته فى الأندلس فى الفقه والحديث والعبادة ، وتوفى سنة ٣٢٢ (٩٣٤) . انظر ترجمته فى ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ٩٤؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٢٠٤ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٣٤ — ٣٥ .

(٢١٧) من الغريب أن ابن حيان لم يترجم لسعيد بن بشير هذا بين من ترجم لهم من قضاة الأمير عبد الرحمن بن الحكم مع أن ابن الفرضى والخشنى — وهما من مصادر ابن حيان فى هذا الجزء — يثبتان ولايته للقضاء . أما ابن الفرضى فإنه قد أفرده بترجمة خاصة ، فضلا عن أنه ذكر ولايته القضاء فى معرض الكلام عن يحيى بن معمر الألهانى (ترجمة رقم ١٥٥٣) ، ومن نصه استكملنا ما ذهب فى قطوع آخر الورقة من مخطوطة « المقتبس » كما يرى فى المتن . وأما الخشنى فإنه اختصه كذلك

بترجمة تلي في كتابه ترجمة أبيه محمد بن بشير المتوفى سنة ١٩٨ هـ . (انظر تعليقنا السابق رقم ١٨١) . على أن ابن حيان ترجم مع ذلك لأخيه مسرور محمد بن بشير الذي ولي أيضا قضاء الجماعة للأمير عبدالرحمن (انظر تعليقنا السابق رقم ١٨٠). واسم سعيد المذكور هنا هو سعيد بن محمد بن سعيد بن بشير بن شراحيل المعافري ، كان معينا لأبيه أيام ولايته القضاء للأمير الحكم بن هشام ، وذكر الخشني أن سبب ولايته القضاء هو حفظه لوديعة أودعها عنده ربيع القومس وستره إياها عن الأمير على الرغم من توعده بالعقاب كل من ستر شيئا لهذا الرجل ، وأورده بعد ذلك طائفة أخرى من أخباره . على أن ابن حيان سوف يذكره بعد ذلك عند حديثه عن وفيات سنة ٢١١ ناقلا خبره عن ابن الفرضي والرازي . وأما عن تاريخ ولاية سعيد بن محمد بن بشير للقضاء فإن ابن حيان سوف يذكر أن الأمير عبد الرحمن استقضاه بعد والده ، وكذلك قال ابن الفرضي في ترجمته والقاضي عياض في أحد قوليه ، وهو أمر يبدو لنا عسيراً على التصديق إذ أن أباه توفي سنة ١٩٨ (٨١٣ – ٨١٤) أي في أيام الحكم بن هشام وقبل ولاية عبد الرحمن ابنه بثمانية أعوام . ويذكر القاضي عياض في موضع آخـــر أن الحكم إنما عهد بقضاء الجماعة بعد وفاة محمد بن بشير إلى الفرج بن كنانة الشذوني ، وهذا أولى بالتصديق . انظر في ترجمة سعيد بن محمد بن بشير : ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ٤٧١ ؛ ابن القوطية : تاريخ ، ص ٤٥ ، ٥٨ ؛ الخشني : قضاة ص ٦٧ – ٧١ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٤٩٥ ، ٥٠٥ ، ٥٣٨ ؛ المجلد الثاني ص ٢٧ – ٢٨ ؛ النباهي : مرقبة ، ص ٢١ .

(٢١٨) ذكر الخشني هذا الخبر في ترجمة يحيى بن معمر (ص ٨١ – ٨٢) وكذلك ابن الفرضي في ترجمة (رقم ١٥٥٣) والمقصود هنا بالخسوف إنما هو كسوف الشمس ، ولعل ما جاء في النص من لفظ « الخسوف » الوارد مرتين إنمـــا هو تحريف للكسوف . وقد وصف ابن عذارى هذا الحدث بقوله : « وفي سنة ٢١٨ كان الكسوف العظيم الذي توارث معه الشمس وبدت الأظلام ، وكان ذلك قبل زوال الشمس في أواخر رمضان » ، وهذا التاريخ يقابل في التقويم الميلادي النصف الأول من شهر أكتوبر سنة ٨٣٣ . أما الخشني فينقل عن محمد بن وضاح قوله : « صليت صلاة الكسوف مع ابن معمر في الجامع بقرطبة سنة ثمان عشرة ومائتين ، فصلى وأحسن الصلاة ، ولم يقم الصلاة ، وطول في صلاته ، بدأ بالصلاة ضحى ، وقوم في القائلة (في الأصل : القابلة وهو تحريف) وقد تجلت الشمس ، وكنا في زمن الصيف » . ونص ابن حيان الذي ينقله عن الخشني يختلف قليلا عما جاء في نص الكتاب المطبوع الذي بين أيدينا ، فهو أدق تحديداً للمسجد الذي أديت فيه صلاة الكسوف ، إذ هو ينص على أنه مسجد أبي عثمان بالربض الغربي ، بينما لفظ « الجامع » في النص المطبوع يوحي بأنه مسجد قرطبة الجامع . أما ما جاء في كتاب الخشني من أن ذلك وقع « في زمن الصيف » فهو محل نظر ، إذ أن النصف الأول من أكتوبر لا يعتبر زمن صيف وقد خلا ما نقله ابن حيان من هذه الإشارة .

أما مسجد أبي عثمان المذكور فقد أشار إليه الخشني في كلامه عن القاضي محمد بن بشير إذ قال إنه « كان يقضي في سقيفة معلقة بقبلي مسجد أبي عثمان ، وكانت داره في الدرب الذي بقبلي ذلك المسجد » (كتاب القضاة ص ٥٤ – ٥٥)، ونقل ليفي بروفنسال عن القطعة المتعلقة بالأمير الحكم بن هشام من كتاب المقتبس (ورقة ١٢١ ظ) تحديداً أوفى لمكان هذا المسجد فقال إنه كان في مدخل « الربض الغربي » وفي حذاء قصر الخلافة ، كذلك ذكر المؤرخ الفرنسي أن ابن حيان أشار في موضع آخر من كتاب المقتبس أثناء الحديث عن إمارة عبد الرحمن بن الحكم (ورقة ١٧٨ ظ) فقال إنه لما شرع الأمير في الزيادة المنسوبة

إليه بالمسجد الجامع بقرطبة فى سنة ٢١٨ (٨٣٣) نقلت صلاة الجمعة إلى مسجد أبى عثمان المذكور (انظر ليفى بروفنسال : تاريخ ١٢٩/٣ ، ٣٧٦) .

(٢١٩) عن الأسوار بن عقبة انظر ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ٢٧٧ ؛ الخشنى : قضاة ، ص ٨٥ — ٨٦ ؛ ابن القوطية ص ٥٨ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ٢٤ ، ٥٣ ابن سعيد : المغرب ١٤٨/١ . وقد ذكر ابن الفرضى وابن سعيد أن الأسوار ظل على القضاء حتى وفاته سنة ٢١٣ (٨٢٨) وهما ينقلان هذا الخبر عن ابن عبد البر . أما الخشنى — ويتابعه على رأيه القاضى عياض — فإنه يذكر أنه عزل عن القضاء ثم رأى الأمير إعادته إليه فأبى واعتذر بضعف بدنه وكبر ولده .

(٢٢٠) سيفرد ابن حيان ترجمة لمحمد بن عيسى الأعشى عند الكلام عن الوفيات .

(٢٢١) فى ترتيب المدارك للقاضى عياض (٢٤/٢) : « بفتح العين والقاف » .

(٢٢٢) فى ترجمة ابرهيم بن العباس المروانى انظر الخشنى : قضاة ص ٨٩ — ٩٤ ؛ ابن حزم : جمهرة ص ٩٠ (وهو يورد فى هذا الموضع نسب ابرهيم الكامل على نحو ما ذكر ابن حيان تماما) ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ٢٠/٢ ، ٣٨ — ٣٩ ؛ ابن سعيد : المغرب ١٤٨/١ — ١٤٩ ؛ النباهى : مرقبة ص ١٥ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٥٨ — ٥٩ . وانظر التعليق القادم رقم ٣٤٧ حيث سنورد مكانه فى جدول نسب أسرته المروانية .

(٢٢٣) من الواضح أن المقصود هو أن القاضى ابرهيم بن العباس إنما اتهم بأنه يسعى إلى تدبير مؤامرة تؤدى إلى أن يستأثر بإمارة الأندلس دون عبد الرحمن بن الحكم ، وذلك اعتماداً على شرف نسبه ، إذ أن جده الأعلى هو الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك الذى فتحت الأندلس فى عهده ، ومن هنا توجهت التهمة على القاضى وعلى صديقه يحيى بن يحيى الذى لحقته الريبة فى أنه قد يكون من الساعين فى الدعوة له واستئلاف القلوب حوله .

(٢٢٤) عاق النباهى على خبر عزل ابرهيم بن العباس المروانى عن القضاء برأى عبد الملك بن حبيب بأن هذا الفقيه إنما قاس فتواه على اعتذار الإمام محمد بن إدريس الشافعى عن ولاية القضاء وكان أمير المؤمنين قد عرضها عليه وعزم عليه فى ذلك ، فاعتذر بأمور منها أن قال له : « إن هذا الأمر لا يصلح له من يشركك فى نسبك » ، (فالمعروف أن نسب الشافعى ينتهى إلى هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف) ، فقبل الخليفة اعتذاره وأقلع عنه (انظر المرقبة العليا ص ١٥) .

(٢٢٥) موسى بن حدير مولى عبد الرحمن بن معاوية الداخل رأس بيت من أنبه بيوت الموالى الأمويين من توارثوا كبرى مناصب الدولة فى ظل أمراء بنى أمية وخلفائهم . وكان أبوه حدير بوابا على باب السدة فى أيام الحكم بن هشام حينما نشبت ثورة الربض سنة ٢٠٢ (٨١٧) ، ويذكر ابن القوطية عنه أنه رفض أن يصدع بأمر الإمام الحكم حينما كلفه بأن يضرب رقاب الفقهاء الثائرين (تاريخ ص ٥٥ — ٥٦) . أما موسى بن حدير المذكور هنا فقد ولى الخزانة الكبرى على ما يذكر ابن حيان هنا ، وكما يقول أيضا الخشنى (قضاة ص ٩٢ — ٩٣) وابن القوطية (تاريخ ص ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٨

وقد توارث بيت بنى حدير بعد ذلك كبريات الخطط إلى نهاية الدولة الأموية . ولسنا فى معرض استقصاء رجال هذا البيت ، ولكنا ننبه هنا إلى ضرورة التفريق بين ثلاثة منهم يطلق عليهم جميعا اسم موسى بن حدير : أولهم هو موسى صاحب الخزانة الذى ذكرناه وهو جد هذا البيت المشهور ، والثانى هو حفيده موسى بن محمد بن موسى بن حدير ، وهو الملقب بالزاهد ، وكان اخباريا حافظا لتاريخ دولة موالية بنى أمية أديبا شاعراً ذا بديهة وروية ، وكان من ندماء الأمير عبد الله بن محمد (انظر ابن حيان : المقتبس نشر أنطونيا ص ٣٤ – ٣٥ ؛ وابن الأبار : الحلة السيراء ١/٢٣٥ – ٢٣٦) ، والثالث هو الحاجب الوزير أبو الأصبغ موسى بن محمد بن سعيد بن موسى بن حدير ، ولى المدينة فى أيام الأمير عبد الله بن محمد سنة ٢٩٣ (٩٠٦) وظل فى هذا المنصب حتى وفاة الأمير عبد الله وخلافة عبد الرحمن الناصر ، وفى سنة ٣٠٩ (٩٢١–٩٢٢) قدمه الناصر على الحجابة ، فبقى فيها حتى وفاته سنة ٣١٩ (٩٣١) . (انظر فى ترجمته ابن حيان : المقتبس ، نشر أنطونيا ، ص ١٤٢ – ١٤٣ ؛ ابن الأبار : الحلة ص ٢٣٢ – ٢٣٧ ؛ الحميدى : الجذوة ، رقم ٧٨٧ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ٢/١٨٢) .

(٢٢٦) يعنى الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد ، وهو الذى ولى الخلافة بعد وفاة أبيه عبد الرحمن الناصر فى سنة ٣٥٠ (٩٦١) ، وتلقب بالمستنصر بالله ، وتوفى سنة ٣٦٦ (٣٧٧) . ومن المعروف أنه كان عالما واسع الاطلاع ، وقد نقل الخشنى عنه فى عديد من المواضع فى كتاب القضاة كما نرى هنا ، ونقل عنه كذلك غيره من العلماء مثل ابن الفرضى فى غير موضع . ويقول عنه ابن حيان نفسه – فيما ينقل عنه ابن الأبار فى الحلة (١/٢٠٢) : « وكان مع هذا كثير التهمم بكتبه والتصحيح لها والمطالعة لفوائدها ، وقلما تجد كتابا كان فى خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر من أى فن كان من فنون العلم : يقرؤه ويكتب فيه بخطه ، إما فى أوله أو فى آخره أو فى تضاعيفه ، نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به ، ويذكر أنساب الرواة له ، ويأتى فى ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده ، لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن ، وكان موثوقا به مأمونا عليه ، صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم ، ينقلونه من خطه ويحاضرون » به وينقل المقرى كذلك عن ابن الأبار قوله عن الحكم : « عجبا لابن الفرضى وابن بشكوال كيف لم يذكراه وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر » (نفح الطيب ١/٣٧١) .

(٢٢٧) الحاجب موسى المذكور هنا هو الذى أشرنا إليه فى آخر تعليقنا السابق رقم ٢٢٥ ، ونسبه الكامل هو موسى بن محمد بن سعيد بن موسى بن حدير .

(٢٢٨) كذا جاء فى الأصل : « وأقسط فى حكمه » ، والنص منقول عن كتاب أحمد بن عبد البر ، غير أن ما نراه فى كتاب المغرب لابن سعيد (١/١٤٨) – وهو بدوره ينقل عن نفس المصدر – يختلف عما جاء هنا اختلافا كاملا ، بل هو على العكس تماما ، اذ يقابل هذه العبارة لدى ابن سعيد : « فأحسن الحكم » ، بينما يقول ابن حيان إنه « أقسط » أى ظلم وجار ، ولهذا فقد ذكرنا فى حاشية هذا الموضع أن اللفظ ربما كان محرفا عن « قسط » أى عدل وأحسن . وذلك لأننا لم نر أحداً ممن ترجموا لابرهيم بن العباس يتهمه بالجور ، وكل ما أخذوا عليه هو طواعيته ليحيى بن يحيى والمطاطاة فى شيعه .

(٢٢٩) سيفرد ابن حيان ترجمة لزونان الفقيه فى الجزء الخاص بالوفيات .

(٢٣٠) لم ينص على ولاية محمد بن سعيد الإلبيرى القضاء إلا أحمد بن عبد البر ومن نقل عنه مثل ابن حيان هنا والنباهى فى المرقبة ص ١٥ . أما الخشنى فإنه يقول بعد الفراغ من الكلام عن سعيد بن سليمان آخر قضاة الأمير عبد الرحمن وأول قضاة ابنه محمد على رأيه : « وجدت فى تسميته المستخرجة من ديوان القضاء أنه تلا سعيد بن سليمان فى القضاء محمد بن سعيد ، فلا أدرى إن كان محمد بن سعيد بن سليمان أو غيره . ولم أجد له خبراً ولا سمعت له عند من أدركت من العلماء ذكراً ، حاشى اسمه ، فإنه موضوع مع جملة أسماء قضاة الجماعة فى التسمية المستخرجة من الديوان » (قضاة ص ١١٣) . ونظن أنه مادام الخشنى قد رأى هذا الاسم فعلا فى وثيقة مستخرجة من ديوان القضاء بوصفه قاضيا للجماعة فلابد أن تكون ولايته للقضاء صحيحة ، لاسيما وقد نص عليها مؤرخون آخـــرون مثل ابن عبد البر وابن حيان الذى ينقل عنه . ويبدو أن جهل الخشنى وابن القوطية بخبر هذا القاضى راجع إلى أنه لم يبق فى القضاء إلا فترة قصيرة عزل بعدها . (انظر ابن سعيد : المغرب ١٤١/١) . وقد أشار القاضى عياض فى معرض الكلام عن فضائل يحيى بن يحيى إلى القاضى محمد بن سعيد ولكنه لم يعينه بالاسم ، بل ذكره بصفته : « قاضيا من قضاة قرطبة سماه جميل المذهب كان أشار بن يحيى بن يحيى فكان طاعة له فى قضائه لا يعدل عن رأيه » (ترتيب المدارك ٥٣٩/١) .

(٢٣١) ترجم ليخامر بن عثمان وذكر ولايته للقضاء كل من ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ١٦٤٤ ؛ والخشنى : قضاة ص ٩٤ — ٩٧ ؛ وابن سعيد : المغرب ١٤٩/١ — ١٥٠ .

(٢٣٢) الذى ورد فى تاريخ ابن الفرضى فى نسبة القاضى يخامر « المـ . . » ، ويبدو المؤلف قد كتب أولا « المعافرى» فعلا ، ثم بدا له فى رأيه فأراد أن يحذف هذا اللفظ ويصححه مثبتا « الشعبانى » كما جاءت عند الخشنى . ويدل على ذلك أننا نراه يثبت نسبة « الشعبانى » فى ترجمة سعد بن معاذ ابن أخى القاضى يخامر ثم يقول : « المصحح عنه فى النسب عن غير أحمد » . ونفهم من هذا أن النسخة التى اعتمد عليها ابن حيان من كتاب بن الفرضى كانت قد كتبت قبل أن يدخل المؤلف عليها هذا التصحيح الذى ينص على أنه أخذه من مؤرخ آخـــر غير أحمد (بن عبد البر) ، ولعل هذا المؤرخ هو نفسه محمد بن حارث الخشنى .

(٢٣٣) سيترجم ابن حيان لمعاذ بن عثمان فيما بعد.

(٢٣٤) أبو عمر سعد بن معاذ بن عثمان بن حسان بن يخامر الشعبانى القرطبى ، وأصله من جيان ، وتولى أبوه معاذ وعمه يخامر قضاء الجماعة بقرطبة ، رحل إلى المشرق فروى بمصر عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم وأخيه سعد ويونس بن عبد الأعلى وغيرهم ، وعاد إلى بلده ، فكان رأسا فى الفتيا ، وكان يتحلق إليه فى المسجد الجامع بقرطبة ويسمع منه ، وتوفى سنة ٣٠٨ (٩٢٠ — ٩٢١) . انظر فى ترجمته ابن الفرضى ، تاريخ ، رقم ٥٣٥ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٤٦٢ ؛ الخشنى : قضاة ، ص ٩٤ ، ١٨٥ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٢٥ ؛ وانظر أخيراً ابن حيان : المقتبس ، نشر أنطونيا ، (ص ٧ — ٨) .

(٢٣٥) جيان Gaén مدينة تقع إلى شرق قرطبة وتبعد عنها بنحو مائة كيلومتر وإلى شمال غرناطة وتبعد عنها بمثل هذه المسافة . انظر عنها المـــادة التى كتبها زايبولد فى دائرة المعارف الإسلامية ٦٠٨/٢ — ٦٠٩ ، ومادة الروض المعطار ص ٧٠ — ٧٢ من النص العربى و ٨٨ — ٩٠ من الترجمة ، والمراجع المذكورة فى هذين الموضعين .

(٢٣٦) الذى جاء فى كتاب الخشنى (ص ٩٤) : « قلعة الأشعث » لا « الأشعوب » كما ورد فى نص ابن حيان هنا ، على أن مؤرخنا فى موضع آخـــر من كتاب المقتبس (نشر أنطونيا ص ١١٥) يكتبه « قلعة الأشعث » موافقا للخشنى ، وذلك فى معرض الحديث عن غزوة قادها هشام بن عبد الرحمن بن الحكم والقائد ابن أبى عبدة إلى تدمير سنة ٢٨٣ (٨٩٦) وبدآ فيها بقتال سعيد بن هذيل الثائر بحصن المنتلون Monléon من كورة جيان ، ويقول ابن حيان فى هذا الموضع إن القائدين نزلا على « قلعة الأشعث » وأوقعا بما يحيط بها من بسائط وزروع . على أن الاسم ورد فى موضعين من تاريخ ابن الفرضى بصورة أخرى هى «قلعة الأشعب» ، وإن كان هذا المؤلف قد اضطرب فى تحديد الكورة التى كانت تتبعها هذه القلعة ، فهى فى الموضع الأول (ص ١٩٤) « من كورة إلبيرة » ، وجاء ذكرها فى معرض الحديث عن رجل ينتمى إلى آل سعد بن معاذ الذين كان منهم القاضى يخامر بن عثمان المذكور هنا ، وأما فى الموضع الثانى (ص ٣٥١) فإن ابن الفرضى جعل « قلعة الأشعب » هذه تابعة لجيان ، والحديث فيه عن رجل كان من تلاميذ سعد ابن معاذ الفقيه . ولم تعنا المراجع الأخرى على تحديد موضع هذه القلعة ولا تحقيق صحة اسمها ولو أنه يغلب على ظننا أنها لابد أن تكون واقعة على حدود كورتى جيان وإلبيرة . وهـذا هو ما جعل ابن الفرضى ينسبها مرة إلى هذه ومرة إلى تلك .

(٢٣٧) يشير المؤرخ بقوله « من جند قنسرين » إلى ما يعرف باسم الأجناد ، وهى فرق الجنود الشاميين الذين كانوا قد قدموا إلى الأندلس فى طالعة بلج بن بشر القشيرى فى سنة ١٢٣ (٧٤١) ، فلما قدم أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى واليا على الأندلس قرر توزيعهم على الكور مشاركين فى بعضها للبلديين الأول ، وراعى فى تفريقهم أن يسكن كل جند منهم منطقة تشبه من ناحية البيئة الجغرافية القطر الذى أتوا منه من أقطار الشرق العربى : فأسكن جند مصر فى كورتى أكشونبة وباجة وبعضهم بكورة تدمير (مرسية) ، وأنزل جند دمشق فى إلبيرة (غرناطة) ، وجند الأردن فى رية (أرشذونة ومالقة) ، وجند فلسطين فى شذونة ، وجند قنسرين فى جيان ، وجند حمص فى إشبيلية ولبلة . فالإشارة هنا إلى « جند قنسرين » يقصد بها أولئك العرب الشاميون الذين نزلوا فى كورة جيان منذ أيام أبى الخطار الكلبى . أنظر حول « الاجناد » و « الكور المجندة » نص ابن الإبار فى الحلة السيراء ٦١/١ — ٦٣ وتعليق الدكتور حسين مؤنس على هذا الموضع ، وكذلك ليفى بروفنسال تاريخ ٤٩/١ ؛ وحسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٣٦٠ .

(٢٣٨) هو عبد الله أو عبد الرحمن بن الشمر بن نمير الذى كان شاعر عبد الرحمن بن الحكم ونديمه ومنجمه . انظر فى ترجمته وأخباره : ابن عبد ربه : العقد الفريد (ط . سعيد العريان (٣٦٤/٢ ، ٢٥٥/٥ — ٢٥٦ ؛ الخشنى : قضاة ص ٩٥ — ٩٦ : ابن القوطية : تاريخ ص ٦٠ ؛ أخبار مجموعة ص ١٣٧ ؛ الزبيدى : طبقات ص ٢٨٠ ؛ ابن الفرضى تاريخ رقم ٦٨٩ ؛ الحميدى : جذوة رقم ٥٠٥ ؛ الضبى : بغية رقم ٨٤٥ ؛ ابن عذارى : بيان ٨١/٢ ، ٨٥ — ٨٦ ، ٩٢—٩٣ ؛ ابن سعيد : مغرب ٤٧/١ ، ٥٠ — ٥١ ، ١١٥ ، ١٢٤ — ١٢٧ ؛ ابن الأبار : الحلة ١١٦/١ — ١١٨ ؛ ابن الخطيب أعمال الأعلام ص ١٨ ؛ المقرى : نفح ١٢٦/٤ ، ١٤٧/٥ ؛ وانظر أخيراً البحث الممتع الذى اختص به هذا الشاعر الأستاذ إلياس تيريس سادابا فى مجلة الأندلس ، المجلد الرابع والعشرين ، سنة ١٩٥٩ ، ص ٤٤٩ — ٤٦٣ :

Elias terés Sàdaba : Ibn al-Samir, Poeta astrologo en la corte de Abd al Rahman II, Al-Andalus, vol XXIV, 1959, pp. 449 - 463.

(٢٣٩) أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن أيمن بن فرج القرطبي ، ولد سنة ٢٥٢ (٨٦٦) ، وسمع بالأندلس من محمد بن وضاح ومحمد بن عبد السلام الخشني ومحمد بن ابرهيم بن باز وابن مطروح وغيرهم ، ورحل سنة ٢٧٤ (٨٨٧–٨٨٨) إلى المشرق ، فسمع بمصر ومكة وبغداد والتى كبار محدثى المشرق من أمثال أحمد بن زهير بن حرب وعبد الله بن أحمد بن حنبل والترمذى ، وعاد إلى الأندلس ، فكان مقدما فى الشورى والفتوى ، وولى الصلاة ، وله كتب أكثرها فى الحديث من بينها مصنف اعتبره ابن حزم من أحسن ما ألف فى هذا الباب . وتوفى سنة ٣٣٠ (٩٤٢) . انظر فى ترجمته : ابن الفرضى ، رقم ١٢٢٨ ؛ الحميدى ، جذوة ، رقم ٩٨ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٣٢٠ ؛ المقرى : نفح ٦/٣ – ٧ ، ١٦٣/٤ . وقد اعتمد الخشنى كثيراً عليه فى أخبار قضاة قرطبة . وانظر من الأبحاث الحديثة لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكى ص ١١٥ – ١١٦ .

(٢٤٠) لم يذكر القاضى على بن أبى بكر الكلابى هذا إلا الخشنى (قضاة ٩٧) وليس فيه أكثر مما هو وارد هنا ، وابن سعيد فى المغرب (١/ ١٥٠) حيث يكتفى بذكر اسمه فقط ، وابن الأبار فى التكلة (ط . ألاركون وبالنثيا ، ترجمة رقم ٢٢٦٤) حيث ينص على نقله ما وصل إليه من خبر هذا القاضى عن ابن حيان .

(٢٤١) انفرد ابن حيان دون الخشنى وابن سعيد وابن الأبار بإثبات هذه العبارة التى تشير إلى أن قاضى الجماعة على ابن أبى بكر الكلابى أو القيسى كان جداً لعلى بن محمد بن الباسة المذكور هنا . وقد بحثنا فى كتب التراجم عن « ابن الباسه » هذا فلم نجد له ذكراً ، مع أن عبارة ابن حيان – أو ابن عبد البر الذى ينقل عنه ، تدل على أن ابن الباسه كان شخصية مشهورة يغنى اسمه عن التعريف به . وقد كان القاضى على بن أبى بكر – كما سنرى فى نص ابن حيان – يحمل لقبا عجميا هو « يوانش «Iohannes» (انظر التعليق التالى) ، وها نحن أولا نرى أن حفيده على بن محمد المذكور هنا سوف يحمل بدوره لقبا عجميا آخر هو « ابن الباسه » ، ويظهر أنه يقابل Paso أو pasa (من اللاتينية Passa أى الزبيب) .

وإذا كنا لم نوفق إلى العثور على ترجمة أو إشارة إلى على بن محمد بن الباسه المذكور – وهو ينبغى أن يكون قد عاش فى زمن لا يتجاوز العصر الذى عاش فيه المؤرخ أحمد بن عبد البر مرجع ابن حيان هنا ، أى نحو منتصف القرن الرابع الهجرى فإننا بالتنقيب فى المراجع الأندلسية المتأخرة قد عثرنا على بعض من تسموا بهذا الاسم أشهرهم على الإطلاق المهندس الكبير شيخ العرفاء أحمد بن باسه الذى يعتبر من عباقرة المهندسين المعماريين الأندلسيين ، وقد كشف لنا كتاب « المن بالأمامة على المستضعفين » للمؤرخ ابن صاحب الصلاة فى تاريخ الدولة الموحدية عن بعض جلائل أعماله ، منها بناؤه لمدينة جبل طارق واستحكاماتها فى سنة ٥٥٥ (١١٦٠) فى عهد عبد المؤمن بن على (المن بالإمامة ، بتحقيق الأستاذ عبد الهادى التازى ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ١٣٩) ، وبناؤه لقصور قرطبة واستصلاح مبانيها القديمة وترميمها فى سنة ١١٦٢/٥٥٧ (ص ٢٠٦) وبناؤه لقصور البحيرة فى إشبيلية سنة ١١٧٢/٥٦٧ (ص ٤٦٧) ، وأخيراً قيامه فى نفس السنة ببناء المسجد الجامع الكبير بإشبيلية وصومعته الكبرى الباقية حتى اليوم والمعروفة باسم « الخيرالدا la Giralda » ، وهى تعتبر إلى الآن تحفة من تحف الفن المعمارى (ص ٤٧٤ ، ٤٨٢) . ويبدو أن ابن باسه المذكور هو الذى بنى كذلك منار حسان فى مدينة الرباط ومنار الكتبية فى مراكش ، إذ هما ينتميان الى نفس طراز صومعة جامع اشبيلية التى أشرنا إليها . وقد أورد الأستاذ عبد الهادى التازى محقق كتاب « المن بالإمامة » فى حاشية ص ١٤٠ تعليقا طريفا قال فيه إن أسرة « باسه » لا تزال معروفة إلى اليوم

بالمغرب وإليها ينتسب بنو باسه الذين يتوارثون مناصب القيادة فى ناحية مدينة تادلة أو تادلا (بجنوب المغرب) ومنهم إلى الآن بمدينة فاس بعض البنائين المهرة من يعتمدهم القصر الملكى فى مبانيه .

كذلك ينبغى أن نشير إلى أسرة اشتهرت فى مملكة النصريين بغرناطة تحمل اسم « بنى باصه » وعرف أفرادها بالبراعة فى علوم الهيئة (الهندسة) وصناعة الآلات الفلكية ، ويذكر ابن الخطيب منهم أحمد بن حسن بن باصة الأسلمى المؤقت بالمسجد الأعظم بغرناطة ، وكان أبوه شيخ الجماعة فى هذا الفن أيضا وانتقل إلى غرناطة من شرق الأندلس ، وكانت وفاته فى سنة ٧٠٩ (١٣٠٩ — ١٣١٠) . (انظر ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ، بتحقيق الإستاذ محمد عبد الله عنان ٢١١/١) . ومن الأسرة نفسها حسن بن محمد بن باصه رئيس المؤقتين بالمسجد الأعظم بغرناطة وكان كذلك إماما فى علم الحساب والهيئة ماهراً فى التعديل (التقاويم الفلكية) ، وتوفى بغرناطة سنة ٧١٦ (١٣١٦) . (نفس المرجع ص ٤٧٦) . وعلى الرغم من أن الاسم هنا بالصاد بدلا من السين فإن هذين المهندسين الغرناطيين يبدوان لنا من نفس الأسرة التى ينتمى إليها المهندس المعمارى أحمد بن باسة « شيخ العرفاء » وبانى قصور اشبيلية ومسجدها الجامع على أيام الموحدين .

ونختم هذا التعليق بالإشارة إلى شخصية متقدمة على هذا العصر أشار إليها ابن حيان نفسه ، وكان لها — وهذا من عجيب الموافقات — صلة بالمبانى والقصور ، ولو أن الأمر هنا على العكس إذ هو مرتبط بالهدم والتخريب لا بالبناء والتعمير ، ونعنى بهذه الشخصية من يدعوه ابن حيان « ابن باشه » — هذه المرة بالشين — واصفا إياه بأنه « هدام القصور ومبور المعمور » ويقول ابن حيان — فيما ينقل عنه ابن بسام فى « الذخيرة » إن أبا الوليد محمد بن جهور ثانى ملوك الجهاورة وأصحاب قرطبة بعد انقطاع دولة بنى أمية منها كان قد استوزر ابن السقاء القرطبى وأسلم إليه تدبير أمور قرطبة ، وكان ابن باشة المذكور من صنائع ابن السقا فقدمه هذا « لجمع آلات ما تهدم من القصور المعطلة (يقصد قصور بنى أمية المهجورة وما بقى منها بعد الفتنة) ، فاغتدى عليها أعظم آفة . . . فعاث فيها عياث النار فى يبيس العرفج ، وباع آلاتها من رفيل المرمر ومثمن العمد ونضار الخشب وصافى الحديد والرصاص بيع الإدبار » ، ويفصل ابن حيان بعد ذلك ما فعله ابن باشة من بيع أنقاض قصور بنى أمية لرسل ملوك الطوائف وما غله من ثروة وأموال من وراء ذلك (انظر ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ١١١/٢ — ١١٣) . ولسنا نعرف ما إذا كان لابن باشة المذكور صلة بابن الباسه حفيد قاضى الجماعة بقرطبة من ناحية ، وبابن باسه شيخ العرفاء على عهد الموحدين من ناحية أخرى ، ولو صح ذلك لكان من غريب المفارقات أن ينحدر المهندس العبقرى معمر قرطبة ومرمم قصورها وبانى صروح اشبيلية ومسجدها الجامع من صلب ابن باشة مثلوب ابن حيان « هدام القصور ومبور المعمور » على حد تعبيره ! . .

(٢٤٢) هذا اللقب الذى وضع للقاضى على بن أبى بكر الكلابى : « يوانش » يقابل فى اللاتينية Iohannes وهوالذى أصبح يقابل فى اللغات الأوربية الحديثة : Juan فى الإسبانية ، و Jean فى الفرنسية ، و John ، و Giovanni فى الإيطالية . وإطلاق مثل هذا اللقب اللاتينى على قاض للجماعة عربى الأصل فيما يبدو — إذ لم يذكر أحد ممن ترجم له أنه كان من الموالى ذوى الأصول العجمية — يدل على صحة تلك الحقيقة التى أكثر المستشرقون الإسبان من الحديث عنها ، وهى شيوع اللغة العجمية الطينية فى الأندلس كما يدعوها المؤلفون الأندلسيون أو اللاتينية الدارجة الشائعة فى إسبانيا ، والتى أدت بعد ذلك

إلى مولد اللغة الإسبانية أو القشتالية (بين جميع أوساط الأندلسيين المسلمين حتى الأمراء والفقهاء والنبلاء) . انظر على سبيل المثال كتاب المستشرق خوليان ريبيرا : محاضرات ورسائل ، ١/٢٩ وما بعدها :
Juliàn Ribera y tarraga : Disertaciones y opusculos, Madrid, 1928, I, p. 29 ...
على أنه مما يلفت النظر هنا فى لقب « يوانش » أنه لم يكن نبذاً مما اعتدنا أن نراه على غيره من الأندلسيين ، أى صفة معينة تحدد شخصية المنبوز أو تبرز جانباً من جوانب عيوبه الجسمية أو الخلقية مثل قولهم « البطرة شقة Petra Secca الحجر اليابس » أو « ألمه ماله Alma Mala = النفس الخبيثة » أو « المغزيلة El Magrilla = المـــزيل المحروق . . . » الخ ، ولكنه إسم عادى كثير الشيوع فى الأوساط الأسبانية القديمة والحديثة فلماذا اختير هذا اللقب نبزاً لذلك القاضى الجليل الذى لم يذكر إلا بخير . ؟ لسنا نعرف من أخبار على بن أبى بكر الكلابى ما يعين على إيضاح هذه النقطة .

(٢٤٣) قبرة Cabra بلدة صغيرة من أعمال قرطبة ، وهى تقع منها على بعد نحو سبعين كيلو متر إلى الجنوب الشرقى منها . انظر عنها المـــادة الواردة فى « الروض المعطار » ص ١٤٩ — ١٥٠ من النص و ١٧٨ — ١٧٩ من الترجمة والمراجع المذكورة فى هذا الموضع .

(٢٤٤) عن معاذ بن عثمان الشعبانى انظر الخشنى : قضاة ص ٩٧ — ٩٩ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/١٥٠ ؛ النباهى : مرقبة ص ٥٥ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٥٩ ؛ ابن الأبار : تكملة ، ترجمة رقم ١١٦٤ .

(٢٤٥) الذى جاء فى كتاب الخشنى (ص ٩٧) : « سبعة عشر شهراً » .

(٢٤٦) علق الخشنى على هذا الخبر فقال إن هذه الحكاية عن السبب فى عزل القاضى معاذ بن عثمان — فيما يرى — مدخولة لأنه لا ينكر تنفيذ الأقضية وكثرتها مع حضور الحق ، فإذا صحت فإنها قد تكون من تحامل الفقهاء ، إذ « كلما طالت الخصومات كان أنفع لهم » (الخشنى : قضاة ص ٩٨) .

(٢٤٧) « الأحباس » فى الاصطلاح المغربى والأندلسى — وتسمى كذلك الحبوس — هى التى نعرفها فى الشرق باسم « الأوقاف » أى ما يوقف أو يحبس على أغراض الخير والبر من الأموال . وقد كان الإشراف على هذه الأوقاف من عمل القضاة ، غير أن القاضى كان ينتدب له من يراه صالحا للنظر على الأوقاف . (انظر فى الوقف فى الإسلام دائرة المعارف الإسلامية ٤/١١٥٤ — ١١٦٢) وفى نظام الأوقاف فى الأندلس ليفى بروفنسال : تاريخ ٣/١٣٣ — ١٣٤) . ويبدو أن النظر على الأوقاف كان دائما مثيراً للريبة وشبهة الإثراء الحرام . فابن الفرضى يترجم فى تاريخه لفقيه يدعى محمد بن سعيد بن قرط كان قاضى الجماعة أبو بكر محمد بن إسحاق بن السليم قد قدمه إلى النظر فى الأوقات ، فبقى عليها طوال مدة قضائه ثم جانبا كبيراً من مدة خلفه محمد بن يبقى بن زرب ، ثم عزله عنها ، وأثار عليه هذا النظر قضية طويلة عزل فيها وذهب فيها أكثر ماله حتى إنه مات فقيرا فى سنة ٣٨١ (٩٩١) . (انظر تاريخ ، رقم ١٣٦٠) .

(٢٤٨) شاع فى الأندلس ضرب المثل فى الإفساد والتدمير بفعل الدب فى خلايا النحل على نحو لم نر له مثيلا فى المشرق ويفسر هذا بأن الدب من الحيوانات المـــألوفة فى الأندلس كالشأن به فى مختلف بلاد أوربا ، حتى إن رسم الدب أصبح يؤلف جزءاً من رنك (أو شارة) مدينة مدريد المميز لها ، إذ يرسم واقفا وهو يتناول ثمراً من شجرة برقوق برى ، وأصبح تعبير « الدب والبرقوق البرى El oso y el madrono » علماً على عاصمة إسبانيا حتى اليوم ، وإنما كان ذلك بسبب كثرة الدببة فى جبال « وادى الـــرمل sierra La Guadarrama » القريبة من مدريد (انظر كتابنا عن « مدريد العربية » ص ٣٢) .

أما المثل الذى يضرب به الغزال هنا بفعل الدب فى النحل فإننا نراه فى الأندلس حتى العصور المتأخرة متخذاً صورة عامية ، فقد جاء ضمن أمثال العوام الأندلسية التى استخرجها الدكتور محمد بن شريفة من كتاب « رى الأوام ومرعى السوام فى نكت الخواص والعوام » لأبى يحيى عبيد الله بن أحمد الزجالى القرطبى (عاش بين سنتى ٦١٧ و ٦٩٤/١٢٢٠ — ١٢٨٥) ، وذلك على الصورة الآتية « اشا عمل الدب يعجب للجباح » ومعناه : أى شئ يعمله الدب فإنه يعجب الجباح — بتشديد الباء أى جانى النحل ومشتاره — ، ويفسر الدكتور محمد بن شريفه المثل بأن الدب يتسبب فى تدمير خلايا النحل البرية التى تكون فى الجبال فتنزل إلى النحال ، وقد يكون المقصود أن الدب لا يفتأ يتتبع خلايا النحل ويتشمم مواقعها ، فيدل بذلك جامعى النحل على أمكنة الخلايا ، فينتفعون بذلك . وقد أورد محقق النص فى تعليقه على هذا المثل مثلا إسبانيا ورد فى المجموعة التى جمعها « كليسر Kleiser » ، وهذا نصه : A donde hallo un panal, yuelve el oso a husmear

أى « حيثما وجد الدب خلية نحل فإنه لا يلبث أن يعود إلى تشممها » (انظر نص الأمثال المستخرجة ، رقم ١٧٣ ، ص ٤١ من المنسوخ على الآلة الكاتبة) .

ويبدو أن التمثيل بتدمير الدب لخلايا النحل كان شائعا فى الأدب الإسبانى القديم فعلا ، فنحن نجد تعبيراً قريبا مما يذكره الغزال فى أبياته فى مسرحية بعنوان إيوفيميا Eufemia » كتبها أحد رواد المسرح الإسبانى وهو « لوبى دى رويدا Lope de Rueda » (المتوفى سنة ١٥٦٠ م.) يقول فيها على لسان أحد شخصيات الرواية إنه ليس هناك رجل ولا امرأة فى كل القرية يتحدث عن أمه خيراً مما تتحدث به النحل عن الدب . انظر « مسرح لوبى دى روايدا » فى مجموعة « الكتاب الكلاسيكيون فى الأدب الإسبانى » ، بتحقيق وشرح مورينو فيليا ، ط . مدريد سنة ١٩٤٩ ، المجلد التاسع والخمسون، ص ٩
Lope de Rueda : Teatro, ed. J. Moreno Villa, Colección clasicos Castellanos, No. 59, Madrid, 1949.

وعن هذا المؤلف المسرحى انظر ماكتبناه فى مقالنا « المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر » ، فى مجلة « المجلة » ، العدد ١٦ ، أبريل ١٩٥٨ ص ٤١ — ٥١ ، وانظر بصفة خاصة ص ٤٢ — ٤٣ .

أما أبيات الغزال الواردة فى نص ابن حيان فقد جاءت أيضا فى ترجمة القاضى معاذ بن عثمان فى كتاب الخشنى : قضاةص ٩٩ وتكلة ابن الأبار ، رقم ١١٦٤ ؛ وفى العقد لابن عبد ربه (ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة) ٢١٧/٣ ، مع فروق طفيفة فى الرواية .

(٢٤٩) عن الفقيه سعد بن معاذ انظر تعليقنا السابق رقم ٢٣٤ .

(٢٥٠) عن لفظ « الأبدال » وما فسره به المحدثون والمتصوفة انظر بحث أسين بلاثيوس عن « ابن مسرة القرطبى ومدرسته » ، ص ١٨٦ ، حاشية رقم ١ ؛ وكذلك نفس المؤلف عن محيى الدين بن عربى المرسى تحت عنوان El Islam cristianizado « (ط . مدريد ١٩٣١) ص ٤١ ، ٣٢٩ ، وعاد هذا المستشرق الإسبانى الذى تخصص فى دراسة التصوف الإسلامى إلى شرح نظرية « الأبدال » الصوفية فى أحد تعليقاته على ترجمته الإسبانية لكتاب محيى الدين ابن عربى « رسالة القدس » (ط . مدريد — غرناطة ١٩٣٣) :
Miguel Asin Palacios : Vidas de Santones andaluces, Madrid - Granada, 1933.

واعتمد أسين بلاثيوس فى شرح هذه النظرية على ما ورد فى « الفتوحات المكية » لابن عربى (٢/٧-١١) حيث يقول فى فى ترتيب المقامات الصوفية إنها تبدأ « بالقطب » ، يليه « إمامان » يخلفانه عند موته ، ثم أربعة « أوتاد » فى جهات العالم الأربع ، ويليهم سبعة « أبدال » كل منهم فى واحد من أقاليم الأرض السبعة ، وبعدهم اثنا عشر نقيبا يختص كل منهم بواحد من أبراج الفلك الاثنى عشر ، ثم ثمانية « نجباء » لطبقات السماء . (انظر ترجمة « رسالة القدس » ص ١٣٦ ، حاشية رقم ٢) هذا وقد تتبعنا فى بحثنا عن التيارات الثقافية المشرقية وأثرها فى تكوين ثقافة الأندلس » من اصطلح الأندلسيون على تسميتهم بالأبدال من صوفية بلادهم وزهادها (انظر ص ١٥٧ والحاشية رقم ٤) .

(٢٥١) عن الحاجب ابن رستم انظر ما سبق أن أورده ابن حيان فى ترجمته وتعليقنا رقم ١٠٩ .

(٢٥٢) محمد بن زياد بن عبد الرحمن بن زياد بن عبد الرحمن بن زهير ، ينتهى نسبه إلى جزيلة بن لخم ، وأبوه هو زياد المعروف بشبطون صاحب الإمام مالك وأول من أدخل الموطأ إلى الأندلس ، وقد أعقب زياد المذكور ابنين محمداً وأحمد تولى كلاهما قضاء الجماعة فى قرطبة . وكان محمد أكثر الرواية عن معاوية بن صالح الحضرمى أو الشامى الذى ولى القضاء فى أيام عبد الرحمن الداخل ، ومعاوية بن صالح هو جده لأمه ، وولى قضاء الجماعة بعد سعيد بن سليمان البلوطى . وجمعت له معها الصلاة ، واختلف الرواة فى تخليه عن هذا المنصب ، فقال بعضهم مثل ابن القوطية إنه استعفى ، وقال آخرون مثل الخشنى والنباهى إنه عزل بسبب قضية ابن أخى عجب فى خبر طويل . ويذكر الحميدى والضبى أنه مات بعد سنة ٢٤٠ (٨٥٤ - ٨٥٥) بيسير . انظر ترجمته فى ابن القوطية : تاريخ ص ٧١ ؛ الخشنى : قضاة ص ٩٩ - ١٠٦ ؛ ابن الفرضى رقم ١٠٩٦ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٥٥ ، الضبى : بغية ، رقم ١٢٠ ؛ ابن سعيد : مغرب ١/١٥٠ ؛ النباهى : مرقبة ص ٥٥ - ٥٦ ؛ ومن المراجع الحديثة لوبث أورتيث : دخول المذهب المـالـكى ص ٧٠ ، ٧٩ ، ١٠٢ . وانظر تعليقنا الآتى رقم ٣١٧ حول بيت بنى زياد .

(٢٥٣) أبو القاسم أحمد بن محمد بن زياد المعروف باسم الحبيب ، وهو ابن المتقدم ذكره فى التعليق السابق . تلمذ على محمد بن وضاح وعلى أبيه محمد وعمه أحمد وكلاهما ولى قضاء الجماعة ، وكان أول نباهته أنه كان من الفقهاء المشاورين فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن (ت سنة ٢٧٣/٨٨٦) وهو لا يزال شابا بعد ، ثم أم بالناس صلاة الاستسقاء فى عهد المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥/٨٨٦ - ٨٨٨) فسقى الناس واستبشروا به . ولـمـا ولى الأمير عبد الله بن محمد الإمارة ولاه قضاء الجماعة لأول مرة فى سنة ٢٩١ (٩٠٤) بعد وفاة محمد بن سلمة ، وكان غنيا مولا إذ كان قد اشتغل بالتجارة من قبل بنصيحة قاضى الجماعة سليمان بن أسود . وهو أول قاض لم يقبل فتيا من فقيه إلا إذا نصها بخط يده ، فتألفت له من فتاوى الفقهاء عدة مجلدات . واعتمد فى الفتيا على محمد بن وليد وابن أيمن استغناء عن أبى صالح أيوب بن سليمان ومحمد بن عمر بن لبابة ، وكان متباعداً عنهما . وظل على القضاء هذه المرة حتى وفاة الأمير عبد الله فى سنة ٣٠٠ (٩١٢) ، فلما ولى عبد الرحمن (الناصر) ظل الحبيب بن زياد على القضاء فترة يسيرة ، ثم عزل فى نفس السنة ، وخلفه أسلم بن عبد العزيز (٣٠٠ - ٣٠٩/٩١٢ - ٩٢١ أو ٩٢٢) ، ثم عزل أسلم وأعيد الحبيب بن زياد إلى القضاء وجمع له مع الصلاة ، وكانت عودته إلى المنصب فى هذه المرة بفضل صلته بالحاجب بدر . وظل على القضاء والصلاة حتى توفى غير معزول فى سنة ٣١٢ (٩٢٤-٩٢٥) . وانتقده ابن عبد البر فقال إنه أهان خطة القضاء وابتذلها بركوبه إلى السلطان . انظر ترجمته الخشنى : قضاة

ص ١٧٤ – ١٨٢ ، ١٨٨ – ١٩٠ ؛ ابن حيان : المقتبس (نشر أنطونيا) ص ٧ ؛ ابن الفرضى : رقم ١٣٣ ؛ ابن سعيد : مغرب ١/١٥٥ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ٤٤٠ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٣٣ . وانظر تعليقنا الآتى رقم ٣١٧ .

(٢٥٤) معاوية بن صالح الحضرمى الحمصى الشامى فقيه محدث مشهور ، قدم إلى الأندلس فى سنة ١٢٣ (٧٤٠) فى طالعة بلج بن بشر القشيرى على ما يبدو ، واستقر أولا فى مالقة حيث قام ببناء المسجد الذى قدر له أن يحمل اسمه فى قصبتها ثم انتقل إلى اشبيلية حيث اتصل بآخر ولاة الأندلس لبنى أمية : يوسف بن عبد الرحمن الفهرى . وحينما قدم عبد الرحمن ابن معاوية الداخل قربه وأحظاه وعهد إليه بعدة مهام كبرى منها العودة إلى الشام لكى يرافق أختين كان الأمير قد تركهما بالمشرق عند فراره إلى الأندلس ، ولبث مدة فى طريقه فى مصر حيث روى عنه كبار فقهائها مثل الليث بن سعد ، ورحل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وسمع منه كبار فقهاء المدينة ومحدثى العراق الذين انثالوا عليه ليأخذوا عنه أحاديثه ، ومن بين من سمع منه فقيه المدينة الأكبر مالك بن أنس وسفيان الثورى ومحمد بن عمر الواقدى . وعاد إلى الأندلس فى نحو سنة ١٤٢ (٧٥٩) فولاه عبد الرحمن الداخل القضاء بعد وفاة قاضيه يحيى بن يزيد ، وظل يلى هذه الخطة حتى رحلته الثانية إلى المشرق فى سنة ١٥٤ (٧٧١) ، وكان هدفه فى هذه الرحلة هو تأدية فريضة الحج ، وكان يرافقه فيها صهره زياد بن عبد الرحمن اللخمى المعروف بشبطون . على أنه أسمع الحديث فى مصر والحجاز أيضا . ولما عاد إلى الأندلس ولاه عبد الرحمن القضاء من جديد إلا أنه كان يعاقب بينه وبين عمرو بن شراحيل . وتوفى بقرطبة سنة ١٧٨ (٧٩٤ – ٧٩٥) فى عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن . وقد استخرجنا هذه الترجمة « التقريبية » من ركام الأخبار المتضاربة المتناقضة عن حياة معاوية بن صالح مما ورد فى المراجع المشرقية والأندلسية ، ويعتبر معاوية بن صالح « مدخل علم الحديث إلى الأندلس » على حد قول يحيى بن يحيى الليثى ، وبلغ من مكانته فى هذا العلم أن محدثا عراقيا هو زيد الحباب المكلى دخل إلى الأندلس قادما من العراق لكى يسمع منه أحاديثه ، ولو أن الأرجح هو أن يكون قد سمع منه فى المدينة لا فى الأندلس . على أن الثابت هو أن عدداً من أكبر علماء الحديث مثل ابن حنبل والبخارى قد ذكراه فى كتبهما . وعلى الرغم من هذه المكانة فإن ذكرى معاوية بن صالح قد اندثرت أو كادت فى الأندلس ، وضاعت أحاديثه ، على أن المحدثين الأندلسيين اجتهدوا – فى فترة متأخرة نسبيا – فى جمع هذه الأحاديث ، فأورد ابن عبد البر جملة منها فى كتاب « جامع بيان العلم وفضله » ، ثم أفردها الأديب الأندلسى ابن الأبار البلنسى « المتوفى سنة ٦٥٨–١٢٦٠) بكتاب خاص : « المدخل الصالح فى حديث معاوية بن صالح » .

انظر فى ترجمته وأخباره من الكتب المشرقية : الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ٨/٤٤٢ ؛ محمد بن الطاهر بن على المقدسى المعروف بابن القيسرانى : الجمع بين كتابى نصر الكلاباذى وأبى بكر الإصبهانى فى رجال البخارى ومسلم ، ط . حيدراباد ١٣٢٣ (١٩٠٤) ص ٤٩١ ؛ الذهبى : ميزان الاعتدال فى نقد الرجال ، القاهرة ١٣٢٥ (١٩٠٦) ٣/١٧٩ ؛ ابن حجر العسقلانى : تهذيب التهذيب ، حيدراباد ١٣٢٥ ، ١٠/٢٠٩ ؛ صفى الدين أحمد بن عبد الله الخزرجى : خلاصة تهذيب الكمال ، القاهرة ١٣٢٢ ، ص ٤٢٦ ؛ ومن الكتب المغربية والأندلسية : ابن القوطية : تاريخ ص ٣٤ ، ٤٣ – ٤٤ ؛ الخشنى : قضاة من ٣٠ – ٤٢ ؛ ابن الفرضى ، رقم ١٤٤٣ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٧٩٦ ؛ الضبى : بغية ، رقم ١٣٣٨ ابن سعيد : مغرب ١/١٠٢ ، ١٤٣ – ١٤٤ ؛ ابن الأبار : معجم أصحاب أبى على الصدفى ص ١٨٠ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٢٥٨ ، ٣٤٩ – ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٦٧ ، ٥١٠ ؛ ابن عبد المنعم الحميرى : الروض

العطار ص ١٧٨ ؛ ابن فرحون : ديباج ١١٨ ؛ النباهي : مرقبة ٤٣ ، ٥٥ المقرى : نفح ٤٦/٤ ؛ ومن الأبحاث الحديثة انظر لويث أورتيث : دخول المذهب المسالكي ص ٢٠ ، ٣٦ — ٤٠ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٧٩ ، ١٠٦ ؛ ومحمود مكي : التيارات الثقافية المشرقية ص ٦٢ — ٦٤ .

(٢٥٥) ليس سماع محمد بن زياد اللخمي من معاوية بن صالح أمراً مستبعداً ، فمعاوية المذكور هو جده لأمه ، إذ كان زياد المعروف بشبطون متزوجاً من ابنة معاوية . وقد توفى هذا على ما رجحناه فى سنة ١٧٨ (٧٩٤ — ٧٩٥) . (انظر فى تحقيق سنة وفاة معاوية بن صالح : الحميدى : جذوة ص ٣١٨ — ٣٢٠ ، وبحثنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٦٣ ، حاشية رقم ١) ، ونحن نعرف أن محمد بن زياد توفى بعد سنة ٢٤٠ بمدة يسيرة . ولكنا نشك فى أنه سمع منه كثيراً — على الأقل مباشرة — فقد توفى معاوية بن صالح قبل وفاة محمد بن زياد بنحو خمس وستين سنة على الأقل ، ولم يعرف عن ابن زياد طول عمر مفرط ، فإذا كان حقا ما يذكر هنا من أنه سمع على جده معاوية بن صالح فلابد أنه كان صغيرا جداً حينئذ ، ولعل المقصود هنا هو أنه توفرت له مادة كبيرة من أحاديث معاوية بن صالح وربما يكون قد نقلها عن أبيه زياد شبطون الذى كان صهره على ما رأينا .

(٢٥٦) محمد بن عبد الله بن يحيى بن يحيى بن يحيى الليثى المعروف بابن أبى عيسى ، ينتهى نسبه إلى الفقيه المشهور يحيى ابن يحيى صاحب الإمام مالك بن أنس وأحد من يرد إليهم أكبر الفضل فى توطيد المذهب المسالكى فى الأندلس . ولد فى سنة ٢٨٤ (٨٩٧) وسمع من عم أبيه عبيد الله بن يحيى ومن محمد بن عمر بن لبابة ، ثم رحل إلى المشرق سنة ٣١٢ (٩٢٤) فدخل مصر وحج وسمع بمكة من ابن المنذر والعقيلى وابن الأعرابى ، وكان حافظا جامعا للسنن متصرفا فى علم الإعراب ومعانى الشعر ، شاعراً مطبوعا ، بصيراً بالفقه . وشاوره القاضى أحمد بن بقى ، وولاه عبد الرحمن الناصر القضاء فى إلبيرة وجيان وبجانة وطليطلة وغيرها . ثم ولى قضاء الجماعة بقرطبة بعد ابن أبى طالب الأصبحى فى سنة ٣٢٦ (٩٣٨) ، وجمعت له الصلاة بعد ذلك مع القضاء ، وكان يشاور مع الوزراء دون أن يتلقب بالوزارة ، ويتصرف فى السفارات التى كان عبد الرحمن الناصر يوجهها إلى العدوة وغيرها من الأقطار ، كما كان كثيراً ما يخرج إلى الثغور ويتصرف فى إصلاح ما وهى منها ، وعلى يده بنيت مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط ، تولى ذلك مع غالب الصقلى مولى عبد الرحمن الناصر . وخرج فى إحدى هذه المهمات فى صدر سنة ٣٣٨ (٩٤٩) فلما جاوز طليطلة اعتل فى قرية من أعمالها ، ثم أدركته وفاته فى سنة ٣٣٩ (٩٥٠) . انظر ترجمته فى الخشنى : قضاة ص ٢٠٢ — ٢٠٦ ؛ ابن الفرضى : رقم ١٢٥١ ؛ الفتح بن خاقان ؛ مطمح الأنفس ص ٥٢ — ٥٦ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ٤٠٥ — ٤١٢ (وفى هذين المرجعين الأخيرين أخبار طريفة ونوادر للقاضى ابن أبى عيسى منها حكاية وقعت له مع المعتوه ابن شمس الضحى نأخذ منها أنه كان يلقب بنبز عجمى هو « المغريلة El Magrilla » أى المهزول أو المعروق باللاتينية الدارجة الشائعة فى كلام الأندلسيين المسلمين ، وهو ما تعنيه هذه اللفظة فى اللغة الإسبانية حتى اليوم ، كذلك نعرف أن أباه وجده كانا يلقبان كذلك بنبزين عجميين آخرين) ؛ النباهي : مرقبة ص ٥٩ — ٦٣ ؛ مفاخر البربر ص ٦٠ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٢٦٥—٢٦٦ المقرى : نفح ٢٢٠/٢ — ٢٢٢ .

(٢٥٧) أبو اسماعيل أو أبو يعقوب إسحاق بن يحيى بن يحيى الليثى القرطبى ، سمع من أبيه يحيى بن يحيى ، وكان أكبر من أخيه عبيد الله وإن كان أدنى منه منزلة ومكانة . وكانت وفاته سنة ٢٦١ (٨٧٥) . انظر ترجمته فى ابن الفرضى : رقم ٢٢٢ ؛ الحميدى ، رقم ٣١١ ؛ وانظر كذلك لوبث أورتيث : دخول المذهب المـالـكى ص ٧٠ – ١٢٧ .

(٢٥٨) عن عبيد الله بن يحيى بن يحيى المتوفى سنة ٢٩٨ (٩١٠ – ٩١١) انظر تعليقنا السابق رقم ١٧٢ .

(٢٥٩) أغلب الظن أن أحمد بن زياد المقصود هنا ليس أحمد بن زياد بن عبد الرحمن اللخمى الذى ولى القضاء للأمير محمد بن عبد الرحمن وتوفى فى رحلة له إلى المشرق وهو فى مصر سنة ٢٥٠ (٨٦٤) (انظر ترجمته فى الخشنى : قضاة ص ١١٤ – ١١٧ ؛ ابن الفرضى ، رقم ٥٦ – ويلاحظ أن ابن الفرضى يجعل وفاته خطأ فى سنة ٢٠٥ بدلا من ٢٥٠) ، وإنما هو أحمد بن محمد بن زياد الملقب بالحبيب الذى ولى أيضا قضاء الجماعة وتوفى سنة ٣١٢ (٩١٣ – ٩٢٥) (انظر تعليقنا السابق رقم ٢٥٢) ، فأحمد بن زياد من طبقة متقدمة على ابن وضاح ، أما ابن أخيه الحبيب بن زياد فهو الذى كان من طبقة تلاميذ ابن وضاح وأصحابه .

(٢٦٠) الليث بن سعد الإمام المصرى المشهور ، ولد فى قلقشندة ودرس فى مصر على شيوخها ، ثم انفرد بمذهب فقهى خاص به ولو أن أصحابه المصريين لم يقوموا به فاندثر بعد موته بقليل . وتوفى سنة ١٧٥ (٧٩١ – ٧٩٢) . وقد تلمذ عليه كثير من اهل افريقية والأندلس فضلا عن المصريين . انظر فى ترجمته : ابن خلكان وفيات الأعيان ٣/٢٨٠ – ٢٨١ ؛ الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ٣/١٣ – ١٤ ؛ أبو نعيم الإصبهانى : حلية الأولياء ٧/٣١٨ – ٣٢٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢/٨٢ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ١/٣٠١ – ٣٠٢ . وقد كان لمذهب الليث الفقهى – على الرغم من انقراضه فى مصر – أثر باق فى مالكية الأندلس ؛ إذ اتبعوه فى ثلاث من المسائل الأربع الكبرى التى خالفوا فيها مذهب مالك (انظر حول هذه الناحية بحث لوبث أورتيث : دخول المذهب المـالـكى ص ٢١ – ٢٤ ؛ وقد زدنا دراسة هذا الجانب تفصيلا فى بحثنا عن « التيارات الثقافية المشرقية » ص ١٢٤ – ١٣٢) ، كذلك كان لليث بن سعد وتلاميذه نفوذ كبير على أول ماكتبه الأندلسيون فى ميدان التاريخ ، وقد استوفينا دراسة هذا الجانب فى بحثنا عن « مصر والمصادر الأولى للتاريخ الأندلسى » فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلد الخامس سنة ١٩٥٧ (بالإسبانية) ص ١٥٧ – ٢٤٨ ، أنظر بصفة خاصة ص ١٧٤ – ١٨٨ :

Mahmud A. Makki : Egipto y los origenes de la historiagrafia arabrgo-espanola, R I E I, Madrid, 1957, pp. 157 -- 248.

ولمزيد من المراجع حول الليث بن سعد انظر طبقات علماء افريقية وتونس ، تحقيق الأستاذين على الشابى ونعيم حسن اليافى تونس ١٩٦٨ ، ص ٥٨ – ٧١ وقائمة المراجع المثبتة فى حاشية ص ٥٨ ، وكذلك الدكتور محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ، عصر الولاة ، الطبعة الأولى ص ٤٥ – ٥٠ .

(٢٦١) ورد هذا النص فى كتاب القضاة للخشنى (ص ١٠١) ، غير أن ما يذكره ابن وضاح من أن فقيه القيروان وقاضيها سحنون بن سعيد كان يأبى أن يعزر السلطان الرجل فى المسجد بالسوط يختلف عما نعرفه من سلوك سحنون وسيرته ، فالذى نص عليه المترجمون لسحنون من المؤرخين الأفارقة – وهم أعلم بأخبار قاضيهم وفقيههم الأكبر – هو أنه كان يضرب فى الجامع بالدرة أى بالسوط وماخف من التأديب ولعل الذى يقصده ابن وضاح هو أنه كان لا يقيم الحدود فى المسجد ، إذ أن الثابت هو أن سحنون كان إذا أقام الحدود أخرجهم من المسجد (انظر المالكى : رياض النفوس ، بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ٢٧٧/١ ؛ والقاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٦٠١) .

(٢٦٢) ورد هذا الخبر فى كتاب الخشنى أيضا (ص ١٠١ – ١٠٢) ، وهو ما تؤكده لنا سيرة سحنون فى قضائه . ويبدو أن ما يذكره ابن وضاح من أن سحنون حمل الضرب على الذى لا يريد غرم ما عليه وهو ملى بعد أن حبسه – إنما هو إشارة إلى ما فعله قاضى القيروان مع ابن أبى الجواد الذى كان واليا على القضاء قبله ، فالقاضى عياض يقول فى ترجمة سحنون : « وخاصم ابن أبى الجواد رجل بين يدى سحنون ، فحكم له على ابن أبى الجواد ، وحبسه وقال له : إن لم تؤد ضربتك بالسوط وقال : ما عندى مال . فيقال إنه أخرجه وضربه فى جمعة بالسياط مائة سوط ، وقيل أكثر من ذلك » (ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٦٠١) . ونجد فى كتاب « رياض النفوس » للمالكى إضافة قيمة على ذلك ، إذ ينص على أن سحنون أشار بضرب من يصطنع الإفلاس على القاضى محمد بن زياد : « وقد جاء فى كتاب سحنون إلى محمد بن زياد قاضى قرطبة يأمره بالشد والمعاقبة لمن تفالس وتكرار الأدب والضرب عليه حتى يؤدى أو يموت . قال له : وبذلك أخذت ابن أبى الجواد : ضربته أربعا وعشرين ومائة درة وأوقفته يوم الجمعة للناس فى صحن الجامع ، وسوف أضربه أبداً حتى يؤدى تحت الدرة أو يموت » (رياض النفوس ٢٨١/١) .

(٢٦٣) سيترجم ابن حيان لمحمد بن عيسى الأعشى المذكور عند الكلام عن الوفيات على نسق السنين .

(٢٦٤) ورد خبر محمد بن زياد والأعشى مع السكران ثم تعليق الخشنى عليه فى كتاب القضاة (ص ١٠٢ – ١٠٤) .

(٢٦٥) لا يبدو صحيحا ما ينقله ابن حيان هنا عن ابن عبد البر من أن محمد بن زياد بقى على القضاء والصلاة فى أخريات أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم وأن الأمير محمداً أقره على هاتين الخطتين حينما ولى الإمارة بعد موت أبيه . فهذا يخالف ما نعرفه من أن الأمير عبد الرحمن عزله عن القضاء فى أعقاب القضية المعروفة التى اتهم فيها ابن أخى عجب محظية الأمير الحكم بن هشام (انظر خبر هذه القضية فى الخشنى : قضاة ص ١٠٤ – ١٠٥ ، والنباهى : مرقبة ص ٥٥ – ٥٦) . والثابت أن محمد ابن زياد عاد فى أيام الأمير محمد إلى تولى خطة الصلاة كما يذكر الخشنى (قضاة ص ١٠٦) وكما يؤكده الخبر الطويل الذى سيرويه ابن حيان عن عناية الأمير محمد بتتميم زيادة أبيه عبد الرحمن بن الحكم فى المسجد الجامع بقرطبة ، وفيه سنرى أن محمد بن زياد كان يلى خطة الصلاة حينئذ . أما القضاء فلم يعد إلى ولايته . وإن كان الأمير محمد قد عرضه عليه فأبى (الخشنى : قضاة ص ١٠٦) .

(٢٦٦) يسمى الخشنى زوج محمد بن زياد هذه « كفات » لا « تكفات » كما هى هنا (قضاة ص ١٠٦) ، ويبدو أنها كانت من أصل بربرى ، وأن التاء الأولى هى علامة التأنيث فى اللغة البربرية . وليست هذه هى المرة الأولى التى نسمع فيها

بهذا الاسم ، فقد ذكر المقرى فى النفح (٣١٢/١ — ٣١٣) نقلا عن ابن حيان فى التالب أن عبد الرحمن بن معاوية الداخل فى فراره من العباسيين وجوازه إلى الأندلس مر بإفريقية فنزل بقبيلة مغيلة ولجأ إلى شيخ من رؤساء البربر يدعى أبا قرة وانسوس ، فاستقر عنده زمنا ، ولما فتش رسل عبد الرحمن بن حبيب دار وانسوس بحثا عن عبد الرحمن خبأته امرأته « تكفات » تحت ثيابها . فلما توطد الأمر لعبد الرحمن فى الأندلس سار إليه أبو قرة وانسوس وأهله فأكرمهم عبد الرحمن . ويقص المقرى بعد ذلك نادرة وقعت بين عبد الرحمن الداخل وتكفات البربرية زوج وانسوس . وتؤكد هذه القصة رأينا فى أن صواب اسم زوجة محمد بن زياد هو « تكفات » كما ذكر ابن حيان لا « كفات » كما هو عند الخشنى ، وأنها كانت امرأة بربرية .

(٢٦٧) هو أبو سليمان فطيس بن سليمان بن عبد الملك بن زيان ، دخل الأندلس فى أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، فضمه إلى ابنه هشام وكتب له حتى إذا ولى هشام الإمارة ولاه السوق وكورة قبرة ثم الوزارة ، ولما ولى الحكم ابن هشام أمضاه على ذلك واستكتبه ، وكان له مقام محمود فى ثورة الربض ، ونقل ابن الأبار فى ترجمته عن أحمد بن محمد الرازى أنه رأى اسم فطيس بن سليمان فى ديوان للأمير الحكم اول اسم وأن راتبه كان خمسمائة دينار (انظر ابن الأبار : الحلة السيراء ٣٦٥/٢ ؛ ابن عذارى : بيان ٦١/٢ ، ٦٨ — حيث ورد الاسم فى الأصل « فطيس بن عيسى » والصواب « ابن سليمان » — ؛ ابن سعيد : المغرب ٤٤/١ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، نشر الأستاذ محمد عبد الله عنان ص ٤٨٨) . وقد كان فطيس المذكور بانى بيت من أكبر بيوتات الأندلس شرفا ونباهة وترددت فيهم الخطط والمناصب حتى نهاية دولة بنى أمية . وأما ما يذكره ابن حيان من خلاف الرواة حول تاريخ وفاة فطيس المذكور فإن ابن سعيد وابن الأبار يتفقان على أنه توفى فى أواخر أيام الحكم بن هشام ، وقد نص ابن سعيد على وفاته سنة ١٩٨ (٨١٣ — ٨١٤) .

(٢٦٨) لابد أن المقصود هنا هو الوزير عيسى بن فطيس بن أصبغ بن عيسى بن فطيس بن سليمان ، ففطيس بن سليمان موضوع التعليق السابق إذن هو جد جده . وقد كان لهذا البيت مكانة وشهرة واشتغال بخدمة أمراء بنى أمية ، ولكننا لا نعرف إلا القليل من أخبارهم ما بين مؤسس الأسرة فطيس بن سليمان المتوفى فى أواخر القرن الثانى الهجرى أو أوائل الثالث وبين من اشتهروا من البيت المذكور فى أيام عبد الرحمن الناصر فى أوائل القرن الرابع . فمن بين من برزوا منهم مثلا حمدون بن فطيس الذى روى الخشنى عنه خبراً مع القاضى محمد بن بشير والفقيه يحيى بن يحيى يدل على نباهته ورفعة مكانته ، غير أنه يظهر أن هذا الخبر وقع وأبوه فطيس بن سليمان لا يزال على قيد الحياة (انظر كتاب القضاة ص ٦٤) . ولا نعرف بعد ذلك من رجالات هذه الأسرة إلا فطيس بن أصبغ والد الوزير عيسى المذكور هنا ، وقد أفادنا ابن عذارى عنه بجملة أخبار قيمة منها أنه تولى خطة البيازرة فى سنة ٣٠٠ (٩١٢) ، ثم عمل فى اشبيلية فى السنة التالية ، وفى سنة ٣٠٤ (٩١٦–٩١٧) ولى الخزانة ، وفى ٣١٥ (٩٢٧) ولى الوزارة ، ثم عزل عنها فى السنة التالية ، وفى ٣٢٠ (٩٣٢) ولى على المدينة (انظر البيان المغرب تحت السنوات المذكورة) .

أما ابنه عيسى بن فطيس فيذكر ابن عذارى أيضا انه ولى فى سنة ٣١٥ (٩٢٧) على الخزانة ، ثم عزل عنها فى السنة التالية (البيان المغرب ٢٩٢/٢ ، ٢٩٦ ، ط . بيروت) . وترجم له ابن الأبار فى « إعتاب الكتاب » ، (ص ١٩٠) فأضاف إلى مانعرفه عنه أنه ولى الكتابة العليا فى حياة أبيه فطيس فى تاريخ لم يحدده ابن الأبار من خلافة عبد الرحمن الناصر ، وإن كان يبدو

أن ذلك كان فى سنة ٣١٥ (٩٢٧) حينما كان أبوه فطيس قد رفع إلى الوزارة . ويقول ابن الأبار إن عبد الرحمن الناصر عزل جميع وزرائه لسبب أنكره عليهم فى سنة ٣٢٩ (٩٤١) فيما عدا اثنين ، وحينئذ ولى عيسى بن فطيس الوزارة مكان أبيه مضافة إلى الكتابة ، ثم عزله عنهما جميعا بعد خمسة أيام من جمعهما له ، غير أنه عاد فى آخر سنة ٣٣٠ (٩٤٢) فاستدعاه ورده إلى الوزارة وتمادى له ذلك مع زيادة الحظوة إلى آخر خلافة الناصر . كذلك ذكر ابن الأبار فى ترجمة أخرى له أنه كانت له رواية فى الحديث عن القاضى أحمد بن بقى بن مخلد (التكلة ، نشر ألاركون وبالنثيا ، رقم ٢٣٩٠) ، وقد نقل ابن عبد الملك المراكشى هذه الترجمة نفسها دون أن يضيف إليها شيئا (انظر الذيل والتكلة لكتابى الموصول والصلة ، بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط . بيروت ١٩٦٥ ، السفر الخامس ، رقم ٩٢٨) .

وكان لعيسى المذكور أخ يدعى أحمد ولاه عبد الرحمن الناصر النظر فى كتب الثغور والسواحل والأطراف سنة ٣٤٤ (٩٥٥ – ٩٥٦) ، وفى سنة ٣٥٥ (٩٦٦) عهد إليه الحكم المستنصر بإقامة الأسطول بنهر قرطبة واتخاذ المراكب على هيئة مراكب المجوس (النورمانديين) توقيا لما كان منتظراً من هجومهم على سواحل الأندلس (انظر ابن عذارى : البيان المغرب ٣٣٩/٢ ، ٣٥٦ ، ط . بيروت) .

ومن بنى فطيس رجل لا نعلم مدى قرابته للوزير عيسى هو أصبغ بن محمد بن فطيس الذى ولاه الحكم المستنصر فى سنة ٣٦٠ (٩٧١) نصف كورة رية (مالقة) وقد نقل ابن حيان بهذه المناسبة نص كتاب الحكم المستنصر إليه بتوليته (انظر المقتبس نشر الحجى ص ٧٧) .

ومن أبناء عيسى بن فطيس ممن ولوا الخطط أحمد الذى كان واليا للشرطة العليا فى سنة ٣٦٢ (٩٧٣) فى أيام الحكم المستنصر (ابن حيان : المقتبس ، نشر الحجى ص ١١٩) .

وأشهر من عرف بعد ذلك من هذا البيت فى أواخر أيام الدولة الأموية قاضى الجماعة عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس ، حفيد الوزير عيسى ، ولد فى سنة ٣٤٨ (٩٦٠) وولى قضاء الجماعة بين سنتى ٣٩٤ و ٣٩٥ (١٠٠٤ – ١٠٠٥) فى عهد الحاجب عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبى عامر ، وكانت وفاته فى أول الفتنة البربرية سنة ٤٠٢ (١٠١٢) . (انظر ترجمته فى ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٦٨٢ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ٦٧١ – ٦٧٢ ؛ ابن فرحون ؛ الديباج ص ١٥٠ ؛ النباهى : مرقبة ص ٨٧ ؛ ابن سعيد : المغرب ٢١٦/١ – وانظر الحاشية حيث أورد الدكتور شوقى ضيف مزيداً من المراجع) .

وعن أسرة بنى فطيس أنظر كذلك ليفى بروفنسال : الأندلس فى القرن العاشر ص ١٠٣–١٠٤.

(٢٦٩) أبو عبد الله غربيب بن عبد الله الثقفى الطليطلى ، أصله من قرطبة وسكن طليطلة ، وكان شاعراً زاهداً ، ويقال إن خروجه من قرطبة كان بسبب وقوعه فى أمرائها وإعلانه بجورهم ، وقد تزعم فى طليطلة من كان بها من الثائرين المتمردين على بنى أمية . وكان من أهل الحكة والدهاء ، فكان الثائرون الطليطليون يستندون إلى رأيه على نحو لم يجعل للحكم

ابن هشام مطمعا فيهم طيلة حياته . وقد اختلف ابن القوطية وابن حيان فى سنة وفاته ، فبينما يذكر الأول أنه توفى فى أيام الحكم قبل وقعة الحفرة التى ذهب ضحيتها ألوف من ثوار طليطلة فى سنة ١٨١ (٧٩٧) أو فى سنة ١٩١ (٨٠٧) — إذا بابن حيان يذكر كما نرى هنا أنه توفى سنة ٢٠٧ (٨٢٢ — ٨٢٣) فى أول أيام عبد الرحمن بن الحكم . وقد نقل ابن الأبار القولين دون أن يرجح واحداً منهما . (انظر فى ترجمته وأخباره وبعض شعره : ابن القوطية : تاريخ ص ٤٦ ؛ الحميدى ، رقم ٧٥٥ ؛ الضبى : بغية ، رقم ١٢٨١ ؛ ابن الأبار : تكلة ، نشر ألاركون وبالنثيا ، رقم ٢٤٨٩ ؛ ابن سعيد : المغرب ٢٣/٢ — ٢٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكلة ، السفر الخامس ، رقم ٩٩٥ ؛ ابن الكتانى : التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ص ٢٨٣ ؛ المقرى : نفح ٧٤/٦ — ٦٥ ؛ وكذلك ليفى بروفنسال : تاريخ ١٥٧/١) .

(٢٧٠) عبد الله المعروف بالبلنسى بن عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، كان أبوه عبد الرحمن قد عهد إليه بتسليم الأمر لواحد من أخويه سليمان أو هشام بعد موته ، وكان سليمان عاملا على طليطلة وهشام على ماردة ، على أن يكون الأمر لمن يسبق أخاه فى الوصول إلى قرطبة ، فلما قدم هشام سلم عبد الله إليه القصر وبايعه ، ثم استوحش من هشام فخرج إلى سليمان بطليطلة زمنا ، ثم ورد إلى قرطبة بلا عهد ولا أمان ، فقبله هشام ، وطلب عبد الله بعد ذلك الخروج إلى العدوة ، فأذن له هشام ، وخرج سليمان كذلك ، فلما توفى هشام سنة ١٨٠ (٧٩٦) وولى الإمارة ابنه الحكم عاد عبد الله إلى الأندلس وولاه الحكم على شرق الأندلس كله فكان فى عمله بلنسية وتدمير (مرسيه) وطرطوشة وبرشلونة ووشقة . واستقر فى بلنسية حتى نسب إليها . وقدم بعده أخوه سليمان ، ثم نازعا الحكم وحارباه ، فهزم سليمان وقتل فى إلبيرة سنة ١٨٤ (٨٠٠) . أما عبد الله فأدى الطاعة على ألا يطأ للحكم بساطا ، وظل كذلك حتى توفى الحكم وولى ابنه عبد الرحمن سنة ٢٠٦ (٨٢٢) ، فأخر عنه بيعته والتوى بالطاعة ، ثم كشف وجهه بالمعصية وجمع جيشا كبيراً من أهل بلنسية وتدمير عازما على السير إلى قرطبة ، ولكنه أصيب بفالج أقعده ، ولم يلبث أن توفى سنة ٢٠٨ (٨٢٣) بعد أن كتب إلى عبد الرحمن نادما على ما فعل وموصيا إياه بأهله وبيته . انظر فى ترجمته وأخباره : ابن حزم : جمهرة ص ٩٤ — ٩٥ ؛ ابن الأبار : الحلة ٣٦٣/٢ — ٣٦٤ ؛ ابن سعيد : المغرب ٣٩/١ — ٤٠ ، ٤٧ — ٤٨ ، ٢٤٦/٢ ؛ ابن عذارى : البيان ٦١/٢ — ٦٣ ، ٦٩ — ٧١ — ٧٤ ؛ وانظر كذلك ليفى بروفنسال : تاريخ ١٤٠/١ — ١٤١ ، ١٥٢ — ١٥٣ ، ١٩٧ — ١٩٨ .

هذا وقد كان لعبد الله المذكور ابن يدعى عبيد الله كان من المستمسكين بالطاعة ، وكان من كبار رجالات الأمويين وأعاظم قوادهم ، وهو المدعو بصاحب الصوائف لتكرره بالغزوات على الممالك المسيحية فى الشمال .

(٢٧١) ذكرنا فى حاشية هذا الموضع الخلاف الكبير بين ما يثبته ابن حيان فى ترتيب الوفيات على السنين من موت الفقيه حسين بن عاصم فى سنة ٢٠٨ (٨٢٣) وبين ما يذكره ابن الفرضى فى الترجمة التى نقلها عنه ابن حيان نفسه من وفاته فى سنة ٢٦٣ (٨٧٦ — ٨٧٧) . والحقيقة أن هذه مشكلة لم تلفت نظر أحد من أصحاب كتب التراجم من قبل ، باستثناء القاضى عياض الذى عرض فى ترجمته لحسين بن عاصم تلك الآراء المتضاربة وأخضعها لميزان نقدى جدير بالإعجاب والثناء ، وسوف نعيد فيما يلى بحث هذه المسألة تحقيقا لتراجم أفراد هذا البيت من بيوت الشرف بقرطبة :

أما حسين بن عاصم — ونضرب صفحا عن الخلاف حول ما يلى ذلك من نسبه بين المؤرخين فهو خلاف على غير طائل — فإلى جانب ترجمة ابن الفرضى (رقم ٣٤٩) المنقولة فى نص ابن حيان والمتسببة فى كل هذا الاضطراب نجد أن الحميدى

قد أورد له ترجمة قصيرة (جذوة ، رقم ٣٧٤) لا تكاد تفيدنا بشيء ، فهي تقتصر على القول بأنه فقيه مات بالأندلس (!) وبأن الذى قال ذلك هو محمد بن حارث الخشنى . ويزيد المسألة اضطرابا والباحث حيرة أن أصحاب كتب الرجال يترجمون أيضا لمن يدعونه ابرهيم بن حسين بن عاصم الثقفى — وهو يبدو لأول وهلة ابنا لهذا المذكور — فيقول عنه ابن الفرضى إنه سمع من أبيه ومن غيره وإن له رحلة سمع فيها وتصرف فى أحكام الشرطة والسوق أيام الأمير محمد وتوفى سنة ٢٥٦ (٨٧٠) (انظر ابن الفرضى ، رقم ٣ ، وكذلك ابن فرحون : تبصرة الحكام ١١٤/٢) ، ويضطرب الحميدى فى اسمه فيدعوه مرة ابرهيم بن حسين بن عاصم ومرة أخرى ابرهيم بن عيسى بن عاصم ، ولكنه يتفق بعد ذلك مع ابن الفرضى فى أنه توفى سنة ٢٥٦ (جذوة ، رقم ٢٧١) .

وبذلك تمثل أمامنا المشكلة : إذا صح ما يقوله ابن الفرضى من أن حسين بن عاصم كانت له رحلة سمع فيها من ابن القاسم وابن وهب وأشهب ومطرف وابن نافع فإنه لا يحتمل أن تكون الحياة قد طالت به حتى يتوفى فى سنة ٢٦٣ ، فابن القاسم مثلا توفى سنة ١٩١ (٨٠٧) ، وعبد الله بن نافع توفى سنة ١٨٦ (٨٠٢) ، أى قبل وفاة ابن عاصم بأكثر من خمس وسبعين سنة ، فإذا قدرنا السن التى رحل فيها ابن عاصم لكى يتم له سماع من ذلك الفقيه المدنى يعتبر به فى حدود أشياخه بثلاثين سنة كان معنى ذلك أنه قد توفى عن أكثر من مائة سنة ، ولو صح هذا لكان جديراً بأن يسجله من ترجموا له ، إذ هو مما يجاوز المسألوف .

ولعل القاضى عياضا هو المؤرخ الوحيد الذى تنبه بملكته النقدية إلى ما فى هذا الرأى من إبعاد ، فقد آثر القول بأن وفاة حسين بن عاصم كانت فى سنة ٢٠٨ « فيما ذكر أصحاب التاريخ » (والإشارة هنا إلى ابن حيان بغير شك . واحتج عياض لذلك بأن حسين بن عاصم كان فى سن عيسى بن دينار ، ومن المعروف أن عيسى توفى سنة ٢١٢ (٨٢٧) ، وبأن كلا من عبد الملك بن حبيب (ت٢٣٨ = ٨٥٢) والعتبى (ت٢٥٥= ٨٦٩) أدخلا سماعه فى كتابيهما ، فقد كان ابن عاصم إذن فى عداد شيوخهما . ويذكر عياض بعد ذلك عنه خبراً طريفا وقع له أثناء مقامه بمصر ، هو أنه لما توفى شيخه ابن القاسم (فى سنة ١٩١ — ٨٠٧) كان قد بقيت عليه مقابلة كتبه بأصول ابن القاسم بعد أن أتم سماعه منه ، وكانت هذه الأصول لدى الفقيه المصرى أصبغ بن الفرج ، فتوجه إلى أصبغ وقال له : أنت خلف أبى عبد الله (أى ابن القاسم) ، فلو خليت نفسك قرأت عليك ما بقى على . فقال له أصبغ : وأشهب وابن وهب شيخان حيان ؟ فقال له : أنت عندى أجل . فأسعفه ، فلما تم له مراده قال له : إنما ذهبت إلى المقابلة لصحة كتبك ، وأما السماع فلا نحب ذلك ، فإنى أقدم منك سماعا وعناية . (يريد أنه أراد مقابلة سماعه من ابن القاسم على أصبغ بن الفرج لتصحيح صوله فحسب ، ولكنه كان يرى نفسه أرفع من أن يأخذ عن أصبغ ، إذ كان يعد نفسه أعلى طبقة منه فى صحبة ابن القاسم وأقدم منه فى الأخذ عنه) . (انظر ترتيب المدارك المجلد الثانى ص ٢٨ — ٣٠) . فإذا كنا نعرف أن أصبغ بن الفرج ولد بعد سنة ١٥٠ وتوفى سنة ٢٢٥ (٨٤٠) وأن حسين بن عاصم كان يعد نفسه أقدم طبقة منه فإننا نستنتج أن من العسير على التصديق أن تكون وفاته فى سنة ٢٦٣ ، وإلا فإن سنه تكون قد جاوزت المسائة بنحو عشرين سنة على الأقل .

ومن هنا ننتهى إلى أن التاريخ الصحيح لوفاة حسين بن عاصم هو سنة ٢٠٨ ، وأن ابن الفرضى لابد أن يكون قد خلط بينه وبين ابنه ابرهيم الذى لم تسلم ترجمته بدورها من التخليط والاضطراب ، فقد سبق أن أوردنا ما قاله عنه ابن الفرضى

(رقم ٣ ؛ والحميدى : جذوة ، رقم ٢٧١ ؛ والقاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ١٤٦ – ١٤٧) من أنه ولى الشرطة والسوق فى أيام الأمير محمد وأنه اشتهر بالقسوة المفرطة حتى أسقط العلماء الأخذ عنه بسببها . وكل هؤلاء المؤرخين يتفقون على موته سنة ٢٥٦ . ولكن لنا اعتراضا على هذا التاريخ ، وهو أن الخشنى قص عنه خبراً استشهد به على قسوته الشديدة ، وذكر الخشنى فى أول هذا الخبر « أن الأمير محمداً حدثت فى أيامه مجاعة شديدة ، فكثر فيها التطاول من الفسدة لفضل ما كانوا فيه من ضر السنة ، وكثرت الشكوى بذلك إلى الأمير رحمه الله وكثر عليه من الحكام استطلاع رأيه فى الصلب والقطع وما أشبهه ، فولى السوق حينئذ ابرهيم بن حسين بن عاصم ، وأمره بالاجتهاد وعهد إليه بالتحفظ ، وأذن بالتنفيذ فى القطع والصلب بلا مؤامرة منه ولا استئذان » (انظر بقية الخبر فى الخشنى ؛ قضاة ص ١٧٨ – ١٧٩) . ونحن نعرف أن المجاعة المذكورة كانت سنة ٢٦٠ (٨٧٤) ، فلابد أن وفاة ابراهيم بن حسين بن عاصم تلت هذا التاريخ ، ويغلب على ظننا أنها كانت فى سنة٢٦٣ التى ذكرها ابن الفرضى سنة وفاة لأبيه حسين بن عاصم ، وأن ترجمتى الأب والابن قد إختلطا عنده ، فلفق منهما ترجمة واحدة .

هذا وقد كان بيت بنى عاصم من البيوت التى ترددت فيها الخطط والمناصب الكبرى طوال أيام بنى أمية . وقد عرضنا فى السطور السابقة لحسين بن عاصم وابنه ابراهيم ، ونضيف إلى هذين سعيد بن عاصم أخا الفقيه حسين الذى ذكر ابن الأبار ناقلا خبره عن الرازى وابن حيان أنه ولى قضاء الجماعة للأمير الحكم بن هشام (التكلة ، ط . ألاركون وبالنثيا ، رقم٢١٢ وابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكلة ، بقية السفر الرابع ، رقم ٨٣ ، ولو أن الخشنى والنباهى لا يشيران إليه فى كتابيهما عن القضاة) .

ومنهم عبد الله بن حسين بن عاصم أخو ابراهيم ، وقد ولى الشرطة مثل أخيه فى عهد الأمير محمد ، وكان شاعراً رقيقا . وسيورد ابن حيان بعض أخباره وقطعا من شعره فى هذا الجزء من المقتبس . (وانظر ترجمته كذلك فى ابن سعيد : المغرب ١٠١/١ – ١٠٢ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٥٦٠ ؛ الضبى : بغية ، رقم ٩٣٨ ؛ ابن الكتانى : كتاب التشبيهات ص ٨٩ المقرى : نفح ٢٣١/٤ .

ومنهم سعيد بن عبد الملك بن سعيد بن عاصم الذى سيذكر ابن حيان فى هذه القطعة من « المقتبس » أن الأمير محمداً ولاه الطراز ثم نكبه ، وابنه عبد الواحد الذى ترجم له ابن الأبار فقال إنه نظر فى الفقه وأراد أحد أمراء الأندلس (دون أن يعين من هو) أراده للخدمة ، فلم يجدوا مطية تحمله لضخامة جسمه « إذ كان فائت الغلظ خارجا عن ترتيب الآدميين » (التكلة ، ط . الاركون وبالنثيا ، رقم ٢١٦٦ ؛ وكذلك الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، رقم ١٤١) .

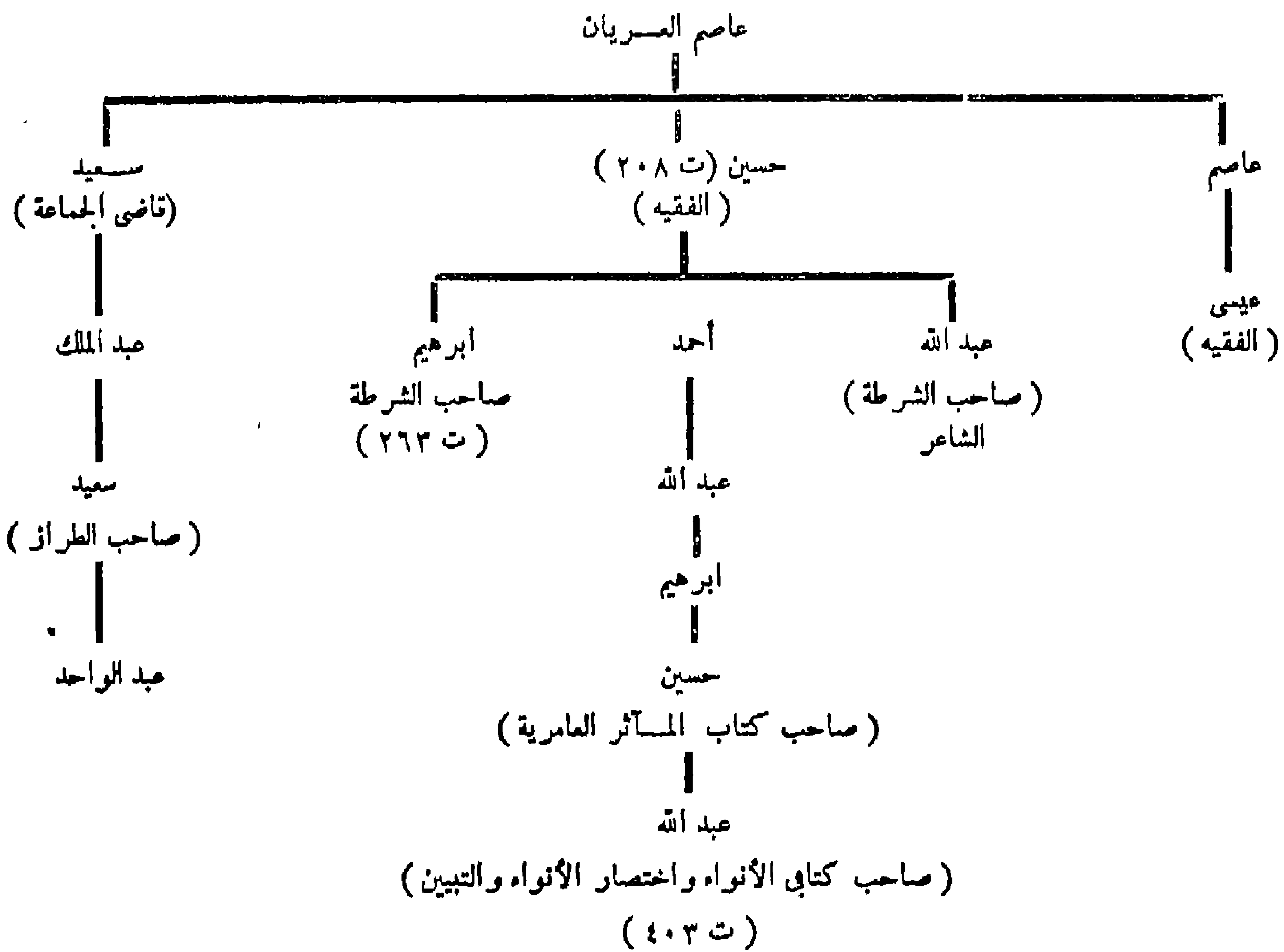
ونعرف بعد ذلك من هؤلاء حسين بن محمد بن عاصم – وهو نسب مختصر لابد أن تكون قد سقطت فيه أسماء بين محمد وعاصم – ، وقد نص ابن عذارى على أن الخليفة عبد الرحمن الناصر ولاه خزانة السلاح فى سنة ٣١٤ (٩٢٦) . (البيان المغرب ٢٨٩/٢ – ط . بيروت) .

ومنهم حسين بن ابرهيم بن عبد الله بن أحمد بن حسين بن عاصم الذى ألف كتابا عن دولة المنصور بن أبى عامر وبنيه بعنوان « المآثر العامرية » ، ولا نعرف سنة وفاته على وجه التحديد . (ابن الأبار : تكلة ، رقم ٧٣ ؛ ابن بشكوال :

صلة رقم ٣٢٤ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٣٧٥ الضبى : بغية ، رقم ٦٥٨ ؛ ابن حزم : « رسالة فى فضل الأندلس » فى المقرى : نفح ١٦٧/٤ ؛ وانظر بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ، ص ١٢٢ ، وهذا البحث يجعل وفاته فى سنة ٤٥٠ دون أن يذكر مصدراً لهذا التاريخ ولا دليلا على ترجيحه له) .

ويظهر أنه كان لهذا الأخير ابن يدعى عبد الله بن حسين كان من أصحاب أبى على القالى وولى كذلك الشرطة مثل كثير من أهل بيته ، وله تأليف فى الأنواء وآخـر فى اختصار « البيان والتبيين » للجاحظ . وقتل فى الفتنة البربرية سنة ٤٠٣ (١٠١٢ – ١٠١٣) . (انظر ابن الأبار : تكلة ١٢٧٧ ؛ ابن عبد الملك : الذيل والتكلة ، رقم ٣٧٠) .

وفيما يلى جدول تقريبى بأسماء من عثرنا عليهم من أفراد هذه الأسرة وأنسابهم :



هذا وقد كان عاصم الملقب بالعريان من كبار موالى بنى أمية ، قدم على عبد الرحمن بن معاوية الداخل عند حلول هذا بالأندلس مع من وفد عليه من الأموية ، وقد كان عبد الرحمن حفيا به إذ كان من القيسية القليلين الذين ظاهروه على يوسف ابن عبد الرحمن الفهرى ووفدوا عليه ، وكان من بينهم كذلك أخوه عمران . أما تسميته بالعريان فهى تعود إما لتجرده فى سراويله لقتال يوسف الفهرى كما يقول صاحب « أخبار مجموعة » أو لمـا يذكره معظم المؤرخين من تقحمه فى نهر قرطبة عاريا وتقحم الناس وراءه . وقد عهد إليه عبد الرحمن فى موقعة المصارة (سنة ١٣٨ = ٧٥٦) بقيادة رجالة بنى أمية ومن التحق بهم من البربر . وولاه عبد الرحمن بعد ذلك على طليطلة زمنا ما « انظر فى أخباره ابن القوطية : تاريخ ص ٢٨ : أخبار مجموعة ص ٧٦ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ١٠٤ ؛ ابن سعيد : مغرب ١٠١/١ ؛ المقرى : نفح ٤٥/٤ .

(٢٧٢) أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي بالولاء ، فقيه مصر ومحدثها المشهور ، أخذ عن الليث بن سعد ومالك بن أنس وسفيان الثورى وسفيان بن عيينة ، وبلغ عدد شيوخه نحو أربعمائة ، وصحب مالكا ثلاثين سنة ، وكان هو وابن القاسم وأشهب بن عبد العزيز أشهر من وطدوا مذهب مالك فى مصر وافريقية والأندلس ، وله كتابا الجامع والموطأ وتفسير موطأ مالك وغيرها من الكتب ، وكانت وفاته سنة ١٩٧ (٨١٢ – ٨١٣) . (انظر فى ترجمته القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول (ص ٤٢١ – ٤٣٣ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٣٢ – ١٣٣ ؛ وانظر مزيداً من مراجع ترجمته فى : طبقات علماء افريقية وتونس ، ص ٤٤ ، الحاشية رقم ١) .

(٢٧٣) أبو مصعب مطرف بن عبد الله الهلالى ابن أخت الامام مالك بن أنس وأحد كبار أصحابه المدنيين ، صحب مالكا سبع عشرة سنة ، ومات سنة ٢٢٢ (٨٣٧) . انظر ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٣٥٨ – ٣٦٠ ؛ وابن فرحون ديباج ص ٣٤٥ – ٣٤٦ .

(٢٧٤) هناك اثنان من أصحاب مالك يدعيان بابن نافع : أولهما أبو محمد عبد الله بن نافع المعروف بالمخزومى مولى بنى مخزوم واشتهر بلقب « الصائغ » ، والثانى هو عبد الله بن نافع الزبيرى القرشى المتوفى سنة ٢١٦ (٨٣١) والأول هو المقصود هنا بغير شك ، وقد لازم عبد الله بن نافع « الصائغ » هذا مالكا أربعين سنة ، وكانت له منزلة عظيمة لدى الأندلسيين ، فقد أدخل العتبى سماعه فى « المستخرجة » وأثنى عليه محمد بن وضاح وقال إنه أفضل أصحاب مالك ، وكذلك محمد بن عمر بن لبابة ، وله تفسير على الموطأ رواه عنه يحيى بن يحيى ، وروى عنه عبد الملك بن حبيب وكانت وفاته بالمدينة سنة ١٨٦ (٨٠٢) . انظر فى ترجمته القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٣٥٦ – ٣٥٨ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٣١ .

(٢٧٥) قول ابن الفرضى عن وفاة المترجم له سنة ٢٦٣ إنها كانت فى « صدر » أيام الأمير محمد يبدو غريبا لمن يتأمل ، فقد ولى الأمير محمد سنة ٢٣٨ ، وبقى أميراً للأندلس خمسا وعشرين سنة حتى ٢٧٣ ، فإذا هو المترجم له قد توفى بعد مرور خمس عشرة سنة من ولاية الأمير فإن هذا التاريخ لا يجوز أن يعتبر « فى صدر أيامه » ، بل هو أقرب إلى آخرها منه إلى أولها .

(٢٧٦) أوضحنا من قبل ما فى هذه الترجمة من التناقض . وأغلب الظن أن السطور الأخيرة منها ابتداء من « وولى السوق للأمير محمد . . . » حتى النهاية إنما هى من ترجمة ابرهيم بن حسين بن عاصم لا من ترجمة أبيه حسين . انظر تعليقنا السابق رقم ٢٧٠ .

(٢٧٧) كذا ورد الاسم فى الأصل ، ونظن أن « عبد الله » ليس إلا تحريفا لاسم « عبد الواحد » ، إذ جاء فى طبقات النحويين واللغويين » لأبى بكر الزبيدى ذكر لمن يدعوه « أبا الغمر عبد الواحد بن سلام المعروف بالأحدب » ، وقال فيه إنه كان من أهل العلم بالنحو والتأديب ، وكانت وفاته سنة ٢٠٩ (٨٢٤ – ٨٢٥) (انظر ص ٢٧٩) ، فلا بد أن يكون هذا هو المعنى هنا . وقد نقل ابن الفرضى فى تاريخه كلام الزبيدى ، وأضاف أنه كان من أهل قرطبة وأنه كان مؤدبا بالنحو وله فيه كتاب مؤلف بأيدى الناس . ونقل هذه الترجمة السيوطى فى بغية الوعاة (ص ٣١٦). وترجم ابن

الأبار لمن سماه « عبد الواحد المعلم » وإن كان لا يدرى ما إذا كان هو عبد الواحد بن سلام النحوى الذى ذكره ابن الفرضى أم غيره (التكلة ، ط . ألاركون وبالنثيا ، رقم ٢١٦٥ ، واختصر ابن عبد الملك المراكشى هذه الترجمة ذاتها فى كتاب الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، رقم ١٥١ .

(٢٧٨) لم نر فى المراجع الأخرى أى إشارة إلى مالك بن القتيل هذا ، على أننا وجدنا فى المغرب لابن سعيد (٤٢/١) ذكراً لمن يسميه المؤلف « مهاجر بن القتيل » يقول عنه ابن سعيد إن الخارجين من قرطبة بعد أن فشلت ثورة الربض فى سنة ٢٠٢ (٨١٧) قد كاتبوه بعد أن لحق جمهورهم بطليطلة ، وكان قد لحق بدار الحرب (أى ببلاد النصارى) وولوه عليهم فصار معه منهم خمسة عشر ألفا ، ومضوا فى البحر إلى الاسكندرية فاحتلوها ومازالوا بها حتى أخرجهم منها عبد الله ابن طاهر عامل الخليفة المأمون العباسى على مصر إلى جزيرة إقريطش . فلعل مالك بن القتيل هذا أخ لذلك الزعيم الثائر على الحكم بن هشام ، ولعله أودع السجن من أجل ذلك حتى توفى فى سنة ٢١٠ (٨٢٥ – ٨٢٦) المذكورة .

(٢٧٩) كان فى قرطبة حبسان كبيران ، واحد على مقربة من المسجد الجامع ، بشهادة الجغرافى الرحالة ابن حوقل الذى زار الأندلس فى أيام عبد الرحمن الناصر خلال القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) (انظر ابن حوقل : صورة الأرض ، طبعة كرامرز ، ١١٣/١) ، والثانى هو المطبق المذكور هنا ، وكان فى نفس مبنى قصر الخلافة ، إلا أنه كان فى جوف الأرض ، وكان سجن المطبق هو المعد للسجناء مدى الحياة ، ويبدو أنه هو نفسه الذى كان يطلق عليه أيضا اسم « الدويرة » (تصغير الدار) . انظر ليفى بروفنسال : تاريخ ١٥٩/٣ – ١٦٠ .

(٢٨٠) فتح بن الفرج الرشاش هو واحد من إخوة ثلاثة عرف كلهم باسم « الرشاش » وكانوا من موالى بنى أمية :

الأول هو أبو عثمان سعيد بن الفرج ، نقل ابن سعيد عن ابن حيان فى ترجمته قوله إنه كان من آدب الناس فى زمانه وأحفظهم للغة والشعر ، وكان شديد التقعير فى كلامه ، وضرب به المثل فى الفصاحة ، ويقال إنه كان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة . وكان قد رحل إلى المشرق وحج ودخل بغداد وروى عن كبار علمائها ، ثم سكن مصر مدة ، وكذلك القيروان ، حتى بلغه أن عبد الرحمن الحكم ولى إمارة الأندلس وكانت بينهما وصلة قديمة ، فوفد عليه ، فاحتفى به الأمير وقربه وأكثر الرشاش من مدحه ، وذكر ابن حيان أنه لحقته سعاية عند نصر الخصى أثير عبد الرحمن بن الحكم فأمر بضربه ، وذكره معاوية بن هشام الشبينسى وعبادة الشاعر والحجارى ، ووصفه هذا بالتندير . وأورد ابن سعيد شعراً له فى مدح الأمير عبد الرحمن وفى هجاء ابن الشمر الشاعر . وأكثر ماوصلنا من شعره فى باب الهجاء . انظر ترجمته وبعض أخباره وشعره فى ابن سعيد : مغرب ١١٤/١ – ١١٥ ؛ ابن الفرضى : رقم ٤٨٦ (ويذكر فى هذه الترجمة أنه كان مشاوراً فى أيام الأمير محمد) ؛ الزبيدى : طبقات ص ٢٨٥ ؛ السيوطى : بغية ص ٢٥٦ ؛ ابن الكتانى : التشبيهات ص ٢٥٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣ ؛ ومن الأبحاث الحديثة كتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٢٦٣ .

والثانى هو محمد بن الفرج المعروف بالذارع ، ويقصد بذلك ابتكاره لوحدة قياسية هو الذراع الذى أصبح ينسب إليه فيقال « الذراع الرشاشى » ، روى بقرطبة عن يحيى بن يحيى الليثى الفقيه ، ولكنه وجه جل اهتمامه إلى الرياضيات ، فنبغ فيها ، وقد خلد اسمه بهذا الذراع الذى اخترعه واصطلح أهل الأندلس على القياس به ، ويبلغ طول الذراع الرشاشى ضعف الذراع

الذي جرى به العمل في المشرق والذي كان يدعى « المـأموني » نسبة إلى الخليفة المـأمون ، ويبلغ طوله ٧١،١ سم . ، وينقسم إلى ثلاثة أشبار ، أي أن طول الشبر ٢٣،٧ سم ، والشبر ينقسم بدوره إلى ثلاث قبضات ، طول القبضة ٧٩ ملليمتر . وبهذا الذراع «الرشاشي» قاس الإدريسي والبكري مثلا أطوال المعالم الأثرية التي تحدثا عنها في كتابيهما . مثل المسجد الجامع بقرطبة ومنارة الإسكندرية وغير ذلك . وفي ترجمة محمد بن الفرج الذارع انظر ابن الفرضي : رقم ١١٣١ ، أما عن الذراع الرشاشي فانظر ليفي بروفنسال : تاريخ ٢٧٣/١ ؛ ٢٤٨/٣ — ٢٤٩ ؛ وقد أعاد المستشرق الإسباني فيلكس إيرنانديث خيمنث بحث هذه المسألة بحثا مستفيضا مستنداً إلى نصوص جديدة ومصححا بعض الأخطاء الشائعة حول التقدير المضبوط للذراع الرشاشي ووحداته ، وذلك في كتابه الصغير الذي يحمل عنوان « الذراع في الكتابات التاريخية العربية حول المسجد الجامع بقرطبة :

Felix Hernandez Gimenez : El codo en lahistoriografia arabe de la Mezquita Mayor de Cordoba. contribucion al estudio del monumento Madrid, 1961.

انظر بصفة خاصة ص ٩ — ١٠

والأخ الثالث من هؤلاء الرشاشين هو الفتح بن الفرج المذكور هنا في نص ابن حيان والمتوفى بالمشرق سنة ٢١٠ (٨٢٥ — ٨٢٦) ، ولم يفدنا عنه ابن حيان بأي شيء يلقي ضوءاً على حياته وسيرته فيما عدا ما يفهم من أنه كان شخصية بارزة معروفة ، إذ استحق تاريخ وفاته أن يسجل في وفيات « أولي النباهة » كما عنون ابن حيان لهذا الفصل . ولم نجد في المراجع الأندلسية عن فتح بن الفرج هذا شيئا إلا سطوراً أوردها ابن الأبار في التكملة (ط . ألاركون وبالنثيا رقم ٢٤٩٧) وابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة (السفر الخامس ، رقم ١٠١٧ (وكلاهما ينقل عن ابن حيان دون أن يضيفا عليه شيئا .

(٢٨١) لسنا نعرف عن حجاج المغيلي هذا « كاتب الترسيل » في غير كتاب ابن حيان إلا إشارات مقتضبة وردت ، في بعض ما كتب حول إمارة الحكم بن هشام الربضي ، فقد ذكره ابن عذاري من بين كتاب الحكم الثلاثة (بيان ٦٨/٢) . ونوه به ابن سعيد في المغرب (٤٤/١) فقال إنه كان شاعراً ، على أن سنة وفاته عند ابن سعيد تخالف ما ذكر هنا ، فهي ١٩٨ (٨١٣ — ٨١٤) . أما مغيلة التي ينتسب إليها هذا الكاتب فهي قبيلة بربرية ، وجدهم مغيل بن فاتن بن جانا (زناتة) ومواضعهم في العدوة المغربية بجبل وانشريش من عمل تاهرت (المغرب الأوسط أو الجزائر الحالية) ، وبالمغرب الأقصى ما يلي تامسنا (انظر مفاخر البربر ص ٤٩) ، وذكر ابن حزم من بيوت مغيلة في الأندلس بني إلياس رهط الوزير أحمد ابن إلياس ، وبني زروال الأمراء بالمنتانية (جمهرة ص ٤٩٩) .

(٢٨٢) أبو خالد يزيد بن طلحة العبسي الإشبيلي ، تلمذ على الفقيهين محمد بن أحمد العتبي ويحيى بن ابرهيم بن مزين ، وعلى الراوية المحدث محمد بن عبد السلام الخشني ومحمد بن عبد الله بن الغازي ، وكان من أجلة فقهاء إشبيلية بصيراً باللغة والنحو والشعر ، موصوفا بالبلاغة والخطابة ، وكان يعرف من أجل ذلك بيزيد الفصيح ، وقد نقل الزبيدي بعض أخباره (طبقات ص ٢٩٤ — ٢٩٦ ، ٣١٣) ، ونص ابن الفرضي على أنه لم يقف على عام وفاته ولا وجد ذلك مقيدا عند أحد من أهل موضعه (انظر تاريخ ، رقم ١٦٠٦ ، وكذلك ابن حيان : مقتبس ، نشر أنطونيا ص ١٤ ، والسيوطي : بغية ص ٤١٧).

وأورد ابن حيان فى الموضع المشار إليه خبراً طريفا فى جدل وقع فى مجلس ابراهيم بن حجاج أمير اشبيلية بينه وبين أبى محمد العذرى الأعرابى حول لفظ « سود » وهل هو بالواو أو الياء ، ووصفه ابن حيان فى هذا الخبر بأنه كان « من أشهر من بغربى الأندلس من العلماء بالعربية » . هذا ويبدو من الغريب أن يكون حجاج المغيلى المتوفى سنة ٢١٠ (٨٢٥ — ٨٢٦) كما يقول ابن حيان أو فى سنة ١٩٨ (٧١٣ — ٨١٤) كما يقول ابن سعيد من موالى يزيد بن طلحة الذى يبدو أن وفاته تأخرت عن وفاة حجاج بنحو نصف قرن . ولهذا فإن من الأرجح أن ما يعنيه ابن حيان هو أن المغيلى كان من موالى هؤلاء العبسيين رهط يزيد بن طلحة الإشبيلى ، لا مولاه هو على وجه الخصوص . ويبدو أن آل طلحة العبسيين كانوا يسكنون مورور على ما يفهم من نص للزبيدى فى ترجمة النحوى جودى بن عثمان (ت ١٩٨ = ٨١٣ — ٨١٤) . طبقات النحويين واللغويين ص ٢٧٨) .

(٢٨٣) لابد أن يكون وليد المذكور ابناً لأمية بن يزيد كاتب عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٥٤ (٧٧١) . (انظر ما سبق أن كتبناه عن بيت بنى أمية بن يزيد فى تعليقنا السابق رقم ١٢٨) ، ولم نجد فى أى مرجع آخر شيئا يتصل بوليد بن أمية المذكور .

(٢٨٤) وردت هذه الترجمة فعلا مع خلاف طفيف فى تاريخ ابن الفرضى ، رقم ٤٧١ ، وقد كان حقها أن تقدم فتلحق بوفيات سنة ٢١٠ لا فى سنة ٢١١ كما نرى فى الأصل . وقد سبق أن علقنا على اسم سعيد بن محمد بن بشير وترجمته والاختلاف بين المؤرخين حول ولايته للقضاء فى الفصل الخاص بقضاة الأمير عبد الرحمن (انظر تعليقنا السابق رقم ٢١٧ والمراجع الواردة فيه) .

(٢٨٥) يبدو أن ابن حيان اعتمد فى ترجمته لعيسى بن دينار على ابن الفرضى (ترجمة رقم ٩٧٣) ، إذ يتفق ما سلم من نص ابن حيان هنا من خلال قطوع الورقة مع ما أورده ابن الفرضى ، وقد تكون الترجمة أكثر تفصيلا مما أثبتناه ، على أن ابن حيان اعتبر ما ذكره عن عيسى غير كاف فى التعريف به ، فاستلحق فى نهاية الفصول الخاصة بالأمير عبد الرحمن أخباراً أخرى متعلقة به ستر د فى موضعها . وانظر كذلك فى ترجمة عيسى بن دينار : الحميدى : جذوة ، رقم ٦٧٨ ؛ القاضى عياض ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ١٦ — ٢٠ (ولعلها أوفى ما بين أيدينا من تراجمه) ؛ ابن سعيد : مغرب ٢/٢٤ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٧٨ — ١٧٩ ؛ المقرى نفح ٢/٢١٥ ، ٢٥٢ ، ٤/١٦١ — ١٦٢ ؛ وانظر من الأبحاث الحديثة كتاب لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكى ص ٧٥ — ٧٨ والمراجع الواردة فى هذه الصفحات ؛ وكتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ١٣٥ — ١٣٦ .

(٢٨٦) ترجم لابرهيم بن زرعة المذكور كل من ابن الفرضى (تاريخ ، رقم ٢) والحميدى (جذوة ، رقم ٢٧٨) ترجمة لا تزيد عما نجده فى نص ابن حيان إلا ما ذكراه من نقلهما خبره عن أبى سعيد ابن يونس المصرى ، وأضاف ابن الفرضى أنه لم يعرف له فى الأندلس خبراً وإنما قدمه لتقدم وفاته . وقد أنعمنا النظر فى كتب طبقات الفقهاء فى افريقية فى المواضع الخاصة بأخبار قاضى القيروان وفقيهها سحنون بن سعيد لكى نتحقق مما ذكر هنا من أنه كان ممن روى سحنون عنهم ، فلم نجد له ذكراً .

(٢٨٧) لم نجد فيما بين أيدينا من المراجع أى إشارة لمحمد بن موسى مولى الغافقيين المذكور هنا باعتباره ممن ولوا الوزارة والكتابة . والغريب أن هذا الاسم والنسبة ينطبقان تماما على كاتب ووزير مشهور كان وثيق الصلة بالأمير محمد بن عبد الرحمن ونعنى به محمد بن موسى الغافقى الذى سيذكر ابن حيان فى نفس هذه القطعة من « المقتبس » جملة طيبة من أخباره ولاسيما فى الأحداث التى أحاطت باستيلاء محمد على مقاليد الإمارة بعد وفاة أبيه ، غير أن محمد بن موسى المذكور لا يمكن أن يكون هو المقصود هنا ، إذ أن وفاته فى سنة ٢١٣ (٨٢٨) تزيل كل لبس وخلط بين الرجلين . والتوجيه الوحيد لما يذكره ابن حيان هنا هو أن يكون محمد بن موسى المتوفى سنة ٢١٣ من نفس هذه الأسرة التى تعرف فى التاريخ الأندلسى باسم « بنى موسى الوزير » وقد استقرت فى اشبيلية ، وكان نسبهم فى غافق ، وكانوا من عرب الشام ثم من جند فلسطين ، وسكنوا فى ناحية الجزيرة ، ولكن بنى موسى المذكورين استقروا فى اشبيلية . ومنهم كان عبيد الله بن موسى الغافقى القرطبى الذى ولاه الحكم بن هشام قضاء الجماعة بعد الفرج بن كنانة سنة ٢٠١ (٨١٦ – ٨١٧) على ما يذكر ابن الفرضى والخشنى (انظر ترجمة عبيد الله بن موسى فى ابن الفرضى : رقم ٧٥٩ ؛ والخشنى : قضاة ص ٧٧ – ٧٨) ، وسوف يزيدنا ابن حيان بيانا عن أصل هذه الأسرة عند حديثه عن محمد بن موسى الغافقى كاتب الأمير محمد ووزيره ، إذ أن فى نسبهم خلافا قديما فقد كانوا يؤكدون نسبهم العربى الخالص ، والخشنى يوافقهم على ذلك فى الترجمة التى أفردها للقاضى عبيد الله بن موسى ، بينما كان بنو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى عامل الأندلس فى عصر الولاة ينكرون ذلك عليهم ويقولون إن بنى موسى كانوا من أهل الذمة من مواليهم ، وظل هذا الخلاف بين البيتين حتى حسمه محمد بن موسى وزير الأمير محمد فدعا بنى عبد الرحمن الغافقى إلى أن يخلطوهم بأنفسهم ويصهروا إليهم .

وعلى ذلك يكون محمد بن موسى الغافقى الذى يذكر ابن حيان وفاته سنة ٢١٣ من نفس تلك الأسرة التى برز منها بعد ذلك سميه وزير الأمير محمد وكاتبه ، والتى كان منها قاضى الجماعة للحكم بن هشام : عبيد الله بن موسى ، بل إنه ربما كان أخاً لنفس هذا القاضى .

(٢٨٨) هو ابرهيم بن محمد بن ابرهيم بن مزين القرطبى ، أحد أفراد أسرة بنى مزين المشهورة التى كان أصلها من طليطلة وإن كانوا قد سكنوا أكشونبة واستقروا فيها . وكان ابرهيم هذا يتعاقب مع الحجاب وجلة الوزراء والقواد فى أيام الحكم بن هشام ، ثم ولاه على طليطلة أعواما متصلة . وقد ترجم له ابن الأبار فى الحلة (١/٨٨) وأورد بيتين من شعره ولكنه لم يذكر عام وفاته الذى يفيدنا عنه ابن حيان هنا وهو ٢١٣ (٨٢٨) . وانظر كذلك تعليقنا السابق عن بنى مزين (رقم ١٧٠) بمناسبة الحديث عن الفقيه يحيى بن ابرهيم بن مزين ، وهو ابن ابرهيم المذكور هنا .

(٢٨٩) هو عبد الخالق بن عبد الجبار بن قيس بن عبد الله بن عبد الرحمن بن قتيبة بن مسلم الباهلى ، وجده الأعلى قتيبة ابن مسلم هو القائد المشهور الذى كان عاملا على خراسان فى دولة بنى أمية بالمشرق . وقد استقرت فى الأندلس من ذريته بقية كبيرة كانت موزعة بين جيان وطليطلة ووادى الحجارة على ما يذكر ابن حزم (جمهرة ، ص ٢٤٦) ، وقد ولى عبد الخالق القضاء بطليطلة فى أيام الحكم بن هشام الربضى حتى عزل سنة ٢٠٥ (٨٢٠ – ٨٢١) فيما يذكر ابن حارث الخشنى ، وينقل ابن الأبار فى الترجمة التى أفردها له قولا آخر فى وفاته يختلف عما يذكره هنا ، وهو أنه مات سنة ١٩٨ (٨١٣ – ٨١٤) . (التكلة ، نشر ألاركون وبالنثيا ، رقم ٢١٩٦) . ولسنا ندرى هل أخطأ ابن الأبار فى النقل عن ابن حيان ،

أم تناقض ابن حيان ، وربما كان هناك قولان فى وفاته نقلهما المؤرخ كما وقعا إليه . وقد كان عبد الخالق المذكور جد أسرة تكررت فيها خطة القضاء ، فكان ابنه الوليد قاضيا (وسوف يذكره ابن حيان) ، وكذلك حفيده أحمد بن الوليد عبد الخالق ، وولى جميعهم قضاء طليطلة (انظر ترجمة هذا الأخير فى ابن الفرضى : رقم ٥٩) وأخوه عبد الخالق بن الوليد الذى ترجم له ابن الأبار : تكلة ، ط . ألاركون وبالنثيا ، رقم ٢١٩٧ ؛ وانظر كذلك فى هذه الأسرة كلها القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ١٦٢) .

(٢٩٠) لابد أن فرج بن مسرة بن سالم المذكورة هنا وفاته فى سنة ٢١٧ (٨٣٢) هو نفسه الذى يسميه ابن حزم فرج بن سالم ناسبا إياه إلى جده . وسالم المذكور هو سالم بن ورعال بن وكذات المصمودى من موالى بنى مخزوم ، ويظهر أنه أول من دخل الأندلس فيمن دخلها من البربر عند الفتح ، وقد استقر بيته فى المنطقة الجبلية من الثغر الأوسط فى هضبة وسط شبه الجزيرة ، وإلى سالم بن ورعال تنسب « مدينة سالم » التى تحمل حتى اليوم اسمها العربى فى صورة Medinaceli (على بعد ١٥٣ كيلو متر إلى الشمال الشرقى من مجريط (مدريد) ونحو مائة كيلو متر إلى شمال وادى الحجارة) . أما حفيده (أو ابنه فى رأى ابن حزم) الفرج بن مسرة بن سالم فهو الذى تنسب إليه « مدينة الفرج » التى كانت تسمى أيضا « وادى الحجارة » (وهى مازالت كذلك تحمل اسمها العربى : Guadalajara) ، وتقع على مسافة ٥٦ كيلو متر إلى الشمال الشرقى من مدريد ، وقد ظلت وقتا طويلا تعرف باسميها : وادى الحجارة ومدينة الفرج حتى فى كتابات المؤرخين المسيحيين (كما نرى فى كتاب « تاريخ العرب » للأسقف دون رودريجو — الفصل التاسع والثلاثين — حيث يدعوها باللاتينية Medinae Alpharagel) وإن كان الاسم الأول هو الذى شاع وغلب عليها حتى أيامنا هذه ، وقد حاول جايانجوس أن يجد تفسيراً لاسم « مدينة الفرج » فظن أن كلمة « الفرج » تعنى « الفرجة » أو الشق فى الأرض ، وبهذا ترجمها عندنشره لنص جغرافية أحمد بن موسى الرازى انظر :

Pascual de Gayangos : Memoria sobre la autenticidad de la cronica denominada del foro Rasis, p. 48, nota, 4.

ولم يكن المستشرق الإسبانى يعرف أن الفرج هو اسم علم وأنه منشئ المدينة فاصطلح على تسميتها باسمه . (انظر كذلك ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار ص ١٩٣) . وقد أشار ابن عذارى فى البيان المغرب إلى قائد يدعوه فرج بن مسرة بمناسبة فتحه لحصن « القلعة » فى أرض العدو سنة ٢١٠ (٨٢٥ — ٨٢٦) (انظر البيان ٢/٨٢) ولسنا نشك فى أن فرج ابن مسرة هذا هو نفسه المذكور هنا فى نص ابن حيان . ويعقب ابن عذارى إشارته تلك بقوله إن مسرة — ولعله يعنى أباه — كان عاملا على جيان .

وقد احتفظ بنو سالم المذكورون هنا برياستهم فى منطقة الثغر الأوسط الممتدة بين طليطلة ومدينة سالم زمنا طويلا وكان منهم كثير من عمال مدنها وقواد ثغورها طوال أيام الدولة الأموية (انظر حول هذه الأسرة ابن حزم : جمهرة ص ٥٠١ ؛ وكذلك كتابنا « مدريد العربية » ص ٨٨ — ٩٠) .

(٢٩١) يقصد بالهيج ثورة الربض المشهورة التى شبت ضد الحكم بن هشام فى ١٣ رمضان سنة ٢٠٢ (٢٥ مارس سنة ٨١٨) والتى اشترك فيها عدد كبير من الفقهاء مثل يحيى بن يحيى الليثى وطالوت بن عبد الجبار وعيسى بن دينار الطليطلى وقرعوس المذكور . أنظر عن هذه الثورة ما كتبه ليفى بروفنسال فى تاريخه (١/١٦٥ — ١٦٩) .

(٢٩٢) اختصر ابن حيان هذه الترجمة من كتاب ابن الفرضي ، رقم ١٠٨٢ ؛ وانظر كذلك عن قرعوس بن العباس الحميدى : جذوة ، رقم ٧٨٠ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٤٩٢ – ٤٩٣ : ابن فرحون : ديباج ص ٢٢٦ ؛ ومن الدراسات الحديثة انظر لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكى ص ٦٠ ، ٦٢ ، ٨٣ ؛ وكتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ١٠١ . وقد نقل عياض فى ترتيب المدارك تحقيقا طيبا للفقيه أبى محمد بن حزم حول مايردده كتب التراجم عن الشيوخ الذين لقيهم قرعوس . فمن بين من يذكرون من هؤلاء الشيوخ ابن جريج وسفيان بن سعيد الثورى ، كما نرى فى نفس هذه الترجمة التى يعتمد ابن حيان فيها على كتاب ابن الفرضى . ويعلق ابن حزم على ذلك بدقته واقتداره فى ميدان النقد : «من المحال أن يروى قرعوس عن ابن جريج ، إذ مات ابن جريج سنة خمسين ومائة ، وقرعوس مات سنة عشرين ومائتين . ولم يطل عمر قرعوس طولا يحتمل هذا . وكذلك وفاة سفيان سنة إحدى وستين» (ترتيب المدارك ٤٩٣/١) . والحقيقة هى أن معاجم التراجم تحفل بأمثال هذه المفارقات التى لا تستقيم على المقابلة التاريخية ولا تثبت أمام أى مناقشة منطقية ، ولكن المؤلفين يجرون على تناقلها وإثباتها حتى تصبح فى حكم المسلمات دون أن يعنوا أنفسهم – كما فعل ابن حزم ونفر غيره من النقاد المتثبتين – بإخضاعها لميزان نقدى قويم .

(٢٩٣) لابد أن يكون حمدون بن فطيس هذا المتوفى سنة ٢٢٠ (٨٣٥) أو ٢٢٦ (٨٤١) ابنا لعثمان ابن سليمان الملقب بفطيس والذى كان كاتبا ووزيراً لهشام بن عبد الرحمن وابنه الحكم حتى وفاته سنة ١٩٨ (٨١٣ – ٨١٤) أو ٢٠٧ (٨٢٢ – ٨٢٣) . (انظر ماكتبناه عن فطيس المذكور فى تعليقنا رقم ٢٦٧) . وأما حمدون ابنه فهو بغير شك الذى ذكره الخشنى فى خبر قصه عن القاضى محمد بن بشير قاضى الجماعة فى أيام الأمير الحكم ، إذ يقول إن حمدون ابن فطيس تظلم من محمد بن بشير فى شئ حكم به عليه إلى الأمير الحكم ، فسأل الأمير أن يعقد مجلسا للفقهاء لبحث ذلك الحكم وإعادة النظر فيه ، وطلب إلى يحيى بن يحيى أن يحضر هذا المجلس ، فنصحه يحيى بألا يفعل ، وقال له إن كان يصر على ذلك فليستشر أولا شيخ الفقهاء يحيى بن مضر القيسى ، فاستحيا حمدون «وكان حليما دمثا» وكف عن جمع الفقهاء . (الخشنى : قضاة ص ٦٤) . وإذا صح ما يرويه الخشنى هنا فإن هذه الواقعة ينبغى أن تكون قد حدثت قبل سنة ١٨٩ (٨٠٥) ، وهى السنة التى قامت فيها ثورة الفقهاء الأولى وكان من عواقبها أن قبض على يحيى بن مضر وصلب .

(٢٩٤) عن محمد بن كليب بن ثعلبة انظر تعليقنا السابق عن بنى كليب (رقم ٢) .

(٢٩٥) لم نجد فيما بين أيدينا من المراجع شيئا عن هؤلاء المذكورين ، ولابد أنهم كانوا من زعماء المتمردين فى طليطلة من قبض عليهم فى أيام الحكم بن هشام حينما فتحها سنة ١٩٩ (٨١٤) وسحق الثورة فيها واستنزل بعض زعمائها فأودعهم سجن المطبق . ويبدو من أسماء هؤلاء الطليطليين أنهم كانوا من المولدين ، ويلفت النظر من بينهم اسم «حرب بن بلدس» ، إذ يبدو لنا أن اسم أبيه بلدس هذا لابد أن يكون من الأسماء العجمية الشائعة بين المولدين والمستعربين ، وهو يقابل Valde's الذى لا يزال مستخدما فى إسبانيا حتى اليوم .

(٢٩٦) هو حبيب بن سليمان بن هارون بن جلهمة بن عباس بن مرداس السلمى القرطبى ، كذا ذكر نسبه ابن الفرضى فى نسب ابنه الفقيه عبد الملك بن حبيب ، ونقل القاضى عياض عن خط الحكم المستنصر فى نسبه أنه حبيب بن ربيع بن سليمان ،

وكذا قال أبو علي الغساني . واختلف فيها إذا كان عربيا صحيح النسب من سليم أو من مواليهم ، فقال بالرأي الأول محمد ابن حارث الخشني وقال ابن الفرضي إنه كان من الموالي ، ويبدو أن هذا هو الأرجح . وذكر عياض أن حبيبا المذكور كان يعرف بالعصار : كان يعصر الأذهان ويستخرجها . وكان أصلهم من طليطلة ، ثم انتقل أبوه سليمان إلى قرطبة ، وولد له ابنه حبيب فيها وبها نشأ وأصبح عن عداد فقائها ، فلما شبت ثورة الربض سنة ٢٠٢ (٨١٨) انتقل هو وإخوته إلى إلبيرة ، ومن هنا عرف ابنه الفقيه المشهور عبد الملك بالإلبيري . وعلى الرغم من أن حبيب بن سليمان كان يعد من الفقهاء فإنه لم يعثر له على رواية . انظر في ترجمته ابن الأبار : تكملة ، رقم ٨٧ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٣٠ – ٣١ (في ترجمة ابنه عبد الملك بن حبيب) .

(٢٩٧) انظر في ترجمة حارث بن أبي سعد ابن الفرضي : رقم ٣٢٤ ؛ الحميدي : رقم ٣٩٨ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ٢٢/٢ ؛ ومن الدراسات الحديثة لويث أورتيث : دخول المذهب المسالكي ، ص ٧٩ . ولهذا النص قيمة خاصة ، إذ فيه إشارة إلى تولى حارث بن أبي سعد « الشرطة الصغرى » ، ولعله أول من تولى هذا المنصب فيما نعرف ، ويدلنا ذلك على أن الشرطة قد تفرعت في أيام عبد الرحمن الأوسط إلى كبرى وصغرى كما بدا لنا من نص لابن حيان مر في هذه القطعة من المقتبس عند الكلام عن أصحاب شرطة عبد الرحمن بن الحكم ، ولو أن التحريف الذي لحقه لم يسمح لنا بقراءة يطمأن إليها تماما . وقد جاء في النص المذكور أيضا أن حارث بن أبي سعد ولي أيضا خطة الرد مجموعة له مع الشرطة الصغرى ، وهذه خطة جديدة يبدو أنها ظهرت كذلك في أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط (وانظر تعليقنا السابق رقم ١٥١) .

ونلاحظ أخيراً فيما يتعلق باسم حارث بن أبي سعد أن كنية أبيه (واسمه سابق) تكتب هكذا في ترجماته التي وصلت إلينا (مثل ماكتبه عنه ابن الفرضي والقاضي عياض) ، فإذا ترجم هؤلاء لابنه محمد – وكان أيضا من ولاة الشرطة – كتبوا هذه الكنية هكذا : « أبو سعيد » مما يجعلنا في شك من أمر الصواب فيها . ولعل ما أثبتناه هنا هو الصحيح .

(٢٩٨) أبو عمرو عثمان بن عيسى بن كنانة مولى عثمان بن عفان من فقهاء المدينة أصحاب الإمام مالك ، انتدبه مالك لمناظرة الفقيه القاضي أبي يوسف في مجلس هارون الرشيد ، وهو الذي تصدر مجلس مالك بعد وفاته . وكانت وفاته سنة ١٨٦ (٨٠٢) . انظر في ترجمته القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٢٩٢ – ٢٩٣ .

(٢٩٩) انظر ترجمة محمد بن عيسى الأعشى في كتاب ابن الفرضي ، رقم ١١٠٠ ؛ الحميدي ، رقم ١٠٦ ؛ الخشني : قضاة ص ١٠ ، ٥٨ ، ٨٦ ، ١٠٢ ، ١٠٣ – ١٠٣ ؛ المقري : نفح ٢٦٧/٢ – ٢٦٨ ؛ ومن الأبحاث الحديثة لويث أورتيث : دخول المذهب المسالكي ص ١٠٢ ؛ وكتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ١٨٤ . ويلاحظ أن الأعشى كان من أول من تأثر من الأندلسيين بفقه أهل العراق ، ولاسيما بمذهب أبي حنيفة ، وهو مذهب لم يأخذ به من أهل الأندلس إلا أشخاص معدودون ، وإلى هذا التأثر بالمذهب الحنفي يرجع تساهل الفقيه محمد بن عيسى الأعشى في شراب النبيذ (كما رأينا في الخبر الذي قصه ابن حيان من قبل مع القاضي محمد بن زياد بن عبد الرحمن حينما تطوع الأعشى بإطلاق سراح سكران قبض عليه القاضي ليقيم الحد عليه). ويذكر الأعشى من بين من عرض عليهم القضاء فأبوا من قبوله ، وكان صاحب نوادر وفكاهات أورد ابن حيان طرفا منها من قبل .

(٣٠٠) أبو محمد سفيان بن عيينة الهلالى الكوفى المكى ، ولد سنة ١٠٧ (٧٢٥ – ٧٢٦) ، فقيه محدث عداده فى تابعى التابعين ، سمع من الزهرى وعمرو بن دينار والشعبى وغيرهم ، وروى عنه الأعمش ووكيع بن الجراح والشافعى وغيرهم من أئمة الفقهاء والمحدثين . وتوفى سنة ١٩٨ (٨١٣ – ٨١٤) .
انظر فى ترجمته العبر للذهبى ٣٢٦/١ .

(٣٠١) وكيع بن الجراح الرؤاسى ، ولد سنة ١٢٩ (٧٤٦ – ٧٤٧) ، وروى عن أبى حنيفة وأبى يوسف ، وهو من أكبر محدثى الكوفة ، وروى عنه ابن حنبل وابن المبارك ويحيى بن معين وغيرهم . وتوفى سنة ١٩٧ (٨١٢–٨١٣) انظر فى ترجمته طبقات علماء افريقية لأبى العرب بن تميم ص ١٨٥ ، حاشية ٢ والمراجع المثبتة .

(٣٠٢) يحيى بن سعيد بن فروخ التيمى المعروف بالقطان ، من كبار أئمة الحديث العراقيين ، ويعتبر من أئمة الجرح والتعديل ، روى عن هشام بن عروة ، واعتبره القاضى عياض ممن روى عن مالك من عداد أقرانه ، وكانت وفاته سنة ١٩٨ (٨١٣ – ٨١٤) . انظر الخزرجى : خلاصة تذهيب الكمال ص ٣٦٣ ؛ ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٢٥٨ .

(٣٠٣) لم نهتد إلى شخصية أبى محمد بن خالد هذا ولا على ما يشير إلى بيت بنى عمار المراديين بقرطبة الذين ينحدرون من نسل ابن خالد المذكور ، وإن كانت أشارة ابن حيان تدل على أن هذا البيت كان من بيوت الشرف المشهورة فى قرطبة على أننا نعرف أن بنى مراد – ونسبهم ينتهى إلى يحابر (وهو مراد) بن مالك بن أدد . . . بن كهلان بن سبأ – كانوا يسكنون إقليما من أقاليم قرطبة يعرف بكورة مراد ، فى غربى قرطبة بينها وبين إشبيلية ، وفى هذه الكورة حصن يعرف باسم حصن مراد (انظر ابن سعيد : مغرب ٢٣٢/١ ؛ ياقوت : معجم البلدان ٤٧٤/٤) . وقد أشار ابن حزم إلى نسب بنى مراد (جمهرة ص ٤٠٦ – ٤٠٧) ولكنه لم يذكر منازلهم بالأندلس ، غير أن ابن غالب نص عنه أنه كان منهم خلق كثير يعرفهم بالكورة التى تنسب إليهم : « ومنهم [من عرب الأندلس] من ينتسب إلى مراد بن مالك بن أدد ، وحصن مراد بين قرطبة واشبيلية مشهور . قال ابن غالب : وأغرف بمراد منهم خلقاً كثيراً » (انظر المقرى : نفح ٢٧٦/١ ؛ وانظر كذلك بحث الأستاذ إلياس تيريس سادابا عن « الأنساب العربية فى الأندلس » فى مجلة « الأندلس » المجلد الثانى والعشرين سنة ١٩٥٧ ص ٦٨ من الفصلة :

Elias Teres Sadaba : Linajes arabes en al-Andalus, segun la « Yamhara » de Ibn Hazm. Al-Andalus, Vol. XXII, ano 1957.

وإذا كنا لم نهتد إلى أسرة تحمل اسم بنى عمار من قبيلة مراد المذكورة فإن لنا توجيها فى ذلك نعتقد أنه قد لا يبعد عن الصواب ، فمراد رأس القبيلة التى تنسب إليها الكورة والحصن المذكوران ليس إلا ابن عم لعنس بن مذحج بن أدد . . ابن كهلان بن سبأ . ونحن نعرف من هؤلاء العنسيين أسرة كبيرة عريقة الشرف فى الأندلس تحمل اسم بنى عمار ، إذ ينتهى نسبها إلى الصحابى المشهور عمار بن ياسر العنسى رضى الله عنه ، وكان من أول من اعتنق الإسلام وعذب فى سبيله . وأول من دخل من ولده الأندلس حفيده عبد الله بن سعد بن عمار ، وكانت له حظوة لمكانه من اليمانية بقرطبة ، ويقول ابن الخطيب إن داره كانت معروفة بقرب القنطرة ، وقربه يوسف بن عبدالرحمن الفهرى آخر أمراء الأندلس قبل تجدد الدولة

الأموية فيها . فلما قدم عبد الرحمن بن معاوية الداخل عهد إليه يوسف بمحاربته للثأر القديم بين بنى أمية وبنى عمار بن ياسر منذ حرب صفين . ولكن عبد الرحمن هزمه وقتله (انظر ابن حزم : جمهرة ص ٤٠٦ ؛ ابن سعيد : المغرب ٢-١٦١ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة – نشر الاستاذ محمد عبد الله عنان – ٢٢٢/١ ؛ المقرى : نفح ٩٦/٣ ؛ ٦١/٤ ؛ وبحثنا عن « التشيع فى الأندلس » ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثانى سنة ١٩٥٤ ، ص ٩٧) . وقد كان لبنى عمار هؤلاء بيت كبير من بيوت الشرف بقرطبة ، وإن كانت منازلهم فى قلعة من أعمالها تقع بينها وبين جيان وإلبيرة هى « قلعة يحصب » التى عرفت بعد ذلك باسم قلعة بنى سعيد نسبة إلى سعيد بن الحسن بن عثمان بن محمد بن عبد الله بن سعد بن عمار ابن ياسر (وظلت تحمل هذا الاسم حتى بعد استيلاء المسيحيين عليها ، إذ كانت تدعى Alcala de Abenzaide ثم غير اسمها فأصبح Aecala la Real أى القلعة الملكية وهو الاسم الذى جرى عليها حتى اليوم . وإلى هؤلاء ينتسب بنو سعيد المشهورون الذين كان منهم على بن موسى بن سعيد مؤلف كتاب المغرب فى حلى المغرب (انظر ابن حزم : جمهرة ص ٤٠٦ ؛ المغرب ١٦١/٢ ؛ المقرى : نفح ٢٧٦/١) .

فلعل ابن حيان نسب بنى عمار بن ياسر القرطبيين الذى كان منهم بنو سعيد المذكورون إلى مراد ، إذ كانوا أبناء عمومتهم .

(٣٠٤) انظر ترجمة ابن مرتنيل الأشج فى ابن الفرضى ، رقم ١٠٩٩ ؛ الخشنى : قضاة ص ٦٣ ؛ الحميدى ، جذوة ، رقم ٤٣ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ٢٦ – ٢٧ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٢٣١ .

(٣٠٥) انظر فى ترجمة الوليد بن عبد الخالق المذكور ابن الفرضى : رقم ١٥٠٢ ، وقد نقل خبره عن أحمد محمد الرازى ؛ وأبوه الذى ولى قضاء طليطلة أيضا هو الذى سبق أن أشار إليه ابن حيان فى وفيات سنة ٢١٣ (٨٢٨) . انظر تعليقنا السابق رقم ٢٨٩ .

(٣٠٦) فى ترجمة محمد بن سعيد الزجالى انظر ما سبق أن كتبناه فى التعليق رقم ١٣٢ ، وفيما يتعلق بوفاته التى تزدد ابن حيان فى تحديد تاريخها بين سنتى ٢٢٨ (٨٤٣) و ٢٣٢ (٨٤٦ – ٨٤٧) انظر ما سبق أن كتبناه فى التعليق رقم ١٣٥ على ما ذكره ابن حيان فى ذلك الموضع من أنه « كتب لابنه [أى لابن عبد الرحمن الأوسط] محمد بعده » ، وفى هذا تناقض واضح إذ أن الأمير محمداً ولى الإمارة فى سنة ٢٣٨ (٨٥٢) ، وقد ذكرنا هناك أنه ربما كان فى العبارة سقط وأن يكون تمامها « وكتب ابناه [أى ابنا محمد بن سعيد الزجالى] لابنه محمد بعده » .

(٣٠٧) لم أستطع التحقق من شخصية يحيى بن موسى هذا ، ولعله كان أخا لمحمد بن موسى الغافقى الذى ولى الوزارة والكتابة والذى ذكره ابن حيان من قبل فى وفيات سنة ٢١٥ (انظر تعليقنا السابق رقم ٢٨٧) .

(٣٠٨) أسرة الغازى بن قيس القرطبى من الأسر التى كان لها إسهام كبير فى الاشتغال بالعلم فى الأندلس . وللغازى مكانة خاصة ولاسيما فى فقهاء المالكية ، فقد كان أول من أدخل موطأ الإمام مالك إلى الأندلس قبل أن يدخل به زياد ابن عبد الرحمن اللخمى (شبطون) ويحيى بن يحيى الليثى بعده . وكان مشتغلا بالتأديب فى قرطبة فى أيام دخول الإمام عبد الرحمن

ابن معاوية الداخل إلى الأندلس ، ثم رحل إلى المشرق فشهد تأليف الموطأ بالمدينة وأدرك نافع بن أبي نعيم القارئ وقرأ عليه ، فضلا عن أخذه عن فقهاء آخرين مثل عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى فقيه أهل الشام ، وكان عبد الرحمن الداخل يكرمه ويعظمه ويصله في منزله ، ويقال أن القضاء عرض عليه فأبى من قبوله . ويبدو أنه كان منصرفا عن الاشتغال بالفقه والفتوى على الرغم من إسهامه المبكر فى إدخال الموطأ ، فقد كان أكثر اهتماما باللغة والنحو ، واستأدبه الأميران هشام بن عبد الرحمن وابنه الحكم بن هشام لأبنائهما ، وكان قد لقى بالمشرق كذلك الأصمعى ونظراءه ، ولهذا فقد جعله الزبيدى فى الطبقة الأولى من طبقات اللغويين والنحويين بالأندلس. وكانت وفاة الغازى سنة ١٩٩ (٨١٤ – ٨١٥) . (انظر فى ترجمته ابن القوطية : تاريخ ص ٣٤ ؛ ابن الفرضى ؛ ١٠١٣ ؛ الحميدى . رقم ٧٤٨ ؛ الضبى . رقم ١٢٧٢ ، ترتيب المدارك، المجلد الأول ص ٣٤٧ – ٣٤٩ ؛ الزُبيدى : طبقات ص ٢٧٦ – ٢٧٨ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٢١٩ وانظر ابن بشكوال : الصلة ١-١٠٨ ؛ ومن الدراسات الحديثة لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكى ص ٥٤، ٥٥، ٦١؛ وقد عالجنا مسألة دور الغازى بن قيس فى إدخال الموطأ إلى الأندلس بالتفصيل فى بحثنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص٩٩–١٠٠)

أما ابنه عبد الله بن الغازى المترجم هنا فقد كان أكثر اهتماما من أبيه باللغة والشعر والخبر ، سمع من أبيه ورحل إلى المشرق فروى عن كبار علماء اللغة والأخبار هناك ، وأخذ عنه أهل الأندلس علما كثيراً ، وكان ممن نشروا قراءة نافع ابن أبى نعيم التى أدخلها أبوه من قبل . وكانت وفاته سنة ٢٣٠ (٨٤٤ – ٨٤٥) . انظر ترجمته فى ابن الفرضى : رقم٦٣٢ الزبيدى : طبقات ص ٢٨١ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ١-٣٤٨ .

وقد كان لعبد الله هذا ابن يدعى محمداً سار على نهج جده وأبيه فى الاشتغال بعلوم العربية والأخبار والشعر ، وسمع من أبيه ثم رحل إلى المشرق فلقى أبا حاتم السجستانى وأبا الفضل العباس بن فرج الرياشى وأبا إسحاق الزيادى وغيرهم من رواة الأخبار والأشعار وأصحاب اللغة فضلا عن طائفة المحدثين . وأدخل إلى الأندلس علما كثيراً من الشعر والغريب والخبر . ويقول ابن الفرضى إن أهل الأندلس أخذوا عنه « الأشعار المشروحة كلها رواية » ، ويبدو أن المقصود بهذا مجموعات من دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين . وخرج فى آخر عمره يريد الحج غير أنه توفى بطنجة فى نحو سنة ٢٩٦ (٩٠٨–٩٠٩) كما يقول ابن الفرضى (ويبدو أن هنا خطأ من الناسخ وأن الصواب سنة ٢٧٦ (٨٨٩ – ٨٩٠ (. انظر فى ترجمته : ابن الفرضى ، رقم ١١٥٠ ؛ الزبيدى : طبقات ص ٢٨٢ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ١٩٣ ؛ ومن الأبحاث الحديثة أنظر كتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٢٦٩ – ٢٧٠ ، ٢٧٢ .

(٣٠٩) هو نافع بن عبد الرحمن بن ابرهيم ، أحد القراء السبعة ، وكان قارئ أهل المدينة وأصله من إصبهان ، وكان يذكر أنه قرأ على سبعين من التابعين ، وإليه تنسب القراءة المعروفة باسمه . وتوفى سنة ١٦٩ (٧٨٥ – ٧٨٦) . انظر ابن الجزرى : طبقات القراء ، ط . القاهرة ١٣٥٢ ھ : ٢/٣٣٠ – ٣٣٤ ؛ ابن حجر : تهذيب التهذيب ، ط . حيدر أباد سنة ١٣٢٥ ھ ، ١٠/٤٠٧ – ٤٠٨ .

(٣١٠) أبو القاسم ثابت بن حزم العوفى السرقسطى ، سمع بالأندلس من محمد بن وضاح ومحمد بن عبد الله بن الغازى وغيرهما ، ورحل إلى المشرق مع ابنه قاسم ، فسمعا بمكة ومصر ، وكان عالمـــا بصيراً بالحديث والفقه والنحو والغريب

والشعر ، وتوفى سنة ٣١٣ (٩٢٥) . انظر فى ترجمته ابن الفرضى ، رقم ٣٠٦ ؛ الحميدى ، رقم ٣٤٥ ؛ الزبيدى ، طبقات ص ٣٠٩ (وهو يسميه ثابت بن عبد العزيز) ؛ السيوطى : بغية ص ٢٠٩ .

(٣١١) أبو محمد قاسم بن ثابت هو ابن المتقدم ذكره ، رحل مع أبيه إلى المشرق سنة ٢٠٨ (٨٢٣ - ٨٢٤) واشترك معه فى سماعه ، وألف كتاب « الدلائل » فى شرح غريب الحديث الذى كان موضع ثناء أبى على القالى وافتخار أبى محمد ابن حزم . وكان قد عرض عليه القضاء بسرقسطة وأريد اكراهه عليه فدعا على نفسه بالموت، فاستجاب الله له وتوفى سنة ٣٠٢ (٩١٤ - ٩١٥) فثكله أبوه ، وكان لم يكمل بعد كتاب «الدلائل»فأتمه أبوه ثابت . انظر فى ترجمته وأخباره : ابن الفرضى ، رقم ١٠٩٠ ؛ الحميدى رقم ٧٧١ ؛ الزبيدى : طبقات ص ٣٠٩ : النباهى مرقبة ص ١٣ ؛ السيوطى : بغية ص ٣٧٦ ؛ المقرى : نفح ٢/٢٥٥ - ٢٥٦ ، ٤/١٦٤ (حيث ورد الاسم خطأ « عامر بن خلف » بدلا من قاسم بن ثابت) . وقد كان لكتاب الدلائل انتشار كبير فى الأندلس يدل عليه ماكتبه ابن خير عن رواياته فى فهرسة شيوخه (ص ١٩١ - ١٩٤) . وقد كان الشائع المعروف هو أن هذا الكتاب الجليل - الذى فضله ابن حزم على شرح غريب الحديث لأبى عبيد القاسم ابن سلام - قد ضاع واندثر ، غير أن الحظ قد أسعدنا بأن اكتشفت أخيراً فى المغرب مخطوطات جديدة منه مازالت تنتظر النشر . انظر عن هذا الكتاب تقريراً كتبناه عن رحلة قنا بها فى المغرب بحثا عن مخطوطات أندلسية جديدة فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلدين التاسع والعاشر ، سنتى ١٩٦١ - ١٩٦٢ ص ٥٠ من القسم العربى (وتحمل المخطوطة الجديدة من كتاب الدلائل رقم ١٩٨ ق ، وهذا الرمز الأخير يشير إلى ما عثر عليه من كتب فى مجموعات الأوقاف والزوايا وهى الآن محفوظة فى الخزانة العامة بالرباط) . وعن قاسم بن ثابت انظر كذلك كتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ١٥٦ ، ١٩٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ - ٢٦٨ ، ٢٧٧ .

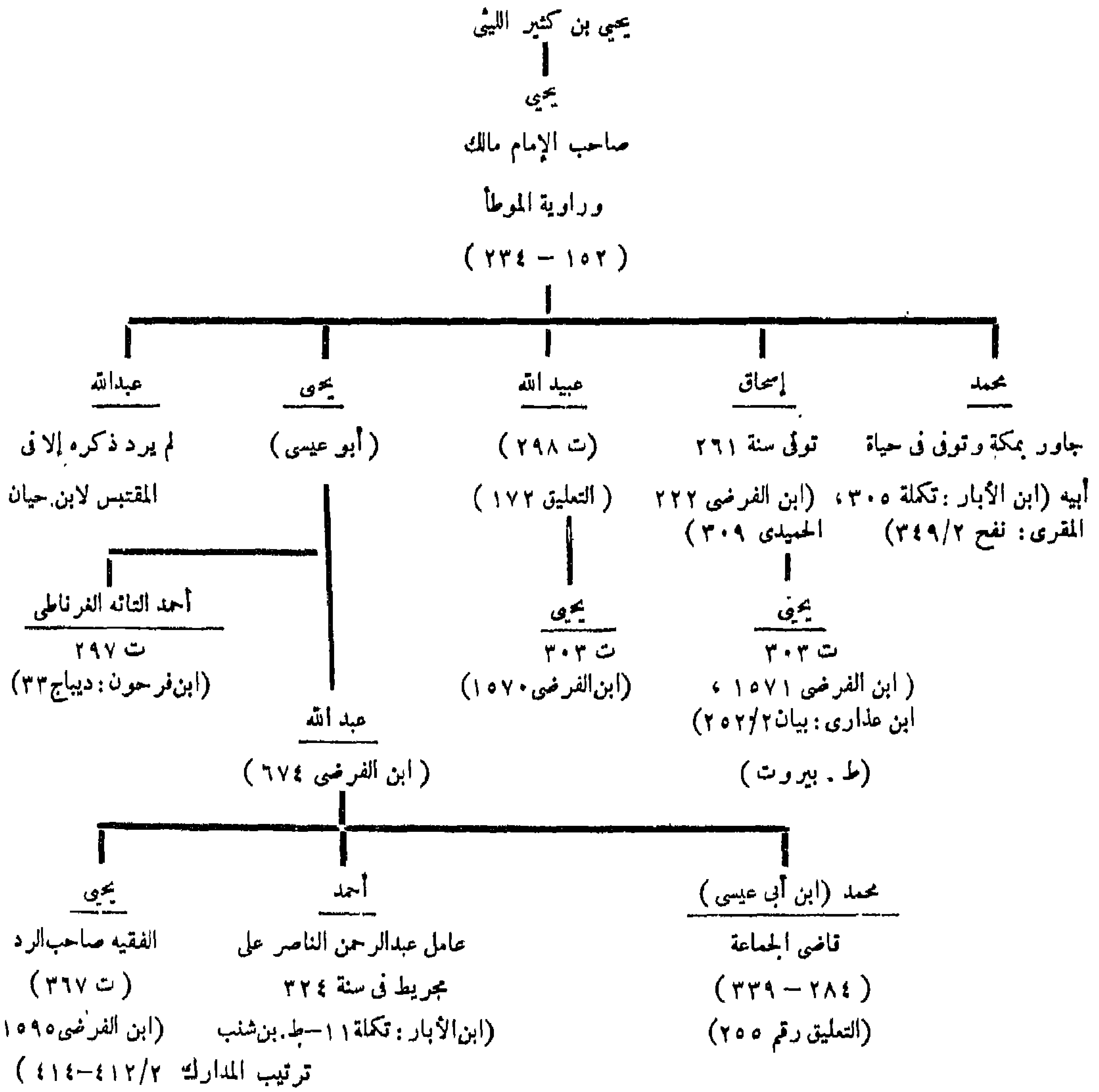
(٣١٢) فى ترجمة الفقيه زونان انظر ابن الفرضى ، رقم ٨١٣ ؛ الحميدى ، رقم ٦٢٧ ؛ الخشنى : قضاة ص ٨٢ ، ٩٩ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ٢٠ - ٢١ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٥٧ ؛ ومن المراجع الحديثة لويث أورتيث : دخول المذهب المـالكى ص ٨٠ - ٨١ ؛ وكتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٦٧ .

(٣١٣) صعصعة بن سلام الدمشقى ، كان تلميذاً للأوزاعى إمام أهل الشام وغيره من فقهاء هذا القطر ، وكانت تدور عليه الفتيا أيام عبد الرحمن بن معاوية الداخل وابنه هشام ، وذلك قبل أن تتوطد دعائم المذهب المـالكى فى الأندلس ويحل محل مذهب الأوزاعى . وبفضل صعصعة بن سلام غرس الشجر فى صحن المسجد الجامع بقرطبة ، وبقى ذلك تقليداً فى مساجد الأندلس ، وهو ما يجوز فى مذهب الأوزاعى وينكره مذهب مالك ، وتعتبر هذه هى البقية الوحيدة الباقية من مذهب الأوزاعى فى الأندلس . وتوفى صعصعة على الأرجح سنة ١٩٢ (٨٠٨) فى أيام الحكم بن هشام . انظر فى ترجمته : ابن الفرضى ، رقم ٦٠٨ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٥١٠ ؛ عياض : ترتيب المدارك ، الجلد الأول ص ٥٥ ، ٣٤٨ ؛ وانظر من الأبحاث الحديثة لويث أورتيث : دخول المذهب المـالكى ص ٥٢ - ٥٣ ؛ وبحثنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٦٦ - ٦٧ .

(٣١٤) أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى إمام أهل الشام ، وصاحب المذهب الفقهى المنسوب إليه ، ولد ببعلبك سنة ٨٨ أو ٩٣ (٧٠٧ – ٧١٢) وتوفى سنة ١٥٧ (٧٨٤) فى بيروت. انظر فى ترجمته دائرة المعارف الإسلامية ٥٣٣/١ والمراجع المثبتة فى هذا الموضع . وقد كان مذهب الأوزاعى هو الذى انتشر أولا فى الأندلس ، وذلك بحكم الرابطة المتينة بين الأندلس وبلاد الشام وتجدد الدولة الأموية فى الأندلس بحيث اعتبرت امتداداً لخلافتهم السابقة التى كانت قاعدتها دمشق . ومن هنا أخذ الأندلسيون فى أول الأمر بمذهب الأوزاعى ولكن مذهب الإمام مالك بن أنس لم يلبث أن غلب على هذه البلاد منذ أواخر القرن الثانى الهجرى وأوائل الثالث ، واندثر مذهب الأوزاعى فلم تبق منه فى الفقه الأندلسى إلا مسألة واحدة ميزت المالكية الأندلسية حتى انتهاء الإسلام فى هذه البلاد وهى استجازة غرس الشجر فى صحون المساجد . انظر عن مذهب الأوزاعى فى الأندلس لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكى ص ٥٢ – ٥٣ ؛ وكتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٦٤ – ٦٧ . هذا ويعتبر الفقيه عبد الملك بن الحسن المعروف بزونان والمترجم له هنا من معالم التحول المهمة من مذهب الأوزاعى إلى المذهب المالكى ، فقد بدأ حياته بصفته فقيها ومفتيا على مذهب الأوزاعى ، ولكنه لم يلبث أن تحول إلى المالكية التى غلبت على الشعب الأندلسى واستأثرت به ، وذلك مجاراة لما اتفق عليه أهل بلده .

(٣١٥) عن الفقيه يحيى بن يحيى الليثى انظر ابن القوطية : تاريخ ص ٣٥ ، ٥١ ، ٥٨ ؛ ابن الفرضى ، رقم ١٥٥٤ الحميدى ، رقم ٩٠٨ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٥٣٥ – ٥٤٧ (ولعلها أوسع ترجمة له) ؛ ابن سعيد : المغرب ٤٣/١ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ١٤٨ – ١٥٠ ، ١٦٣ – ١٦٥ ؛ المقرى : نفح ٣١٨/١ ، ٢١٧/٢ – ٢٢٠ ، ٢٥٢ – ٢٥٣ ، ٣٤٤ ، ٤١٤، ٤١٩ ؛ الخشنى : قضاة ص ١٢ – ١٣ ، ٣٧ ، ٥٠ ، ٦٣ – ٦٤ ، ٦٩ – ٧١ ، ٨٢ – ٨٤ ، ٨٧ ، ٨٩ – ٩٢ ، ١٠٠ ؛ ابن فرحون : ديباج ٣٥٠ – ٣٥١ ، ومن الأبحاث الحديثة انظر لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكى ص ٦٥ وما بعدها ؛ وكتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٩٣ – ٩٤ ، ١٠٢ – ١٠٣ ، ١٢٨ – ١٣١ ، ١٣٥ – ١٣٨ ، ١٦٦ – ١٦٧ .

وقد توارثت ذرية يحيى بن يحيى بعده رياسة الفقه ومناصب الشورى والقضاء والقيادة فضلا عن الاشتغال بالعلم والتدريس وقد سبق أن ترجمنا لبعضهم . وسنورد فيما يلى جدولا لأنساب من اشتهر منهم حتى منتصف القرن الرابع فى ظل دولة بنى أمية :



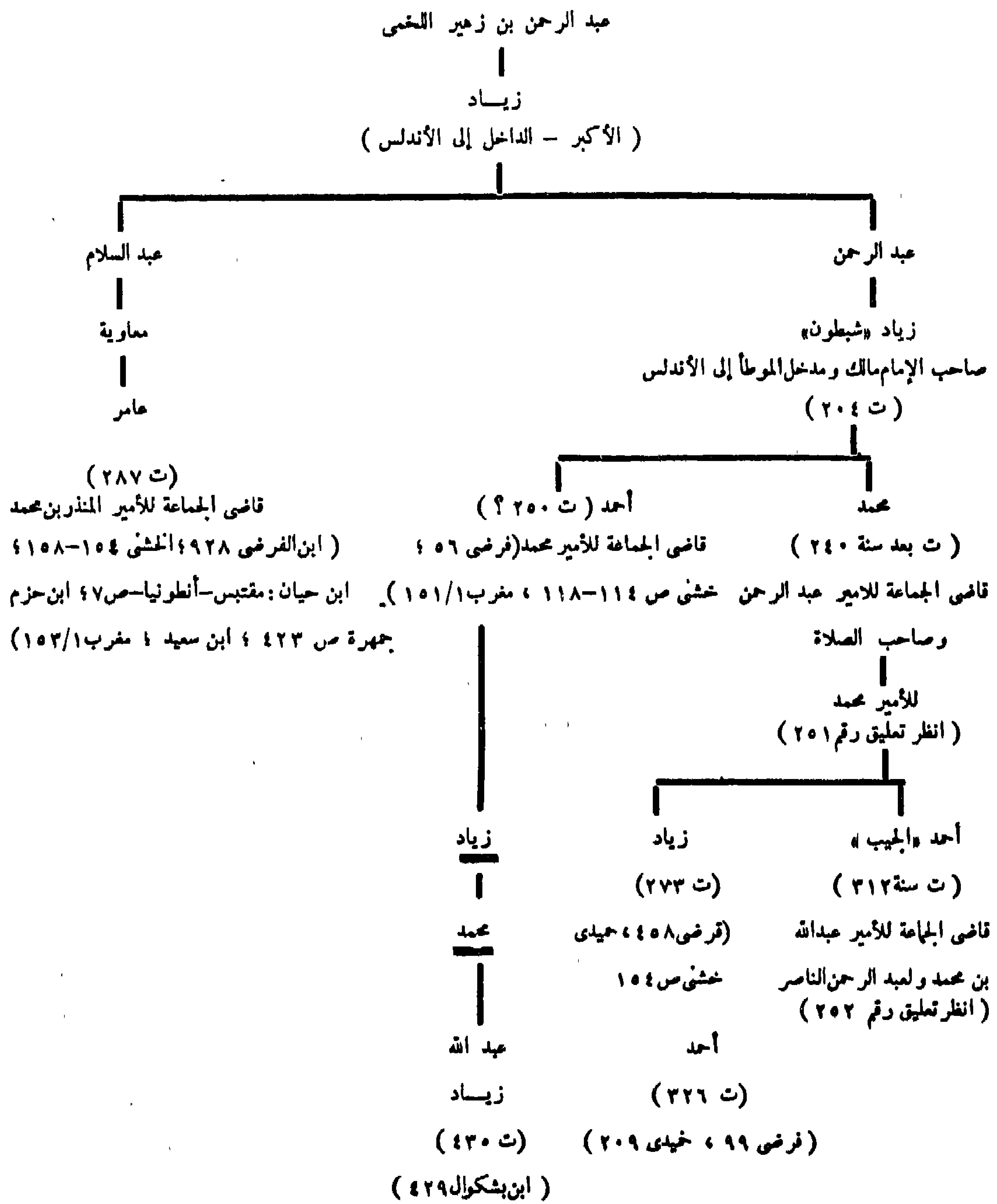
(٣١٦) انظر ابن حزم : جمهرة ص ٥٠٠ ؛ وابن الأبار : تكملة ، رقم ٢٠٣٢ (فى ترجمة يحيى بن كثير بن وسلاس الليثى والد الفقيه يحيى) حيث يذكر أن وسلاس كان قد أسلم على يد يزيد بن عامر الليثى (ليث كنانة) ، فانتسب إلى ليث بالحلف . انظر كذلك كتاب مفاخر البربر ص ٦٠ .

(٣١٧) زياد بن عبد الرحمن بن زياد بن عبد الرحمن بن زهير اللخمى من جزيلة بن لخم بن عدى ، المعروف بشبطون ، فقيه أندلسى مشهور يعتبر أول من أدخل موطأ مالك بن أنس فى الأندلس معتنيا بما فيه من مادة فقهية (فقد كان الغازى بن قيس هو أول من دخل بهذا الكتاب قبل زياد ولكنه لم يعتن بمادته الفقهية عناية زياد) ؛ وعلى زياد تلمذ يحيى بن يحيى وهو الذى وجهه إلى الرحلة للأخذ عن مالك . وكان قد أخذ فى الأندلس عن معاوية بن صالح وكان زياد صهراً له إذ كان متزوجا من بنته ، ورحل إلى المشرق فأخذ بمصر عن الليث بن سعد وموسى بن على بن رباح وبمكة من سفيان بن عيينة

وبالمدينة عن مالك بن أنس وبه تفقه ، وعاد إلى الأندلس فشهر فضله وعلمه وعرض عليه القضاء فامتنع عنه ، وكانت له منزلة من الأمير هشام بن عبد الرحمن ، وتوفى سنة ٢٠٤ (٨١٩ - ٨٢٠) . انظر في ترجمته ابن القوطية : تاريخ ص ٤٢-٤٣ ؛ الخشنى : قضاة ص ١٠ ، ٣٥ - ٣٦ ، ٥٠ ، ابن الفرضى ، رقم ٤٥٦ ؛ الحميدى ، رقم ٤٣٩ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٣٤٩ - ٣٥٣ ؛ النباهى : مرقبة، ص ١٢ ، ١٦ ، ١٠٨ ؛ ابن فرحون: ديباج ص ١١٨ ؛ المقرى : نفح ٣١٩،٣١٦/١ ؛ ٢١٧/٢ ، ٢٥١ - ٢٥٣ ؛ ومن الأبحاث الحديثة لويث أورتيث : دخول المذهب المـالـكى ص ٦٢ - ٦٤ ؛ وبحثنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٦٢ - ٦٣ ، ٦٥ - ٦٦ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٩ - ١٠٠ ، ١٢٨ .

هذا وقد أضاف ابن حزم وابن بشكوال إلى ما نعرفه عن بيت بنى زياد وأوليتهم إضافات قيمة مهمة . أما ابن حزم (جمهرة ص ٤٢٣) فقد ذكر أن زياد بن عبد الرحمن شبطون كان له عقب فى قرطمة Càrtama وشذونة ورية (مالقة) وأنه كان منهم قاضى الجماعة بقرطبة عامر بن معاوية بن عبد السلام بن زياد (الأكبر) وكان من أهل قرطمة ، وأنه كانت هناك حتى أيام ابن حزم بقية منهم ضخمة . وأما ابن بشكوال فقد ذكر فى ترجمة زياد بن عبد الله ابن محمد بن زياد بن أحمد بن زياد شبطون (٣٤٥ - ٩٥٦/٤٣٠ - ١٠٣٩) أن أصل هذا البيت من الشام ، ومنزل زياد بها يعرف برقعة قبر ابرهيم عليه السلام قريب من غزة ، ويقال أيضا ان اسمها حمة . (انظر الترجمة رقم ٤٢٩ ، الجزء الأول ص ١٨٦ ؛ ويلاحظ أن ابن بشكوال يعتمد فيها على ابن حيان نفسه) .

وقد سبق لابن حيان أن أشار إلى اثنين من أعلام هذا البيت : محمد بن زياد شبطون قاضى الجماعة للأمير عبد الرحمن ابن الحكم (انظر تعليقنا رقم ٢٥١) ، وابنه أحمد بن زياد المعروف باسم الحبيب الذى ولى قضاء الجماعة مرتين : مرة أيام الأمير عبد الله بن محمد ، والثانية أيام عبد الرحمن الناصر (انظر تعليقنا رقم ٢٥٢) ، وبقى من ذلك البيت أعلام آخرون تولى الكثيرون منهم مناصب القضاء فى الأندلس وتوارثوها حتى القرن الخامس الهجرى . وسنورد فيما يلى جدولا لأنساب من عثرنا على تراجمهم أو عرفنا طرفاً من أخبارهم حتى يسهل تتبع هذا البيت الذى كان له فى الأندلس مكانة رفيعة وأثر ثقافى كبير :



عبد الرحمن بن زهير اللخمى
زيـــاد
(الأكبر - الداخل إلى الأندلس)
عبد الرحمن
زياد «شبطون»
صاحب الإمام مالك ومدخل الموطأ إلى الأندلس
(ت ٢٠٤)
محمد
(ت بعد سنة ٢٤٠)
قاضى الجماعة للامير عبد الرحمن
وصاحب الصلاة
للأمير محمد
(انظر تعليق رقم ٢٥١)
أحمد «الحبيب»
(ت سنة ٣١٢)
قاضى الجماعة للأمير عبدالله
بن محمد ولعبد الرحمن الناصر
(انظر تعليق رقم ٢٥٢)
زياد
(ت ٢٧٣)
(فرضى ٤٥٨ ، حميدى
خشنى ص ١٥٤
أحمد
(ت ٣٢٦)
(فرضى ٩٩ ، حميدى ٢٠٩)
أحمد (ت ٢٥٠ ؟)
قاضى الجماعة للأمير محمد (فرضى ٥٦ ،
خشنى ص ١١٤-١١٨ ، مغرب ١٥١/١)
زياد
محمد
عبد الله
زيـــاد
(ت ٤٣٠)
(ابن بشكوال ٤٢٩)
عبد السلام
معاوية
عامر
(ت ٢٨٧)
قاضى الجماعة للأمير المنذر بن محمد
(ابن الفرضى ٩٢٨ ، الخشنى ١٥٤-١٥٨ ،
ابن حيان : مقتبس - أنطونيا - ص ٤٧ ابن حزم
جمهرة ص ٤٢٣ ، ابن سعيد ، مغرب ١٥٣/١)

(٣١٨) من المسائل التى خالف فيها يحيى بن يحيى ومالكية الأندلس بعده مذهب الإمام مالك واتبعوا فيها مذهب غيره من الأئمة (وهى أربع أخذوا فى ثلاث منها بمذهب الليث بن سعد وفى الرابعة بمذهب الأوزاعى) انظر النباهى : مرقبة ص ٥١ حيث أورد خلاصة لها ، وكذلك النص الجديد الذى نشره لوبث أورتيث ذيلا لكتابه عن دخول المذهب المالكى إلى الأندلس – عن كتاب للفقيه أبى اسحاق الغرناطى ، مخطوطة الإسكوريال رقم ١٠٧٧ ورقة ٢٣٤ ا – ، وراجع بحث لوبث أورتيث لهذه المسائل فى ص ١٦٢ – ١٦٩ . وقد أعدنا دراسة هذه المسائل فى كتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ١٦٣ – ١٦٧ مصححين بعض ما وقع فيه لوبث أورتيث من أخطاء .

أما هذه المسائل الأربع فهى : ترك الحكم بالشاهد الواحد مع اليمين ، ومذهب مالك على جواز الحكم به ، وإنما أوجب الأندلسيون شاهدين ، ثم ترك الحكم بالخلطة ، وإجازة كراء الأرض بجزء مما يخرج منها ، وقد اتبعوا فى هذه المسائل الثلاث مذهب الليث بن سعد المصرى . أما الرابعة فهى إجازة غرس الشجر فى المساجد ، وقد اتبعوا منها مذهب الإمام الأوزاعى فقيه أهل الشام ، ومذهب مالك يكره ذلك . وقد أصبحت هذه المسائل مما يميز مالكية الأندلس . على أن هناك مسألتين أخريين ترك يحيى فيهما مذهب مالك وهما اللتان أشار إليهما ابن حيان هنا ، وهما ترك القنوت ، وقد اتبع يحيى فى ذلك أيضا مذهب الليث بن سعد إذ أن مالكا لا يرى بأسا به ، غير أن مالكية الأندلس هنا خالفت يحيى فى هذه المسألة وجرت على ما كان يقضى به رأى إمام أهل المدينة . (انظر بحثنا المفصل لهذه المسألة فى دراستنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ١٦٦ – ١٦٧) . أما المسألة الأخرى فهى ترك بعثه الحكمين عند تشاجر الزوجين،وقد رفضت مالكية الأندلس فيها مذهب يحيى كذلك وتبعت ما جرى به العمل فى مذهب الإمام مالك .

(٣١٩) لم يشر ابن حزم فى حديثه عن أنساب بنى أمية إلى يحيى بن سليمان هذا ، على الرغم من أنه تحدث عن ذرية سليمان بن عبد الرحمن الداخل (جمهرة ص ٩٥) ، على أن ابن حزم فى كتابه هذا إنما يسجل ذرية من أعقبوا وكان لهم خلف باق فى عصره ، أما من انقرضت أعقابهم فانه يضرب عنهم صفحا . وقد ذكر ابن حزم فى الموضع الذى أشرنا إليه إنه لم يبق من ولد سليمان بن عبد الرحمن فى عصره إلا رجلان ينتهى نسبهما إلى براهيم بن سليمان بن عبد الرحمن الداخل .

(٣٢٠) سبق أن تحدثنا عن بعض أعلام هذه الأسرة المشهورة التى ظلت تتوارث أعلى خطط الدولة طوال أيام الأمويين ثم ورثت ملكهم فى قرطبة بعد انقراض الخلافة المروانية وقيام دول الطوائف حتى زال ملكهم على أيدى بنى عباد أصحاب اشبيلية ، وذلك فى معرض الحديث عن حسن بن عبد الغافر بن أبى عبدة حسان بن مالك (انظر التعليق رقم ١٢٣) . أما الغمر بن يحيى عبد الغافر المذكور هنا والمتوفى سنة ٢٣٥ (٨٤٩ – ٨٥٠) فلم تفدنا المراجع الأخرى بشئ من أخباره ، وإن كان من المتوقع أن يكون قد ولى بعض المناصب الجليلة للأمير عبد الرحمن بن الحكم فقد كان جده وزيراً لعبد الرحمن الداخل وصاحب شرطة لابنه هشام ، ولعل أباه كان من كبار رجال الخدمة أيضا ، وقد أشار ابن حيان من قبل إلى أن عمه حسن بن عبد الغافر كان فى عداد وزراء عبد الرحمن الأوسط .

(٣٢١) كذا ورد الاسم ، دون أن يزيدنا ابن حيان تعريفا به ، وربما كان المقصود هنا هو خطاب بن زيد الذى ولى الكتابة لهشام بن عبد الرحمن الداخل (ابن عذارى : بيان ٦١٦/٢) ، على أننا نستبعد أن يطول عمر خطاب هذا حتى

يدرك أواخر أيام عبد الرحمن الأوسط . وربما كان خطاب المذكور من أسرة بنى خطاب المشهورة بتدمير ، وكان أول من دخل الأندلس منهم عبد الجبار بن نذير فى طالعة بلج بن بشر القشيرى سنة ١٢٣ (٧٤٢) وأصهر إلى تدمير بن غندريس صاحب أوريولة ، واستوطن ابنه خطاب ناحية تدمير ، وكان من ولده خطاب بن محمد بن مروان بن خطاب (انظر العذرى جغرافية ص ١٥) ، فلعله هو المذكور هنا .

(٣٢٢) لم نجد ذكراً لهذا الشاعر فى المراجع الأخرى ، إلا ما جاء من ورود خبر وفاته فى الكامل لابن الأثير (٢٨٥/٥) ، مسميا إياه « أبا السول الشاعر سعيد بن يعمر بن على » وهذا الاتفاق الغريب بين مؤرخ مشرقى متأخر نسبيا مثل ابن الأثير وابن حيان له دلالة مهمة ، فهو يعنى اطلاع ذلك المؤرخ إما على نسخة من كتاب المقتبس لا بن حيان ، أو على كتاب من المراجع التى يعتمد عليها ابن حيان فى تاريخه مثل كتاب « الرازى » مثلا ، ويبدو أن تاريخا للرازى كان معروفا متداولا فى المشرق ، وربما كان كتاب « أخبار ملوك الأندلس » الذى اعتمد على مقدمته الجغرافية إلى حد بعيد ياقوت بن عبد الله الرومى فى كتابة المواد الخاصة بالأندلس من كتابه « معجم البلدان » .

(٣٢٣) لم تفدنا المراجع الأخرى بشئ عن هؤلاء المذكورين هنا فى هذه الفقرة . أما بكر بن الأمير الحكم بن هشام أخو الأمير عبد الرحمن الذى كان قائداً بتدمير وتوفى فى سنة ٢٣٥ (٨٤٩ — ٨٥٠) فلم نعثر على شىء من أخباره ، بل إن ابن حزم لم يذكره فى « الجمهرة » بين من ذكر من أبناء الحكم ، وكانوا على ما يذكر ثمانية عشر ذكراً ، وقد اعتدنا من ابن حزم ألا يذكر إلا أسماء من بقى لهم عقب فى عصره ، وقد أشار ابن حزم نفسه إلى أنه لم يبق فى أيامه عقب من أبناء الحكم إلا من أمية وعبد العزيز وسعيد الخير والأصبغ (جمهرة ص ٩٧) .

وأما أمية بن سليمان عامل تدمير فى السنة المؤرخة فلا نعرف شيئا عنه ، ويبدو أنه لم يبق طويلا فى منصبه هذا ، إذ أن ابن حيان قد سبق أن ذكر فى أخبار سنة ٢٣٦ التالية (٨٥٠ — ٨٥١) أن الأمير عبد الرحمن ولى على تدمير ابنه الحكم بعد أن عزله عن كورة إلبيرة ، ثم لم يلبث فى نفس السنة أن عزل الحكم عن تدمير وأعاده إلى كورة إلبيرة . (انظر عن الحكم ابن عبد الرحمن تعليقنا السابق رقم ٤١) .

وأما زيدان « الفتى الكبير » الذى يذكر ابن حيان أنه أخرج للنظر فى إحصاء تركة بكر بن الحكم أخى الأمير والاحتياط عليها فلم نعرف عنه بدوره شيئا ، ووصفه بالفتى الكبير يدل على أنه كان من الخصيان ذوى المناصب الكبرى فى قصر الخلافة ، ولابد أنه كان يلى فى المرتبة نصراً الخصى أثير الأمير عبد الرحمن وخليفته فى قصره ، فقد كان نصر لايزال حيا بعد .

(٣٢٤) أشرنا فى حاشية هذا الموضع إلى أن الناسخ كان فى شك من الاسم متردداً بين « مروان بن عبد الملك » و « مروان بن عبد الله الزجالى » ولا تعيننا المراجع الأخرى على إجلاء الغموض والاضطراب فى الاسم ، كما أننا لا نعرف على وجه التحديد مدى قرابة مروان هذا لمحمد بن سعيد الزجالى رأس أسرة الزجاليين وبانى شرف بيتهم . وقد ذكرنا فى تلك الحاشية مايفهم منه أنه ربما كان حفيداً لمحمد بن سعيد ، غير أنه من المستبعد أن يتوفى الزجالى المعروف سنة ٢٢٨ أو ٢٣٢ ثم لا يطول عمر حفيد له إلا مدة تتراوح بين ثلاث سنوات وسبع .

(٣٢٥) لم نر ذكراً لعبد الله بن محمد بن جابر هذا المتوفى سنة ٢٣٥ (٨٤٩ – ٨٥٠) فى غير هذا الموضع من كتاب المقتبس ، ولم يورد ابن حيان نفسه مزيداً من أخباره . على أننا نعرف من الشخصيات المعروفة فى أول أيام عبد الرحمن ابن الحكم من تدعوه المراجع « جابر بن مالك بن لبيد » الذى كان عاملا على تدمير ثم أمره الأمير عبد الرحمن فى سنة ٢١٠ (٨٢٥ – ٨٢٦) ببناء مدينة مرسية واتخاذها مقراً للولاية وقاعدة للعمال ، فجابر بن مالك المذكور هو الذى بنى مرسية وجعلها حاضرة كورة تدمير (انظر العذرى : جغرافية ص ٦ ؛ ابن سعيد : مغرب ٤٨/١ ؛ ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار ص ١٨١ ؛ ابن عذارى : بيان ٨٢/٢ – حيث يرد نفس الخبر غير أن ابن عذارى لم يذكر إلا « عامل تدمير » دون أن ينص على اسم جابر بن مالك) . ويبدو لنا أن عبد الله بن محمد بن جابر المذكور فى وفيات سنة ٢٣٥ ربما كان من سلالة جابر بن مالك بن لبيد بانى مرسية وأول عامل عليها .

(٣٢٦) لم تفدنا المراجع الأخرى بشىء عن هذا الأموى المعتزى إلى بيت الإمارة فى الأندلس . أما أبوه هشام بن الحكم الربضى فقد أفادنا عنه ابن حزم بخبر قصير يقول فيه إنه كان أكبر أبناء الأمير الحكم ، ثم بلغ أباه أنه كان يتمنى موته ليلى الأمر بعده مكانه ، فحلف ألا يليه أبداً وقدم عليه أخويه عبد الرحمن والمغيرة . (جمهرة ص ٩٨) .

(٣٢٧) فى ترجمة سعيد بن حسان القرطبى المتوفى سنة ٢٣٦ (٨٥١) انظر ابن الفرضى ، رقم ٤٧٠ ، الحميدى : رقم ٤٦٨ ؛ الخشنى : قضاة ص ٨٢ – ٨٣ ، ٨٧ ؛ ابن القوطية ص ٣٥ ؛ الضبى : بغية ، رقم ٧٩٦ ؛ القاضى عياض ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ٢١ – ٢٢ ؛ ومن الدراسات الحديثة لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكى ص ٨١ – ٨٢ ؛ وكتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ١٣٨ .

وقد سبق أن ذكرنا فى حواشى النص تعليقا على ما ذكره ابن الفرضى مرجع ابن حيان فى هذه الترجمة من أن سعيد بن حسان رحل إلى المشرق سنة ١٧٧ أننا نرجح أن هناك خطأ وقع فى التاريخ وأن الصواب فيما نعتقد هو « سنة ١٩٧ » ، هذا وإن كان نصا ابن حيان والقاضى عياض فى ترتيب المدارك يتفقان مع ما يذكره ابن الفرضى ، ولذلك سببه الواضح وهو أن كليهما يعتمد على ترجمة سعيد بن حسان عند ابن الفرضى ، فتبعة خطئهما تقع عليه . والرأى الذى نذهب إليه فى تحديد التاريخ هو الذى يثبته كل من الحميدى فى الجذوة والضبى فى البغية ، وهو الذى يتفق مع المنطق والمقابلة التاريخية ، فلو أن سعيد بن حسان رحل إلى المشرق فى سنة ١٧٧ (٧٩٣ – ٧٩٤) لأدرك فى مصر فقيهيهما الكبيرين عبد الرحمن بن القاسم (ت ٨٠٦/١٩١) وعبد الله بن وهب (ت ٨١٢/١٩٧) ، بل لأدرك فى المدينة مالك بن أنس نفسه (ت ٧٩٥/١٧٩) ، وما كان سعيد بن حسان ليترك الأخذ عن هؤلاء الأئمة ، بينما يتفق المترجمون له على أنه لم يسمع بمصر إلا من عبد الله بن عبد الحكم وأشهب بن عبد العزيز ، وبالمدينة من عبد الله بن نافع . وهذا يدل على أنه رحل بعد وفاة مالك والطبقة الأولى من أصحابه المصريين والمدنيين ، ويحملنا على أن نأخذ بالتاريخ الذى أورده الحميدى وهو سنة ١٩٧ ، وما أكثر ما تختلط كلمتا « سبع » و « تسع » على نساخ المخطوطات العربية .

(٣٢٨) سبق أن أشرنا فى تعليقنا رقم ٢٧٤ إلى أن هناك اثنين من أصحاب الإمام مالك بن أنس يعرفان باسم عبد الله ابن نافع : الأول أو الأكبر مولى بنى مخزوم الذى اشتهر بلقب الصائغ المتوفى سنة ١٨٦ (٨٠٢) والثانى أو الأصغر الزبيرى

القرشى المتوفى سنة ٢١٦ (٨٣١) . وقد ذكرنا فى الحاشية السابقة أن التاريخ الصحيح لرحلة سعيد بن حسان إلى المشرق هو سنة ١٩٧ (٨١٢) كما ذكر الحميدى لا سنة ١٧٧ (٧٩٣ – ٧٩٤) كما جاء فى كتاب ابن الفرضى . وما دام الأمر كذلك فلا بد أن عبد الله ابن نافع المقصود هنا هو الأصغر المتوفى سنة ٢١٦ (٨٣١) . وهو من ذرية الصحابى المعروف الزبير بن العوام (رضى الله عنه) ، ومن هنا عرف بنسبته : « الزبيرى » ، وأبوه نافع بن ثابت الذى كان من أكثر أهل زمانه إقبالا على العبادة . وسمع عبد الله من مالك بن أنس وغيره من شيوخ عصره ، وروى عنه الزبير بن بكار ويعقوب بن شيبة وكثير من المحدثين والفقهاء من البصرة والعراق وما وراءها . أما من الأندلس فيذكر من تلاميذه يحيى بن يحيى الليثى وعبد الملك ابن حبيب فضلا عن سعيد بن حسان المذكور هنا ، ووثقه يحيى بن معين والبخارى والبزار ، وخرج عنه مسلم . وتوفى سنة ٢١٦ هـ عن سبعين سنة . انظر ترجمته فى القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٣٦٥ – ٣٦٦ ؛ بن فرحون : ديباج ص ١٣١ .

(٣٢٩) أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين مولى امرأة من موالى عثمان بن عفان، أبوه عبد الحكم رأس أسرة مشهورة توارثت العلم والجاه والثروة فى مصر ولد سنة ١٥٥ هـ ٧٧٢ م وسمع من الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة ومن مالك ابن أنس وسفيان بن عيينة وغيرهم ، ثم تفقه على الطبقة التالية من أصحاب مالك المصريين مثل ابن القاسم وابن وهب ، وأكثر فى الأخذ عن أشهب وأفضت إليه رياسة مالكية مصر بعد وفاته سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ – ٨٢٠) وكان صديقا للشافعى وعليه نزل حينما قدم مصر فأكرم مثواه وبالغ فى بره . وله تواليف كثيرة منها المختصر الأصغر فى شرح الموطأ ، والمختصر الأوسط فى شرح كتب أشهب ، وهو الذى رواه سعيد بن حسان فى الأندلس ، وشرحه أبو بكر الأبهرى وكان له ذيوع كبير بين مالكية الأندلس . وكانت وفاته سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩) . (انظر فى ترجمته : القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٥٢٣ – ٥٢٨ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٣٤) . وهو والد محمد الفقيه المشهور الذى رأس مالكية مصر أيضا ، وعبد الرحمن المؤرخ صاحب كتاب « فتوح مصر » .

(٣٣٠) ذكره ابن حزم فى الجمهرة (ص ٩٧) فيمن ذكر من أبناء الحكم بن هشام الربضى ، وقال إن جملة من ذريته من أبناء جعفر بن جعفر بن سعيد الخير المذكور كانوا بدانية ثم انقرضوا فى أيام ابن حزم . كذلك ترجم الحميدى لشاعر من نسل سعيد الخير بن الحكم هو أحمد بن هشام بن عبد العزيز بن محمد بن سعيد الخير (جذوة رقم ٢٥٤) ، ونقل قطعة من شعره فى وصف النرجس عن أبى الوليد الحميرى فى كتابه « البديع فى وصف الربيع » . وسيتحدث ابن حيان بعد صفحات عن سعيد الخير هذا ومدى تعلق أخيه الأمير عبد الرحمن به وإصفائه مودته ، على أن ابن حيان قد ناقض نفسه إذ يذكر هنا وفاته فى سنة ٢٣٦ هـ (٨٥٠ – ٨٥١) بينما سنراه بعد ذلك يقول إن حياته قد طالت إلى أن توفى فى أيام الأمير محمد صدر ربيع الآخر سنة ٢٤٠ هـ (سبتمبر ٨٥٤) . ولابد أن ابن حيان قد رجع فى الموضعين إلى مؤرخين مختلفين .

(٣٣١) هو بغير شك من أفراد أسرة بنى أبى عبدة المشهورة التى سبق أن تحدثنا عنها (انظر التعليق رقم ١٢٣) . أما حدون بن حيون بن أبى عبدة (ولابد أن هناك أسماء بين أبيه وجده الأكبر مؤسس الأسرة (فإن ابن حيان فى « المقتبس »

(نشر أنطونيا ص ٦) ذكر من بين وزراء الأمير عبد الله بن محمد من يسميه عبد الرحمن بن حمدون بن أبي عبدة المعروف بدحيم ، ولعله ابن لحمدون المشار إليه هنا .

(٣٣٢) في ترجمة قاسم بن هلال القيسي انظر ابن الفرضي ، رقم ١٠٤٦ ؛ الحميدي ، رقم ٧٧٧ ؛ الخشني : قضاة ص ٦٢ (حيث يقص عنه محمد بن وضاح خبراً يدل على أنه كان يحضر مجلس شورى قاضي الجماعة محمد بن بشير وكان إذ ذاك أحدث الجماعة سنا) ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٢٧ ؛ الضبي : بغية ، رقم ١٠٣٨ ؛ وأنظر كذلك لوبث أورتيث : دخول المذهب المسالكي ص ٨٠ .

(٣٣٣) كانت وفاة زرياب على هذا التقدير يوم ٢٢ صفر سنة ٢٣٨هـ الموافق ١٤ أغسطس سنة ٨٥٢ ، وذلك لأن الأمير عبد الرحمن توفي يوم ٣ ربيع من هذه السنة ، وهو يقابل ٢٢ سبتمبر ٨٥٢ .

(٣٣٤) في ترجمة هارون بن سالم انظر ابن الفرضي ، رقم ١٥٢٨ ؛ الحميدي : جذوة رقم ٨٥٩ ؛ الضبي : بغية ، رقم ١٤١٧ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٤٨ — ٤٩ ؛ وانظر كذلك لوبث أورتيث : دخول المذهب المسالكي ص ١٤٤ — ١٤٥ .

(٣٣٥) اتفق ابن الفرضي والقاضي عياض (وهو يضيف إلى ما قاله ابن الفرضي إضافات لها قيمتها في ترجمة هارون ابن سالم مما نقله عن ابن أبي دليم) على أن هارون المترجم له لقي أشهب بن عبد العزيز وروى عنه . ونقل ابن حيان ذلك كما وقع له عن ابن الفرضي . ولسنا ندري كيف لم يتنبه ابن حيان إلى حقيقة تنقض هذا الزعم : وهي أن كل من ترجموا لهارون بن سالم أجمعوا على أنه توفي «حدثا» في الأربعين من عمره ، فإذا كانت وفاته في سنة ٢٣٨ ، فلابد أنه ولد سنة ١٩٨ هـ (٨١٣ — ٨١٤) ، ونحن نعلم أن أشهب بن عبد العزيز توفي سنة ٢٠٤ (٨١٩ — ٨٢٠) ، فهل رحل هارون بن سالم وروى عن الفقيه المصري الكبير وهو لم يتجاوز ست سنوات ؟ وهذا في الحقيقة مثل على كثير من البعد عن الدقة والتثبت مما يقع في كتب التراجم التي يتناقل مؤلفوها الخبر بعضهم عن بعض دون أن يكلف واحد منهم نفسه مئونة مقابلته على المنطق السليم أو الحقائق التاريخية البسيطة .

(٣٣٦) لم نستطع أن نعرف عن علي بن معبد المذكور إلا أن اسمه علي بن معبد بن شداد العبيدي المصري ، وأن القاضي عياض عده ممن روى عن الإمام مالك بن أنس وتلمذ عليه (ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٢٧٢) ولكنه لم يفرد له ترجمة خاصة

(٣٣٧) عن أحمد بن خالد انظر تعليقنا السابق رقم ٢١٦ .

(٣٣٨) سبق أن علقنا على اسم المنذر المذكور (انظر رقم ٨٦) .

(٣٣٩) ما بقي من هذا النص يبدو مما نقله ابن حيان عن أحد المؤرخين السابقين له ، فنحن نلاحظ أن هذا الأسلوب المسجوع المتكلف يختلف عن أسلوب ابن حيان الواضح الجزل ، ثم إن النزعة العصبية المتحاملة على عبد الرحمن بن الحكم أبعد

ما تكون عن الروح التى تسود كتابات ابن حيان الذى لم يكن يخفى إعجابه بأمراء بنى أمية وتقديره لهم حتى بعد زوال دولتهم وانقراضها على أيامه . ونكاد نقطع بأن هذا النص إنما هو ما بقى من فقرات كتبها المؤرخ الشاعر أبو بكر عبادة بن ماء السماء الذى سينقل عنه ابن حيان بعد قليل ، فهو الذى تشتم من كتاباته رائحة التشيع كما نبه على ذلك من ترجموا له والتعصب على بنى أمية كما سيقول ابن حيان نفسه فيما بعد ، ثم انه هو صاحب الأسلوب المسجع المنمق كما نرى من بعض الفقرات التى نقلها ابن حيان عنه فى هذه القطعة نفسها فى المقتبس وفى أجزاء أخرى من نفس هذا الكتاب (قارن النص الوارد هنا بالنص الذى احتفظ ابن حيان به من كلامه فى القطعة التى نشرها ملتشور أنطونيا من المقتبس ص ١٠٥) .

(٣٤٠) وردت هذه القصة أيضا فى « أخبار مجموعة » ص ١٣٦ ؛ ابن سعيد : مغرب ١/٤٦ ؛ ابن عذارى : بيـــان ٢/٩٢ .

(٣٤١) كان لفظ الستارة يطلق على المكان الذى تستتر فيه الجوارى والقيان فى قصور الأمراء والوجهاء ، واستخدم اللفظ بعد ذلك للدلالة على هؤلاء القيان المغنيات أنفسهن كما نرى فى الاستعمالات التى أوردها راينهارت دوزى فى ملحق القواميس العربية (١/٦٣٢) ، ولكننا نرى اللفظ هنا مستخدما للدلالة على المكان المنصوب لقضاء حفلة سمر أو مجلس طرب وغناء .

(٣٤٢) يدل استخدام لفظ « الجائزة » هنا على أن المقصود بها هو لوحة طويلة من الخشب ، وقد رأينا فى وصف المسجد الجامع بأقليش Uclés فى كتاب ابن عبد المنعم الحميرى هذا النص : « ومن العجائب البلاط الأوسط من مسجد جامع أقليش ، فإن طول كل جائزة من جوائزه مائة شبر وأحد عشر شبرا ، وهى مربعة منحوتة مستوية الأطراف » (الروض المعطار ص ٢٨ ؛ ونقل المقرى هذا النص فى نفح الطيب ١/٢١٣) . ولكن الاستعمال هنا يدل على أن اللفظ ينصرف إلى يشبه أن يكون سارية أو عموداً عاليا من الحجر أو الرخام . على أن الغريب هنا فى نص ابن حيان أن نجد « جائزة » مجموعة على «جيزان» فهو جمع غيرمألوف . والصيغة التى جاءت فى كلام ابن عبد المنعم الحميرى وفى نفح الطيب هى «الجوائز» هى الأقرب إلى الشائع المتعارف .

(٣٤٣) سبق أن أشرنا فى التعليق رقم ٣٣٠ إلى تناقض ابن حيان ، إذ أورد اسم سعيد الخير بن الحكم بين من توفوا فى سنة ٢٣٦ هـ (٨٥٠ — ٨٥١) ، بينما يذكر هنا أن حياته امتدت إلى أن أدرك أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن وتوفى فى أول عهده سنة ٢٤٠ هـ (٨٥٤) ، وما يذكره ابن حيان والدقة فى تحديد تاريخ الوفاة ثم وصف احتفال الأمير محمد فى دفنه كل ذلك يدل على أن هذا التاريخ الثانى هو الأقرب إلى الصواب والمعقول .

(٣٤٤) أشار إلى هذه المجاعة ابن عذارى فى البيان المغرب (٢/٨١) فى أخبار سنة ٢٠٧هـ (٨٢٢ — ٨٢٣) إذ قال : « وفيها كان بالأندلس جوع شديد مات به كثير من الخلق » . وقد أورد ابن دحية قصة عن الشاعر يحيى بن الحكم الغزال تؤكد لنا خبر هذه المجاعة التى حدثت فى أول أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم (أنظر المطرب ص ١٣٦) .

(٣٤٥) أبو بكر عبادة بن عبد الله بن محمد بن عبادة المعروف بابن ماء السماء ، وينتهي نسبه إلى قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى الخزرجى . وقد ذكر ابن حزم أنه كان عقب بالأندلس لسعد بن عبادة فى ناحيتين : فى قربلان وهى قرية من عمل سرقسطة ، وفى شذونة (انظر الجمهرة ص ٣٦٥ – ٣٦٦) ويبدو أن عبادة بن ماء السماء ينحدر من سلالة الفرع الأخير الذى استقر فى شذونة وإن كان ابن حزم لم يشر إلى اتصال نسب عبادة بهم . وكان شاعراً وشاحا مشهورا ، وأشاد به ابن بسام وعده من أكبر من جددوا صناعة التوشيح وأدخلوا عليها تغييرات مهمة . وعاش خلال النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وأوائل الخامس ، واتصل ببنى جهور ملوك قرطبة بعد انهيار الخلافة المروانية ، ثم اختص ببنى حمود العلويين وتوجه إليهم بمدائحه ومت إليهم بصلة جده قيس بن سعد بن عبادة بجدهم على بن أبى طالب – رضى الله عنه – إذ كان واليا له على مصر ولهذا فقد اصطبغ شعره بالتشيع والتعصب على بنى أمية . ولعبادة كتاب فى أخبار شعراء الأندلس أثنى عليه ابن حزم وقال إنه كتاب حسن ، ويبدو أنه هو الذى ينقل عنه ابن حيان فى مواضع عديدة من كتاب «المقتبس» سواء فى هذه القطعة أو فى غيرها من القطع المنشورة . وكانت وفاة عبادة بمالقة فى سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨) كما يقول ابن حيان وابن شهيد أو فى سنة ٤٢١ (١٠٣٠) كما يقول ابن حزم ويوافقه على ذلك ابن بسام . انظر فى ترجمة عبادة وأخباره ابن بشكوال : صلة ، رقم ٩٦٦ الحميدى ، رقم ٦٦٢ ؛ الضبى ، رقم ١١٢٣ ؛ ابن خاقان : مطمح ص ٩٥ ؛ الحميرى : البديع فى وصف الربيع ص ١٦ – ١٧ ، ١١١ ، ١٣٣ – ١٣٤ ؛ ابن بسام : ذخيرة ، القسم الأول ١/٢ – ١٢ ابن سعيد : المغرب ١/١١٥ ، ١٢٥ رايات المبرزين ص ٤٨ من النص العربى و ١٩٢ من الترجمة الإسبانية ؛ المقرى : نفح الطيب ٤/١٦٦ ، ٥/١٦٨ ؛ وقد اختار ابن الكتانى الطبيب من شعره مجموعة كبيرة فى كتاب « التشبيهات » (انظر ص ٣٠٩ – ٣١٠) وانظر كذلك المقتبس لابن حيان ، نشر ملشور أنطونيا ، ص ٣٠ ، ٣٥ ، ٦١ – ٦٢ ، ١٠٥ (حيث ينقل عنه أخباراً ومنتخبات شعرية متعلقة بسعيد بن جودى والأمير عبد الله بن محمد وحديثا مفصلا عن الفتنة بين العرب والمولدين فى إقليم البيرة) . ومن الأبحاث الحديثة راجع بونس بويجس : الجغرافيون والمؤرخون الأندلسيون ص ١١٠ - ١١١ (حيث تحدث عنه بصفته مؤرخا) ؛ نيكل : الشعر الأندلسى ص ١٠٥ ، ٣٨٧ (حيث تحدث عنه بصفته شاعراً ووشاحا) ؛ وبحثنا عن « التشيع فى الأندلس » فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثانى ، سنة ١٩٥٤ ص ١٤١ – ١٤٢ .

هذا وينبغى ألا يخلط بين هذا الشاعر وشاعر آخـــر كثيرا ما يشتبه اسمه به وهو محمد بن عبادة القزاز الذى كان من شعراء الطوائف أيضا وممن أسهموا فى صناعة التوشيح ، وكان من شعراء المعتصم بن صمادح ملك المرية وهو متأخر قليلا عن ابن ماء السماء .

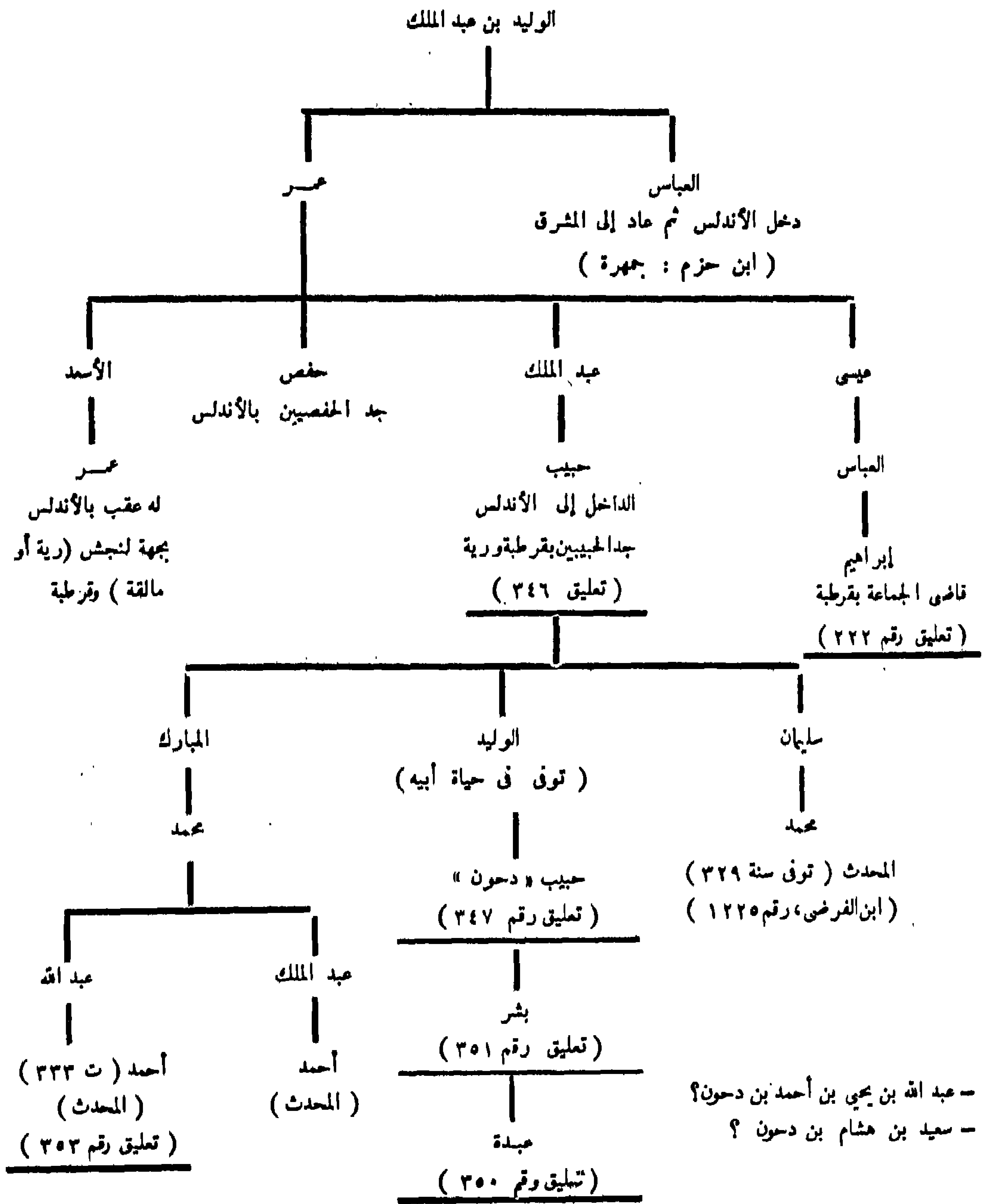
(٣٤٦) حبيب بن عبد الملك الداخل إلى الأندلس ، وبقية نسبه كما ذكر ابن حيان فى النص ، دخل الأندلس فى أيام عبد الرحمن بن معاوية الداخل فيمن دخل من فلول بنى أمية عند استقرار الأمر لعبد الرحمن . وكانت له من مجدد الدولة المروانية مكانة وحظوة ، فولاه عبد الرحمن طليطلة وأعمالها ، وروى له شعر يحرض فيه الداخل على أبى الصباح اليحصبى قائد اليمنية عند ثورته على عبد الرحمن . وكان ممن يشاورهم هذا الأمير ويشركهم فى مهام الحكم ، وتوفى فى أيامه أى قبل سنة ١٧٢ (٧٨٨) فحزن عليه حزنا شديداً . وحبيب هذا هو جد الحبيبين الذين كان لهم عدد وجاه وثروة فى قرطبة وريه

(مالقة) . انظر فى ترجمته ونسبه وأخباره ابن حزم جمهرة ، ص ٨٩ — ٩٠ ؛ ابن الأبار : حلة ٥٩/١ — ٦٠؛ ابن سعيد : المغرب ٦٢/١ .

(٣٤٧) أبو سليمان حبيب بن الوليد بن حبيب القرطبي المعروف بدحون ، حفيد المتقدم ذكره فى الحاشية السابقة. وقد نقل ابن الأبار ترجمته المذكورة هنا عن ابن حيان ، وأضاف إليها أنه توفى بعد سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥–٨١٦) بعدة فى قرية له من أعمال قبرة cabra (انظر التكملة ، رقم ٨٦ ؛ وكذلك المقرى : نفح ٢٥٨/٣ — ٢٥٩) . وقد ذكر ابن سعيد أن بنى دحون كانوا أعيان بلكونة porcuna (من أعمال قرطبة) وأنهم رأسوا بها (مغرب ٦٢/١) . وقد جمع المقرى فى النفح (الموضع الذى أسلفنا الإشارة إليه) كل ما كتبه المؤرخون السابقون عن دحون ، بما فيها معظم ما أورده ابن حيان عنه ، وترجم كذلك لابنه بشر ، وأورد قطعة من شعره .

وفضلا عمن سيشير إليهم ابن حيان من أفراد بيت دحون الحبيبى هذا فإننا نعرف منهم كذلك اثنين لم نستطع أن نحقق اتصال نسبهما به وإن كنا نعرف أنهما من نسله : أما الأول فهو أبو محمد عبد الله بن يحيى بن أحمد بن دحون الفقيه القرطبى الذى توفى سنة ٤٣١هـ (١٠٣٩) . (انظر ترجمته فى ابن بشكوال: صلة ، رقم ٥٨٩ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ٧٢٩ — ٧٣٠) ؛ وأما الثانى فهو سعيد بن هشام المعروف بابن دحون ، من أهل بلكونة موطن آبائه ، وكان أديبا عالمـا فقيها ، عاش فى أيام المرابطين ، وأخبر الحجارى أنه لمـا دخل بلكونة سأل عمن بها ممن يتسم بالأدب وقول الشعر فدل عليه فوجده فى قرية من قراها فى زى الفلاحين فتأنس به ، وروى بعض شعره ، ومنه قطعة فى مدح قاضى قرطبة أبى عبد الله بن حمدين (انظر المقرى : نفح ٢٥٩/٣ ؛ ابن سعيد : مغرب ٢٢٢/١ — ٢٢٣) .

وسنورد فيما يلى جدولا لأنساب من عثرنا على تراجمهم أو بعض أخبارهم من أبناء حبيب بن عبد الملك بى عمر بن الخليفة الوليد بن عبد الملك جد هذا البيت المعروف بالحبيبيين وقرابتهم واعتمدنا فيه على جمهرة الأنساب لابن حزم (ص ٨٩ — ٩٠) وكتب التراجم الأخرى ، وعلى دراسة الأستاذ إلياس تيريس سادابا التى أشرنا إليها من قبل عن الأنساب العربية فى الأندلس ص ١٤ :



الوليد بن عبد الملك
عمـــر
العباس
دخل الأندلس ثم عاد إلى المشرق
(ابن حزم : جمهرة)
الأسعد
حفص
جد الحفصيين بالأندلس
عبد الملك
عيسى
عمـــر
له عقب بالأندلس
بجهة لنجش (رية أو
مالقة) وقرطبة
حبيب
الداخل إلى الأندلس
جدالحبيبين بقرطبة ورية
(تعليق ٣٤٦)
العباس
إبراهيم
قاضى الجماعة بقرطبة
(تعليق رقم ٢٢٢)
المبارك
الوليد
(توفى فى حياة أبيه)
سليمان
محمد
حبيب « دحون »
(تعليق رقم ٣٤٧)
محمد
المحدث (توفى سنة ٣٢٩)
(ابن الفرضى، رقم ١٢٢٥)
عبد الله
عبد الملك
بشر
(تعليق رقم ٣٥١)
أحمد (ت ٣٣٣)
(المحدث)
(تعليق رقم ٣٥٣)
أحمد
(المحدث)
عبدة
(تعليق رقم ٣٥٠)
— عبد الله بن يحيى بن أحمد بن دحون؟
— سعيد بن هشام بن دحون ؟

(٣٤٨) ذكرنا فى حاشية هذا الموضع أن المقرى أثبت هذه الكلمة « الشامى » لا « الهشامى » كما جاء فى نص ابن حيان ، وقد آثرنا قراءة مؤرخنا وإن كنا لانعرف ما هية هذا « الوشى الهشامى » الذى كان يلبسه الشريف دحون حينما كان يتحلق فى المسجد الجامع بقرطبة لإسماع الحديث النبوى الشريف ، ولا إلى أى هشام ينسب هذا الوشى ، ومع ذلك فن الواضح أن ابن حيان يعنى نوعا فاخراً من اللباس ، وقد أكد صحة قراءتنا الوشى الهشامى لا الشامى كما ذكر المقرى بيتا للشاعر مؤمن بن سعيد من قصيدة قالها فى وصف منية كنتش التى تأنق فى بنائها الأمير محمد بن عبد الرحمن وما كان فيها من مبانى فخمة (وسترد القصيدة كلها فى المجلد الثانى من هذه القطعة من كتاب المقتبس) :

ولابســة وشــيا كأن رقيقة رقيق الهشامى العتيق المنضد

(وقد أورد ابن الكتانى قطعة من القصيدة المذكورة وفيها هذا البيت فى كتاب « التشبيهات من أشعار أهل الأندلس » بتحقيق الدكتور إحسان عباس ص ٦٦) ، وبيت مؤمن بن سعيد يؤكد ما ذكرنا من أن هذا « الهشامى » كان نوعا فاخراً من الثياب الموشاة يضرب المثل برقته وجودته .

(٣٤٩) أبو عبد الحميد إسحاق بن سلمة القينى من أهل رية (مالقة) مؤرخ عالم أخبارى ، سمع من القرشى الحبيبى (أحمد بن عبد الله بن محمد بن مبارك ، من سلالة حبيب بن عبد الملك الذى ترجمنا له من قبل ، انظر رقم ٣٤٦) والمحدث وهب بن مسرة الحجارى ، وكان حافظا لأخبار الأندلس معنيا بها ، وجمع كتابا فى أجزاء كثيرة فى أخبار رية وحصونها وحروبها وفقائها وشعرائها ، وأثنى ابن حزم كثيرا على هذا الكتاب فى رسالته فى فضل الأندلس ، ويقول ابن الفرضى إنه جمع كتابا فى أخبار الأندلس أمره بجمعه الحكم المستنصر ، ولسنا نعرف ما إذا كان هذا هو نفس الكتاب الذى يشير إليه ابن حزم أو هو شىء غيره . وأما نسبته « القينى » فإنها ترجع إلى بطن من بطون قضاعة ينتمون إلى القين وهو النعمان بن جسر القضاعى ، ونص ابن حزم على أن دار بنى قين بالأندلس رية (مالقة) فلهم بها عدد عظيم (جمهرة ص ٤٥٤) ؛ وانظر فى ترجمته ابن الفرضى ، رقم ٢٣٦ ؛ الحميدى ، رقم ٣٠٩ ؛ المقرى : نفح ١٦٦/٤ ؛ وانظر كذلك بونس بويجس : الجغرافيون والمؤرخون الأندلسيون ص ١٠٠ .

(٣٥٠) ترجم ابن الأبار لعبدة هذه فقال انها كانت تروى عن أبيها بشر بن دحون أشعاره وأخباره وذكر أنه نقل خبرها عن ابن حيان عن إسحاق القينى (فى الأصل المطبوع : القيشى ، وهو خطأ) . انظر التكملة ، بتحقيق ألاركون وبالنثيا رقم ٢٨٥٩ ؛ والمقرى : نفح ٢٦٠/٣ .

(٣٥١) ذكر ابن حزم بشر بن دحون هذا ، فقال إنه كان شاعراً (جمهرة ص ٩٠) ، وترجم له ابن سعيد وقال إن الأمير عبد الرحمن بن الحكم سجنه ، ثم تشفع فيه ، فأطلق سراحه ، ورحل بشر إلى المشرق وحج وروى الحديث ، وعاد إلى الأندلس فى صفة أخرى (المغرب ٦٢/١) ، ونقل ابن سعيد عن ابن الإمام صاحب سقط الجمان أن بشراً هذا كان من أهل الفروسية والأخلاق الملوكية والأدب ، ثم روى بعض شعره .

(٣٥٢) كان عمر بن فرج الرخجى عاملا للمعتصم ثم للمتوكل الخليفتين العباسيين على الشام (انظر ابن الأثير : كامل ٢٨٠/٥) .

(٣٥٣) أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن محمد بن مبارك بن حبيب بن عبد الملك المروانى المعروف بالحبيى القرطبى، محدث معروف سمع من بقى بن مخلد ومحمد بن وضاح وعبيد الله بن يحيى بن يحيى، وكان يميل إلى الأخبار والأدب، وتوفى سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ - ٩٤٥). انظر فى ترجمته ابن الفرضى، رقم ١٠٤؛ الحميدى، رقم ٢٢٠.

(٣٥٤) أغلب الظن أنه محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك، وجده هو القائد الأموى المشهور مسلمة بن عبد الملك ابن مروان الذى كان واليا على العراقين وأرمينية، وقد أشار ابن حزم فى الجمهرة إلى يزيد فيمن أشار إليهم من ولد مسلمة، ولكنه لم يذكر شيئا عن محمد المذكور (جمهرة ص ١٠٣).

(٣٥٥) ترجم ابن الأبار لعابدة المدينة هذه ترجمة اعتمد فيها على ما يذكره ابن حيان من هنا خبرها (انظر التكملة، بتحقيق ألاركون وبالنثيا، رقم ٢٨٥٠)، وقد نقل المقرى هذه الترجمة كما هى (نفح الطيب ١٣٦/٤).

(٣٥٦) أورد ابن حزم فى الجمهرة (ص ٩٠) اسم داود بين من ذكرهم من ولد سليمان بن عبد الملك بن مروان، ولكنه لم يشر إلى بكار بن عبد الواحد حفيده ولا إلى ابن أخيه مسلمة بن عبد الملك، على الرغم من أنه تحدث عن بعض من دخل الأندلس من ذرية سليمان بن عبد الملك، وربما كان السبب فى ذلك هو أن نسل هذين كان قد انقرض فى أيامه، وسوف ينص ابن حيان نفسه بعد ذلك عند الكلام عن سلمة بن عبدالواحد الداخل إلى الأندلس سنة ٢٣٦ هـ (٨٥٠ - ٨٥١) على أن عقبه قد انقرض فعلا فى أيامه.

(٣٥٧) الذى جاء فى جمهرة الأنساب لابن حزم (ص ١٠٤) يختلف بعض الشئ عما ورد هنا، فقد ذكر ابن حزم أنه دخل الأندلس ولد الأصبغ والوليد وهشام بنى محمد بن سعيد [الخير] بن عبد الملك بن مروان (ولم يحدد ابن حزم تاريخ دخولهم)، وكان الأصبغ المذكور على أخت عبد الرحمن بن معاوية الداخل وكان لولده رياسة بالأندلس، وكذلك كان لولد الوليد أخيه وهم المعروفون ببنى عائشة. وأما بنو هشام فسكنوا إشبيلية. ولابد أن ابن حزم يشير بكلامه هنا عن بنى هشام الذين استقروا بإشبيلية إلى أبناء الأصبغ بن محمد بن هشام الذى يذكر ابن حيان هنا أنه وفد إلى الأندلس على الأمير عبد الرحمن بن الحكم وكان جد هذا البطن الأموى المعروف ببنى السعيدى بإشبيلية.

(٣٥٨) لم نجد فيما بين أيدينا من المراجع ترجمة لطاهر بن حزم الشاعر المذكور، على أن ابن حيان سيورد فى ثنايا هذا الكتاب جملة من شعره تشهد بتقدمه فى هذا المضمار على عهد عبد الرحمن بن الحكم وابنه محمد. كذلك أورد ابن الكتانى الطبيب قطعة من شعر طاهر بن حزم فى كتاب « التشبيهات من أشعار أهل الأندلس » رقم ٢١٩، ص ١١٧. وللدكتور إحسان عباس فى تعليقاته على هذا الكتاب تحقيق طيب لاسم هذا الشاعر وشخصيته (انظر ص ٣٠٨)، وقد رجح الدكتور إحسان فيه أن يكون هو الذى سماه الزبيدى طاهراً دون أن يكمل اسمه ولا نسبه وقال إنه كان بصيرا بالنحو والشعر والعروض وكان يؤدب بنى هاشم وبنى حدير (طبقات النحويين واللغويين ص ٣١٧). وليس لنا اعتراض على هذا الفرض إلا كون الزبيدى قد جعل طاهراً المذكور فى آخر الطبقة الخامسة من نحاة الأندلس ولغوييها، ومعظم من ترجم لهم من هذه الطبقة

كانوا ممن أدركتهم الوفاة فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، بينما تدل القطع التى احتفظ لنا بها ابن حيان من شعر طاهر بن حزم على أنه كان مشهوراً بالشعر والأدب على عهد عبد الرحمن بن الحكم والأمير محمد أى خلال النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، وقد كان حق الزبيدى – لو أنه كان يعنى بترجمته طاهر بن حزم هذا – أن يجعله فى الطبقة الثانية أو الثالثة على الأكثر .

(٣٥٩) أبو محمد عبد الله بن بكر بعد سابق الكلاعى أو البكرى المعروف بالنذل ، لقب لقبه به قريبة مؤمن بن سعيد الشاعر فى بعض أهاجيه له . كان مؤدبا بالنحو عالما باللغة مبرزا فى الشعر ، وأدب أولاد الأمير عبدالرحمن بن الحكم ، ولسنا نعرف تاريخ وفاته ولو أن الأرجح هو أنه توفى فى أيام الأمير محمد . « انظر ترجمته وبعض شعره فى ابن سعيد : مغرب ١١٣/١ – ١١٤ » . ولابد أنه هو نفس الشاعر الذى ترجم له ابن الأبار فى التكلة (رقم ١٢٤٠) مسميا إياه عبد الله بن بكر الكلاعى القرطبى الذى « يعرف بالقملة بالعجمية » وقال إنه كان شاعراً محسنا مطبوعا ، رئى الفقيه يحيى بن يحيى (المتوفى سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨) ، وقرأ ابن الأبار ذلك بخط أبى عمر بن عبد البر ، ثم ذكر أن ابن الفرضى ترجمه له فى تاريخه (انظر رقم ٢٨٦) مسميا إياه بكر بن عبد الله الكلاعى القرطبى وقال : إنه سمع من يحيى بن يحيى وغيره وكان مؤدبا لأولاد الخلفاء فى النحو والشعر وإن ابنه محمد بن بكر روى عنه كثيراً ، وعلق ابن الأبار على ذلك بأنه وهم من ابن الفرضى . أما الزبيدى فقد وافق ابن الفرضى فى تسميته « بكر بن عبد الله الكلاعى » ولكنه أضاف إلى ذلك لقبه الوارد عند ابن الأبار : « ابن القملة » (طبقات ص ٢٨٨ ، ونقل السيوطى عنه هذه الترجمة فى البغية ص ٢٠٢) .

ويستوقف نظرنا هذا اللقب الذى كان ينبز به الشاعر ، وهو لقب نراه مرة بالعربية فى صورة « النذل » عند ابن حيان وابن سعيد ، ومرة أخرى فى صورة « القملة » بالعجمية لدى الزبيدى وابن الأبار . وقد حاول فرانسسكو سيمونيت فى مقدمة « معجمه » الكبير التى درس فيها مدى نفوذ اللغة العجمية (لطينية الأندلس أو اللاتينية الدارجة) وانتشارها بين الأندلسين المسلمين – حاول أن يفسر هذا اللفظ فقال إنه الصورة العربية للفظ **El camello** (ومعناه « الجمل ») . (انظر سيمونيت : « معجم الألفاظ الإيبيرية واللاتينية الشائعة بين المستعربين » ، ص ٢٢ من المقدمة :

Francisco Simonet : Glosario de Voces ibericas y latinas usadas entre los mozarabes Madrid, 1889, p. XXII.

وقبل خوليان ريبيرا هذا التفسير فى مقدمة دراسته عن الزجال ابن قزمان المدرجة فى كتابه « محاضرات ورسائل » :

Julian Ribera y tarragô : Disertaciones y opùsculos, Madrid, 1928, I, p. 30

على أن هذا التفسير يبدو لنا بعيداً عن الإقناع ، لا سيما وأنه لا سيمونيت ولا ريبيرا كانا يعرفان آنذاك نص ابن حيان ولا ابن سعيد الذى جاء فيه مقابل هذا النبز العربى ، وهو « النذل » ، إذ من الواضح أن هذا اللفظ ينبغى أن يكون الترجمة العربية للفظ « القملة » العجمى .

وقد أعدنا النظر فى هذه الكلمة فبدالنا فيها رأى نطرحه للمناقشة ، هو أن لفظ « القملة » محرف عن « القنلة » (بالنون لا بالميم) ، ويكون اللفظ حينئذ رسما لكلمة **canalla** باللاتينية الدارجة (المشتقة من **Can, canis** باللاتينية

الفصحى ومعناها الكلب) ، والترجمة الدقيقة للكلمة الدارجة هي « النذل » ومازالت حتى الآن تستخدم بهذا المعنى فى اللغة الإسبانية الحديثة فى صورة Canalla . وهكذا نرى أن لفظ « النذل » الذى يستخدمه ابن حيان وابن سعيد لقبا للشاعر ينطبق تماما على « القنلة » الذى نحسب أنه محرف إلى « القملة » فى كتابى الزبيدى وابن الأبار .

(٣٦٠) عن عيسى بن دينار انظر ما سبق لابن حيان أن كتبه عند ذكره فى وفيات سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ – ٨٢٨)، وانظر كذلك تعليقنا السابق رقم ٢٨٥ .

(٣٦١) راجع ما سبق أن قاله ابن حيان عن حارث هذا فى وفيات سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦) وتعليقنا عليه رقم ٢٩٧ . وقد سبق أن علقنا على اضطراب المترجمين له فى كنية أبيه بين « أبى سعد » و « أبى سعيد » . وأما فيما يتعلق بالشرطة الصغرى التى وليها فانظر حول هذه الخطة ما سبق أن كتبناه فى التعليق رقم ١٥١ .

(٣٦٢) عن يحيى بن يحيى الليثى انظر ما سبق أن كتبناه فى تعليقنا رقم ٣١٥ .

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع ١٠٢١٦ / ١٩٩٤
الترقيم الدولى ٠ - ٠٧٣ - ٢٠٥ - ٩٧٧ - I . S . B . N

طبع بمطابع مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

